المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي



تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب - بغداد

العدد ٢٩ - السنة الثانية عشرة

١٠٤٦ هـ - ١٩٨٦ م

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب - بغداد

العدد ٢٩ - السنة الثانية عشرة

١٠٤٦ هـ - ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحیم

ترسل البحوث باسم مدير التحرير

ص.ب : (٤٠٨٥) بغداد ـ الجمهورية العراقية
مجلة المؤرخ العربي ـ اتحاد المؤرخين العرب
ت : (٤٤٤٨٠٠٦)

الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي

١ . الدوائر الرسمية وشبه الرسمية في داخل العراق (٥٠ دينارا، وفي خارج العراق (١٥٠) دولاراً امريكياً .

٢ . للمؤرخين في داخل العراق (٢٠) دينارا، وفي خارج العراق (٦٠) دولارا امريكيا .

٣ . لطلبة التاريخ في داخل العراق (١٠) دينارات، وفي خارج العراق (٣٠) دولارا امريكيا .

شروط نشر البحوث في المجلة

١ . ان يعتمد البحث الاسس العلمية في اعداد وكتابة البحوث .

٢ . ان يكون منسجما مع اهدافه اتحاد المؤرخين العرب .

٣ . ان لا يزيد عدد صفحاته عن (٥٠) صفحة .

٤ . ان لا يكون قد سبق نشره او قبل للنشر في مجلة اخرى، على ان يقدم كاتب البحث تعهدا يؤكد ذلك مرفقا برسالة مع البحث موجهة الى مدير التحرير.

٥ . تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والانجليزية .

٦ . يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل ان يكون مختصرا، ويثبت اسم الباحث او اسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم .

٧ . يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم بنسختين .

٨ . بالنسبة للبحوث المقدمة الى المؤتمرات او الندوات او كان مستلا من رسالة او اشرف عليها مقدم البحث يؤشر ذلك في حاشية البحث .

٩ . لامور فنية خاصة بالطباعة يجب ان توحد الهوامش الخاصة بالبحث من أول هامش في البحث الى آخر هامش فيه، وتعطي تسلسلا واحدا .

١٠ . يحال البحث المقدم للنشر الى خبير مختص، ويعاد الى كاتبه لاجراء التعديلات المقترحة ان وجدت على ان يعاد الى مدير التحرير في غضون خمسة أيام .

١١ . رتبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبر عن اراء اصحابها مع التأكيد على ان مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى، والبحوث التي ترد للمجلة لا تسترجع الى اصحابها في حالة عدم نشرها .

١٢ . يرجى تدوين اسم الباحث وعنوانه، وعنوان بحثه باللغة الانكليزية .

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

المقـــدمة

يسعدنا ان نصدر العدد (٢٩) من مجلة المؤرخ العربي، ونود أنْ نؤكد بهذه المناسبة لكافة المؤرخين العرب بأن الأمة العربية هي أمة السيف والقلم والعطاء والابداع المتميز على مر عصورها وأزمانها، وإذا ما تتعرض الأمة في حياتها لمحنة ما في أي بقعة من جسدها الكبير، فان تلك المحنة، ما هي إلا كبوة طارئة، ولكل جواد كبوة. والمؤرخ أقدر على تقدير تلك الكبوة، ومعرفة ظروفها وملابساتها، وهو من أقدر الناس لتجاوزها، لأنها ليست نهاية للأمة بقدر ما هي وقفة للأمة كي تعيد النظر في واقعها وحالتها لاستنباط حالة أفضل من الواقع الذي تعيشه، لخلق واقع متميز مبدع ورائع. وأنتم أيها المؤرخون العرب من أبرع الناس وأقدرهم على تشخيص هذه الحالة وتجاوز ظروفها وملابساتها، ولذلك نهيب بكم أيها الرجال للعمل الجاد والمخلص لاستخدام التاريخ كسلاح فاعل في وجه الصعوبات التي تنتاب مسيرة العمل العربي، وللتذكير بأمجاد هذه الأمة وقيمها ومبادئها، فإن التذكير بروح المجد هو أقدر الحالات وأبرعها لتجاوز الكبوات التي تنتاب جسد الأمة، ولهذا ندعوكم أيها المؤرخون العرب، أن تستلهموا روح هذا التاريخ وروح الرجال الذين صنعوا هذا التاريخ بأرواحهم وقيمهم ومبادئهم، وإن هذا الاستلهام يتجسد تجسيدا حيا في إعادة كتابة التاريخ العربي وفق المنطلق الروحي الذي خلق به، ووفق جوهره الحق الذي خلفه لنا الأجداد العظام، وكلنا أمل في مساهماتكم الفاعلة وفي رفد هذه المجلة بمقالاتكم وبحوثكم المعبرة عن الشموخ العربي والعزة والكرامة العربية.

وإلى عدد آخر من أعداد المجلة العامرة بأبوابها ومحتوياتها، ونأمل أن تكونوا أنتم عمارها.. فالتأريخ هو الراية الشامخة التي تتباهى بها الأمة العربية على مر تاريخها..

الأستاذ
الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

محتويات العدد (٢٩)

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

بحوث التاريخ العربي الاسلامي

بحوث التاريخ القديم والآثار

سيرة مؤرخ

ندوة العدد

اشترك في الندوة:

د. عبدالله سلوم السامرائي	د. محمود علي الدود
د. وميض جمال عمر نظمي	د. نوري السامرائي
د. صـالح العـابد	د. صـادق الحـلو

عـرض الكتب ونقـدها

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

الاحتلال البرتغالي لموانىء الجزيرة العربية

د . عبدالعزيز محمد عوض
كلية الآداب / جامعة اليرموك

« وقع الغزو البرتغالي على موانىء الجزيرة العربية - قريات ومسقط ومطرح وصحار وخورفكان - في عام ١٥٠٧ في عهد الامام بركات بن محمد بن اسماعيل (١٥٠٠ - ١٥٣٥) ومنذ البداية نفذ البرتغاليون خطتهم التي استهدفت اغلاق الخليج العربي والبحر الاحمر وعزلهما عن التجارة الدولية فمنعوا السفن العربية من الملاحة في المياه الشرقية الا بتصريح منهم، واحتكروا التجارة ومصادر الثروة في الموانىء العربية التي خضعت لسيطرتهم تمشيا مع سياستهم في استغلال واحتكار الثروات الشرقية ، والتحكم في نقلها وفي أسعارها بالاضافة الى تحقيق أهدافهم الدينية والسياسية والتي تميزت بها مؤسساتهم الحاكمة في لشبونة مستغلة تشتت القوى المحلية العربية والاسلامية في سواحل الجزيرة العربية والهند وانصرافها لعدة قرون عن تأمين القوة البحرية الكافية لحماية واستمرار تجارتها مصدر ثروتها ورخائها .

ولكن بداية القرن السابع عشر شهدت تغييرات جذرية في مجالات الصراع الاوروبي على التجارة الشرقية، ولا سيما بعد ان تمكن الهولنديون والانكليز من الوصول الى المياه الشرقية عبر رأس الرجاء الصالح. وعندئذ اخفقت البرتغال في الاستمرار بالاحتفاظ بالسيادة البحرية التي طالما ادعتها خلال القرن السادس عشر في المحيط الهندي والخليج العربي وحصلت بواسطتها على أكبر قدر ممكن من الأرباح بالاضافة الى ان الاشراف على كامل تجارة المحيط الهندي مهمة تفوق القدرات البرتغالية ذات الموارد المحدودة» .

أدرك البرتغاليون أهمية الاستيلاء على موانىء الجزيرة العربية في سعيهم لوقف حركة الملاحة والتجارة العربية بين الشرق والغرب باغلاق منافذ التجارة التي يستخدمها العرب والمسلمون في البحر الاحمر والخليج العربي[١]. ولذلك أرسل ملك البرتغال حملة بحرية في عام ١٥٠٦ بقيادة تريستان دي كونها يساعده الفونسو دي البوكيرك للبحث عن السفن الاسلامية واحراقها بعد مصادرة بضائعها، واقامة قلعة في جزيرة سقطرة لفرض الحصار على مدخل البحر الأحمر .

واستولت الحملة البرتغالية على جزيرة سقطرة عنوة وقتلت حامية قلعتها بعد ان رفض حاكمها السلطان ابراهيم تسليمها لهم. وأطلق تريستان دي كونها اسم القديس توماس عليها وعيّن قريبه الفونسو دي نورونها حاكما على الجزيرة [٢]، وترك معه حامية برتغالية وعدة مدافع، لتكون

قاعدة بحرية تتحكم في تجارة البحر الأحمر. أما الفونسو دي البوكيرك فتوجه نحو خليج عمان بعد ان وجد ان ليس في استطاعته بأسطوله الصغير الاستيلاء على عدن، فوصل جزيرة مصيرة في أواخر اغسطس ١٥٠٧ ثم أبحر الى رأس الحد حيث أشعل النار في السفن العربية التي وجدها راسية فيه ثم أحرق ميناء مسقط وأخذ عددا من الرجال والنساء أسرى، وبعد ان جدع أنوفهم وصلم آذانهم أطلق سراحهم[٣]. وكانت مسقط قبل الغزو البرتغالي مدينة تجارية مزدهرة. ثم استسلمت صحار دون مقاومة خوفا من أن تلقى مصير مسقط، وبذلك أصبحت قلهات ومسقط وصحار وصور وقريات محطات برتغالية، وباحتلال البرتغاليين لها وتشييد الحصون القوية فيها، سيطروا لأكثر من قرن على منطقة الخليج العربي واحتكروا التجارة فيها ومنعوا السفن العربية من الملاحة والتجارة دون تصريح منهم[٤].

ولما كانت مملكة هرمز تسيطر على معظم الساحل العربي، فقد استعد ملكها لحرب الفونسو دي البوكيرك الذي أحرق الموانيء العربية التابعة له، ولكن ملك هرمز خسر المعركة واضطر لاعلان خضوعه لملك البرتغال وتعهد بإعفاء البضائع البرتغالية من الرسوم الجمركية. ونجت هرمز مؤقتا من الدمار الذي لحق بموانئها العربية، وربما يعود ذلك الى تمرد ضباط الاسطول البرتغالي الذين رغبوا في الحصول على الثروة بدلا من القيام بمغامرات بحرية ليس فيها جدوى ولا تعود بمنفعة عليهم. مما اضطر البوكيرك الى التوجه الى الهند حيث اختلف مع نائب الملك البرتغالي فيها ـ فرنسيسكو دا الميدا (١٥٠٥ ـ ١٥٠٩) ورفع الخلاف الى ملك البرتغال في لشبونة لتسويته[٥]، واخذ الملك بوجهة نظر البوكيرك وعينه نائبا له في الهند (١٥٠٩ ـ ١٥١٥).

وبعد أن أصبح البوكيرك نائبا لملك البرتغال انشغل في نقل المركز الرئيسي للبرتغاليين الى جوا وفي تنظيم القرصنة البرتغالية ضد السفن العربية والاسلامية، وفي التحالف مع الحكام الهندوس ضد الأمراء المسلمين في الهند وفي الاعداد للحملة البحرية على مالقا لمنع التجار العرب من الوصول الى موانيء الشرق الاقصى، وكان البوكيرك يرى امكانية قيام امبراطورية برتغالية في الشرق بتأسيس عدد من القلاع الحصينة في عدن وهرمز ومالقا وغيرها واقامة سلسلة من الوكالات التجارية والقلاع الحربية على ساحل الجزيرة العربية والساحل الهندي لارغام الحكام المحليين على الاعتراف بالتبعية لملك البرتغال، ولذلك رغب في السيطرة على مالقا عند مدخل المحيط الهادي وعدن عند مدخل البحر الأحمر وهرمز عند مدخل الخليج العربي باعتبار هذه المضائق المفاتيح الرئيسية للسيطرة على التجارة الشرقية، وكانت هرمز ـ من وجهة نظر البوكيرك ـ اهمها.

ولتنفيذ المخطط السابق، قرر البوكيرك العودة الى العمل العسكري في منطقة الخليج العربي، فأبحر في فبراير ١٥١٥ من جوا على رأس اسطول من أربع عشرة سفينة شراعية أقلت حوالي الف وخمسمائة جندي برتغالي وستمائة مالباري وثلاثمائة من العبيد، فوصل قريات في ٢٥ مارس ١٥١٥[٦]، وتمكن في ابريل ١٥١٥ من اخضاع مملكة هرمز للحكم البرتغالي المباشر، وعيّن ابن اخيه بيرو قائدا لميناء جزيرة هرمز في ٢٠ أكتوبر ١٥١٥.

ثم أدرك البوكيرك أهمية عدن التي تتحكم في مدخل البحر الأحمر وقدر ان الاستيلاء عليها يمكنه من تأمين طريق رأس الرجاء الصالح من ناحية وغزو الاماكن الاسلامية المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة من ناحية اخرى، ولما أخفق البوكيرك في الاستيلاء على عدن[٧]، انتقم من السفن العربية في مينائها فاستولى على بعضها واحرق الاخر بعد ان قصف المدينة بمدافع الاسطول، ولذلك لم يتمكن البرتغاليون من خنق التجارة العربية تماما حيث ظلت السفن العربية تتسلل على نطاق واسع لبعض الوقت للمشاركة في تجارة الهند التي اخذت البرتغال في احتكارها.

وفي طريق العودة الى جوا توفى البوكيرك في ديسمبر ١٥١٥ بعد ان اخضع مملكة هرمز والموانىء التابعة لها - قلهات ومسقط وصحار وصور وخورفكان وقريات - والتي أقام البرتغاليون فيها محطات للوكلاء والتجار الذين تمتعوا بحمايتهم بواسطة الزيارات الدورية للسفن البرتغالية وهي في طريقها من الهند الى هرمز والبحرين[٨]. وفي فترة لاحقة عينوا عليها حكاما منهم الى جانب الحكام المحليين الذين عينهم ملوك هرمز[٩]. وعندما اصبح لوبو سواريز نائبا لملك البرتغال في الهند بعد وفاة البوكيرك توغل الاسطول البرتغالي في البحر الأحمر باحثا عن الاسطول المملوكي حتى وصل جدة ولكنه فشل في الاستيلاء عليها، فأحرق ميناء زيلع ونهب قمران وفشل مرة اخرى في الاستيلاء على عدن. وفي طريق العودة الى جوا حطمته العواصف في المحيط الهندي .

وهكذا نجت الموانىء العربية في البحر الأحمر من الخطر البرتغالي الى حين. غير ان البرتغاليين فرضوا حصارا شديدا لمنع السفن القادمة من الهند من الوصول الى الموانىء العربية في البحر الأحمر وبخاصة موانىء جدة وسواكن والسويس، وشنت السلطات البرتغالية في جوا وهرمز حربا عنيفة لا هوادة فيها ضد التجارة العربية وعملت على تحول التجار الاجانب عن موانىء مصر وبلاد الشام الى اسواق لشبونة[١٠]، ولكن الحصار البرتغالي لم يكن محكما، مما مكن التجار العرب من الافلات منه، وجلب كميات متواضعة من البضائع بواسطة سفنهم الخفيفة الى البصرة ومنها الى بغداد وحلب او الى السويس ومنها الى القاهرة والاسكندرية ولكنها لم تكن كافية لبعث الازدهار الاقتصادي السابق في الموانىء والمراكز التجارية العربية، مما أدى الى تدهور الاوضاع الاقتصادية في موانىء الجزيرة العربية ومصر والشام بعد فشل الملاحة العربية في تهريب كميات كبيرة من التوابل والبضائع الشرقية من خلال الحصار الذي فرضه البرتغاليون على مدخلي الخليج العربي والبحر الأحمر .

المقاومة العربية للاحتلال البرتغالى

بدأت المقاومة العربية للاحتلال البرتغالى منذ وصول الفونسو دى البوكيرك الى ميناء قريات فى عام ١٥٠٧ ونهبه واحراقه بعد مقاومة عنيفة من السكان لقوات الغزو البرتغالى . ومن قريات توجه الاسطول البرتغالى الى مسقط حيث دمرها على الرغم من مناعة مينائها وقوة قلعتها[١١] . ومن مسقط أقلع الاسطول البرتغالى الى صحار حيث أرغمها على دفع الجزية لملك البرتغال على الرغم من قوة حاميتها[١٢] ومنها مضى الاسطول البرتغالى الى خورفكان وبعد أن أمر البوكيرك بحرقها صلم جنوده آذان سكانها الأسرى وجدعوا أنوفهم .

وهكذا الحق البوكيرك بالموانىء العربية اضرارا فادحة ، وشهد الساحل العمانى بخاصة عنف وقسوة الاساليب البرتغالية ، وتميز الغزو البرتغالى منذ البداية بالوحشية والاستبداد ، مما أدى الى زيادة نفور السكان فى الموانىء العربية التى خضعت للاحتلال البرتغالى . كما أدى تعيين موظفين برتغاليين فى جمارك هرمز والبحرين وصحار وقريات الى اثارة سخط السكان وبالتالى الى اغراء ملك هرمز فى عام ١٥١٩ بتنظيم ثورة شاملة للتخلص من الاحتلال والاحتكار البرتغالى لتجارة الافاوية والتوابل ومنع السفن العربية من الملاحة فى المياه الشرقية ، ونجح ملك هرمز فى مفاجأة المواقع والمراكز البرتغالية فى مملكته والحق بها خسائر فادحة ، ثم حدثت ثورة فى البحرين فى عام ١٥٢١ وتجددت الثورة فى قلهات ومسقط فى عام ١٥٢٦ ولكن البرتغاليين قضوا على تلك الثورات واستعادوا الحكم المباشر فى منطقة الخليج العربى .

ومهما يكن من أمر فقد سيطر البرتغاليون عمليا على الملاحة العربية والتجارة الشرقية وتحكموا فى اسواقها واحتفظوا بتفوقهم الاقتصادى بتأسيس المراكز التجارية والقواعد العسكرية كمحطات للتموين والحراسة فى الموانىء التى وصلوا اليها لتأمين رسو سفنهم وتحصيل الرسوم والضرائب وتأمين تصدير البضائع ،

وتسخير السكان المحليين فى خدمة مصالحهم الاقتصادية(١٣)، وتشديد قبضتهم العسكرية على المحطات التجارية بتشييد الحصون والقلاع واقامة الحاميات العسكرية فيها كما حدث فى صحار وقلهات ومسقط(١٤) وغيرها من موانىء الجزيرة العربية التى نكبت بالاحتلال البرتغالى ردحا طويلا من الزمن .

ولكن قبضة البرتغال العسكرية أخذت فى التراخى خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر ، ولا سيما بعد خضوع البرتغال للحكم الأسبانى فى عام ١٥٨٠ وفساد أساليب الحكم البرتغالى فى الشرق ونقص الامدادات والتجهيزات والنجدات العسكرية الى الحاميات البرتغالية(١٥) ، فنجح عرب عمان فى طرد القوات البرتغالية من صحار فى عام ١٦١٦ ومن جلفار « رأس الخيمة » فى عام ١٦٢٠ ، وتدريجا عاد العرب الى رحلاتهم التجارية فى المياه الشرقية ، وبخاصة بعد استيلاء القوات الصفوية - الانكليزية المشتركة على هرمز في عام ١٦٢٢، مما زاد في تشبث البرتغاليين بالساحل العمانى فاتخذوا من مسقط مركزا رئيسيا وبديلا عن هرمز فى منطقة الخليج العربى .

ولم يمض وقت طويل على طرد البرتغاليين من هرمز حتى بايع عرب عمان ناصر بن مرشد اليعربى اماما عليهم فى عام ١٦٢٤ ، فكان أول امام لدولة اليعاربة فى عمان (١٦٢٤ - ١٧٥٣) . وكرس الامام ناصر بن مرشد (١٦٢٤ - ١٦٤٩) جهوده لتحرير الساحل العمانى من الاحتلال البرتغالى ولا سيما بعد أن فرغ من توحيد القبائل العمانية فى الداخل فأنزل بالبرتغاليين هزائم متلاحقة وطردهم من معظم الساحل العمانى ، وفرض حصارا محكما على الحامية البرتغالية فى مسقط فى اغسطس ١٦٤٨ ، وأرغمها على طلب الصلح وفرض شروطه عليها فى ٣١ اكتوبر ١٦٤٨ والتى نصت على ما يلى :(١٦) :

- يتعهد البرتغاليون بدفع الجزية بانتظام لامام عمان .
- يمتنع البرتغاليون عن القيام بأعمال عدائية ضد رعايا وممتلكات الامام .
- ضمان حرية التجارة لرعايا الامام واعفائهم من الضرائب ورسوم الجمارك .
- حرية السفن العربية فى الملاحة والتجارة وعدم خضوعها للتفتيش فى مقابل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية فى طريق عودتها .

ولكن ملك البرتغال رفض الشروط السابقة ، واعتبرها اهانة لشرف بلاده ، وأمر باعلان الحرب ضد العرب فى عمان . ورد الامام سلطان بن سيف (١٦٤٩ - ١٦٦٨) باعلان الجهاد لطرد البرتغاليين من مسقط بخاصة ومن منطقة الخليج العربى والمحيط الهندى بعامة ، ونجح فى ٢٣ يناير ١٦٥٠ فى ارغام الحامية البرتغالية فى مسقط على الاستسلام بدون شروط(١٧) . فأسدل بذلك الستار على الغزو البرتغالى للساحل العمانى الذى بدأه البوكيرك فى عام ١٥٠٧ بعد احتلال دام نحو قرن ونصف ، شهدت خلاله الموانىء العربية اعنف أساليب القسوة والارهاب لاخضاع العرب بالقوة المسلحة للسيطرة البرتغالية الطاغية ، وتسخيرهم لتحقيق اطماعها الاقتصادية والدينية من بناء للمحطات التجارية والقلاع العسكرية والكنائس فى موانىء هرمز ومسقط والبحرين وغيرها .

وأعقب تحرير الساحل العمانى من البرتغاليين هجرة القبائل العربية من الداخل نحو الساحل لاستئناف نشاطها القديم فى الملاحة والتجارة والغوص ، كما الهب النصر الذى حققه الامام سلطان بن سيف على البرتغاليين فى مسقط حماسة العرب فى الموانىء الأخرى ، فنشطوا فى مهاجمة الحاميات البرتغالية المجاورة لهم ، وتمكنوا من اغلاق بعض موانئهم فى وجه السفن البرتغالية حتى أصبحوا قوة بحرية ذات شأن فهددوا المصالح البرتغالية فى المياه الشرقية(١٨) .

وشرع الامام سلطان بن سيف فى بناء الاسطول العربى فوضع بذلك أساس البحرية العربية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر

وفى عهـد ولده سيف بن سلطان (١٦٨٨ ـ ١٧١١) أصبحت عمان قوة بحرية مهمـة حيث استفاد من عودة الهـدوء والاستقرار الى بـلاده ومن طموح القبائل العمانيـة ونزعتهـا الحربيـة فبلغت عمان فى عهده أوج قوتها وازدهارها ومضى فى جهاده ضد البرتغاليـين حتى شملت حملاتـه البحرية معظم مراكزهم[١٩] وامتدت غزواته الى ديـو وكجرات وبـارسالور ومـانجـالور[٢٠] عـلى الساحل الهندى ، وأخذ منهم ممباسة وكلوة وبات وغيـرهـا من المـوانىء السـاحليـة فى شـرق افريقية ،[٢١] ، فهدد بذلك مواصلاتهم البحرية فى المحيط الهندى وارغمهم على خوض غمار صراع يـائس فى منطقـة الخليج العـربى عندمـا الحق بقاعدتهم البحرية فى كونغ خسائر جسيمة فى عام ١٦٩٥ .

ويقضى الانصـاف أن نـذكـر وقـوف الدولة العثمانية الى جانب القوى العـربية فى صـراعها ضد الاحتلال البرتغالى ولاعادة النشاط التجارى الى الموانىء العربية ، فقد ادرك السلطان سليمان القـانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) فـداحة الاضـرار النـاجمة عن ابعـاد العرب عن أسـواق التجارة الشرقية ، ولا سيما بعد أن امتد النفوذ البرتغالى شمالا حتى وصل البصرة فى عام ١٥٢٩ فى عهد حاكمها راشد بن مغامس حيث احرق الاسطول البرتغالى بعض الامـاكن المجاورة للبصـرة قبل عودته الى هرمز [٢٢] .

وكان البرتغاليون قد فقدوا بعض نفوذهم فى شمـال الخليج العـربى عندمـا أرسـل شيـوخ البحـرين والقطيف والحسـا والبصرة مبعـوثين منهم الى بغداد فى عام ١٥٤٣ للترحيب بالسلطان سليمان القـانـونى ، مما أدى الى صـراع مريـر وطويل بين الجانبين العثمانى والبرتغالى فى البحر الأحمـر والخليج العـربى والمحيـط الهنـدى فى النصف الثـانى من القرن السـادس عشر . وفى بداية الصراع تم الاتفاق بين السلطان سليمان القانونى وحاكمى قاليقوط وكمباى اللذين تضررت مصالحهما بالغزو البرتغالى للقيام بعمل عسكرى مؤثر وفعال ضد العدو المشترك .

وبنـاء على الاتفـاق السابق غـادر والى مصر العثمانى سليمان باشا الخادم ميناء السويس فى يـونية ١٥٣٨ عـلى رأس اسطول عثمـانى كبـير قاصدا القاعدة البرتغالية فى ديو ، وبعد أن توقف الاسطول العثمانى فى ميناء جدة توجه الى عدن وفى طريقه اليها استولى على المنـاطق الساحليـة العربية المطلة على البحر الأحمر ثم استولى على عدن[٢٣] فى يولية ١٥٣٨ بعد أن فتك بحاكمهـا عامر بن داود غـدرا بعد اعتقـاله بالحيلة[٢٤] . فقضى بذلك على الاسرة الطاهريـة الشافعيـة فى اليمن ، وعين اياس باشا واليا عثمانيا عليها وعهد اليـه اخضـاع الامـام الزيدى فى صنعـاء للحكم العثمانى المباشر .

واتخذ سليمان باشا الخادم من عدن وموانىء اليمن الأخرى قواعد بحـريـة لمهاجمـة المحطات والمراكز البرتغالية فى موانىء الجـزيرة العـربية والساحل الهندى ، ولكن حكام الموانىء الهندية امتنعـوا عن تقديم المسـاعدة العسكـريـة له فى صراعه ضد البرتغاليين ، لما اشتهر عنه من الغدر والقسوة فى موانىء اليمن بعامة وفى مينـاء عدن بخاصة، مما اضطره لرفع الحصار عن القاعدة البرتغالية فى ديو والعودة بأسطوله الى عدن حيث أبقى فيها قوة عثمانية ضمت خمسمائة جنـدى وخمس سفن حربية[٢٥] ثم عاد مع بقية اسطوله الى السويس ومعه بعض الأسرى البرتغاليين .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت حملة سليمان باشا الخـادم لتحدى السيطرة البرتغالية فى المياه الشرقية محاولة عثمانية جريئة وطموح على الرغم من فشلها فى طرد البرتغاليين من ديو ، وقام سكان عـدن بتسليم مـدينتهم للبـرتغـاليـين نكـايـة بالعثمانيين ، لسوء صنيع سليمان باشا الخادم بهم وبحـاكمهم عـامـر بن داود ، واستـغـل البـرتغاليـون الفرصـة لمهاجمـة بعض الموانىء العربية فى البحر الأحمر حيث أحـرقوا سـواكن وحـاولوا احـراق جـدة[٢٦] . ولكن الاسـطول العثمانى دحرهم فى معركة مصوع البحرية فى عام ١٥٤٠ ، ورد البـرتغاليـون فى العام التـالى على هزيمة مصوع بغارة بحرية جريئة على القاعـدة

العثمانية فى السويس .

وبعد خضوع ولاية البصرة للحكم العثمانى المباشر فى عام ١٥٤٦ م حرصت الدولة العثمانية على توطيد نفوذها فى منطقة الحسا والقطيف ،وكان سكان القطيف قد تمردوا على الحاكم الهرمزى بمساعدة من شيخ الحسا ، وتمكنوا من طرده من مدينتهم وطلبوا المساعدة العسكرية من السلطات العثمانية فى البصرة ، فأرسل السلطان سليمان القانونى أسطوله من ميناء السويس الى مياه الخليج العربى حيث هاجم ظفار ومسقط ، واحتل ميناء القطيف فى عام ١٥٥٠ واقام فى حصنها حامية عثمانية ، مما أثار فزع السلطات البرتغالية التى اسجابت لطلب ملك هرمز باستعادة القطيف لحكمه مرة أخرى[٢٧] . ونجحت الحملة البحرية البرتغالية التى ارسلتها السلطات البرتغالية فى جوا فى ارغام الحامية العثمانية فى القطيف على الاستسلام ودمرت حصنها[٢٨] فى عام ١٥٥٠ .

وردت الدولة العثمانية على سقوط حصن القطيف فى قبضة البرتغاليين فأرسلت حملة بحرية من السويس فى ابريل ١٥٥٢ بقيادة بيرى رئيس ، نجحت فى احتلال مسقط واسرت حاميتها البرتغالية ونهبت المدينة ورفعت العلم العثمانى على قلعتها ، ثم قصد بيرى رئيس مدينة هرمز واستولى عليها ، ولكن الحامية البرتغالية فى قلعتها قاومت الحصار المفروض عليها لمدة عشرين يوما ، فاضطر بيرى رئيس الى رفعه خوفا من وصول نجدات برتغالية من جوا ، وتوجه الى جزيرة قشم وبعد نهبها غادرها محملا بالغنائم الوفيرة نحو البصرة فى نهاية نوفمبر ١٥٥٢ . وبعد اقامة قصيرة فيها عاد الى السويس فى ثلاث سفن كبيرة ومعه الغنائم والاسرى [٢٩] تاركا معظم اسطوله فى ميناء البصرة ، وفى الطريق الى السويس غرقت احدى سفنه بعد أن تحطمت على صخور البحرين المرجانية . وعندما وصل الى السويس استدعاه السلطان سليمان القانونى الى استنبول حيث وجهت اليه تهمة الخيانة العظمى فصدر أمر السلطان باعدامه ومصادرة أمواله .

ثم عهد السلطان سليمان القانونى فى عام ١٥٥٣ الى مراد رئيس حاكم القطيف السابق بقيادة الاسطول العثمانى فى البصرة ، وكلفه باعادته الى السويس مع ابقاء قسم منه فى البصرة للدفاع عنها[٣٠] ولكن الاسطول البرتغالي كان له بالمرصاد فحال بذلك دون نجاح مهمة مراد رئيس الذى اضطر للعودة الى استانبول برا بعد أن خسر عددا من سفنه في معركة[٣١] بحرية مع الاسطول البرتغالى الى الشمال من مسقط فى اغسطس ١٥٥٣ .

وأخيرا عهد السلطان سليمان القانونى بمهمة اعادة الاسطول العثمانى من البصرة الى السويس الى سيدى على رئيس افضل قباطنة البحر العثمانيين خبرة في عصره[٣٢] . فوصل البصرة فى فبراير ١٥٥٤ وبعد أن قضى فيها خمسة أشهر أمضاها فى تجهيز الاسطول واعداده ، اقلع فى ٢ يولية ١٥٥٤ بأسطوله الذى ضم خمس عشرة سفينة من البصرة قاصدا موانىء الساحل الشرقى فى الخليج العربى ومنها توجه الى القطيف ثم البحرين[٣٣] للتمويه على الاسطول البرتغالى . ويبدو أنه علم اثناء وجوده فى البحرين بوجود أربع سفن برتغالية فى مسقط . ولذلك قصد جزيرة قيس « هرمز القديمة » وجلفار « رأس الخيمة » لعله يحصل على معلومات افضل عن تحركات الاسطول البرتغالى .

ولما وثق سيدى على رئيس من طلائع اسطوله بخلو الخليج العربى من السفن البرتغالية ، تحرك بأسطوله باتجاه هرمز ، ولكنه التقى فجأة بالاسطول البرتغالى الذى ضم خمسا وعشرين سفينة وقطعة حربية بالقرب من خورفكان . وجرت معركة عنيفة بين الاسطولين العثمانى والبرتغالى فى ٩ اغسطس ١٥٥٤ اعتبرها سيدى على رئيس فى صالحه[٣٤] حيث انسحب الاسطول البرتغالى ليلا الى هرمز ، بينما تابع الاسطول العثمانى سيره نحو مسقط وقلهات ، ولكنه فوجىء مرة أخرى فى ٢٥ اغسطس ١٥٥٤ بالاسطول البرتغالى بعد اعادة تجهيزه وزيادة عدده ، ووقعت معركة قصيرة انتهت باستسلام

ست من سفن الاسطول العثمانى وعندئذ ركن سيدى على رئيس للفرار لينجو ببقية اسطوله ، ولكن عاصفة قوية جرفته الى عرض الخليج ثم القت به على ساحل مكران(٣٥) .

وبعد أن تزود الاسطول العثمانى بالماء العذب قصد موانىء اليمن ولكن الرياح الشديدة قذفت به مرة أخرى الى ساحل الهند الغربى فوصل كجرات ، واثناء اقامته فيها تفرق عنه رجاله ، ودخل بعضهم فى خدمة امراء الهند ، بينما عاد أكثرهم الى بلادهم برا . وبعد أن باع سيدى على رئيس سفنه الست الباقية ومدافعه وذخائره الى حاكم سورات الهندى(٣٦) عاد برا الى الاستانة عن طريق بغداد فوصلها فى مايو ١٥٥٧ بعد ثلاث سنوات من بداية رحلة العودة الى السويس .

ومهما يكن من أمر فان هزيمة الاسطول العثمانى كانت ضربة قوية ومؤثرة على البحرية العثمانية ، لم تستطع بعدها التصدى للبحرية البرتغالية فى منطقة الخليج العربى على الرغم من توطيد نفوذها على نحو افضل من ذى قبل فى منطقة الحسا ، فقد نجح البرتغاليون فى اغلاق مضيق هرمز فى وجه الملاحة العثمانية وفى مساعدة القبائل المجاورة للبصرة ضد الحكم العثمانى وفى المقابل قدم العثمانيون مساعدتهم العسكرية الى اتباع ملك هرمز للثورة على الحكم البرتغالى مثل حملة مصطفى باشا بيكلربك الحسا على البحرين فى يولية ١٥٥٩ والتى انتهت بالفشل(٣٧) .

وبعد فشل الاسطول العثمانى فى السيطرة على البحرين ، قدر على باشا والى البصرة العثمانى أن استمرار الصراع العثمانى ـ البرتغالى فى المياه الشرقية يلحق اضرارا فادحة باقتصاد الدولة العثمانية بعامة واقتصاد ولاية البصرة بخاصة . ورغبة منه فى الفوائد الاقتصادية التى يمكن تحقيقها من تشجيع التجارة مع الهند ، تبادل فى عام ١٥٦٢ الرسائل والمبعوثين مع الحاكم البرتغالى فى هرمز ونائب ملك البرتغال فى جوا . ويبدو أن محاولات التفاهم والاتفاق لم تسفر عن نتيجة ايجابية حيث استمرت العلاقات العدائية بين الجانبين فى الربع الأخير من القرن السادس عشر وانتهجت الدولة العثمانية سياسة متشددة ضد البرتغاليين ، فزادت من اهتمامها بالبحرين واهتمت بمراقبة ساحل الحسا(٣٨) فى عام ١٥٧٧ للحيلولة دون وصول الاسطول البرتغالى الى موانئه .

ولكن الدولة العثمانية فشلت فى طرد البرتغاليين من البحرين ومسقط وهرمز لضعف القوة البحرية العثمانية فى البصرة والحسا بمقارنتها مع منافستها البرتغالية من ناحية وضعف امكانيات دار صناعة السفن العثمانية فى البصرة والتى ظلت تخشى من انتقام السلطات البرتغالية في هرمز من ناحية أخرى. ولذلك ظلت السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية وجنوبها ضعيفة على الرغم من ولاء بعض الشيوخ العرب لها ومن زيارة الاسطول العثمانى لموانئها(٣٩) . وفى المقابل فشلت السلطات البرتغالية فى بسط نفوذها على البصرة والقطيف وظلت البحرين جزيرة حاجزة بين النفوذين العثمانى والبرتغالى .

ثم أخذ النفوذ البرتغالى يضعف تدريجا فى منطقة الخليج العربى والمحيط الهندى فى الربع الأخير من القرن السادس عشر لأسباب تتعلق بأساليب الحكم والادارة البرتغالية وانتشار الرشوة والفساد فى صفوف الضباط ونقص التجهيزات والنجدات العسكرية الى الحاميات البرتغالية فى الشرق . مما أدى الى استئناف النشاط البحرى العثمانى ضد المراكز البرتغالية ، ففى عام ١٥٨١ تحركت اربع سفن عثمانية من ميناء مخا فى البحر الأحمر بقيادة على بك(٤٠) الذى نجح فى مفاجأة الحامية البرتغالية فى مسقط ، وارغامها على الانسحاب نحو الداخل ، وبعد أن نهب مدينة مسقط عاد بالغنائم الى البحر الأحمر . هذا ولم تكن الحامية البرتغالية فى مسقط مستعدة لصد الهجوم حيث اكتفت السلطات البرتغالية فى هرمز بتحذيرها دون أن تقدم لها مساعدة عسكرية ذات بال ، مما زاد فى جرأة على بك فقام بحملات أخرى من مخا ضد المستوطنات البرتغالية فى شرق افريقية حتى وقع فى اسر

البرتغاليين فى عام ١٥٨٩[٤١] بعد أن الحق بهم خسائر جسيمة خلال الفترة (١٥٨١ - ١٥٨٩) .

وهكذا فان جهود الدولة العثمانية السابقة لم تؤد الى نتائج حاسمة على الرغم من نجاحها فى منع العدوان البرتغالى من الامتداد والتوسع نحو الداخل[٤٢] . ونجاحها فى الحيلولة دون قيام جبهة برتغالية - حبشية ضد القوى العربية والاسلامية فى البحر الأحمر وشرق افريقية . ونجاحها فى اغلاق البحر الأحمر الى الشمال من ميناء مخا فى وجه السفن الأوربية ولا سيما بعد ازدياد سيطرتها على عدن منذ استردادها فى عام ١٥٥٠ لادراكها لأهميتها فى السيطرة على مدخل البحر الأحمر وفى ارسال الحملات البحرية الى موانىء شرق الجزيرة العربية من ناحية كما أن القوة البحرية الكافية لأحكام الحصار على مدخل البحر الأحمر كانت تعوز البرتغاليين من ناحية أخرى .

هذا وقد نتج عن ضعف القوة البحرية العثمانية فى البحر الأحمر فى أواخر القرن السادس عشر انهيار الحكم العثمانى فى اليمن فى عام ١٦٣٥ بعد انفراد الامامة الزيدية فى تصريف شئونها ، ولم يبق للحكم العثمانى فى الجزيرة العربية سوى الحجاز الذى سيطر الاشراف على الحكم المحلى فيه . وعلى الرغم من النجاحات العثمانية السابقة ، فقد واجهت الدولة العثمانية صعوبات كثيرة حالت دون نجاح جهودها فى موانىء الجزيرة العربية نذكر منها :

- بعد القواعد البحرية العثمانية فى موانىء الجزيرة العربية عن مركز الثقل للقوة البحرية العثمانية الرئيسية في البحر المتوسط.
- عدم قدرة العثمانيين على حشد القوى العربية والاسلامية فى جبهة واحدة ضد البرتغاليين لاستمرار الحرب العثمانية - الصفوية .
- مقاومة العصبيات المحلية ولا سيما البدوية منها فى الجزيرة العربية للحكم العثمانى .
- مقاومة السلطات البرتغالية فى هرمز وجوا للتوسع العثمانى الذى شمل القطيف والحسا وفى بعض الأحيان البحرين .

وقد ساهمت الصعوبات السابقة وغيرها فى نجاح القوة البحرية البرتغالية وتمكينها من إغلاق المنافذ البحرية واقصاء العرب عن التجارة الدولية خلال القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر .

★☆★☆★☆★☆★

حواشي البحث

١ ـ محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر الى البحر (القاهرة، ١٩٧٩) ص٧٦، وانظر أيضا صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي (القاهرة، ١٩٧٤) ص١٤.

2. Danvers, F.C. Report On Portuguese Records. London 1892. PP. 112-113; Miles, S.B. The Countries And Tribes Of The Persian Gulf. 1966. PP. 141-142.

3. Hawley, Donald. The Trucial States. London 1970. P. 70.

٤ ـ عبدالامير محمد أمين : المصالح البريطانية في الخليج العربي. (١٧٤٧ـ١٧٧٨) ترجمة هاشم كاطع لازم. (بغداد، ١٩٧٧) ص٩ وانظر ايضا عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم : بريطانيا وامارات الساحل العماني (بغداد، ١٩٧٨) ص٢٢ ـ ٢٨.

5. Lockhart, Laurance. Persian Cities. London 1960. P. 172; Danvers, F.C. Op. Cit. P. 113.

وانظر ايضا عبدالكريم محمود غرايبة : مقدمة تاريخ العرب الحديث الجزء الاول (دمشق ١٩٦٠) ص١٣ـ١٤.
وانظر ايضا لوريمر، ج.ج : دليل الخليج ـ القسم التاريخي ـ (الدوحة ١٩٧٥ ؟) ج١ ص١٣.

٦ ـ صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره، ص١٧ وانظر ايضا الشاطر بصيلي عبدالجليل : الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في المحيط الهندي وشرق افريقيا والبحر الاحمر (المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني عشر ١٩٦٤/١٩٦٥، (ص١٢٩ـ١٤٠) ص١٣٦ـ١٣٧. وانظر:
Miles, S.B. Op. Cit. P. 154.

7. Serjeant, R.B. The Portuguese Off The South Arabian Coast. Oxford 1963. PP. 15-16; Oliver Roland And Mathew, Gervase-Editors-History of East Africa. Vol. I. Oxford 1963. P. 149.

8. Miles, S.B. Op. Cit. P. 156.

9. Danvers, F.C. Report On The India Record Relating To Persia And The Persian Gulf London? PP. 9-11.

١٠ ـ الشاطر بصيلي عبدالجليل : مرجع سبق ذكره، ص١٣١.

١١ ـ ارنولد ويلسون : الخليج العربي، ترجمة عبدالقادر يوسف (الكويت ،؟) ص٢٠٦ وانظر ايضا :
Miles, S.B. Op. Cit. P. 145.

١٢ ـ ارنولد ويسلون : مرجع سبق ذكره، ص٢٠٧.

13. Savory. M. "A.D. 600-1800".
Cottrell, Alvin J. — General Editor — The Persian Gulf States, A General Survey. London 1980. P. 32.

وانظر ايضا محمد عبداللطيف البحراوي : مرجع سبق ذكره، ص٧٦.

14. Danvers, F.C. Op. Cit. P. 9.

15. Longrigg, Stephn Hemsley. Four Centuries of Modern Iraq. Beirut 1968. P. 101.

16. Danvers, F.C. Report On Portuguese Records London 1892. P. 122; Danvers, F.C. The Portugese In India. Vol. 11. London 1894. P. 296; Strandes, Justus. The Portuguese Period In East Africa — Translated From The German By Jean F. Wall Work — Nairobi 1968. P. 197; Foster, William, The English Factories. Vol. VIII. Oxford 1914. P. 223.

١٧ ـ بلغ عدد جنود حامية القلعة البرتغالية في مسقط حوالي سبعين جنديا لم ينج منهم الا من اعتنق الاسلام كما تذكر بعض المصادر البرتغالية ان خسائر العرب في الهجوم على مسقط بلغت حوالي اربعة آلاف رجل. انظر :
Standes, Justus. Op. Cit. P. 198; Hamilton, Alexander. A New Account Of The East Indies.
— A General Collection Of The Best And Most Interesting Voyages And Travels In All Parts Of The World. Digested By John Pinkerton Vol. VIII. London 1811. P. 285.

18. Bradly-Birt, F.B. Persia. Through Persia From The Gulf To The Caspian. Vo. XX. U.S.A. 1910. P. 9.

19. Ingrams, W.H. Zanzibar, Its History And Its People Holland 1967. P. 120; Miles, S.B. Op. Cit. P. 213, 225.

٢٠ ـ جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ١٨٤١ـ١٨٦١ (القاهرة، ١٩٦٨) ص٢٥.

٢١ ـ محمدبن عبدالله السالمي وناجي عساف : عمان ـ تاريخ يتكلم ـ دمشق، ١٩٦٣) ص١٥٦ .

٢٢ ـ صالح اوزبران : الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي (١٥٣٤ـ١٥٨١) ترجمة عبدالجبار ناجي (بغداد؟) ص٢٣ـ٢٥ .

٢٣ ـ احمد عزت عبدالكريم : دراسات في النهضة العربية الحديثة ـ فصل العلاقات بين الشرق العربي واوربا ـ (القاهرة ؟) ص١٩٤ـ١٩٥ .

٢٤ ـ عبدالكريم محمود غرايبة : مرجع سبق ذكره، ص٣٢ـ٣٣ .

٢٥ ـ قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ـ تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في اخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر ـ اشرف على طبعه ـ حمد الجاسر ـ (الرياض، ١٩٦٧) ص٨٢ـ٨٤ .

٢٦ ـ عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ـ العهد العثماني الاول ـ ١٥٣٤ـ١٦٣٨ الجزء الرابع (بغداد، ١٩٤٩). ص٨٦ـ٨٧ .

٢٧ ـ محمود علي الداوود : العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي (١٥٠٧ـ١٦٥٠) (مجلة كلية الاداب بجامعة بغداد. العدد الثاني شباط ١٩٦٠. ص٢٣٢ـ٢٥٦) ص٢٣٧ .

٢٨ ـ صالح أوزبران : مرجع سبق ذكره، ص ٤٠

٢٩ ـ المرجع السابق، ص ٤٦ـ٤٧ .

30. Belgrave, J.H.D. History Of The Bahrain Islands. Journal Of The Royal Asian Society. Vol. XXXIX. Part I. January 1952. PP. 57.68. PP. 62-63; Stripling, George William Frederic The Ottoman Turks and The Arabs: 1511-1574.
Illinois Studies in The Social Sciences. Vol. XXVI. No. 4, U.S.A. 1942. P. 94; Phillips, Wendell. Oman, A History, 1967. P. 40.

وانظر ايضا لوريمر، ج.ج : مرجع سبق ذكره، ج١ ص١٧

وانظر صالح أو زبران : مرجع سبق ذكره، ص ٤٨ .

31. Damas, M. Longworth. The Portugese And Turks In The Indian Ocean In The Sixteenth Century. "Journal Of The Royal Asiatic Society. Part I. January 1921. PP. 1-28". P. 21; Phillips, Wendell. Op. Cit. P. 40.

وانظر ايضا محمد عبداللطيف البحراوي : مرجع سبق ذكره، ص١٦٦.

وعباس العزاوي : مرجع سبق ذكره، ج.ع ص ٧٠.

32. Miles, S.B. Op. Cit. PP. 171-172.
33. Damas, M. Longworth. Op. Cit. P. 21; Sidi Ali Reis. The Travels And Adventures Of The Turkish Admiral. 1553-1556. "Translated From The Turkish, with Norter By A. Vambery. London 1899" PP. 9-10.

وانظر ايضا جيمس بلجريف : البحرين. (بيروت، ١٩٧١). ص١٣٨

34. Sidi Ali Reis. Op. Cit. P.10.
35. Ibid. PP. 14-15; Miles S.B. Op. Cit. P. 175.
36. Miles, S.B. Op. Cit. P. 177.
37. Saldanha, J.A. The Portugese In The Persian Gulf. "The Journal Of The Bombay Branch Of The Royal Asiatic Society. Vol. XXIII. London 1914". P. 39.

وانظر ايضا صالح اوزبران : مرجع سبق ذكره، ص٥١ـ٥٥. وجيمس بلجريف : مرجع سبق ذكره، ص١٣٨

٣٨ ـ صالح اوزبران مرجع سبق ذكره، ص٥٧ـ٥٨ .

39. Pitcher, Donald Edgar. An Historical Geography Of The Ottoman Empire — From Earliest Times To The End Of The Sixteenth Century. Leiden 1972. P. 142.
40. Reusch, Richard. History of East Africa New York 1961. P. 241.
41. Stigand, C.H. The Land Of Zinj. London 1913. P. 17; Ingram, W.H. Op. Cit. P. 102.

٤٢ ـ احمد عزت عبدالكريم : مرجع سبق ذكره، ص١٩٤ .

بريطـــانيا ومصـــــر
١٩١٩ ـ ١٩٥٥

بقلم : صفاء عبدالوهاب المبارك
كلية التربية / جامعة البصرة

خضعت مصر لسيطرة الاتراك العثمانيين في القرن السادس عشر لاهميتها الاقتصادية والاستراتيجية في الشرق العربي وفي عام ١٨٤٠ تمكن محمد علي والي مصر من ان يجعل مصر دولة قوية ويبعدها عن سيطرة العثمانيين.
وبعد وفاة محمد علي في عام ١٨٤٩ تطلعت الدول الغربية الى اضعاف مصر بعد ان اظهرت قوة في ميدان السياسة الدولية. وقد فكرت بريطانيا في احتلال مصر فاحتلتها عندما تهيأت لها الظروف في عام ١٨٨٢. غير ان مصر بقيت خاضعة للنفوذ البريطاني حتى عام ١٩٢٢ عندما اعلنت بريطانيا استقلال مصر واعترفت بالنظام الملكي فيها. وبالرغم من اعتراف بريطانيا باستقلال مصر فان الوطنيين المصريين اعتبروا بقاء القوات البريطانية على الاراضى المصرية مخلا بحقوق السيادة المصرية واندفعوا في مقاومة عنيفة ضد الاستعمار البريطاني كان شعارها الاستقلال التام.

ان الهدف من هذا البحث هو القاء الضوء على تطور السياسة البريطانية تجاه مصر والعوامل التى اثرت في تطورها ومواقف وسياسات مصر تجاه بريطانيا بعد الحرب العالمية الاولى وحتى عام ١٩٥٥ يضاف الى ذلك اننا حاولنا توضيح الاتجاهات الجديدة التى اتسمت بها السياسة المصرية التى أدت الى خيبة أمل بريطانيا بالجمهوريين الذي تسلموا مقاليد الحكم في مصر عام ١٩٥٢ وكذلك قضية السودان وتأثيراتها على العلاقات البريطانية المصرية.

لقد اعتمدنا في بحثنا على مصادر متنوعة شملت بعض الوثائق البريطانية والصحف البريطانية والمصرية اضافة الى المصادر الاجنبية والعربية التى حوى قسم منها وثائق مفيدة للباحث في تاريخ العلاقات بين بريطانيا ومصر.

الغاء الحماية البريطانية على مصر ١٩١٩ - ١٩٢٢

حظيت مصر باهتمام بريطانيا في القرن التاسع عشر وذلك لاهميتها الاستراتيجية ووقوعها على طرق المواصلات العالمية وبسبب المصالح البريطانية الاستراتيجية والاقتصادية المشتركة في مصر. وقد ازدادت اهمية مصر بعد شق قناة السويس في عام ١٨٦٩ كشريان هام للمواصلات البحرية العالمية.

وفي عام ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر وذلك للقضاء على ثورة أحمد عرابي، واستطاعت بعد ذلك ان تمارس نشاطا سياسيا واسعا وعمدت في الوقت نفسه الى تكريس احتلالها لمصر حتى الحرب العالمية الاولي. وقد استعدت مصر في تلك الفترة لمواجهة التأثيرات الثقافية البريطانية بالرغم من تأثيرات الانعزال السياسي على الحياة العامة فيها [١].

وبالرغم من الضغوط التى تعرضت لها مصر فان بريطانيا ووجهت بمقاومة عنيفة من قبل الوطنيين المصريين ولكنها نجحت في تثبيت مركزها وتركيز القوة السياسية في يدها وخاصة بعد ان اعترفت فرنسا بالنفوذ البريطاني على مصر ١٩٠٤ وقد ساعد هذا الاعتراف البريطانيين في سعيهم لاقامة علاقات سلمية وتقوية مركزهم في مواجهة الحركة الوطنية المصرية.

ان الحركة الوطنية المصرية قويت في الواقع منذ أواخر القرن التاسع عشر ووجد الوطنيون المصريون في ظروف الاحتلال الفرصة لاستئناف الكفاح من أجل الاستقلال حيث تشكلت عدة احزاب سياسية في مصر في بداية القرن العشرين منها حزب الامة والحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل [٢] وحزب الوفد بزعامة سعد زغلول. وقد سعى زغلول ورفاقه في الحزب للعمل من أجل الاستقلال التام وخاصة بعد اعلان بريطانيا الحماية على مصر في ١٨ كانون الاول ١٩١٤. ان هذا التطور المتميز للحركة الوطنية المصرية الهب الروح الوطنية وزاد تحمس الرأى العام اكثر مما كان سائدا في أواخر القرن التاسع عشر وانهى ما كان يسمى بفترة «النضال القومى على مستوى الصحافة» [٣].

وفي نهاية الحرب العالمية الاولى ازدادت المطالبة من قبل المصريين بالغاء الحماية البريطانية والاعتراف باستقلال مصر بتأثير عوامل خارجية وداخلية اهمها وعود الحلفاء للعرب اثناء الحرب العالمية الاولى بالحصول على الاستقلال التام ومنها على سبيل المثال التصريح البريطاني الفرنسي الذي صدر في ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ بمساعدة العرب في جميع البلاد التى حررها الحلفاء على تأليف حكومات وطنية وان تعترفا بها حين تأليفها والا تتدخلا في شئونها وجود القوات البريطانية في مصر، ومبادىء الرئيس الامريكي وودرو ولسون وخاصة المادة (٢١) التي أكد فيها على ضرورة تمتع الشعوب الخاضعة للحكم العثمانى بالحرية والتطور نحو الحكم الذاتي، يضاف الى ما سبق معاناة المصريين في فترة الحرب العالمية الاولي وبعدها بقليل واهمال متطلبات الفلاحين الفقراء وسوء اوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ومواجهتهم الاعباء المالية كارتفاع اسعار المواد الغذائية المباشرة كالخبز والملابس والوقود.. وقد ظهرت تلك المعاناة بصورة واضحة بين صفوف البؤساء من الفلاحين الذين انضموا تحت لواء حركة المقاومة المصرية للاحتلال البريطاني.

وفي عام ١٩١٩ اشتدت مطالبة المصريين بالغاء الحماية البريطانية واخذ حزب الوفد المصري بزمام المبادرة عندما قدم سعد زغلول مطالبه لبريطانيا باجراء مفاوضات مباشرة من أجل الاستقلال التام بالوسائل السلمية مقابل الاعتراف بالمصالح البريطانية في مصر غير ان البريطانيين رفضوا تلك المطالب وقاموا بنفى سعد زغلول وبعض رفاقه الى مالطا.

ان هذا الاجراء كان عاملا ساهم في اشعا ل ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول. تلك الثورة الشعبية التى كان من أبرز اهدافها جلاء القوات البريطانية عن مصر ووحدة وادى النيل.

وعلى أية حال فقد تغير الموقف البريطاني نتيجة اندلاع الثورة اذ اعلن المندوب السامي البريطاني في مصر ادموند اللنبي Edmund Allenby استعداده لانتهاج سياسة اكثر مرونة «لضمان امتيازات سياسية لمصر تتناسب وطموحات المصريين الوطنية»[٤] ولكن اعلان الولايات المتحدة الامريكية اعترافها بالحماية البريطانية على مصر ادى الى زيادة تذمر المصريين مما دفع الحكومة البريطانية الى تشكيل لجنة برئاسة اللورد ملنر لزيارة مصر والتحقيق في اسباب الثورة واعلن المندوب السامى البريطاني ان «هدف الحكومة البريطانية من تشكيل اللجنة هو العمل على تحقيق الاستقرار في مصر ودفعها نحو الحكم الذاتي تحت الحماية البريطانية»[٥].

وبعد وصول لجنة ملنر[٦] الى مصر حاول البريطانيون الاتصال بسعد زغلول من أجل عقد اتفاقية بين بريطانيا ومصر. غير ان المفاوضات منيت بالفشل بسبب اصرار سعد زغلول على حل مشكلة السودان التى رفض المندوب السامى البريطاني مناقشتها. وقد طلبت الحكومة البريطانية من سعد زغلول المجيء الى لندن من أجل المفاوضة وسافر سعد زغلول الى لندن على رأس وفد في ٥ حزيران ١٩٢٠[٧].

وفي لندن جرت المفاوضات بين اللورد ملنر وسعد ولكن المفاوضات فشلت هى الاخرى بسبب اصرار البريطانيين على وضع معاهدة دفاعية دائمة لتنظيم العلاقات البريطانية المصرية ومعارضة سعد زغلول لفكرة عقد المعاهدة الدائمة وحق بريطانيا بالاحتفاظ بقواعد عسكرية على الارض المصرية.

ولقد دعى سعد زغلول بعد عودته لباريس من قبل ملنر للسفر الى لندن للمفاوضة فوصلها في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٠، ولم يتوصل سعد زغلول في مفاوضاته مع البريطانيين الى تسوية نهائية بسبب اصراره على بعض الشروط منها النص على ان الغاء الحماية البريطانية مشروط بتمتع مصر بحقوق سيادتها في السودان والغاء جميع الأحكام التي تقيد الاستقلال المصري وتمتع مصر بكامل حريتها في عقد الاتفاقيات التجارية والاقتصادية ودخول مصر بصفة طرف متعاقد في الاتفاقيات التى ترغب في عقدها مع الدول فيما يخص حقوقها الامتيازية [٨].

وفي تموز ١٩٢١ قامت المفاوضات البريطانية المصرية وكان عدلي يكن، وهو من المصريين الذين يوصفون بالاعتدال، رئيسا للوزارة المصرية وقد اتفق الجانبان على قبول اعتبار الغاء الحماية أساسا للمفاوضات لغرض عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا ومصر. لكن المفاوضات فشلت ايضا بسبب معارضة سعد زغلول لعدلي يكن «واصراره على ان يكون رئيسا لوفد المفاوضة» [٩]. يضاف الى ذلك الانقسامات بين الوطنيين وضعف السياسة المصرية بعد فشل ثورة ١٩١٩ وضعف كفاءة السياسيين المصريين الذين كان معظمهم معتمدا على قوة بريطانيا في توجيه الامور ومنع اي تقارب مباشر بين الفئات او الاحزاب السياسية.

ان فشل المفاوضات دفع الحكومة البريطانية الى نفى سعد زغلول وبعض رفاقه ثانية الى خارج مصر مما أدى الى اضطراب الوضع السياسي داخل مصر الأمر الذي دفع بريطانيا الى اعلانها الغاء الحماية على مصر في ٢٨ شباط ١٩٢٢ واعترفت باستقلال مصر واحتفظت بحقوق لها سميت بالتحفظات الأربعة وهى [١٠] تأسيس مواصلات الامبراطورية في مصر وحماية الاقليات ومصالح الاجانب والدفاع عن مصر ضد اى هجوم من الخارج والاحتفاظ بحقها في مفاوضة مصر حول السودان [١١].

كان موقف بريطانيا هذا في الواقع يدل على ان مخططي السياسة البريطانية بدأوا يفكرون بابداء بعض التنازلات للمصريين كما ان ذلك يعنى ايضا «اتباع سياسة غير مباشرة للحفاظ على مركز بريطانيا وامتيازاتها دون تحمل اعباء اتباع سياسة نظام استعماري» [١٢].

لقد اعلن الملك فؤاد قبوله لاعلان الاستقلال غير ان سعد زغلول ورفاقه رفضوا الاعلان لانه تضمن اقرار حقوق جديدة لبريطانيا ولم يحقق

لمصر استقلالها التـام. ويمكن القول دون ادنى شك ان بريـطانيا نجحت في تحقيق مصـالحها. وهكذا نجد انه من وجهة نظر معظم المصريين ان مصر بقيت من الناحية الواقعية دولة غير مستقلة تماما وكان موقف بـريطانيـا كما يقـول (جيب) يتصف بالغموض وكان البريطانيون في علاقتهم مع مصر يريدون تنفيذ ما اعطوه غير ان مصر لم تحصل الا على الشيء القليل(١٣) كما اعتبر ارنولد توينبي صيغة اعلان الاستقلال مشابهة لصيغة الانـتـداب الذي خضـعت له بـعض الاقـطار العربية(١٤) بعد الحرب العـالمية الاولى. ذلك ان الانتداب جعل الدولة المنتدبة دولة مساعدة للدولة المضيفـة التى خضعت لها وجعـل الحق للدولة المنتدبة ان يكون لها السيطرة الفعلية على الدولة الخاضعة لهـا من النواحى السيـاسية والمـالية والعسكرية والادارية.

هذا وبالرغم من ان بريطانيا ارادت الاستجابة لبعض المطالب الوطنية المصـرية التى يمكن من خلالها ضمان المصالح البريطانية الا انها كانت بعيدة عن الواقع العمـلي داخل مصر. فقـد اثار اعلان الاستقلال هياج الرأى العام المصري الذي رفض بدوره ذلك الاعلان المقيـد لاستقلال مصر وذلك لان تأمين بريطانيا لمواصلاتها الامبراطورية والدفاع عن مصر جعل لها الحق في تحريك قواتها المتواجدة على الاراضى المصرية حسب ما تقتضيه المصلحة البريطانية . كمـا ان الاعلان لم ينص على جلاء القوات البريطانية عن مصر. يضاف الى ذلك ان الاعلان لم يسمح لمصر بالانفراد بتسوية مسـألة السودان، لان ذلك علق بحق بـريطانيـا واشتراكها الفعلي في مفاوضات مع مصر للوصول الى تسوية بشأن مستقبل السودان.

المعاهدة البريطانية المصرية عام ١٩٣٦

لم يـرض الوطنيون المصـريـون بـالشـروط البـريـطانيـة التى اعلنت حـول استقـلال مصر واعتبروا هذا الاستقلال ناقصا وادركوا في نفس الوقت ان النفـوذ البريـطاني يخـل بـالسيـادة المصرية بمعانيها الداخليـة والخارجيـة. وبدأت جهود المصريين تتجه نحو المطالبة بتوقيع معاهدة مع بريطانيا من أجل الاستقلال التام.

فـفي ايـلول تشـريـن الاول ١٩٢٤ قـامت المفاوضات بين بريـطانيا ومصر في لنـدن، ترأس الوفـد البـريـطاني رئيس الوزارة البـريـطانيـة مكدونالد Mecdonald وكان مكدونالد قد اعلن في تصـريح له في اذار ١٩٢٤ عن رغبـة الحكومـة البريطانية في التوصل الى اتفاق مـع مصر. (١٥) ومع ذلك فان المفاوضات منيت بالفشل لان سعد زغلول اقترح شروطا رفضها المسئول البريطاني منها سحب القوات البريطانية من السودان وان تكـون لمصر السيـادة الكـاملة عـلى السـودان ومشاركة بريطانية في الدفاع عن قناة السويس وسحب القوات والموظفين البريطانيين من مصر.

وبعد عودة سعـد زغلول الى مصر بعد فشـل المفاوضات وقعت حادثة، سنشير اليها في سياق البحث وهي مقتـل السـير لي ستـاك Lestack سردار الجيش المصري وحاكم السودان العـام ادت الى احراج سعد زغلول الذي قدم استقالته من الوزارة فانقطع الامل حول قيام مفاوضـات جديدة خاصة وقد شهدت بريطانيا في هذه الفترة قيام الانتخابات التى كان من نتائجها ابعاد حزب العمـال عن الحكم ومجيء حكـومـة من حـزب المحافظين الذي كان يرفض بشدة المطالب الوطنية المصرية خلاف حزب العمال الذي كان يميل الى تأييد تلك المطالب بالاضافة الى ضغوط المحافظين برئاسة بلدوين على الملك فؤاد لابعاد سعد زغلول عن الحكم بقصد اضعاف حزب الوفد والضغط عليه لمسايرة رغبات البريطانيين (١٦).

وفي مـايو ١٩٢٥ استقـال المندوب السـامي البـريطاني في مصر الجنـرال اللنبي من منصبه وعينت الحكومة البريطانيـة اللورد لويد Lioyd بدله. وقد حاول لويد ان يفرض على سعد زغلول الاشتراك في الوزارة التى شكلها عدلي يكن غير ان الاخير استقال فشكل عبدالخـالق ثروت الوزارة من بعـده (نيسـان ١٩٢٦) وهـو من القـادة الليبراليين وكانت وزارته ائتلافية ايـدها حـزب الوفد وحزب الاحرار الدستوريـين. وكان اللورد لويد يكره سعد زغلول واعضاء حزب الوفد ومنهم

مصطفى النحاس الذي اعتبره لويد من المتطرفين والمناوئين للسياسة البريطانية في مصر (١٧).

وعلى اية حال فقد تمكنت الحكومة البريطانية في وزارة عبدالخالق ثروت من عقد مفاوضات مع مصر. وفعلا وضعت صورة معاهدة. وقد مثل الحكومة البريطانية في المفاوضات اوستون شمبرلن وزير الخارجية البريطانية. غير ان الطرفين لم يتفقا على تسوية نهائية لوجود القوات البريطانية في مصر. (١٨).

وفي عام ١٩٢٩ جرت مفاوضات اخرى بين بريطانيا ومصر وترأس الجانب المصري فيها رئيس الوزراء محمد محمود وترأس الجانب البريطاني هندرسون Henderson وزير الخارجية البريطانية في حكومة العمال ولم يتوصل الطرفان الى تسوية للنزاع البريطاني المصري. غير ان مجيء مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد الى رئاسة الوزارة في عام ١٩٣٠ (١٩) والذي كان يحظى بعطف الحكومة البريطانية صار من العوامل المحفزة لاجراء مفاوضات بين مصطفى النحاس وهندرسون وزير خارجية بريطانيا. وقد منيت هذه المفاوضات بالفشل بسبب عدم الاتفاق بين الطرفين حول النص الخاص بالسودان (٢٠)، والاقتراح المتضمن تحرك القوات البريطانية من القاهرة الى قناة السويس والذي رفضه الجانب المصري.

ومما يجدر ذكره ان ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية هاجم الاقتراح الاخير ووصف تحرك القوات البريطانية بانه «حدث الساعة واذا نفذ فان ذلك سيحدث صدى واسعا في آسيا» (٢١)

وعلى اثر فشل المفاوضات استقال مصطفى النحاس من الوزارة في ١٧ حزيران ١٩٣٠ وشكل الوزارة من بعده اسماعيل صدقي. وقبل استقالة صدقي من الوزارة عينت الحكومة البريطانية السير مايلز لامبسون Mailes Lampson (اللورد كيليرن فيما بعد) في سنة ١٩٣٣ ممثلا لها في مصر بدلا من السير برسي لورين Percy Lorain غير ان لامبسون لم يستلم مهام منصبه بل قام بأعماله موريس بيترسون Maurice Peterson الذي استمر في عمله في عهد وزارة عبدالفتاح يحيى وكيل حزب الشعب. وقد اثار بيترسون مستغلا ضعف الوزارة، صعوبات امام الحكومة المصرية (٢٢) حيث كان يؤكد دائما على ضرورة تعيين من يقوم مقام الملك فؤاد الذي كان يعاني من مرض عضال وارسال الامير فاروق الى انجلترا لغرض تعليمه. وقد بدا واضحا ان بريطانيا اتجهت في هذه الفترة بالذات الى استغلال حزب الوفد والكتلة الشعبية لتحقيق مآربها السياسية وايجاد نوع من التوازن بين الوزارة والملك وان بدت بريطانيا غير متحمسة بقوة لتوقيع معاهدة مع مصر وانهاء النزاع البريطاني المصري وقد علقت جريدة التايمز اللندنية بصدد تلك قائلة «ان عدم الانحياز في السياسات البريطانية تجاه مصر كان ممكنا من الناحية النظرية الا انه لم يكن ممكنا من الناحية العملية». (٢٣).

وبالرغم من فشل جميع الجهود لتوقيع معاهدة بين بريطانيا ومصر فقد جرت في السنوات ١٩٣٥ و ١٩٣٦ بعض التطورات الدولية والمحلية التى شجعت بريطانيا على فتح باب المفاوضات مع مصر منها تهديدات موسوليني باحتلال الحبشة والاعلان عن رغبته في التوسع على حسابها واطماعه في الناحية الشرقية من البحر المتوسط وازدياد قوة دول المحور ورغبة بعض الدول الغربية وخاصة بريطانيا في تكوين تكتلات عسكرية في الشرق الاوسط لتلافي ازدياد المخاطر المحورية على تلك المناطق.

أما الظروف الداخلية فتتمثل بالصراعات الداخلية في مصر وخاصة الصراع بين الملك وحزب الوفد بسبب الموقف من الدولة الحليفة وعدم الاستقرار الوزاري اضافة الى جهود المندوب البريطاني مايلز لامبسون التى بذلها من أجل عقد المعاهدة.

لقد أرادت بريطانيا على الارجح استغلال أزمة الحبشة لتقوية مركزها في مصر فارسلت بالتنسيق مع الحكومة المصرية بعض القطاعات العسكرية

المشتركة (بريطانية ومصرية) الى الصحراء الغربية لصد اى هجوم يحتمل ان تقوم به ايطاليا على مصر من جهة ليبيا. [٢٤]. وقد علقت جريدة الجهاد المصرية بصدد ذلك قائلة «ان بريطانيا ارادت ممارسة ضغوطها على مصر دون اعطاء اية ضمانات حول مستقبل مصر» [٢٥]. ويمكن القول ان تهديدات موسوليني لشرق افريقيا وطموحات الوطنيين المصريين قربت أوربا من حافة الحرب وحطمت كما يقول أحد الباحثين، الاستقرار الذى تميزت به العلاقات البريطانية المصرية في السنوات الخمس السابقة.[٢٦].

وفي عام ١٩٣٥ قامت الجبهة الوطنية،[٢٧]. التي تشكلت في مصر بمطالبة المندوب البريطاني (مايلز لامبسون) الذي خلف (برسي لورين) في منصبه عام ١٩٣٤ باجراء مفاوضات لعقد المعاهدة بعد ان ساد الاعتقاد في الاوساط السياسية المصرية بان «بريطانيا لم تكن مصممة تصميما أكيدا على جعل مصر في حالة من التبعية أو الخضوع الكامل للنفوذ البريطاني.[٢٨] وقد أكد أنتوني (إيدن Eden) رئيس الوزراء البريطاني في خطاب له في مجلس العموم البريطاني استعداد الحكومة البريطانية لاجراء مفاوضات مع مصر استجابة لرغبة الجبهة الوطنية المصرية[٢٩] .

وقبيل بدء المفاوضات أكدت بريطانيا رغبتها في استبدال الاحتلال العسكرى لمصر بصيغة التحالف العسكرى لمدة عشرين سنة. وقد صرح مايلز لامبسون الذي كان يميل بقوة الى عقد المعاهدة «بان بريطانيا ستواجه موقفا جديدا في مصر في حالة فشل المفاوضات»[٣٠].

ومهما يكن من أمر فقد جرت المفاوضات بين الطرفين في قصر الزعفران في القاهرة [٣١] في ٢ اذار ١٩٣٦. ترأس الوفد البريطاني مايلز لامبسون المندوب البريطاني في مصر وترأس الوفد المصري مصطفى النحاس، زعيم حزب الوفد. وكان اغلب المفاوضين المصريين يميلون الى احراج المفاوضين البريطانيين للحيلولة دون تحقيق كل مطالب البريطانيين العسكرية والتى تستند بدرجة كبيرة على متطلبات الدفاع عن مصر ضد ايطاليا.[٣٢] وعندما نجحت المفاوضات في مصر انتقل الوفدان الى لندن حيث تم عقد معاهدة التحالف والصداقة بين بريطانيا ومصر في تموز ١٩٣٦.[٣٣].

نصت معاهدة ١٩٣٦ على رغبة بريطانيا في تحقيق التحالف العسكري بدل الاحتلال العسكري والدفاع عن مصر في حالة الحرب أو التعرض لخطر خارجي والاعتراف بابقاء قواتها البحرية في الاسكندرية لمدة ٨ سنوات اخرى، واتفق الطرفان ايضا على ان يكون التمثيل الدبلوماسي بينهما على مستوى السفراء وعلى ان تبادر بريطانيا للعمل على قبول مصر في عضوية عصبة الأمم (المادة ٣) ومساعدتها في التخلص من الامتيازات الاجنبية وان تقدم مصر التسهيلات العسكرية لبريطانيا في وقت الحرب. كما نصت المعاهدة ايضا على التخلص من التدخل البريطاني المباشر في الجيش والسياسة المصرية وحدد عدد الجيش بـ ١٠,٠٠٠ جندى وضابط (المادة ٨). أما ما يخص قضية السودان فان المناقشات الخاصة بها بدأت في ٢٤ تموز ١٩٣٦ وبعد توقيع الملاحق العسكرية للمعاهدة. وقد نصت المادة الحادية عشرة من المعاهدة، على عودة القوات المصرية الى السودان والسماح للهجرة المصرية غير المقيدة الى السودان والتأكيد على اتفاقيتى ١٩ مارس و١٠ تموز ١٨٩٩ المعقودتين بين بريطانيا ومصر حول السودان بدعوى العمل على حماية السودان وفي ٢ أب ١٩٣٦ «اعدت الصياغة الاولية للملاحق الخاصة بالسودان».[٣٤].

ومما لاشك فيه ان بريطانيا استطاعت ان تحتفظ بحقها في الحفاظ على مواصلاتها الامبراطورية وابدت تنازلات واضحة بدعوى حماية الاجانب والاقليات واستطاعت ان تخدم سياستها الخارجية لمصالح وظروف مصر. كما ان الحجج البريطانية من أجل الابقاء على الامتيازات العسكرية ارتبطت بالتغيرات التى جدت على الموقف الدولي بالنسبة لشرق البحر المتوسط

والتأثر بالتهديدات الايطالية وتوسعاتها على حساب الحبشة. وهذا بلا شك يشكل جزءا من مشكلة قناة السويس التى احتلت اهمية كبيرة في استراتيجية الدفاع عن الامبراطورية. وقد أوضح (انتونى ايدن) وزير خارجية بريطانيا وجهة نظره بهذا الصدد قائلا «ان هناك اعتقادا في كل من بريطانيا ومصر بان مصالح الدولتين اصبحت متفقة تقريبا وهي متأثرة بالمتغيرات الجديدة».(٣٥).

وعندما قررت بريطانيا انسجاما مع سياسة الحفاظ على الوضع الراهن ان تنتهج سياسة ودية مع مصر من أجل تعاون أكثر مع المصريين تمكنت في الوقت نفسه، مستغلة ضعف المفاوض المصري من «ضمان مواصلاتها الامبراطورية ونقل قواتها من القاهرة والاسكندرية الى قناة السويس» (٣٦). ولذلك فان معاهدة ١٩٣٦ تعتبر حلا فيه كثير من التنازلات المشينة وقد عكست جهل القادة السياسيين المصريين آنذاك بالاساليب الامبريالية الملتوية (٣٧).

لقد مثلت معاهدة التحالف في الواقع نقطة تحول في العلاقات البريطانية اعترفت بريطانيا فيها باستقلال مصر. وقد رحب المصريون في بداية الامر بالمعاهدة باعتبارها تمثل خطوة تسبق المرحلة التي سوف يتم فيها جلاء القوات البريطانية عن مصر بصورة تامة وتحقيق الاستقلال التام ولكن الحزب الوطني(٣٨) عارض توقيع المعاهدة اعتقادا منه أن بقاء القوات البريطانية على الارض المصرية يفتح مجالا امام البريطانيين للتدخل في الشئون الداخلية لمصر بصورة مباشرة او غير مباشرة.

لقد اتخذت الحكومة المصرية بعد توقيع المعاهدة قرارها «بترحيل العسكريين البريطانيين الذين يعملون في الجيش المصري»(٣٩) ومن ثم بذلت جهودها في التأثير على الصحافة المصرية والسياسيين المصريين للقيام بنشر وطبع الكتب والبحوث موضحة نجاح حزب الوفد في اجبار البريطانيين على الاستجابة للمطالب المصرية وان المعاهدة ستحقق استقلال مصر وقد بادرت حكومة الوفد بذلك العمل عندما شعرت ان احزاب الاقلية استمرت في معارضتها للمعاهدة وان استمرار المعارضة سيؤثر بلا شك على الرأي العام المصري ويدفع البرلمان المصري الى رفض المعاهدة.

وفي كانون الثاني ١٩٣٧ دعت مصر بناء على موافقة بريطانيا الدول ذات الامتيازات في مصر الى عقد مؤتمر في سويسرا سمي بمؤتمر مونترو Montreux Conf. لمناقشة مسألة الامتيازات الاجنبية في مصر استمرت جلسات المؤتمر من ١٤ نيسان الى ٩ مارس عام ١٩٣٧ ثم وقعت الدول المعنية بصورة نهائية على الاتفاقية بتاريخ ٨ مارس من السنة ذاتها. لقد تم الاتفاق في هذا المؤتمر على الغاء الامتيازات الاجنبية في مصر وحددت فترة انتقال امدها ١٢ سنة لالغاء المحاكم المختلطة وانتقال السلطة القضائية الى المحاكم الاهلية(٤٠).

ان الغاء الامتيازات الاجنبية في مصر يعتبر خطوة هامة لتسهيل مهمة دخول مصر في عصبة الامم. وبناء على الاجراءات التي اتخذها مؤتمر مونترو بشأن الغاء الامتيازات أيدت معظم الدول طلب مصر في الدخول في عصبة الامم. وفي ٢٦ مارس ١٩٣٧ قبلت مصر عضوا في المؤسسة العالمية(٤١) وقد علق «ايدن» وزير خارجية بريطانيا على قبول مصر في عضوية العصبة قائلا (ان هدف بريطانيا هو مساعدة مصر لتحقيق استقلالها التام»(٤٢).

لقد لعب حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس دورا رئيسيا في نجاح مخططات بريطانيا وتهدئة العلاقات البريطانية المصرية حتى عام ١٩٣٨. وقد بدأ حزب الوفد بسبب موقفه يتحول من اتجاهاته المناوئة بشدة للسياسات البريطانية في مصر الى حزب مهادن يمثل جماعات لها طموحات سياسية، صار همها الاول التوصل الى الكراسي الوزارية بل ان حزب الوفد انما تطلع الى البريطانيين لكي «ينقذ نفسه من الطريق المسدود الذي دفعه اليه الملك فاروق».(٤٣) كما لا يمكن تجاهل الدور الذي لعبه (مايلز لامسبون) في توقيع المعاهدة. وقد لعب هذا بعد توقيع المعاهدة دورا

بارزا فى التبدل الذي طرأ على العلاقات البريطانية المصرية . وقد أبرز الوفديون دور (لامبسون) فى حينه واعتبروه «رسول الاستقلال المصري»[٤٤] كما أثنى ايدن على «لامبسون» في تصريح له بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٣٦ في مجلس العموم البريطاني بقوله «نحن مدينون جدا بالشكر الوافر للجهود التي بذلها «لامبسون» كمفاوض موثوق به»[٤٥] .

وفى الواقع ان العلاقات البريطانية المصرية اصبحت تحت ظل معاهدة ١٩٣٦ أكثر تأثرا بالظرف الدولي المتأزم . وقد اصاب تلك العلاقات بعض التقلب نتيجة للازمة السياسية التي نشبت فى مصر في نيسان ١٩٣٨ والتى ادت الى ابتعاد حزب الوفد من المسرح السياسى حتى عام ١٩٤٢[٤٦] . وفى اثناء الحرب العالمية الثانية تأزمت العلاقات البريطانية المصرية ، كما سنلاحظ ، بسبب الضرورات التي استلزمها المجهود الحربي البريطاني والمصالح البريطانية فى مصر .

موقف مصر من الحرب العالمية الثانية ورد الفعل البريطاني

قبل نشوب الحرب العالمية الثانية اهتمت مصر بالتطورات الدولية وادرك الساسة المصريون ضرورة اتخاذ موقف محدد تجاه الحرب المحتملة لان المعاهدة التحالفية لسنة ١٩٣٦ نصت على ان تبادر مصر الى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع المانيا وطلبت من البعثة الالمانية والمستشارين الالمان ترك مصر[٤٧] وذلك قبل نشوب الحرب . غير ان بعض القادة المصريين أكدوا على ضرورة «تعديل معاهدة ١٩٣٦ لكي تتمكن مصر من توقيع ميثاق عدم الاعتداء والحياد مع ايطاليا والدول الاخرى»[٤٨] . وصرح اسماعيل صدقي رئيس الوزارة المصرية بأن المادة السابعة من معاهدة ١٩٣٦ لا تجبر مصر بأن تحارب مع بريطانيا وان سياسة مصر الدفاعية تقوم على اساس حماية استقلال وحدود المملكة .[٤٩] .

تلك التصريحات اثارت اهتمام البريطانيين . فقد قامت الحكومة البريطانية بالرد على تلك المقترحات مؤكدة «ان من واجب مصر الالتزام بنصوص معاهدة ١٩٣٦ حتى يتم تعديل بعضها فى الوقت المناسب»[٥٠] ويبدو ان الحكومة البريطانية انما لجأت الى هذا الموقف بسبب التغير المفاجيء الذي طرأ على موقف مصر من الحرب واهتمام بريطانيا المتزايد بموقف ايطاليا التي بدأت تطالب بضرورة «مشاركة ايطالية فى الاشراف على ادارة قناة السويس» .[٥١] يضاف الى ذلك قلق الحكومة البريطانية الذي بدأ يتزايد نتيجة تعرفها على موقف الملك فاروق باتصاله بايطاليا وافصاحه عن كرهه لبريطانيا ورغبته فى الحصول على مساعدات من دول المحور ضد تدخلات البريطانيين»[٥٢] .

وعندما توتر الموقف الدولي بسبب اعلان ايطاليا الحرب على فرنسا وبريطانيا ، ادرك المصريون خطورة الموقف . ففي ١٢ مارس ١٩٤٠ اجتمع البرلمان المصري واعلن علي ماهر رئيس الوزارة في بيان له امام البرلمان عن تمسك مصر بالتزاماتها بنصوص معاهدة ١٩٣٦ وتجنيب مصر ويلات الحرب[٥٣] .

لقد اثارت تصريحات المسئول المصري حنق البريطانيين فاتهم السفير البريطاني الحكومة المصرية بالتهاون وان لها ميولا مؤيدة لايطاليا وسلم السفير البريطاني الملك مذكرة شديدة اللهجة ، انتقد فيها بشدة موقف علي ماهر (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠) رئيس الوزارة المصرية ألذي أكد ضرورة بقاء مصر بعيدة عن الحرب واثار السفير ايضا بانه لا يمكن ان يتحقق التعاون بين السفارة والحكومة المصرية فى ظل الحرب ، واقترح على الملك وجوب اقصاء علي ماهر من رئاسة الوزارة .[٥٤] ونتيجة للضغوط التي مارسها السفير على الملك والوزارة اضطر علي ماهر الى تقديم استقالته فى ٢٣ حزيران ١٩٤٠ وصار الاتجاه نحو اختيار مصطفى النحاس رئيسا للوزراء بسبب تأييد حزب الوفد لفكرة تعاون مصر مع حلفائها اثناء الحرب . غير ان النحاس رفض ان يشكل وزارة ائتلافية الا بعد حل البرلمان

واجراء انتخابات جديدة . وكان السفير البريطاني (لامبسون) قد عقد عدة لقاءات مع حزب الوفد من خلال سكرتيرة مكرم عبيد وقام «بايعاز من الحكومة البريطانية بابلاغ الملك فاروق برغبة الحكومة البريطانية فى ان يتولى النحاس زعيم حزب الوفد رئاسة الوزارة»[55] . وقد ابلغ السفير الملك فاروق رغبة الحكومة البريطانية في ذلك .

ولقد اضطر فاروق ان يعهد بتأليف الوزارة الى حسن صبري المعروف بميوله للانجليز فشكلها وكانت وزارة ائتلافية ضمت عددا من المستقلين والاحرار الدستوريين والحزب الوطني وجماعة السعديين . وفي هذه الاثناء نشب خلاف حاد بين اعضاء الحكومة المصرية والاحزاب السياسية حول موقف مصر من دخول الحرب والهجوم الذي تعرضت له الحدود الغربية لمصر من قبل دول المحور . فقد اراد بعضهم دخول مصر الحرب بينما عارض البعض الاخر هذا الاتجاه . وكان اغلب المؤيدين لدخول مصر الحرب من حزب السعديين بدعوى ان مصر سوف لن تخسر عندما تعلن الحرب رسميا . وقد علقت جريدة التايمز اللندنية على موقف المعارضة بقولها «ان الشعب المصري اصبح أكثر خضوعا لتأثيرات الدعاية الايطالية بسبب عدم تلقي الجماهير المصرية التوجيه الايجابي من لدن الحكومة المصرية ضد الدعاية الفاشية»[56] .

وفى الوقت الذي احتدمت فيه الخلافات بين المصريين حول دخول مصر الحرب وخروج المظاهرات المؤيدة للبريطانيين توفى رئيس الوزراء فجأة وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٠ اسند منصب رئيس الوزراء بتشجيع من بريطانيا الى حسين سري وهو من السياسيين الذين يوصفون بالاعتدال غير ان حسين سري لم يستمر في منصبه الوزاري بسبب انتشار الاضطرابات وتدهور الوضع الاقتصادي وقد عجز رئيس الوزراء نفسه عن مواجهة ذلك الوضع اضافة الى سوء حالته الصحية التي كانت من الاسباب الهامة التي دفعته الى تقديم الاستقالة استجابة لرغبة الملك فاروق فى شباط ١٩٤٢ . وقد ساد الاعتقاد بأن حزب الوفد سيتولى الوزارة بعد استقالة حسين سري الا ان الوفديين اصروا ان تكون وزارتهم وفدية وليست ائتلافية .

لقد استغلت السفارة البريطانية الارتباكات الداخلية فى مصر واقدمت على القيام بعمل كان له أثر واضح على العلاقات المصرية البريطانية . فبعد استقالة حسين سري من الوزارة استدعى الملك فاروق السفير البريطاني (لامبسون) للمقابلة وابلغه عن رغبته فى تعيين علي ماهر رئيسا للوزراء . وقد أجاب السفير بأن علي ماهر شخص غير مرغوب فيه ولا يتمتع بثقة الحكومة البريطانية بسبب ميوله المحورية . ففشلت المقابلة ولم يتوصل الطرفان الى حل .[57] بسبب اصرار الملك على رأيه . كما فشلت جميع جهود الملك فاروق لتشكيل وزارة ائتلافية بسبب معارضة مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد . ونتيجة لفشل الجهود لتحقيق رغبات البريطانيين وجه السفير البريطاني (لامبسون) فى شباط ١٩٤٢ انذارا شديد اللهجة الى الملك فاروق ، طالب فيه الملك بالتنازل عن العرش والاسراع بتعيين مصطفى النحاس رئيسا للوزراء[58] وابلغ الملك فاروق ايضا بانه فى حالة قبول التنازل عن العرش فان السلطات البريطانية مستعدة فى الحال لابعاده بطائرة خاصة الى جنوب افريقيا . وقد تم تسليم الانذار للملك من قبل السفير شخصيا وبعد محاصرة القصر بواسطة قوة عسكرية بريطانية .

وعلى اية حال فقد تسلم النحاس رئاسة الوزارة فى اذار ١٩٤٢ وقبل تنفيذ هذا الانذار . وقد سبب موقف حزب الوفد نكسة داخل صفوف الحزب حيث برزت خلافات بين اعضاء الحزب حول كيفية التعامل مع الدولة الحليفة . كما اتهم الوفديون بتساهلهم مع البريطانيين وتفريطهم في مصالح مصر .

وفي الواقع فلم تكن بريطانيا في تلك الفترة بالذات لتمتنع عن اللجوء الى اية وسيلة تساعدها فى الحفاظ على مركزها العسكري فى مصر وان ادى ذلك الى التدخل فى الشئون الداخلية لمصر والانتقاص من سيادتها . وقد اقدمت الحكومة

البريطانية على تلك الخطوة دون اكتراث بنتائجها على مستقبل السياسة البريطانية . وقد علق احد الباحثين بصدد ذلك مشيرا الى ان حادثة ١٩٤٢ لم تجعل معاهدة ١٩٣٦ عديمة الاهمية في نظر المصريين فقط بل جعلت امكانية توقيع معاهدة مستقبلا من أجل علاقات متطورة بين بريطانيا ومصر أمرا صعبا وجعلت المصريين أكثر تصميما على العمل لمنع تدخل القوات البريطانية في شئون مصر مستقبلا .[٥٩] بل ان هذه الحادثة جعلت الملك فاروق يدرك في قرارة نفسه انه اصبح شخصا لا قيمة له اضافة الى ضعف شعبيته في اوساط الرأي العام المصري نتيجة تهديدات وسيطرة البريطانيين عليه .[٦٠] والاهم من ذلك أكدت تلك الحادثة تصميم البريطانيين على التدخل في الشئون الداخلية لمصر وهو امر يتعارض مع مفاهيم السيادة .

ولقد ظن الكثيرون أن حادثة ٤ شباط كانت مجرد اختبار للقوة ضد الملك فاروق وفي الواقع فان الحكومة البريطانية كانت قد فكرت جديا في عزل فاروق . وقد جاء في تقرير لوزارة الخارجية البريطانية حول مبررات عزل الملك فاروق «ان الملك فاروق كان عدوا للبريطانيين اما مصطفى النحاس فلم يكن كذلك[٦١] كما هدد ونستون تشرشل في مذكراته مشيرا الى حادثة ١٩٤٢ ، «باستخدام بريطانيا للقوة العسكرية اذا دعت الحاجة اليها وفي اي وقت»[٦٢] .

وبالرغم من تنفيذ الملك فاروق شروط البريطانيين فانه لم يكن مرتاحا من النحاس وحزبه وادرك ان الوقت قد حان لاقالة النحاس بعد ان ادى دوره وبعد ان تمكن البريطانيون من تحقيق انتصارات حاسمة في معركة العلمين وابعاد مصر عن مخاطر الغزو . فحاول الملك فاروق اقناع السفير البريطاني بالموافقة على اقالة النحاس من الوزارة فنجح في مساعيه واقيلت وزارة النحاس فعلا واسندت رئاسة الوزارة الى احمد ماهر في ٨ تشرين الثاني ١٩٤٤ .

وهكذا نجد انه لم يكن صعبا على السفير البريطاني بأن يضحي باصدقائه عندما تتبدل الظروف . ولم يكن مفاجئا ايضا ان يصرح رئيس الوزارة البريطانية ونستون تشرشل في مجلس العموم البريطاني في عام ١٩٤٥ قائلا «نحن لم نضغط على الحكومة المصرية في اي وقت لكي تدخل الحرب»[٦٣] .

وسرعان ما فشلت مناورات الملك فاروق وخاب ظنه عندما اغتيل رئيس وزرائه وكان سبب الاغتيال هو تحديه السافر لمؤيدى حياد مصر في الحرب وتمسكه بشدة بان تعلن مصر الحرب والتعبئة العامة وان تشارك في المجهود الحربي البريطاني بصورة فعلية .

القضية السودانية :

تعتبر قضية السودان من المشكلات التى اثرت في العلاقات البريطانية المصرية .

وقد مرت القضية السودانية بتطورات هامة اعطتها اهمية كبيرة في السياستين البريطانية والمصرية .

وفي سنة ١٨٢١ تمكن محمد على والي مصر ان يوحد السودان مع مصر في وحدة ادارية استمرت حتى عام ١٨٨٣[٦٤] وبعد هذه السنة شهدت السودان تطورات هامة بظهور الحركة المهدية التى اتخذت اتجاها دينيا ثم سياسيا وكانت تهدف الى التخلص من النفوذ الاجنبى وقد نجح البريطانيون بالتعاون مع المصريين في القضاء على الحركة المهدية كقوة سياسة في السودان عام ١٨٩٦[٦٥] .

غير ان البريطانين والمصريين سرعان ما اعادوا النظر في مخططاتهم تجاه السودان فتمكنوا في عام ١٨٩٩ من إعادة سيطرتهم كاملة على السودان الذى خضع للحكم الثنائي حسب الاتفاقية التي عقدت بين البريطانيين والمصريين في تلك السنة والتي احتفظ المصريون بموجبها بفرقة عسكرية في السودان وقد توترت العلاقات البريطانية المصرية في السودان بسبب احتفاظ البريطانيين بقوة عسكرية كبيرة وتعارض المصالح ورغبة البريطانيين بالانفراد في حكم السودان .

وفي سنة ١٩٢٤ وقع حادث كان له اثر كبير على

علاقات بريطانيا بمصر . اذ قتل السير لي ستاك حاكم السودان العام وسردار الجيش المصرى فى ١٩ تشرين الاول مما دفع الحكومة البريطانية الى توجيه انذارين فى مظاهرة عسكرية على رأسها المندوب السامي البريطاني فى مصر الجنرال اللنبى الى سعد زغلول رئيس الوزارة المصرية انذاك لاحراج موقفه واجباره على الاستقالة(٦٦) تضمن الانذاران(٦٧) سحب الجيش المصرى من السودان وامتناع الحكومة المصرية عن معارضة رغبة الحكومة البريطانية فيما يتعلق بحماية مصالح الاجانب فى مصر . وطالبت بريطانيا كذلك ببقاء منصبي المستشار المالي والقضائي واحترام امتيازاتهما واعادة النظر فى شروط خدمة الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية وان تدفع الحكومة المصرية لبريطانيا نصف مليون جنيه تعويضا عن مقتل السردار . ان الحكومة البريطانية كما يفهم من بنود الانذارين كانت راغبة بقوة فى التدخل بشئون مصر والمساس بالحقوق المصرية التى اعطيت مسبقا . ومن المحتمل ان هناك اتفاقا مسبقا بين البريطانيين والملك فؤاد للتخلص من سعد زغلول المعروف بمواقفه الوطنية واجباره على الاستقالة . فجاء الوقت المناسب باغتيال السردار ففرضت بريطانيا شروطها القاسية على مصر . وقد يكون المراد من اغتيال السردار هو عرقلة قيام اى تقارب هدفه التوصل الى تسوية معقولة وباسرع وقت بشأن النزاع البريطانى المصرى بين بريطانيا وحزب الوفد الذى بدأ زعيمه يميل الى الاعتدال فى مواجهة البريطانيين الامر الذى يجعل منه بطلا قوميا لا يمكن تحديه ويؤدى ايضا الى اضعاف دور الملك فؤاد فى توجيه السياسة المصرية .

لقد استجابت الحكومة المصرية لمطالب بريطانيا ودفعت مبلغ التعويض غير انها احتجت بقوة ضد قرار الحكومة البريطانية بسحب الجيش المصرى من السودان وقمع كل المظاهرات السياسية الشعبية ورفضت قرار المندوب السامي البريطاني فى مصر الذى اتخذه بصدد احتلال القوات البريطانية لجمارك الاسكندرية . وكانت النتيجة ان قدم سعد زغلول استقالته من الوزارة فى ٢٤ تشرين الثانى ١٩٢٤ بالرغم من عدم موافقة البرلمان المصرى على الاستقالة . وقد باشر رئيس الوزراء الجديد احمد زيور وهو من المسايرين للسياسة البريطانية تنفيذ الانذار . حيث سحب الجيش المصرى من السودان واصبحت مياه النيل تحت سيطرة حكومة السودان البريطانية . ومع ذلك فقد كانت هناك (دعاية كبيرة لاقامة اتحاد سياسى بين مصر والسودان تحت العلم المصرى(٦٨).

وعندما كان المصريون يتفاوضون من اجل الاستقلال التام بذلت محاولات مصرية جادة من اجل خلق وضع فى السودان يتلاءم وارادة السودانيين فى الحكم الذاتي والاستقلال التام .. وبقي مستقبل ادارة السودان موضع اختلاف بين البريطانيين والمصريين الى ان قامت المفاوضات البريطانية المصرية لتوقيع معاهدة ١٩٣٦ حيث توصل الطرفان البريطاني والمصرى الى صيغة اتفاق حول السودان فقد نصت المادة الحادية عشرة من معاهدة ١٩٣٦ على بقاء ادارة السودان كما نظمتها اتفاقيتا ١٨٩٩ مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة لتعديلها . فى حين ان النص الوارد حول عودة القوات المصرية الى السودان جوبه بمعارضة المحافظين المتطرفين فى بريطانيا حيث (اعتقدوا ان عودة القوات المصرية الى السودان يشجع العسكريين السودانيين على الثورة)(٦٩) بينما وافقت احزاب الاقلية المصرية وحزب الوفد على ما ورد فى معاهدة ١٩٣٦ والمتعلق بمسألة السودان لكونها اعادت الوضع الذى كان سائدا فى السودان قبل عام ١٩٢٤(٧٠) .

وفي اثناء المفاوضات التي دارت بين بريطانيا ومصر عام ١٩٤٦ من اجل تعديل معاهدة ١٩٣٦ ، لم يتوصل الطرفان الى تسوية بشأن السودان . ففي تلك المفاوضات طالب المصريون بتحرير الادارة السودانية من قيود اتفاقية ١٨٩٩ والاعتراف بوحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى . وقد جاء في البروتوكول الخاص بالسودان والمرفق بمشروع معاهدة

صدقي بيفن[٧١] (بان اهداف السياسة التي يتعهد الجانبان البريطاني والمصرى باتباعها في السودان في اطار وحدة مصر والسودان تحت تاج مصر المشترك هي تحقيق رفاهية السودانيين ومصالحهم واعدادهم للحكم الذاتي وممارسة حق اختيار النظام السوداني في المستقبل بعد التشاور مع السودانيين ، كما نص البروتوكول على ان تبقى اتفاقية ١٨٩٩ سارية المفعول بالاضافة الى المادة ١١ من معاهدة ١٩٣٦ ،[٧٢] والتى اشرنا اليها في سياق البحث .

ومن الجدير بالذكر ان الاتجاهات التى تؤيد وحدة وادى النيل برزت بقوة في هذه الفترة حيث تبنتها بعض الاحزاب السياسية المصرية ومن ضمنها حزب الوفد . وقد تخوف البريطانيون من تلك الاتجاهات كما ان الملحق الخاص بالسودان اعطى بريطانيا من الناحية الواقعية الفرصة للحفاظ على الوضع الراهن وهو ايضا بمثابة محاولة لطمأنة السودانيين بالاعتراف بحقهم في اقامة حكومة محلية وتقرير مصيرهم . ان موافقة البريطانيين والمصريين على السماح للسودانيين لانتخاب حكومة مؤقتة على ان يقرروا بعد ثلاث سنوات اتحادهم مع مصر اورفض الاتحاد كان خطأ تكتيكيا شجع السودانيين على التمسك به[٧٣] .

وفي عام ١٩٤٧ نوقشت مسألة السودان في مجلس الامن الدولي عندما تقدم المصريون بالتماس الى المجلس المذكور لمناقشة النزاع البريطانى المصرى وتعديل معاهدة ١٩٣٦ بما يضمن تحقيق استقلال مصر التام . وقد تكلم محمود النقراشي رئيس الوزراء المصرى في المجلس قائلا (ان الحدود بين مصر والسودان هي من عمل البريطانيين وان العلاقات بين المصريين والسودانيين يجب حسمها بواسطة المصريين والسودانيين دون تدخل بريطانيا وتحت اطار وحدة وادى النيل) .[٧٤] . كما اكد النقراشي بأنه لا يمكن المساومة على مستقبل السودان .

بينما لم يشر المندوب البريطاني في مجلس الامن الكسندركادوجان Alexander Cadogan الى شيء جديد سوى ما تردد على لسان رئيس الوزراء البريطاني ارنست بيفن في مفاوضات ١٩٤٦ والتي اشرنا اليها اعلاه . اما موقف الاتحاد السوفيتى والصين فكان اكثر تعاطفا مع المسألة السودانية . فقد علق مندوب الاتحاد السوفيتى غروميكو Gromyko بقوله انه من الصعب على مجلس الامن ان يتخذ قرارا نهائيا بشأن السودان دون التعرف على رغبات وطموحات الشعب السودانى[٧٥] . كما دعا مندوب الصين بحق السودان في الحصول على حق تقرير المصير الكامل[٧٦] . وبالرغم من ان خطاب المندوب السوفيتى لم يشر الى حق تقرير المصير الا ان ملاحظاته عكست اهمية التعرف اولا على رغبات السودانيين مباشرة كاساس لاتخاذ قرار نهائي عادل بشأن مستقبل السودان .

وقد فشل مجلس الامن الدولى في اتخاذ قرار بشأن تسوية نهائية لحل النزاع البريطاني المصري بل اتخذ المجلس قرارا في ١٠ ايلول ١٩٤٧ تضمن (حق المجلس بالاحتفاظ بالنزاع البريطاني المصرى في جدول اعماله)[٧٧] .

لقد اشتدت مطالبة الوطنيين السودانيين بالاستقلال التام وظهرت الحاجة الملحة لتشكيل احزاب سياسية . ولكننا اذا ما تحدثنا عن الحركة الوطنية او القومية السودانية نقتصر في كلامنا على التنظيمات الحزبية ولعل اول حقيقة ينبغي ان تذكر عن الاحزاب السودانية هى عدم وجود احزاب وطنية في السودان بل عدم وجود مطلب وطنى منظم واضح محدد بالاستقلال قبل سنة ١٩٤٣ . وترجع اولى المحاولات لخلق احزاب سودانية الى سنة ١٩٤٣ حيث شكل اسماعيل الازهرى اول حزب سياسى في السودان باسم حزب اشيكا او الاخوان وتأسس كذلك حزب الامة من قبل الوطنيين المعتدلين[٧٨] . وقد طالب الحزب الاخير بالاستقلال التام للسودان وكان السودانيون بحسهم السياسى الفطرى يريدون تكوين احزابهم السياسية بانفسهم لا ان تكون لهم هذه الاحزاب من الخارج وتحت رعاية الاوربيين واشرافهم . وفى عام ١٩٤٤ تشكل اول

مجلس استشارى لحكم شمال السودان .

وفى عام ١٩٤٨ تشكلت جمعية تشريعية ومجلس تنفيذى فى السودان وقد توصل البريطانيون والمصريون الى وضع اتفاقية بشأن مسألة الاصلاح الدستورى فى عام ١٩٤٨(٧٩) تضمنت انشاء جمعية بريطانية مصرية سودانية للعمل على تهيئة السودانيين للحكم الذاتي وانشاء جمعية بريطانية مصرية للاشراف على انتخابات الجمعية التشريعية ومشاركة القائد العام للقوات المصرية فى السودان فى جميع اجتماعات المجلس التنفيذى الخاصة بمناقشة مسألة الدفاع واستمرار النظام الادارى لمدة ٣ سنوات قابلة للتجديد . وقد رفض البرلمان المصرى تلك الاتفاقية غير ان الحكومة البريطانية اصرت عليها بدعوى انه لا يمكن الوقوف ضد رغبات الحاكم العام فى السودان كما اتفق الجانبان البريطانى والمصرى اخيرا على ما توصلوا اليه مع اضافة بعض الاقتراحات منها ، ان يكون اعضاء الجمعية التشريعية المنتخبة ٦٥ عضوا ، وان القائد الذى ينتخب من قبل الجمعية يصبح رئيسا للوزارة وان يتراوح عدد اعضاء المجلس التنفيذى ما بين ١٢ الى ١٨ عضوا ، كما اعطى الحاكم العام صلاحيات تخوله عزل الوزراء والاعتراض على قرارات المجلس التنفيذى . ان عملية الادارة الوطنية ، كما يقول (هولت) فتحت الطريق لظهور سياسة متوازنة لتطوير مؤسسات الحكم المحلي بحيث اصبحت قائمة على اساس اقليمى وليس على اساس قبلي(٨٠) .

وفي اثناء المفاوضات البريطانية المصرية (١٩٥٠-١٩٥١) حاول المصريون ايجاد تسوية لمشكلة السودان وخاصة بعد ان ادركوا ان المصالح الاستراتيجية البريطانية جعلت البريطانيين يفكرون فى التفاوض حول مشكلة السودان بمعزل عن مسألة تعديل معاهدة ١٩٣٦ . لقد اعترف البريطانيون فى المفاوضات بان لمصر حقوقها الشرعية فى مياة النيل وقبلوا فكرة وحدة وادى النيل على ان يترك للسودانيين حرية البت النهائي فى تلك المسألة . كما اقترح وزير الخارجية المصري محمد صلاح الدين ، الذى كان رئيسا للوفد المصرى ، مدة سنتين كفترة انتقال ليستعد خلالها السودانيون للحكم . الذاتي ثم تقرير مستقبل السودان(٨١) . مع العلم ان وزير الخارجية المصرى حذر بريطانيا من محاولة فصل مسألة جلاء القوات البريطانية عن مصر عن مسألة جلاء القوات البريطانية عن السودان واعتبر المصريون هذا الامر مسألة حياة او موت بالنسبة الى مصر . ومع ذلك لم يتوصل الطرفان الى اتفاق بشأن السودان .

وبعد قيام الثورة المصرية فى ٢٣ تموز ١٩٥٢ اظهر بعض الضباط المصريين ومنهم محمد نجيب تصميمهم لحل مسألة السودان ، ففى تشرين الاول ١٩٥٢ وجه محمد نجيب دعوة الى سعيد عبدالرحمن المهدى زعيم حزب الامة السوداني لزيارة القاهرة ، وفعلا دارت محادثات بين المصريين والسودانيين حول موضوع استقلال السودان ، وقد وافق حزب الامة على الاقتراح المصرى باستقلال السودان وتحديد (مدة ثلاث سنوات كفترة انتقال لتشكيل حكومة من السودانيين)(٨٢) .

ان تلك الاجراءات شجعت المصريين على مطالبة بريطانيا بأجراء مفاوضات بشأن السودان وفعلا وقعت اتفاقية بشأن الحكم الذاتي وتقرير مصير السودان بين بريطانيا ومصر فى ١٢ شباط ١٩٥٣(٨٣) لقد نصت الاتفاقية على ان تكون فترة الانتقال لمدة ثلاث سنوات يتمكن خلالها السودانيون من تحقيق الحكم الذاتي .. وهي تمهيد لانهاء الادارة الثنائية على السودان .

ونصت الاتفاقية ايضا على انسحاب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان بعد ان يقرر البرلمان السوداني رغبته فى اتخاذ التدابير لتقرير المصير على ان يتم سحب القوات خلال فترة لا تتجاوز ثلاثة شهور وان تقوم الجمعية التأسيسية بتقرير مصير السودان واعداد دستور له على ان تختار الجمعية احد امرين ، اما ارتباط السودان بمصر او ان تختار الاستقلال التام .

ان اتفاقية عام ١٩٥٣ لم تلق معارضة قوية من قبل السودانيين بأستثناء حزب الامة الذى رفض بشدة الاتحاد مع مصر . اما فى مصر فقد ظهرت معارضة غير قليلة من بعض فئات الشعب المصرى (كبعض الاخوان المسلمين والطلبة والعمال)[٨٤] الذين اعتقدوا ان الاتفاقية لم تحقق تسوية نهائية لمشكلة السودان .

وفى الواقع ان اتفاقية ١٩٥٣ التى نصت على قبول مبدأ تقرير المصير مهدت الطريق لقيام انتخابات يمكن عن طريقها وبحرية اختبار مدى شعبية الاحزاب السياسية من خلال التصويت لصالح الاستقلال التام وان كان تنفيذها يحتاج الى درجة كبيرة من الثقة المتبادلة بين بريطانيا ومصر .

وفي عام ١٩٥٤ وفي السودان بالذات قوى الاتجاه الذى يؤيد حصول السودان على الاستقلال ويرفض الاتحاد مع مصر على الصعيد الرسمي . ففى ٢٧ حزيران ١٩٥٤ صرح اسماعيل الازهرى رئيس الوزراء فى السودان المصرى البريطانى قائلا (ان السودان لا يمكن ان تفيد من اى اتحاد اقتصادى او سياسى مع جيرانها فى الشمال)[٨٥] كما صرح داود عبداللطيف نائب الحاكم فى جنوب السودان فى ٢ تموز ١٩٥٤ قائلا (عندما قدمت لنا مصر المساعدة لطرد البريطانيين من السودان قلنا لها شكرا وعندما ذهب البريطانيون قلنا للمصريين شكرا ووداعا)[٨٦] .

وفى تموز ١٩٥٥ سافر اسماعيل الازهرى لمفاوضة المصريين من اجل الاستقلال التام . وكانت النتيجة ان قدم الجمهوريون مشروعهم الذى تضمن القيام بأستفتاء فى السودان حول اقامة دولة سودانية مستقلة او قيام وحده بين مصر والسودان . وقد وافق البرلمان المصرى اخيرا على ان يصبح السودان جمهورية مستقلة ابتداء من ١ كانون الثاني ١٩٥٦ . وفي (كانون الثاني ١٩٥٦) وقع اسماعيل الازهرى اعلان استقلال السودان . ان خضوع السودانيين كما يرى (جورج كربتون) سلميا (للحكم الثنائى البريطاني والمصرى واكتسابهم درجة عالية من المهارة السياسية والادارية جعلتهم مؤهلين للحكم الذاتي والاستقلال التام[٨٧] .

كفاح المصريين من اجل الاستقلال التام :

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية نشط المصريون بمطالبة البريطانيين بتعديل معاهدة ١٩٣٦ التى وقعت لصالح بريطانيا . ففى حزيران ١٩٤٥ اعلنت الحكومة المصرية بانها سوف لا تتقيد بمعاهدة ١٩٣٦ وانه من الضرورى العمل على جلاء القوات البريطانية عن مصر جلاء تاما) . وفى كانون الاول ١٩٤٥ بعثت الحكومة المصرية بمذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية اكدت فيها على ضرورة اعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦ بعد ان تغيرت الظروف التى عقدت فيها واقامة علاقات على اساس الثقة المتبادلة[٨٨] .

وفي عهد وزارة محمود النقراشي (١٩٤٥) بذلت محاولات لاقناع البريطانيين بالموافقة على تعديل معاهدة ١٩٣٦ ولكن لندن لم تعر هذه المحاولات التفاتا بحجة ان المعاهدة تبقى سارية المفعول لمدة عشرين سنة باتفاق بريطانيا ومصر وكما نصت المعاهدة على ذلك ولا يجوز للدولتين النظر فى تعديل المعاهدة الا بعد انتهاء تلك المدة وان بريطانيا لن تضطلع باية مسئولية فى اية تسوية .

غير ان بريطانيا سرعان ما قبلت المفاوضة فى عهد وزارة اسماعيل صدقى (١٧ شباط ١٩٤٦) التى خلفت وزارة النقراشى . دارت المحادثات فى لندن وقد ترأس الوفد المصرى اسماعيل صدقي بينما ترأس الوفد البريطاني (ارنست بيفن) وزير الخارجية البريطاني . نتج عن المفاوضات اعداد مسودة مشروع معاهدة اطلق عليها (معاهدة صدقي ـ بيفن) تضمنت موافقة بريطانيا ومصر على ان لا تدخل كل منهما حلفا موجها ضد احداهما وان يتم الجلاء التام للقوات البريطانية عن الاراضى المصرية فى الاول من ايلول ١٩٤٩ وقد رفض المشروع الذى حمله صدقي من لندن الى القاهرة من قبل البرلمان المصرى بسبب عدم

توصل الطرفين الى اتفاق نهائي بشأن السودان .
ومن العوامل الاخرى التى ساهمت فى فشل المفاوضات تدهور الاوضاع الداخلية فى مصر بسبب انتشار الارهاب والاغتيالات ورفض حزب الوفد ، الذى لم يكن يتمتع بشعبية كبيرة المشاركة فى الوفد المفاوض . وقد علق (ارنست بيفن) في تصريح له عن فشل المفاوضات معربا عن اسفه بقوله (ان الحكومة البريطانية كانت تتفاوض مع حكومة اقلية)[٨٩] كما اعلن بيفن فى مجلس العموم البريطاني فى ٢٧ كانون الثانى ١٩٤٧ بأن اسماعيل صدقي ابلغه بانه لا يوجد فى البروتوكول الملحق بالمعاهدة والخاص بمسألة السودان اى شيء يؤكد حق السودانيين فى حصولهم على الاستقلال التام[٩٠] .

ولا بد لنا ان نتساءل عن الدافع وراء موافقة بريطانيا على التفاوض ورفضها قبل ذلك القيام باية تسوية هل ان بعض الساسة البريطانيين ارادوا كسب الوقت فى الاضطرابات المستمرة وتهدئة الرأى العام ، ومهما يكن من امر فأن البريطانيين انما ارادوا بذلك تهدئة المصريين والتلويح لهم بتحقيق اهدافهم فى المستقبل .

لقد ادرك بعض الساسة المصريين مدى خطورة التعنت الذى اتصف به الموقف البريطاني فبذلوا اقصى جهودهم لعرض القضية المصرية على مجلس الامن الدولى . ففى ٢٥ مارس ١٩٤٧ اتخذ مجلس الوزراء المصرى قراره بقطع المفاوضات وعرض القضية على مجلس الامن وجاء فى القرار (ان الالتزامات والعروض التى جاء بها الجانب البريطانى لا ترضي الحقوق الوطنية للمصريين)[٩١] .

وفى مجلس الامن الدولي تمت مناقشة اعضاء المجلس للنزاع البريطاني المصرى فى الفترة المحصورة بين ٥ اب و ١٠ ايلول ١٩٤٧ وقد القى محمود النقراشي رئيس الوزراء المصرى خطابا فى مجلس الامن قال فيه (ان معاهدة ١٩٣٦ لا جدوى من استمرارها بعد الحرب ولا يمكن تحديد العلاقات البريطانية المصرية بموجبها بل يجب ان تحدد تلك العلاقات بموجب القانون الدولى وميثاق الامم المتحدة)[٩٢] كما تطرق المسئول المصرى فى خطابه الى مشكلة السودان[٩٣] .

وبعد فشل جهود النقراشي فى مجلس الامن عاد الى مصر وفي اثناء حكمه نشبت حرب فلسطين (١٩٤٨) ورافق نشوبها تدهور الاوضاع الداخلية فى مصر وانتشار ظاهرة الاغتيالات التى راح ضحيتها النقراشي نفسه حيث اغتيل فى ٢٨ كانون الاول ١٩٤٨ .

وفى اذار ١٩٥٠ طالبت الوزارة الوفديه التى تشكلت برئاسة مصطفى النحاس البريطانيين باجراء مفاوضات لتعديل المعاهدة فأستجابت بريطانيا لرغبة المصريين . بدأت المفاوضات فى لندن وقد ترأس الجانب البريطانى ارنست بيفن بينما ترأس الوفد المصرى محمد صلاح الدين وزير الخارجية ، لقد اعلن المفاوض البريطانى عن وجهة نظره حول ضرورة جلاء القوات البريطانية خلال ٥ سنوات بأستثناء تواجد بعض القوات مع قوة مصرية بحجة حماية امن المنطقة بأستخدام قوة دفاعية بريطانية ـ مصرية مشتركة . اما رئيس الوفد المصرى فقد اصر على جلاء جميع القوات البريطانية خلال سنة واحدة . وكان صلاح الدين قد اكد فى مذكرة قدمها الى الحكومة البريطانية على (ان معاهدة ١٩٣٦ انهت الحماية على مصر ولم تنه الاحتلال)[٩٤] غير ان تلك المفاوضات منيت بالفشل مما اضطر محمد صلاح الدين الى القاء بيان فى البرلمان المصرى فى ١٦ آب ١٩٥١ انتقد فيه بشدة مواقف بريطانيا من مسألة استقلال مصر ومبادرتها الى قطع المفاوضات[٩٥] . وهكذا فشل حزب الوفد فى جهوده فى المفاوضة التى كان يأمل منها تحقيق نجاح يساعده على استعادة شعبيته . ولكن حزب الوفد اصبح غير قادر على مواجهة متطلبات المرحلة الجديدة مما دفع الحزب السعدى والاخوان المسلمين والاحزاب السياسية الاخرى الى المطالبة بأحداث تغييرات جذرية[٩٦] .

ان الازمة البريطانية بقيت دون حل بحيث كانت تنذر بأحتمالات التفجر ، واتضح ان البريطانيين ارادوا ان تبقى مختلف خيوط

المفاوضات منفصلة مما دفع الحكومة المصرية فى عام ١٩٥١ الى الغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد والقى مصطفى النحاس رئيس الوزراء المصرى خطابا فى البرلمان فى ٨ تشرين الثانى ١٩٥١ اكد فيه على الغاء معاهدة ١٩٣٦ وملحقاتها وانهاء العمل باتفاقيتى ١٩ مارس و١٠ تموز ١٨٩٩ المتعلقة بادارة السودان وما ترتب عليها من التزامات واشار فى خطابه الى قضية السودان مؤكدا على ان للسودان قانونا « للحكم الذاتى ولها دستور ايضا[٩٧] .

وكان للخطاب الذى القاه رئيس الوزارة المصرية صداه على الجماهير المصرية التى بدأت معركة ضارية مع البريطانيين فى منطقة قناة السويس . حيث قامت مجموعة مسلحة اغلبهم من الشباب المصرى بتدمير بعض المنشآت البريطانية .

وكان من الطبيعى ان يكون رد الفعل البريطانى قويا تجاه الغاء المعاهدة والعمليات المسلحة التى قام بها المصريون . فقد اكد ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى فى خطاب له فى مجلس العموم البريطانى فى ٦ تشرين الثانى ١٩٥١ « حق بريطانيا فى استعادة حقوقها وفقا للمعاهدة » وهدد باستخدام القوة[٩٨] . وفى مصر قامت القوات البريطانية بالسيطرة على بعض المراكز الحساسة فى منطقة قناة السويس كمنشآت الكهرباء والسكك الحديد واوعزت السلطات البريطانية الى المسئولين المصريين باخلاء محافظة الاسماعيلية ، ونتيجة لذلك حصلت مصادمات بين القوات البريطانيا وبين رجال الشرطة المصريين ، تمكن بعد ذلك البريطانيون من السيطرة على الموقف غير ان الجماهير المصرية سرعان ما خرجت الى شوارع القاهرة وقامت باشعال الحرائق وعبرت عن استنكارها لتصرفات البريطانيين وشجبت الاحتلال البريطانى .

وبالنظر لما سبق فقد فشلت جميع محاولات المصريين لاجراء مفاوضات مع بريطانيا وانقطع الامل فى قيام محاولات جادة لاعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦ بسبب تعنت البريطانيين وكانت هذه بلاشك من العوامل التى ادت الى قيام ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ تلك الثورة التى كان ابرز ما نتج عنها فى تلك الفترة توقيع اتفاقية الجلاء لعام ١٩٥٤ .

ومن الجدير بالاشارة الى ان بريطانيا ارادت اشراك الولايات المتحدة الامريكية وجعلها وسيطة بينها وبين مصر فى مسألة حل نزاعها مع مصر . وقد ظهر ذلك بوضوح عندما اصدرت بريطانيا وحلفاؤها فى ٥ تشرين الاول ١٩٥١ بيانا حول ايجاد قيادة مشتركة للدفاع عن الشرق الاوسط[٩٩]، على ان تساهم مصر بتقديم المساعدات الدفاعية فى حالة الحرب واشترطت بريطانيا من اجل اعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦ وسحب قواتها من الاراضى المصرية وتخليها عن قاعدتها العسكرية فى قناة السويس لمصر، ان تكون مصر مقر القيادة المشتركة واعتبرت موافقة مصر على الانضمام محفزا للأقطار العربية على الدخول فى هذه المنظمة[١٠٠]. غير ان مصر اعلنت عن رفضها للوساطة الامريكية وللمقترحات الغربية التى كان الهدف الاساسى منها ربط مصر بعجلة الدول الغربية عن طريق الاحلاف العسكرية. على حين استمرت محاولات ربط مصر بالاحلاف الغربية، وظهر ذلك واضحا بعد قيام وزير الخارجية الامريكية (جون فوستر دالاس J.f. dulles بجولة فى اقطار الشرق الاوسط فى عام ١٩٥٣ ومن ضمنها مصر حيث اعرب المسؤول الامريكى عن تفاؤله خلال لقاءاته مع جمال عبدالناصر وغيره من قادة الثورة المصرية فى «ان تستجيب مصر لدعوة الغربيين للدخول فى حلف عسكرى[١٠١] يجمع الاقطار المجاورة للاتحاد السوفيتى بالاضافة الى بعض الاقطار العربية بدعوى محاربة الشيوعية والتخوف من احتمالات قيام الشيوعيين بمبادرات فى الشرق الاوسط تشكل تهديدا للمصالح الغربية فى المنطقة وخاصة مصالح بريطانيا النفطية. وقد دعت بريطانيا بصورة رسمية الولايات المتحدة الامريكية لمساندتها دبلوماسيا لتوقيع اتفاقية مع مصر فرحب الامريكان بذلك. ولما عقد انتونى ايدن

EDEN وزير خارجية بريطانيا فى حكومة المحافظين مع الرئيس الامريكى ايزنهاور لقاء فى واشنطن فى آذار ١٩٥٣ اعرب الاخير عن رغبته فى احتفاظ بريطانيا بمؤسسات فى مصر تحت الاشراف البريطانى المباشر[١٠٢] بل ذهب الرئيس الامريكى الى ابعد من ذلك عندما أبدى رغبته فى الحصول على قاعدة امريكية فى مصر وانه سيعمل بجدية من اجل ذلك[١٠٣]. وعندما اعرب الرئيس الامريكى فى تموز ١٩٥٣ عن رغبته فى مساعدة مصر عسكريا واقتصاديا فى حالة توصلها الى عقد اتفاق حول قناة السويس مع بريطانيا بادر محمد نجيب الى مهاجمة التدخل الامريكى لصالح البريطانيين [١٠٤] . كما هاجم عبدالناصر السياسة الأمريكية في هذا الشأن[١٠٥] . وهكذا كشفت تلك السياسات ان المخططين كانوا يناقشون الخيارات التي يمكن اللجوء اليها ليس فقط زمن الحرب ولكن ايضا فى اوضاع الازمات . علما بأن الولايات المتحدة لم تكن متحمسة بقوة للتدخل مباشرة فى النزاع البريطانى المصرى وكانت قد تجاهلت دعوة بريطانية فى عام ١٩٥٢ حول امكانية وضع قوة امريكية فى منطقة قناة السويس .

وعلى اية حال فان ضغط الرأى العام المصرى والتدخل الامريكى شجع المصريين والبريطانيين على فتح باب المفاوضات من اجل التوصل الى اتفاقية جديدة ودارت المحادثات بين بريطانيا ومصر فى القاهرة فى آذار ١٩٥٣ . ترأس الوفد المصرى محمد نجيب بينما ترأس الوفد البريطانى الجنرال براين روبرتسون Brian Robertosn القائد العام للقوات البريطانية فى مصر بحضور السفير البريطانى فى القاهرة رالف ستيفنسون والسفير الامريكى فى القاهرة جيفرسون كافرى Jefferson Caffrey غير ان المفاوضات منيت بالفشل .

وفى نيسان ١٩٥٣ تجددت المفاوضات بين بريطانيا ومصر . وقد اكد عبدالناصر الذى حضر المفاوضات ان مصر مستعدة لاستعادة قناة السويس مع ابقاء الفنيين البريطانيين فى القناة اذا لم تكن بريطانيا مقتنعة تماما لكى توقع اتفاقا لانهاء الاحتلال[١٠٦] . واعلن السفير الامريكى كافرى الذى حضر المفاوضات ايضا عن استعداد الولايات المتحدة لتقديم المساعدة لمصر فى حالة حل النزاع والتوصل الى اتفاقية مع بريطانيا[١٠٧] . ومع ذلك فان المفاوضات منيت بالفشل بسبب اصرار البريطانيين على عودة القوات البريطانية ثانية الى القناة فى حالة تعرض تركيا وايران او اى عضو من اعضاء الجامعة العربية الى خطر خارجي وفى هذه الاثناء حاول بعض الاخوان المسلمين القيام بمظاهرات « تعارض الوجود العسكرى البريطانى فى قناة السويس وقد القى القبض على عدد منهم فى ٣١ مارس ١٩٥٤[١٠٨] .

وبعد ان وصلت المفاوضات البريطانية المصرية الى طريق مسدود اتجه قادة الثورة المصرية الى المعسكر الاشتراكى من اجل تطوير علاقات مصر مع هذا المعسكر وخاصة بعد ان ترددت بريطانيا فى تزويد مصر بالاسلحة . وقد خطا المصريون خطوات جريئة منها تطوير علاقات مصر الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى الى مستوى السفارة وتوقيع اتفاقية معه ايضا فى مجال النفط . ونتيجة لذلك ساد اعتقاد فى الاوساط الغربية ان عبدالناصر تبنى سياسة عدم الانحياز كخطوة لضرب النفوذ الغربى . وقد رد عبدالناصر على ذلك بقوله « ليس من المفيد التحدث عن عدم الانحياز لأنه ليس له معنى الا اذا أصبحت الدولة من القوة بحيث يمكنها تبني مثل تلك السياسة »[١٠٩] .

ان تقرب عبدالناصر من المعسكر الاشتراكى فى الواقع دفع بريطانيا الى المبادرة من اجل اجراء مفاوضات مع مصر لعقد اتفاقية مستقلة ايضا التغيرات التى حصلت فى السلطة السياسية فى مصر[١١٠] . ففى تموز ١٩٥٤ طلب السفير البريطانى فى القاهرة رالف ستيفنسون من الحكومة المصرية اجراء مفاوضات بناء على تعليمات تلقاها من حكومته . وقد جرت المفاوضات فى القاهرة بين جمال عبدالناصر والجنرال انتونى هيد **Anthony Head** سكرتير وزارة الحرب

البريطانية وبحضور السفير البريطاني في القاهرة نتج عن تلك المفاوضات توقيع اتفاقية في ١٩ تشرين الاول ١٩٥٤[١١١] . وكانت رغبة مصر في تقوية اقتصادها والافادة من الامكانات الامريكية المادية من الاسباب التي دفعت مصر الى توقيع الاتفاقية بالاضافة الى العوامل الوطنية .

نصت المادة الاولى من الاتفاقية ، المسماة (باتفاقية الجلاء) على جلاء القوات البريطانية عن الاراضي المصرية جلاء تاما خلال عشرين شهرا[١١٢] ، واشترطت المادة الرابعة ان تقدم مصر لبريطانيا التسهيلات اللازمة لتهيئة القاعدة للحرب كاستخدام الموانيء المصرية في حالة تعرض تركيا او اي طرف في معاهدة الدفاع المشترك بين اقطار الجامعة العربية الموقع عليها في نيسان ١٩٥٠ لهجوم من الخارج ، ووافق الطرفان على ان قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر وهي طريق مائي له اهميته الدولية من النواحي الاقتصادية والاستراتيجية والتجارية (المادة ٨) . كما وافق الطرفان على ان تكون مدة الاتفاقية سبع سنوات (المادة ١٢) وان تعمل بريطانيا على مساعدة مصر لتسهيل مهمة دخولها في عضوية الامم المتحدة .

ان اتفاقية ١٩٥٤ كان لها صدى واسع في اوساط الرأي العام المصري وفي خارج مصر فقد انتقد بعض المصريين عبدالناصر واتفاقية ١٩٥٤ واعتبروها « موجهة ضد مصالح مصر ومصالح العرب »[١١٣] . واعتبر محمد نجيب في رسالة وجهها الى عبدالناصر اتفاقية ١٩٥٤ «موجهة ضد تطلعات الشعب المصري»[١١٤] كما استمر الاخوان المسلمون في معارضتهم لعبدالناصر والثناء على محمد نجيب الذي اعتبروه « منقذ مصر » لأنه عارض اتفاقية القناة بصورة علنية[١١٥] . وقد فشلت محاولة خطط لها من قبل الاخوان المسلمين لاغتيال عبدالناصر . اما في الخارج فقد رحبت وزارة الخارجية الامريكية باتفاقية ١٩٥٤ واعتقدت ان الاتفاقية انما وضعت اساسا قويا للاستقرار والامن في الشرق الادنى[١١٦] . كما ساد اعتقاد عام في الغرب بأن من الممكن « جذب مصر للدخول في شبكة للدفاع عن الشرق الأوسط موجهة ضد الاتحاد السوفيتي »[١١٧] .

ومن الجدير بالذكر ان المادة الرابعة من اتفاقية ١٩٥٤ والتي ربطت استخدام القاعدة بتركيا كان الهدف منها ربط مسألة الدفاع عن مصر بحلف الاطلسي الذي بدأت الخطوات التمهيدية لتأسيسه منذ عام ١٩٤٨ ، وكانت بعض الدول ومن ضمنها بريطانيا تعارض انضمام تركيا الى الحلف لأن انضمامها سيؤدي الى ضعف علاقات حلف الاطلسي مع شعوب مصر وايران كما ان بريطانيا رفضت بشدة انضمام تركيا الى الحلف لأنها كانت ترمي الى انشاء حلف من اقطار الشرق الاوسط لانها كانت تدرك اهمية استخدام تركيا لخدمة مصالحها في المنطقة وقد تخلت بريطانيا عن موقفها ازاء تركيا فعلا بعد ان قرر الاتراك اقامة حلف لاقطار الشرق الاوسط . يضاف الى ذلك ان الولايات المتحدة الامريكية ايدت في بداية الخمسينات اشتراك تركيا في حلف الاطلسي لضرورات الدفاع عن الشرق الاوسط مما دفع بريطانيا الى الرجوع مرة اخرى الى تأييد اية مبادرة من شأنها عقد معاهدات ثنائية بين اقطار المنطقة فنراها تعلن ترحيبها بالمعاهدة الثنائية بين تركيا وباكستان (٢ نيسان ١٩٥٢) لتطوير العلاقات بين البلدين في الوقت الذي كانت فيه مصر لا تميل الى تأييد الدعوات البريطانية خوفا من ان يؤدي ذلك الى تجدد السيطرة الاستعمارية عليها .

وبعد توقيع اتفاقية القناة اعتقدت بريطانيا انه من الممكن ربط مصر بحلف عسكري تنوي اقامته في المنطقة لعدد من السنين وقد ضغطت الحكومة البريطانيا على مصر للدخول في حلف بغداد[١١٨] . ووجد هذا الضغط آذانا صاغية في الولايات المتحدة . ولكن عبدالناصر رفض بشدة الضغوط البريطانية ودعوات نوري السعيد لدخول مصر في الحلف، وشدد على ضرورة توحيد الجهود العربية لمصلحة العرب والأمن العربي لأن عبدالناصر كان يعتقد بضرورة ابتعاد مصر عن الارتباط باحلاف

عسكرية خشية تجدد السيطرة الاستعمارية واعتبر نورى السعيد اداة لتحقيق المصالح البريطانية فى المنطقة ، كما اكد عبدالناصر فى تصريح له « ان القومية العربية لا يمثلها زعيم واحد بل انها كانت تتمثل بكل العرب الذين يؤمنون بانفسهم ووحدتهم من اجل القوة والامن ولذلك فبامكانهم دحر الاستعمار .

وقد علق عبدالناصر فى تصريح له على دخول العراق عضوا فى حلف بغداد بقوله « ان دخول العراق فى الاحلاف العسكرية ضربة للتضامن العربى والكفاح ضد الغرب. ان تصريح عبدالناصر هذا جاء فى الواقع ردا على مناورات نورى السعيد الذى اعتبر معاهدة ١٩٥٤ مهمة من الناحية الدفاعية فى حالة تعرض الاقطار العربية لخطر خارجى ، ولان انضمام مصر التى كانت تلعب دورا بارزا فى الشئون العربية الى الحلف من شأنه ان يشجع الاقطار العربية الاخرى للانضمام اليه .

ولم يكتف عبدالناصر باتخاذ مواقف مناوئة للاحلاف العسكرية فى المنطقة بل اتجه نحو المعسكر الاشتراكى بعد ان فقد الامل فى الحصول على اسلحة من بريطانيا وحلفائها فعقد صفقة اسلحة مع تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٥ وابدى استعداده لقبول المساعدات العسكرية من الاتحاد السوفيتى . ان ميل عبدالناصر نحو عدم الانحياز والتقرب من المعسكر الاشتراكى ازعج الحكومات العربية الاخرى التى كانت تتبع سياسة موالية للغرب. وكان تردد الغرب كما يعتقد احد الباحثين قد اعطى الاتحاد السوفيتى فائدة كبيرة وساعد على حصول عبدالناصر على شعبية بين الجماهير العربية .

لقد بذل الغرب جهودا للتقرب من عبدالناصر وكسب صداقته بسبب اتجاهه نحو المعسكر الاشتراكى وكسياسى وطنى وابتلاعه فى تيار معتدل ناحية الغرب ، غير ان عبدالناصر لم يتردد بوصفه ثوريا معتدلا فى توجيه بعض الضربات الموجعة للنفوذ الغربى فاقدم على خطوته الجريئة بتأميم قناة السويس فى ٢٦ تموز ١٩٥٦ باعتباره حقا من حقوق السيادة المصرية .

الخاتمة :

كان هدف بريطانيا من احتلالها لمصر فى عام ١٨٨٢ اعادة سيطرتها الكاملة عليها بالقضاء على ثورة احمد عرابى التى تعتبر من الحركات القومية الرائدة فى المنطقة العربية وكان التأثير السياسى الذى نتج عن ذلك هو بقاء مصر ضمن حلقة النفوذ البريطانى وابعادها من السيطرة التركية وقد حاولت بريطانيا فى الوقت نفسه حماية مصالحها ومصالح الدول الغربية ، وتمكنت من دفع المصريين بعد ان اصبحت مصر ضمن الاستراتيجية البريطانية الى الصراع على الحكم بشرط ان تتولى هى تطوير الحكم الذاتى تحت رعايتها واشرافها .

ولقد اصبح فى اعتقاد اكثر السياسيين البريطانيين ان سياسة بريطانيا تجاه مصر هى ضمان للمصالح الامبراطورية فى السودان والمواصلات مع الهند ذلك لان قناة السويس ، الممر المائى الهام اصبح تحت سيطرة بريطانيا التى مكنتها من الهيمنة على منفذى البحر المتوسط والبحر الاحمر واستخدام القناة لصالحها فى حالة وقوع حرب فى اوروبا او فى المنطقة ذاتها . كما اصبح لبريطانيا بعد توقيع اتفاقية ١٨٩٩ الحق فى الاشراف على علاقات السودان الخارجية الامر الذى ادى الى قيام النزاع البريطانى المصرى حول السودان والذى تطور بسبب تشابك المصالح البريطانية فى السودان ورغبة بريطانيا فى احكام سيطرتها عليه وابعاد مصر عن منافستها فى حكم السودان حكما مباشرا .

لقد مرت السياسة البريطانية بمرحلة اخرى تجلت فى اعلان الحماية على مصر فى عام ١٩١٤ ثم تلتها مرحلة الغاء الحماية واعلان الملكية بدعم من بريطانيا فى عام ١٩٢٢ . وكان الغاء الحماية قد تضمن شروطا مخلة بالاستقلال المصرى .

ويمكن تحديد ابعاد السياسة البريطانية تجاه مصر بعد اعلان الاستقلال بأنها كانت تهدف الى بسط نفوذها السياسى والاقتصادى والعسكرى

على مصر كما كانت سياسة عدائية تهدف الى اضعاف الحركة الوطنية المصرية وشلها. وقد سعى الاستعمار البريطاني الى ربط مصالحه بفئة من المصريين من اعوانه والدفاع عن كيان هذه الفئة ووجودها واشعارها بخطورة الحركة الوطنية على مصالحها الاقتصادية المحلية وعلى مستقبلها السياسى.

ان تدخل الحكومة البريطانية فى شؤون مصر ظهر واضحا بعد مقتل (السيرلى ستاك) سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام فى عام ١٩٢٤. وكان هدف السياسة البريطانية من ذلك هو اجهاض الحركة الوطنية والانفراد بالسيطرة على السودان. وقد ساد الاعتقاد فى الاوساط السياسية المصرية ان بريطانيا ليست لها سياسة متماسكة وثابتة تجاه مصر، وان القرارات التى تتخذها بشأن مصر قائمة على اساس غير واضح فى محاولة لتحقيق توازن بين المصالح والمواقف السياسية بشكل عشوائى.

وفى عام ١٩٣٦ رضخت بريطانيا لضغوط الرأى العام المصرى ولظروف دولية واقدمت على عقد معاهدة ١٩٣٦ التي اعتبرها معظم الوطنيين المصريين معاهدة لا فائدة منها لانها قيدت السياسة المصرية وان كانت هى فى الواقع خطوة لاستقرار العلاقات البريطانية المصرية التى سرعان ما دمرت اثناء الحرب العالمية بسبب السياسات التى اتخذتها مصر ازاء الحرب والتى اتخذتها بريطانيا ذريعة للتدخل السافر فى شؤون مصر الداخلية وخاصة فى عام ١٩٤٢.

وفى عام ١٩٤٥ ابدت بريطانيا تأييدها لمساعى مصر فى السياسات العربية. فنرى بريطانيا مثلا قد ايدت المساعى المصرية من اجل اقامة الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ لا سيما وان مصر كانت نشطة فى مجال السياسة العربية. وكان تأييد بريطانيا لمساعى مصر على اساس ان تلك المنظمة العربية ستقوم على احترام استقلال وسيادة كل قطر عربى دون اعتبارها سلطة سياسية عليا. الا ان بريطانيا كانت تستهدف اخضاع الجامعة العربية لنفوذها بعد ان شجعت على قيامها وقد تبين لبريطانيا ان اخضاع الجامعة العربية لاشرافها ليس امرا سهلا «فتغيرت نظرتها للجامعة وعملت على افساد نشاطها وعرقلة تعاونها مع اعضائها وخاصة بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨. واتجهت بريطانيا فى بداية الخمسينات الى مشروعات استعمارية اخرى لربط مصر والاقطار العربية بعجلة الاستعمار الغربى وادخالها فى نظامه الدفاعى.

ان الفترة المحصورة بين ١٩٤٨ و١٩٥٢ كانت فترة اختبار للحركة الوطنية المصرية لكونها شهدت مؤامرة تقسيم فلسطين ثم الاعتراف بالكيان الصهيونى كدولة فى قلب الوطن العربى بمساعدة الدول الاستعمارية، وتردد بريطانيا فى اتخاذ قرارها النهائى حول جلاء القوات البريطانية عن قناة السويس. وبإيجاز فإن بريطانيا لم تظهر فى هذه الفترة اى اهتمام جدى لتوقيع اتفاقية مع مصر والوصول الى حل مرض للقضية المصرية مما دفع المصريين من الضباط الاحرار لاستلام السلطة السياسية فى مصر بالوسائل المتاحة لهم، وهذا ما تم فعلا فى ٢٣ تموز ١٩٥٢ حيث سقطت الملكية وتمكن الجمهوريون من الضغط على بريطانيا للتوصل الى اتفاق نهائى بشأن جلاء القوات البريطانية عن مصر فى عام ١٩٥٤ وقد تم عقد الاتفاقية رغم بعض الشروط التى فرضت عليهم.

وبعد توقيع اتفاقية الجلاء اتجهت السياسة البريطانية نحو الضغط على مصر للاشتراك فى الاحلاف العسكرية الغربية بمساعدة الولايات المتحدة الامريكية من اجل ايجاد تكتل من قبل بعض الاقطار العربية واقطار اخرى ضد الاتحاد السوفيتي بدعوى التخوف من التسلل الشيوعى فى المنطقة. وقد رفضت مصر رسميا تلك الدعوات وادلى عبدالناصر بعدة تصريحات زادت قلق بريطانيا، كما عارضت مصر دعوة الغربيين للدخول فى حلف بغداد عام ١٩٥٥. هذا الحلف الذى، كما يقول عنه احد الباحثين «ولد اثارا سلبية على تفكير عبدالناصر وحطم فرص اقامة علاقات جديدة ومتطورة بين بريطانيا ومصر قائمة

على أساس التفهم للمصالح المشتركة .

وينبغي الاشارة الى ان عبدالناصر وبعض رفاقة من العسكريين اتهموا بموالاتهم للغرب وتقربهم لكسب صداقة الولايات المتحدة الامريكية والالتزام بتعهدات معينة تجاه الغرب. وفى الواقع ان عبدالناصر ورفاقه كانوا يرغبون فى ان تكون مصر دولة ذات استقلال تام مع الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الغرب فى السنوات الاولى من حكمهم، وكان التكتيك الدبلوماسى المصرى يرمى الى الاحتفاظ بصداقة الولايات المتحدة لكى يساعدهم ذلك على تلافى اية صعوبات قد تواجه مسألة الاستقلال المصرى وحصول مصر على حقوق السيادة كاملة. ولم يكن ايضا لعبدالناصر أية اتصالات مع امريكا قبيل اندلاع ثورة ١٩٥٢ بل ان اتصالاته بالامريكان ظهرت اثناء قيامه بمفاوضات مع البريطانيين فى عام ١٩٥٤ وكان موقف الامريكان يميل الى تأييد عقد اتفاقية بين بريطانيا ومصر مشروطة بقبول مصر بالشروط البريطانية مقابل جلاء القوات البريطانية عن مصر جلاء تاما. هذا وقد اكتفى محمد نجيب فى مذكراته بالاشارة الى ان علي صبرى، وهو من المقربين لعبدالناصر، كانت له علاقة صداقة مع الامريكان قبيل واثناء قيام الثورة المصرية، واصبح علي صبرى مستشارا سياسيا لعبدالناصر بعد الثورة. ومما يجب ذكره هنا ان عبدالناصر اعتبر التعاون مع الغرب فى تلك الفترة بمثابة تقوية الجامعة العربية بمساعدة الغرب دون التورط فى الدخول فى احلاف عسكرية موالية للغرب. كما ان عبدالناصر الذى كان يواجه اعباء الحكم لم يجد مفرا من التهييج الوطنى فالخطوات التى اقدم عليها كلها خطوات فى الاتجاه السليم ولكنها تمت داخل اطار لم يكن فى البداية يستهدف الاصطدام بشكل حاد مع بريطانيا.

ان الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا كانتا تدركان اهمية اشراك بعض الإقطار العربية فى حلف موال للغرب لأن ذلك من شأنه ان يعرقل قيام هذه الاقطار بأجراءات عسكرية ضد الكيان الصهيونى خاصة وان الولايات المتحدة صارت تبذل جهودها لمديد الصداقة مع النظام السياسى فى مصر. وقد نصح دالاس وزير الخارجية الامريكية فى عام ١٩٥٣ الحكومة البريطانية بالجلاء عن قاعدة السويس وايجاد وسيلة لحصول مصر على سيادتها التامة والمساعدة على استقلال السودان. وكان (دالاس) قبل ذلك قد تفهم موقف مصر من منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ضد خطر الشيوعية وقابل اعتراضات مصر على تلك المنظمة بالتقدير واظهر تعاطفا مع ثورة الجيش المصرى. كما ان (دالاس) لم يكن قد شجع بقوة فكرة ادخال مصر فى حلف بغداد لفترة مبدئية بل انه نصح (اسرائيل) بتسوية خلافاتها مع البلاد العربية.

ان خروج بريطانيا من السويس يعتبر من الانجازات الهامة التى حققتها ثورة تموز وله نتائج هامة. فقد ادى جلاء القوات البريطانية من الاراضى المصرية الى ان تتخذ (اسرائيل) موقفا اصلب من العرب مما دفع عبدالناصر الى طلب السلاح من الاتحاد السوفيتى حيث وقع اتفاقا مع السوفيت فى عام ١٩٥٥ حول الاسلحة بعد ان تردد الغرب فى تزويد مصر بالاسلحة لأسباب عسكرية ومالية غير مقبولة لدى المصريين. وبمجرد حصول عبدالناصر على صفقة الاسلحة من الدول الاشتراكية وجدت بريطانيا نفسها فى فراغ سياسى وكذلك الحال بالنسبة للولايات المتحدة. وصار الغرب يدرك تماما ان من اهداف المساعدات السوفيتية لمصر وخاصة فى المجال العسكرى هو الضغط على الغرب للانسحاب ليس من مصر فحسب بل من افريقيا. وهذا امر يشكل بطبيعة الحال تحديا واضحا للغرب. ان هذا التحدى دفع بريطانيا والولايات المتحدة لايجاد احلاف عسكرية تهدف الى تطويق الاتحاد السوفيتى وافشال محاولاته الدبلوماسية المتكررة، والمتعددة الجوانب والتى تهدف لخلق انشقاق داخل المعسكر الغربى وابعاد شبح الحرب العالمية الثالثة عن الغرب والولايات المتحدة لفترة طويلة.

ولابد من الاشارة الى ان الاحزاب والجماعات

السياسية التى كان لها نشاط واضح فى مصر حتى عام ١٩٥٢ والتى كان بعضها يعتنق مبادىء خاصة، كما اشرنا فى سياق دراستنا لم تكن احزابا ثورية جادة من اجل استقلال مصر بل تراوحت اهدافها بين المطالبة باصلاحات عامة وبين الدعوة الى الاستقلال التام لمصر اى انها بحثت كعادتها عن الطريق الوسط او كما يسمى بالحل الثالث، كما ان بعض الجماعات السياسية التى اتخذت من السياسة حرفة نراها تتقرب من القصر تارة ومن السفارة البريطانية تارة اخرى من اجل مصالحها والتوصل الى الكراسى الوزارية من دون قاعدة او مبادىء معينة، وانحصر الحكم بجماعات محدودة كانت اغلبها تحظى برضى السفارة البريطانية تارة او برضى القصر تارة اخرى وهى لا تحترم الاوضاع الدستورية ولا النتائج الانتخابية ولا التوازن السياسى فى مصر. ان كل ذلك بالاضافة الى انتشار الوعى القومى بين الجماهير المصرية والتى وجدت نفسها فى صراع نفسى مستمر نتيجة شعورها بأخفاق الحكومات المتعاقبة فى معالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التى يعانى منها المجتمع المصرى وفشلها فى حصول مصر على حقوق السيادة الكاملة، وما اصاب العرب فى نكبة فلسطين بسبب التأثيرات السياسية العالمية، قد ادى الى التفكير الجدى من قبل الضباط المصريين للتخلص من مخلفات السيطرة الاستعمارية البريطانية والتوجه بأخلاص لحل المشاكل المصرية فقاموا بثورتهم المعروفة عام ١٩٥٢ وهى من الثورات التى تمثل ردة فعل عنيفة شهدها الوطن العربى ضد النفوذ البريطانى لانها احدثت تعديلات جوهرية فى الانظمة الاجتماعية البالية فى مصر.

وختاما يمكن القول انه بالرغم من الضغوط الغربية التى تعرضت لها مصر فأن معظم الجمهوريين كانوا اكثر تصميما على الاستغناء عن المساعدات الغربية والامريكية التى كانت مرتبطة بشروط سياسية. ان هذا التصميم وعدم ارتياح الغربيين من اتجاهات الثورة المصرية جعل البعض من المتطرفين المحافظين فى بريطانيا يفكرون بضرورة عزل عبدالناصر وتحويل زعامة البلاد العربية الى العراق وذلك قبيل صدور قرار تأميم قناة السويس فى عام ١٩٥٦. ان ذلك لا يفسر كله بمصالح بريطانيا وحدها وانما بعدة عوامل سياسية اخرى منها خوفها من الشيوعية والنفوذ السوفيتى والحركة القومية التى اعتبرتها متطرفة آنذاك.

★☆★☆★☆★☆★

الهوامش والمصادر

(١) انظر عن تاريخ الاحتلال البريطاني لمصر :

Viscount Milner, England in Egypt. London, 1904.

الفرد سكاون بلنت، التاريخ السري لاحتلال مصر، القاهرة .

(٢) Jacob M. Landau, Parliaments and Parties in Egypt, Tel-Aviv, 1953, P. 114.

ابن سعيد، تاريخ مصر السياسي، مصر ١٩٥٩، ص١٥٩ .

(٣) Christina Phelps Harris, Nationalism and Revolution in Egypt, Mouton Co. The Hague-London, Paris, 1964, P. 67.

ورد في المصدر المشار اليه (ص٥٦٧) تعبير Journalistic Nationalism وآثرنا ترجمته بالشعور القومي على مستوى الصحافة . وقد قصد به المؤلف التعبير عن الاهداف او الاماني القومية عن طريق الكتابة في الصحف في تلك الفترة واستنكار الاساليب والسياسات الاستعمارية والمطالبة بالتحرر اكثر من السيطرة الاستعمارية .

(٤) John Marlowe, Anglo-Egyption Relations, 1800-1952, London, 1954, P. 237

(٥) Ibid, P. 238

(٦) كان اللورد ملنر Milner يشغل منصب وزير الدولة لشئون المستعمرات البريطانية .

(٧) محمد كامل سليم، صراع سعد في اوروبا، مؤسسة اخبار اليوم، القاهرة، ١٩٧٥ ص٨. ان مؤلف الكتاب كان سكرتيرا «للزعيم المصري سعد زغلول.

(٨) المصدر السابق، الصفحات ١٥٣، ١٥٤ .

(٩) الاهرام المصرية، ٢٣ نيسان ١٩٢١ .

(١٠) نص التصريح في :

Cmd 1592, Accounts and Papers, State Papers — "Declaration to Egypt" Enclosure 2, Document No. 35, 1922, Vol. XXIII, PP. 29-30.

(١١) في ١٥ آذار ١٩٢٢ تحولت السلطنة في مصر الى ملكية واصبح السلطان فؤاد ملكا على مصر.

(١٢) Albert Hourani, "The Anglo-Egyptian Agreement: Some Causes and Implications, Middle East Journal Vol. IX, Summer 1955, PP. 242-247.

(١٣) H.A.R. Gibb, "Anglo-Egyptian Relations: Arevaluation, International Affairs, October 1951, Vol. XXVII, P. 446.

(١٤) Arnold. J. Joynbee, Survey of International Affairs, 1925, Oxford, 1927, P. 125.

(١٥) The Times, March 17, 1924.

(١٦) في سنة ١٩٢٤ اجريت الانتخابات البرلمانية الاولى في مصر. وقد لعبت الاحزاب المصرية وهى حزب الوفد والحزب الوطني والاحرار الدستوريون ادوارها في الانتخابات وكان حزب الوفد اكثر الاحزاب شعبية وقد عارض تصريح شباط ١٩٢٢ بينما وافق حزب الاحرار الدستوريين الذي من اهدافه الاستقلال التام والحكم الدستوري على تصريح شباط ١٩٢٢ واعتبره خطوة من أجل اعداد مصر لنيل الاستقلال وتدرجها في طريق النضج الدستوري .

(١٧) Lord Lloyd, Egypt Since Cromer, London, 1934, Vol. 2, P. 169.

(١٨) وافق الجانبان البريطاني والمصري على ان تبقى القوات البريطانية في مصر على ان يعاد النظر في ذلك بعد عشر سنوات .

(١٩) توفي الزعيم المصري سعد زغلول في عام ١٩٢٧ وخلفه في زعامة حزب الوفد مصطفى النحاس .

(٢٠) نصت مسودة المعاهدة على ضرورة حسم الموقف الخاص بالسودان بعد سنة واحدة .

(٢١) British Parliamentary Debates, House of Commons, Vol. 237, London 1929-1930. Col. 2005.

(٢٢) Maurice Peterson, Both Sides of the Curtain, London, 1950, P. 99ff.

(٢٣) The Times, May 20, 1933.

(٢٤) F.O. 371/20151, Telegram No. 545, Lampson to Eden, May 13, 1936.

(٢٥) جريدة الجهاد المصرية ٢١ آب، ١٩٣٥ .

(٢٦) John Marlowe, Op. Cit, P. 306.

(٢٧) تشكلت الجبهة الوطنية في كانون الاول ١٩٣٥ من حزب الوفد والحزب الوطني والاحرار الدستوريين وحزب الشعب وحزب الاتحاد ومن بعض الساسة المستقلين .

(٢٨) The Times, March 6, 1936.

(٢٩) Arnold, J. Toynbee, Survey of International Affairs, 1936, Oxford University Press, 1937, P. 684.

(٣٠) The Times, January 22, 1936.

(٣١) The Times, March 3, 1936.

(٣٢) F.O. 371/20104, 534/1/36, Telegram from Lampson to Eden, 4 April, 1936.

(٣٣) نص المعاهدة في :

Cmb 5270, British Parliamentary Papers, 1935-1936, XXVII, Treaty of Alliance between Britain and Egypt.

(٣٤) The Times, July 25, August 13, 1936.

(٣٥) The Times, August 28, 1936. Manchester Quardian, August 28, 1936.

(٣٦) Helen, M. Davis, ed., Constitutions, Electoral Laws, Treaties of States in the Near and Middle East, Durham, N.C., 1947, PP. 56-7.

(٣٧) R. Hrair, Dekmejian, Egypt Under Nasir: Astudy in Political Dynamics, London, 1972, P. 71.

(٣٨) تأسس الحزب الوطني في مصر سنة ١٩٠٧ برئاسة مصطفى كامل وهو من الاحزاب السياسية المنظمة. ومن اهداف الحزب، كما جاء في برنامجه، استقلال مصر ووضع دستور لها. وكان الحزب يعارض الاحتلال البريطاني لمصر. انظر برنامج الحزب في :

أمين سعيد، المصدر السابق ص١٥٩ .

(٣٩) The Times, January 5, 1937.

(٤٠) Cmd 5630, British Parliamentary Papers, Final Act Convention and other Documents regarding the abolition of the Capitulations in Egypt, 387, XXX, 1937.

(٤١) The Monthly Summary of the League Nations, Geneva, 1937, XVII, P. 90.

(٤٢) Ibid, P. 92.

(٤٣) Nadav, Safran, Egypt in Search of Political Community, 1804-1952, U.S.A., 1961, P. 193.

(٤٤) مجلة المصور المصرية ، حزيران، ١٩٣٦.

(٤٥) British Parliamentary Debates, House of Commons 1936-37, Vol. 318. Col. 252.

(٤٦) نشبت الازمة السياسية المصرية بسبب الاختلافات حول الانتخابات انظر :

Philip Grares "The Story of the Egyptian Crisis" in Nineteenth Century And After, CXXIII, 1938, P. 297ff.

(٤٧) The Times, September 5, 1939.

(٤٨) The Times, October 7, 1938.

(٤٩) The Times, December 22, 1938.

(٥٠) Ibid

(٥١) Hugh, Gibson (editor), The Ciano Diaries, New York, 1945, P. 8ff.

(٥٢) Albert Viton, "Britain and the Axis in the Near East" in Foreign Affairs, XIX, 1940-1946, P. 370.

(٥٣) The Times, June 14, 1940.

(٥٤) New York Times, June 29, 1940.

(٥٥) The Times, June 18, 1940.

(٥٦) The Times, August 26, 1940.

(٥٧) The Times, February 3, 4, 6, 1942.

(٥٨) F.O. 371/31567, Miles Lambson to Foreign Office, February 4, 1942.

(٥٩) H.A.R. Gibb, Op. Cit, P. 448.

(٦٠) Mohammad Nagib, Egypt's Desting. N.Y. 1955, P. 79;
Desimond Stewart, Young Egypt, 1958, P. 116.

(٦١) F.O. 371/41327, 12081/31/16, May 1944.

(٦٢) F.O. 371/41328, Memorandum by Winston Churchill, April 23, 1944.

(٦٣) B.P.P., House of Commons, VIII, 1945, P. 1288.

(٦٤) انظر تفصيلات وافية عن الادارة المصرية وما يتعلق بالنفوذ الاجنبي في السودان في هذه الفترة في :
Richard Gray, A History of the Southern Sudan, 1839-1889, Oxford, 1964.
Mekki Abbas, The Sudan Question, London, 1952.
مؤلف الكتاب مكي عباس كان عضوا في المجلس الاستشاري لشمال السودان .

(٦٥) تزعم الحركة المهدية محمد احمد الملقب بالمهدي وكانت حركة دينية ثم اصبحت سياسية. ظهرت عام ١٨٨٣ واستمرت حتى عام ١٨٩٩ .

(٦٦) كان بصحبة الجنرال اللنبي اثناء ذهابه الى مقابلة سعد زغلول ٥٠٠ جندي بريطاني. ويمكن القول بتحفظ ان عملية اغتيال السير لي ستاك قد نفذت من قبل احدى الجمعيات السرية المصرية التي تشكلت في تلك الفترة والتي انتمى اليها بعض المصريين الذين اتهموا بإنتمائهم الى المحفل الماسوني المصري برعاية المندوب السامي البريطاني (اللنبي) وان البريطانيين شاركوا في قتل السردار بأيد مصرية للتخلص منه لانه من الايرلانديين المتعصبين للقومية الايرلاندية واستقلال ايرلاندة عن بريطانية ولعلاقاته الجيدة مع الزعيم المصري سعد زغلول وميله الى وجوب تحديد حجم القوات البريطانية في مصر والسودان .

(٦٧) نص الانذار في : Marlowe, Op. Cit., PP. 268-269.

(٦٨) Lord Lioyd, Op. Cit; P. 90.

(٦٩) Morning Post, August 28, 1936.

(٧٠) الاهرام المصرية، ٢ آب ١٩٣٦ .

(٧١) انظر ما يتعلق بهذه المعاهدة في الصفحات التالية من البحث .

(٧٢) Mekki Abbas, Op. Cit; P. 117.

(٧٣) W.Polk, The Arab World, U.S.A. 1980, P. 200.
وانظر ايضا :
D.C. Watt, "The proposed New Arab Union" in The World Today. Vol. 26, January. Dec., 1970, P. 498.

(٧٤) Survey of International Affairs, 1954, P. 134.

(٧٥) Mekki Abbas, Op. Cit; P. 121.

(٧٦) Survey of International Affairs, 1954, P. 134.

(٧٧) Ibid, P. 144.

(٧٨) P.M. Holt, Amodern History of the Sudan, The Trinity Press, Worcester And London, 1961, P. 139.

(٧٩) انظر ما يتعلق بالاتفاقية في :
Survey of International Affairs, 1954, P. 140.

(٨٠) P.M. Holt, Op. Cit, P. 139.

(٨١) Mekki Abbas, Op. Cit; P. 152.

(٨٢) L.A. Fabunmi, The Sudan in Anglo-Egyptian Relations: Acase study in power politics 1800-1956, London, 1960, P. 304.

(٨٣) د.عبدالعزيز محمد الشناوي ود.جلال يحيى، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف، مصر ١٩٦٩، ص٧٨٩ وما بعدها (نص الاتفاقية) .

(٨٤) Dekmejian, Op. Cit; P. 27.

(٨٥) Keith, Wheelock, Nassers, New Egypt, U.S.A. 1960, P. 212.

(٨٦) Ibid.

(٨٧) George Gretton "The Law and the Constitutions in the Sudan" in the world Today, Vo. 24, Jan. Dec. 1968, P. 314.

(٨٨) وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، ص٧٧٥ وما بعدها (نص المذكرة)

(٨٩) Mekki Abbas, Op. Cit, P. 115.

(٩٠) Survey of International Affairs, 1954, PP. 125-26.

(٩١) وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، ص٧٧٦ ص٧٧٧ .

(٩٢) Survey of International Affairs, 1954, P. 132; Mekki Abbas, Op. Cit, P. 119.

(٩٣) تطرق المسئول المصري الى مشكلة السودان. وقد اشرنا الى ذلك في البحث الخاص بالسودان .

(٩٤) وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، ص٧٧٩.

(٩٥) المصدر السابق، ص٧٨١ وما بعدها (نص البيان)

(٩٦) Adel Hussein, ''Islam and Marxism'' Review of Middle East Studies, No. 2 - Ithaca Press. London, 1976, P. 75.

(٩٧) وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، ص٧٨٧ وما بعدها (نص قرار البرلمان المصري) .

(٩٨) M.A. Fitzsimons, Empire by Treaty, London, 1965, P. 102.

(٩٩) Four Power Proposals for a Middle East Command, Department of State Bulletine XXV, October-November, 1951, PP. 647-817.

(١٠٠) John. C. Campbell, Defence of the Middle East, New York, 1958, P. 42.

(١٠١) Anthony Nutting, Nasser, London, 1972, P. 50.

(١٠٢) Anthony Eden, Full Circle, London, 1960, P. 279.

(١٠٣) Ibid

(١٠٤) Wheelock, Op. Cit; P. 214f.

(١٠٥) كان عبدالناصر قد حدد قبل ذلك سياسة مصر تجاه الوجود البريطاني في مصر عندما أكد في خطاب له في ١٧ آذار ١٩٥٣ على ضرورة الجلاء التام وغير المشروط للقوات البريطانية عن مصر وتخلص الاقطار العربية من الاستعمار . انظر.. وزارة الاعلام المصرية، مجموعة خطب الرئيس جمال عبدالناصر، ١٩٥٢ ، ١٩٦٤ ، القاهرة، ص٧ .

(١٠٦) Thomas little, Egypt, New York, 1958, P. 242.

(١٠٧) M.A. Fitzsimons, Op. Cit, PP. 110-111.

(١٠٨) الاهرام المصرية، ٣١ مارس، ١٩٥٤ .

(١٠٩) The New York Times, April 20, 1954, Quoted in Wheelock, Op. Cit, P. 216.

(١١٠) تمكن عبدالناصر من ابعاد محمد نجيب عن السلطة وأعلن الجمهورية في ١٨ حزيران ١٩٥٣ .

(١١١) وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، ص٧٩٥ وما بعدها (نص الاتفاقية) وانظر ايضا :
J.C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East. A documentary Record (1914-1956), Princeton, 1956, Vol. 2, PP. 383-384.

(١١٢) ان جلاء القوات البريطانية عن الاراضي المصرية بدأ من يوم ١٧ آب ١٩٥٤ واستمر حتى اوائل حزيران ١٩٥٦ .

(١١٣) Keith Wheelock, Op. Cit; P. 44.

(١١٤) Ibid, P. 45.
لم يكن محمد نجيب من المناوئين بشدة للسياسة البريطانية في مصر، كما أتهم بعض الأخوان المسلمين حينئذ بعمالتهم للانجليز

(١١٥) لم يكن عبدالناصر متواطئا مع بريطانيا بقبوله الاتفاقية وكان توقيع عبدالناصر للاتفاقية يعني قبوله لمبدأ التدرج في الحصول على حقوق السيادة المصرية كاملة .

(١١٦) Fabunmi, Op. Cit; P. 317.

(١١٧) Erskine. B. Childers, The Road to Suez, London, 1962, PP. 127-129.

(١١٨) وقع حلف بغداد في ٢٤ شباط ١٩٥٥ . ضم العراق وتركيا ثم انضمت اليه بريطانيا وباكستان. اما الولايات المتحدة فلم تنضم اليه وانما شاركت في اجتماع الحلف بصفة مراقب ثم اصبحت عضوا في اللجنة الاقتصادية للحلف .

المختـــار الســـوسي
١٩٠٣ ـ ١٩٦٣
داعية العروبة في بلاد السوس

د . بدري محمد فهد
كلية الآداب / جامعة بغداد

امتد العرب يحملون رسالة الاسلام شرقا حتى وصلوا الصين، وغربا حتى شواطىء الأطلسي. ونقلوا في امتدادهم لغتهم وشاءت الأقدار ان ينحسر المد العربي عن بعض البلاد ليستقروا في بعضها الآخر في معسكرات معينة أصبحت عواصم فيما بعد. الا ان الاسلام استقر دون انحسار وبقيت العربية الوسيلة الموصلة لفهم هذا الدين. وقد أحبها الاعاجم وعنوابها فأصبحت لغة العلم والتخاطب والكتابة منذ أن وصل العرب الى تلك الديار طوال قرون متواصلة كما في الهند، وبلاد ما وراء النهر «آسيا الوسطى السوفيتية» وبلاد فارس من أقصى شرقها الى أقصى غربها في اذربيجان وبلاد القفقاس وهذا ما أدى بالمستعرب كراسكونسكي الى القول بأن تاريخ الأدب العربي تنقصه حلقة مفقودة وهى التي تضم بلاد القفقاس[1] . ولولا دسائس الاستعمار الانجليزي لبقيت اللغة العربية في الهند والباكستان الى اليوم ولأصبحت اللغة الرسمية. وما يقال عن هذه البلاد يصدق على بلاد المغرب التي قامت فيها دولة أعجمية (بربرية) عنيت بالعربية لغة والاسلام دينا كالمرابطية والموحدية والمرينية .

وبعيدا عن العواصم والحكومات القائمة فيها امتدت العربية الى جنوب المغرب الى قرى السوس البلاد الوعرة الجبلية الصحراوية. فاعتز بها البربر وعنوا بها، فإليك قول صاحب الترجمة المختار السوسي يؤكد قول المستعرب كراسكونسكي ولكن عن حلقة مفقودة اخرى الا وهي منطقة سوس في جنوب المغرب الأقصى «ولا نرمي بكل ما قلناه الا ان نعلن وجود هذا الأدب غاية الاعلان. لاننا نرى كثيرين من أبناء المغرب نفسه ـ فضلا عن كل أبناء العروبة ـ لا يزالون يجهلون كون الادب العربي موجودا في هذه الزاوية المغربية وان له سمة خاصة يمتاز بها في كل أدواره»[٢] .

وقد أظهر لنا صاحب الترجمة حب المأزيغ (البربر) للغة العربية وآدابها فاسمعه في مقدمة كتابة المعسول يقول بعد البسملة «فالحمد لله الذي هدانا حتى صرنا ـ نحن أبناء الغ العجم ـ نذوق حلاوتها، وندرك طلاوتها ونستنشق أدابها. ونخوض أمواج قوافيها حتى لنعد أنفسنا من أبناء يعرب، وان لم نكن الا أبناء (أمازيغ)..فاللغة العربية عندنا ـ معشر الالغيين ـ هى لغتنا حقا

التي نعتز بها. لأن بها مراسلاتنا ومخاطباتنا حين نريد ان نرتفع بأنفسنا عن مستوى جيراننا وأبناء جلدتنا من الحربليين والوفقاوين والمجاطيين والساموكنيين. وتلك نعمة أنعم الله بها علينا بفضله وكرمه حتى اننا لنرى أنفسنا من ورثة الأدب العربي فنغار ان مسه ماس بفهاهة، ونذود عن حماه ان أحسسنا بمن يريد ان يمسه بأهانة. فنحن عرب أقحاح، من حرشة الضباب. والمستطيبين للشيح والقيصوم، وان لم تكن أصولنا الا من هؤلاء الذين يجاوروننا من أبناء الشلحيين الاماجد»[٣] .

وقد أدى حب العربية الى حب أهلها. وهكذا شب صاحب الترجمة عربيا بأحساسه، داعية الى وحدة العرب، متعاطفا مع المسلمين فاسمعه يقول في مقدمة كتابه (سوس العالمة) : «لأنني من الذين يرون المغرب جزءاً لا يتجزأ بل أرى العالم العربي كله، من ضفاف الأطلسي الى ضفاف الرافدين وطنا واحدا. بل أرى جميع بلاد الاسلام كتلة متراصة من غرب شمال افريقيا الى اندونيسيا»[٤] .

وعندما وضع مقدمة كتاب المعسول لم يفته وهو يرى التغير الكبير في حياة الشعب المغربي بعد الاحتلال الفرنسي تنبيه المغاربة الى شيئين مهمين خشي ان يفرط بهما وهما المثل العليا التي لا ترسخ في الشعوب الا بعد جهود قرون، واللغة العربية وآدابها التي هي شعار المغرب وكنزه الموروث المحافظ عليه كلغة رسمية حتى يوم عممت الدولة العثمانية لغتها التركية في جميع بلاد العرب منذ اوائل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي اذ ظلت حكومات المغرب محافظة عليها البربرية الاصل كالمغراوين والمرابطين والموحدين والمرينيين، أو الدول العربية الاصل كالأدارسة، والسعديين، والعلويين (الحاليين) .

وفي هذه الدراسة سنتعرف على هذا الرجل الامازيغي الاصل العربي الهوية والثقافة. ونكتشف هذه الحلقة المفقودة من حلقات الادب العربي .

١ ـ حياته :

هو محمد المختاربن الحاج علي بن احمد بن محمد الدرقاوي[٥] احد تسعة أخوة[٦] ولدوا لرجل متصوف على الطريقة الدرقاوية[٧] .

ولد عام ١٣١٨هـ/١٩٠٣م في قرية (الغ) التي تبعد عن مدينة تزنيت شرقا بـ ٨٥كم في منطقة سوس وهي القسم الجنوبي من المغرب المجاور للصحراء الكبرى.

وقد وصف لنا المختار المنطقة التي تقع فيها قريته فقال انها بسيط من الارض تحيط به الجبال من جميع جهاته الاربع وانه أجرد بلقع سطح.. فيه آبار تتكون حولها القرى فتستغل الآبار في سقي الحقول، وفي الفسيح بعض أشجار الزيتون والتين واللوز، وفيها حقول للخضروات كاللفت والجزر والبصل والفول والباذنجان والفلفل الحار، والقرع بأنواعه .

وما يحرثون في البور فالشعير وحده، لانه منه معيشتهم وقلما يحرث اغنياؤهم حبوبا أخرى.. ولهذا يتعذر الاتساع في المعيشة بالغ الا لمن له مستمد من خارج القرية[٨] .

وقد ذكر المختار عن قريته بانها لفقرها يضطر أهلها لجلب الرزق اليها وانها تخالف بقية بلاد الله التي تقدم لسكانها الخير والرزق[٩] .

أما عائلته التي شب فيها فقد كانت عائلة متصوفة، فأبوه الشيخ علي الدرقاوي فقيه ومتصوف ألف بعض الكتب في الفقه والتصوف وترجم الى اللغة الدارجة في هذه المنطقة من المغرب (الشلحية أو البربرية) بعض كتب التصوف[١٠] .

وكان والده معروفا في السوس لكثرة طلابه والآخذين عنه الطريقة الدرقاوية الملمين بالزاوية والمجاورين بها[١١]. وعرف كذلك لكثرة سياحاته في السوس وتنقله مع مريديه وطلابه بين قرى سوس في جبالها ووديانها مثل (كسبة، وحاحة، وأدى، وزكرى، ومرارا، ومتوكة)، اضافة الى المدن المجاورة مثل مراكش (الحمراء) والصويرة[١٢] .

شب المختار في هذه العائلة متأثرا بسيرة هذا الوالد الفقيه الزاهد وكما هي العادة في القرى والأرياف البعيدة عن المدن ولاسيما لمن أدرك اول هذا القرن، تكون الدراسة الاولية على يد الوالد أو احد افراد العائلة وهذا ما حصل للمختار فقد ابتدأ القرآن على خاله ثم تنقل بعد ذلك بين مشايخ المساجد المعنيين بالمبتدئين ثم واصل دراسته صعدا[١٣] .

اذ استمر المختار يدرس على المشايخ المتون التي كانت تدرس آنذاك الا انه لم يقتصر على المتون المتداولة في مدارس القرى فقط بل قرأ كل ما وقع بين يديه من الكتب مثل (الف ليلة وليلة) وهو مازال غلاما، ثم طالع بعدها ـ أثناء سيره قدما في ميدان العلم ـ كتاب (المستطرف) للابشيهي، و(حياة الحيوان) للدميرى، و(وفيات الاعيان) لابن خلكان، و(مروج الذهب) للمسعودي، و(نفح الطيب) للمقرى و(قلائد العقبان) للفتح بن خاقان، و(الاستقصا) للناصري، و(نزهة الحاوي في أخبار ملوك القرن الحادي) لليفراني، و(الصفوة)[١٤]. وهذه الكتب جميعا قرأها وما زال في قريته الغ، لكنه بعد ان غادر قريته، أقبل على الكتب بفهم أشد لا سيما ما كان له صلة بالأدب.. والتاريخ. وذلك بعد ان غادر الغ عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م متوجها الى مدرسة الساعدات باولاد أبي السباع في حوز مراكش. التي لم يمكث بها طويلا فانتقل الى مراكش وسكن في مدرسة ابن يوسف مدة خمسة اعوام تفرغ فيها للدراسة والتحصيل.

وقد حل بفاس عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م وكانت عند مفتتح هذا القرن ـ ما تزال تقصد من قبل الطلاب لما لها من صيت قديم. وقد تلقح في جوها ـ كما قال هو عن نفسه بمعارفها. وفي جوها نبتت في نفسه الغيرة الوطنية. حيث التقى ببعض الشباب الوطنيين وألفوا أول جمعية سلفية سنة ١٩٢٥م التي كانت تسعى الى نشر الوعي الديني والوطني. كما ان فيها اتصل بالأدب العربي الحديث فقرأ للمنفلوطي، وفريد وجدي، ومحمد عبده، واضرابهم. وللشعراء أمثال شوقي ومطران وأمثالهما[١٥] .

ثم واصل مسيرته العلمية بالمامه بالرباط عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م حيث التقى ببعض مشايخها فكانت لمذاكرتهم وسماع محاضراتهم ما افاده ووسع مداركه. واخيرا القى عصا الترحال بالحمراء (مراكش) ثانية ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م بزاوية أبيه الشيخ علي التي أصبحت مدرسة علمية. وكان عليه ان يقوم بدور المرشد الديني والمعلم للراغب بالدرس والتعلم، والمبادر بالبحث والتأليف، يدفعه وهو البربرى الى ذلك غيرته على العربية الفصحى التي وجدها آخذة بالانحدار. وعن طريقها يؤدي واجبه الديني والوطني تجاه أمته. وفي هذه الفترة من حياته ابتدأ بتأليف كتاب اسماه (العصر الذهبي لمراكش) منذ ان اتخذت عاصمة المرابطين والموحدين. وأراد ان يحاكي كتاب (عصر المأمون) حجما واسلوبا وأفادة وروعة. الا ان مواد كتابه هذا ضاعت. على اثر نفيه من مدرسته الى مسقط رأسه ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م بعد ان ضاق المستعمر الفرنسي بوجود هذه المدرسة التي تساهم مع غيرها من مدارس المغرب في توعية المغاربة[١٦] .

وما ان عاد المختار الى الغ ووجد نفسه بين اترابه وطلابه واحبابه حتى هاجت ذكرياته فخاطب اهل الغ بقصيدته البائية التي اولها :

اليكم بني أمي أئيب ركائبي
فياليت شعري هل أنا خير آئب

وتقع في حوالي ١٦٠ بيتا مما حفز الالغيين لمساجلته بقصائدهم، وبذلك حرك الجو الثقافي مرة اخرى بعودته بعد غياب دام عشرين سنة فكانت حصيلة تلك المساجلات والمطارحات كتاب (الالفيات) الذي كتبه المختار في ثلاثة اجزاء.

وقد كانت عودته الى الغ وبعده عن المشاغل طوال تسعة اعوام حافزا له على جمع أخبار الغ واهلها فسجل ما استطاع تسجيله من آثار اهلها الأدبية والعلمية وأودعه في كتبه[١٧] .

ثم عاد لمراكش بعد النفي الاول سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م واتيح له ان يحج لبيت الله الحرام مع وفد الحج المغربي عام ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م ثم ارسل الى تونس عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م في عضوية وفد احباس الحرمين .

ثم سمح له بإستيطان الدار البيضاء عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٠م فدرس في مساجدها الى سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م حيث القى عليه القبض ونفي الى اغبالون كرووس في اقليم الرشيدية الصحراوي مع مجموعة من أحرار المغرب .

وفي هذه الفترة كان المختار قد أصبح من المعروفين بوطنيتهم ودينهم وهذا ما أدى بالملك محمد الخامس بعد الحصول على الاستقلال ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م الى تعيينه وزيرا للاوقاف في أول وزارة شكلها بعد عودته من منفاه في (مدغشقر) ثم عين وزيرا للتاج وقد استمر بمنصبه هذا حتى لقي ربه سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م(١٨) .

٢ ـ مؤلفاته : (١٩)

يبدو ان المختار الف جملة كتب تصل الى خمسين كتابا كما يفهم من مقدمة كتاب (سوس العالمة) وانها تتعلق بالرجال والرحلات والحوادث. وانه يرى ـ وهذا من فرط ادبه وتواضعة ـ انه في كل ما صنف والف لم يؤد أكثر من عشر معشار الواجب تجاه الغ والسوس اولا وتجاه المغرب ثانيا. واليك أدناه اسماء كتبه :

١ ـ العصر الذهبي لمراكش ـ ضاع منه عند نفيه الى مسقط رأسه .
٢ ـ الالفيات ـ طبع في ثلاثة اجزاء ـ مذكراته أثناء وجوده في الغ .
٣ ـ ايليغ قديما وحديثا ـ طبع في جزئين ـ يتناول تاريخ امارة نشأت في سوس في القرن ١١ هـ/١٧م .
٤ ـ المترعات (أو مترعات الكؤوس في اثار طائفة من أدباء السوس)(٢٠) في جزئين متوسطين ـ مخطوط .
٥ ـ رؤساء سوس في العهود الاخيرة ـ ترجم الى الفرنسية ـ والاصل ما زال مخطوطا.
٦ ـ سوس العالمة ـ يقع في ٤ أجزاء والاصل لهذا الكتاب كراس كتبه زيدان أثناء زيارته لسوس، ثم دفع به الى المختار كي يذيل عليه ويستتم كل ما يتعلق بالعلوم العربية في كل أدوار التاريخ بسوس، فتوسعت التعليقات حتى كانت هذا الكتاب. وهو مطبوع .
٧ ـ رجال العلم العربي في سوس ـ وهذا الكتاب يتم الذي قبله. مخطوط.
٨ ـ قطائف اللطائف ـ مخطوط ـ وهو مجموعة نوادر وحكايات سوسية .
٩ ـ خلال جزولة ـ طبع في اربعة مجلدات هو تسجيل لمشاهدات المؤلف خلال اربع رحلات قام بها في نواحي سوس .
١٠ ـ الرسالة البونعمانية(٢١)
الرسالتان البونعمانية والشوقية ـ مطبوعتان في تطوان.
١١ ـ الرسالة الشوقية (٢٢) .
١٢ ـ جوف الفرا ـ ثلاثة أجزاء متوسطة ما تزال مخطوطة ـ وهي مجموعة أدبية ضمت نصوصا نثرية وشعرية .
١٣ ـ الترياق المداوي في احوال الشيخ علي الدرقاوي ـ طبع في مجلد .
١٤ ـ من أفواه الرجال ـ طبع في ٣ أجزاء، في حين ان الكتاب يقع في ١٠ أجزاء .
١٥ ـ حياة الشيخ سيدي الحاج علي .
١٦ ـ منية المتطلعين الى من في الزاوية الالغية من المنقطعين(٢٣) ـ جمع فيه تراجم ١٧٠ رجلا من تلاميذ والده الملازمين له .
وهذه الكتب الثلاثة الاخيرة تتعلق بترجمة والد المختار وأصحابه وطلابه(٢٤).
١٧ ـ أصفى الموارد في (تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد) ـ مطبوع وكان في الاصل رحلة كتبها الشيخ على والد المختار عند سفره للحج عام ١٣٠٥هـ .
١٨ ـ طاقة ريحان من روضة الافنان ـ مخطوط،

وهو معجم تراجم سوسية اختصره من (روضة الافنان من تراجم الاعيان ـ لمحمد السوسي الاجراري) المتوفى سنة ١٣٥٨هـ.[٢٥]

١٩ ـ حول مائدة الغذاء ـ[٢٦] مخطوط متوسط الحجم ـ سجل فيه الاخبار والاحداث التي تلقاها عن الباشا ادريس بن منو .

٢٠ ـ اخلاق وعادات سوسية ـ مجلد مخطوط.

٢١ ـ نضائد الديباج في المراسلات بين المختار والقباج ـ مجلد متوسط مازال مخطوطا .

٢٢ ـ بين الجمود والميع ـ رواية، نشرت تباعا في مجلة (دعوة الحق) ثم نشرت مجموعة بعد ذلك .

٢٣ ـ مجموعة فقهية ـ مجلد مخطوط جمع فيه فتاوي السوسيين المتأخرين .

٢٤ ـ اتحاف النبيه في مناقب سيدي احمد الفقيه ـ كتاب صغير ألفه في أحوال هذا الفقيه أحد اصحاب والده . وقد سبق ان ترجم له في (المعسول)[٢٧] .

٢٥ ـ محاضرة في الثوار السوسيين ـ كراس صغير مازال مخطوطاً.

٢٦ ـ مدن سوس الموجودة والمندثرة ـ كراس ما زال مخطوطاً.

٢٧ ـ الصالحون المتبرك بهم في سوس اخيرا ـ كتاب لم يتم ، يضم ٦٠ ترجمة .

٢٨ ـ معتقل الصحراء ـ ما زال مخطوطا ـ وهو مذكرات عن حياته فى اغبالون كرووس ، خلال السنة والنصف التى قضاها فيه .

٢٩ ـ تراجم اساتذة الحضريين ـ لم يتم ـ وهو شبه فهرس موسع لمشاهير اساتذته ومجيزيه من سكان المدن .

٣٠ ـ ديوان شعر ـ نشر بعضه ـ ولم ينشر كاملا بعد[٢٨] .

٣١ ـ المعسول ـ وهو أهم كتبه وقد طبع في عشرين مجلدا، وقد جعله لأخبار مدارس سوس وزواياها، واخبار رؤساء مدنها وقراها وما جرى من حروب بينهم، وترجمات للأسر العلمية. وقد استغرقت هذه المعلومات الاجزاء العشرين على النحو الآتي :

٣ مجدات : في الألغيين العلماء والرؤساء .

٥ مجلدات : في اساتذتهم (أي اساتذة الالغيين) كالجشتميين، والاوزيين والتيمكدشتين، وأل ماء العينيين والزواويين، والتامانارتيين، والاقاربضيين .

٣ مجلدات : في تلامذه مدرستهم (أي تلامذة الالغيين) كاليزيديين والساليين والحضيكيين والتادراتيين، والناصريين، والوهداويين .

٦ مجلدات : في الاخذين من زاويتهم (أي من زاوية الالغيين) كالاكراريين، والمحجوبيين، والكرسيفيين، والمعدريين، والركنيين والتاتلتين .

٣ مجلدات : في أصدقائهم السوسيين .

فالكتاب عن الالغيين بالدرجة الاولى، وعن السوسيين ممن لهم صلة بالالغيين، كصلة الاستاذية أو التلمذة، أو كصلة الصداقة والمودة. وهو على الجملة يبرز طائفة من أبناء أمازيغ الشلحيين البدويين أولعت ولعا غريبا بدراسة الادب العربي وعلوم العربية ونشرتها بجهودها الخاصة دون مساعدة من الدولة .

إلا أن الكتاب غير أكاديمي من حيث منهجه فمؤلفه يغفل ذكر مصادره التى ينقل عنها في الاغلب ولاسيما الكتب، في حين انها في متناول يده كما يبدو من ترجمته لسيدي محمد بن عبدالله الالغي (المتوفى سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م)اذ ذكر مصادره هناك وهى كتب المؤرخ سيدي علي بن الحبيب التيجاني.[٢٩] والفقيه سيدي محمد بن احمد الاكراري الناصري[٣٠] .

وفي ختام الكلام عن والده أورد الكتب المؤلفة عنه، فلعلها من مصادره التي رجع اليها واقتبس منها الا انه لم يشأ ان يذكرها في مواضعها المناسبة. وهي :

أ ـ المأمول المبغي في مناقب الشيخ سيدي الحاج على السوسي الالغي ـ للفقيه سيدي محمد التادلي .
ب ـ الفتح الموهوب في مناقب الشيخ المحبوب ـ الفقيه سيدي الطاهري السماهري .
جـ ـ السر الجلي في مناقب الشيخ سيدى الحاج على ـ لسيدى بريك بن عمر المجاطى .
د ـ هز الراية الجعفرية ـ للعلامة محمد بن مسعود .

وهو غير أكاديمي لأن كثيرا من معلوماته مكررة، وحتى بعض تعابيره والفاظه وتشبيهاته، ولكن المختار مشكور مذكور على كل حال لأنه قدم مادة لمن سيأتي بعده وقد بذل فيها جهدا واضحا. ويكفية فخرا انه حاول تسجيل العلم العربي في الغ وما جاورها ليخلده ذكرى تشير على مر الزمن الى ازدهار العربية في هذه الربوع[٣١]، أما أهمية كتب المختار فتبدو كما يأتي :

٣ ـ أهمية مؤلفاته

لمؤلفات المختار اذا نظرنا اليها جميعا ـ أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ الأدب العربي، ولتاريخ المغرب الاقصى ولسوس بصفة أخص. اذ ان كتب المختار تناولت الالغيين والسوسيين ومن كان لهم صلة بهم من صحراويين أو من مناطق المغرب الأخرى حكاما ومحكومين واليك هذه الاهمية مندرجة تحت العناوين التالية:

(أ) تاريخ سوس :

حاول المختار السوسي ان يؤرخ لأنتشار الاسلام في المغرب ولا سيما في قسمه الجنوبي، وانتشار التعليم والمدارس بعد ذلك. وقد أجهد نفسه في تتبع الأعلام السوسيين ا لمذكورين في المصادر القديمة على اختلاف موضوعاتها ليصل الى غرضه. وقد أظهرت كتبه هذه المحاولة ففي كتاب سوس العالمة نراه يحدد التواريخ المهمة وهي عام (٦٢ هـ) و(٨٧هـ) و(١٠٠هـ) تلك التواريخ التي جاء فيها المد الاسلامي الى هذه البلاد، وابراز الجهود التي بذلها عقبة بن نافع، وموسى بن نصير القائدان المشهوران، والخليفة عمر بن عبد العزيز ثم مجيء ادريس عام ١٧٢هـ[٣٢] .

وذكر أن أول مدرسة أسست فى السوس كانت مدرسة أجلو (أكلو) فى أول القرن الخامس الهجرى . وموقعها فى ضواحى تزنيت . وكانت تسمى الرباط . ويسمى سكانها المرابطون .[٣٣] الا أن الغموض يلف المنطقة خلال القرون التالية حيث لم يظهر فيها نشاط علمى ملحوظ . وقد علل المختار ذلك بالجهل الشائع آنذاك أو بخمول المدارس . ولعل ضعف حركة التعريب كان وراء هذا الخمول حتى اذا انتشر فى ربوع تلك البلاد نهضت فكان القرن التاسع بداية لهذه النهضة فبدأ التدريس فى أماكن كثيرة ، وتبعه التأليف ، فلما حل القرن العاشر كانت الحركة الأدبية أوسع مما قبلها وسارت متساوقة مع قيام الدولة السعدية ثم واصلت الحركة العلمية مسيرتها فى القرون التالية :

واستمرت الدراسة فى السوس باللغة العربية حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى/ العشرين الميلادى .[٣٤]

وقد بحث المختار فى تاريخ الغ منذ أقدم عصورها بقدر ما تسمح به المصادر التى استطاع الوصول اليها فوجد بأن لا لغ ذكرا على عهد السلطان العلوى مولاى الرشيد (١٠٧٥ ـ ١٠٨٢ هـ ١٦٦٤ م ـ ١٦٧١ م) اذ مر بها هذا السلطان وخربها كما نزل بالغ ايضا أحد جيوش السلطان اسماعيل العلوى (١٠٨٢ ـ ١١٣٩ هـ) عام ١١٢٤/١٧١٢ م . وكذلك وجد ذكرا فى كتاب (ديوان مولاى أحمد الذهبى) الذى جمع فى مختتم القرن العاشر الهجرى ، بعد أن مر السلطان أحمد (١١٣٩ ـ ١١٤١ هـ) (١٧٢٧ ـ ١٧٢٨ م) بالغ وقام بضيافته عوائل القرية (الحرميليون ، والاغشانيون ، والوفقاويون)[٣٥] .

ثم نزل بها المرابطون وهم ابناء الشيخ عبد الله بن سميقبل القرن الحادى عشر حيث

وجد المختار وثيقة كتبت حوالى سنة ١٠٩٠ هـ فيها وصف للمرابطين محمود وشهادة لهم فيها من ١٨ عالما من جيرانهم[٣٦] .

أما مدرسة المرابطين فقد تأسست عام ١٢٩٧ هـ ١٨٧٩ م من قبل سيدى محمد بن عبدالله .[٣٧] وقد كان لهذه المدرسة فضل كبير فى تخريج أفواج من الطلبة انتشروا فى ربوع السوس وفى مراكش . وغنى عن البيان القول بأن عائلة المختار كانت ممن تخرج فيها .

وأما سكان الغ فانهم منسوبون الى القبائل التى تجاور هذا البسيط . وان لكل واحدة طرقا من الغ امتدت اليه من محلتها ... والبيوت التى فى الجنوب فانها للمرابطين الالغيين أولاد الشيخ سيدى عبدالله بن سعيد . عائلة المختار . وانهم كانوا مغمورين ضعفاء بالنسبة لجيرانهم حتى علا شأنهم بواسطة مزاولتهم للعلم والأدب .[٣٨] واليك أوائل القصائد التى نظمها سكان الغ فى وصف بلدهم :

أبواب الغ لكل آت تفتح
وصدور من يرجون منه تشرح

وقول آخر :

ما الغ غير شعوره فى شعره
اسعد بمن ظفرت يداه بدره

وللمختار قصائد أيضا فيها[٣٩] .

وذكر المختار أول من بدا له أن يولى وجهته شطر المعارف سيدى سليمان بن محمد الالغى المتوفى عام ١١٩٩ هـ/ ١٧٨٤ م والذى تبعه أبناء القبيلة وساروا على أثره .[٤٠] وأول فقيه علامة متمكن شهير نشأ بالغ من (عائلته) هو سيدى محمد بن بلقاسم المتوفى حوالى ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٢ م .[٤١]

وأول من وضع الحجر الاساس فى العلم والادب الالغيين سيدى محمد بن عبدالله الالغى المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ/ ١٨٨٥ م .[٤٢]

فالدراسة انتشرت فى قرى سوس مدة قرون بالعربية حتى جاء الاحتلال الفرنسى لبلاد المغرب وامتد الى السوس فأصبحت حرية الاساتذة محدودة وأصبحت المدارس تراقب من قبل المستعمر[٤٣] ولما وجد المستعمر الماكر أن اللغة العربية وشيجة تربط (الامازيغ) بالعرب حاول بكل الطرق اماتة مدارس القرى ، ونشر التبشير المسيحى فيها . ثم لجأ الى اعلان الظهير البربرى عام ١٩٣٠ سيىء الصيت[٤٤] لتقسيم الشعب المغربى الى قسمين عرب وبربر ، الا أن الامازيغ كانوا للمستعمرين بالمرصاد فأفشلوا المشروع واستمر التدريس بالعربية ففى عام ١٣٥٧ هـ كان التدريس فى الغ مستمرا ، وان أصبحت مدارس القرى هذه تختفى تدريجا لتحل محلها المدارس الرسمية الحديثة حيث انشىء فى عام ١٣٧٧ هـ معهد تارودانت وفروعه فى تزينت وغيرها ثم مدت الوزارة يدها الى جمعية علماء سوس فدخل طلاب سوس هذه المدارس .[٤٥]

والذى يفهم من كتاب (المعسول) أن مدارس القرى استمرت قائمة حتى عام ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م[٤٦] .

(ب) الحياة العلمية فى سوس:

(١) الدراسة: كان على الطالب أن يبدأ تعليمه بحفظ القرآن ، ثم يتدرج بعدها بحفظ كتاب الاجرومية فى النحو لتنمية ذاكرة التلميذ وتدريبه على حفظ المتون . فالاجرومية لا بد من قراءتها مرتين على اللوحة وان يحفظها حتى وان لم يكن يدرك معناها كله فى تلك المرحلة المبكرة من الدراسة . كى تكون له عدة للمستقبل القريب فى المراحل التالية وبعض المتون فى النحو والصرف مثل ، الجمل للزجاج ولامية ابن مالك فى الصرف والفية ابن مالك فى النحو . وبعض متون الفقه مثل رسالة ابن ابى زيد القيروانى وابن عاشر ، فان استتم هذه واتقنها بكثرة الاعادة يتحول الى المرحلة الثانية . فيقرأ التحفة (أى تحفة الحكام للفرناطى) ، والمختصر (أى مختصر خليل فى الفقه) والمقامات والزقاقية (أى لامية القضاء للزقاق) والمنهج (أى المنهج المنتخب الى قواعد المذهب لعلى ابن قاسم الزقاق) .

وقد يستغرق فى درس هذه المتون سنتين أو ثلاثا أما المرحلة الثالثة من الدراسة فان الطالب يدرس علم البيان فى متون التلخيص (تلخيص المفتاح للقزوينى) والاستعارات بمنظومة ابن كيران ، والاصول فى جمع الجوامع (للسبكى) كما أن الطالب فى هذه المرحلة يخوض فى كل شىء من حديث وتفسير وفرائض وحساب بعد أن يكون قد الم بهذه المعارف .

ثم ان ظهرت على الطالب قابلية لقبول هذه العلوم أو بدت له قريحة جيدة يطالبه الاستاذ بصوغ الرسائل أو نظم الشعر ، ويبقى موضع رعاية الاستاذ واشرافه . اما اذا لم يكن الطالب من هذا النوع ويملك قريحة للنظم أو ملكة للكتابة فيكتفى منه بأن يدرك الفضة من القضة والتمرة من الجمرة . (٤٧)

وكان الاستاذ يستعين بكبار التلاميذ للتدريس فى الطبقات الأولية والثانوية . أما اذا حل شهر رمضان فان الطلبة يقتصرون على الحساب والفرائض وصحيح البخارى .

فكانت ايام الاسبوع مقسمة الى دراسة الدروس الدائمة الثابتة وهى اللغة والنحو والفقه والتفسير ابتداء من صباح السبت وحتى ظهر يوم الأربعاء . ثم دراسة كتب الأدب ابتداء من عشية الاربعاء الى عشية الجمعة . وكانت كتب الأدب والتاريخ المتداولة كالمستطرف ، ومروج الذهب ، ووفيات الاعيان لابن خلكان وسيرة ابن هشام والمواهب المدنية .

فاذا ارتقى الطالب سلم الدرس والتحصيل قرأ نفح الطيب ، الذى كان يعتبر عندهم من كتب الطبقة الرفيعة .

والعادة ان كتب الادب لا تقرأ فى أيام الدراسة تفرغا للعلوم الرئيسية ما عدا المقامات الحريرية . واما المعلقات ولامية الطغرائى (لامية العجم) ولامية الشنفرى (لامية العرب) والهمزية والبردة للبوصيري ، والشقراطية ، وبانت سعاد أودالية اليوسى هذه تقرأ فى العطل (فى العواشر) غالبا .

أما تهيئة الدروس ومراجعتها فتتم بين الطلبة حيث يقرأ النابهون منهم فيتعلم البقية قراءتها ، فاذا ذهبوا فى اليوم التالى الى الدرس ، قرأوها أمامه ، ثم يراجعونها بعد ذلك .

ويتعهدهم الاستاذ بحفظ الشواهد والأبيات التى تستطرد فى الدرس . ثم يأخذهم الاستاذ بالحفظ لعدد من ابيات المتون فى كل صباح مع تكرارها جماعة فى عشايا الاربعاءات .

وكان الطلبة يخصصون من غير يوم الاربعاء والخميس ولا سيما بين العشائين لمطالعة الدروس ، أو لإعراب رأس حزب من القرآن . (٤٨)

وكان الطلبة يتغنون بالابيات التى تقرأ جماعة قبل افتتاح الدرس سواء المتقدمون منهم أو المبتدئون الذين يكتبون ما يحاولون حفظه فى ألواحهم . ثم تفسير الابيات بيتا بيتا ، كما تعرب الشواهد من قبل الطلبة وليس من قبل الاستاذ ، ويبدو أن هذه الطريقة كانت متبعة في فاس ومراكش أيضا .

ومما كان يقرآه الطلبة الكتب التى عليها شروح وتعليقات توضيحية(٤٩) فالالفية بشرح السيوطى ، وشرح الأشموني ، والموضح والمقامات بشرح الشريشى ، والرسالة بشرح أبى الحسن ، والتحفة بشرح التاودى(٥٠) ، ومختصر خليل بشرح الدردير(٥١) .

ولما كان كثير من هذه القرى السوسية الصغيرة لا يملك مكتبة للمراجعة لذا كان الفقهاء أساتذة هذه المدارس يستعيرون الكتب بعضهم من بعض فقد جاء فى احدى الرسائل بين هؤلاء الفقهاء والتى أثبتها المختار فى معسولة ان كاتب الرسالة يطلب الجزء الاول من التصريح وباب أحكام الصداق من الزرقاني ، والشريشى لانه وصل من دراسة ما جاء فى الرسالة فى المقامات الى (الثامنة عشرة) وفى المختصر الى (أحكام الصداق) ، وفى الالفية الى (باب النكرة والمعرفة) . وفى التحفة الى (باب ضمان) ، وانه يريد ان يبتدىء الزقاقيه فى قريب ان شاء الله(٥٢) .

اما اذا وجد احد المدرسين انه غير مختص بشرح بعض الكتب ، فانه يقترح على الطلبة الذهاب الى استاذ آخر في موضوع آخر كي يقرأ عليه ذلك الموضوع فمثلا ذكر لنا المختار انه احتيج في احدى المدارس إلى قراءة علم البيان في (كتاب التلخيص) فأقترح الاستاذ على تلميذه الذهاب الى (ادوز) لقراءة (جمع الجوامع) وكذلك لقراءة (التلخيص) على الشيخ سيدي المحفوظ[٥٣] .

فبقي هذا الطالب عشرة أشهر درس هذين الكتابين وبعض المتون الاخرى . ونجد الاشارة هنا الى ان الطلبة كانوا طبقات قد تصل الى عشر طبقات في المدرسة ، اما عدد طلاب الطبقة فلم يكن محدودا فقد يكون في الطبقة (مستوى معين من الفهم والمعرفة) تلميذ واحد أو عشرة أو أكثر[٥٤] .

وكانت الدروس تلقى بالعربية الفصحى - رغم ان الطلبة بربر ولغتهم اليومية الشائعة غير الفصحى وكان أساتذة هذه المدارس الذين يدرسون بالفصحى يجدون صعوبة بالتكلم بالدارجة العربية والمغربية . فاذا ذهب أحدهم للتدريس في منطقة مراكش فانه لا يدرس بغير الفصحى[٥٥] .

(٢) - حياة الطلبة والاساتذة :

ان الدراسة في قرى سوس الجبلية الصحراوية لم تكن تخضع لتوجيه رسمي أو اشراف حكومي كما انها لم تكن تتلقى المساعدات من الدولة لذا لم يكن لها نظام المدارس الحديثة في التدرج من ناحية المستوى العلمي ، كما ان الدراسة فيها لم يتم تحديد سنواتها بل كانت متروكة لرغبة الدارس وقابلياته للفهم والحفظ والاستيعاب . وأما الناحية المادية كمرتبات الاساتذة ، وأرزاق الطلاب فانها تختلف باختلاف الظروف فان تنظيم مرتبات الاساتذة تتم حسب المشارطات (العقد) وذلك ان الاستاذ عندما يطلب للتدريس في احدى المدارس أو المساجد يتفق معه شيخ القرية أو رئيسها على مقدار من الحبوب تعطى له (ذرة ، أو قمحا ، أو شعيرا) وبما ان المدرس يكون فقيها أيضا لذلك تعرض عليه مشاكل الفلاحين فيقضي فيها ويحصل عن كل قضية شيئا من ماشية أو زرع وهكذا يتكون لهم مورد للرزق[٥٦] .

وأما أرزاق الطلبة فانها تتوقف على غنى وفقر القرى التي توجد فيها المدارس . وكان الطلبة يجمعون تبرعات أهل القرى ويخزنونها في مخزن المدرسة أو الرباط ليأكلوا منه . وقد يشارط الطلبة المتقدمون في الدراسة لتدريس الطلبة الجدد لقاء أجر معين[٥٧] .

وكان الدوام في المدارس يرتبك في مواسم معينة من السنة لمشاركة الطلبة في موسم الحصاد ، وموسم الحرث مما يؤدي بالطلبة الى هجرة الدراسة مدة شهرين أو أكثر . أو قد ينقطع الطلبة فيأتي فوج جديد آخر فيضطر الاستاذ ان يبتدىء مجددا ومن كتاب آخر غير الذي كان يدرّسه للطلبة . ومن نافلة القول ان للطلبة حرية الحضور أو الغياب[٥٨] .

لقد كانت المدارس في سوس كثيرة وقد اتخذت اسماءها من أسماء القبائل أو القرى البربرية هناك فمن الامثلة ما يأتي[٥٩] .

المدرسة الالغية ، المدرسة البونعمانية ، المدرسة الوفقاوية ، المدرسة الادوزية ، اسراني انران ، مدرسة اكشتيم ، مدرسة ايكضي ، مدرسة تمانار في حاحة ، مدرسة أيت أمر ، مدرسة اراي .

وكان طبيعيا ان يتكون من خريجي هذه المدارس أجيال متلاحقة من الادباء أو الفقهاء ، وأجيال أوسع قاعدة من الملمين بالعربية وعلوم الدين وبعض المعارف الاخرى ونتيجة لهذا أصبحت القرى والقبائل تتبارى بانشاء المدارس وتتفاخر فيما بينها ، فنادراً ان تجد قبيلة سوسية كبيرة أو صغيرة ليس فيها معهد علمي يضم ابناء القرية ، أو من الافاقيين[٦٠] . لذا كان المشايخ وكبار الطلبة كثيرا ما يعقدون مجالس الادب للمذاكرة ، وقد يعرض أحد الطلبة كتابا من كتب

الادب فيتلوه أمامهم فيناقشون التالى فيما يتلو من التصريف والاعراب وضبط الكلمات اللغوية ، ويمتد المجلس ما امتد الجلوس وكثيرا ما يستمر من المغرب الى الصباح[٦١] .

ومن طرائف هذه المجالس ما أخبر عنه المختار انه حدث فى اثناء عام ١٣٤٢هـ فى دار شيخه عبدالله بن محمد الصالحي ، وقد امتد ذلك المجلس من العشية الى صلاة الفجر . كان المتسامرون قد تداولوا (نفح الطيب) إذ تلاه أحد الحضور ثم تشعبت بهم السبل ، عندما تناقشوا فيما عرض لهم من نحو أو معان أو غيرهما ، وكانوا عند حدوث الاختلاف يعمد قطب المجلس شيخهم الى أخذ أصوات المجتمعين على انفراد . ليظهر بعد ذلك من كان منهم على صواب ممن كان على خطأ[٦٢] .

أما فى الاوقات الدينية مثل حلول شهر رمضان فانهم كانوا يعمدون الى قراءة صحيح البخارى سردا عند البعض ، وتفهما عند آخرين ويقيمون حفلة عند اختتامه لذا أصبحت مواسم اختتامه مشهورة حسب اسماء القرى التى تقيم امثال هذه الاحتفالات مثل (موسم البخارى المزوضي) و(موسم البخارى البوعثمانى) و(موسم البخارى البوعنقيرى) وقد تحولت الى مناسبات شعبية فاستغلها أصحاب البيع والشراء[٦٣] .

وقد يقرأون السيرة أحيانا ليلة رمضان أو كتاب الشفا للقاضى عياض[٦٤] .

(٣) ـ العلوم التى اعتنى بها السوسيون :

ولقد اعتنى السوسيون بجملة علوم هى : القراءات ، والتفسير ، والحديث ، والسيرة ، والنحو ، والصرف ، واللغة ، والمنطق ، والهيأة ، والطب ، والعروض[٦٥] . ومن الطبيعي ان تكون هذه العلوم على مستويات مختلفة من الاهمية بالنسبة للسوسيين ، وان يكون المامهم بها ، أو تأهلهم لها والابداع فيها مختلفا متباينا كما سيأتى بيانه :

١ ـ القراءات :

للسوسيين مؤلفات فى القراءات منهم حسمين الشوشاوى : شارح مورد الظمآن ، سعيد الكرامى : شارح مؤلف الخراز .

ويحيى بن سعيد الكرامى : صاحب شرح الدرر اللوامع فى قراءة نافع وممن اعتنى بالقراءات تدريسا وتأليفا أحمد بن سعيد ، وموسى الدسكارى وابراهيم بن سليمان ومسعود بن على الهشتوكيون ، وأحمد بن يحيى التيتزرتى ، وأحمد بن يحيى الرسموكى ، والحسين بن ابراهيم الخالدى السكتاني ، وغيرهم[٦٦] .

٢ ـ الحديث :

كتب السوسيون شروحا لمتون حديثية ، كما ان لهم منظومات فى علومه مثل : منظومة نخبة الفكر ـ لمحمد بن سعيد القاضى العباسي .

نظم النقاية ـ لمحمد بن الحسن الامانوزى .

شرح الطرفة فى الاصطلاح للحضيجي .

وهناك ترجمة الاربعين النووية ، ورياض الصالحين للنووى الى الشلحة[٦٧] .

٣ ـ علم الفقه :

لعله أكثر العلوم رواجا فى سوس لحاجتهم اليه ، لذلك أصبح من مهمة اساتذة المدارس فى القرى قيامهم بالقضاء فى القرى المجاورة لمدارسهم ، وتقاضيهم أرزاقا نتيجة فضهم للخصومات حيث شغلوا بما يحتاجون اليه فى حياتهم اليومية لذا انكبوا على الاهتمام بالنوازل ومعرفة الاحباس (الاوقاف) والشفعة والبيوعات ، والفرائض ، وقسم التركات ، وفى المسائل التى تدور فى بلادهم[٦٨] .

٤ ـ النحو والصرف واللغة :

كان السوسيون اجانب عن لغة الضاد لذلك وجدوا فى علوم النحو والصرف واللغة المفتاح لمعرفة العلوم الاسلامية الاخرى . وحسب اعتقاد المختار فان عناية السوسيين فاقت عناية أهل

شمالى المغرب . ويضرب لذلك مثلا باهتمام السوسيين بدراسة التسهيل ، والكافية وكتابة الشروح لهما ، وان هناك من كان يحفظهما ، وان الصفوف العليا من الطلبة كانوا لا يقرأون الالفية الا بشرح الاشموني ، والصبان . والموضح بحاشية .

اما الاساتذة فان شواهد هذه الكتب كانت على ألسنتهم ، فلا يحتاجون الى مراجعة لانهم يرون انه لا يستحق ان يسمى عالما بالنحو مثلا الا من استحضر كل الألفية بابياتها وأدلتها وشواهدها وقواعدها التامة ، على لسانه ، بل المتون الاخرى التى تشتمل على التصريف ، وقواعد الاعراب والجمل ، فهذا عندهم من يستحق ان يسمى نحويا . كذلك لا يكون عندهم استاذا كامل الاهلية الا اذا كان لغويا مستحضرا لضبط الكلمات ، حتى لا يتوقف فى تسعة من عشرة مما يروج في الكتب الادبية الكبرى كنفح الطيب وقلائد العقبان . مع استقامة لسانه في القراءة لكل ما عسى ان يمر بين يديه ، حتى لا يعثر وهو يجرى فى غلوائه تلاوة فى مجمع حافل ، والعيون اليه شواخص[٦٩] . وما يقال عن النحو والصرف ، يقال عن اللغة أيضا فان السوسيين كانوا مكبين على مراجعة القاموس ، والصحاح ، والمختار ، وهى التي توجد عندهم عند كل شاذة وفاذة . وما ذكره عن النحو يراه منطبقا على الصرف أيضا لانهما شيء واحد لا يتجزأ عندهم . وان لهم فيه مؤلفات ويرى المختار ان السوسيين بهذا الاعتناء قد بذوا أهل فاس ومراكش[٧٠] .

٥ ـ علم التفسير :

تداول السوسيون هذا الموضوع كغيره من الموضوعات التى أشرنا اليها غير انهم لم يبرزوا فيه . وكان التأليف فيه قليلا بالنسبة لكل المغاربة على حد تعبير المختار[٧١] .

٦ ـ علم الهيئة :

وكان للسوسيين يد طولى بكل العلوم المتعلقة بالافق كدراسة النجوم ، والتوقيت ، ومعرفة آلات الرصد كالاسطرلابات[٧٢] .

هذه أمثلة على بعض العلوم التى كانت تدرس عندهم ، وهى استمرار لما كان يدرس فى العالم الاسلامى قبل العصر الحديث لذا لم يعرفوا العلوم الحديثة كالجغرافية مثلا[٧٣] . وحسبهم هذا فى قراهم النائية بعيدا عن اشراف الدولة أو مساعدتها .

(جـ) ـ تراجم الادباء والشعراء :

أرخ المختار لكثير من أدباء وشعراء سوس ، وأورد مقطعات أو قصائد لهم فى كتبه . وقد أتى المعسول فى مقدمة كتبه الحاوية على نظم كثير من السوسيين على اختلاف مستوياتهم فى الاجادة اضافة الى ما أورده لبعضهم من الرسائل التي تظهر قابليتهم على الانشاء . كما ان في كتاب (سوس العالمة) تراجم لادباء وفقهاء سوسيين أيضا وفيه نماذج من أدبهم وشعرهم يضاف الى ذلك (ديوان الرميليات) وضعه المختار على ألسنة تلاميذه ، أو مما قاله فيهم ، ونسبه الى الرميلة ، موضع من منطقة باب وكالة فى مراكش ، حيث قضى هناك ردحا من الزمن يقدم الهداية والدرس لاجيال من الطلبة[٧٤] .

فالشعر الذى أورده المختار لم يكن فيه حاطب ليل ، يجمع دون علم منه بما تدون يداه ، بل كان يرمى بعيدا بتخليد أصحاب الاقلام[٧٥] .

وكان من رأيه «ان كل اثار القلم ينبغى ان تدخر على كل حال ، وان لم تكن الا منظومات موزونات مقفاة معربة . كغالب ما يقال فى هذه البرارى» . فهو اذن ليس ناقدا «أو مختارا بل هو مؤرخ يحفظ للاجيال القادمة مآثر من سلف من أهل جلدته» ، «فالمنظومات التى حرص على ايداعها فى هذه التراجم نكتبها للمؤرخين الذين يتهضمون كل شيء»[٧٦] .

لهذا خلد لنا المطارحات الشعرية التى كانت تجرى بين الادباء والمتأدبين من أهل سوس أو بين السوسيين ومن علم بسوس من الافاقيين فمثلا أورد عن القاضى سكيرج ، قاضي زطاط انه رحل الى سوس سنة ١٣٥٥هـ وسجل رحلته بقصيدة طبعت باسم (تاج الرؤوس) فيما بعد ، هذه

القصيدة تصدى لها الالغيون فقرضوها[٧٧] .

وقدم المختار صورة حية عن حب السوسيين للعربية وقابليتهم على حفظ المتون ، واستعدادهم لاستحضار الشواهد أو القواعد[٧٨] .

كما ان المختار لم ينس ان يتابع السوسيين بعد خروجهم الى شمال المغرب واتصالهم بالادب العربي الحديث . ابتداء بأفراد عائلته وغيرهم فمثلا تناول اخاه ابراهيم بن علي الالفي ابتداء من ميلاده عام ١٣٢٨هـ ودراسته فى الغ ، وحاحة ، وفاس ومراكش ، ثم ما حل به بعد الاحتلال الفرنسي وهروبه الى تطوان . ودعوته فيما يكتب أو يلقى من كلمات فى المناسبات الى النهضة الجديدة فى المغرب[٧٩] وايراده قصائد له فى اغراض مختلفة بعضها يمت بصلة الى الغ ، وبعضها إلى سكناه شمال المغرب[٨٠] . كما انه أخ لزوجته السيدة أمنة بنت عبدالكريم بن اللوه ، فأشار الى دراستها فى المغرب وفى اسبانيا ، وذكر مؤلفاتها[٨١] . ويكفى المختار فخرا انه أصبح مصدرا لمن يريد ان يكتب عن اعلام المغرب العربي الحديث ، من شعراء أو ادباء وهذا ما حصل فعلا فقد استعان به الاستاذ عبدالله الجرارى فى كتابه (اعلام الفكر المعاصر)[٨٢] والمرحوم محمد بن العباسى القباج (فى كتابه الادب العربى من المغرب الاقصى)[٨٣] والدكتور ابراهيم السولامى فى كتابه (الشعر الوطني المغربى في عهد الحماية) . كما أفاد منه الدكتور محمد حجى فى كتابه (الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين) .

د - الحياة الاجتماعية :

ولقد قدم المختار معلومات اجتماعية عن السوسيين مثلا من الالغيين ووجبات أكلهم وأورد الاشعار فى (البسيس) ، و(العصيدة) و(الكسكو) و(الاتاى) الذى يشرب بعد الطعام كقول احدهم[٨٤] .

هذا أوانى قد رأيت رجزا	**موشحا محبرا مطرزا**
قد دار بين سيدين أحرزا	**خصل المدى في الفضل لما برزا**
تجاريا فى حكم أمر حدثا	**من صنع تشحير الاتاى عبثا**

كما انه أرخ لدخول الحضارة الجديدة الى الغ من مرش وطعام وكساء وآلات الهاتف (التليفون) والسيارات التى دخلت أولاها عام ١٣٥٢هـ وما رافق ذلك من تغير فى اخلاق الناس وتدينهم[٨٥] .

كما سجل لنا أنواعا من الصناعات اليدوية التى وجدت فى سوس[٨٦] ووصف لنا الموروث الشعبي كاحتفالات عاشوراء ، وليلة المولد ، والاعراس والعقيقة ، والختان وما يعمل فى أول السنة الفلاحية وكذلك وصف ألعاب الالغيين ، وأمثالهم[٨٧] .

هـ - الحياة الدينية :

وقد قدم لنا المختار صورة حية عن حياة المتصوفة فى بلاد السوس عموما ، وعد الطرق الشائعة المعروفة هناك مثل :[٨٨] .

١ - الطريقة الناصرية : التى تعد أقدم زمانا من الدرقاوية[٨٩] .

٢ - الطريقة الحراقية بفاس[٩٠] .

٣ - الطريقة الدرقاوية : وذكر من قام بنشرها فى شرق المغرب[٩١] .

٤ - الطريقة التيجانية : وقد وضح طريقة انتقالها الى سوس عن طريق اتصال بعض الفقهاء بالشيخ الاديب اكنسوس .

٥ - **طريقة عائلة ماء العينين[٩٢] .**

وقد عنى المختار بذكر الزوايا وتخليد أخبارها فهو مثلا زار (الزاوية الدلائية) ذائعة الصيت فى المغرب والتى كانت فى وقت من الاوقات دولة داخل دولة . الا انه لم يجد اثرا من آثار علمائها وأدبائها المشهورين . كما ان في كتاب المعسول متسع لزوايا السوس ، مثل (ادوزو ، تيمكيدشت ، اكشتيم ، المعدر ، تادرارت ، ماسة ، .. الخ) التي اندثر بعضها وبقى القسم الآخر نابضا بالحياة[٩٣] .

كان المختار قد تربى في عائلة متصوفة كما أشرنا فى اثناء ترجمته ورأى سلوك والده وحكى عن هذا السلوك الشىء الكثير ، وقد تأثر بمسلك المتصوفة وأعتقد بما يعتقدون ، لذلك وجدناه ينسبه فى مقدمة المعسول على انه مؤمن

بالروحانيات والكرامات لانه هو نفسه ابن زاوية كما قال . وبهذا أيضا وصف عادات المتصوفة وسياحاتهم وتجوالهم في ربوع سوس(٩٤) .

و - الحياة السياسية والادارية :

اهتم المختار بجمع مادة كتبه لغرض التاريخ فاحتفظ للدارسين المحدثين بمواد خام تصلح للكتابة في ميادين الادارة والسياسة المغربية المتعلقة بأوائل هذا القرن بصورة رئيسية ، وبالفترات السابقة بشكل عام .

فهو قد سجل أخبار رؤساء سوس وقادتها وتتبع أخبارهم وحروبهم وصلتهم بالناس ، وبالحكومة القائمة أو بالدويلات المستقلة فى أوقات ضعف الحكومات المغربية أو عند حدوث الاضطرابات والانقسامات بين أفراد الاسرة الحاكمة (العلوية) .

كما انه فصل تراجم (عائلة الشيخ ماء العينين الزعيم الصحراوى الديني والسياسي لاسيما ابنه أحمد الهيبة المتوفى «١٣٣٧هـ» ، وابنه مربيه ربه)(٩٥) وامتداد جهادهم للمستعمرين الفرنسيين حتى مراكش ، ومساهمة السوسيين بالانضمام الى جيشه وقدم صورة حية عن مشاركة الصوفية وأهل الزوايا اضافة الى بقية سكان سوس والمناطق المجاورة لمراكش ، واصفا من أخلص بانضمامه ، ومن كان يضمر الخيانة . ولم يفته ان يرسم صورة للصحراويين القادمين مع الشيخ احمد الهيبة(٩٦) .

كما انه أشار الى محاولة الحكومة الفرنسية مد نفوذها الى المناطق الجبلية من جنوب المغرب(٩٧) ومحاولتها باصدار الظهير البربرى عام ١٩٣٠ تقسيم المغرب الى قوميتين منفصلتين عربية وبربرية(٩٨) .

ومصداقا لما قلناه نرى الاستاذ عبدالكريم غلاب يبرز أهمية كتب المختار لاسيما (الالغيات) لكتابة تاريخ الفترة الاولى من الحركة الوطنية بالمغرب(٩٩) .

واخيرا فقد كان المختار مرشدا دينيا وأديبا وشاعرا وأستاذا للغة العربية وآدابها يحفظ الكثير ويفيد الطلبة بشروحه لتبحره وحسن فهمه ، كما انه بجمعه الاخبار والروايات كان شبيها بجيل المؤرخين الرواد أمثال المدائني والطبرى . وان ما قدمه من جهد من خلال جمعه للروايات الشفوية عمن ساهم فى الاحداث ، أو من الرسائل والمواد المكتوبة كالظهائر (الاوامر الادارية) سيوفر ولا شك مادة تأريخية تكمل غيرها من المصادر لمن يتصدى لكتابة تاريخ المغرب العربي .

وللمختار فضل آخر لا يقل عن مؤلفاته أهمية ألا وهو تنشئته لاجيال من ابناء سوس على حب العربية وحب أهلها من مغاربة ومشارقة من خلال تدريسه وارشاده . ومن خلال مشاركة احرار المغرب فى انشاء الجمعيات لبث روح الوطنية والوعى الثقافي وفضح أساليب المستعمر الفرنسى والتى من أخطرها احلال اللغة الفرنسية محل العربية .

هذا هو المختار السوسي الذى اطلعت على بعض آثاره حين كنت بالمغرب(١٠٠) . فأعجبت بهمته وهمة السوسيين ووجدت انه حرى بالاشادة مشرقا ومغربا اذ كشف لنا عن احدى حلقات الادب العربى المفقودة ، وحفظ لنا من أمر العربية ما كاد يندثر . فرحمة الله عليه .

★☆★☆★☆★☆★

الهــوامش

(١) كراسكونسكي : مع المخطوطات العربية : ٣٢٠.

(٢) المختار : سوس العالمة : ١١٩ .

(٣) المعسول ١ : ١٣ .

(٤) المختار : سوس العالمة :

(٥) انظر ترجمته في المسعول ٢ : ٢٦٥.

(٦) المختار : المعسول ٢ : ٢٦٥ .

(٧) الطريقة الدرقاوية : نسبة الى مؤسسها مولاى العربي الدرقاوي المتوفى سنة ١٢٣٩هـ والذي تخرج به كثيرون منهم سيدي احمدبن عبدالله المراكشي صاحب الزاوية الشهيرة بازيزضى بمراكش. وقد توفى نحو سنة ١٢٧٠هـ وبهذا الشيخ تخرج جملة مشايخ سوسيين كان في مقدمتهم سيدي سعيدبن حمو المعدرى الذي أخذ عنه الطريقة والد المختار ـ المعسول ١ : ١٨٤ .

(٨) ن.م ١/٢٥ وانظر سوس العالمة : ٤٢.

(٩) ن.م.

(١٠) ن.م ١ : ١٨٤.

(١١) ن.م ٢ : ٢٣٥.

(١٢) المختار : المعسول ١ : ١٨٤.

(١٣) ن.م ١ : ١٥.

(١٤) لا أدري ان كان المقصود به (صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر) للفيراني ام (صفوة الادب وديوان العرب) للجراوى ـ انظر ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج١ ص٢٧٧، ج٢ ص٤٢٢ .

(١٥) ن.م ١ : ١٥ .

(١٦) ن.م.

(١٧) ن.م .

(١٨) الجراري : من أعلام الفكر المعاصر ٢ : ١٩٧.

(١٩) المختار : المعسول ١ : ٢٣، وانظر مقدمة كتاب (سوس العالمة) .

(٢٠) ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى : ٥٥.

(٢١) الجراري ٢ : ٢٠٠ .

(٢٢) الجراري ٢ : ٢٠٠ .

(٢٣) المختار : المعسول ٢ : ٣٣٠.

(٢٤) ن.م. ٣٢٤ .

(٢٥) محمد المتوفي: مقال (المختار السوسي) في مجلة الايمان ص٣٥ وهنا اسماء ـ الكتب بعد (رقم ١٨)، وانظر ايضا مقال مصطفى محمد الشعشوع : محمد المختار السوسي ص١٠٦ ـ ١٠٧ من مجلة الايمان .

(٢٦) المختار : المعسول ٢ : ٩٨ .

(٢٧) ن.م ١٦ : ٥ ـ ٣٨ .

(٢٨) محمد لحو : مقال بعنوان (شخصية علمية) ص٥١ مجلة الايمان .

(٢٩) المختار : المعسول ١ : ٢٧.

(٣٠) ن.م ١ : ٢٧٠.

(٣١) ن.م ٢ : ٢٢١.

(٣٢) المختار : سوس : ١٥.

(٣٣) ن .م : ١٧ .

(٣٤) ن.م : ٢٠ ، ٥٩ ـ ١٢١ .

(٣٥) المختار : المعسول ١ : ٢٧ .

(٣٦) ن . م : ٤١ .

(٣٧) المختار : المعسول ١ : ٢٧ .
(٣٨) ن .م ١ : ١٦٠ .
(٣٩) ن .م ١ : ٦٣ ـ ٧٥ .
(٤٠) ن . م ١ : ١٣٨ .
(٤١) ن . م ١ : ١٤٨ .
(٤٢) ن . م ١ : ١٦٠ .
(٤٣) ن . م ٢ : ١٨٩ .
(٤٤) ن . م ٢ : ١٢٤ .
(٤٥) ن . م ٢ : ١٦٥ ـ ٣٦٦ وانظر سوس العالمة : ٣٠
(٤٦) ن . م ٢ : ٢١٠ .
(٤٧) ن . م ١ : ١٦٦ .
(٤٨) ن . م ١ : ٥٧ ، ١٦٦
(٤٩) المختار : المعسول ١ : ٥٧ .
(٥٠) وهو كتاب (شرح على تحفة ابن عاصم في الفقه المالكي) للمتاودي محمد بن الطالب الفاسي المتوفى ١٢٠٩م/ ١٧٩٥م الاعلام ٧ : ٤٠ .
(٥١) وهو كتاب (منح القدير ـ في شرح مختصر خليل) طبع في مجلدين في الفقه المالكي . للدردير أحمد بن محمد العدوى المتوفى ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م ، الاعلام ١ : ٢٣٢ .
(٥٢) ن.م ٢ : ٢٨ .
(٥٣) ن.م ٢ : ٣٤٧ .
(٥٤) ن.م ٢ : ٣٥٨ .
(٥٥) ن.م ٢ : ٣٥٨ .
(٥٦) المختار ، سوس : ٢٥ ، ٢٦ ، وانظر المعسول ٢ : ٢٦ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٩٠ .
(٥٧) المختار المعسول : ٢ : ٢٠٦ ، ١٦٠ ، ٣٤٨ .
(٥٨) ن. م ٢ : ٢٢٤ .
(٥٩) المختار : المعسول ٢/ ٣٣ ، ٣٧، ٧٦، ٩٠، ١٢٦، ١٦٠، ١٦٤، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١٨، ٣٣٤، ٣٣٨، ٣٤٢، ٣٤٣ .
(٦٠) المختار : سوس العالمة : ٢٥ .
(٦١) المختار : المعسول ٢ : ١٢٦ .
(٦٢) ن. م ٢ : ١٦٩ .
(٦٣) المختار : سوس : ٣٦ .
(٦٤) المختار : المعسول ٢ : ٣٤٨ .
(٦٥) المختار : سوس العالمة : ٣١ .
(٦٦) ن.م : ٣١ .
(٦٧) ن.م : ٣٧ .
(٦٨) المختار : المعسول : ٦٠ .
(٦٩) المختار : المعسول ٢ : ٥٩ .
(٧٠) المختار : سوس : ٣٧ .
(٧١) ن. م : ٣٤ .
(٧٢) ن. م : ٥١ .
(٧٣) المختار : المعسول ٢ : ١٧٣ .
(٧٤) المختار : المعسول ٢ : ٣٢٨ .
(٧٥) من الطريف ان نشير هنا الى ان هذه المهمة التى كانت للسوسيين بما فيهم الالغيين قد تبدلت فبعد ان أصبح في المغرب جامعة ، وجدنا الطلبة ينفرون من العلوم ويحاولون بوسيلة العصر المبتكرة ، وهى اعلان الاضراب الجماعي التخلص من بعض الدروس تخففا من اعبائها ، وطلبا للراحة من عنائها . فقد طالبت شعبة الادب العربي في جامعة القاضي عياض بمراكش . وكذلك الحال في جامعة محمد الخامس (نفس الشعبة) باسقاط احد القرينين من امتحان النحو أو الصرف وعدم مطالبتهم بهما معا . فتأمل .

(٧٦) المختار : المعسول ٢ : ٧٠ .
(٧٧) ن.م ٢ : ٢١٥ .
(٧٨) ن.م ٢ : ٢٠٠ .
(٧٩) المختار : المعسول ٢ : ٢٩٨ .
(٨٠) ن.م ٢ : ٢٨٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤ .
(٨١) ن.م ٢ : ٣٢٠ .
(٨٢) الجراري : ج ٢ ص ١٩٧ ـ ٢٠٠ .
(٨٣) القباج : ج ١ ص ١٩ ج٢ ص٦٠ .
(٨٤) الدكتور السولامي : ص٢٩، ٤٨، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٢٨، ١٨٤، ٢٤٦، ٢١٧، ٢٢٨، ٢٢٩ .
(٨٥) المختار : المعسول ١ : ٤٣ .
(٨٦) ن.م ١ : ٣٦ ـ ٤٣ .
(٨٧) ن.م ١/ ٢٩ ، ٣٦، ٥٤، ٥٨، ٥٩، ٦٠ .
(٨٨) ن.م ١ : ١٩٣ .
(٨٩) ن.م ج ١ : ٢٦٥ ج ٢، : ٦٠ .
(٩٠) ن.م ١ : ٢١٦ .
(٩١) ن.م ١ : ٢٥٦ .
(٩٢) ن.م ٢ : ٣٧٧ .
(٩٣) مقدمة المعسول ١ : ٢ .
(٩٤) المختار : المعسول ٢ : ٥١ .
(٩٥) ن.م ٢ : ٣٧٧ ، ٤ : ١٠١ ـ ٢٤٧ .
(٩٦) ن.م .
(٩٧) ن.م ٢ : ٩٥ فما بعدها .
(٩٨) المختار : المعسول ٢ : ١٢٤ .
(٩٩) عبدالكريم غلاب : تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب .
(١٠٠) خلال المدة ١٩٧٧م ـ ١٩٨٢م .

تاريخ الحركة الوطنية في نيجريا
١٨٦٣ ـ ١٩٦٠

الدكتور عبدالرزاق مطلك الفهد
أستاذ مساعد / كلية التربية
جامعة الموصل

تعتبر نيجيريا من اكبر الدول الافريقية ـ تقع في غرب القارة. تشترك بحدود تبلغ ٤٠٧٤ كم مع اربعة جيران هي تشاد ٨٨ كم والكاميرون ١٩٦٠ كم وبنين ٧٧٢ كم والنيجر ١٤٩٧ كم. ويبلغ عدد نفوسها ٧٥,٨٤٠,٠٠٠ نسمة حسب احصاء ١٩٨٠ . اما مساحتها فتبلغ ٩٢٣,٧٦٨, كم٢.

ان نيجيريا من الدول المنتجة للنفط وتعتبر ثامن دولة من حيث انتاج النفط في العالم. واكتشف النفط فيها لأول مرة عام ١٩٥٦ وهي عضو في منظمة الاوبك. ويمثل انتاجها ٩٢٪ من قيمة الصادرات ـ وتستورد الولايات المتحدة ٢٦٪ من احتياجاتها النفطية من نيجريا.

وهناك معادن اخرى مثل الذهب الذي يتوفر في غرب البلاد ـ كما تنتج القصدير في الشمال، والفحم في الشرق والزنك في الوسط الغربي. وفي نيجيريا ٩٠٪ من احتياط العالم من الكولوجيت.

وهي بلد زراعي ٥١٪ من أراضيها صالحة للزراعة.

المنتوجات الزراعية الرئيسية هي: الفول السوداني ـ القطن ـ الرز ـ الكاكاو ـ الكاساتا. ومع ذلك فليس هناك اكتفاء ذاتي من المواد الغذائية ـ ولديها ثروة حيوانية ضخمة.

التركيب الاجتماعي

النيجيريون هم الزنوج البدائيون مع زنوج البحر المتوسط .

يتكون المجتمع من عدد من القبائل لكل قبيلة لغتها الخاصة وتاريخها وعاداتها ـ وهناك على الأقل ١٥٠ قبيلة ـ وكذلك عدد من الديانات .

ففي الشمال المسلمون في حين يوجد نسبة أكبر من المسيحيين في الجنوب ـ وهناك مجموعات من الوثنيين تنتشر هنا وهناك .

الجنوب كان أكثر اتصالا مع الأوربيين وهم يكونون تجارا وساسة وأصحاب بنوك ـ وبصورة عامة يكونون أغنى من الشمال .

وهناك نسبة كبيرة من السكان مزارعين فقراء أو عمال غير ماهرين في المدن مع مستوى معيشة لا يتجاوز ٣٠ جنيها سنويا . وعلى العموم فان حياتهم على الكفاف ويعانون من الأمراض الاستوائية (١) .

خلال العصور الوسطى ارتبط شمال نيجيريا مع ممالك كبرى لغرب السودان (غانا ـ مالي ـ السنغال) ومع أقطار البحر المتوسط خلال الصحراء .

التأثير الاسلامي ظهر في نهاية القرن الخامس عشر وكان من مدينة كانو Kano وهى مشهورة ليس كمركز للدراسات الاسلامية ـ ولكن كمركز تجارى مع غرب السودان ولحين وصول البريطانيين ـ كان شمال نيجيريا يتجه اقتصاديا نحو الشمال والشرق ـ وكان القماش المنسوج والجلود المدبوغة تصدر عن طريق موانىء شمال افريقيا على البحر المتوسط .

وهيأت تجارة الرقيق في الجنوب الاتصال بين سكان السواحل والأوربيين ـ وكان البرتغاليون هم أول من أقاموا مثل هذا الاتصال"*" الى ان بدأت بريطانيا تتدخل من أجل حفظ مصالحها التجارية ولحجة منع الاتجار بالرقيق .

بداية المصالح البريطانية في غرب افريقيا :

بعد ان احكمت بريطانيا سيطرتها على الهند (٢) وتوسعت تجارتها في العالم أصبح الهدف الرئيسي للسياسة البريطانية خاصة خلال ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر الأخيرة هو الحصول على المحطات المهمة والقواعد البحرية للمحافظة على المضايق البحرية ضد أى عائق للتجارة ومن ناحية أخرى تأمين سلامة الطريق الى الهند .

وقد كان هناك تجار بريطانيون في غرب افريقيا استقروا فيها منذ فترة وطوروا تجارتهم ولكنهم كانوا بحاجة الى التدخل لحمايتهم وحماية عملائهم الافريقيين من مضايقة الملوك والوكلاء الذين يريدون اخضاعهم لسلطتهم أو أخذ الأموال منهم بشكل « خاوة » ـ كما ان البعثات التبشيرية البريطانية ـ كانت هي الاخرى بحاجة الى حماية كما كانت تنظر الى بريطانيا بأنها هي وحدها القادرة على القضاء على تجارة الرقيق والغاء هذه المأساة الانسانية بعد ان عمت العالم المسيحي فكرة القضاء على الرقيق (٣) .

وكان غرب افريقيا وخاصة المناطق الجنوبية الغربية « نيجيريا بصورة أخص » قد أصبحت سوقا واسعة للبائعين والمستهلكين ومركز نشاط في الحياة الاقتصادية وكانت تمثل أهمية اقتصادية كبيرة بالنسبة للتجارة البريطانية والفرنسية وهناك عدد كبير من الأسواق في نيجيريا في مدن الهوسا ـ وبينين ـ ويورنو ـ وبوروبلاند ـ وينو وكذلك لاغوس ... الخ وسارت حركة التجارة وحركة الرقيق معا ولم يخل ذلك من عنف وقسوة .

وفي الجزء الأول من هذه الفترة ـ كان الحكام الأفارقة في سيطرة تامة على المدن الساحلية . وما على التجار الأوربيون الا اطاعتهم ـ أما من يتحدى هؤلاء الحكام فانه يجد المقاطعة وربما الحرمان من ممارسة التجارة ـ وبعد ان ضج التجار من معاملة الحكام المحليين أخذوا بالضغط على الحكومة البريطانية لاقناعها بممارسة ما أسموه نوعا من « السيطرة المتحفظة » وقد سنحت الفرصة الأولى لتثبيت الوجود البريطاني من خلال حملة لمقاومة الرق في عام ١٨٣٦ حيث توجهت سفينة حربية الى ميناء بوني Bonny للقبض على سفينة رقيق اسبانية ـ وقد أدى ذلك الى امتعاض حاكم بوني لهذا العنف الذى حصل في المدينة فقام بسجن التجار البريطانيين في المدينة ـ وكرد فعل على ذلك هدد البريطانيون بتحطيم المدينة ما لم يطلق سراح التجار ، وبمساعدة بعض الافارقة المنشقين على الحاكم تم عزله وعين حاكم جديد أصبح معتمدا على بريطانيا ومجبرا على الاقرار ببعض أسس السياسة البريطانية في نيجيريا آنذاك ومنها الاقرار بابطال

"*" راجع عن ذلك London Mask - Encyclopedia - Africa - 1966 - Louis Barron .. World

تجارة الرقيق ولكن بعد ان قدم له تعويض ولكنه لم يتسلم هـذا التعويض ـ لذلك عمـد وبعـد عـدة سنوات الى القبض على سفينة بريطانية كبديل عن التعـويض وأدى ذلك الى عزله لصـالح صـاحب المنصب السابق . وكان واضحا ان المستفيد من هذه اللعبة هو بريطانيا .

وحدثت حركة أخرى مشابهة في عـام ١٨٤٩ حيث عين التاجر جون بيكروف John Becroff قنصلا في بينين Benin وبيافرا Biafra مع مركز قيادة في فرناندو بو Fernando Po مع استمرار متابعة الحملة ضد تجارة الرقيق وحماية مصالح التجار البريطانيين ثم دخلت بريطانيا في خلاف مع ملك لاغوس المدعو كوسوكو Kosoko الذى كان قد استلم العرش عام ١٨٤٥ بعد ان عزل خاله الملك السابق . فتدخل الانجليز لمساعدة أعـوان الملك السابق المعزول وفرضوا قوتهم في لاغوس ، ووقعت معاهدة عدم الاتجار فى الرقيق ، وبـذلك تقدمت بريطانيا خـطوة أخرى نحـو السيطرة ، وحذت مدن ساحلية أخرى حذو لاغوس ووقعت مثل هذه المعاهدة .

كانت النتيجة الهامة للحملة البريطانيـة ضد تجارة الرقيق هى أن زيادة نفوذ بريـطانيا عـلى الولايات ومنها ملك لاغوس قد تصاعدت ، ولكن لم يحصـل ذلك بـدون ردود فعـل حيث استمـرت الاصطدامات مع الزعامات المحلية ، وأخيرا تمت السيطرة النهائية لبريطانيا على المنطقة بعد عام ١٨٦١ حيث احـتلوا لاغـوس التـى اصبـحت مستعمرة بريطانية وعين حاكم بريطاني عليهـا ، مع استمرار الاصطدام مع زعامات قبلية أخرى تمثل العشائر المتنازعة بالأصل فيما بينها ، وبعد مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ فتحت بريطانيـا شـركـة نيجر الملكية Royal Niger Company تفويضا مع شركات بريطانية أخرى بأن تأخذ على عاتقها القيام بشئون الادارة ، وقد وافقت الشركة على القيـام بهذه المهمـة بشكـل يـرضي الانجليـز ، واستمرت سيطرة الشركات حتى عام ١٩٠٠ حين استلمت وزارة المستعمرات السيطرة على نيجيريا بدلا من الشركات (٤) .

طبيعـة السياسـة البريـطانيـة في نيجيـريـا والاستغلال الذى تعرضت له البلاد :

مارست بريطانيا عملية استغلال ثروة البلاد والأيـدى العاملة فيهـا ومن أجل تسهيـل عملية الاستغـلال لموارد البـلاد ، فقـد طورت الادارة البـريطانيـة المواصـلات فمـدت خـطا للسكـك الحديدية من لاجوس في أقصى الجنوب الغربي الى كانو في أقصى الشمال من أجل نقل ما كان ينتج في الشمال من الفول السوداني كما مـد الخط من الشرق الى الغرب كي يتصل بخط الكـاميرون ـ وقد استغرق مد الخط مدة ليست بالقصيرة ففيما بين سنتي ١٨٩٦ ـ ١٩٠١ مدت شركة النيجـر الخط من لاجوس الى ابادان ، ثم جاءت الخطوة الثانية حين قررت حكومة الشمال مد الخـط من كانو الى الميناء النهري باره ـ مارا بمنطقتي زاريا وكادوتا ثم زوبخيرو ، على ان يكون نقل الفـول السـوداني بعـد ذلك الى الشـاطىء عن طريق النهـر ـ ثم اتصلت الخطوط عـام ١٩٢٧ لتكون خطا واحدا متصلا (٥) .

واستخدم الفرد النيجيري في خدمة الاقتصاد الاستعماري ، من ذلك استخدام الأفراد في جر العربات لنقل البضائـع وخاصـة أثناء الحـرب العالمية الأولى ـ ولكن وجد بعد ذلك ان استخدام الفرد في نقل البضائع يكلف غاليا ـ اذ يكلف نقل الطن الواحد من نيجيريا ولمسافة ميل واحد شلنين ونصف الشلن بينمـا يكلف نقله بالسيـارة شلنا واحدا وشلنين بالسكك الحديدية فاستغنـوا عن الطريقة السابقـة ، وقامت السلطة البـريطانيـة بـالاستيلاء عـلى الارض لصـالح المستـوطنـين البيض ـ وكـذلك اجبار الفـلاحين عـلى زراعـة منتوجات تجارية مما سبب قلة الموارد الغـذائية وأدى ذلك الى تعرض السكان لسوء التغذية فظهر ان ٥١٪ من الأطفال في نيجيريـا في المقاطعـات الشمالية يموتون قبل العام السادس من عمرهم ، وفي المقاطعات الشرقية يعاني ٧٠٪ من الأطفال الذين يسمح لهم بدخول المستشفيات من سـوء التغذية .

واستغل الرأسمال الأجنبي الزراعة فأقيمت المزارع الكبيرة الرأسمالية بعد ان سادت عملية بيع الأرض ـ وحققت المزرعة الرأسمالية تقدما ملحوظا منذ عام ١٩٥٢ حيث تمت تنمية قرابة أربعين ضيعة جديدة تضم أكثر من ١٢٥٠٠٠ اكر (٦) .

واستمرت عملية ممارسة الرق في نيجيريا لفترة متأخرة جدا ـ ففي عام ١٩٥٩ قالت جريدة (وست افريكان بيلوت) التى تصدر في نيجيريا بأن عمل الرقيق مازال مستخدما من جانب بعض الشركات الخاصة ـ كما أكدت احدى مقالاتها الافتتاحية ان التجارة في الرقيق من الفتيات كانت تسير قدما ـ وكان يجرى بيعهن في نيجيريا الشرقية الى المناطق الاخرى من افريقيا الغربية (٧) .

وبعد دخول المصنوعات الأجنبية المستوردة والتى نافست الصناعات الوطنية اليدوية اضمحلت الطوائف التقليدية للمشتغلين بهذه الصناعات تاركة أعضاءها في فقر شديد .

وقد رسخ الرأسمال الأجنبي هيمنته على اقتصاديات البلاد ولم يستطع الرأسمال الوطني بجانبه ان ينمو مع وجود بورجوازية . قوية في نيجيريا ، اذ ان محاولات نمو رأس المال الوطني كانت تصطدم بالمعوقات من جانب الشركات البريطانية التى تحتفظ باحتكار راسخ في معظم مجالات النشاط الاقتصادي ، ووجدت هذه الشركات عونا كبيرا من الموظفين البريطانيين الذين كانوا يتمتعون بالسيطرة على الجهاز الحكومي كله والذين يحابون هذه الشركات ، من هذه الشركات شركة « الخطوط النيجيرية الوطنية للشحن البحري » التى انضمت الى شركة ـ خطوط مؤتمر افريقيا الغربية ـ التى يسيطر عليها البريطانيون ـ كما نجد مثالا آخر على هيمنة المصالح البريطانية على مصالح البلاد وهو استخدام زيت الديزل في « شركة كهرباء نيجيريا » و « شركة السكك الحديدية » وذلك بدلا من استخدام الفحم المنتج محليا ، وذلك محاباة للمصالح الأجنبية على حساب التنمية الاقتصادية في نيجيريا .

ويعمل في نيجيريا فرع شركة فيزون لانتاج الأسمدة ذات رؤوس الأموال الانكليزية وهي تنتج بالاضافة الى الأسمدة مواد زراعية كيمياوية وهناك بنوك أجنبية في البلاد تمون هذه الشركات هي بنك باركليز ، وفيليب هيل ليمتد والأول انكليزى والآخر برؤوس أموال أيطالية وفرنسية وانكليزية (٨) .

ونظرا لقلة موارد البلاد وسوء الأحوال المعيشية لجأ السكان الى الهجرة طلبا للعمل ، فقد ذكر احد الباحثين عن الشئون الافريقية ان ٩٢٪ من رحلات الهجرة من شمال غرب نيجيريا لأسباب اقتصادية ، وكان ما لا يقل عن ١٦٪ يهاجرون بحثا عن الطعام (٩) .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية زادت بريطانيا من استغلالها للبلاد فقد خسرت نيجيريا من سنة ١٩٣٩ . الى سنة ١٩٤٥ أكثر من ٣٠ مليون جنيه استرليني من خلال التجارة غير المتكافئة مع بريطانيا ، وخلال تلك الفترة استعارت بريطانيا من رصيد نيجيريا ما يعادل ٤٥ مليون جنيه استرليني ، هذا الرقم يمثل زيادة الفوائد من الصناعة البريطانية وشركات التجارة والبنوك .

ان حصيلة الصادرات النيجيرية مثل الفول السوداني وزيت النخيل وحبوب الكاكاو ـ والسمسم والقطن قد اتسعت في فترة الحرب .

وحاولت بريطانيا استخراج معادن جديدة منها الكولومبيت Columbit والتنجستن Tungsten ـ والأخير عنصر فلزي يستخدم لتنقية الفولاذ وفي صنع السليكات التى بداخل المصابيح الكهربائية ـ وكذلك زيادة انتاج القصدير ـ وبدأت كذلك بزراعة المطاط .

وحينما انتشرت الحرب الى شمال افريقيا والشرق الأوسط والهند ـ تركزت قطعات كبيرة وأسلحة في نيجيريا كقاعدة استراتيجية لبريطانيا وذهب كثير من النيجيريين مع القوات البريطانية الى جبهات القتال المختلفة فحاربوا في الصومال واثيوبيا وبورما والشرق الاوسط حتى بلغ عدد

من التحق بالقوات البريطانية من النيجيريين أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نيجيري كمحاربين عدا أولئك الذين استخدموا لشق الطرق وحماية المعسكرات والمطارات ... الخ .

وفرضت السلطات الاستعمارية أيام الحرب سيطرتها على المنتجات التموينية المنتجة من قبل فلاحي نيجيريا دون ان تحد من الزيادة في أسعار البضائع الاستهلاكية المستوردة وكانت النتيجة هبوط قاس في الدخول الحقيقية للفلاحين ، وفي نهاية الحرب هبطت قوتهم الشرائية بمقدار ٥٠ ـ ٦٧٪ مقارنة مع مستويات ما قبل الحرب .

وقد خفضت مشاكل الحرب استيراد الطعام وخاصة في الفترة ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ فنقص استيراد السمك المعلب بمقدار ١١٪ قياسا الى فترة ١٩٣٤ ـ ١٩٣٩ وانخفض استيراد الأرز بمقدار ٨٪ والسكر بمقدار ٢٠٪ .

ان الأسعار المرتفعة لأثمان البضائع قد ضربت الشغيلة خاصة أولئك الذين يتقاضون أجورا منخفضة تعادل ٧٠٪ فقط من أجور ١٩٣٩ .

أما ظروف العمل فقد ساءت أكثر ـ وقد مورس العمل الاجبارى في المناجم [١٠] .

وفي الوقت الذى عانى فيه الشغيلة ظروف المعيشة السيئة ، فان البرجوازية النيجيرية قد قوت مركزها الاقتصادى خلال الحرب ، لأن فرص الاقتصاد العالمي قد أضعفت من منافسة البضائع البريطانية الأمر الذى ساعد على زيادة نشاط البرجوازية النيجيرية في التجارة والصناعة ـ وقد بدأ الرأسمال الوطني يبذل جهودا في تنمية الأعمال .

أما الخدمات التى تقدم لأهالي البلاد فهي ضعيفة بصورة عامة فالخدمات الطبية قليلة قياسا الى عدد السكان ، ومع ان المؤسسات الطبية في نيجيريا أهم المؤسسات في كل غرب افريقيا البريطاني ـ ويتولى الادارة الطبية مدير بريطاني بمثابة مستشار لوزير الصحة المحلي ـ بينما يقوم المفتش العام بنفس المهمة لوزير الصحة المركزى ـ ولكن حتى سنة ١٩٥٢ لم يكن عدد الاطباء في كل نيجيريا (وعدد سكانها يقدر بأربعين مليون نسمة) يتجاوز خمسمائة طبيب أى بمعدل طبيب واحد لكل ستين الفا من السكان اما عدد المستشفيات فهو ٧٦ مستشفى حكوميا و٣٢ تابعا للارساليات التبشيرية ، و٣٥ مستشفى خاصا .

وخدمات التعليم ضعيفة أيضا فقد القى عبء التعليم كله على الافريقيين بجانب مدارس المبشرين ـ ولكن تدخلت الحكومة البريطانية في شئون التعليم من أجل ان لا تكون هناك لغة أخرى بجانب الانكليزية ، ومن أجل عرقلة عملها في بعض الأحيان [١١] .

الحركة الوطنية ٠

على الرغم من حالة التخلف السياسي والفكري التى تعاني منها نيجيريا والتعصب القبلي والدينى السائدين فيها ـ فانه قد نما لدى الشعب بعد الاحتلال وعي سياسي لعدة عوامل هي .

١ ـ التغييرات الاقتصادية التي حصلت فيها وهي:

أ ـ انتشار وسائل المواصلات التى تربط بين أجزاء نيجيريا ، مما أدى الى التقارب والاندماج سواء أكان اجتماعيا أو اقتصاديا بين سكانها ودفع بالمنتجين الزراعيين خاصة الى زيادة انتاجهم .

ب ـ عملت الادارة البريطانية على زيادة صادرات نيجيريا وخاصة الى بريطانيا .

جـ ـ معرفة الشعب بأهمية النقد بعد ان كانوا يعتمدون على المقايضة وبالتالي فان ذلك شجع الناس على العمل .

٢ ـ انتشار البعثات التبشيرية:

كانت أولى هذه البعثات التى وصلت الى نيجيريا هي بعثات الروم الكاثوليك التى وصلت عام ١٥١٦ م الى منطقة بنين والتى استمرت في عملها حتى عام ١٦٨٨ ثم عادت

مرة أخرى في القرن التاسع عشر مع بعثات تبشيرية أخرى ، وقد أسست هذه البعثات مدارس تنشر وعيا ثقافيا ولكن بصفة دينية ـ وتعلم الأفارقة بعض اللغات فكان ذلك عاملا في توسيع مداركهم .

٣ ـ انتشار التعليم :

كان ذلك من العوامل الرئيسية في خلق الوعي السياسي في نيجيريا رغم ان هذا التعليم كان من حظ الأقلية من الشعب ، ولكن الاقلية هي التى أسهمت بشكل فعال في قيادة نيجيريا نحو الاستقلال ، ومع ان التعليم كان يؤكد على الثقافة الانكليزية ، وتاريخ بريطانيا وعظمائها وجغرافيتها ، وكل تراثها ، في حين لا يعرف الافريقي شيئا عن بلاده نيجيريا ، الا انه مع ذلك فان هذا التعليم كان كنافذة أطل منها الأفارقة على الثقافة الغربية بما فيها من أدب وفن وتراث ثوري وكفاح الشعوب الأوربية من أجل الحرية والديمقراطية (١٢) .

٤ ـ قيام الطبقة العمالية :

مع تدفق رأس المال الأجنبي واقامة مشاريع صناعية لصالح الاحتلال بدأت تنشأ طبقة عمالية نيجيرية تدريجا اكتسبت الخبرة والوعي السياسي من خلال احتكاكها بالطبقة العاملة الأجنبية الماهرة ، ومع مرور الزمن تولد لديها وعي سياسي وطبقي وأصبحت رافدا مهما من روافد الحركة الوطنية في نيجيريا .

٥ الصحافة :

نشأت الصحافة النيجيرية عام ١٨٦٣ حينما أسس روبرت كامبيل Robert Camplel صحيفة الانكلو ـ افريقية The Anglo-African وكان هدف كامبيل تلبية رغبة الأفارقة في الثقافة الغربية والوعي الثقافي خاصة في مدينة لاغوس .

وكان روبرت قد ولد في جامايكا من أم خلاسية وأب اسكوتلاندى ، واشتغل طباعا مبتدئا لمدة خمس سنوات ، بعد ان اكتسب مبادىء الثقافة الانكليزية البسيطة ، ثم دخل معهد اعداد المعلمين حيث درس لمدة سنتين قبل ان يصبح معلما في مسقط رأسه . وعمل معلم علوم في معهد الشباب الملون في فيلادلفيا ، وأسهم في نشاط سياسي يدعو الى الفكرة الانسانية والقضاء على التمييز العنصرى ، وذلك في فترة ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠ ، وطرحت في هذا النشاط السياسى فكرة العودة الى افريقيا ، وقد عاد كثير من الأفارقة المغتربين الى افريقيا ، وكان منهم كامبيل الذى عاد واستقر في لاغوس عام ١٨٦٢ وأسس الصحيفة المذكورة .

وتطورت الصحافة النيجيرية بعد هذا التاريخ حتى بلغ ما صدر من الصحف في الفترة من عام ١٨٨٠ الى عام ١٩٣٧ ـ ٥١ صحيفة (١٣) .

بدأت المقاومة الوطنية للسيطرة الأجنبية منذ بداية الاحتلال البريطاني لنيجيريا .

وأول مظاهر المعارضة للسيطرة البريطانية هي تقديم الاحتجاجات الى الحكومة كلما أصدرت قرارا أو وضعت نظاما يتعارض مع رغبات الأهالي ، وقد حدث ان اعترض الأهالي على قانون صدر عام ١٨٩٥ لفرض الضرائب على المنازل والأراضى في لاجوس ـ فاستجاب الحاكم وألغى القانون ، ثم توالت الاحتجاجات حتى بلغت قمتها في تشكيل تنظيم سياسى عام ١٩٠٨ هو ـ اتحاد الشعب ـ للدفاع عن حقوق الأهالي ومعارضة كثير من الاجراءات والقوانين مثل نزع الملكية للاستغلال العام وضرائب المياه النقية ، وقد شكل هذا الاتحاد بزعامة القادة الافريقيين المتعلمين (١٤) ولكن مع مرور الزمن أصبح هذا الاتحاد لا يعدو أكثر من ـ ناد للأغنياء ـ ويميل للدفاع عن حكومة المستعمرة (١٥) .

الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى :

تأثر النيجيريون بأحداث الحرب وما رافقها من تطور في حركة التحرر العالمية منها ذهاب كثير

من النيجيرين مع الحلفاء في الحرب وتأثرهم بما شاهدوه من تقدم وتطور لدى الشعوب الأخرى - وكذلك تأثر الأفارقة بمبادىء الرئيس الامريكى ويلسون التى تؤكد على حق تقرير المصير للشعوب ومبادىء ثورة أكتوبر في روسيا عام ١٩١٤ - ووعود الحلفاء بتحقيق حرية الشعوب .

التنظيمات السياسية :

عرف النيجيريون التنظيمات السياسية بعد الحرب العالمية الأولى - بعد ان زاد وعيهم السياسى بسبب تأثرهم بالمناخ الذى ساد الحرب كما ذكرنا ، كذلك ببعض النشاطات السياسية في الخارج وهي :

١ - حركة الأفارقة المغتربين في الولايات المتحدة وأوربا ، تلك الحركة التى بدأها ماركوس كارفي الذى أسس جمعية الزنوج العالمية :
(Universal Negro-: Improvements Association) في الولايات المتحدة ، وقد تأسس لها فرع فى لاجوس بشكل علني - ولم يسمح لها بفتح فروع علنية في بقية أجزاء القطر ، ولكن النيجيريين كونوا فروعا سرية لها في المدن النيجيرية عدا لاجوس (١٦) وقد انضم لهذه الجمعية د. ازيكوى والذى برز بعد ذلك كأحد الزعماء السياسيين النيجيريين .

٢ - نشاط طلبة نيجيريا بلندن :

شكل الطلبة النيجيريون بالاشتراك مع غيرهم في لندن منظمتين معا :

أ - اتحاد التقدم الافريقى
ب - جمعية الشعوب الافريقية الأصل .

تأسس الاتحاد سنة ١٩١٨ ، وقد كان له دور كبير في تنسيق التعاون بين الطلبة الافريقيين في بريطانيا ، وقام كذلك بالاتصال بالهيئات والمنظمات السياسية التى كان لها دور في النشاط السياسي ببريطانيا آنذاك .

وفي عام ١٩١٩ اندمجت المنظمتان في - اتحاد الشعوب الافريقية - وهدفه الأول نشر الدعوة الى المساواة بين الافريقيين والبريطانيين في الحقوق والواجبات (١٧)

ظهرت بعد ذلك أحزاب في نيجيريا هي :

١ - الحزب الديمقراطي النيجيري :

أسسه هربرت ماكيولي في لاجوس سنة ١٩٢٢ ، وقد دعا ماكيولي بـ « الأب للحركة الوطنية النيجيرية » .

كان برنامج الحزب يعبر عن مصالح البرجوازية النيجيرية وخاصة المثقفين - وكان يضم أيضا التجار والفنانين والرسميين في لاجوس (١٨) . وكانت أهدافه محدودة تنحصر بالحصول على مقاعد في انتخابات المجلس التشريعي والدعوة الى حرية التجارة وتشجيع انشاء المؤسسات الخاصة وانشاء جهاز للحكم المحلي للحصول على الحكم الذاتى ، ولم يكن الاستقلال التام من بين أهدافه ، وفي الانتخابات التى أجريت عام ١٩٢٣ حصل هذا الحزب على المقاعد الثلاثة المخصصة للاجوس .

٢ - حركة شباب نيجيريا :

تأسست سنة ١٩٣٠ بزعامة أولود وازيكوي ، وكانت خلال السنوات الثمان الأولى تعمل على توحيد الشباب في نيجيريا تحت لوائها دون ان يكون لها برنامج أو هدف محدد حتى سنة ١٩٣٨ حين أعلنت ميثاقها الآتي :

أ - العمل على توحيد صفوف الشعب النيجيرى بالجمع بين قبائله في اطار عام يذيب الحواجز القبلية التى تفرق وحدته .

ب - المطالبة باشراك النيجيريين في ادارة شئون بلادهم بأن يكون لهم صوت على اختلاف أقاليمهم - في المجلس التشريعي .

جـ - اعتبار نظام الحكم غير المباشر غير ملائم للتطور الذى طرأ على نيجيريا ، ولذلك طالبت بالغائه .

وقد دخلت الانتخابات سنة ١٩٣٨ بهذه المبادىء الجديدة فاستطاعت الفوز لأول مرة على الحزب الديمقراطي فى لاجوس .

وقد زادت شعبيتها حتى بلغ أعضاؤها عشرة آلاف شخص . وعقدت الحركة مؤتمرين بلاجوس لنشر مبادئها ومناقشة ميثاقها [١٩] .

وشكلت كذلك منظمات سياسية على مستوى القبيلة حيث شكل اتحاد ايبيو Ibibio Union في لاجوس الذى شكل قبيل الحرب العالمية الثانية .

وتأسست حركة جامعة يوروبا Pan- Yoruba Movement .

وشكلت أيضا تنظيمات تضم مجموعات من الشغيلة هي :

١ ـ جمعية صيادي الأسماك في لاجوس .

٢ ـ اتحاد الخدمات المدنية لجنوب نيجيريا .

٣ ـ منظمة بائعي زيت النخيل .

٤ ـ اتحاد المعلمين .

وشكلت جمعية اخرى تضم الشباب المتعلم تدعى جمعية الشباب المثقفين .

(ب) The Young Man,s Literary Association [٢٠]

أما الكفاح الوطني ضد الحكم البريطاني فقد تواصل بانتفاضات جماهيرية سواء بتأثير هذه الاحزاب او مبادرات جماهيرية وجدت دعما من الاحزاب .

ففي الشمال وبالتحديد في منطقة سوكولو ظهرت مقاومة عرفت باسم «الحركة المهدية» عام ١٩١٥ لمقاومة النفوذ البريطاني. ولكن القوات البريطانية اخمدتها[٢١] .

وفي عام ١٩١٨ انتفض الفلاحون في اقليم Egba الصغير وكان السبب المباشر هو الضرائب المباشرة. وقام الثائرون بتحطيم السكك الحديدية وخطوط التليغراف التي تربط مدن بارو Baro و Minna فأرسلت القطعات العسكرية الى المنطقة وقتلت وجرحت مائة من السكان دون استثناء النساء والاطفال، وفي عام ١٩٢٠ كانت مناطق اونيتشا Onitsh وكالابار Calabar مسارح للاضطرابات. كما اضرب اصحاب المناجم في أنوجا Enugu وانتفض فلاحو منطقة وارى Warri ضد الضريبة

وفي المناطق الاسلامية في شمال نيجيريا عادت الانتفاضة الجماهيرية واتخذت مظهر حركات دينية[٢٢].

هذه الانتفاضات الوطنية كانت تخوضها الجماهير الشعبية معتمدة على قوتها بدافع من شعورها الوطني ودفعا لما تعانيه من استغلال واضطهاد في حين ان المنظمات السياسية ذات الطبيعة البرجوازية التي مر ذكرها كانت تقف عند حد المطالبة بالاصلاحات الديموقراطية والاسهام في السلطة بالمساواة في ذلك مع البريطانيين وحتى بداية الحرب العالمية الثانية حيث فرضت الظروف المستجدة في حالة طوارىء أوقفت بموجبها كافة النشاطات السياسية وسحقت بقسوة اية حركة وطنية .

الحركة الوطنية والتنظيم الحزبي بعد الحرب العالمية الثانية :

بعد التطور السياسي الذي حصل في العالم ومنه افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية بما في ذلك تطور الوعي الثقافي والوطني وتلاحم حركة التحرر العالمية. وانعكاس ذلك على الشعوب الافريقية ـ حيث بدأ اتحاد القوى الوطنية ومن ضمنها البرجوازية النيجيرية التي قوت مركزها الاقتصادي خلال الحرب ـ اذ ان فوضى الاقتصاد العالمي حدت من نشاط الاقتصاد البريطاني وأضعفت من منافسة البضائع البريطانية الامر الذي ساعد على زيادة نشاطها في التجارة والصناعة. وبدأ الرأسمال الوطني يقيم ورش العمل. ومعامل النسيج الصغيرة، ومدابغ الجلود. وبدأت تظهر شركات وبنوك وطنية واخذ رجال الاعمال النيجيريون يقاومون البنوك الانجليزية التي تحكمت في القطر وبذلك نمت تناقضات البرجوازية الوطنية مع المستعمرين، وهذا ما دفعها بالتالي الى طلب الاستقلال السياسي، وقد عبرت البرجوازية عن هذه الرغبة بالتوحيد السريع لعدد من الفئات الوطنية وتشكيل

الجمعيات ومن ثم الاحزاب، تحت شعار الكفاح من أجل الاستقلال الوطني والاصلاحات في الاقتصاد والثقافة[٢٣] .

ثم تشكل عدد من الاحزاب هي :

١ ـ المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون The National Council of Nigeria and The Camerons (N.C.N.C.).

وتأسس في ١٩٤٤/٨/٢٦ والذي غير اسمه الى ـ المؤتمر الوطني لمواطني نيجيريا.

وتكون من اتحاد ازيكوي وانصاره الذين عملوا سابقا ضمن منظمة الشباب واختلفوا معها والحزب الوطني يرأسه هربرت ماكولي، وكانت اهداف الحزب هي :

١ ـ تحقيق وحدة نيجيريا دون تفرقة لقبيلة او اقليم، ولذلك فقد هاجم الحزب دستور ريتشارد سنة ١٩٤٦ لانه قسم نيجيريا الى ثلاثة اقاليم ولم يقف الحزب عند معارضة الدستور بل قاطع المجلس التشريعي المنتخب طبقا لهذا الدستور .

٢ ـ الحصول على الاغلبية في الجمعية التشريعية، ولذلك عارض بشدة نظام التمثيل غير المباشر الذي جاء به دستور ريتشارد .

٣ ـ العمل على رفع مستوى المعيشة .

٤ ـ الاسراع في اتخاذ الخطوات الايجابية نحو الحكم الذاتي لنيجيريا .

ثم دعا للحكم الذاتي للاقليم الشرقي بعد ان وجد ان دعوته لخلق الوحدة النيجيرية لم تجد صدى قويا وتأييدا كافيا لتحويلها الى عمل ايجابي[٢٤] .

وعندما توفي ماكولي تولى ازيكوي رئاسة الحزب، وكان ازيكوي يؤمن في ذلك بافكار تقدمية راديكالية، و ظهرت اثار قيادته في مجموعة من الشباب الذين ألفوا جناحا ثوريا للحزب باسم منظمة زيك ـ اسم الشهرة للدكتور ازيكوي ـ وانتشر هذا التنظيم في كل انحاء نيجيريا بين الشباب المتعلم، وكان يعمل ضد الافكار والاوضاع الاقليمية و ينادي بالعمل الايجابي ضد الاستعمار، ويؤمن بالاندماج الاجتماعي في سبيل خلق نيجيريا واحدة[٢٥] . وواصل الحزب ممارسة نشاطه السياسي بزعامة ازيكوي الذي كان يتمتع بموهبة استمالة الجماهير نحوه، وحاول ان ينظم الحزب على اساس قومي .

عارض الحزب سياسة الاستعمار في نيجيريا ونال الحزب شعبية كبيرة، كما اعتبر ازيكوي بطلا قوميا، على الاقل في جميع انحاء النصف الجنوبي من نيجيريا[٢٦]. وقام أزيكوي بفتح فروع للحزب في كل المدن والقرى في نيجيريا سواء في الاقليم الشرقي او الغربي او الشمالي .

٢ ـ جماعة العمل :

كانت قيادات منظمة الشباب في لاجوس اصلا من شعب اليوروبا ولذلك ظهر بينها رد الفعل القوي لنشاط ازيكوي وحزبه في الجنوب عامة. وساد شعور بين اليوروبا بان شعب الايبو سيسيطر على البلاد. ولذلك تحركت العناصر المتعلمة بين اليوروبا وهي كثيرة، وتم تكوين جمعية ثقافية للتعبير عن حضارة وكيان شعب اليوروبا بقيادة «اولاود» وبعد مدة من النشاط تم تكوين جماعة العمل كتعبير سياسي عن هذا الكيان الحضاري والثقافي لشعب اليوروبا.

ان افكار اولاود ذات اهمية خاصة في هذا المجال فهو يؤمن بان نيجيريا دولة متعددة القوميات، وان هذه القوميات تبرز في اطار الحضارة والثقافة والتاريخ ونظم الحكم القديمة، ولذلك يرى ضرورة الاعتراف بحق هذه الشعوب في حكم نفسها بنفسها وفقا لنظمها المتطورة، وان يتم هذا الاعتراف في اطار اتحاد فيدرالي لكل نيجيريا، وفي داخل كل شعب تكون مهمة النخبة المتعلمة هي قيادة الشعب وتطوير نظم الحكم التقليدية فيها والمحافظة على تراثها ومميزاتها الثقافية القومية[٢٧].

وقد شكل في ١٩٥٤/٤/٢٨ بزعامة اولاود ، وأعلن الحزب منذ قيامه برنامجا يتمثل في «الحرية للجميع والحياة الاكثر أمنا» ولذلك لابد من التحرر

من الحكم البريطاني وامراض المجتمع في نيجيريا وعلى رأسها الجهل والمرض والفقر، ولتحقيق ذلك حدد الاهداف التالية :

١ ـ تأييد النظام الفيدرالي لنيجيريا بدستور اتحادى.

٢ ـ المطالبة بالحكم الذاتي للاقليم الغربي أولا، ثم الدعوة الى الحكم الذاتي لنيجيريا بأكملها.

٣ ـ تأميم المشاريع العامة.

٤ ـ انشاء هيئة اقتصادية عليا لوضع البرامج اللازمة لتحقيق الرفاهية والتقدم الاقتصادي النيجيري.

وزعامة الحزب جماعية وهي القاعدة التى قرر السيد أولاود ان يسير عليها الحزب منذ قيامه حتى يتجنب الاخطاء التى حدثت فعلا عند السيطرة الفردية والصراع على المناصب في حركة شباب نيجيريا.

وهو يعتبر اكثر الاحزاب النيجيرية تنظيما. ويعتمد على الاسس والقواعد العلمية الحديثة للتنظيم الحزبي. وله ادارة للعلاقات العامة تبذل نشاطا ملحوظا في برامج الدعاية.

٣ ـ حزب مؤتمر شعب الشمال :

يمثل الشمال أكثر من ثلثي البلاد سكانا ومساحة وتسكنه الاغلبية الساحقة من المسلمين، وقد عمدت بريطانيا إلى عزل هذا الاقليم عن اقاليم نيجيريا الاخرى تطبيقا لسياستها في تجزئة البلاد وتفرقتها ولانها وجدت في الاقليم معارضة منذ السنوات الاولى للاحتلال، وظل الشمال منفصلا عن الجنوب حتى سنة ١٩١٤ حيث اندمجت المستعمرات الثلاث في بعضها ووضعت كلها تحت اشراف حاكم عام واحد، بقى أهل الشمال يعتقدون ان الانجليز يعاملونهم معاملة مختلفة عن الجنوب(٢٨).

ان الاختلاف في الظروف السياسية التى مر بها كل اقليم حصلت لكل اقليم تنظيماته السياسية الخاصة به ودعت بالفئة الواعية من كل اقليم ان تقوم بنشاط سياسي خاص بذلك الاقليم.

وفي الشمال التقى بعض طلبة الشمال الذين كانوا يتلقون العلم في لندن منذ عام ١٩٤٧ وشكلوا اتحادا فيما بينهم سمي «اتحاد مدرسي الشمال» وكان أول منظمة تجمع بين ابناء الشمال واساسا لكل المنظمات والاحزاب التى تكونت بالشمال، وعندما عاد هؤلاء الطلبة من لندن أسسوا منظمة تعاونية لشعب الهوسا بالشمال في كانون الاول ١٩٤٩ بعد اجتماع عقدوه في مدينة «كانو» واعلن هذا المؤتمر ان هذه المنظمة لا تهدف الى أخذ السلطة من الرؤساء التقليديين، بل على العكس فهي تعمل على مساعدتهم في توطيد سلطتهم.

ومن أهداف المنظمة ايضا بذل الجهود والدعوة الى الصداقة مع العناصر الاخرى للشعب في نيجيريا، وكانت اهداف المنظمة بصورة عامة ذات طبيعة برجوازية محافظة وهذا ما دفع الامراء والرؤساء الى ارسال برقيات التهنئة والتأييد الى المؤتمر، وعلى الرغم من هيمنة العناصر اليمينية على المنظمة الا انها تضم جناحا يساريا لم يقتنع بأهداف المنظمة وسرعان ما دب الخلاف بين الجناحين وتبلور في الانشقاق الذي حصل اثناء الانتخابات العامة سنة ١٩٥١ فقام الجناح اليميني بانشاء حزب سياسي باسم ـ مؤتمر شعب الشمال ـ في تشرين الاول ١٩٥١.

أما الجناح اليسارى فشكل حزبا باسم «اتحاد العناصر التقدمية الشمالية».

كانت أهداف حزب مؤتمر شعب الشمال هي:

١ ـ السيادة الاقليمية في ظل اتحاد نيجيريا، ولذلك طالب بعدم تغيير حدود الاقليم الشمالي لحساب الجنوب.

٢ ـ الابقاء على النظام التقليدى للامراء والرؤساء مع العمل على تطوره ومسايرة ركب التقدم.

٣ ـ الأخذ بالنظم الديمقراطية في الحكم حتى يمكن سماع اصوات الشعب في الشمال وذلك

بالتوسع في نظام التمثيل الانتخابي ومنح الشمال ٥٠٪ من مقاعد مجلس النواب «الاتحادي» طبقا لتعداد سكانه.

٤ ـ اصلاح ادارة الحكم المحلي حتى تؤدى عملها بالصورة التى تحقق النظام والسلام.

٥ ـ استقلال نيجيريا في ظل الكومنولث.

أما حزب اتحاد العناصر التقدمية الشمالية، فهو يعارض سلطة الامراء والرؤساء في الحكم المحلي، ولكنه لم يتعرض في مبادئه أو برامجه من بعيد أو قريب للاستعمار البريطاني.

كان اهم هدف للحزب في سياسته الداخلية الحصول على اغلبية في الانتخابات، أما سياسته الخارجية فهي تأكيد الوحدة الافريقية ومعارضة الانحياز لاحدى الكتلتين

نظام الحكم الذي تتحرك في ظله الحركة الوطنية :

بعد الحرب العالمية الاولي وحين نمت فئة مثقفة ارادت ان تطبق الديموقراطية في البلاد والاسهام في الحكم ـ اعلنت بريطانيا أول دستور في البلاد عام ١٩١٩ اعطى الفئة المثقفة من الوطنيين حق الجلوس الى جانب الزعماء الذين يعينهم الحاكم العام والذين يحكمون باسم «المجلس الدستورى» ولكن في سنة ١٩٢٠ طالب هؤلاء المثقفون أن يكون انضمامهم الى هذا المجلس عن طريق الانتخاب فمنحوا هذا الحق في سنة ١٩٢٣[٢٩] واستبدل بهذا الدستور دستور جديد في سنة ١٩٤٥ الا ان ما منحه للوطنيين كان قليلا الى حد كبير وبموجب هذا الدستور يتم اختيار اعضاء المجلس التشريعي في نيجيريا على الوجه التالى : واحد واربعون من بين الخمسة والاربعين أما ان تعينهم الحكومة الاستعمارية أو يتم انتخابهم بطريقة غير مباشرة طبقا لقوانين تخضع الى حد كبير لسيطرة الزعماء.

وبصورة عامة كان الدستور يعكس فكرة سلطات الحكام الافريقيين التقليديين ويحافظ عليها[٣٠] ونتيجة لمعارضة هذا الدستور من قبل الاهالي فقد استبدل به دستور آخر في سنة ١٩٥٠ انشأ لنيجيريا حكوماتها المحلية في اقاليمها الثلاثة «الشمالى ـ الشرقي ـ الجنوبي» علاوة على مجلس تشريعي مركزي مكون من ١٤٦ عضوا يمثلون الاقاليم الثلاثة والى جانبهم ثلاثة بريطانيين وستة بريطانيين اخرين يعينهم الحاكم العام البريطاني.

وفي سنة ١٩٥٤ صدر دستور جديد آخر اقام مجلسا للوزراء يرأسه الحاكم العام. ويستند على مجلس تشريعي منتخب مكون من ١٨٤ عضوا. والى جانبه ثلاثة مجالس محلية، واحد لكل منطقة يرأسه حاكمها العام الاقليمي[٣١].

أما الحركة الوطنية النيجيرية فقد سارت قدما بشعبها المنظم ضمن الأحزاب أو الحركات الجماهيرية ـ ومنها النضالات العمالية والفلاحية.

لقد نمت الطبقة العاملة النيجيرية مع نمو الصناعة الاجنبية والوطنية في نيجيريا وقد بلغ عدد الشغيلة عام ١٩٣٨ (٢٢٧٠٠٠) في المعامل والدوائر الحكومية ـ واستمر العدد في التصاعد حتى بلغ عام ١٩٥٨ (٨٤٧٠٠٠) عاملا وهذه الارقام لا تشمل العاملين في الاعمال اليدوية في الحوانيت وعمال الزراعة الموسميين الذين لا تحفظ لهم الدوائر الاحصائية سجلات.

وبعد أن تطور الرأسمال في الزراعة زاد من افقار الفلاح وجرف الارض، وهذا ما أدى الى تصاعد عدد المواطنين الذين يهاجرون سنويا للمدن هربا من الجوع، فيعملون في المناجم والمؤسسات المختلفة.

الهجرة المستمرة للسكان مع انها تزيد من حجم الطبقة العاملة الا انها تمنع من تكوين بروليتاريا قوية وتقلل من نمو المشاعر الطبقية.

ولكن مع ذلك فقد أسهم العمال بدور هام في الحركة الوطنية في نيجيريا فقاموا بسلسلة من الاضطرابات ضد ارباب العمل من المستوطنين البيض خاصة فاضربوا عام ١٩٤١ و١٩٤٢ لتحسين ظروف العمل وزيادة الاجور.

وكان أهم اضراب هو اضراب حزيران ١٩٤٥ الذي يعتبر اول اضراب عام في تاريخ نيجيريا حيث اسهمت فيه شغيلة المعامل والدوائر في

مختلف الصناعات. وكان دافع الاضراب للغالبية العظمي من العمال هو الاجور الاعلى، فقد كان مستوى الاجور منخفضا قياسا لمستوى المعيشة، فهي لا تصل لأكثر من ٣٥ جنيها استرلينيا سنويا، في حين قدر ما يكفي العائلة الواحدة المتكونة من ثلاثة افراد بـ ٥٢,٥ جنيه استرليني.

وقامت باغلبية الاضرابات شغيلة الدولة والخدمات الاهلية في لاجوس.

أما اضراب حزيران ١٩٤٥ فقد استمر ستة اسابيع، وتوقف بعد ان وافقت السلطات الاستعمارية على دراسة طلبات الشغيلة.

وحدث اضراب آخر مهم في تشرين الثاني ١٩٤٩ في منجم انوجو Enugu واطلق البوليس النار على المضربين وقتل وجرح اكثر من ٤٠ شخصا.

وكان لهذه المذبحة صدى واسعا في نيجيريا، فانفجر الشعب غاضبا وجرت اصطدامات مع الشرطة في كثير من المدن.

واصبحت هذه الاضطرابات التى شلت الاقتصاد في نيجيريا مدار بحث في البرلمان البريطاني.

ان كفاح العمال هذا الذي تركز في البداية حول مطالب اقتصادية بحتة سرعان ما تطور الى تقديم مطالب سياسية وتحول الى كفاح وطني، فقد أخذ الشعب في كل من انوجو Enugu وابي Abe وميناء هاركورت Harcourt ومدن اخرى يطالب بانهاء السيطرة الاستعمارية[٣٢].

ومما هو جدير بالذكر ان الجهة الموجهة للعمال هي فئة الشباب الثوري المتعلم والذين كانوا يعملون ضمن حزب «المؤتمر الوطني لمواطني نيجيريا» والذين شكلوا «حركة زيك» والتى تأسست عام ١٩٤٦ لتحمل راية النضال ضد القوى الاجنبية، وفتحت لها فروعا في كافة انحاء نيجيريا حتى بلغت ٢٩ فرعا.

وفي تشرين الاول ١٩٤٨ دعا أحد زعماء الحركة في خطاب له الى الثورة ضد بريطانيا والقادة الافريقيين المعارضين للحركة، وحدد هذا الزعيم الوسائل اللازمة لتحقيق الثورة العامة والتى تتحقق بما يلي :

١ ـ الاضراب العام الشامل.

٢ ـ الامتناع عن دفع الضرائب.

٣ ـ مقاطعة كل ما هو اجنبي.

٤ ـ مطالبة الطلبة الذين يدرسون في الخارج بدراسة العلوم العسكرية.

وقد كان لهذا الخطاب رد فعل شديد لدى السلطات المحلية، فألقت القبض على عشرة من قادة الحركة واتهمتهم بالعصيان واثارة الفتنة وجرت محاكمتهم في شباط ١٩٤٩ وادين اغلبهم وصدرت ضدهم احكام قاسية.

وبعد اضراب تشرين الاول ١٩٤٩ لعمال انوجو «المار ذكره» واطلاق الرصاص على العمال والذي كان بمثابة اشارة البداية لحركة زيك باعلانها الحرب على الحكومة في كثير من المدن وسقوط عدد من القتلى والجرحى. جرت محاولة لاغتيال السكرتير الاول للحاكم البريطاني في شباط ١٩٥٠، فقامت السلطة بحملة اخرى من الاعتقالات تم بموجبها القبض على سكرتير الحركة وكثيرين من اعضائها. واثناء المحاكمة رفض السكرتير الاعتراف بعدالة المحكمة لانها لا تمثل الا الاستعمار[٣٣]، وقد شعر الاستعمار البريطاني بخطر هذه المنظمة التى تهدد مصالحه فاتخذ اجراءات قاسية ضدها فسجن الكثيرين من اعضائها ومنهم سكرتير الحركة، وأنذاك غير ازيكوى افكاره ثم تبرأ من المنظمة وفصل بعض قادتها من عضوية حزبه، وهذا ما زاد من ضعف الحركة، فعمدت السلطة البريطانية الى تحريمها نهائيا عام ١٩٥٠[٣٤] وبعد شهر من الغاء حركة زيك قام اعضاؤها المتبقون باعادة تشكيلها تحت اسم «حركة الحرية» ووضعت نصب عينيها أن تعمل على تدمير كل اشكال وصور الاستعمار في نيجيريا والعمل على انشاء جمهورية اشتراكية حرة في نيجيريا[٣٥].

وقد بقيت هذه الحركة تزاول نشاطها اكثر من عامين، وبعدها استطاع حزب المؤتمر الوطني لمواطني نيجيريا ان يحتويها ويخفى نشاطها ضمن اسلوبه الهادىء في العمل.

واصلت الحركة الوطنية كفاحها ضد السيطرة البريطانية وقام بالدور الطليعي والثورى الطبقة العمالية، فقد حدثت بين عامى ١٩٥٠ و١٩٥٩ عدة اضرابات بين عمال المناجم، وسكك الحديد، ومعامل الاخشاب، وعمال الزراعة، وكان اعظم هذه الاضطرابات هو اضراب ٤٠٠٠٠ من عمال المناجم في تشرين الاول ١٩٥٥ الذي استمر مدة ١٨ يوما.

حركة الاضراب هذه ساعدت على بلورة الطبقة العاملة، وتشكيل حركة ثورية عامة في البلاد، وبعد ان استطاعت الحركة الوطنية وفي طليعتها الشباب التقدمي ان يشنوا حربا شديدة على الاقليمية، وسارت البلاد نحو اهداف وطنية عامة، وعلى رأسها الاستقلال هذا الى جانب ضعف اقتصاد الامبريالية البريطانية الذي اجبر بريطانيا على الاسراع بالاصلاحات الدستورية.

منذ كانون الاول ١٩٤٥ اصدر الحاكم البريطاني العام في نيجيريا ريتشاردز Richards A دستورا جديدا اعطى للافارقة ممثلين اكثر في المجلس التشريعي قياسا الى دستور ١٩٢٢ ـ المار ذكره ـ وممثلين فى الحكومة المحلية ـ ولكن هذا الدستور منح الحاكم حق الاعتراض ـ الفيتو ـ على اية جهة ادارية، ومن ناحية اخرى أكد الدستور على الطبيعة الاقليمية للبلاد بتقسيم القطر الى ثلاثة مناطق ادارية، وكان دستور ريتشارد يعكس رغبة الحكومة لتجزئة وتفرقة الشعب واضعاف حركة التحرر الوطنية.

بدأت الحركة الوطنية تناضل ضد الدستور الجديد فكتب احد ساسة نيجيريا المدعو مبونوا أوجيكي Mbonu Ojike قائلا : «ان الحاكم كان يبغي بدستوره القضاء في المهد على الروح الوطنية النيجيرية الفتية».

وقام حزب المؤتمر الوطني لشعب نيجيريا بنشاط وطني ضد الدستور فاندلعت المظاهرات في كل مكان في نيجيريا وصاحب ذلك حملة لجمع التواقيع للاحتجاج ضد الدستور وحملة اخرى في الصحافة.

بعد ذلك قرر الحزب ارسال وفد الى لندن لمقابة الحكومة البريطانية وكانت تمثل حزب العمال انذاك، وجمعت المبالغ اللازمة من كافة المدن في نيجيريا لتغطية نفقات سفر الوفد الذي كان يرأسه د. ازيكوي، ولكن حكومة العمال رفضت مقابلة الوفد.

أما دستور لندن المفروض فطبق في كانون الثاني ١٩٤٧ وقامت السلطات الاستعمارية بشن هجوم ضد القوى الديمقراطية وعلى رأسها حزب مؤتمر شعب نيجيريا.

اضطرت بريطانيا وخاصة بعد احداث انوجو Enugu ان تعدل الدستور وعقدت مؤتمرا من أجل ذلك، ومع هذا فان ممثلي بريطانيا في المؤتمر اصروا على تفرقة الشعب النيجيري باعطاء الاغلبية في المجلس التشريعي الى العناصر الاقطاعية الشمالية والى الكومبرا دور في المقاطعات الغربية.

وفجر المستعمرون الصراع التقليدي القديم، فممثلو الشمال والغرب ارادوا تجزئة نيجيريا في حين اصر ممثلو حزب «مؤتمر شعب نيجيريا» على الوحدة النيجيرية.

ساعدت السلطة الاستعمارية دعاة الانشقاق الرئيسيين لكنها في نفس الوقت ادعت بانها تترك الامر للاكثرية.

وصدر دستور عام ١٩٥١ الذي سمى بدستور ماكفيرسون Macpherson وهو الحاكم الجديد بعد نقل ريتشارد.

زاد الدستور الجديد من ممثلي الافارقة في الحكومة المركزية ولكنه زاد في نفس الوقت من تباين الحقوق بين منظمة واخرى واكد على الشكل الاقليمي للبلاد.

وتشكل مجلس الممثلين بدلا من الجمعية

التشريعية وهو يتكون من : ٦ رسميون بريطانيون
١٣٦ منتخبون
٦ معينون بصورة خاصة من الحاكم.

واقيمت لاول مرة مجالس تنفيذية تضم قوى واسعة من الشعب، كما ان حقوق الجمعيات الاقليمية قد توسعت، ولكن لا تملك الجمعية المركزية ولا الجمعيات الاقليمية او الجمعيات التنفيذية الصلاحيات الكاملة لان الحاكم البريطاني وممثليه في الاقاليم احتفظوا بحقهم في القرار النهائي.

وعلى اثر هذا المؤتمر وما انبثق عنه من دستور شكل حزب جماعة العمل في الاقليم الغربي والذي كانت قيادته من العناصر الكومبرادورية والذي أكد في برنامجه «كما مر بنا» على الاقليمية.. وبذلت بريطانيا جهودا كبيرة لجعل الاحزاب في حالة خصام لتحطيم الوحدة الوطنية والقضاء على المشاعر المعادية للقوى الامبريالية وتغيير اتجاه حركة التحرر الوطنية ضد الامبريالية الى قناة الصراع بين مختلف الاقاليم والاحزاب.

وقيل ان العناصر الاقطاعية في الشمال كان لها الدور الرئيسي في هذه النشاطات. لكن حزب مؤتمر شعب نيجيريا رفع شعار «قطر واحد دستور واحد مصير واحد، وقد انتشر هذا الشعار بسرعة بين الجماهير التى آمنت به والتى ادركت اهمية الوحدة في الكفاح من أجل استقلال نيجيريا.

وعقد المؤتمر التشريعي عدة مرات في عامي ١٩٥٣ و١٩٥٤ واصدر دستورا رسميا سمي بدستور ليتلتون Lyttelton الذي كان سكرتير المستعمرات البريطانيه انذاك، واصبحت نيجيريا فيدرالية من ثلاثة اقاليم.

أول مجلس تشريعي منتخب في تاريخ نيجيريا انعقد في نهاية عام ١٩٥٤ وكان الفوز الساحق فيه للاقليمين الشرقي والغربي، وهذا اعطى لحزب مؤتمر شعب نيجيريا الحق في ستة مناصب وزارية من عشرة في المجلس الوزاري الفيدرالي .

أما حزب مؤتمر شعب الشمال فانه فاز في الاقليم الشمالي ، لذلك فان أول حكومة فيدرالية كانت مؤلفة من حزبين.

خلال عامى ١٩٥٧ و١٩٥٨ عقد مؤتمر دستورى آخر طالبت كافة الاحزاب السياسية وكل الاقاليم بالاستقلال والتأكيد والاصرار من قبل كل الممثلين النيجيريين على قضية الاستقلال، ووافقت الحكومة البريطانية، «بعد سلسلة من المناورات والتأخير» وازاء ضغط الحركة الوطنية على استقلال نيجيريا في تشرين الاول ١٩٦٠[٣٦] واصبحت عضوا في الكومنولث واصبح ابوبكر تافادا باليوا أول رئيس وزراء لنيجيريا عندما شكلت الجمهورية في ١/١/١٩٦٣ مع وجود حاكم عام يعتبر بمثابة رئيس وهو انامدى ازيكوي Anamde Azikwe.

نيجيريا بعد الاستقلال :

بقيت نيجيريا بعد الاستقلال تعاني من أمور منها التخلف الثقافي والسياسي والفقر والجهل والمرض بعد ان رضخت للسيطرة البريطانية لفترة تقارب القرن كما ترك لها الاستعمار ارثا ثقيلا وهو التقسيم الاقليمي المبنى على الفروق العنصرية والدينية وخاصة بين الشمال ذ ى الاكثرية المسلمة والجنوب ذ ى الاكثرية المسيحية وكذلك النزاعات القبلية.

وكانت تقسم نيجيريا الى ثلاثة اقاليم ثم أضيف لها اقليم آخر هو «الوسط الغربي» عام ١٩٦٣، والتنافس بين هذه الاقاليم ادى الى سلسلة من الانقلابات.

وفي ١٥/١/١٩٦٦ حدث انقلاب في نيجيريا ذهب من جرائه رئيس الوزراء بليوا واخرون من القادة السياسيين الشماليين، وعلى اثر ذلك اقيمت حكومة عسكرية برئاسة الميجر جنرال جويرونوس T.U. Aguiyuronse وهو قائد جيش من ايو وامتعض الشماليون الذين حاولوا اقامة حكومة اتحادية، وتمخض عن ذلك انقلاب آخر في ٢٩/٧/١٩٦٦ بزعامة كولونيل شمالي وهو يعقوب جوون Yakubu Gwon ووصل بذلك العداء

العنصري نقطة الغليان حيث ان آلافا من الـ ايبو الذين سكنوا في الشمال قتلوا في هذا الانقلاب في حين ان مئات الآلاف بدأوا بموجات بشرية عائدين الى مواطنهم الشرقية بالحاح من الزعماء الشرقيين. ووضعت حكومة الانقلاب خطة لتعديل دستورى يضمن حقوقا اكثر للايبو، مما هدأ من مشاعرهم، وكانت الخطة تتضمن وحدة القطر، ولكن الخطة قوبلت بالرفض من قبل الحاكم العسكري للمنطقة الشرقية وهو أوجوكو[٣٧] Odumeguin Ogukwo الذي شكل رفضه بداية لحرب اهلية في نيجيريا عرفت بـ : الحرب الاهلية في بيافرا :

تعود اسباب الحرب الى المشكلة التى تعاني منها نيجيريا والتى غذاها الاستعمار وهي مشكلة ذات ابعاد دينية وقبلية وثقافية وسياسة ، فنيجيريا التى كان يبلغ تعداد سكانها آنذاك ٥٥,٤ مليون نسمة مقسمة الى اربعة اقاليم متحدة فيدرالية، علاوة على منطقة لاجوس العاصمة حيث توجد الحكومة الفيدرالية واكبر هذه الاقاليم هو الاقليم الشمالي الذي كان تعداده ـ ٢٩,٨ ـ مليون نسمة اكثر من ٧٥٪ من هؤلاء من قبائل الهوسا المسلمة والاقليم الغربي ١٤,٤ مليون نسمة ٥٠٪ منهم من المسلمين، أما الاقليم الشرقي وفقا لنفس الاحصاء فيبلغ ١٠,٣ مليون نسمة يكاد يكون جميعهم من المسيحيين واخيرا الاقليم الغربي الاوسط وتعداده ـ ٢,٥ ـ مليون نسمة فقط غالبيتهم من المسيحيين.

وقد جاء تمركز المسيحيين في شرق نيجيريا نتيجة للسياسة التى وضعها الانجليز اثناء الحكم الاستعمارى، فقد اهتموا بتعليم قبائل الايبو التى لم يكن قد دخلها الاسلام وذلك عن طريق الارساليات التبشيرية التى انتشرت في كل مكان من شرق نيجيريا فتحولت هذه القبائل الى المسيحية وارتفعت نسبة التعليم فيها في الوقت الذى اهملت فيه المناطق الاسلامية من كل جهد حقيقي للتعليم، واصبحت اهم المناصب الادارية في نيجيريا في يد المتعلمين من قبائل الايبو المسيحية وهي الاقلية التى اعتمدت عليها الادارة الانجليزية كعادتها في الاعتماد على الاقليات.

ثم ظهرت الثروة البترولية في الاقليم الشرقي فتولد احساس لدى قبائل الايبو بانهم اصحاب القوة الاقتصادية والثقافية وانهم التعبير عن التقدم التكنولوجي، في حين يسيطر الشماليون المسلمون على الحكم الفيدرالي هناك بحكم الاغلبية والارتباط القبلي والاقليمي الذي تدور حوله الحياة السياسية، وهي سيطرة كفلها لهم نظام الحكم الفيدرالي. والديموقراطية الليبرالية التى نص عليها دستور البلاد الصادر عام ١٩٦٣ وقد زادت الممارسات الحزبية بعد الاستقلال من الاحساس بالمرارة الناتجة عن سيطرة الشمال وذلك لدى سكان المناطق الجنوبية في نيجيريا بصفة عامة ولدى قبائل الايبو في شرق نيجيريا على وجه الخصوص، وكانت هذه هي الاسباب التى أدت الى الانقلاب الاول في نيجيريا في كانون الثاني ١٩٦٦ ـ المار ذكره ـ . وقد عطل الحاكم الجديد الدستور بعد ان خول جميع السلطات التنفيذية والتشريعية الفيدرالية واصبح قائدا للقوات المسلحة ورئيسا للحكومة العسكرية التى تولت السلطة التنفيذية في البلاد. وحظر الحياة السياسية وحرية تشكيل الاحزاب. واصدر مرسوما بالغاء النظام الفيدرالي في نيجيريا وجعلها دولة بسيطة موحدة، والغى الاقاليم الاربعة وكان القصد من هذه الاجراءات الجديدة القضاء على سيطرة المسلمين في الشمال وصحب ذلك ازدياد عدد المتعلمين من قبائل الايبو في الجهاز الاداري والفني في شمال نيجيريا، وكانت هذه الاعداد قد استقدمت لتدعيم سيطرة النظام الجديد.

وقد أدت هذه القرارات والاجراءات الى مظاهرات واضطرابات عنيفة في الاقليم الشمالي الذي وجد ابناؤه ان النظام الجديد يسلبهم كل شيء بعد ان قتل قادتهم وزعماؤهم ، وخرجت الجماهير الغاضبة في الشمال تطالب بالانفصال الفورى للشمال، ثم امتد هذا السخط الى العناصر الشمالية داخل الجيش، فكان الانقلاب الثاني في أول آب ١٩٦٦ وقتلت القوات الثائرة الجنرال جويرونوس وعددا كبيرا من ضباط وجنود الايبو

انتقاما لمقتل زعماء الشمال، كما حصلت مذابح شعبية للعديد من افراد قبائل الايبو الذين نزحوا للاقامة في الشمال، وهرب اكثر من مليون ونصف مواطن من الشمال الى الشرق تاركين وظائفهم وأموالهم.

واعلن تعيين الكولونيل يعقوب جوون وهو من الشمال واختير مسيحيا لتهدئة النفوس، وكان لذلك اثره الطيب في اقليمي الغرب والغرب الاوسط، اما في الاقليم الشرقي فقد كانت المرارة تملأ القلوب لما حدث لعناصر الايبو من مذابح، ولهذا اعلن اجوكو عدم اعترافه بالجنرال جوون واعلن في ١٩٦٧/٥/٣٠ استقلال الاقليم الشرقي تحت اسم جمهورية بيافرا وقد وجد العون والتشجيع من بعض الدول الغربية التى رأت ان من مصلحتها قيام دولة جديدة من عناصر الايبو والتى يتوفر لديها الكوادر الفنية الادارية، بالاضافة الى الثروة البترولية، وكذلك شجعت الولايات المتحدة الامريكية حركة الانفصال هذه حيث كانت لها استثمارات في نيجيريا بلغت ٢٠٠ مليون دولار معظمها في ميادين البترول الموجودة في الاقليم الشرقي.

وكانت شركات الاستثمار والمؤسسات ذات النفوذ القوى في غرب افريقيا وأهمها المؤسسات الانجليزية والالمانية تجد هي الاخرى مصلحتها في انفصال الاقليم الغني، وتجد في خلق كيان جديد على هذا النحو في بيافرا، امرا يمكن ان يحفظ مصالحها في المنطقة كلها .

ولهذه الاسباب تدفقت على اجوكو كميات كبيرة من الاسلحة الفيدرالية، كما وصل بيافرا المرتزقة الاوروبيون من الذين يؤيدون كل انفصال يحدث في الاقاليم الافريقية الغنية[٣٨] .

وبعد المساعدات التي حصلت عليها الحكومة من الحكومتين المصرية والفرنسية تم القضاء على حركة الانفصال في ١٩٧٠/١/١٥[٣٩] .

وبعد انتهاء الحرب الاهلية حاول جوون ضم العناصر الايبية في حياة نيجيريا ـ ولكن بصورة عامة بقيت الحياة السياسية الطبيعية محظورة

وفي ١٩٧٥/٧/٢٩ عندما كان جوون يسهم في اجتماع لمنظمة الوحدة الافريقية حدث انقلاب قاده مجموعة من الضباط وعلى رأسهم البريجيدير مورتال رامات محمد Murtala Ram at Muhammad وكان من ابرز الضباط الاخرين الكولونيل محمد بوهاري، الذي تولى منصب حاكم اقليم الشمال الغربي .

صرح مورتال في اليوم التالي للانقلاب بأنه سيقضي على الجمود ويعيد الحياة الى نيجيريا وفي ٣١ تموز من العام نفسه شكلت الحكومة من مجلس عسكري، وفي ٦ آب شكل مجلس تنفيذي فيدرالي جديد من ٢٥ عضوا، ولم يستمر الوضع هادئا بل طرأ تطور مفاجيء ففي ١٩٧٦/١١/١٣ قتل مورتال في انقلاب سريع خاطف وجاء اولا سيجون اوباسانجو Olasegun Obasanjo كرئيس للدولة ورئيس للمجلس العسكري ، وكان رئيسا لاركان الجيش منذ انقلاب ١٩٧٥ وقد تعهد بالسير على سياسة سلفه[٤٠] اما محمد بوهاري فعاد الى العاصمة لاجوس ليحتل مكانه في المجلس العسكري الأعلى، كما تولى منصب وزير البترول والطاقة وفي عام ١٩٧٨ اعادت الحكومة الحياة السياسية الى البلاد بعد حكم عسكري دام ١٢ سنة، وأعلنت الحكومة ان من حق الفئات السياسية المختلفة تشكيل الاحزاب على ان تنسق هذه الاحزاب في سياستها مع الحكومة الفيدرالية وان تكون الاحزاب ذات منهاج وطني قومي، وقد قبلت خمس فئات هذه الشروط وشكلت احزاب هي من اليمين الى اليسار .

١ ـ الحزب الوطني النيجيري National Party of Nigeria (NPN)

وهو الحزب الذي ينتمي اليه شاغارى .

٢ ـ حزب الشعب النيجيري Nigerian People Party (NPP)

ويرأسه نامدى ازيكوى

٣ ـ حزب شعب نيجيريا الكبير Great Nigeria Peoples Party (GNPP) ويتزعمه

وازيري ابراهيم .

٤ ـ حزب نيجيريا المتحد UNITED Party of nigeria (UPN)

ويتزعمه اوبا منجي اولاود

٥ ـ حزب التحرير الشعبي Peoples Rdemp-tion Party

وهو حزب عمالي يتزعمه ا منو كانو (٤١)

ودخلت هذه الاحزاب متنافسة انتخابات عام ١٩٧٩ .

وحصل الحزب الوطني النيجيري على الاغلبية وجاء الى السلطة شيخوشاغاري .

ومع تعاقب الانقلابات فقد بقيت نيجيريا تعاني من الانقسامات القبلية والدينية. وكذلك من الظروف الاقتصادية السيئة فاعتماد البلاد على النفط ادى بها الى اهمال الزراعة وما رافقها من هجرة الفلاحين وانتشار الافات الزراعية والجفاف وسوء تسويق المنتجات وتوقف تصدير الصادرات الزراعية التي كانت تشكل جانبا من الدخل وخاصة الفول السوداني، والقطن وزيت النخيل والكاكاو والمطاط، فقد توقف تصدير هذه المواد في الاونة الاخيرة باستثناء الكاكاو(٤٢)

واستمرت علاقاتها الاقتصادية مع الغرب والولايات المتحدة فهي تسوق انتاجها النفطي الى هذا الجزء من العالم فهي تزود الولايات المتحدة بـ ١٧٪ من مجموع وارداتها النفطية. وهي تأتي في المرتبة الثانية بعد المملكة العربية السعودية في تصدير النفط الى الولايات المتحدة الامريكية(٤٣) .

وحاولت الحكومة تطوير البلاد بالاعتماد على الشركات الاجنبية مثل (شل ـ موبل ـ تكساكو التي اصبح لها نفوذ في البلاد) .

وبذلت حكومة نيجيريا جهودا كبيرة لانقاذ الوضع الاقتصادي بعدم الاعتماد كليا على النفط باحداث تغيير في الواقع الزراعي فبنيت مشروع الثورة الخضراء التي هدفت الى تطوير الزراعة ومصادر المياه ورصدت لها (٧) مليارات من الجنيهات الاسترلينية وبدأت بتنفيذها منذ اواخر ١٩٨١. ولكن ليس هناك من الدلائل ما يشير الى نجاح هذا المشروع اذ لم تستطع حتى الان تحقيق الهدف بل اهدرت اموال كثيرة وخلقت طبقة من المزارعين الرأسماليين، واستمرت حالة التدهور الاقتصادي. فاضطرت الحكومة الى ان تعلن عن قيامها باجراءات تقشفية بدأت العمل بها اعتبارا من ٢١/٤/١٩٨٤ من بينها اقتصار المشتريات الحكومية على المنتجات المحلية واخراج كل الشركات والاجانب الذين يثبت تحايلهم في تحويل العملات الصعبة وادخالها في القائمة السوداء، وتحديد عدد الحجاج ـ واعادة النظر باجازات الاستيراد السابقة، ووضع بعض المواد كالاسمنت والسمك ومواد البناء تحت الاستيرادات الخاصة ووقف استيراد الشاحنات والسيارات، ولكن بالرغم من هذه الاجراءات استمر الاقتصاد النيجيري يعاني من مشاكل عديدة فقد بدأت الشركات بتصفية اعمالها واخذت تسرح العمال المحليين وترسل الخبراء والفنيين والاجانب باجازات طويلة الامد الى بلادهم(٤٤) وعلى اثر هذه الاوضاع المتردية في نيجيريا فقد حدث انقلاب في ١٠/١/١٩٨٤ بزعامة محمد بوهاري الذي ولد في ١٧/١٢/١٩٤١ في قرية دورا في اقليم كادونا الشمالي من عائلة مسلمة وتلقى تعليمه في مدارس الاقليم ثم في كلية التدريب العسكري ثم أكمل دراسته العسكرية في بريطانيا ثم عمل كحاكم عسكري لاقليم يورنو في الشمال الشرقي من نيجيريا(٤٥) .

ويبـدو ان النيجيريـين قـد استقبلوا الانقلاب الجديد وانهاء الديموقراطية بشيء من الارتياح، بعد ان عـانوا من الحكـومة السابقة، كما يبدو ان الحكم الجـديد قـد راعى مشاعر الاقاليم المختلفة، فالرئيس من الشمال بينما عين نائبه من الجنوب، وأكد الحكم الجديد على حل المشاكل الاقتصادية وازالة الفـوارق بين الاقـاليم المختلفـة في نيجيريا، ولكي يعيد الثقة بالحكم والتزاماته المالية فقد أعلن عن بدء ايفاء ديون البلاد الخـارجيـة، كمـا اعلنت الحكـومـة انهـا ستواصل التقشف والحفاظ على مستـوى الاجور، وكذلك تقليل الواردات والاستعانة بالقروض من الخارج، والبدء بالمفاوضة مع صندوق النقد الدولي للحصـول على هـذه القروض، وزيادة صادرات النفط ومحاولة اقناع منظمة الاوبك من أجل الموافقة على زيـادة حصة نيجيـريـا من انتـاج النفـط والتصدير(٤٦)

★☆★☆★☆★☆★

الهوامش والمصادر

1 — / Colin legum : Africa A handbook to the content: London - Gbg p 211

٢ ـ راجع عن ذلك : Michael Edwarde: British India 1972 - 1947 - London - Gbg

٣ ـ عبدالسلام الترماينني: الرق ماضيه وحاضره، الكويت ١٩٧٩ ص ١٩١ .

٤ـ John Hatch: Nigeria : A History London - 1970 . PP.118 - 148 -

٥ ـ د. زاهر رياض: استعمار افريقيا : الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ ، ص ٤١٦ ، ص ٤١٨ .

٦ ـ جاك ووديس جذور الثورة الافريقية : ترجمة احمد فؤاد بليغ ـ القاهرة ، ١٩٧١ . ص ٦٢ ، ص ١١٤ . /احديث/

٧ ـ المصدر نفسه ص ١٣٧ .

٨ ـ كوامي نيكروما : الاستعمار الجديد اخر مراحل الامبريالية ترجمة عبدالحميد حمدي ، القاهرة ١٩٦١ ص ١٣٤ ، ص ٢٦٤ .

٩ ـ جاك ووديس : نفس المصدر ص ١٧.

10 — / U.S.S.R. Academy of Sciences: Institute of Africa, A History of Africa - 1916 - 1967 Moscow - 1966

١١ ـ د. زاهر رياض : نفس المصدر ص ٣٤٤ ، ص ٣٦٧ .

١٢ ـ د. سامي منصور : نيجيريا عملاق افريقيا التائه ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٦ ، ص ٧٠ ـ ص ٧٣ .

13 — - Fred I.A. Omu: Press and politics in Nigeria - 1880 - 1937 - London 1978 p.20

١٤ ـ د. سامي منصور : نفس المصدر ص ٧٧ .

15 — - John: op Cit. p. 188

16 — - Ibid : p. 193

١٧ ـ د. سامي منصور نفس المصدر ص ٨١ .

18 — - U.S.S.R. op cit. p. 294

١٩ ـ د. سامي منصور : نفس المصدر ص ٨١ ، ص ٨٢ .

20 — - John op cit p. 193

٢١ ـ د. سامي منصور : نفس المصدر ص ٧٦ .

22 — / U.S.S.R. op. cit. P. 193

23 — I Bid p. 297

٢٤ ـ د. سامي منصور : نفس المصدر ص ٨٦ .

٢٥ ـ د. عبدالملك عودة : الحرب الاهلية في نيجيريا ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠ اكتوبر ١٩٦٧ ص ٣١ .

٢٦ ـ د. سامي منصور : نفس المصدر ص ٨٨ .

٢٧ ـ د. عبدالملك عودة : نفس المصدر والصفحة .

٢٨ ـ عبدالرحمن صالح : فجر الحركات السياسية في الاقليم الشمالي من نيجيريا مجلة نهضة افريقيا ، العدد ٥٣ ـ ١٩٦٣ ص ٤٥ .

٢٩ ـ د. سامي منصور : نفس المصدر ص ٩٣ ـ ص ٩٦ .

٣٠ ـ د. زاهر رياض ، نفس المصدر ص ٤٤٨ .

٣١ ـ جون همتش : (Hamtesh) تاريخ افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ، ترجمة عبدالعليم عيسى ص ٥٢ .

٣٢ ـ د. زاهر رياض : نفس المصدر ص ٤٤٨ .

33 — / U.S.S.R. Op. cit. p. 300

٣٤ ـ د. سامي منصور : نفس المصدر ص ٨٨ .

٣٥ ـ د. عبدالملك عودة : نفس المصدر ص ٣١ .

٣٦ ـ د. سامي منصور : نفس المصدر ص ٨٩ .

37 — - U.S.S.R. Op. cit p.303

38 — - Political handbook of the world 1977 - New York 1977 p. 289

٣٩ ـ محمد محمد فايق : عبدالناصر والثورة الافريقية ، دار الوحدة ، بيروت ١٩٨٠ ص ٨٩ ـ ص ٩٢ .

٤٠ ـ لمزيد من التفاصيل عن الحرب الاهلية في نيجيريا راجع:

1 • - Raph U. Wehue: Reflections on the Nigerian civil war - Facing the Future - New York 1979 •

○ ـ د . عبدالملك عودة : الحرب الاهلية في نيجيريا ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠ اكتوبر ١٩٦٧ .

41 — Political handbook op. cit p. 289

42 — - Encyclopidia of the Third World Volume 11 - London 1982 - p. 1335

٤٣ ـ د. لطفي جعفر فرح : التطورات النيجيرية الاخيرة في مسار الاوضاع الداخلية العامة ، جريدة الجمهورية ١٩٨٤/١/١٣ .

٤٤ ـ النشرة الاستراتيجية : المجلد ٢ العدد ٩، ١٩٨١/٦/٤ ص ٧ .

٤٥ ـ د. لطفي جعفر نوح : نفس المصدر السابق .

٤٦ ـ رمزي السعدون : نيجيريا بعد الانقلاب هل تنتهي المتاعب الاقتصادية : جريدة الثورة ١٩٨٤/١/١٤ .

بحـــوث التـــاريخ العـــربي الاســـلامي

نجـــران
أهميتها وعلاقتها بالاسلام

الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي
الجامعة المستنصرية / بغداد

تكتسب دراسة المدن اهمية بالغة في فترات غابت فيها السلطة المركزية واصبحت المدينة دولة صغيرة او ما عرف «بدولة المدينة» وبالتأكيد فى مثل واقعنـا القومي تصبح «دولة المدينة» فى احد ابرز أسباب ظهورها انعكاسا لاوضاع التجزئة . وحتى فى الاسلام رغم السمة الوحدوية للعقيدة ورغم وحدوية التوجهات والاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية الا ان ذلك لم يلغ هذا النوع من الدراسات لكن الملاحظة الجديرة بالاهتمام ان الهدف من الدراسة تغير ليواكب هذه الاتجاهات كما ان منهجية دراستها تغيرت هي الاخرى .

وتحتل مدينة نجران موقعا مهما بين المدن التي ظهرت فى الفترة الانتقالية التي شهدت مجيء الاسلام بحكم اهمية موقعها ودورها وكثافتها السكانية وقيمتها الاقتصادية ولارتباطها بالصراع السياسي الدولي الذي تغلف باعتبارات دينية وقد ازدادت اهميتها فى الاسلام بحكم ذات العوامل وعوامل اخرى مضافة ، غير اننا لم نجد فيما وصل لنا من انتاج فكري اية اشارة الى دراسة مستقلة حظيت بها نجران وفي تقديري ان مرد ذلك يعود لنصرانيتها اولا حيث لم يشعر المؤرخ المسلم انه معني بذلك . ولان دور المدينة انتهى فى وقت مبكر من عهد الراشدين وهو السبب الاقوى فعندما بدأت الاهتمامات المتنوعة تأخذ مجالها فى الكتابة التأريخية لم تكن نجران سوى قرية اضمحل دورها وتحول عنها الطريق وتحول معه الاهتمام مع ان اسرة مهمة لعبت دورا اساسيا فى التأريخ اللاحق «بنو عبد المدّان» من خلال علاقات زواج لاحقة ارتكزت على علاقات تجارية سابقة انما إقترنت الاهمية بدور اسرة ظهرت في مكان اخر غير نجران . اما في التاريخ الحديث فقد اخذت نجران حقها وحازت اهتماما كبيرا فقد كتب عنها ماسينيون ، ولامنس ، وكوبلسكابا ، ومع الجهود الكبيرة لهم الا ان الذي لا ينكر ان ثمة دوافع اضفت على دراستهم حماسا مبالغا فيه وبالتالي تزيين الصورة التأريخية لنجران بما يؤثر على تكوين صورة

واقعية لها .

تهدف دراستنا الى تتبع تطور نجران فى الفترة موضوع البحث ، بعد الالمام بما فيها من عناصر وعوامل لقد اوحت بهذه الدراسة اسئلة عديدة تجمعت عند اعدادي لموضوع رسالتي للدكتوراه «اهل اليمن في صدر الاسلام دورهم واستقرارهم فى الامصار» مثل تساؤل عن عوامل النمو المستقل فى نجران بمعزل عن اليمن عموما ؟ ، دور نجران الثانوي ايام الاحتلال الحبشي لليمن ؟ ، منافذ النشاط التجاري لنجران «النصرانية» ايام الاحتلال الفارسي لليمن الذي جيز النشاط الاقتصادي عموما لصالحه ؟ ، موقع نجران من تطور الاحداث الخاصة بالاسلام (الهجرة الى الحبشة واتفاقية نجران) ؟ ، ومع حرصي الشديد وتدقيقي المثابر فى المصادر فأنا لا أخفي مقدار العجز وضيق ذات اليد ، غير ان الذي توفر بالمقال يساعد على الاقل على الخروج بالتساؤلات من حيز الموقف الداعي الى الموقف العام وطرحها للمناقشة .

الموقع

يشكل الطرف الشمالي الشرقي من اليمن منخفضا يجرى فيه وادى نجران وفروعه ، فأصبح بفعل امكانياته الاروائية منطقة زراعية تعتمد الرى بالبعل [١] . لهذا اصبحت الزراعة احد اهم مصادر الثروة ، ويوصف انتاجها الزراعى بالتنوع [٢] ، والندرة [٣] ، والى جانب الزراعة اشتهرت بتربية الابقار بكثرة حتى اصبحت من مراكز الجلود المهمة ، وتتوفر في ارضها المعادن كالحديد والذهب خاصة الذى يتركز في المنطقة الجنوبية بين نجران وصعده [٤] .

وقد نشأت مجموعة من القرى في هذا الوادى [٥] اشتهرت منها نجران التى وصفت بالقرية العظيمة التى عرفت بالهجر والظاهر ان نجران التى يشار لها في اول الاسلام هي نجران الحديثة وليست القديمة موقع الاخدود التى يشار لها في الروايات التى تحدثت عن تاريخ اليمن في عهد ذى نواس [٦] . وتلى نجران في الاهمية قرية يقال لها رعاش ، اهلها مثل اهل نجران من النصارى كما يشار الى (قابل نجران) حيث توجد كنيسة نجران [٧] .

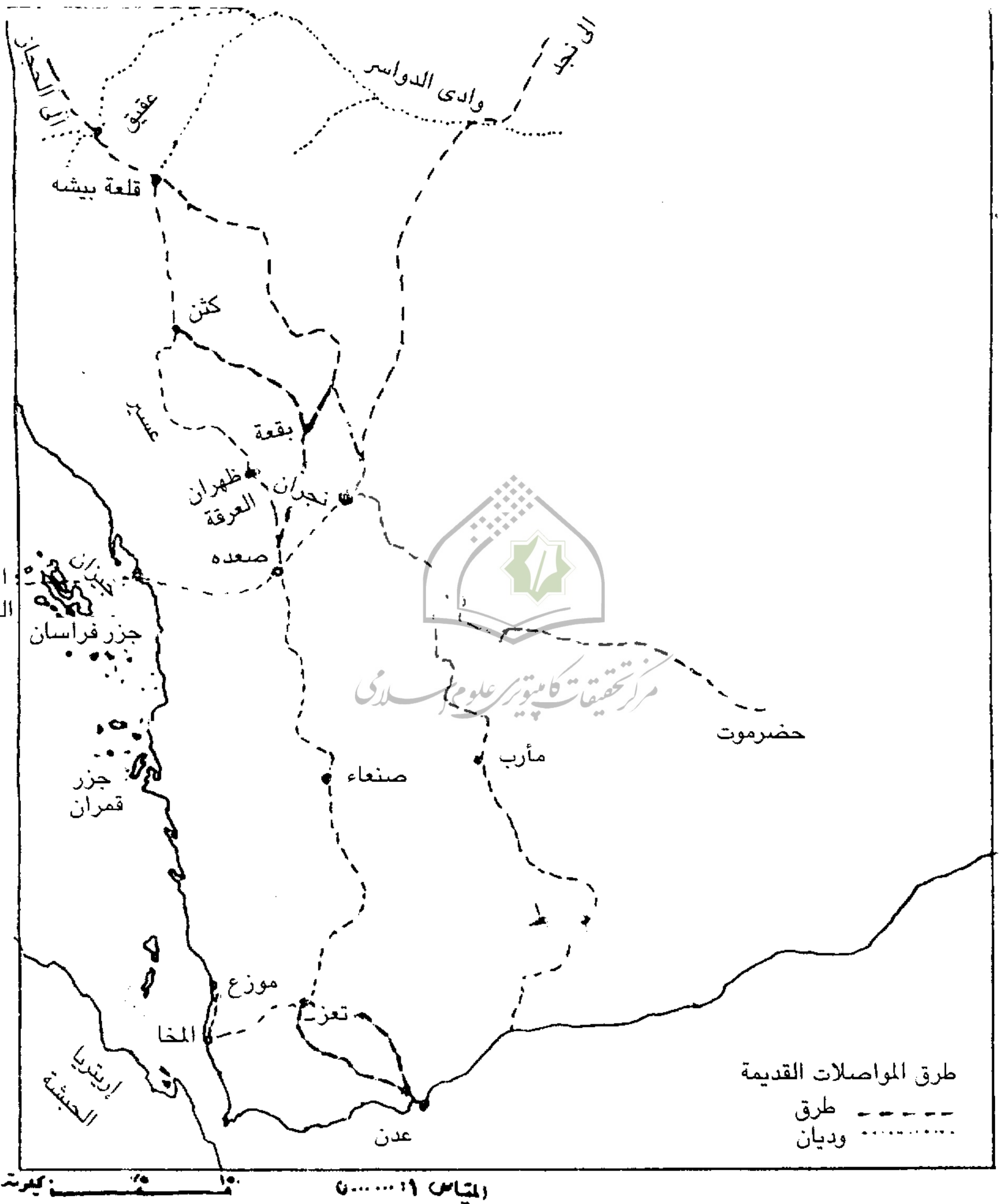
مكانة نجران التجارية

تتمتع نجران بموقع مهم على طريق التجارة الغربي سواء قبل الاسلام عندما كان هذا الطريق يأخذ على الجوف ومأرب ، الى حضرموت [٨] او عبر اراضي حمير الى عدن [٩] ولم تضمحل هذه الاهمية الا في الاسلام بعد ما تحول طريق التجارة عنها فأخذ على صعده الى جرش والراجح ان هذا التحول نشأ بحكم طبيعة نجران النصرانية حتى زمن متأخر من أيام الخليفة عمر بن الخطاب ثم لاعتبارات تتعلق بالحج الذى اصبح اساسا ينظم الطرق [١٠] .

وقد تعددت مصادر الثروة فيها ، فاضافة الى الزراعة اشتهرت بأبقارها التى أصبحت أساسا لصناعة الجلود النشطة ، كما ان معادنها من الذهب والحديد عززت مكانتها الاقتصادية وساعدت على قيام صناعة الاسلحة فيها . غير ان شهرة نجران جاءت من أنسجتها وفي مقدمتها البرود النجرانية [١١] .

ساعد تنوع النشاط الاقتصادى اولا وموقع نجران في عقدة المواصلات بين اليمن ومكة واليمن واليمامة ثانيا [١٢] على قيام نشاط تجارى لعب فيه بنو الحارث بن كعب دورا أساسيا فقد اختصوا بالتجارة من حضرموت عبر طريق الجوف ـ مأرب ـ العبر ، وجاوروا جرم التى كانت تخفر طريق نجران القلج . ولنجران طريق تجارى بحرى يربطها بالحبشة والراجح ان هذا الطريق نشط زمن الاحتلال الفارسي لليمن حيث لم يعد بمقدور نجران المتاجرة عبر المندب او الى عدن ، والواقع ان المعلومات التى أوردها الهمدانى عن ساحل اليمن بين عثر في الشمال الى مخا في الجنوب تكشف عن نشاط تجارى وتعكس نوعا من الاستقلال السياسي عن نفوذ الفرس في اليمن .

ففي هذا السهل تنتشر مجموعة من الجزر تعرف بجزر الفرسان وزبلح يشار فيها الى سوق


الى الحجاز
عقيق
وادى الدواسر
الى نجد
قلعة بيشه
كثن
عسير
بقعة
ظهران
العرقة
نجران
صعده
الى
الحبشة
جيزان
جزر فراسان
حضرموت
مأرب
صنعاء
جزر
قمران
موزع
تعز
المخا
ارتيريا
الحبشة
عدن
طرق المواصلات القديمة
طرق
وديان

اختص بتجارة الماعز الحبشي[١٣] . وعلى الساحل تنتشر مدن وقرى موزع والشقاق والمندب لبني مجيد بن حيدان بن عمرو بن الحاف ، وفرسان قبيلة من تغلب ، ويشار الى انهم كانوا نصارى ولهم كنائسهم في جزرهم يمتهنون التجارة بين ساحل اليمن الغربي وبلاد الحبش ، لهم في السنة سفرة ، وعلى الساحل قبالة جزائر فرسان تقع مدينة جازان وهي ساحل لمدينة جازان القديمة التى تقع شرقا على ضفة وادى جازان الجنوبية على بعد ٣٥ كم عن البحر[١٤] . وبين جازان ونجران أودية نشأت فيها مسالك قديمة والراجح ان هذا الطريق البحرى شكل ما يمكن تسميته بطريق التجارة النصرانى عبر البحر الى الحبشة . خاصة وان خفارة هذا الطريق بيد قبيلة فرسان النصرانية[١٥] وانهم كانوا يديرون النشاط التجارى البحرى فيما بين مخا ساحلهم الجنوبي والفرسان ساحلهم الشمالي[١٦] .

وكانت ايضا منطقة مصرفية تتعامل بالنقود وقد قدرت جزيتها بالدراهم والراجح ان نقودها من الفضة وهي النقود الحميرية ، كما ان صلاتها بالحبشة تفترض تعاملها بالنقود المضروبة من الذهب . ويشار الى تعامل أهلها بالربا[١٧] .

ولا بد ان هذا النشاط الاقتصادى الواسع والمتنوع قد اكسبها ثروات كبيرة ، وادى الى ظهور طبقة من الاثرياء ، الذين بلغت دخول بعضهم عشرة آلاف دينار[١٨] ، وتكشف اتفاقية الرسول (ص) مع أهل نجران قدرتهم الاقتصادية ومقدار انتاج المدينة حيث فرض عليهم الفي أوقية من الحلل قدرت بالدراهم وبلغت قيمتها ثمانين الف درهم ويبدو أن تقدير الضريبة تم حسب نظام مكة فالاوقية وزن أهل الحجاز أما الدرهم فالراجح انه الوحدة الاساسية في النقد النجرانى[١٩] .

وقد احتلت نجران موقعا مهما في الادارة الاسلامية ومع اننا لا نجد واليا معينا في نجران زمن الرسول (ص) أو أبى بكر مراعاة لوضعها الخاص غير ان اهتمام الرسول (ص) بها واضح من اختياره أبا عبيدة عامر بن الجراح أحد العشرة المبشرين بالجنة واحد أبرز الصحابة ثم عمرو بن حزم الانصارى الذي أقام فيها بدليل ان ابنه نسب الى نجران لانه ولد فيها[٢٠] .

أما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فواضح انه استخدم يعلي بن أمية وفي الروايات المتأخرة كانت نجران ضمن مخاليف اليمن ثم فيما بعد ضمن المخاليف التابعة لمكة[٢١] . وأغلب الظن ان هذا التغيير الادارى ناجم عن أوضاع اليمن التى شهدت دويلات مستقلة لم تترك الشيء الكثير للادارة المركزية للدولة .

سكان نجران

وابرز سكان نجران بنو الحارث بن كعب من مذحج ويشار الى وجودهم فيها قبل تفرق الازد[٢٢] . تشاطرهم فيها بطون قبلية ذكرت الروايات بعضها او بعض ابنائها مثل وادعة من همدان[٢٣] واصبح بن حمير[٢٤] ومن بكر بن وائل وكنده[٢٥] وبعض جرم فى اطراف نجران الشرقية[٢٦] وبنى ذهل من مزيقياء من الازد[٢٧] وقد خاطبها الرسول (ص) بنجران وحاشيتها [٢٨] ويبدو ان فى حاشيتها من غير العرب[٢٩] وليس واضحا ما اذا كان يقصد بغير العرب اليهود[٣٠] والعبيد[٣١] ام جاليات اخرى ، غير ان هذا الخليط السكانى الواسع لم يلغ الهوية القبلية لنجران التى يقترن ذكرها ببنى الحارث بن كعب القبيلة المتقدمة والقائدة ومنها الذى يشغل منصب السيد راس الحكومة .

أوردت الروايات اشارات مهمة تفيد فى تقدير عدد سكانها فقد ذكر ابن هشام ان ذو نواس قتل منهم عشرين الف فارس[٣٢] ، واشار الطبرى الى ان سكان نجران كانوا يوم وفاة الرسول (ص) أربعين الف مقاتل[٣٣] ، واذا افترضنا ان متوسط الاسرة خمسة افراد فان سكان نجران بلغوا مائتى الف نسمة تقريبا .

ديانة اهل نجران

كان اهل نجران وثنيين شأنهم شأن باقى عرب الجزيرة[٣٤] ثم تنصروا فى زمن ليس من السهل تقديره ، وقد تم ذلك على يد رجل من اهل الشام

يدعى فيميون من آل جفنة من غسان[٣٥] ، ويشار الى ان عبدالله بن الثامر اول من تنصر ثم انتشرت النصرانية ، واصبحت فى نجران كنيسة فى موضع يقال له قابل نجران ، اصبحت اسقفية قبيل الاسلام على مذهب الملك (الملكانى[٣٦]) فى حين يرى المسعودى انهم كانوا موحدين لاعلاء رأى النصرانية فى وقته[٣٧] .

وكان بعض اهلها يهودا ، وفى ايام ذى نواس اشتدت الاخطار التى هددت اليمن فالراجح انها اصبحت موضع اطماع بدأها الرومان او حلفاؤهم الاحباش والراجح ان ذو نواس حاول تشجيع اليهودية او انه رغب فيها لعدم ارتباطها بالرومان وشجع اهل اليمن على اعتناقها لايجاد عقيدة تتناقض مع عقيدة البيزنطيين وبالتالى يهيىء مجتمعه لمقاومتهم ، فاضطهد نصارى نجران ويشار الى حصاره لهم وحرق مدينتهم مما دفع النصارى الى الاستنجاد بالرومان الذين اوعزوا الى الاحباش بغزو اليمن ومع ان الاحباش نجحوا فى ذلك واسقطوا الحكم الوطنى فى اليمن الا اننا لا نسمع عن مكانة متميزة لنجران بل على العكس اتخذوا من صنعاء عاصمة لهم وابتنوا فيها كنيسة جديدة فكأن كلام المسعودى على شئ كبير من الصحة اذ لو ان نجران على مذهب الملك لكان لها شأن اكبر مما اطلعنا عليه فى زمن السيطرة الحبشية على اليمن ، غير ان توجه الاحباش لاقامة كنيسة فى صنعاء يعطى الانطباع عن تنافس واقعى مع نجران ، والراجح ان الاحباش استخدموا قصة نجران مع ذى نواس مجرد مبرر للاستيلاء على اليمن دون ان يمنع ذلك من خلافات فى المذهب الذى تعتنق على اساسه النصرانية . على ان هذا لا ينفى ان يكون بعض اهل نجران على مذهب الملك وربما هم المعنيون بقول الخليفة عمر بن الخطاب فى كتابه « فانكم انكم مسلمون ثم ارتددتم بعد »[٣٨] والواقع ان النسخة المشار لها من كتاب الرسول (ص) لنجران فى تاريخ النسطوريين[٣٩] تعبر عن محاولة لسحب موقف الاسلام على كل ملل النصرانية مما قد يعطى الانطباع ان ثمة نصارى موحدين احتفظوا بمكانة خاصة فى الاسلام .

وقد بدأت نجران تظهر كقوة سياسية ايام الرسول (ص) وخليفتيه أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب حيث اقترنت اخبارها بالكثير من احداث الاسلام كما سنرى لاحقا .

مكانة نجران عند العرب

ولنجران اهمية فى حياة العرب قبل الاسلام فعدا عن كونها احد اسواقهم المشهورة[٤٠] فانها ارتبطت ببعض الشخصيات العربية البارزة ففيها ظهر الافعى الجرهمى احد ابرز حكماء العرب وخطبائهم[٤١] ، وقس بن ساعدة الايادى اسقف نجران وكانت فيها كعبة نجران التى كان يحجها من حولها[٤٢] . ويكشف موقعها عن انها موقع متقدم للحضارة اليمنية واحدى المدن الاربع التى ذكرت عنها المصادر العربية تفاصيل وافية ، ونسبت بشأنها الى الرسول (ص) احاديث جعلتها من القرى الاربع المحفوظة ، مكة والمدينة والقدس[٤٣] .

واشتهرت منذ القدم باستقبال اللاجئين فقد التجأ اليها الاعشى الشاعر[٤٤] ، وفى الاسلام التجأ اليها بعض اهل مكة الذين هربوا منها يوم دخلها الرسول (ص) ومنهم هيسرة بن ابى وهب زوج ام هانىء بنت ابى طالب وابن الزبعرى[٤٥] . ويشير ابو الفرج الى قبة عبد المسيح بن دارس من ثلاثمائة جلد اديم على نهر بنجران للخائف والجائع[٤٦] . وربما هى المقصودة بالتجاء الناس لها والتى عرفت بكعبة نجران[٤٧] .

وتضعنا الروايات الاسلامية امام نجران التى صورتها تلك الروايات دولة مدنيّة لها حكومة ثلاثية القيادة ، عناصرها الاساسية التجارة والامن والدين على غرار المدن التجارية الصحراوية التى شهدتها بلاد العرب يقف على رأس الحكومة السيد وهو من قبيلة الحارث بن كعب ومهمته الاشراف على تنظيم القوافل وادارة الاسواق وشئون التجارة المحلية والخارجية من معاملات واتفاقات ومفاوضات[٤٨] .

يليه العاقب وهو المسئول عن الامن الداخلى والشرطة[٤٩] .

يليه الاسقف ، وهو المسئول عن الشئون الدينية والروحية وما يتعلق بها من اديرة وكنائس ورهبان[٥٠] . فهى اذن حكومة ثلاثية ، النفوذ الاكبر فيها للسيد الذى تجاوز نفوذه نجران ليمتد مع قوافلها . ومع ذلك لا يبدو انه كان ينفرد بالقرارات انما يعتمد مشورة اطراف الحكم الاخرى وفى القضايا الكبيرة كان يستشير سكان قرى نجران[٥١] .

نجران والاسلام

ترد الاشارة الأولى الى علاقة نجران بالاسلام عن طريق ابن اسحاق عندما ذكر قدوم وفد من نصارى نجران يتألف من عشرين رجلا الى الرسول (ص) وهو فى مكة وكان سبب قدومهم خبر جاءهم من الحبشة[٥٢] . وتعطى الرواية انطباعا وديا عن مهمة الوفد فالسهيلى بالغ عندما ذكر اسلام الوفد[٥٣] بينما ذهب ابن اسحاق الى ايراد تفاصيل حاول ان يضعها فى سياق اخبار الوفد عندما اشار الى ان الرسول (ص) كان يجالس جبر النصرانى وهو مولى لبنى الحضرمى له بيعة عند المروة مشيرا الى الود الذى يطبع علاقة الرسول (ص) بالنصارى[٥٤] . والواقع ان سياق الرواية يحدد هذه الوفادة بعد هجرة اصحاب الرسول (ص) الى الحبشة والراجح انه كلف بهذه المهمة من الحبشة كما اشار ابن اسحاق للتفاهم مع الرسول (ص) حول وضع اصحابه .

ان مسألة اهتمام الحبشة بهجرة المسلمين لها ، مسألة واردة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان للحبشة صلاتها مع مكة وهى صلات قديمة ارسى اسسها عبد شمس بن عبد مناف[٥٥] .

ومع ان الحبشة غزت مكة على يد ابرهة غير ان فشل تلك الحملة ثم خروج الاحباش من اليمن لابد ان يدفع الطرفين لادراك قيمة المصالح المتبادلة بينهم ، والاشارة الى علاقة عمرو بن العاص بالحبشة التى كانت اساس اختيار قريش له فى مفاوضتها الحبشة لاعادة المهاجرين[٥٦] تعطى الانطباع عن عودة العلاقات القديمة . ومع اننا لا نمتلك معلومات كافية عن وضع تلك العلاقة غير انه من المعقول القول ان رفض النجاشى فكرة تسليم المهاجرين لابد وان يؤثر سلبا على علاقة الحبشة بمكة ، ومن هنا تكتسب رواية ابن اسحاق هذه اهميتها .

تطورت علاقة الصداقة هذه عندما هاجر الرسول (ص) الى المدينة ونجح فى السيطرة على طريق التجارة الغربى ومنع قريشا من استخدامه عندما فرض الحصار عليها من الغرب والشمال ، وانهاء نفوذ اليهود فى المنطقة وهم حلفاء قريش واحد ابرز اطراف التجارة على الطريق الغربى ، وهى نجاحات تستوجب على اهل نجران التفاهم[٥٧] والراجح ان وجود المهاجرين فى الحبشة يشكل قاعدة اساسية للتفاهم فالرسول (ص) لديه اصحابه الذين تهمه حياتهم وامنهم ونجران لديها مصالحها التجارية ، ولكن مكوث المسلمين فى الحبشة حتى سنة ٧هـ يشكل جانبا غير مفهوم فى تاريخ الدعوة اولا وفى علاقات الرسول (ص) بالحبشة ونجران ثانيا ، خاصة وان بعضهم تنصر هناك لوجود ضغوط واغراءات بينما بعضهم توفى فى الحبشة ، ولا يبدو ان الحبشة استبقت احدا ممن بقى على اسلامه ومثلما تمت الهجرة على مراحل واستمرت الى ما بعد سنتين على الاقل بعد الهجرة الاولى[٥٨] . فان العودة تمت على مراحل ، وقد ارسل الرسول (ص) عمرو بن امية الضمرى الى النجاشى يستقدم المسلمين فى سفينتين وصلتا وهو يحاصر خيبر سنة ٧هـ[٥٩] غير ان بعض المسلمين عادوا فرادى وتعرضوا لاخطار وصلت الى حد الموت[٦٠] .

تشير الروايات التاريخية بوضوح الى العديد من الوفادات والمراسلات التى تمت بين الرسول (ص) واهل نجران ونورد تفاصيل دقيقة عن موضوعاتها ، غير انها تضطرب فى تحديد زمنها . وترد الرواية الاولى عن ابن اسحاق[٦١] ، تقول الرواية/ ان وفدا من نصارى نجران من ستين راكبا يرجع امرهم الى اربعة عشر منهم قدموا المدينة وفيهم العاقب واسمه عبد المسيح من كنده والسيد واسمه الايهم بن الحارث والاسقف واسمه ابو حارثة بن علقمة من بكر بن وائل .

يعطى ابن اسحق من خلال ترتيبه موقع الرواية من سياق الاحداث ان هذا الوفد جاء المدينة فى السنة الاولى من هجرة الرسول (ص) لها، وأن الوفد حاجج الرسول (ص) ورفض الدخول فى الاسلام وصالحهم، ويقرن مجيئهم بنزول الآية «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب»[٦٢] .. بينما يرى ابن كثير أن الرسول (ص) دعاهم للملاعنة فرفضوا واختاروا البقاء كل على دينه . وفى رواية اخرى ان قدومهم المدينة كان فى وقت مازال فيه بيت مدراس اليهودى قائما[٦٣] ، يعنى عمليا ان الوفادة تمت فى زمن ما قبل الخندق .

ويشير ابن كثير فى رواية اخرى الى ان الرسول (ص) كتب الى اسقف نجران قبل نزول (طس سليمان[٦٤]) كتابا يخيره فيه بين الاسلام والجزية او الحرب[٦٥] ، وان الاسقف استشار ثلاثة من اهل الرأى هم شرحبيل بن وداعة الهمدانى وعبدالله بن شرحبيل الاصبحى وجبار بن فيض الحماسى الحارثى الذين رأوا ان كون محمد (ص) رسولا لا يسمح لهم بابداء المشورة فاستدعى الاسقف اهل الوادى وكانت نتيجة الاستشارة ارسال الثلاثة المذكورين الى الرسول (ص) .

ويشير ابن كثير الى ان الرسول (ص) اظهر لهم جفوة فلجأوا الى عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف وكانت لهم بهما صلات ، فقابلهم الرسول (ص) وصادف مجيئهم مع نزول الآية « ان مثل عيسى »[٦٦] فدعاهم للملاعنة غير انهم اختاروا حكمة فسألهم عن صلاحياتهم « لعل وراءك احدا يثرب عليك »[٦٧] قالوا/ ما يرد الوادى ولا يصدر الا عن رأى شرحبيل فكتب لهم كتابه الذى تضمن شروط الصلح[٦٨] .

ثم جاء الوفد الآخر فيه العاقب والسيد والاسقف فكتب لهم كتابا لم يتضمن سوى الحقوق التى يرتبها لهم كونهم اصحاب كتاب . ويقر بسلطتهم وسلطاتهم[٦٩] .

وفى رواية ثالثة يذكر ابن كثير ان الرسول (ص) ارسل معهم ابا عبيدة « امين هذه الامة » بناء على طلبهم بان يبعث معهم رجلا امينا يمثله[٧٠] .

وفى رواية اخرى[٧١] يشار الى وفادة اخرى تمت بعدما ارسل الرسول (ص) خالد بن الوليد فى سنة عشر من الهجرة فى اربعمائة مقاتل الى بنى الحارث بن كعب بنجران يحمل امرا محددا « ادعوهم للاسلام ولا تقاتلهم ثلاثة ايام فان اسلموا والا قاتلهم » .

ويبدو ان مهمة خالد قد نجحت اذ كتب للرسول (ص) انهم اسلموا فكتب اليه يأمره باحضار وفد منهم فجاء الوفد برئاسة قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذى القصة ، وفيه يزيد بن عبدالمدان وعبدالله بن عبدالمدان ويزيد بن المحجل وعبدالله بن قريظ الزيادى وشداد بن عبيدالله القنانى وعمرو بن عبدالله الضبابى . فقابلوا الرسول (ص) وعادوا الى ديارهم فى شوال او صدر ذى القعدة قبل وفاة الرسول (ص) بأربعة اشهر بعد ان بعث لهم عمرو بن حزم الانصارى واليا على شئونهم .

الرواية الاولى عن الوفد كما جاءت فى المصادر اختلفت فى نتيجة الوفادة ففى حين يرى ابن اسحاق انها انتهت بصلح نجران يرى ابن كثير انها انتهت نهاية ودية ببقاء اهل نجران على دينهم وقبول الرسول (ص) بذلك . والواقع ان ربط ابن اسحاق الرواية بصلح نجران ينفى وقوع الوفادة فى اول ايام هجرة الرسول (ص) الى المدينة لعدة اسباب . اولها اننا نعلم بما لا يقبل مجالا للشك ان الصلح المذكور جاء فى وقت ما بعد سنة ٧هـ . ثانيها انه من غير المعقول ان يفرض الرسول (ص) هذا المبلغ الكبير جزية على اهل نجران فى وقت مبكر من هجرته الى المدينة لانه لم يصبح بعد قوة مسيطرة تمتلك وسائل فرض الشروط على نجران التى تبعد عن المدينة كما انه من غير المعقول ان يفعل ذلك واصحابه مهاجرين فى الحبشة النصرانية التى حاربت يوما من اجل نجران النصرانية . والارجح ان الوفادة تمت فى وقت مبكر من هجرة الرسول (ص) الى يثرب وهى

مسألة طبيعية فأهل نجران وفدوا عليه في مكة بطلب من الحبشة لتنظيم شئون المهاجرين ومن المعقول جدا ان يقوموا بزيارته في المدينة بعد ان استقل عن قريش خاصة وانهم ينتظرون من هذا التطور فوائد تعود عليهم مما يتيحه وجوده على الطريق نحو الشام التي يحكمها البيزنطيون النصارى وابرزها فوائد تجارية وسياسية وحجم الوفد يؤكد هذه الفرضية فهو لاظهار القوة للذين حول المدينة وتعزيز لموقع الرسول (ص) واشارة ابن كثير الى النهاية الودية تعطى فكرة عن علاقات متعادلة تقوم على تفهم لمصالح كل من الطرفين والمنافع المتبادلة . ان مثل هذه الفرضية تحدد موقع رواية ابن كثير عن الوفادة الثانية التي بدأت بوفد شرحبيل بن وداعة اولا ، الذى انجز الاتفاق على بنود الصلح واستكملت بوفد العاقب ثانيا الذى اقر الصلح وحدد اطاره السياسى . فمثل هذه الوفادة يصبح موقعها بعد سنة ٧هـ طبيعيا والذى ارجحه انها حدثت سنة ٨هـ بعد تحرير مكة لعدة اعتبارات منها .

اولا ـ ان معظم المهاجرين الى الحبشة عادوا سنة ٧هـ ولم يعد لدى الحبشة او نجران ورقة ضغط تنتزع بها امتيازات اكفأ في تعاملها مع الرسول (ص) .

ثانيا ـ ان العلاقة مع البيزنطيين بدأت تسوء بعد معركة مؤتة سنة ٨هـ .

ثالثا ـ ان الرسول (ص) راسل قادة كل القوى المحيطة به في حدود الجزيرة او خارجها بعد تحرير مكة يخيرها بين الاسلام او الجزية او الحرب .

رابعا ـ ان معظم القبائل المحيطة بنجران وفدت الى الرسول (ص) معلنة الطاعة فقد جاءت وفود مرادة وزبيد وكنده وازدجرش وملوك حمير وهم جميعا يحيطون بنجران هم حاشيتها خاصة بطون مذحج (مراده زبير) .

خامسا ـ ترتب على تحرير مكة هروب بعض اهلها والتجاؤهم الى نجران وهذا يهدد بتحول نجران الى مثابة تجمع القوى المعارضة للرسول (ص) . خاصة وان لجوء هؤلاء الاشخاص ترتب عليه قيام اهل نجران بترميم حصونهم[٧٢] ورفع درجة الاستعداد لديهم مما يعبر عن حساسية ناتجة عن تحرير مكة .

سادسا ـ ان الاشارة الواردة في سورة آل عمران « ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[٧٣] تعتبر اقوى حكما من كل الآيات السابقة في اقرار وحدانية الله ونفى الألوهية عن عيسى حيث اقترنت بالآية الاخرى « قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون»[٧٤] .

هذا يعنى ان الرسول (ص) اراد ان يفهم اهل نجران ان المذهب الذى يعتنقون على اساسه النصرانية فيه شرك وعليهم ان يرجعوا عنه والا فانه يطبق فيهم حكم القرآن[٧٥] . ان مثل هذا التطور يعنى ان موقف الرسول (ص) اصبح جديا في هذه القضية . مثل هذا الحسم لم يكن سابقا في الفترة التي كان فيها الشرك الوثني قويا خاصة . اما وقد اصبح الرسول (ص) هو الاقوى فالتمييز بين التوحيد المطلق الذى جاء به الاسلام عن الاشكال السابقة التي احاطتها ضبابية التحريف اصبح مسألة مهمة ، وفي تقديرى ان فرض الجزية هنا أمر طبيعي ومنسجم مع التطور التاريخي لوضع الدعوة .

غير ان هذا لم ينه الموقف بين الرسول (ص) واهل نجران ففى سنة ١٠هـ تستجد ظروف

ومتغيرات تجعل وجود نجران امرا غير مريح وربما ابرز هذه الظروف هو بدء ظهور ممارسات اولية للارتداد فى اليمن قد تهدد بنتائج سلبية فى حالة تحالفها مع نجران[٧٦] ، ثم بدأ تحرشات الحبشة بسواحل الجزيرة العربية قرب المدينة .[٧٧] لذلك بدأ الرسول (ص) بالاستعداد للمرحلة المقبلة وهنا يصبح ايضا موقع الرواية التى تحدثت عن ارسال خالد الى اليمن طبيعيا فهذه الرواية ركزت على بنى الحارث بن كعب بهدف فصلهم عن نفوذ نجران المدينة بدليل اللهجة العنيفة التى استخدمها معهم الرسول (ص) والراجح انها حققت اهدافها حيث ان بنى الحارث بقوا فى نجران عندما قام الخليفة عمر بن الخطاب بتهجير اهل نجران مما يشير الى تراجعهم ولو نسبيا عن موقف التبعية المطلقة لمدينة نجران .

يرى لامانس Lamans ان المعاهدة بين الرسول (ص) واهل نجران نوع من التحالف بين قوتين متكافئتين استنادا الى عبارات وردت فى الاتفاق عن الوضع القانونى للدين ولرجاله، وعن موقع نجران (لا يحشرون ولا يعشرون)[٧٨] والواقع ان القول بعلاقة متكافئة مجازفة فى تقييم وسائل وصيغ ارساء العلاقات الدولية وكما علمنا فنجران اصبحت ملزمة بحكم الاتفاق بدفع جزية كبيرة وبموقف اكثر من الحياد فى حالة نشوب ما يهدد سلطة الرسول (ص) فى اليمن وبتطور محدود بسمات معينة فرضتها شروط صريحة ان يبقى موقفهم موقف نصح وان لا يتعاملوا بالربا ـ (اى ان لا يتآمروا او يخططوا للتآمر ولا يستخدمون قوتهم الاقتصادية فى تحقيق اى مكسب سياسى يتيح لهم كسب الانصار اى يفتح مجالات العمل الاقتصادى وفق فلسفته وليس فلسفة نجران) فهل والامر كهذا يبقى ثمة مجال للتكافؤ .. الواقع ان علاقة الرسول (ص) بنجران مرت بثلاث مراحل .

الأولى ـ علاقة ودية بدأت فى مكة بعد هجرة المسلمين الى الحبشة وتفاهم الرسول (ص) مع النجاشى على هذه الهجرة واقامة المسلمين هناك .

الثانية ـ علاقة تفاهم بين قوتين متعادلتين لهما مصالح ومنافع متبادلة يمكن جنيها من وراء التفاهم وهذا المستوى من العلاقة تم فى اول هجرته (ص) الى المدينة وفيه تم تجاوز العلاقة الودية الى علاقة تفاهم على مصالح خاصة وان الرسول (ص) سيطر على غرب الحجاز قبل الخندق واصبح يقود طريق التجارة فيه دون دور لمكة او اليهود وهذا يعنى عمليا ان نجران تستطيع استثمار هذا الموقف لصالحها .

الثالثة ـ علاقة مشروطة ، والراجح ان العلاقة تطورت لهذا المستوى بعد سنة ٨هـ كما تقدم .

ان هذا التقييم نابع ليس فقط من طبيعة المعلومات المتاحة انما ايضا من ضرورة ان تتماشى العلاقة مع العقيدة الجديدة اى لا يختلف التطبيق عن المبدأ .

وفى الآيتين اللتين اشرنا لهما[٧٩] حكم مبدئى يمس ذات الله فى قضية محددة هى علاقة عيسى بالله والموقف من المخالفين وبالتالى فأى تطبيق لا ينسجم معهما يجب تجنبه ، دون اهمال امور دنيوية اخرى (النصح) و(الربا) .

الموقف بعد الرسول (ص)

اقر ابوبكر صلح نجران انسجاما مع موقفه العام من الاجراءات التى اتخذت زمن الرسول (ص) ، لكنه لم يهمل التأكيد على شروطه وهذا طبيعى فعهده ارسى على اساس الاستمرار على سياسة الرسول (ص) ، اضافة الى المشاكل التى صعدت حدتها واعنى الردة خاصة وللطبرى ملاحظة دقيقة انفرد بها فى ايراده نص كتاب الخليفة لاهل نجران . نصها « الا ما رجع عنه محمد رسول الله ، بأمر الله عز وجل فى ارضهم وارض العرب ان لا يسكن بها دينان »[٨٠] . غير ان الخليفة عمر بن الخطاب الذى لم يرَ ثمة ما

يمنع من التدقيق فى الاشياء وقياس صلاحها وبحكم ظروفه المستقرة لم يغفل رصد نجران ، ويبدو من المعلومات انه كلف يعلى بن امية بهذا الامر بل وكرسه للعلاقة مع نجران ، وقد تجمعت لديه ملاحظتان رئيسيتان الاولى تزايد قوة نجران (٤٠) ألف مقاتل وخطورة هذا التزايد على امن الدولة المشتبكة فى الشمال والشمال الشرقى ، مع التهديد الحبشى لسواحل الدولة العربية عبر البحر الاحمر[٨١] . والملاحظة الثانية معلوماته عن ربا اهل نجران اى وضع يده على ما يتعارض مع الشرطين الاساسيين لاحتفاظ نجران بمكانتها لذلك كان قراره بتهجيرهم الى العراق والشام .

والواقع اننا نجهل حدود اثر الاجلاء ، ولكن لدينا اشارة الى اجلاء اهل رعاش[٨٢] وفى وثيقة اخرى لدينا اشارة الى اهل نجران عموما[٨٣] غير ان فى كتابه الى يعلى بن امية اشارة الى بقاء البعض (فما كان فيها من نخيل او شجر فادفعه اليهم يقومون عليه)[٨٤] . ولكن على اى الاسس ؟ هل اسلموا ومن ثم سمح لهم ام ان هناك موقفا آخر نجهله . ومع ذلك فهناك روايات اشارت الى إجلائه لليهود الذين فى نجران فقط[٨٥] . وهو امر مستبعد طالما انه تمسك بالمبرر العقائدى « لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان »[٨٦] اضافة الى تخوفه من وجودهم والثقل الذى اصبحوا يتمتعون به وممارستهم للربا .

وتصور الوثائق التى بين ايدينا تحسس الخليفة العميق لموضوع اهل نجران ، والظاهر ان يعلى بن امية كتب للخليفة بحصيلة متابعته اهل نجران ولا يبدو انها حصيلة مريحة ، لذلك نرى لهجة الخليفة شديدة وقاسية « فانكم زعمتم انكم مسلمون ثم ارتددتم بعد » وقوله « فأذكروا ولا تهلكوا » لذلك حدد لهم مهلة العشر الاخيرة من رمضان موعدا نهائيا للجلاء .

نفذ اهل نجران أمر الخليفة بالجلاء ، وقد أعفاهم من الجزية لسنتين وأوصى ولاته بهم خيرا وقد جدد هذا الصلح زمن الخليفة عثمان بن عفان ومنحوا تخفيفا من الجزية بلغ ثلاثين حلة[٨٧] وجدده لهم الخليفة على بن ابى طالب أيضا[٨٨] .

ملحق رقم (١)
كتاب الرسول (ص) الى أهل نجران

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لنجران ان كان عليهم حكمة في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل ذلك عليهم وترك ذلك كله لهم على الفى حلة من حلل الاواقى في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر الفى حلة[٨٩] . مع كل اوقية من الفضة فمازادت على الخراج او نقصت عن الاواقى فبالحساب، وما قضوا من دروع او خيل او ركاب او عروض أخذ منهم بالحساب وعلى نجران مؤونة رسلي ومنعتهم ما بين عشرين يوما فما دون ذلك، ولا تحبس رسلى فوق شهر وعليهم عارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا اذا كان كيد باليمن ومعرة وما هلك مما اعاروا رسلي من دروع أو خيل او ركاب او عروض فهو ضمين على رسلى حتى يؤدوه اليهم ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على اموالهم وانفسهم وارضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم (وكل ما تحت ايديهم من قليل أو كثير لا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته)[٩٠] وليس عليه دنية ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش.. ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتي منه بريئة. ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ابدا حتى يأتي الله بأمره مما نصحوا واصلحوا عليهم غير (متفلتين[٩١]) بظلم .

ملحق رقم (٢)
كتاب الرسول (ص) الى اساقفة نجران[٩٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي للاسقف ابى الحارث واساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم وكل ما تحت ايديهم من قليل وكثير جوار الله ورسوله لا يغير اسقف من

اسقفيتـه ولا راهب من رهبانيتـه ولا كـاهن من كهانته ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا ما كانوا عليه من ذلك جوار الله ورسوله ابدا ما اصلحـوا ونصحوا عليهم غـير مبتلين بـظلم ولا ظالمين .

ملحق رقم (٣)
كتاب الرسول (ص) لأهل نجران(٩٣)

باسم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب من محمد النبي رسول الله الى اسقف نجران اسلم انتم(٩٤) فـانى احمـد اليكم اله ابـراهيم(٩٥) واسحـاق ويعقوب. اما بعد فاني ادعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد، وادعـوكم الى ولاية الله من ولايـة العباد، فان ابيتم فالجزية فان(٩٦) ابيتم اذنتكم بحرب والسلام

ملحق رقم (٤)
تجديد ابى بكر العهد للنجرانيين(٩٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب به عبدالله ابوبكر، خليفة محمد النبي رسـول الله (صلى الله عليـه وسلم) لأهل نجران/

اجارهم بجوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله (صـلى الله عليـه وسلم) عـلى انـفسـهم، وارضهم، وملـتهـم، وامـوالهم، وحـاشيتـهم، وعبـادتهم، وغائبهم، وشـاهـدهم، واسـاقفتهم، ورهبانهم، وبيعهم، وكل ما تحت ايديهم من قليل وكثير، لا يحشرون. ولا يغير اسقف من اسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، وفاء لهم لكل ما كتب لهم محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله، وذمـة محمد النبي (عليـه السلام) ابدا/ وعليهم النصـح والصلاح فيمـا عليهم من الحق .

شهد المسورد بن عمرو احدبني القين ـ وعمرو مولى ابي بكر، وراشد بن حذيفة والمغيرة وكتب .

ملحق رقم (٥)
كتاب عمر اليهم قبل اجلائه اياهم من نجران(٩٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

من عمر امير المؤمنين الى أهل رعاش كلها

٣ سلام عليكم، فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو، أما بعد/

فانكم زعمتم انكم مسلمون ثم ارتددتم بعد، وانه من يتب منكم ويصلح لا يضره ارتداده، ونصاحبه صحبة حسنة. فادكروا ولا تهلكوا.

٦ وليبشر من اسلم منـكـم. فـمـن أبـى الا النصرانية، فان ذمتي بريئة ممن وجدنـاه ـ بـعـد عشر تبـقى مـن شهـر الصـوم مـن النصارى ـ بنجران اما بعد/ فان يعلى كتب يعتـذر، ان يكـون اكـره احـدا منكم عـلى الاسلام .

٩ او عذبه عليه، الا ان يكون قسرا جبرا ووعيدا، لم ينفذ اليه منه شيء .

أما بعد/ فقد امرت يعلى ان يأخذ منكم نصف ما عملتم من الارض، وانى لن اريد نزعها منكم ما اصلحتم .

ملحق رقم (٦)
كتاب عمر لهم وقت اجلائه اياهم(٩٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب عمر امير المؤمنين لأهل نجران من سار منهم أمن بأمان الله، لا يضره احد من المسلمـين، وفاء لهم بمـا كتب لهم محمـد النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبوبكر (رضى الله عنه)

أما بعد/ فمن مروا به امراء الشام والعراق، فليوسعهم بن حرث الارض، فما اعتملوا من ذلك فهـو لهم صدقـة لوجـه الله، وعقبـة لهم مكـان ارضهم، لا سبيل عليهم فيه لاحد، ولا مغرم .

أمـا بعـد/ فمن حضـرهم من رجـل مسلم، فينصرهم على من ظلمهم فانهم اقوام لهم الذمة. وجزيتهم عنهم متروكة اربعة وعشرين شهرا، من بعد ان يقدموا ولا يكلفوا، الا من صنعهم البر غير مظلومين، ولا معتدى عليهم

شهد عثمان بن عفان، ومعيقيب وكتب

ملحق رقم (٧)
كتاب عمر الى عاملة في امر النجرانيين[١٠٠]

يعلى بن أمية قال/ لما بعثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه على خراج ارض نجران - يعني نجران التي قرب اليمن - كتب الى/

انظر كل ارض خلا اهلها عنها، فما كان من ارض بيضاء تسقى سيحا او تسقيها السماء، فما كان فيها من نخيل او شجر، فادفعه اليهم يقومون عليه ويسقونه، فما اخرج الله من شيء، فلعمر وللمسلمين منه الثلثان ولهم الثلث، وما كان منها يسقى بغرب، فلهم الثلثان ولعمر وللمسلمين الثلث. وادفع اليهم ما كان من ارض بيضاء يزرعونها، فما كان منها يسقى سيحا او تسقيه السماء، فلهم الثلث ولعمر وللمسلمين الثلثان، وما كان من ارض بيضاء تسقى بغرب، فلهم الثلثان ولعمر وللمسلمين الثلث .

ملحق رقم (٨)
كتاب عثمان الى عامله في النجرانيين[١٠١]

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله عثمان امير المؤمنين، الى الوليد بن عقبة سلام عليك، فاني احمد الله الذي لا اله الا هو. اما بعد/

فان الاسقف والعاقب وسراة اهل نجران الذين بالعراق، اتونى فشكوا الي، وواروني شرط عمر لهم. وقد علمت ما اصابهم من المسلمين، واني قد خففت عنهم ثلاثين حلة من جزيتهم، تركتها لوجه الله تعالى جل ثناؤه. واني وفيت لهم بكل ارضهم التي تصدق عليهم عمر عقبى مكان ارضهم باليمن، فاستوص بهم خيرا فانهم اقوام لهم ذمة، وكانت بيني وبينهم معرفة وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فاوفهم ما فيها. واذا قرأت صحيفتهم فارددها عليهم، والسلام .

وكتب حمران بن ابان للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين.

ملحق رقم (٩)
تجديد على العهد للنجرانيين[١٠٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عبدالله علي بن أبى طالب أمير المؤمنين، لأهل النجرانية/ انكم اتيتموني بكتاب من نبي الله (صلى الله عليه وسلم)، فيه شرط لكم على انفسكم واموالكم، واني وفيت لكم بما كتب لكم محمد (صلى الله عليه وسلم)وابوبكر وعمر، فمن اتى عليهم من المسلمين فليف لهم، ولا يضاموا ولا يظلموا ولا ينتقص حق من حقوقهم .

وكتب عبدالله بن ابى رافع لعشر خلون من جمادي الاخرة سنة سبع وثلاثين منذ ولج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة .

★☆★☆★☆★☆★

الهــوامش

(١) البكرى/ معجم ما استعجم ، ٤٨٠ . الاصفهانى/ الاغانى/ ١٠/١٤٥ ، ابو عبيدة/ غريب الحديث ، ١٧٢٨ . ابن رسته/ الاعلاق النفسية ١٨٤ . الهمدانى/ الصفة ٨٣ ، ٢٠٠ والبعل/ السقي بالسيل وليس بواسطه .

(٢) نزار الحديثى/ أهل اليمن في صدر الاسلام ، ٤٩ .

(٣) ابن رسته/ ٢٤ . المقدسي/ احسن التقاسيم/ ياقوت/ ١/١٨٢ ، ٢٠٩ ، ٨٣٥ . الهمدانى ، ٢٠٠ فصل في الاشياء التى تنفرد بها نجران من دون بلاد العرب .

(٤) نزار الحديثى/ أهل اليمن في صدر الاسلام ، ٤٩ .

(٥) ابن كثير/ السيرة النبوية ، ٤/١٠٢ ذكر عددها ثلاثا وسبعين قرية ياقوت/ ٤/٧٥٣ .

(٦) ابن هشام/ السيرة ، ١/٤٧ ، ٥٣ انظر ايضا الديورى . الاخبار الطوال ص ٦٢ اشار الى انها كانت مسورة . الهمدانى/ الصفة ، ١٦٩ .

(٧) الهمدانى/ الصفة ، ١١٥ ، ١٦٩ . ذكر الاكوع عنها معلومات في هامشه في الصفة (طبعة دار اليمـامة) ، ص ٢٥١ ، ٣١٨ .

(٨) الهمدانى/ الصفة ، ١٦٧ . انظر ايضا الى الخارطة المرفقة .

(٩) الهمدانى/ الصفة ، ١٨٦ .

(١٠) الاصطخرى/ ٢٤ ، المقدسي/ ٨٧ . انظر ايضا الخارطة المرفقة .
ويسلك هذا الطريق بعد صعده عدة افرع ، فرع الى العرقة وفرع الى بقعة ويلتقى الفرعان في كتنه الى بيشة . وفرع اخر من بقعة يتصل بالطريق القديم بين نجران وبيشة .

(١١) امتاع الاسماع ، ٥٠٤ ، ٥٤٩ .

(١٢) الهمدانى/ الصفة ، ١٦٦ ، ١٨٩ . انـظر ايضا الاغـانى ١/١٥٥ ، المسعودى/ التنبيـه والاشراف ٢٦١ ، ياقوت/ ٣/٤٦٧ ، ٥١٦ .

(١٣) الهمدانى/ الصفة ٥٢

(١٤) الاكوع / الصفة (طبعة دار اليمامة) ص ٧٦ وكلمة ساحل في الأدب الجغرافي القديم تعني الميناء .

(١٥) الهمدانى/ الصفة/ ٩٨ . انظر الخارطة المرفقة .

(١٦) الهمدانى/ الصفة/ ٥٢ ،١٤٩ .

(١٧) البلاذرى/ فتوح البلدان ، ٨٩ .

(١٨) الاغاني/ ١٠/١٤٥ . احمد بن حنبل/ ٣/١٤ . اليعقوبى/ ٢/٩٠ .

(١٩) ياقوت/ ٤/٧٥٦ ، البلاذرى/ فتوح البلدان ، ٨٥ .

(٢٠) ياقوت /٤/٧٥٩ .

(٢١) ياقوت /٤/٧٥١ .

(٢٢) اليعقوبى / التاريخ ١/٢٠٣ ، السهيلى / الروض الآنف /٣/١١ وانظر ايضا الهمدانى / الصفة ، ١١٦ وما بعدها خاصة ، ١٨٨ ويرتبط بهم حفر الآبار على محطات الطريق بين حضرموت ونجران . ابن كثير / السيرة النبوية /٤/١٠٢ .

(٢٣) ابن كثير / السيرة النبوية ، ٤/١٠٢ .

(٢٤) ابن كثير / السيرة النبوية ، ٤/١٠٢ .

(٢٥) ابن هشام / السيرة ، ٣/٣ . الهمدانى / الصفة ، ٣/٣ .

(٢٦) الهمدانى / الصفة ، ١٦٦ .

(٢٧) ياقوت / ٢/٧٠٣ . تاريخ اليعقوبى / ٢/٨٩ ، البلاذرى / فتوح البلدان /٢٦ .

(٢٨) حميد الله خان / الوثائق السياسية /١١١ .

(٢٩) تاريخ الطبرى / ٣/٢٣٢ .

(٣٠) ذكرهم الطبرى / ٤/١١٢ .

(٣١) ابن قيم الجوزية / زاد المعاد .

(٣٢) سيرة بن هشام / ١/٥١ .

(٣٣) تاريخ الطبرى /٣/٣٢١ البلاذى / فتوح البلدان ، ٩٠ .

(٣٤) تاريخ الطبرى /٢/١٢١ . ايضا سيرة بن هشام /١/٤٥ . ياقوت /٤/٧٥٣ .

(٣٥) سيرة ابن هشام /١/٤٦ . ياقوت /٢/٧٥٢ .
(٣٦) سيرة ابن هشام /٣/٤ .
(٣٧) مروج الذهب /١/٨٠ .
(٣٨) انظر ملحق رقم (٥) .
(٣٩) حميد الله خان / الوثائق السياسية ١١٦ .
(٤٠) ياقوت /٣/٦٩٩ .
(٤١) تاريخ اليعقوبى /١/٢٢٣ . تاريخ الطبرى /٢/٢٦٨ . الجاحظ/ البيان والتبيين ، ١/٣٦٢ ، الاغانى /١٥/٢٤٦ ذكر ان الرسول (ص) رآه فى عكاظ .
(٤٢) ياقوت /٣/٦٩٩ ، الاغانى /١٥/٢٦٨ .
(٤٣) ياقوت /٤/٧٥٧ ، تاج العروس /٥/٢٦٨ .
(٤٤) الاغاني /١٠/١٤٠/١٤٥ . الهمداني/ الصفة، ٢٢٤ ـ ٢٢٥ . البكري/ معجم ما استعجم/ ٣٦٨، ياقوت/ ٤٣٨/٣ .
(٤٥) الواقدى / المغازى /٢/٨٤٧ .
(٤٦) الاغانى /١٢/٨ .
(٤٧) ياقوت /٢/٧٠٣ ، ٤/٧٥٦ .
(٤٨) الاغانى /١/١٥٥ ، ياقوت /٣/٤٦٧ ، ٥١٦ . المسعودى / التنبيه والاشراف ، ٢٦١ .
(٤٩) ابن سعد / الطبقات الكبرى ، ٤/١٢ .
(٥٠) الجاحظ / الحيوان ، ٣/٢٧ .
(٥١) ابن كثير / السيرة النبوية /٤/١٠٢ .
(٥٢) سيرة ابن هشام /٢/١٣٥ والواقع ان اهل اليمن سمعوا بخبر الرسول (ص) قبل هذا التاريخ انظر الاغانى ٦/٣٥٠ ذكر رواية العباس بن عبدالمطلب انه وابا سفيان كانا فى اليمن عندما وصل كتاب حنظلة بن ابى سفيان الى ابيه يعلمه بخروج الرسول (ص) فى الابطح ـ فما هى الا ايام حتى قدم عبدالله بن حذافة السهمى بالخبر وهو مؤمن ففشا ذلك فى مجالس اهل اليمن
(٥٣) الروض الآنف /٢/١٣٩ .
(٥٤) سيرة ابن هشام /٢/١٣٥ .
(٥٥) ابو الفرج الاصفهانى / الاغانى /٨/٥٢ وانظر ايضا ابن قدامة المقدسى / التبيين فى اخبار الفرنسين ، ١٤٩ .
(٥٦) سيرة ابن هشام /٢/٧٩ ، ياقوت ٤/٥١٥
(٥٧) يشير ابن كثير الى علاقة اهل نجران ببعض الصحابة ممن اشتهروا بممارسة التجارة مثل عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف ، انظر السيرة النبوية ٤/١٠١ وهو امر يرجح وجود علاقات تجارية بين نجران والمدينة وربما نشاط تجارى أوسع .
(٥٨) طبقات ابن سعد /٤/١/٧٥ هجرة عمرو بن سعيد بن العاص .
(٥٩) سيرة ابن هشام /٤/٥٣ .
(٦٠) طبقات ابن سعد /٤/١/٩٤ .
(٦١) سيرة ابن هشام /٣/٣ وانظر ايضا طبقات بن سعد /١/٢/٨٤ وابن كثير / السيرة النبوية ، ٤/١٠٦ وبقية اعضاء الوفد هم اوس بن الحارث ، زيد بن قيس ، قيس ، يزيد ، نبيه ، خويلد ، عمرو ، خالد ، عبدالله ، يحنس .
وفى رواية عن يونس بن بكير ، ان المتقدمين فيهم (٢٤) وليس اربعة عشر .
(٦٢) آل عمران /٥٩ . ابو الفرج الاصفهانى /الاغانى /١٢/٤
(٦٣) ابن كثير / السيرة النبوية /٤/١٠١ ، الاغانى ، ١٢/٤ .
(٦٤) المقصود سورة النمل « طس تلك آيات الكتاب » وهى مكية بالاجماع .
(٦٥) انظر ملحق رقم (٣) .
(٦٦) آل عمران /٥٩ .
(٦٧) يثرب عليك / يلومك .
(٦٨) انظر ملحق رقم (١) .
(٦٩) انظر ملحق رقم (٢) .
(٧٠) السيرة النبوية /٤/١٠٢ .

(٧١) طبقات بن سعد /١/٢/٧٢ ، تاريخ الطبرى /١٢٦/٣ ، ابن كثير / السيرة النبوية ، ١٨٨/٤ اتفقت الروايات على جميع التفاصيل واختلفت فى تحديد شهر الوفادة فقيل ربيع الاول وقيل ربيع الآخر وقيل جمادى الاولى من سنة ١٠هـ .

(٧٢) الواقدى /٨٤٧/٢ .

(٧٣) آل عمران /٥٩ .

(٧٤) آل عمران /٦٤ .

(٧٥) التوبة /٢٩ « مدنية » « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

(٧٦) لمزيد من المعلومات عن ردة اليمن وعلاقة نجران بها ، راجع نزار الحديثى / اهل اليمن فى صدر الاسلام ، ص ١١٥ وما بعدها .

(٧٧) سيرة ابن هشام /١٢٠/٢ احداث سنة ٩هـ سرية علقمة من مجزر الى جدة لصد الاحباش .

(٧٨) ملحق رقم (١)

(٧٩) آل عمران /٥٩ التوبة /٢٩ .

(٨٠) انظر ملحق رقم (٤) . وانظر ايضا ملحق رقم (٥) .

(٨١) ابن هشام

(٨٢) انظر ملحق رقم (٥) .

(٨٣) انظر ملحق رقم (٦) .

(٨٤) انظر ملحق رقم (٧) وانظر ايضا ابو عبيدة / الاموال ، وياقوت ٧٥٧/٤ اشار الى ان آخر ما قال الرسول (ص) فى حياته اخرجوا اليهود من الحجاز واخرجوا اهل نجران من جزيرة العرب .

(٨٥) تاريخ اليعقوبى /٢٧٤/٢ ، الاغانى ٤٥/١٥ وانهم اختاروا الكوفة لعلاقة قديمة بها ، تاريخ الطبرى ، ١١٢/٤ ، طبقات بن سعد ٢٠٣/٣

(٨٦) البلاذرى / فتوح البلدان ، ٩٠ .

(٨٧) انظر ملحق رقم (٨) .

(٨٨) انظر ملحق رقم (٩) .

(٨٩) أبويوسف/ الخراج، ٧٢. ابن شبه/تاريخ المدينة ٥٨٤/٢ لاحظ الفروق بين ما ذكره والنص المثبت. ابن كثير/ السيرة النبوية ١٠٤/٤ ذكر من الكتاب ما بين القوسين فقط من فروق بسيطة. قدامه بن جعفر/ الخراج ٢٧٣. البلاذري/ فتوح البلدان، ٨٧ .

(٩٠) ابن كثير/ السيرة النبوية، ١٠٦/٤ ذكر ما بين القوسين .

(٩١) ابن كثير/ المصدر السابق ذكرها (مبتلين) .

(٩٢) ابن كثير/السيرة النبوية، ١٠٦/٤.
وانظر ملحق رقم (١) وردت بعض فقرات هذا الكتاب في كتاب الصلح .

(٩٣) ابن كثير/ السيرة النبوية، ١٠١/٤ .

(٩٤) اليعقوبي/التاريخ، ٨١/٢ البداية عنده على النحو التالي/ «بسم الله من محمد رسول الله الى اسقفة نجران/بسم الله»

(٩٥) اليعقوبي/ التاريخ يضيف ايضا «اسماعيل» .

(٩٦) اليعقوبي/ التاريخ «و إن».

(٩٧) حميدالله خان/ الوثائق السياسية، ص١٢٨.

(٩٨) حميد الله خان/ الوثائق السياسية، ص١٣٠.

(٩٩)حميدالله خان/ الوثائق السياسية، ص١٣١ .

(١٠٠) حميد الله خان/ الوثائق السياسية، ص١٣٢.

(١٠١) حميد الله خان/ الوثائق السياسية، ص١٣٦ .

(١٠٢) حميد الله خان/ الوثائق السياسية، ١٣٧ .

المنشآت العمرانية في العصر العباسي
٢٣٢ ـ ٥٢٩ هـ / ٨٤٧ ـ ١١٣٥ م

الدكتور عبدالكريم عبده حتامله
كلية الآداب / جامعة اليرموك

قال المعتصم بالله الخليفة العباسي : «ان في العمارة امورا محمودة، أولها : عمران الاراضي التي يحيا بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الاسعار، ويكثر الكسب ويتسع المعاش»[١] .

كثرت العمارة في بغداد وغيرها من امهات البلدان الاسلامية ايام ازدهار الحضارة العربية فيها، فبنيت المدن التي امتلأت بالقصور الشامخة والدور الفخمة والعمارات الفسيحة، فاولع الخلفاء العباسيون والامراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج وعليها صور من الجص المجسم، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج مزينة بالرسوم .

وكان المعتصم بالله الخليفة العباسي[٢] يقول : «ان في العمارة امورا محمودة اولها : عمران الاراضي التي يحيا بها العالم وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الاسعار، ويكثر الكسب ويتسع المعاش»[٣] .

وفي تلك الايام انتشر طراز بناء عظيم الشأن عرف بالحيرى والكمين[٤] والحيري منسوب الى الحيرة المدينة العربية المشهورة وكان أول من احدث هذا الطراز من خلفاء بني العباس المتوكل على الله[٥] .

وقد احدث «بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيرى والكمين والاروقة وذلك ان بعض سماره حدثه في بعض الليالي ان بعض ملوك الحيرة من النعمانة من بني نصر، احدث بنيانا في دار قراره وهى الحيرة على صورة الحرب وهيئتها للهجه بها وميله اليها، لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر احواله، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب من الشراب والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين اضافة الى الحيرة،

واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماما بفعله»[٦] .

قال هرتسفلد : «ان العرب اجادوا في وصف هذا البناء احسن الاجادة ولقد صدقوا في قولهم ان الحيرى بُكمينْ هو مثال عسكر روماني ذاهب الى الحرب بجناحين ميمنة وميسرة»[٧] .

ومن الابنية التي بناها المتوكل مدينة الجعفرية في مكان قريب من مدينة سامراء ناحية الشمال وبنى قصره الذي سماه الجعفري نسبة اليه وشجع الامراء والقواد وغيرهم على البناء. كذلك امر المتوكل «بنقض قصري المختار والبديع بسامراء وحمل ما فيهما من خشب الساج لاستعماله في بناء قصره الجديد»[٨]. بالاضافة الى ذلك بنى المتوكل في المدينة الجعفرية قصرا آخر سماه لؤلؤة، امتاز بارتفاع بنائه، كما امر بحفر نهر يأخذ ماءه من دجلة ويصل الى هذه المدينة عرف باسم جبة دجلة وانفق على شق هذه الترعة مائتي الف دينار، وكان يقوم بحفرها اثنا عشر الف عامل، كما بلغت تكاليف قصر الجعفري اكثر من مليون دينار .

اما دور الامراء والوزراء واماثل الناس واعيانهم ببغداد فكانت تتألف من قصور كثيرة، وكان يلي الابواب من داخل القصر البهو وهو مقدم الدار واعلاها بناء ويقف شامخا تزينه الشرفات .

وفي سنة (٢٨٠/٨٩٣) شيد الخليفة المعتضد العباسي[٩]، القصر الحسني[١٠] هذا القصر بناه جعفر بن يحيى البرمكي في ايام الخليفة هارون الرشيد[١١] فكان يسمى القصر الجعفري[١٢] ثم انتقل الى المأمون[١٣] فعرف بالقصر المأموني ثم تزوج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل فوهبه له وكتبه باسمه فكان يقال له القصر الحسني[١٤] .

فلما مات الحسن بقى لابنته بوران ثم سلمته للمعتز[١٥] ثم جدد بعد ذلك المعتضد عمارته ووسعه وزاد فيه وجعل له سورا حوله ثم بنى فيه المكتفى[١٦] ثم زاد فيه المقتدر[١٧] زيادات عظيمة ثم ضرب في ايام التتار الذين استولوا على بغداد[١٨] ذكر ياقوت : «ان القصر كان احب المواضع الى المأمون واشهاها لديه، فاقتطع جملة من البرية عملها ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوالجة وحيدا لجميع الوحوش وفتح له بابا شرقيا الى جانب البرية واجرى فيه نهرا ساقه من نهر المعلى»[١٩] .

وبعد ان تولى المعتضد[٢٠]، صار هذا القصر من احب البقاع اليه وكان يتردد بينه وبين سر من رآى فيقيم هنا تارة وهناك تارة اخرى حتى توفى سنة (٢٧٩/٨٩٢) وحمل الى سامراء ودفن فيها[٢١]، ثم استولاه المعتضد بالله فاضاف الى القصر الحسني ما جاوره فوسعه وكبره وادار عليه سورا واتخذ حوله منازل كثيرة ودورا، واقطع من البرية قطعة فعملها ميدانا عوضا عن الميدان الذي ادخله في العمارة وابتنى على نحو ميلين منه في جهة الشرق الموضع الذي على نهر موسى والمعروف بالثريا[٢٢]، ووصل بناء الثريا بالقصر الحسني، وابتنى تحت القصر ازاجا من القصر الى الثريا تمشي جواريه فيها وحرمه وسراريه، وما زال باقيا الى الفرق الاول الذي صار ببغداد فقفا اثره وكان ذلك في سنة (٤٦٦/١٠٧٣) حين انفجرت المُسنَّاة[٢٣] التي تحت نهر القورج وغمرت المياه بغداد الشرقية جميعها[٢٤] .

قال الكميت بن معروف[٢٥] :

وبنت لندماني والحزن بيننا
وشم الاعالي من خفاف نوازع
أنار بدت بين المسناة فالحمى
لعينيك ام برق من الليل ساطع ؟
فان يك برقا فهو برق سحابة
لها ريق لم يخل في الشم لامع
وان تك نارا فهى نار تشبها
قلوص وتزهاها الرياح الزعازع

ذكر المسعودي، ان المعتضد «انفق على قصره المعروف بالثريا اربع مائة الف دينار وكانت مساحة ارضه ثلاثة فراسخ[٢٦]» وكان الازج الذي طوله ميلان معقودا يمر تحت الدور

والشوارع التي اقيمت فيما بعد خارج قصور الخلفاء[٢٧] .

قال عبدالله بن المعتز يصف الثريا[٢٨] :

سلمت امير المؤمنين على الدهر
فلا زلت فينا باقيا واسع العمر
ملكت الثريا خير دار ومنزل
فلازال معمورا وبورك من قصر
وبنيان قصر قد علت شرفاته
كصف نساء قد تربعن في الازر
جنان واشجار تلاقت غصونها
واوقرن بالاثمار والورق الخضر
ترى الطير في اغصانهن هواتفا
تنقل من وكر لهن الى وكر
وانهار ماء كالسلاسل فجرت
لترضع اولاد الرياحين والزهر
عطايا اله منعم كان عالما
بانك اوفى الناس فيهن بالشكر

وكان المعتضد يمدح الثريا ويقول : «انا على سريري اخاطب وزيري وصيد البر والبحر يصاد بين يدي»[٢٩]، كذلك شيد المعتضد الفردوس او الخلد [٣٠] وفي جوار القصر الحسني في موضع يقع فوقه حيث يصب نهر المعلى في دجلة كان موضع الخلد (الفردوس) قديما ديراً فيه راهب[٣١] وانما اختار المنصور نزوله وبنى قصره فيه لعلة اليق وكان عذبا طيب الهواء مر على بن ابي هاشم الكوفي فنظر اليه وقال[٣٢] :

بنوا وقالوا لا نموت
وللخراب بنى المبنى
ما عاقل فيما رأيت
الى الخراب بمطمئن

وكان في بساتين هذا القصر بحيرة يأتيها الماء من فرع صغير لنهر موسى عند المعتصم قرب باب المحترم، وقد ذكر ابن حمدون النديم ان المعتضد غرم على عمارة البحيرة ستين الف دينار وكان يخلو مع جواريه وفيهن محبوبته دريده[٣٣]. وزيادة على قصري الفردوس (الخلد) والثريا وضع المعتضد اساسات قصر التاج[٣٤] المشهور في موضع يقع على نهر دجلة بالقرب من القصر الحسني، وحين تم بناؤه ووسعه الخلفاء المتعاقبون اصبح اهم مركز رسمي للخلفاء، ونظرا لأهمية منطقة براز الروز ولموقعها[٣٥] اختار المعتضد من دون الاماكن الاخرى في كورة ديالي هذه لانشاء ابنية ملكية فخمة فيها[٣٦] .

وفي سنة (٢٨٠/٨٩٣) امر المعتضد ببناء مطامير [٣٧] في قصر الحسني فبنيت محكمة وجعلها محابس الاعداء، وقد اهتم المعتضد كثيرا بالسجون وقد جعل في ميزانيته ألفا وخمسمائة دينار لنفقات السجون وثمن اقوات المحبوسين ومائهم وسائر مؤنهم[٣٨]. كذلك عين للسجون اطباء افردوا لذلك يدخلون اليهم ويحملون الاطعمة والاشربة ويطوفون على سائر السجناء ويعالجون فيها المرضى[٣٩]. كما جعل للمحبوسين ديوانا خاصا تكتب فيه قصصهم في دفاتر خاصة يرجعون اليها دائما[٤٠] ومن الدور الشهيرة ببغداد التي شيدت على طراز الحيري والكمين دار ابى القاسم علي بن افلح[٤١] وكان شاعرا مجيدا عاش ايام المسترشد بالله[٤٢] الخليفة العباسي، وقد بلغت تكاليف هذه الدار ما يقارب العشرين الف دينار. وكان طولها ستين ذراعا في اربعين وقد موهت بالذهب، وعملت فيها الصور وفيها الحمام العجيب، فيه بيت مستراح فيه اداة يسمى البشيون[٤٣]. ان فركه الانسان يمينا خرج الماء حارا وان فركه شمالا خرج باردا .

وكتب علي بن افلح على ابواب داره هذه الابيات[٤٤] :

ان عجب الزوار من ظاهري
فباطني لو علموا اعجب
شيدني من كفه مزنة
يحمل منها العارض الصيب
ودبجت روضة اخلاقه
في رياضا نورها مذهب
صدر كسا صدري من نوره
شمسا على الايام لا تغرب

وكذلك امر ان يكتب على طرزها :

ومن المروءة للفتى
ما عاش دار فاخرة
فاقنع من الدنيا بها
واعمل لدار الآخرة

وأمر ان يكتب على الحيري منها :

ونـاد كـأن جـنـان الخـلـود
اعـارتـه من حسنـهـا رونقـا
واعـطتـه من حـادثـات الزمـا
ن الا تـلـم بـه مـوثـقـا
تـظل الوفـود بـه عـكـفـا
وتـمسي الضـيـوف له طرقـا
بـقـيـت له يـا جـمـال الملـو
ك والفضـل مهمـا اردت البقـا

ومن المنشآت العمرانية دار محمد بن احمد بن جردة[٤٥]، احد الرؤساء، ببغداد ايام الخليفة القائم بأمر الله [٤٦] وهو من ذوي الثروة والمروءة. وكانت داره الفخمة هذه بباب المراتب[٤٧] ببغداد يضرب بها المثل وكانت تشتمل على ثلاثين دار وفيها بستان وحمام ولها بابان على كل باب مسجد اذا اذن المؤذن في احدهما لم يسمع الاخر من اتساعها .

ولا ننسى ايضا دار الوزير ابن مقلة[٤٨] على شاطىء دجلة وقد قدرت تكاليف هذه الدار بمئة الف دينار، كما الحق بها بستان كبير جعله بيوتا تأوى اليه الطيور وتفرخ فيها ثم اطلق فيها القماري والدباسي والنوبيات الشحارير الزرباب، الهزار والفواخت والطيور التي من اقاصى البلاد فتوالدت[٤٩]، ثم عمد الى ناحية اخرى من ذلك البستان العظيم فطرح فيه الطيور التي لا تطير كالطواويس والبط وجعل من خلف البستان الغزلان والنعام والايائل والارانب والبقر البدوية والابل وحمر الوحش، ولكل صحن ابواب تنفتح الى الصحن الآخر فيرى من مجلسة سائر ذلك .

وتتضاءل عظمة تلك القصور الشامخة والضخمة امام الدار المعزية[٥٠] ببغداد، تلك الدار التي ابتدأ الامير معز الدولة البويهي ببنائها في سنة (٣٥٠/٩٦١) في مكان يعرف بالشماسية في أعلى مدينة بغداد والشماسية كانت تقوم في اعلى الاعظمية في البقعة المعروفة بالصليخ وبلغت تكاليف هذه الدار ثلاثة عشر ألف درهم أي ما يقارب المليون دينار ونزع ملكية المباني المجاورة لهذا المكان وامر بخلع الابواب الحديدية ببغداد والرصافة ونقلها الى قصره، كما نقض دور الخلافة بسامراء واحضر مهرة البنائين[٥١]. وقد اصاب هذا القصر ما اصاب غيره من قصور الخلافة في سامراء على يد بهاء الدولة الذي شرع في تخريبه واستعمال انقاضه في بناء قصره الذي بناه في سنة (٤١٨/١٠٢٧)[٥٢] .

وكان معز الدولة باني تلك الدار مصابا بامراض صعبة فأشار عليه اصحابه واطباؤه ان يبني له دارا في بقعة نزهة ذات هواء صاف وماء عذب فوقع الاختيار على البقعة التي بالشماسية وهو موقع حسن نزه كثير البساتين والاشجار والنخيل. وذكر ابن مسكويه ان معز الدولة «حضر لداره هذه اساسا نيفا وثلاثين ذراعا ونزل سفلا في الارض لبعض الاساسات : ستا وثلاثين ذراعا ورفعها الى وجه الارض بالنورة والآجر الى ان ارتفع فوق الارض باذرع»[٥٣] .

كذلك كان عضد الدولة ولوعا بالعمارة واليه يرجع الفضل في تعمير مدينة بغداد بعد ان اصابها التدمير بسبب اهمال شأنها مدة طويلة حين اتخذ بعض الخلفاء مدينتي سامراء والجعفري حاضرة للدولة، كذلك اعاد عضد الدولة بناء كثير من مساجدها وادر الارزاق على القائمين بها من المؤذنين والائمة والقراء، كما اعاد بناء ما تخرب من ارباض هذه المدينة وامر اصحاب العمارات التى اصابها الخراب باعادتها الى ما كانت عليه وتجميلها وأمد العاجزين منهم بما يحتاجون اليه من مال كما عمل على تجميل الاحياء الواقعة على ضفتي نهر دجلة واقام الميادين والمنتزهات، فامتلأت هذه الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة بعد ان كانت مأوى الكلاب ومطارح الجيف والاقذار[٥٤] .

كما عمل على تجديد مادثر الانهار واعادة حفرها بعد ان اهملت زمنا طويلا واقام جسر بغداد وحصنه بالدرابيزينات ووكل به الحفظة والحراس[٥٥] واصلح الطريق الذي كان يمتد من العراق الى مكة واعاد بناء مشهد علي والحسين[٥٦] .

وليس هذا كل ما قام به عضد الدولة من الاعمال العمرانية، فقد «بنى بفارس وخوزستان كثيرا من العمائر، كما بنى البيمارستان العضدي المشهور وعمل الكور (سد النهر) وانفق فيها الاموال ووكل بها الرجال والزمهم حفظها بالليل والنهار ورعى ذلك منهم اتم مراعاة في آونة المحدود والحوارف وازمنة الغيوث الهواطل، واوقات الرياح والعواصف»[٥٧] .

وفي ما تبقى من بقايا بعض المباني القديمة على قلتها في بغداد خير دليل على رقي المنشآت العمرانية وتفنن القوم وابداعهم فيها .

★☆★☆★☆★☆★

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصادر

- الآلوسي : (ت١٣٤٢/١٩٢٤). محمود شكري الآلوسي، أخبار بغداد وما جاورها من البلاد. مخطوطة موجودة في المكتبة المركزية، بغداد، تحت رقم (٢٣٤٥٩) .
- ابن الاثير (ت٦٣٠/١٢٣٣) : ابوالحسن علي بن ابي الكرم محمد الشيباني
تاريخ الكامل في التاريخ (١٢) جزءا عني بمراجعة اصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي بيروت، ١٣٨٧/١٩٦٧ .
- ابن تغري بردي (ت٨٧٤/١٤٦٩) : ابوالمحاسن جمال الدين يوسف
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (١٢) جزءا دار الكتب المصرية القاهرة، ١٣٤٨ ـ ١٣٧٥/١٩٢٩ ـ ١٩٥٥ .
- ابن الجوزي (ت٥٩٧/١٢٠١) : ابوالفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد
المنتظم في تاريخ الملوك والامم. الاجزاء من ٥ ـ ١٠، الطبعة الاولى، حيدراباد، الدكن، ١٣٥٧ ـ١٣٥٨/١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ .
- ابن الكازروني (ت٦٩٧/١٢٩٦) : ابو الحسن ظهر الدين علي بن محمد
مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، ١٣٩/١٩٧٠ .
- ابن كثير (ت٧٧٤/١٣٧٢) : عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ، (١٤) جزءا مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٥١/١٩٣٢ .
- ابن مسكويه (ت٤٢١/١٠٣٠) : ابوعلي احمد بن محمد، تجارب الامم، باعتناء هـ. ف امودوز، القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤ .
- الحموي، (ت٦٢٦/١٢٢٩) : ابوعبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي، معجم البلدان، ٥ اجزاء ، دار صادر بيروت، ١٣٧٦/١٩٥٧ .
- الخوارزمي (ت٣٨٧/٩٩٧) : ابوعبدالله محمدبن احمدبن يوسف، مفاتيح العلوم مطبعة الشرق، القاهرة .
- السيوطي (٩١١/١٥٠٥) : جلال الدين ابوالفضل عبدالرحمن بن ابي بكر
تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٨١/١٩٦١ .
- الشابشتي (ت٣٨٨/٩٩٨) : ابوالحسن علي بن محمد، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد ١٣٨٦/٩٦٦ .
- الصابي (ت٤٤٨/١٠٥٦) : ابوالحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم الوزارة او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، تحقيق احمد فراج، القاهرة ١٩٥٨ .
- الطبري (٣١٠/٩٢٢) : ابوجعفر محمد بن جرير، تاريخ الامم والملوك
(١٣) جزءا، الطبعة الاولى بالمطبعة المصرية، مطبعة خياط، بيروت
(بلا) ثم طبعة ليدن ١٨٧٩ ـ ١٩٠١ تحقيق ام رجي.د
- القيرواني (ت٤٥٢/١٠٦١) : ابو اسحق ابراهيم بن علي الحصري، زهر الاداب وثمر الالباب (٤) اجزاء تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٧٢ .
- المسعودي (ت٣٤٦/٩٥٧) : ابوالحسن علي بن الحسين المسعودي، الشافعي مروج الذهب ومعادن الجوهر (٩) أجزاء، بيروت ١٣٧٥/١٩٦٦ ثم طبعة باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٦ .

ثانيا : المراجع

- سوسة، احمد : ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، ج٢ ، ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٩ .
- عواد، ميخائيل، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، منشورات وزارة الاعلام بغداد، ١٩٨١ .
- عواد، كوركيس، الدار المعزية من اشهر مباني بغداد في القرن الرابع للهجرة مجلة سومر، ج٢، بغداد ١٩٥٤ .
- متز آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، مجلدان، نقلة الى العربية محمد عبدالهادي ابو ريده، اعد فهارسه رفعت البدراوي ط٤، القاهرة، بيروت ١٣٨٧/١٩٦٧ .
- المنجد،صلاح الدين، بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، ط٢، بيروت ١٩٧٤ .

الهوامش

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٧ ، ص ١٠٤ .
(٢) ابواسحق محمد المعتصم بالله بن الرشيد (٢١٨ ـ ٢٢٧ / ٨٣٣ ـ ٨٤٢) .
(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٧ ، ص ١٠٤ .
(٤) ميخائيل عواد ، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ، ص ٧ .
(٥) المتوكل على الله جعفر بن المعتصم (٢٣٢ ـ ٢٤٧/ ٨٤٧ ـ ٨٦١) .
(٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٧ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .
(٧) ميخائيل عواد ، صور مشرقة ، ص ٨ نقلا عن مجلة لغة العرب ، بغداد ١٩١٢ ، ص ٥١٦ ـ ٥١٧ .
(٨) الطبري ، تاريخ الامم ، ج ١١ ، ص ٥٦ .
(٩) المعتضد ، احمد بن الموفق (٢٧٩ ـ ٢٨٩ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢) .
(١٠) الآلوسي ، اخبار بغداد وما جاورها من البلاد ، ص ٢١ ، (مخطوطة موجودة في المكتبة المركزية ببغداد ، تحت رقم ٢٣٤٥٩) . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٤٢ . ابن كثير ، البداية ، ج ١١ ، ص ٦٨ .
(١١) هارون الرشيد ، (١٧٠ ـ ١٩٣/ ٨٧٦ ـ ٨٠٩) .
(١٢) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٨٤ .
(١٣) المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨/ ٨١٣ ـ ٨٢٣) .
(١٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٨٤ .
(١٥) المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩) .
(١٦) المكتفي بن المعتضد (٢٨٩ ـ ٢٩٥/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨) .
(١٧) المقتدر بن المعتضد (٢٩٥ ـ ٣٢٠/ ٩٠٨ ـ ٩٣٢) .
(١٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٨٤ .
(١٩) الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣ ـ ٤ .
(٢٠) المعتضد بن المهدي (٢٥٦ ـ ٢٧٩/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢) .
(٢١) الالوسي ، اخبار بغداد ، ص ٣٥ (مخطوطة) ، احمد سوسة ، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية ، ص ٣٦٩ .
(٢٢) مزيدا من التفصيلات انظر : الالوسي ، اخبار بغداد ، ص ٣٥ (مخطوطة) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٤٤ . الحموي ، معجم البلدان مجلد ٢ ، ص ٧٦ ، الشابشتي ، الديارات ، ص ١٩ (ط ، بغداد) تحقيق كوركيس عواد .
(٢٣) المسناة : بضم الميم وفتح السين وتشديد النون . هي البناء الحافظ للقصر من الماء ويقال بها بالانجليزية Quay وتجمع على المسنيات انظر ميخائيل عواد ، صورة مشرقة ، ص ١٢ .
(٢٤) الالوسي ، اخبار بغداد ، ص ٣٦ (مخطوطة) .
(٢٥) الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٢٩ .
(٢٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ .
(٢٧) احمد سوسه ، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .
(٢٨) الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٧٦ .
(٢٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٤٥ .
(٣٠) الالوسي ، اخبار بغداد ، ص ٣٨ (مخطوطة) .
(٣١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(٣٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٣٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٧٢ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٩١ . القيراوني ، زهر الآداب وثمر الالباب ، ج ٢ ، ص ٧٧٣ . ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، ص ١٦٦ .
(٣٤) الالوسي ، اخبار بغداد ، ص ٣١ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٨٤ .
(٣٥) ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٤٤ . احمد سوسة ، ري سامراء ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .
(٣٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٤٤ .
(٣٧) المطامير : سجون تحت الارض . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٤٤ .

(٣٨) الصابي ، الوزراء ، ص ٢٦ . آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٣٩) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٤٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٤٤ . المنجد ، بين الخلفاء والخلعاء ص ١٢٦ .
(٤١) توفي سنة (٥٣٣/ ١١٣٩) انظر ترجمته في : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .
(٤٢) المسترشد بالله ابو منصور الفضل بن المستظهر بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩/ ١١١٨ ـ ١١٣٥) .
(٤٣) البشيون : هو البزال الذي يعمل من انبوبة تثقب ثقباً ، وتركب في الثقب انبوبة اخرى منتصبة تدار فيه للفتح والسد ، والانبوبة المركبة في الاناء تسمى الانثى والانبوبة المركبة في ثقب الانبوبة تسمى الذكر . الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .
(٤٤) ميخائيل عواد ، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ، ص ٩ ـ ١٠ .
(٤٥) توفي في بغداد سنة (٤٧٦/ ١٠٨٣) انظر ترجمته مفصلا : ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٩ ، ص ٩ ـ ١٠ .
(٤٦) خلافته (٤٢٢ ـ ٤٦٧/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥) .
(٤٧) أحد أبواب دار الخلافة العباسية ببغداد ، كثير الورود التاريخي في معاجم البلدان وكتب التاريخ ، مزيدا من هذه التفصيلات انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص٤٥١ . ميخائيل عواد ، صور مشرقة ، ص ١٠ .
(٤٨) ابن مقلة : محمد بن علي بن عبدالملك ابوعلي المعروف بابن مقلة ، صاحب الخط الحسن المشهور ، استوزره المقتدر والقاهر والراضي ، مات سنة (٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ص ٣٠٩ ـ ٣١١ .
(٤٩) ميخائيل عواد ، صور مشرقة ، ص ١١ .
(٥٠) من اشهر مباني بغداد في القرن الرابع للهجرة مزيدا من التفصيلات انظر : ميخائيل عواد ، صور مشرقة ، ص ١١ . كوركيس عواد ، الدار المعزية من اشهر مباني بغداد في القرن الرابع للهجرة ، مجلة سومر ١٠ ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ـ ٢١٧ بغداد ١٩٥٤ .
(٥١) ابن مسكويه ، تجارب الامم ج ٢ ص ١٨٣ .
(٥٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٦ .
(٥٣) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .
(٥٤)ـ ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .
(٥٥) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦
(٥٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٥٥ .
(٥٧) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٣ ص ٦٨ ـ ٦٩

الحرب عند القبائل العربية في الجاهلية

إعداد : الدكتور صالح موسى درادكة
الجامعة الأردنية / كلية الآداب

كانت الحرب ولا زالت تحظى باهتمام المؤرخين ودراساتهم ، لما لها من تأثير في الأوضاع السياسية السائدة علاوة على ما يرافقها من ويلات ومصائب . غير أن الحرب عند القبائل البدوية لم تحظ بدراسة خاصة تعطى مفهوم الحرب عند بدو الجاهلية ، والمستوى الفني الذي بلغوه في هذا الجانب من حياتهم مع ان الفاصل الزمني بين الجاهلية والاسلام يكاد لا يذكر ، وليس من المعقول ان تكون المؤسسة العسكرية في الاسلام قد وجدت فجأة ودونما سوابق في النواحي الفكرية والفنية .

هنالك دراسات أدبية تناولت موضوع الحرب عند العرب قبل الاسلام بشكل عام ابرزها دراسة الدكتور علي الجندي ، شعر الحرب ، التى نشرت عام ١٩٥٨ ، ورسالة ماجستير قدمها الدكتور عبد الرؤوف عون بعنوان : «الفن الحربى في صدر الاسلام ، ونشرت سنة ١٩٦١ ، وموضوع ثالث لزكي المحاسني ، شعر الحرب فى أدب العرب ، نشر سنة ١٩٦١ ، وأخيرا رسالة ماجستير ايضا قدمها الدكتور نورى القيسى عن الفروسية في الشعر الجاهلي ونشرت سنة ١٩٦٤ . ان في هذه الدراسات مادة غزيرة تغني الباحث في احوال العرب قبل الاسلام ، ولكنها اولت الاهتمام بالنواحى الفنية للشعر ولم يكن غرضها دراسة دواعي الحرب أو معرفة المستوى الفني الذي بلغه عرب القبائل في هذا الجانب من حياتهم . كما لم يميز الباحثون بين العرب البدو والعرب الحضر في ظاهرة الحرب . فقد كان للعرب الحضر ممالك وجيوش بينما لم يكن للقبيلة البدوية شيء من هذا ، ومن هنا أجد ان الحرب القبلية في الجاهلية بحاجة الى المزيد من الاستقصاء والايضاح .

ان ما حققه العرب المسلمون في فتوحاتهم من نجاحات سريعة وما أنجزوه في ميدان الحضارة ليبعث في قول غوستاف لوبون الحيوية والخلود :« اذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا ، ان هذه الحضارة ثمرة ماض

طويل ، وان جهلنا لهذا الماضي لا يعنى عدم وجوده ، وان مباحث العلم الحديث قد تؤدي الى عرض ذلك الماضي [١]. فالى اي حد كان لماضى العرب العسكرى دور في هذا البناء العسكري الشامخ الذي أنتصب أمام الأنظار في مطلع الحركة الاسلامية ؟

ان أقدم اشارة للقتل وردت في سفر التكوين من العهد القديم . ثم ذكرها القرآن الكريم ، هي قصة قتل قابيل بن آدم لاخيه هابيل «فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين»[٢].

يشير توينبى الى هذه القصة ، ويقول ان هابيل كان راعيا وقابيل كان زارعا فتقدم هابيل بكبش غنم قربانا لله فقبل الله منه ، وتقدم قابيل بقربان مما تخرج أرضه ، فلم يقبل منه فحقد قابيل الزارع على أخيه الراعي وقتله ، يستعمل توينبى هذه القصة رمزا على الصراع بين البدو والحضر ويقرر خلافا لما ذهب اليه ابن خلدون ، ان النصر في النهاية يكون للجماعات المستقرة ذات الحضارة المتطورة على الرعاة أصحاب الحضارة الموقوفة[٣].

والحروب عوارض من حوادث الزمان كالامراض كما أن الأمن والسلامة كالصحة للاجساد فيجب حفظ الصحة حتى لا يؤدي الى مرض ، فعلى من بيدهم المسئولية عدم أهمال ذلك بالاعداد لحرب الاعداء ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، لأن القوة في احوال كثيرة تمنع العدو من العدوان ، وتمنح الفرصة في ازدهار العلوم والفنون وزيادة الاموال وهذا الأمان يخفف من أثر الحروب عندما تحصل[٤] .

ومن العبث تصور حالة سلام ثابتة ودائمة في المجتمعات البشرية «لأن في هذا التصور مخالفة صارخة لطبائع الاشياء ، وخروجا على السنن الكونية المألوفة منذ خلق الله الأرض وأهلها لان المرء مفطور بطبعه على حب التملك وحب الحرية ، والقوى دائما يحاول التسلط على الضعيف . وحب البقاء يدفع الضعيف على مقاومة القوى . ثم ان هناك اختلاف النزعات والمذاهب والاهواء ، فهذه الأسباب وغيرها لا تجعل نار الحرب تخبو ابدا .. فيوم السلام الذي يتحدثون عنه ، هو ذلك اليوم الذي تمحى فيه من الوجود هذه المذاهب والميول بين الامم والجماعات ، والتى افصح عنها أصحاب النظريات الاجتماعية المختلفة[٥]. وقد اشار الله الى ذلك بقوله : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» [٦] وقوله : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا»[٧].

يرى البعض ان الحياة بدون تدافع وتنافس وقتال تبدو رتيبة خاملة ، ولو افترضنا وجود المجتمع الذي لا يعرف الحرب ومدلولها وآلاتها ، فسيكون هذا المجتمع على الأرجح - ضعيفا ناعما ، قد فقد الشجاعة لفقد بواعثها ، ومع هذا يفقد القيم الذاتية للخير والشر والسلام والحرب . وبضدها تتميز الاشياء كما يقولون ، والنعيم الدائم والسلام الشامل يكون باعثا على المفاسد وداعيا الى الفجور والاعتداءات وهي بدورها قد تجر الى الحرب وتحطم السلام ، وعليه لن يكون ذلك اليوم الذي يسود فيه السلام وتنتفي الحرب الا اذا خرجت عن طبيعتها الاشياء[٨]، وتساوت في البشر النوازع والقوى والاهواء . وتحقق ما هو خيال وعاش الناس في جمهورية افلاطون في عالم ملائكى محض ، وهذا العالم مناف لارادة السماء التى تقول : «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم[٩] و(كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم)[١٠] .

لقد فشلت محاولات البشر منذ وجدوا في الحصول على عالم بلا حرب وقتال على كثير ما جربوا من نظريات وشرعوا من قوانين . ومن هنا يصبح العمل على الحد من طغيان الحروب وتحديد انتشارها والتخفيف من ويلاتها ، أجدر من تصور عالم خال من الحروب ، وعالمنا المعاصر بما يدور فيه من صراع حربي ودعوات للسلام وتشريعات متعددة للامم المتحدة خير برهان على ما نقول .

واننا لنعترف بأن الحرب كانت ولازالت المصدر الاكبر لشرور وآلام البشرية ، وانها والتهديد بها تبعث القلق في نفوس المواطنين ، لا سيما بعد أن تقدمت الصناعة الحربية وأصبح خطر الاسلحة الجديدة يصل أنى استعمل الى كل بيت في العالم . وأسباب الحروب كثيرة بعضها بسيط وبعضها معقد ، واصلها عند ابن خلدون : «ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منهما أحد عصبيته فاذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان احداهما تطلب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل وسبب الانتقام في الاكثر اما غيرة واما منافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تمهيده[١١].

والعرب البدو كغيرهم من البشر كانت لهم أهواء ونوازع تؤدي الى الاقتتال ، لا بل كان لقبائل البوادى العربية ظروف خاصة تجعل الحرب أمرا لا مناص منه ، ذلك ان الاحوال الاقتصادية والاجتماعية قضت بنظم معينة من الحروب تحقق الأهداف الاقتصادية الآنية وتتناسب مع الوحدة الاجتماعية «القبلية». ومع تكرار الحروب البدوية لم تعد نوعا من اللصوصية وانما نوع من الرياضة المحببة ، واحتل أبطال الحرب مرتبة رفيعة في نفوس القوم ، وحتى الاديان السماوية لم تمنع معتنقيها من القبائل من ممارسة رياضتهم المحببة[١٢]، وقد عبر الشاعر القطامى عن هذه النزعة اصدق تعبير بقوله :

اغرن من الضباب على حلال
وضبة انه من حان حانا
واحيانا على بكر اخينا
اذا ما لم نجد الا أخانا[١٣]

لقد افرزت الحياة القبلية سلوكا متغيرا ومتناقضا ، فالبدوى يتمتع بصفات الكرم والعفة والتسامح وحماية الجار ، وقد تدفعه هذه المنقبة الى قتل أخيه ، قال شاعرهم :

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا
وكان أبونا قد تجير مقابره[١٤]

وقد يظهر هذا البدوى على صورة مغايرة ومناقضة لا يؤمن جانبه من غدر ، فهذا شاعر يعيب على قبيلته الوفاء والعدل :

قبيلة لا يغدرون بذمة
ولا يظلمون الناس حبة خردل[١٥]

ولعل هذا التردد في مسلك البدوى انما جاء صدى لبيئته القاسية بما فيها من ضنك العيش وعداء الانسان والوحش ، مما جعل القوة والتفوق مثله الأعلى ومطلبه الدائم فقيمه في الحياة ، الشجاعة ، والكرم ، والغارة ، وقتل الفوارس أو جز نواصيهم ، فهو في هدوئه مثال الانسان وفي ثورته هياج الحيوان . وهذه الصورة تكاد أن تكون موضوع الشعر العربى في الجاهلية ، وكان الشعر بدوره قد تأثر بما تأثر به صاحبه فجاء منقبة يمثل طفرة عاتية من طفرات البدوى خلدته أبد الدهر وجعلته الاقوى في القول . والحرب وجه آخر من سلوك البدوى يذكيها القول ، وبها تفوق مع الدعوة الاسلامية . وقد صور عمرو بن كلثوم البدوى في طموحه وتردده بقوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا[١٦]

فالبدوى صورة فريدة نسيج وحدها طرزتها البيئة بمظاهرها المتغيرة ، والحياة القبلية بفرديتها ونزعتها الزائدة نحو الحرية . فأصبح انسانها مثلا للصفاء والكدر في آن واحد . قال بعض اصحاب الرسول ـ ص ـ «وددت أن لنا مع اسلامنا كرم اخلاق آبائنا في الجاهلية» الا ترى ان عنترة الفوارس جاهلى لا دين له ، والحسن بن هانىء اسلامى له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانىء دينه : فقال عنترة في ذلك :

واغض طرفي ان بدت لي جارتي
حتى يوارى جارتي مأواها

وقال الحسن بن هانىء مع اسلامه :

كان الشباب مطية الجهل
وتحسن الضحكات والهزل

والباعثي والناس قد رقدوا
حتى أتيت حليلة البعل[١٧]

والحروب القبلية ليست حروبا بالمعنى المتعارف ، وانما هي وقعات تتفاوت في حجمها من الصغيرة التافهة الى الكبيرة التى وان كبرت تبقى دون الحروب بزمنها ومحاربيها واسلحتها ، واسباب هذه الحروب تختلف باختلافها ، فللقبائل ثلاثة انواع من الحروب . الاولى حروبها التي تمثل العداء ما بين قبائل الشمال ـ العدنانية ـ وقبائل الجنوب ـ القحطانية ـ وثانيتها حروبها فيما بينها كقبائل او كتحالفات جمعتها المصلحة المشتركة او كبطون في قبيلة واحدة ، وثالثتها حروب القبائل مع الفرس والروم وهي أهمها واكبرها حجما واعظمها ذكرا وابلغها اثرا .

فالنوع الاول من الحروب سببته هجرة قبائل الجنوب نحو الشمال ـ مواطن العدنانين ـ وما تبعه من نزاع على مواطن الرعي ، ونظرا لكثرة عدد القبائل المهاجرة من الجنوب تداعت في بعض الاحيان قبائل الشمال الى وحدة لدفع هذا الخطر : ـ روى ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب : «لم تجتمع معد كلها الا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب ، وهم عامر ، وربيعة ، وكليب [١٨] وقد قاد هؤلاء جموع القبائل العدنانية ضد القبائل القحطانية ثلاث مرات ، وكليب وائل هو الذي ضرب فيه المثل فقيل : «أعز من كليب وائل» وهو الذي كان على رأس معد يوم خزاز [١٩]. وفي اسباب الحروب الداخلية بين القبائل اقوال كثيرة كلها فيه صحة ، فالاسباب تتعدد وتتنوع لتناسب طبيعة البدوى وتستجيب لنزواته وقد يقود كلام بين اثنين الى قتال ، تماما كما هو الحال في اريافنا الحالية وبوادينا وحتى في مدننا .

فان النار بالعودين تذكى
وان الحرب أولها الكلام[٢٠]

وليس من الصحة القول بأن اسباب هذه الحروب دائما الفقر والجوع ففي حياة البدوى ما هو أغلى وأثمن من الغنائم والمنافع الاقتصادية ، انه يقاتل من اجل ان تسود قيمه ومثله ، وتكون كلمته هي العليا ، فهو يرد بالقوة كل ما يعتبره ظلما او حدا لحريته . أو مسأ بشرفه او اعتداء على احد افراد قبيلته ، كما أن له غاراته للأخذ بثأره او نهب ممتلكات غيره كمعاملة بالمثل .

والنوع الثالث من الحروب سببه الضجر من السيطرة الفارسية والرومية على العرب في بلادهم . ويمكننا أن نقول ان هذه الحروب كانت تمثل نموا قوميا عند العرب وبداية في حركة عربية ترتبت عليها نتائج عظيمة .

وقد اطلق الرواة والاخباريون على وقائع العرب في الجاهلية «أيام العرب» ، وذكر ابن السكيت[٢١] ان الايام تعنى : «الوقائع والنعم» وانما خصوا الايام دون ذكر الليالى في الوقائع . لان حروبهم كانت نهارا فاذا كانت ليلا ذكروها ، وانشد :

ليلة العرقوب حتى غادرت
جعفر يدعى ورهط ابن شكل

والايام وقائع تاريخية وادبية لها طابع ميثولوجى من نوع خاص في تراثنا العربى ، فلليوم حديثه وبطله وشعره ونثره الخاص ، ونظرا لما أسبغ الرواة والاخباريون على الايام من مبالغات وخيال وما اضافه السمار من قصص واشعار وحركات ذهب البعض [٢٢] الى أن الايام ليست وقائع حقيقية وانما هي ملاحم خاصة بالعرب تشكل استمرارا للملحمة السامية التى شاعت من قبل في بلاد ما بين النهرين وغيرها من مواطن الساميين ، على نمط ملحمة جلجامش وايتانا والنسر ، والانوما اليش [٢٣] وغيرها . والحقيقة ان في قصص الايام مبالغة واضحة في وصف الاحداث وابطالها ، ولا عجب في ذلك فقد كانت الايام والى عهد قريب موضوع دواوين العرب واسمارهم ، وداخلها البناء العاطفي والقومى لتصبح اساطير وطنية وقومية على شاكلة أساطير الاغريق والرومان والشعوب القديمة ولكن الفارق بين اساطير العرب في الجاهلية ـ الايام ـ وبين اساطير الشعوب القديمة الأخرى . هو أن الحادث التاريخي في الملاحم العربية يشكل نواة

الاسطورة ، بينما الأخرون بنوا أساطيرهم على تطلعات قومية وعاطفية وحاجات شعبية خيالية . وبناء على ما تقدم لا يمكننا ان نقارن يوم ذي قار، او حرب الفجار ، او حرب بعاث ، بمغامرات جلجامش او ايتانا والراعي او بعض حوادث الاوديسا والالياذة ، ذلك ان الايام وقائع توالت واستمرت في الاسلام ، ومهما اصاب هذه الحوادث على ايدى الرواة والسمار ، لا يمكن انكارها كحوادث تاريخية .

وقد كان للجانب الاسطوري في حوادث الايام وما لقي من اهتمام الجمهور دورا في خلق هذا التصور المبالغ فيه لمجتمع العرب في الجاهلية ، انه مجتمع الحروب المستمرة مما اخفى عن أعين الدارسين الكثير من الظواهر الحضارية لعرب قبل الاسلام .. ومن هنا علينا ان نجد في جزء من الايام ما يشكل التاريخ ونضيف ما تبقى الى ما يصنعه عادة وجدان الأمة وما يسجله خيالها رغبة في تحقيق طموحات وآمال لم يكتب لها ان تتحقق في عالم الواقع ويرغبون في ان تحققها الاجيال[٢٤].

واذا ما توغلنا في الماضي سنجد ان الفكر الاسطوري والملحمي يكثر ويتنوع ، وهذه ظاهرة تاريخية عامة تتعلق بحياة البشرية ، فكأن الاسطورة والملحمة غذاء الشعوب في فترات حياتها الاولى لها فضل نموها واشتداد عودها ، وما هذا الفكر القومي الذي نراه عظيما متكاملا الا ثمرة من ثمار الفكر الملحمي والاسطورى الماضي .

لقد جاءت قصص الايام مرآة صادقة ، انعكس عليها حال العربي بما في حاله من خوالج . واظهرت ما له من صفات ومآثر تتمثل في الكرم والمروءة والوفاء وكل القيم والمثل العربية المعروفة في مجتمع العصر الجاهلي. وشخصيات تلك الايام الملوك والكهان والرؤساء ، وهذا يؤكد الصلة بالطقوس الاولى عند الساميين[٢٥].

وايام العرب كثيرة منها ما وصلتنا أخباره وكثير منها لم يصلنا عنه شيء ، وقد ذكر لأبى عبيدة معمر بن المثنى كتب في الايام اشار الى بعضها ابو منصور الازهرى[٢٦] ولهشام بن محمد السائب الكلبي (٢٠٤ هـ) تصنيف في الايام ، وقيل ان لأبي الفرج الاصفهانى صاحب كتاب الاغانى كتابين يضم اكبرهما الفا وسبعمائة يوم ، وكذلك نسبت كتب في الايام لأبي عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) ويونس بن حبيب (١٨٣هـ) ومحمد بن السائب الكلبي (١٤٦ هـ)، والامثال للمفضل بن سلمه ، والاصمعي والمفضل الضبي والهمدانى وغيرهم[٢٧].

واغلب الايام ليست وقائع حقيقية ، وانما هي مشاجرات فردية او خصومات كلامية ، او اقتتال بين جماعتين على طريقة أهل الارياف والبوادى في البلاد العربية في العصر الحاضر . ومن بين هذه الوقائع الصغيرة ما اسموه «يوم الظعينة» وهي قصة تدور حول ربيعة بن مكدم أحد الشعراء الفوارس في الجاهلية ، وانه قتل ثلاثة فرسان على التوالي ارادوا الاعتداء على ظعينته ثم أتاه دريد بن الصمه الفارس والشاعر المعروف ايضا ومعه جيش فضن به عن القتل نظرا لشبابه وشجاعته ، واعطاه رمحه بعد ان وجد رمح ربيعة قد كسر ، ثم تحفظ زوجة «ظعينة» ربيعة هذا الجميل لدريد بن الصمة ، وتتعرف عليه فيما بعد عندما وقع أسيرا في قومها – وكان ربيعة قد مات – فتكرمه وتطلق سراحه بعد ان ذكرت عمله لقومها يوم الظعينة[٢٨]. ويظهر من حديث يوم «الظعينة» أن رواة القبيلة ارادوا ابراز بطولاتهم وقوة فرسانهم من خلال فارسهم «ربيعة بن مكدم». ويتكرر اسم بعض الايام او ان بعضها أخذ اكثر من اسم[٢٩] مما زاد في عددها ، كما كان للشعراء دور في اشاعتها فأيام القبيلة هي مفاخرها ، قال عمرو بن كلثوم في ايام قومه :

وأيام لنا غر طوال
عصينا الملك فيها ان ندينا[٣٠]

وابرز ابو عبيدة الايام المشهورة بقوله : «كانت عظام أيام العرب ثلاثة : يوم كلاب ربيعة ويوم شعب جبلة ، ويوم ذى قار»[٣١]، وكان يوم الشعب لبنى عامر بن صعصعه وعبس حلفائهم على الحليفين أسد وذبيان ، ورئيسهم حصن بن

حذيفة يطالب عبسا بدم أبيه ، وتطالب عبس ذبيان وحلفاءها بدم ابيهم ، ولغاية الثأر كان هذا اليوم . أما يوم الكلاب الثانى «الشعيبة» فقد عقب يوم الصفقة «المشقر» حيث اوقع الفرس بتميم فطمعت بأموالها مذحج وقبائل الجنوب ، وعلم التميميون بما يراد بهم فتأهبوا لملاقاة مذحج واحلافها وكان لهم النصر مع ان الروايات جعلت جيش مذحج ثمانية الآف [٣٢] .

وحرب ذي قار هى اشهر حروب الجاهلية على الاطلاق ، واتفق المؤرخون على اعتبارها من احداث الجاهلية الخطيرة النتائج ، ذلك انها حرب بين العرب والفرس ، واول حرب ينتصر فيها العرب ، وكان من تأثيرها أن حدود الدولة الفارسية اصبحت هدفا للقبائل العربية ، كما ان قبائل الحيرة الموالية للفرس في العادة أخذت تتمرد على سادتها في احيان كثيرة ، ويمكن اعتبار نصر ذي قار (٦١٠ م) من العوامل التى شجعت العرب المسلمين على فتح العراق . وقد أشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النصر بقوله : «هذا اول يوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا» [٣٣] .

ومن الوقائع المشهورة عند عرب قبل الاسلام، أيام داحس والغبراء، ويوم البسوس، وحروب الفجار. وحرب داحس والغبراء كانت بين عبس وذبيان ابني بغيض من غطفان وكانت أسبابها النزاع على الرياسة ثم تفجرت بمناسبة سباق بين فرسين لزعيمى القبيلتين ، وقد اشتهر في هذه الحرب الفارس الشاعر عنترة بن شداد العبسى [٣٤] .

وحرب البسوس وقعت بين بكر وتغلب ابنى وائل واسبابها مشابهة لاسباب حرب داحس ، الا أن الذي فجر الحرب هنا هو قتل كليب بن وائل لناقة تدعى «سراب» للبسوس خالة جساس بن مرة زعيم بكر . وبطل هذه الحرب هو المهلهل شاعر وفارس تغلب والمطالب بدم أخيه كليب [٣٥] .

وسميت حروب الفجار بهذا الاسم لوقوعها في الاشهر الحرم ، وكان سببها قتل البراض الكنانى لعروة الرحال خفير لطائم كسرى الى سوق عكاظ ، وحماية كنانة وقريش للبراض ، فكان ان وقعت الحرب بين قريش وكنانة من جهة وهوازن واحلافها من جهة أخرى [٣٦]، والناظر في أيام العرب قبل الاسلام يجد ان اسبابها متعددة ، غير ان اكثر حروبهم كانت في سبيل الحفاظ على مثلهم وما يعتقدون انه حق وعدل وحرية وشرف ، ولم تكن الاسباب الاقتصادية الا كبقية العوامل ، وان المبالغة في وصف عرب الجاهلية بالجوع والجلافة فيه تجن على الحقيقة التاريخية [٣٧] .

فليس من الانصاف ان نستشهد ببعض ابيات من الشعر على رسم الحياة الكاملة للمجتمع العربي في الجاهلية لا سيما وأن الشاعر يمثل قبيلته المتغيرة ما بين اكرم المناقب واسوأ المثالب ، وهذه طبيعة الحياة البدوية فكما ان هناك شعرا يتحدث عن المثالب فهناك شعر كثير يذكر المناقب. ولم تكن الحرب محببة وانما كانت مفزعة وصورتها عند ابن الجاهلية لا تختلف عن الصورة التى يرسمها لها دعاة السلام في عصرنا ، وهذا زهير بن ابي سلمى أحد اصحاب المعلقات يصفها بقوله :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضرى اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم
كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم ما لا تغل لاهلها
قرى بالعراق من قفيز ودرهم [٣٨]

وتقول العرب : « الحرب غشوم لانها تنال غير الجاني » [٣٩] وقال الكميت [٤٠] :

الناس في الحرب شتى وهي مقبلة
ويستوون اذا ما أدبر القبل
كل بأمسيها طب مولية
والعالمون بذى غدونها قلل

وقال عمر بن الخطاب ـ ض ـ لعمرو بن معد يكرب : « أخبرني عن الحرب » فقال : مرة المذاق اذا قلصت عن ساق ، من صبر فيها عرف ومن ضعف عنها تلف وهي كما قال الشاعر :

الحرب اول ما تكون فتية
تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا استعرت وشب ضرامها
عادت عجوزا غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت
مكروهة للشم والتقبيل[٤١]

وهذا قيس بن زهير يصور شعوره من حروب قومه عبس مع ذبيان بقوله :

فيا ابنى بغيض راجعا السلم تسلما
ولا تشمتا الاعداء يفترق الشمل[٤٢]

ويقول فيها قيس بن الاسلت :

واستنكرت لونا له شاحبا
والحرب غول ذات أوجاع[٤٣]

وكان العرب اذا ما طالت الحرب يقولون لقحت الحرب ، وهذا ما يشير اليه الحارث بن عباد في أيام البسوس :

قربا مربط النعامة مني
لقحت حرب وائل عن حبال[٤٤]

وقد اتخذ العرب اساليب عدة لوقف الحروب فيما بينهم ، ونجحوا في تحريمها فترات من السنة ـ الاشهر الحرم ـ وبدأوا بتحريم شهر ثم أصبحت أربعة أشهر ، واستغلوا فترة السلم هذه في اقامة الاسواق العامة يتبادلون فيها السلع والافكار ، وفي الحق ان هذه الاسواق ـ بما كان يجرى فيها ـ تعد مأثرة من مآثر العرب قبل الاسلام ومحاولة لتحقيق الوحدة الاقتصادية والسياسية بين العرب وهي محاولات لم يحقق العرب مثلها في الوقت الحاضر بالرغم من فارق الزمن . ولما جاء الاسلام أقر اجراء العرب بتحريم القتال في الاشهر الحرم ، وحرم النسيء ـ وهو محاولة لتأخير او تقديم بعض الاشهر الحرم ـ قال تعالى : « انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا »[٤٥] ، وفي حياة الرسول ـ ص ـ العسكرية ما يشير الى حرصه ـ ص ـ على تحريم القتال في هذه الشهور ، ويشهد على ذلك موقفه من سرية عبدالله بن جحش الى نخلة ، فقد غضب على هذه السرية لقتالها في الاشهر الحرم[٤٦] .

والتشاؤم والتطير عند العرب يدور بمعظمه حول كره الحرب ، وسوء الانذار بها فربطوا بين اصوات بعض الحيوانات ، وبعض المناظر السيئة وبين قرب وقوع حرب . ويكفي أيام العرب فخرا انها فجرت ينابيع الشعر الغزيرة عند العرب وكان ان حفظ الشعر هذا الجميل فخلدها بدوره .

والحرب المحلية عند عرب القبائل نوعان ، الاول يسبقه نزاع وخصومات وتفشل الوساطات في حسم النزاع ، فيأخذ كل فريق بالاعداد للقتال ، والثاني تمثله الغارات والهجمات المباغتة وتكون الحرب في الحالة الاولى أكثر شدة وأطول زمنا وأكثر خسارة[٤٧] . وهذه الحروب لم تكن شيئا يذكر بالمقارنة بالحروب القديمة في الممالك العربية ، ولا بالحروب التي كانت تفرض على العرب من الخارج ، فمنذ العهد الاشورى وحتى الآن مازالت هذه المنطقة وبقية أجزاء الوطن العربي تغرى الغزاة الاقوياء وحسبنا دليلا هذا التنافس الذي نشهده بين الاقوياء على الوطن العربي[٤٨] .

وتفيدنا مصادر الجاهلية ، ان مجلس القبيلة كان ينعقد ـ وهو مجلس كان يضم زعماء البطون وغالبا ما يلتقي هؤلاء الزعماء في بيت شيخ القبيلة للتداول في الأمور التى تهم القبيلة أو بعض بطونها ـ لدارسة أمر القتال والتخطيط له . وتذكرنا هذه المجالس القبلية بمجالس الحرب في عصرنا . وتدلنا أخبار الأيام ان أهل الرأي والخبرة ـ حكيم أو حكماء القبيلة ـ كانوا يوجهون قومهم ويرشدونهم الى أفضل السبل لاحراز النصر أو دفع المهاجمين ، وعن هذه الآراء الصادرة عن أهل الحنكة والتجربة كان القوم في الغالب يصدرون . وغالبا ما كان هؤلاء الحكماء هم فرسان القبيلة القدامى ، والذين تمنعهم

الشيخوخة والعجز عن المشاركة في القتال . ومن هؤلاء من كان فارسا وشاعرا وصاحب رأي من أمثال ربيعة بن مكدم ودريد بن الصمة ، والحارث بن شريك « الحوفزان » وعتيبة بن الحارث اليربوعى وبسطام بن قيس وزهير بن جذيمة العبسى وعامر بن الطفيل وأبو براء ملاعب الاسنة وغيرهم ، وممن عرفوا بالحكمة وقوة الرأي في الجاهلية اكثم بن صيفى الذي كان قومه يفزعون اليه عند الشدائد[٤٩] . ومن وصايا اكثم بن صيفى لقومه يوم شعب جبله قوله :

« اقلوا الخلاف على أمرائكم ، واعلموا ان كثرة الصياح من الفشل والمرء يعجز لا محالة تثبتوا فان احزم الفريقين الركين . ورب عجلة تعقب ريثا ، واتزروا للحرب وادرعوا فانه اخفى للويل ، ولا جماعة لمن اختلف عليه »[٥٠] .

وأبطال الايام كائنات موضوعية تستمد صفاتها من المثل العربية . وقد استخرج رينولد نيكلسن نموذجه من قصيدة « الشنفرى » وهي لامية العرب أو نشيد الانتقام ، ومن شعر تأبط شرا ، وبخاصة قصيدته الكافية[٥١] .

والبطل العربي رجل تكاملت فيه الصفات ، كالشجاعة والقوة ، والشعر ، والحرب والحكمة ... هكذا جعله خيال قبيلته فأصبح أسطورتها ، وهذا يعزز ما ذهبنا اليه من قبل ، وهو أن الاسطورة عند الآخرين تخلق بطلها ، بينما نمت الاسطورة العربية انطلاقا من الابطال الحقيقيين رموز القبيلة .

ويرى بعض المصنفين القدامى ان مما ساعد على ذلك أن العرب « اعينوا بالفصاحة التى ايدوا بها والبلاغة التى فاقوا الامم لفضلها فنطقوا بكل طريفة عجيبة وفاهوا بكل مستحسنة غريبة كثروا بها القليل وعظموا بها الصغير وفاقوا بها من جاء بعدهم وقدروا من جواهر الكلام وغرائبه ونظمه ونثره على ما لا يقدر عليه سواهم فجاءت أشعارهم وخطبهم وأحاديثهم ومحاوراتهم وسيرهم وأمثالهم وكلما نقل عنهم بالفاظ عليها رونق وطلاوة ولها في الاسماع والقلوب عذوبة وحلاوة فانصت اليها السامع استغرابا وتطلعت اليها نفسه استطرافا واستحسانا فقالوا : ما شاء وتبعهم الناس عليه[٥٢] وجعل العرب قادتهم من تكاملت فيه الاوصاف فأولوهم ثقتهم وأخذوا بقول الحكماء من العجم « اسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد ، فلا ينبغى ان يقدم الجيش الا الرجل ذا البسالة والنجدة والشجاعة والجرأة ثابت الجأش صارم القلب صادق البأس »[٥٣] .

وعرف عرب القبائل الألوية والرايات وكانوا يعتبرونها رمزا مقدسا يجب الحفاظ عليه والدفاع عنه وفي ذلك قال النابغة الذبياني[٥٤] :

لهم لواء بكفي ماجد بطل
لا يقطع الخرق الا طرفه سام

وقد تنافست بطون قريش على اللواء ، كل بطن يريد أن يكون حمل اللواء فيه ، يعتبرون ذلك منقبة وعلامة شرف وسيادة ، وكان شريف القوم هو الذي يحمل اللواء عند الحرب[٥٥] . وقد توضح حرص العرب على حفظ الراية مرفوعة في الحرب في غزوة مؤتة ، حيث كان القائد يحفظ الراية بيده السليمة اذا أصيبت الأخرى . ثم كان أول ما يعمله الجند اذا سقط حامل اللواء ، هو رفع اللواء « الراية »[٥٦] .

وقد اختلف في اصل اللواء أو الراية عند العرب . فقائل انهم اقتبسوها من الروم ، وآخر يقول بأن الاقتباس كان من الفرس[٥٧] .

ولقائد الحرب او شيخ القبيلة حقوق وامتيازات جمعها الشاعر عبدالله بن عنمة في البيت التالي :

لك المرباع منها والصفايا
وحكمك والنشيطة والفضول[٥٨]

والغارة والغزو أكثر الظواهر الحربية عند القبائل العربية ، فهو هجوم يشنه فرسان القبيلة أو بعضهم على القوم المقصودين بغتة ، جاهدين ان لا يعلم بخبرهم حتى تحصل المباغتة وينتقم المهاجمون لانفسهم أو يسلبون الأموال ويسلبون النساء ويأسرون الرجال المشهورين طمعا في الفدية[٥٩] .

والغارة والغزو ، ظاهـرتان تنـاسبان طبيعـة التـركيب الاجتماعى للقبيلة ، اذ لم يكن للقبيلة جيش أو كتيبة وإن ما ورد في شعر الجاهلية من ذكر للجيش أو الكتيبة انما كان يقصد به جيش الحواضر وبخاصة جيوش الفرس والروم وكتائب الحيرة ، ذلك ان مجتمع القبيلة بتكوينه وظروفه واقتصاده لا يسمح بتكوين جيش دائم ، ومن هنا كان كل قادر على حمل السلاح في القبيلة مقاتلا يـذود عن قبيلته مـدافعا واذا استـدعى للغارة فمغيرا ، وهذا الوضع هو الذي اعطى قيمة أكبر للذكر من الانثى وصور القرآن هذه الحالة بقوله : « اذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كـظيم ، يتـوارى من القـوم من سـوء مـا بشر به .. »(٦٠) .

وحتى تكون الغارة ناجحة لابد من توفر عناصر النجـاح المتمثلة بعدد محـدود من الفرسـان ، والاستـطلاع الدائم لجمـع الاخبـار عن العـدو وأفضـل الطرق الواجب سلوكها ، ثم السـريـة التامة في التجهيز ، واختيار الوقت الافضل للغارة التي تحقق الهـدف ، ومـا يتبـع ذلك في بعض الحالات من تمويـه وحيل وخـداع وتظاهـر بغير الحقيقـة المطلوبـة وفي المباغتـة يقـول المرقش الأكبر :

فـمـا شـعـر القـوم حـتـى رأوا
بيـاض القـوانس فـوق الغـرر(٦١)

وقال عنترة :

ومـا نـذروا حتى غشينـا بيـوتـهم
بـغيبـة مسبـل الودق مـزعف(٦٢)

وقد اشتهر في الجاهلية وفي صـدر الاسلام ، لصـوص ، أو صعـاليك أو خلعـاء تخلت عنهم قبائلهم ، فلجأوا الى البرارى ، وأخذوا يغيـرون على املاك الغير أو يعترضون المارة ، في غـارات سريعة .. ويمكن ان يقال ان طبيعة بلاد العرب ودواعى العيش فيهـا ثم مـا تمثله مـن تـطور اجتماعى كانت عوامل كلهـا تصنع فن الحـرب والفروسية ، ممـا اعطى الاسـلام جيلا منحتـه الطبيعة ميزات قتـالية تفـوق بها عـلى الجيوش الجرارة المعاصرة .

لم تكن المرأة والصبيان بعيدين عن المعركة اذا وقعت فكل له دوره يقاتـل حسب طاقته ذلك ان ادوات القتال تبدأ بالعصى والخناجر والحجارة الى السيوف والرماح والفؤوس والنبال . انهـا حالة ثـورة عاصفـة تقتلع كل مـا يصادفهـا ، ولكنها سرعان ما تمر وتعود الاحوال الى ما كانت عليه . ولم تكن القبائل تملك القدرة على مواجهة الجيوش النظامية لانها لم تتعود الحروب الطويلة والخطط الموجهة ، لذلك سرعان ما كانت القبـائل تهـرب وتـتحـرز في الصـحـراء ثم تـبـاشر الغـارات والغزوات(٦٣) .

ونـظرا لطغيان الغـارات والمغازى في حـروب الجاهلية نجد ان حروب الرسول ـ ص ـ سميت مغازى وسرايا ، وكانت مغازى الرسول ـ ص ـ وسراياه تعتمد عناصر النجاح التى ابتكرها عرب الجاهلية ، كما كانت هذه المغازى تتميز بالعـدد المحدود لتسهل عليها الحركة والمناورة . سأل عمر بن الخـطاب ـض ـ أحـد بني عبس: «كم كنتم يوم الهباءة؟» فقال: «كنا مـاية كـالذهب لم نكثر فنتواكل ولم نقل فنذل ـ قال : فكيف كنتم تقهرون من ناوأكم ولستم بأكثـر منهم عددا ولا مـالا ؟ قال : كنا نصبر بعد اللقاء هنيهة ، قال : فلذلك قيـل لعنترة العبسى : « كم كنتم يـوم الفروق ؟ قال : كنا مائة لم نكثر فنفشل ولم نقل فنذل » .. وكان يقال : « النصر مع الصبر »(٦٤) . وقد اشاد شعراء الجاهلية بالمباغتة ، وتشير هذه الاشعـار الى أن أنسب وقت للغارة هو الصبـاح الباكـر ، يقول المعقر بن أوس بن حمار البارقي حليف بنى نمير بن عامر(٦٥) :

وصـبـحـهـا امـلاكهـا بـكـتـيبـة
عليهـا اذا امست مـن الله نـاظر

وقال :

صبحـنـاهم عـنـد الشـروق كتـائـبـا
كـأركـان سـلمى شـبـرهـا متـواتـر

وأما النوع الثـاني من الحروب القبلية انما

تكون بتزايد أسباب العـداء ، وأشهار العـدواة وفشـل سفارات الصلح واتخـاذ العـدة للقتـال والتـواعد عليهـا ، وحتى هذه الحـرب لا تخرج بفنـونهـا عن الغـارات والمغـازى ، اللهم الا في المواجهة المتفق عليها ، ثم حصول المبـارزة قبل التحـام الفريقـين واستخـدام جميـع الاسلحـة المعـروفة عنـدهم ، كالسيف والرمـح والحربـة والنبـال ، وأسلحـة الدفـاع مثـل الدروع والبيضات ، والدرق أو التروس ، واتباع نوع من التعبئة يعتبر مقدمة لنـظام التعبئة الخمـاسي ، وأسلوب الكـر والفر حسب مـا تقتضيـه ظروف المعركة . كما ان هذا النوع من الحروب يكون في الغالب أشد وأقسى من الغارات ، فيكثر الجرحى والقتلى بالنسبة للحروب الاولى ، وفي الغالب يكون القتال بين مجموعات من القبائل اتفقت مصالحها وتحالفت فيما بينها ضد تحالفات أخرى[٦٦] .

يصف ابن خلدون أسلوب الكر والفر بقوله : « أما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة ولامن الهزيمة ما في قتال الزحف الا انهم قـد يتخذون وراءهم في القتال مصافا ثابتا يلجأون اليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف .. ومن مذاهب اهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكـرهم من الجمـادات والحيـوانـات العجم فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرهم وفرهم يطلبون ثبـات المقـاتلة ليكـون أدوم للحـرب وأقـرب للغلب .. »[٦٧] .

كان قتال العرب يعتمد على المهارة الفردية في استخدام السلاح والمناورة على ظهور الخيل أو القوة الجسدية مشاة وفرسانا ، وقد بلغ اتقانهم هذا الفن درجة تبعث على الاعجاب ، وقـد بالغ الشعراء في رسم صور فرسانهم ومقاتليهم وهم يمارسون هوايتهم هذه بفن وشجاعة[٦٨] .

وكان التحريض وتشجيع المقاتلين يلعب دورا بارزا فى تحقيق النصر وبخاصة اذا كان التشجيع يأتى من المرأة فهى رمز القوة المعنوية يستلهمها الرجل فى ساعات الشدة والضيق[٦٩]. وللشعـر سحره فى الاثارة اذا غنتـه النساء، ولهـذا الجو المثير يدين الشعر الجاهلى فى حيويته وعظمته.

ورغم ان الحرب كانت تجرى على غـير نظام متبع، لم يهمل العـرب الحيلة والخدعـة واذكاء العيـون والكمـائن والتحـرز واهتبـال الفـرص، يتمثلون قـول الحكماء: «انتهـز الفرصـة فانهـا خلسة وثب عند رأس الأمر ولا تثب عند ذنبـه، واياك والعجز فانه أذل مركب والشفيع المهين، فانه اضعف وسيلة.[٧٠] وقـد استخدم العـرب فنهم الحربى حتى حصلوا على النصر فى ذى قار، كما يبرز فنهم بالحيلة والمباغتة فى يوم جبله والمشقر والكلاب..[٧١] الخ.

وقد اقر الرسول ـ ص ـ الخدعـة فى الحرب واثنى على الرمى بقوله: «الحـرب خدعـة»[٧٢] ، وقـوله : واعـدوا لهم من قـوة ، الا أن القـوة الرمى .. الا أن القـوة الرمى .. الا أن القـوة الرمى[٧٣] ومن امثـالهم: «رب حيلة انفـع من قبيلة[٧٤]. قد اخذ عرب الجاهليـة بما يسمـونه اليوم «الحرب النفسيـة» ومن قبيل ذلك قيـامهم بالفتك فى اعدائهم اذا تمكنوا منهم، واشتهر منهم من دعى من الفتاك[٧٥]، كما استمر هذا الاسلوب الحربى فى الاسلام، فكان فيه من دعى من فتاك الاسلام[٧٦]، وربما يجسـد هذا الاسلوب قـول الرسول ـ ص ـ «نصرت بالرعب مسيرة شهر[٧٧]. وتحرص الدول فى عصرنا على الأخذ بهذا المبدأ الحـربى، وتمارسـه الصهيونيـة العالميـة ممثلة باسرائيل فى حروبها مع العـرب[٧٨]. واستخدم اهل الجاهلية فى حروبهم الجاسوسية، واشترك الرجال والنساء فى جمع الاخبار وتزويد اقوامهم بها، كما استخدموا الرمزية فى توصيل اخبارهم وانذار اقوامهم[٧٩]، وقد ذهب محقق كتاب ايام العرب لابى عبيدة الى ان هذه الرمزيـة مظاهـر ملحمية واسطورية استخدم الانسان فيها المجاز للاحتماء بأحضانه غير ان المجاز والرمزية ظواهر ملازمة للعربية وبرهان على قدرتها، وهى حقائق واقعية فما زال اعراب عصرنا مع ما اصاب لغتهم من بعد ـ يستعملونها فى بعض المناسبات حتى لا يفهم السامع ما يقصدونه.

ان الادب الجاهلى ليبرز الصفات المثلى للمقاتل والتى بهـا يحـرز النصر، فـالصبـر والجـلد

والشجاعة، تتكرر على السنة الشعراء والخطباء والحكماء.

يقول ابن خلدون فى توضيح هذا المعنى: «واهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب، فاتحون عن انفسهم لا يكلونها الى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب فى الطرق.. ويتوجسون للنبآت والهيعات، ويتفردون فى القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داع او استنفرهم صارخ»(٨٠).

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم
دون النساء ولو باتت باطهار(٨١)

وكان المقاتلون يرسلون امامهم ربيئة ـ الذى يستطلع ـ ليتعرف اخبار العدو، ويخبرهم بها، بالاشارة او المباشرة، وكان يختار من اذكى الافراد واشدهم جرأة واقدرهم حيلة واحدهم نظرا، وكان الربيئة مجالا للفخر، فهذا ربيعة بن مقروم يقول:

ومربأة اوفيت جنح اصيلة
عليها كما اوفى القطامى مرقبا(٨٢)

وكان الدليل والربيئة «يعطيهم اشارة يحدد لهم مكان القوم، فيأخذ رجال القبيلة بالاستعداد للهجوم والغارة على الخيل ويتركون الابل فى رعاية حراس مخصوصين،

قال الاعشى:

حتى اذا لمع الدليل بثوبه
سقيت وصب رواتها اشوالها
فكفى العضاريط الركاب فبددت
منه لأمر مؤمل فأجالها(٨٣)

وهناك نصوص تفيد استخدام المسلمين للحسك فى حروبهم فى احوال الحصار ـ او منع جندهم ـ من التراجع بوضع الحسك خلف المقاتلين، والاصل فى الحسك نبات شوكى يعلق بارجل الخيل والابل والمقاتلين فيعوق الحركة، ويعتقد ان عرب قبل الاسلام عرفوا أهمية هذا السلاح فاستخدموه لسد بعض الطرق على الاعداء واعاقة سيرهم او رمية خلف المقاتلين حتى لا يتراجعوا، وليس لدينا نصوص تفيد ان عرب قبل الاسلام استخدموا الحسك الصناعى من الخشب او الحديد كما حدث فى العهد الاسلامى(٨٤).

وتتلخص نتائج الحرب فى الحصول على الغنائم التى تتكون من سلب المقاتلين والمواشى والمتاع والاسرى من الرجال والسبايا من النساء والذرارى، علاوة على الجرحى والقتلى، ويفخر عرب الجاهلية بالنصر واسر الملوك والانتقام، فهذه النتائج المعنوية اعظم فى نظرهم من الغنائم المادية فهذا عمرو بن كلثوم يقول:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا
وأبنا بالملوك مصفدينا(٨٥)

وتقسم الغنائم بين المقاتلين بالتساوى فرسانا ومشاة، بعد ان يأخذ الرئيس منها حقه واما السلب فللسالب، ويتنافس الفرسان على اسر المشهورين والقادة والرؤساء من الطرف الثانى طمعا فى فديتهم، وقد بالغت الروايات فى بعض الفديات، فقيل ان وبره بن رومانس افتدى نفسه من يزيد بن الصعق بألف بعير، وان حبيش بن الدلف افتدى نفسه من ابى براء باربعمائة بعير فى يوم القرينين، وافتدى بسطام بن قيس الشيبانى نفسه من عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعى بعد ان اسر يوم الغبيط بألف بعير وثلاث افراس وهودج امه وحدجها «ما يوضع على الابل من اجل الركوب»، وقيل باربعماية بعير، وبعضهم كان يفتدى نفسه بعدد اقل من الابل، وذلك حسب وضعه الاجتماعى والاقتصادى(٨٦).

وفى حالات كثيرة كان الآسرون يفضلون اطلاق سراح الاسرى بدون مقابل، ولهم فخر فى ذلك، وبعضهم كان يجز ناصية الأسير ـ ان كان من الفرسان ـ ثم يطلقه وفى هذا دلالة على تفوق الآسر على أسيره وفضله عليه، وتحذير له ان لا

يعود الى قتاله قال شاعرهم يفتخر باطلاق الاسرى وصون السبايا:

كم من اسير فككناه بلا ثمن
وجز ناصية كنا مواليها[٨٧]

ومن فخر الخنساء قولها:

جززنا نواصى فرسانها
وكانوا يظنون الا تجزا
ومن ظن ممن يلاقى الحروب
بالايصاب فقد ظن عجزا[٨٨]

والجبن والفرار ووقوع النساء فى الأسر من المعايب الشديدة على البدوى، ومثلبة يشهر بها الشعراء ويشمت بها الخصوم، ولذلك كانوا يحرصون على حماية النساء والذرارى فى اماكن صعبة المسالك خلف المقاتلين. ومن السبايا التى تغنى بها الشعراء وافتخروا العذارى الجميلات، بنات الرؤساء او زوجاتهم ومما جاء فى شعرهم:

وأوانس مثل الدمى
حور العيون قد استبينا
عذارى يسحبن الذيول كأنها
مع القوم ينصفن العضاريط ويرب
انا تركنا منكم قتلى وجر
حى وسبايا كالسعالى
او حرة كمهاة الرمل قد كبلت
فوق المعاصم منها والعراقيب
وسبينا من تغلب كل بيضاء
كنور الضحى برود الرضاب[٨٩]

وكانت السبايا تفتدى في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى تستملك أو تقتل وفي أحيان يطلق سراحهن دون فداء[٩٠].

واما القتلى فهم سبب استمرار الحروب القبلية، لان كل قبيلة تحرص ان يكون قتلاها اقل من قتلى الطرف المعادى، ولذلك يجهدون فى القتال والغارة حتى يتساوى عدد القتلى، والتقصير فى ذلك عندهم عار ومثلبة، ويصعب على دعاة الصلح بين الاطراف المتحاربة ان ينجحوا فى مساعيهم فى حالة عدم تساوى القتلى. وقد يضطر وسطاء الصلح ان يدفعوا دية الزائد من القتلى لقومهم، والاصلاح حالات تتكرر فى الجاهلية تكرر الحروب. واشهر وسطاء الصلح الذين اشارت اليهم الاشعار، هرم بن سنان، والحارث بن عوف اللذان اصلحا بين عبس وذبيان فى حرب داحس وتحملا ديات القتلى، واثنى على فعلهما الشعراء وبخاصة زهير بن ابى سلمى فى معلقته التى جاء فيها:

يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[٩١]

هؤلاء هم عرب الجاهلية فى حروبهم، وهم المسلمون الذين حملوا لواء الفتوح وحققوا فى فترة وجيزة ما لم يحقق غيرهم. لذلك علينا ان نبحث عن عناصر الفن الحربى التى مكنت المسلمين من النجاح، عند هؤلاء الجاهلين الذين اسىء اليهم، ونظر اليهم من خلال سلبياتهم، دون ان تؤخذ ايجابياتهم الاكثر بعين الاعتبار فساهم المتحاملون على عرب قبل الاسلام كالشعوبية فى تشويه الجاهلية[٩٢] مع ان المعنى اللغوى للجاهلية لا يفيد الجهل الذى هو ضد المعرفة وانما يفيد الخروج عن الحلم الى العصبية والحمية فى بعض الحالات كما هو واضح فى قول عمرو بن كلثوم.

الا لا يجهلن احد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا[٩٣]

وهذا ما يستفاد من قوله تعالى: «اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية[٩٤]».
صدق الله العظيم

★☆★☆★☆★☆★

الهــوامش

١ ـ حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، مصر ١٩٦٩م ـ ص : ٨٧ .
٢ ـ المائدة : ٣٠
٣ ـ حسين مؤنس ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد : ٢٠ عام ١٩٨١ ، ص : ١٩٧
٤ ـ انظر عبدالرؤوف عون ، الفن الحربي في صدر الاسلام ، دار المعارف ، مصر ١٩٦١ ، ص :٦٤
٥ ـ ن. م.
٦ ـ البقره : ٢٥١
٧ ـ الحج : ٠٤٠
٨ ـ الفن الحربي : ٦٤ .
٩ ـ هود : ١١٨ ـ ١١٩ .
١٠ ـ البقرة : ٢١٦ .
١١ ـ المقدمة ، من الفصل السابع والثلاثين ، طبعة مصطفى محمد ، بلا تاريخ ، ص : ٢٧١ .
١٢ ـ انظر فيليب حتي وزميليه ، تاريخ العرب المطول ط ٤ مطابع الغندور ، ١٩٦٥ ، ٣١/١ ، احمد أمين ، فجر الاسلام ، مصر ١٩٦٥ ، ص : ٩ .
١٣ ـ ن. م .
١٤ ـ المبرد ، الكامل ، تحقيق د. زكي مبارك ، ط ١ ، مصر ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م ، ٣١٣/١ .
١٥ ـ الفن الحربي ، ٣٤ .
١٦ ـ الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، بيروت ١٩٧٨ ، ص : ١٠٢ .
١٧ ـ انظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، مصر ١٩٥٣ ، ٢/٦ .
١٨ ـ ن. م. ٥٩/٦ .
١٩ ـ عادل البياتي ، ايام العرب لابي عبيده ، بغداد ١٩٧٦ ، ٢٧٨ ، العقد الفريد ، المرجع السابق .
٢٠ ـ ابن قتيبه الدينوري ، عيون الاخبار ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية لعام ١٩٢٥ ، ١٢٨/١ . في اسباب الحروب ، ينصح بالرجوع الى مصادر الايام مثل : «الاغاني لابى الفرج الاصفهاني ، وايام العرب لابى عبيدة معمر بن المثنى ، ونقائض جرير والفرزدق ، والعقد الفريد ، وشرح المفضليات لابن الانبارى وشرح الحماسة للتبريزى . والامثال للميداني ، والعمدة لابن رشيق ، وخزانة الادب للبغدادى ومعاجم ودواوين الشعر ، والكامل لابن الاثير ونهاية الارب للنويرى ، وبلوغ الارب ، للالوسي ، وايام العرب لجاد المولى وزميليه » .. انظر ايضا المراجع الحديثة التالية عن احوال العرب وحروبهم .

Andreas N. Strabos, ''Byzantium in the seventh century'' Vol. 1, Trans. by Marc Ogilvie- Grant, Amstrdam, 1968.

م . ج. كستر ، الحيره ومكة وصلتهما بالقبائل العربية ، ترجمة يحيى الجبورى ، بغداد ١٩٧٦ . ونورى القيسى ، الفروسيه في الشعر الجاهلي ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ٧٧ وما بعدها .
٢١ ـ لسان العرب ، مادة (يوم) انظر ايضا دائرة المعارف الاسلامية (ايام العرب) والبياتى ، ايام العرب لابى عبيدة ص ٦٦ وما بعدها ، والاب شيخو ، شعراء النصرانية ، ص : ٢٥٩ ، والنقائض ص : ٥٨٠ «طبع اوروبا» والعقد الفريد ، ٣٣٧/٣ ، ابن الاثير ، الكامل ٣٧٣/١ ، وجاد المولى وزميليه ايام العرب ١٩١/١ .
٢٢ ـ البياتي : مقدمة تحقيق كتاب ايام العرب لابى عبيدة .
٢٣ ـ حول الملاحم السامية ، انظر كتاب الاساطير في بلاد ما بين النهرين ، طبع وزارة الثقافة بغداد ١٩٦٨ ، وكتاب اوغاريث للشيخ نسيب وهيب الخازن ، بيروت ١٩٦١ ، والحضارات السامية القديمة ، موسكاتى ، ترجمة يعقوب بكر ص : ٨٢ ، وما بعدها ، ومحمد عبدالمعيد خان ، الاساطير العربية قبل الاسلام ، مصر ١٩٣٧ . ومقدمة ايام العرب لابى عبيدة .
٢٤ ـ انظر دائرة المعارف الاسلامية (يوم) .
٢٥ ـ انظر النويرى ، نهاية الارب ، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٩م ٣٣٨/١٥ ، والبياتى ، المرجع السابق ، ص : ٧ وما بعدها
٢٦ ـ تهذيب اللغة (المقدمة) ص : ١٤ ابوعبيده ، ايام العرب ص ١٩
٢٧ ـ ابوعبيدة المرجع السابق ، كشف الظنون ٢٠٤/١ ، ابن النديم ، الفهرست ، ط خياط ، بيروت ، المقالة الثانية ص : ٣٩ وما بعدها. انظر ايضا مصادر الايام السابقة .

٢٨ ـ ابوعبيدة ، ٢٥ ، العقد الفريد ١/٨٣ ، ٣/٨ ، ٦/٣٩ ـ ٣٠ تعرض ابو البقاء هبة الله لتقييم حروب قبل الاسلام في كتابه (المناقب المزيديه في اخبار الملوك الاسدية) مخطوط تحت التحقيق المتحف البريطاني رقم ٢٣, ٢٩٦ الورقات ٧٠ وما بعدها ، ونهاية الارب ١٥/٣٧٠ .

٢٩ ـ انظر مصادر الايام السابقة ، فيوم طخفة هو ايضا يوم ذات كهف ويوم خزاز ، ويوم المروت ، هو يوم « ارم الكلبة » ويوم الهباءة وهو يوم الجفر ، ويوم الشعيبة هو يوم الكلاب الثاني ، ويوم اعيار هو يوم النقيعة ، ويوم الصرائم هو يوم الجرف ، ويوم السوبان هو يوم ملزق ، ويوم الصفقة هو يوم المشقر .. الخ « انظر العمدة لابن رشيق ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٢ ، ٢/٢٠١ وما بعدها .

٣٠ ـ انظر الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ٩٨ .

٣١ ـ الاغاني ١١/١٣١ ، العمدة ٢/٢٠٣ .

٣٢ ـ ابن الاثير ١/٣٧٩ .

٣٣ ـ انظر تاريخ الطبري « طبع دار المعارف ٢/١٩٣ » ، ابو عبيده ، الايام ١/٨٩ . ونهاية الارب ١٥/٤٣١ . .

٣٤ ـ انظر خبر هذا اليوم في مصادر الايام السابقة . وقارن بما كتبه البياتي عن اسباب هذه الحرب في كتابه : « الشعر في داحس والغبراء » بغداد ١٩٧٠م ص ٧٣ وما بعدها .

٣٥ ـ انظر ابن الوردي ، تتمة المختصر في اخبار البشر ، تحقيق احمد رفعت البداري ، بيروت ١٩٧٠ ، ١/١٠٥ ، انظر ايضا مصادر الايام السابقة . .

٣٦ ـ انظر المنمق في اخبار قريش لمحمد بن حبيب ، تحقيق خورشيد احمد فاروق ط ١ ، الهند ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م ، ص :١٨٦ ، العمده ٢/٢١٨ .

Byzantuim. (Ibid) p 17.

٣٧ ـ كستر ، الحيرة ومكة ٤٢ ـ ٤٣ ، فجر الاسلام ، الباب الاول ، حتي وزميليه ، تاريخ العرب المطول ١/٣١ ، وما بعدها . .

٣٨ ـ الاعلم الشنتمري ، شعر زهير بن ابي سلمى ، تحقيق فخرالدين قباوة ، حلب ١٩٧٠ ، ص : ١٤ـ١٥ ، الزوزني ، ٦٥ـ٦٦ .

٣٩ ـ عيون الاخبار ١/١٢٧ .

٤٠ ـ شعر الكميت ٢/٤٣٢ ، بغداد ١٩٦٩ ، عيون الاخبار ن .م .ص ، العقد الفريد ١/٦٨ .

٤١ ـ عيون الاخبار ، نفسه ، الشعر والشعراء ، طبع ليدن ، ١٩٠٢ ، ٢٢٠ ، ومروج الذهب للمسعودي ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، مصر ١٩٦٤ ، ٢/٣٣٤ .

٤٢ ـ أبو عبيدة ، أيام العرب ٣٢٢

٤٣ ـ ن . م .

٤٤ ـ ابو عبيدة ، أيام العرب : ص ـ٢٤٧ .

٤٥ ـ التوبة : ٣٧ .

٤٦ ـ سيرة بن هشام ، تحقيق السقا وزميليه ، مصر ١٩٥٥ ، ١/٦٠٣ ، مغازي الواقدي ـ طبع مارسيدن ١/١٦ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٧م ، ٢/١٠ ، وقارن مع عون ، الفن الحربي ٥٨ وما بعدها .

٤٧ ـ علي الجندي ، شعر الحرب ، بيروت ١٩٦٦ ، ٣٤ .

٤٨ ـ انظر رضا جواد الهاشمي ، الجوانب العسكرية والعلاقات السياسية في تاريخ العرب القديم للألف الاولى قبل الميلاد بحث قدم للمؤتمر العلمي الاول لجمعية المؤرخين والآثاريين في العراق ١٩٨١ ، المقدمة . .

٤٩ ـ انظر حكام العرب ، محمد بن حبيب ، المحبر « رواية ابي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، بيروت ص : ١٣٢ وما بعدها ، الا لوسي بلوغ الارب ، مصر ١٣٤٢هـ ، ١/٣٠٨ وما بعدها ، ٢/١٢٤ وما بعدها .

٥٠ ـ النقائض لابي عبيدة تحقيق الصاوي ، مصر ١٩٣٥ ، ١/١٣٦ ، عيون الاخبار ١/١٠٨ .

٥١ ـ **Nicholson, R. "Aliterary history of Arabs, London, 1914. P. 136**

انظر البياتي في مقدمة كتاب الايام لابي عبيده ص : ٣٣٩ .

٥٢ ـ المناقب المزيدية ، مخطوط ، الورقات ، ١٧٠ ، ٧٠ب .

٥٣ ـ الابشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، دار احياء التراث العربي ، الطبعة الاخيرة ١/٢١٦ ، وانظر ما قيل في قيادة الجيش في الباب العاشر من القسم الخامس من الفن الثاني من كتاب نهاية الارب للنويري ٥/١٥١ وما بعدها انظر الاشعار التي تعدد مناقب القائد على سبيل المثال : دالية دريد بن الصمة في رثاء اخيه عبدالله ، مجموع اشعار العرب ، دار وليم بن الورد البروسي ، بيروت ١٩٨١ ، ص : ٢٣ وما بعدها .

٥٤ ـ العقد الثمين لندن ١٨٧٠م ص :٢٨ ، على الجندى ، شعر الحرب ١٧٥ .
٥٥ ـ انظر عبدالرؤوف عون ، الفن الحربى ٧٥ .
٥٦ ـ سيرة بن هشام ٢/٣٧٨ ، مغازى الواقدى ٢/٧٥٥ وما بعدها . .
٥٧ ـ ابن الاثير ٢/١٥٣ ، تاريخ ابن خلدون ، طبعة الامير شكيب ارسلان ٢/٣١٢ ، الفن الحربى ٨٢ وما بعدها . .
٥٨ ـ انظر كتاب المعانى الكبير فى أبيات المعانى ، لابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ت ٢٧٦ ، الهند ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩ ، ٦/٩٤٨ ، انظر ايضا الفن الحربى ٥٥ـ٥٧ .
المرباع : اى ربع الغنيمة . الصفايا : ما يصطفيه القائد لنفسه قبل القسمة . وحكمك والنشيطة : يعتقد انه ما يؤخذ من الغنيمة بقصد الطعام قبل القسمة . الفضول : ما يفضل بعد القسمة ولا تصح قسمته . انظر القاموس . .
٥٩ ـ شعر الحرب : ٧٩ .
٦٠ ـ النحل : ٥٨ـ٥٩ .
٦١ ـ شعر الحرب : ٨٤ .
٦٢ ـ ن .م .
٦٣ ـ انظر جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت وبغداد ١٩٦٩ ، ٥/٤٠٤ وما بعدها كانت القبائل تدخل فى قتال مواجهة مع كتائب الحيرة ، وجند كسرى ، فى احيان قليلة ، كما حدث فى يوم ذى قار . .
٦٤ ـ عيون الاخبار ١/١٢٥ .
٦٥ ـ الاغانى ١١/١٦٠ـ١٦٢ .
٦٦ ـ انظر مصادر الايام وبخاصة ابن الاثير ١/٢٩١ ، وجاد المولى ١/٣٠ وما بعدها ، والفن الحربى ٥٤ وما بعدها .
٦٧ ـ المقدمة : ٢٧١ـ٢٧٣ .
٦٨ ـ راجع الاشعار فى كتاب شعر الحرب للجندى ، وشعر الحرب فى ادب العرب مصر ١٩٦١ ، والفروسية فى الشعر الجاهلى لنورى القيسى .
٦٩ ـ نورى القيسى ، الفروسية ٦٢ .
٧٠ ـ الايام لابى عبيده ، ٩٨ وما بعدها ، النقائض ٢/١٣ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١/٧١ ، ابن الاثير ١/٢٨٥ ، ١/٢٩١ ، ١/٣٣٧ ، ابن خلدون ٢/٥٦ ، الفن الحربى ٤٦ . .
٧١ ـ سبق ذكر مصادر هذه الايام .
٧٢ ـ العقد الفريد ١/٨٧ .
٧٣ ـ ن . م ١/١٢٨ ، نهاية الارب ٦/٢٣٨ .
٧٤ ـ المقدمة ٢٧٧ .
٧٥ ـ المحبر ١٩٢ .
٧٦ ـ ن .م ٢١٢ .
٧٧ ـ المقدمة ٢٧٧ .
٧٨ ـ وقد استخدمت العصابات الصهيونية وبقيادة بيجن ١٩٤٨ ، هذا الاسلوب فقتلت الشيوخ والنساء والاطفال فى القرى والمدن لبعث الذعر فى نفوس بقية السكان وحملهم على الهجرة من بلادهم ، ومذابح دير ياسين وكفر قاسم وقبيه وغيرها خير برهان .
٧٩ ـ كان بعض الاسرى او النساء المتزوجات فى القبيلة المعادية يحتالون فى انذار قومهم بعزم القبيلة المقيمين فيها على غزوهم ، ويستعملون فى ذلك الرمزية فى اقوالهم حتى لا يفهم قصدهم غير اقوامهم . انظر اخبار يوم الوقيط ، ابو عبيده ، الايام ٩٨ وما بعدها ، النقائض ٢/١٣ . .
٨٠ ـ المقدمة ١٢٥ .
٨١ ـ الابشيهى ٢١٧ ، وانظر ايضا وصية اكثم بن صيفى السابقة .
٨٢ ـ المفضليات ص : ٧٣٦ بيت ١٥ ، شعر الحرب ١٧٥ .
٨٣ ـ الديوان ، قصيدة رقم (٣) .
٨٤ ـ بشأن الحسك كسلاح دفاعى ، انظر الحسن بن عبدالله ، آثار الاول فى ترتيب الدول بولاق ١٢٩٥هـ ، ص ١٩٤ ، انظر ايضا مادة « حسك » فى تاج العروس للزبيدى . مجلة المجمع العلمى العربى ، دمشق ج ١٦ ، ٥٣٩ ، ج ٢٠ـ٢٣ـ٣٠ .

٨٥ ـ الزوزوني ، شرح المعلقات ١٠٥ .
٨٦ ـ ابو عبيده الايام ٥٥٤ ، الاغاني ١٠/ ٣٣ ، ابن الاثير ١/ ٣٢٦ ، ٣٨٤ ، الفن الحربي ٥٨ ، ٢٠٤ .
٨٧ ـ ديوان حسان بن ثابت : ٣٣٢ ، الفن الحربي ٥٨ .
٨٨ ـ الاغاني ٥/ ٤٩ ، انظر ايضا ابن الاثير ١/ ٣٦٤ ، ايام العرب الجاد المولى ١/ ٣٣ الفن الحربي ٥٧ـ٥٨ ، شعر الحرب ٥٧٦ـ٥٧٧ .
٨٩ ـ انظر شعر الحرب ٥٧٣ـ٥٧٥ .
٩٠ ـ ن.م
٩١ ـ انظر الزوزني ٦٢ ، ٦٣ .
٩٢ ـ عبدالعزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦١ ص ١١ .
٩٣ ـ سبقت الاشارة الى هذا البيت ، انظر ايضا ظافر القاسمي ، الايلاف والمعونات غير المشروطة ، مجلة المجمع العلمي العربي ـ دمشق عدد ٣٤ .
٩٤ ـ الفتح : ٢٦ .

من ملامح الحس القومي عند العرب★ قبـل الاسـلام

الدكتور منذر عبدالكريم البكر
كلية التربية / جامعة البصرة

يتناول هذا البحث العرب كافة مميزة عن غيرها . وقد ورد ذكرهم لاول مرة في حوليات الآشوريين عام ٨٥٣ق .م باسم « اربى »(Aribi) [1] وهذا يعني سكان شبه الجزيرة العربية . عرف قسم منهم بهذا الاسم الذي يعني البدو . ومن هنا جاء اعتقاد الاوروبيين ان اصل كلمة العرب تشير الى البدو وانصاف البدو . واعتقدوا ان اصل التسمية كانت لسكان شمال الجزيرة العربية وشمالها الغربي ثم انتشرت بعد ذلك واصبحت كلمة عرب اسما « لشعب الجزيرة العربية قبل الاسلام[2] . ولهذا دعا الملك امرؤالقيس اللخمي نفسه في نقش النمارة لاول مرة « ملك العرب كلها » بينما دعى قبله الملك سنطرق ملك الحضر « ملك العرب » فقط .

اما هيرودوت فقد ذكر العرب بانهم اقوام تسكن على الحدود الفلسطينية ـ المصرية وفي الجنوب في ارض البخور[3] . ويظهر لبعض المؤرخين اليونان ان العرب يسكنون حول الحدود الجنوبية والغربية لشبه الجزيرة العربية[4] . ونحن نعتقد ان « اربى » الاشورية يقصد بها كل سكان شبه الجزيرة العربية غربها وجنوبها في شمالها وشرقها اعتمادا على ما ذكره مؤرخو الاسكندر الكبير وجغرافيو الفترة الهيلينية منهم فانهم حينما كانوا يذكرون « بلاد العرب » يقصدون بها طبيعيا شبه الجزيرة العربية كلها[5] . ولهذا فان « العرب » هو الاسم الموحد لسكان شبه الجزيرة العربية وهو يرجع الى العصور القديمة وليس له علاقة بالبداوة كما توهم بعض المؤرخين[6] .

ولم يلق تاريخنا العربي قبل الاسلام العناية الكافية بعد ، ومازال هنالك تقصير واضح في هذا المجال يعود اليه النقص في المعلومات عن هذه الحقبة الزمنية المهمة ، فلم نجد من شبابنا من اجهد نفسه بالبحث والتنقيب عن تاريخنا في الكتابات اليونانية مصنفا الروايات والاخبار المنسوبة لهيرونومس الكردى وبولبيوس او تلك التي اثرت عنهما . كما لم نجد ـ بحدود معرفتي ـ احدا من شبابنا الباحثين يتقدم لفحص السجل الذي عثر عليه في مدينة « دورار اويربوس »

★ ان الموطن الاصلي للاقوام التي هاجرت الى المناطق الخصبة هي شبه الجزيرة العربية . وكانت هجرتها لاسباب تباين في ذكرها كالهجرة الاكدية والارامية والامورية .. الخ وان العرب هم جزء من هذه الاقوام حيث احتفظت بأكثر الخصائص لها لا سيما اللغة . وان الموضوع الذي نحن بصدده يتناول القبائل العربية قبل الاسلام .

(الصالحية) او تأمل ما جاء فيه ويعود هذا السجل الى كتيبة عسكرية تدمرية لعبت دورا « مهما » فى تاريخنا العربى قبل الاسلام . كما اننا نجد قصورا فى عدم نشر ما اشتهر من اخبار تؤكد ان هناك اشخاصا فى تاريخ القياصرة الرومان ومنهم جوليادوما وجوليا ميزا والاكابال وجوليا مهاما وسفبروس الاسكندر كانوا ينتمون الى سلالات عربية ومنهم فليب الملقب بفليب العربى . وبه استطاع العرب مجددا الوصول الى العرش الرومانى . كما لم نجد احدا من باحثينا العرب يفسر لنا سبب مطالبة اهل دمشق بالوحدة الاندماجية مع دولة الانباط العربية او لماذا طلب اهل غزة العربية المساعدة العسكرية من ملوك الانباط لانقاذهم من حصار « الاسكندر جينوس الميكابى » لهم او ما هو السر فى تقدم الملك الحميرى « شمريهرعش » نحو العراق وطرد الغزاة عنه .

ان هذه الامثلة وغيرها فى تاريخنا العربى لا نجد لها سوى تفسير واحد وهو شعور سكان هذه الرقعة من الارض منذ تلك الفترة المبكرة بانهم شعب واحد يسكنون ارضا واحدة ويرتبطون بتقاليد وعادات واحدة ويتكلمون لغة واحدة وعلى الرغم من كونهم قبائل متفرقة الا اننا نجدهم يرتبطون بوازع اجتماعى مشترك(٧) . « فانا نكره القالة فى العرب ».

وفى هذه الدراسة المتواضعة سنحاول القاء الضوء على وحدة بلاد العرب من اقوالهم وكذلك وحدة اللغة ووحدة الطقوس بما ينم عن وعى جماعى يتجسد فى العبادة المتكاملة لديهم مقرونة بالزيارة المعتادة الى الكعبة فى مكة . اضافة الى الوظيفة الاجتماعية للانساب التى هى المحافظة على الأصل والبحث عن صلة الانتماء للأرض المشتركة

ان الأرض المشتركة للعرب قبل الاسلام هي شبه الجزيرة العربية التى أطلق عليها البابليون اسم « ماتو - أربي » أي بلاد العرب . أما السريان والفرس فقد عرفوا بلاد العرب باسم « أربابة » . وسمى العرب أرضهم جزيرة العرب . وقد كان للعرب تصور واضح لبلادهم وطبيعتها وزرعها كقول الكلاعى فى اليمن :

هى الخضراء فأسأل عن رباها
يخبرك اليقين المخبرونا
ويمطرها المهيمن فى زمان
به كل البرية يظمأونا
واشجار منورة وزرع
وفاكهة تروق الأكلينا

أو ما قاله الشاعر عن الشحر :

اذهب الى الشحر ودع عمانا
لا نجد تمرا نجد لبانا

كما انهم يعرفون مسالك شبه الجزيرة العربية وطرقها وكذلك تحديد الاماكن الجغرافية ومواقعها كقول لبيد :

جاوزن فلجا فالحزن يدلج
ن بالليل من عالج كثبا
من بعد ما جاوزت شقائق فالد
هنا فصلب الصمان والخشبا

فلا نستغرب اذن من بكاء صاحب امرىء القيس عندما تغيرت عليه معالم الارض وبان له ان الارض العربية التى تعودها تركها واصبحت وراءه . فهو يعرف حدود وطنه يقول امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وايقن انا لاحقان بقيصرا

ومعنى الدرب فى هذا البيت المدخل بين جبلين ، والمراد هنا الطريق بين بلاد العرب وبلاد الروم(٨) . ونفس هذا الشيء نلمسه فى شعر عمرو بن قميئة وهو اقدم من امرىء القيس عاش فى القرن السادس الميلادى اذ قال :

قد سألتنى بنت عمرو عن
الأرض التى تنكر اعلامها
لما رأت ساتيد ما استعبرت
لله در - اليوم - من لامها
تذكرت ارضا بها اهلها
اخوالها فيها واعمامها

لان « ساتيدما » تعنى هنا جبلا متصلا من بحر الروم الى الهند[٩] . ومن الواضح ايضا ان السؤال هنا عن الارض العربية وان هذا الجبل هو الحد الفاصل بين الارض العربية وارض العجم . لانه ادرك ان ما بعد هذا الجبل هو ارض لغير العرب . وربما يمكن ان تكون صورة اوضح حول هذا المعنى بحوار اياس بن قبيصة مع النبى (ص) اذ جاء فى هذا الحوار : « .. ما هذان الصريان ؟ قال أنهار كسرى ومياه العرب . فاما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، واما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول .. فان احببت ان نؤيدك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا[١٠] . من هذا نجد ان اياسا حدد المكان اى انه يعرف التمييز بين ارض العرب وارض العجم . ويقول ان هذا هو الحد الذى يعود الى العرب وبلادهم . وان هذا التصور للارض العربية تتجسد ملامحه بصورة اوضح فى الفترة الاسلامية وخير دليل على ذلك قول عمر بن الخطاب عندما كتب المسلمون اليه سنة (١٦هـ) بفتح جلولاء وبنزول القعقاع حلوان وأستأذنوه فى اتباع الفرس : لوددت ان بين السواد وبين الجبل سدا « لا يخلصون الينا ولا نخلص اليهم[١١] » وفى رواية اخرى « وددت ان بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون الينا منه ولا نصل اليهم[١٢] » . كما قال لا هل الكوفة : وددت ان بينهم وبين الجبل جبلا من نار لا يصلون الينا فيه ولا نصل اليهم . اذن لابد ان يكون للخليفة الثانى تصور واضح عن الارض العربية المشتركة والتى وجب على العرب تحريرها . اما ما بعدها فهى ليست للعرب وهذا واضح من قول عقبة بن نافع ايضا بعد ان اتم تحرير شمال افريقيا حيث انتهى عقبة الى البحر واقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره ثم قال : « اللهم انى اشهدك ان لا مجاز ولو وجدت مجازا لجزت[١٣] » من هنا نستدل على ان العرب كانت لهم معرفة بارضهم وحدودها اى انهم كانوا على علم بارضهم المشتركة .

اللغة المشتركة :

من اهم مظاهر الحس القومى بعد الارض هى وحدة اللغة التى يراها الفيلسوف (هيردر) روح الشعب ويعتبرها خير معبر عن فكره ومزاجه واصالته . كما يعتبر القومية كائنا «عضويا » ظاهرته الاساسية اللغة[١٤] . على ان هذا المظهر كان موجودا فى شبه الجزيرة قبل الاسلام . يقول « دى بور » فى هذا المعنى : على ان مظهرا من مظاهر الوحدة فى الامة العربية كان يتجلى فى لغتها وشعرها حتى قبل الرسول محمد (ص)[١٥] لان لغة الشعر العربى القديم اصبحت اللغة العامة المتداولة لدى العرب فى شبه الجزيرة العربية وهى تخلو من اثر اللهجات المحلية التى كان العرب يتكلمون بها فى مختلف نواحى شبه الجزيرة العربية ،[١٦] وان هذه الوحدة اللغوية جاءت فى زمن كان المجتمع البدوى فيه يتألف من قبائل متعددة[١٧] . اى ان الوعى الجماعى لدى القبائل العربية اقترن باللغة العربية الكلاسيكية التى انتشرت من خلال شعر الشعراء المتجولين امثال الشاعر الاعشى[١٨] . فكان للشعراء اذا ابلغ الاثر فى توحيد اللغة حيث انتقاء الالفاظ والاساليب وشيوعها[١٩] .

من هذا نلاحظ ان اللغة العربية هى اللغة المشتركة والتى تتكلم بها كل القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربية وما نزول القرآن الكريم باللغة العربية الا دليل قوى على وحدة اللغة العربية : « انا انزلناه قرآنا عربيا » .

العادات والتقاليد الاجتماعية المشتركة :

تشترك قبائل شبه الجزيرة العربية بتقاليد وعادات اجتماعية واحدة . فمثلا اننا نجد العرب تقول فى تحيتهم فى الفترة التى سبقت الاسلام « انعم صباحا وانعموا صباحا » والظاهر انهم يأتون بلفظ انعم من النعمة وهى طيب الحياة والعيش ويصلونها بقولهم « صباحا » على اساس ان الصباح اول النهار . كما يقولون « انعموا مساء[٢٠] » وقد جاء ذكر ذلك فى الشعر العربى القديم لقول الشاعر امرىء القيس :

ألا انعم صباحا ايا الربع وانطق
كنخل من الاعراض غير منبق
وقوله ايضا :
الا عم صباحا ايها الطلل البالى
وهل يعلمن من كان فى العصر الخالى
وقول زهير بن ابى سلمى :
فلما عرفت الدار قلت لربعها
الا انعم صباحا ايها الربع واسلم
وقول عنتره :
يا دار عبلة بالجواء تكلمى
وعمى صباحا دار عبلة واسلم

كما كان العرب فى تلك الفترة يؤكدون على الطهارة والاغتسال فلا يجوز للمرء ان يدخل المعبد وهو غير طاهر لذلك نجد انهم كان لديهم احواض من الماء فى المعابد ففى معبد للاله « ذو غابت » فى مدينة ديران (العلا) كان يوجد حوض للماء يرتفع عن سطح الارض الى اكثر من مترين ، وقد نحت من الصخور[٢١] . وكان العرب يغتسلون من الجنابة ويتطهرون . ولا يجوز ان يدخل المرء باثواب نجسة الى المعبد . فان فعلوا وجبت عليهم الفدية[٢٢] . كما كانوا يغسلون موتاهم[٢٣] . وكان العرب قبل الاسلام يقطعون يد السارق اليمنى ويصلبون قاطع الطريق . وقد صلب النعمان بن المنذر رجلا من بنى عبدمناف بن دارم من تميم . كان يقطع الطريق . كما فعلت ذلك قريش برجال كانوا يسرقون فى الفترة التى سبقت الاسلام[٢٤] . وقد ذكر ابن حبيب فى كتابه المحبر ، ان العرب دون سواها من الامم كانت تصنع عشرة اشياء . منها فى الرأس خمسة .. وفى الجسد خمسة كما لا يأكلون الميتة[٢٥] كما كانت العرب تجز رأس الاسير قبل اخلاء سبيله وذلك لكى يطالب فيما بعد بالفدية وهذا ما تشير اليه النقوش اللحيانية[٢٦] .

ومن اشهر عادات العرب ان لها اشهرا حرما . فمن اعظم العار ان يتعدى المرء حدود هذه الاشهر . ولهذا نرى ان العرب سمت حروب قريش وهوازن فى عكاظ بحروب الفجار لفجورهم باقتتالهم فى الشهر الحرام[٢٧] . كذلك عندما ترصدت سرية عبدالله بن جحش عير قريش وكانوا فى آخر يوم من رجب ، ايقنت قريش انها وقعت على ما تعيب به محمد (ص) واصحابه عند العرب عامة ، لما انتهكوا من حرمة الشهر[٢٨] كما عيرت العرب لقيط بن زراره التميمى الذى ادخل عادة من عادات الفرس . عندما قيل انه تزوج ابنته كما يفعل الفرس وهذا عمل منكر . قال اوس بن حجر التميمى[٢٩] :

والفارسية فيهم غير منكرة
وكلهم لابيه ضيزن سلف

ويذكر ابن اسحاق رواية يشير فيها الى قتل عبد كان مع عثمان بن عبدالله يوم حنين وكان أغرل ، وبينما كان رجل من الانصار يسلب قتلى ثقيف فكشف عن العبد فوجده أغرل ، فصاح باعلى صوته : يا معشر العرب ، يعلم الله ان ثقيفا غرل . فقام المغيرة بن شعبة خوفا من ان تذهب عنهم فى العرب واخذ الانصارى بيديه ، وقال له لا تقل ذاك ، انما هو غلام لنا ، وجعل المغيرة يكشف للانصارى عن القتلى ويقول له الا تراهم مختتنين[٣٠]

كما كانت للعرب طريقة خاصة يؤرخون بها احداثهم هى عامة الانتشار لدى كل القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربية فكانوا يؤرخون بالوقائع المشهورة او الايام المذكورة[٣١] . او كما قال ابن حبيب : واما الاعراب فانما يؤرخون بما يكون فى السنين من حرب او عاهة وما اشبه ذلك .
ومن ذلك قول النابغة الجعدى :
فمن يك سائلا عنى فانى
من الفتيان ازمان الختان
ومنه قول العجير السلولى :
رأتنى تحادبت الغداة ومن يلق
فتى قبل عام الماء فهو كبير[٣٢]
وقد فصل فى ذلك المسعودى فذكر لنا كيف تؤرخ حمير وكهلان . ثم تأريخ ولد معد بن عدنان وكذلك بنو اسماعيل الذين ارخوا ببناء البيت وكانت كل قبيلة من قبائل العرب تؤرخ بيوم من ايامها[٣٣] .

وتكشف لنا النقوش الكتابية اللحيانية ان العرب اللحيانيين كانوا يؤرخون بسنيّ حكم ملوكهم[٣٤] . وهى نفس الطريقة التى كان العرب فى الفترة السبأية يؤرخون بها احداثهم مما نستدل به على ان للعرب طريقة واحدة جمعتهم فى تأريخ الاحداث وهى نفس الطريقة الشائعة لدينا فى الريف العربى الى الوقت الحاضر .

وحدة الطقوس الدينية :

قال صاعد : « .. وجميع عبده الاوثان من العرب موحدة لله تعالى[٣٥] » من هذا النص نرى ان جميع القبائل العربية كانت تدين بدين ابراهيم ، الذى يطلق عليه اسم الحنيفية . ويظهر ان استعمال مصطلح الاحناف هنا جاء بالدرجة الاولى كمصطلح قومى[٣٦] . ومما يؤيد ذلك ان الفضل فى نشأة هذا الدين يعود بالدرجة الاولى الى ان القبائل العربية كانت تتطلع الى توحيد صفوفها سياسيا[٣٧] . خصوصا عندما رأت هجوم الدولة البيزنطية والدولة الساسانية عليها ، اضافة الى احساسها بهجوم الديانتين المسيحية واليهودية وهى امور دفعت القبائل العربية الى ان تجتمع قلوبها حول مكة بتبلور وعى جماعى لها يتجسد فى العبادة المتكاملة لديهم ، منها الحج نحو عرفة فى مكة حيث يطوفون ويعتمرون بالبيت اسبوعا ويمسحون الحجر الاسود ويسعون بين الصفا والمروة . وكانت تلبيتهم « لبيك اللهم ، لبيك لبيك » هى واحدة لدى العرب ثم يطوفون طبقا لما ينسكون له من الاصنام[٣٨] . وكان للحرم فى صدورهم رهبة لا يدانيه فيها غيره . وبذلك عظمت مكانة قريش بين العرب لانهم سدنة البيت والقائمون بامور الحج[٣٩] . وكانت العرب تجتمع الى هذا البيت اجتماعا قوميا كل سنة . ومما يدل على ان هذه الطقوس كانت توحد القبائل العربية وتجمعهم قوميا قول الشاعر عمرو بن قميئة :

على اننى قد أدعى بابيهم
اذا عمت الدعوى وثاب صريحها
وانى ارى دينى يوافق دينهم
اذا نسكوا افراعها وذبيحها
ومنزلة بالحج اخرى عرفتها
لها بقعة لا يستطاع بروحها

او كقول زهير بن ابى سلمى :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم

ورغم اختلاف القبائل العربية فيما بينها فى شبه الجزيرة العربية فى اسباب الحياة وجدنا انها تجتمع حول البيت الحرام وترتبط باللقاء المميز فى سوق عكاظ مما يدل على انها تشعر بشعور خاص يربط بينها .

الوظيفة الاجتماعية للانساب

تعتبر الوظيفة الاساسية للانساب من الناحية الاجتماعية هى المحافظة على الاصل والبحث عن صلة الانتماء . وقد روى عن الرسول العربى (ص) قوله : (ان الرحم اذا تماست تعاطفت . . » وكان للعرب قبل الاسلام عناية خاصة بها وكانت من احد اسباب الالفة والتناصر وهم احوج الناس اليه اذ كانوا قبائل متفرقة . فخططوا انسابهم ليكونوا متضافرين بها على خصومهم متناصرين على من عاداهم لان تعاطف الارحام وحمية الاقارب يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة [٤٠] وقد بلغت فى ذلك حد ان العربى يتأخى مع عربى آخر بالتراضى والتعاطف دون ان تكون هناك اى صلة قرابة بينهما [٤١] غير انهما يشتركان بالنسب الواحد « النسب العربى » ويذكر النسابة العرب بان اسماعيل ابو العرب كلها فالعرب من ولد اسماعيل وقحطان من ولد اسماعيل[٤٢] لهذا فان اسماعيل قد احتوى العرب كلها . وتشير النصوص الصفوية الى ان العربى شديد التمسك بصلة الانتماء وهى التى تسيطر على جميع الاعمال فى حياته[٤٣] . وهذا واضح فى موقف النعمان بعد ما سمع من تهجم كسرى وانتقاصة من العرب فبعث الى اكثم بن صيفى وحاجب بن زراره التميميين والى الحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين والى خالد بن جعفر وعلقمة بن معدى كرب الزبيدى والحارث بن ظالم المري : فلما قدموا عليه فى

« الخورنق » قال لهم : قد عرفتم هـذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها .. ثم قال لهم انما انا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم (٤٤) . هذا هو الشعور بالانتمـاء او صلة الانتماء التى جمعت النعمان بهؤلاء العـرب فهو اذن الحس القـومى لدى النعمان . وعلى ضوئه جمع هذا النفـر من العرب ولهذا فنحن نعتقد ان العرب قبل الاسلام كـان لديهم شعـور قـوى واضـح بـانهم شعب واحد (٤٥) .

وهذا هو الذى كان يدفعهم للتوحد سياسيا . فقد كان العـرب دائما بحـاجة طبيعيـة للوحدة السياسية (٤٦) . وهناك من يغالى فى ذلك فيقول ان القبيلة كانت عبارة عن اتحاد سياسى (٤٧) .

وقد أخذ الشعور بالانتمـاء الى العرب يـأخذ صورة أكثر وضوحا عما في السابق ولا سيما من الناحية القومية . وربما يتمثل ذلك بقول يربوع بن مالك (٤٨) .

اذا العرب العرباء جاشت بحورها
فخـرنا عـلى كل البحـور الزواخـر

فهذا يمثل أوضح صورة لنـا لغـة الشعـور بالانتماء الى العرب وهذا الشعور أو الحس ما هو الا القومية العربية بصورتها الأولى .

الخطر الخارجي ونمو الوعي القومي :

بـات من الواضح حقـا ان العـربي يتـآخى ويتعاطف مع عربي آخر دون ان يكون من قبيلته . لأن هناك ما هو أقوى من ذلك ـ وخصوصا عندما يكون هناك خطر يهدد الوجود العربي ـ الا وهو الانتماء الى العربية . وهذا ما نجده واضحـا في قول عنترة :

شربت بماء الدحر ضين فأصبحت
زوراء تنفـر عـن حيـاض الديـلم

ولا بد انه قد أحس بالدافع القومي الجامع غير انه لم يجد الكلمة التى يعبر بها عنه فوجدناه يدور حول هذا المعنى ببيت كـامل من الشعـر (٤٩) . وكذلك في موقف لقيط بن يعمر الايادى والذى كان ترجمانا في قصر كسرى : فلمـا أدرك ان الفرس تعتزم غزو قومه بعث اليهم برسالة يقول فيها :

سـلام في الصحيفـة من لقيـط
الى من بـالجـزيـرة من أيـاد

وبالرغم من ان العرب قبيـل الاسلام كـانوا غارقين في منازعاتهم القبلية وحروبهم . الا انهم قـاوموا الاحتـلال الأجنبي . ففي جنـوب شبـه الجزيرة العربية بدأت المقاومة العربية ضد وجود الأحباش . حيث قام « ذونفر » فدعا قومـه ومن أجابه من سائر العرب الى حرب أبرهة الذى يمثل الوجود الحبشي في الأرض العربية . والملاحظ ان « ذونفر » وهو من أشراف أهل اليمن وملوكها لم يدع قومه فقط وانما كانت الدعوة موجهة الى كل العرب . لأن الوجود الحبشى لا يهـدد « ذونفر » وحده . وانما يهدد الأمة العربية أجمعها ولهذا لبت العرب هذا النداء ومثل ذلك مقاومة نفيل بن حبيب الخثعمي للأحباش . ولما كانت لمكة وبيتها الحرام مكانة خاصة عند جميع القبائل العربية . فقد قاومت العرب محاولات ابرهة لاحتلاله مكة بشتى الطرق منهـا الطرق الدبلوماسيـة (٥٠) . ومنها الحرب . وكانت العرب تسخر من القبائل العربية التى لم تبـد مقاومـة لهذا الغـزو كقول الشاعر في ثقيف :

وفـرت ثـقيـف الى لاتـهـا
بمنقلب الخـائـب الخـاسر

أو الموقف العربي الواحد من أبي رغال الذى كان دليلا لجيش ابرهة . اذ ان العرب ظلت ترجم قبره في المغمس وما هـذا الا دليل عـلى الشعور القومي عند العرب لأن أبا رغال اعتبر خائنا للأمة العربية وآمالها وبأنه باع نفسه الى غير العرب . كما يتبلور الشعور القـومي والانتماء للعـرب في موقف زعماء العرب ـ عندما نجح سيف بن ذي يزن في طرد الأحباش ـ فقد ذهبوا اليه يباركون ويهنئون بهذه المناسبة القومية (٥١) . فمما قاله عبدالمطلب « ... فأنت ملك العرب وربيعها الذى يخصب به وأنت أيها الملك رأس العرب الذى اليه تنقاد . » (٥٢) وما هـذا الا دليل لهـذا الشعور القومي الذى جمع العرب في هذا الموقف . كما ان

موت النعمان الغساني أحزن جميع العرب وقد عبر عن ذلك النابغة الذبياني خير تعبير حين قال :

وان يرجع النعمان نفرح ونبتهج
ويأت معداً ملكها وربيعها
ويرجع الى غسان ملك وسؤدد
وتلك المنى لو اننا نستطيعها
وان يهلك النعمان تعر مطية
ويلق الى جنب الفناء قطوعها

وقد تبلور هذا الادراك والشعور القومي بصورة واضحة عندما واجه العرب الفرس على حدودهم الشرقية وجها لوجه فشعروا ببغض لهم وهذا ما عبر عنه عنترة عندما قال :

شربت بماء الدحر ضين فأصبحت
زوراء تنفر عن حياض الديلم

ويتضح بعد هذه الوحدة السياسية القومية في الدولة العربية في الحيرة سواء في عهد الملك امرىء القيس صاحب نقش النمارة الذى لقب نفسه بلقب ملك العرب كلهم أو في شخص النعمان الذى جسد صورة الموقف العربي من الوجود الفارسي في بلاد العرب وهذا ما اعترف به كسرى نفسه في محاورة له جاء فيها : « انه قتل النعمان لأن النعمان وأسرته وحدوا سياستهم وأهدافهم مع العرب » (٥٣) . لهذا نجد ان موت النعمان كان له أثر قومى عميق لدى القبائل العربية فكان عليهم اذن ملاقاة عدوهم الأول وهم الفرس فكان يوم ذي قار يوما «قوميا » تجلى فيه الوعى القومي لدى العرب كما انه كان حافزا من حوافزه فحتى القبائل التى كانت الى جانب الفرس تخلت عن الجيش الفارسى وهي قبائل اياد فقد دفعها الواجب القومى الى ان تقف حيث وقفت القبائل العربية ضد الجيش الفارسى وانتصر العرب . ولأهمية هذه الموقعة في التاريخ القومي لدى العرب وشعورهم بالفخر . أشاد شعراء العرب بهذا النصر القومي (٥٤) ومن ذلك قول الأعشى :

فبدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي
وراكبها يوم اللقاء وقلت
هم ضربوا بالحنو حنو قراقر
مقدمه الهامرز حتى تولت (٥٥)

كما كان لهذا النصر مكانة مميزة في تاريخ النهضة القومية في بلاد العرب . حتى ليقول الرسول العربي(ص) « هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا » . وقد كانت صرخات النصر هذه في موقعة « ذي قار » هي مقدمات مواكب البعث الكبرى في الحركة العربية في الفترة الاسلامية .

★☆★☆★☆★☆★

الهـوامش

١ - راجع منذر البكر : دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام . البصرة ١٩٨٠ ص١٦
٢ - F Altheim-R-stiehl. Geschichte der Hunnen Berlin. 1959. Vol. 1 P. 144
٣ - ibid
٤ - ibid
٥ - ibid
٦ - ibid
W. Caskel. Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber Koln 1954. P. 10.
٧ - مصطفى السقا . مختارات الشعر الجاهلي ط. الثانية القاهرة ١٩٤٨ ١/٥٨
٨ - ديوان عمرو بن قميئة . تحقيق خليل العطية . بغداد ١٩٧٢ ص٧٣
٩ - ابن النهشلي : الممتع . تحقيق الدكتور منجي الكعبي ص١٤٤ - ١٤٥
١٠ - تاريخ الطبرى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٩٧٠ ٤/٢٨
١١ - ن . م ٤/٧٩
١٢ - ابن عبدالحكيم : فتوح افريقية والأندلس . بيروت ١٩٦٤ ص٦٠
١٣ - د. نور الدين حاطوم : تاريخ الحركات القومية . لبنان ط. أو لى (١٩٦٧) ١/٦
١٤ - ت.ج.دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام . ترجمة عبدالهادى أبو ريده . القاهرة ١٩٣٨ ص٤
١٥ - بليياف : العرب والاسلام والخلافة العربية . ترجمة د. أنيس فريحة . بيروت ١٩٧٣ ص١١٥
١٦ - المصدر نفسه . وراجع رأى ت. نولد كه : اللغات السامية ترجمة د. رمضان عبدالتـواب . القاهـرة ١٩٦٣ ص٢٩ . ص٩٢
١٧ - W. Caskel : Op. Cit. P.11
١٨ - سعيد الافغاني : أسواق العرب في الجاهلية والاسلام دار الفكر . بيروت ط. الثانية ص٢٠٨
١٩ - الالوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . الطبعة الثالثة مطابع دار الكتاب العربي بمصر ٢/١٩٢
٢٠ - W. Caskel : Altarabishe Konig Reih Lihayn. Koln-1952 P. 13
٢١ - A. Grohmann : Arabien. Munehen 1963 P. 252
٢٢ - ابن حبيب : المحبر تحقيق الدكتورة ايلزة شتيتر الهند ١٣٦١ ص٣١٩
٢٣ - راجع التفصيل في المصدر نفسه ص٣٢٨
٢٤ - راجع المصدر نفسه ص٣٢٩
٢٥ - ف . كاسكل : لحيان المملكة العربية القديمة . ترجمة د. منـذر البكر . (مجلة كليـة الآداب . جامعـة البصرة) العدد الخامس . السنة الرابعة . بصرة . ١٩٧١ . ص١٩٢
٢٦ - راجع سعيد الأفغاني : أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ص٧٠
٢٧ - المصدر نفسه ص٧١
٢٨ - ابن قتيبة : المعارف . تحقيق ثروت عكاشة . مصر ١٩٦٠ ص ٢٠
٢٩ - راجع : ابن هشام : السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا و آخرين ط. الثانية القاهرة ١٩٥٥ القسم الثاني ص٤٥٠
٣٠ - البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية . لايبزك ١٩٢٣ ص٣٤
٣١ - ابن حبيب : ص٨
٣٢ - راجع التفصيل في ذلك : المسعودي : التنبيه والاشراف . مراجعة عبدالله اسماعيل الصاوى القاهرة ١٩٣٨ ص١٧٣ - ١٧٩

٣٣ - راجع أيضا: W. Caskel : Lihgan Und Lihqniseh Koln 1953 PP.90- 117
٣٤ - ابن صاعد : طبقات الأمم. النجف . ١٩٦٧ ص٥٧
٣٥ - راجع حول هذه النقطة الدكتور مصطفى عبداللطيف جاووك : الحياة والموت في الشعر الجاهلي بغداد ١٩٧٧ ص١٣
٣٦ - بلبياف : المصدر السابق ١١٨ وراجع الدكتور منذر عبدالكريم البكر : المحاولات الوحدوية في الجزيرة العربية قبل الاسلام (آفاق عربية) العدد ٦ ١٩٧٩ ص٢٢
٣٧ - راجع التفصيل في ذلك عند ابن حبيب في كتابة المحبر ص٣١١ - ٣١٥
٣٨ - راجع سعيد الأفغاني : المصدر السابق ص٣٤
٣٩ - الالوسي المصدر السابق ٣/١٨٢
٤٠ - بلبياف : المصدر السابق ص٩٩
٤١ - ابن هشام : المصدر السابق ١/٧
٤٢ - رينوديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ترجمة عبدالحميد الدوخلي ص٢٢
٤٣ - الالوسي : المصدر السابق ١/١٥١
٤٤ - W. Caskl : Die Bedeutung Der Bedunen In Der Ceschichte Der Araber. P.10
٤٥ - F. Altheim - R. Shtiehl : Die Araber In Der Alten Welt. Berlin 1966. Vol.II. P.317
٤٦ - بلبياف : المصدر السابق ص١٠٠
٤٧ - الطبرى : تاريخ الطبرى ط. ليدن ١/٢٥٣٦ وقارن مع الدكتور عمر فروخ : تاريخ الجاهلية . بيروت ١٩٦٤ ص٤٣
٤٨ - الدكتور عمر فروخ : المصدر السابق ص٤١
٤٩ - راجع التفصيل في ابن هشام : المصدر السابق ص٤٦ - ٥٠
٥٠ - راجع عن ذلك ابن عبد ربه : العقد الفريد . تحقيق أحمد أمين و آخرين القاهرة ١٩٦٧ ٢/٢٣
٥١ - نقلا عن الألوسي : المصدر السابق ٢/٢٦٦ وهذا واضح لأن العرب رأت ان جهاد ابرهة وطرده حقا عليهم . راجع ابن هشام : المصدر السابق ص٤٥
٥٢ - راجع الدينوري : الأخبار الطوال . تحقيق عبدالمنعم عارف ط. الأولى القاهرة ١٩٦٠ ص١١٠ وقارن مع : G. Rothstein : Die Dynastie Der Lahmiden In Der Al. Hira. Berlin 1899 PP. 116- 117
٥٣ - وهذا ما يذكره كستر بعد ذلك حيث يقول : « ان الشعر الجاهلي يعكس بوضوح مقاومة القبائل للحكم الأجنبي . » راجع : م.ج. كستر : مكة وتميم «مظاهر من علاقتهم » ترجمة د. يحيى الجبورى بغداد ١٩٧٥ ص٤
٥٤ - نقلا عن الدكتور أحمد محمد الحوفي : الحياة العربية في الشعر الجاهلي ط. الرابعة القاهرة (١٩٦٢) ص١٢٠
٥٥ - راجع ما كتبه نجيب محمد البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري القاهرة ١٩٥٠ ص ٤٢ - ٤٣ .

مؤسسة الوزارة في الدولة العربية الاسلامية أصولها وتطورها

الدكتور حمدان عبد المجيد الكبيسي
كلية الآداب / جامعة بغداد

تأتي مؤسسة الوزارة بعد الخلافة من حيث الأهمية السياسية والادارية . إذ أسهمت بدور فاعل في توجيه نظام الدولة العربية الاسلامية ورسم سياستها العامة .

ولفظة وزير وردت في القرآن الكريم في قول موسى مخاطبا ربه : « واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي ، أشدد به أزري ، وأشركه في أمري»[1].

والوزير لغة مشتقة من الوزر، اي العبء أو الثقل او الحمل. ذلك ان الوزير وسيط بين الخليفة وجمهور المسلمين، فهو من ناحية يساعد الخليفة في حمل بعض اثقاله ويعينه في ادارة شئون الدولة، ومباشرة مهامها. وبذلك يلجأ الخليفة الى رأيه وهو من ناحية اخرى يطلع الخليفة على احوال الرعية بوجه عام[2]. وقد تكون الكلمة مأخوذة من الازر بمعنى الظهر، أو من المؤازرة والمعاونة[3]. وكل مشتقات لفظة وزير تدلل على ان الوزير هو مساعد الخليفة ومستشاره وسنده الذي يرفع عنه بعض اعباء الدولة . واللغويون العرب ، أجمعوا على ان كلمة وزير عربية ، وأكدوا أصالتها في تراثنا اللغوى والحضارى [4] .

نشأت مؤسسة الوزارة بسيطة ، وتدرجت في النمو . لذا فان نظريتها وضعت في عصر متأخر ، مستفيدة من التجارب السابقة ، مع اضافة شيء من التهذيب والترتيب . ولفهم التفكير السياسى والادارى في المجتمع العربي الاسلامى لا بد لنا من التعرف على نظرية الوزارة [5] .

وبلا ريب ، فان المؤسسات السياسية والادارية ، في المجتمع العربي الاسلامي ، نشأت وتطورت بفعل الحاجة المستجدة ، وتطور المجتمع ونموه ، فمنذ ظهور الاسلام كان الرسول عليه الصلاة والسلام يشاور أصحابه ليستطلع رأيهم في شؤون الدولة الفتية الخاصة والعامة ، ويخص أبا بكر الصديق بخصوصيات أخرى ، حتى ان العرب الذين عرفوا الدول واطلعوا على أحوالها كانوا يسمون أبا بكر وزير النبي . وعرف عن عمر بن الخطاب انه كان يؤازر أبا بكر في خلافته

ويعاونه ، اذ كان يوزع الزكاة على مستحقيها ، كما كان يقضي بين الناس بأمر الخليفة . وكذلك علي ابن أبي طالب وعثمان بن عفان إذ أدى كل منهما مهمات معينة في خلافة عمر بن الخطاب ، فآزراه وساعداه في تسيير أمور الدولة . وكان هؤلاء الأعوان يعملون عمل الوزراء ، وان كان اسم الوزير لم يطلق عليهم ، وذلك لبساطة أمور الدولة وبعدها عن أبهة الملك (٦) .

ولما أفضت الخلافة الى بنى أمية ، وأصبح الحكم ضربا من الملكية الوراثية ، لا سيما بعد عهد الخليفة عبدالملك بن مروان ، فلم يكن بد من ان يستشير الخلفاء بعض ذوي الرأى ، فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل ، وأطلق عليه اسم الوزير . في حين اختص شخص آخر في تسيير الأمور المالية والكتابية ، وكان الأول من العرب ، بينما كان الثاني ، في الأعم الأغلب ، من الموالي والذميين . وفي أواخر العهد الأموي توسعت مسؤوليات الكتاب ، وتعددت مهامهم ، وحينئذ بات من الممكن عد منصب الوزير الذى اتضح فيما بعد ، خلفا للكاتب الأموى (٧) .

وظهر منصب الوزير بشكل واضح بعد انتصار الجيوش العباسية على الأمويين سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م . وكان أبو سلمة الخلال أول من تقلده حيث لقب « وزير آل محمد » (٨) .

ويبدو ان الخليفة العباسي حين أقر نظام الوزارة ، راعى تطور الدولة واتجاهها نحو التمركز وتوزيع السلطات . وابتدأ العباسيون يطبقون نظام الوزارة بأبسط صوره ، فاعترف الخليفة الأول بشرعية وزارة أبي سلمة الخلال ، الا ان الخلال لم يكن يتمتع بسلطات كاملة في جميع الدواوين ، فلم يكن ديوان الخراج وديوان الجند داخلين في سلطته ، إذ كانا في يد رجل اداري آخر (٩) . ولما تجاوز أبو سلمة الخلال سلطاته ، وحاول ان يوسع دائرة نفوذه ، لم يتوان الخليفة عن الاطاحة به ، وعهد بمسؤولياته الى من يثق به ، الذى أوجس خيفة من هذا المنصب ، وتطير من لقب وزير ، وتمثلت أمامه نهاية الخلال وعاقبته المفجعة ، لذا التمس من الخليفة ان يمارس عمل الوزارة دون ان يسمى وزيرا (١٠) .

وفي عهد أبي جعفر المنصور ، وهو باني الدولة ومؤسسها الفعلي ، والذى نزع الى المركزية نزوعا واضحا ، جعل نفسه في مركز السلطة ، وراقب سير الأمور عن كثب ، لذا لم يكن له وزير معين في بداية الأمر ، بل اقتصر على طائفة من الكتاب الذين أجادوا الكتابة . ولعل قوة شخصية المنصور وكفاءته الادارية والعسكرية ، هي التى جعلت مكانة الوزارة أصغر بكثير من حجمها الطبيعي (١١) . وأصبح الوزراء في عهده عرضة للعزل والاقصاء لمجرد ان الخليفة لم يعد يثق في أحدهم .

ويعد أبو أيوب سليمان بن مخلد المورياني من أشهر وزراء المنصور ، وأكثرهم حظوة وكفاءة ، وثقافة ومقدرة . إذ كان بصيرا بالأمور ، عاقلا فطنا ذكيا فاضلا كريما غزير المروءة . لكن عاقبته لم تكن أحسن من نهاية أبي سلمة الخلال . ذلك ان أبا جعفر المنصور نكب المورياني عندما وقف على تجاوزاته ، فقتله واستصفى أمواله (١٢) ، وعهد بالوزارة الى الربيع بن يونس الذى كان هو الآخر فصيحا جليل القدر مهيبا ، منفذا للأمور بمقدرة وحزم ، خبيرا بالحساب والأعمال ، حاذقا بأمور الملك ، محبا للخير . ولم يزل الربيع وزيرا للمنصور الى ان مات المنصور ، وقام الربيع بأخذ البيعة للمهدي (١٣) .

وإبان خلافة المهدي استقرت الأمور السياسية والادارية . فكان تعيين الوزراء يتم غالبا لحذقهم وعلمهم وخبرتهم واستقامتهم وكفاءتهم الادارية والكتابية . إذ لعبت المؤهلات الشخصية دورا مؤثرا في تعيين بعض الوزراء . قال المسعودي : « لم تكن الخلفاء والملوك تستوزر الا الكامل من كتابها ، والأمين العفيف من خاصتها ، والناصح الصدوق من رجالها ، ومن تأمنه على أسرارها وأموالها ، وتثق بحزمه وفضل رأيه وصحة تدبيره في أمورها (١٤) .

وأضاف الماوردي : ان المأمون كتب في اختيار وزير فقال : اني التمست لأموري رجلا جامعا لخصال الخير ، ذا عفة في خلائقه واستقامة في طرائقه . قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب . إن أؤتمن على الأسرار قام بها وان قلد مهمات الأمور نهض فيها ، يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه اللمحة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء [١٥] .

وأراد الخليفة المقتدر بالله ان يختار لنفسه وزيرا وطلب من احد ثقاته قبول الوزارة فامتنع لكبر سنه [١٦] ، فأرسل اليه الخليفة أسماء بعض المرشحين ليختار منهم ما يراه أهلا للوزارة ، لكن هذا الرجل أشار بتعيين القاضي محمد بن يوسف ، فظن الخليفة ان صاحبه هذا قد غشه ، ولم يخلص له النصح ، ولما سئل في ذلك قال : « لعمري انه قاض عالم ثقة . الا أنني لو فعلت ذلك لافتضحت عند ملوك الاسلام والكفر ، لانني أكون بين أمرين: إما تصور مملكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة فيصغر الأمر في نفوسهم ، أو انني عدلت عن الوزراء الى اصحاب الطيالس ، فأنسب الى سوء الاختيار » [١٧] . ويوحي قول الخليفة هذا ، ان هناك شروطا خاصة يجب توافرها في الشخص الذي من الممكن ان يعهد اليه منصب الوزارة . وان رغبة الخليفة كانت متجهة نحو فئة الكتاب الحاذقين في الأمور المالية والادارية والسياسية ، والانصراف عن العلماء والقضاة وأصحاب الطيالس الذين يبدو ان الخليفة وجدهم لا يصلحون الا لممارسة القضاء [١٨] .

ونتيجة لهذا التحري الدقيق في مؤهلات وخلفيات الشخص المنوي استيزاره ، كان طبيعيا ان تعطى للوزير صلاحيات النظر في الدواوين والشؤون الادارية الأخرى . فاتسعت بذلك سلطة الوزراء ، فاستطاع بعضهم ان يبادر في ترسيخ الشؤون المالية والاقتصادية ، ذلك ان الوزير معاوية بن يسار (١٥٩ ـ ١٦٣ هـ) وضع نظام المقاسمة على الغلال في الخراج في أرض السواد [١٩] .

وسار نظام الوزارة نحو الرسوخ منذ عهد الخليفة هارون الرشيد، فبلغ الوزير حدا كبيرا من القوة والنفوذ ، وصار يدعى بـ (السلطان) اشارة الى اتساع دائرة نفوذه . فأصبحت الوزارة حينئذ أرفع رتبة ، وأعلى مقاما . وذلك لأن النظر للوزير كان عاما في سائر الأمور ، فصار اسمه جامعا لخطتي السيف والقلم [٢٠] ، حتى ان الخليفة الرشيد جعل الوزير وأبناءه يشرفون بصورة مباشرة على دور ضرب النقود . وبذلك اعتبر الرشيد أول خليفة امتنع عن مباشرة العيار بنفسه ، وصير هذه المهمة الخطيرة الى وزيره [٢١] . والراجح ان مشاغل الخليفة الكثيرة ، وطبيعة الظروف التي كانت تحتم عليه قضاء فترة طويلة من السنة خارج العاصمة ، ووجود من كان يثق به الخليفة ثقة مطلقة حالت دون اشرافه بنفسه على السكة ، فنهج نهجا لا مركزيا في الحكم ، وأعطى الوزير مزيدا من السلطة ، لكن البرامكة أساءوا التصرف وتجاوزوا الحدود ، واندفعوا وراء بواعث سياسية محضة حاولوا من خلالها تحقيق أمجاد شخصية ، ومصالح قومية ، تبرز واضحة في توقيت عملية توزيع تلك النقود [٢٢] .

وخلال القرن الثالث الهجري ، رسخت أسس الوزارة أكثر ، وتحددت مفاهيمها ، واتسعت سلطاتها ، وبانت مؤهلات من يصلح لتقلدها ، حتى صار الوزير يشرف على الدواوين كافة « وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد » [٢٣] ، حتى انه لقب بالأمير [٢٤] .

ولدى الاستقراء التاريخي نلمس ان الوزير أصبح يهيمن على جميع مرافق الدولة ، حتى انه تدخل احيانا في اختيار الخليفة نفسه . وحينئذ كانت تتجه نية الوزير الى اختيار شخص ضعيف ليتولى الخلافة ، غير عارف بثروة وممتلكات موظفيه وعائداتهم ، جاهلا في أمور الدولة ، حتى تصبح السلطة الحقيقية بيد الوزير [٢٥] .

وفي بداية القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ، تبلورت مراسيم الوزارة ، وتولت هذا المنصب شخصيات ادارية وسياسية لامعة ، فيما أوتيت من دراية اقتصادية ، وحنكة فى أمور المال ، استطاعت ان تحدث اصلاحات كثيرة في بعض مرافق الدولة ، وان تكون مثالا نادرا في الاقتصاد والتدقيق والكفاءة وابطال السنن الجائرة والضرائب الثقيلة (٢٦) فملأت أخبارها بطون المصادر ، لأنها متمكنة من اشغال هذا المنصب الخطير .

ان الاجراءات الحازمة التى اتخذها بعض الوزراء ، والثقة العالية التى كانوا يتمتعون بها ، عززت مركز الوزارة . لذا لقب بعض الوزراء بألقاب رنانة مثل : السلطان (٢٧) ، وذو الرئاستين (٢٨) ، والأمير ، وفخر الدولة ، وولي الدولة ، وعميد الدولة (٢٩) ، وأباح الخليفة ان يضرب لقب الوزير على الدنانير والدراهم (٣٠) . وبذلك ازدادت أهمية الوزارة ، وتعزز مركزها ، وصار باستطاعة الوزير ان يمارس صلاحياته كاملة ويؤثر بصورة مباشرة في رسم سياسة الدولة ، حتى انه صار يصدر كتبه الى حكام الأقاليم حاملة كنيته ولقبه (٣١) . وعندئذ أصبح للوزير رسم خاص في لباسه ، إذ كان يرتدى الملابس السوداء لأنها لباسه الرسمى . وفي المواكب الرسمية يلبس قباء وعمامة سوداء ، ويتقلد سيفا . وهذه الملابس تخلع عليه من قبل الخليفة بعد تقلده منصب الوزارة مباشرة . وكان عليه ان يركب يوم استيزاره الى دار الخلافة ليسلم على الخليفة ، ويتسلم أوامره وتوجيهاته . وخلال بقائه بمنصبه هذا كان عليه ان يركب مرتين فى الاسبوع الى دار الخلافة ليأخذ التوجيهات الجديدة ، وكان يحتفظ بوثائقه الرسمية المهمة في سفط من الخيزران ، وتختم هذه الوثائق عادة بخاتمه .

ومما يستدعى الانتباه تقديم الوزير على القواد وخضوعهم له . فقد كان من مراسيم الوزارة ان الوزير الجديد عندما يتقلد منصبه هذا يسير بين يديه الأمراء ، والقواد ، والعلماء ، والقضاة ، والفقهاء ، والأعيان (٣٢) . وفي بعض الأحيان يخرج الناس لاستقبال الوزير الجديد اكراما وتعظيما لمنزلته (٣٣) .

وعندما يسند منصب الوزارة الى شخص ما ، ينتقل الى الدار التى أعدت خصيصا لسكنى الوزير ، وهى دار المخرم ، التى كانت قديما لسليمان بن وهب ، على الشاطىء الشرقى لنهر دجلة ، وقد بلغت مساحتها (٧٣٣٤٦ ذراعا) (٣٤) . وكان يقف على باب الوزير ثلاثون رجلا لحراسته ، كما يقف في مجلس الوزير غلمان مسلحون (٣٥) . واعتاد الخليفة ان يتفقد أحوال وزيره ويواسيه عندما تنزل به الشدائد ، أو تلم به الخطوب (٣٦) .

واذا أراد الوزير ان يكتب شيئا في حضرة الخليفة ، كان الرسم ان تحضر له دواة لطيفة بسلسلة . تعلق السلسلة برقبة الوزير ، فيمسك بيده اليسرى ، ويكتب بيده اليمنى . وقد رأى الخليفة مشقة ذلك على وزيره على بن عيسى وهو يكتب كتابا هاما بحضرته ، فأمر ان يقف احد الخدم ليمسك الدواة الى ان يفرغ الوزير من الكتابة ، ثم أصبح هذا التكريم رسما للوزراء فيما بعد (٣٧) . وحفظا على اسرار الدولة جرت العادة ان يكون الشخص المكلف بحمل الدواة للوزير أميا حتى لا يستطيع ان يقرأ ما يكتبه الوزير ، لا سيما اذا كان ما يراد كتابته يتطلب السرية والكتمان (٣٨) .

ومما زاد في أهمية منصب الوزارة وخطورته ، انه كان للوزير سلطة الاشراف المباشر على ادارة الشؤون المالية للدولة ، إذ هو الذى يقوم بتقدير ميزانية الدولة ، وأصبح في مقدوره ازالة الرسوم الجائرة ، والعفو عن الجناة حسب قناعته (٣٩) . وفرض الضرائب أو اسقاطها ، وتحصيل الأموال من النواحي (٤٠) ، وزيادة أرزاق بني هاشم (٤١) .

وفي استطاعة الوزير استحداث دواوين

جديدة ، عندما يرى ان أمور الدولة تتطلب مثل ذلك . وكان من حقه ان يعهد بادارة الديوان الجديد الى احد ثقاته ومعتمديه (٤٢) .

وفي الأعم الأغلب ، كانت الدواوين الجديدة تؤدى خدمات جليلة ، إذ عن طريقها تم تمويل مشاريع خدمية لبعض المدن ، أو حماية الثغور (٤٣) . وربما خصص الوزير الديوان المستحدث لتصفية أملاك مناوئيه بعد ان نكل بهم (٤٤) .

وكان لبعض الوزراء مبادرات ناجحة في اصلاح الادارة وتنظيم الدواوين ، لخدمتهم الادارية ، وعملهم الدؤوب ، وهمتهم وصدق عزيمتهم واخلاصهم ، واعتمادهم على عناصر ذات خبرة وكفاءة في تسيير أمور الدولة . وحاول بعضهم اصلاح الاوضاع المالية المتردية ، ففرض رقابة محكمة على خزينة الدولة ، وطالب موظفيه ان يقدموا تقريرا حسابيا في نهاية كل اسبوع ، ونوى تقليص مصروفات دار الخلافة غير الضرورية (٤٥) ، كما أقدم فعلا على تخفيض رواتب الجند والحاشية ، وحاول الحد من البذخ الذى يتجاوز الحدود المألوفة (٤٦) ، مستهدفا عمل توازن بين الداخل والخارج . وعلى الرغم من ان اصلاحاته هذه كانت تجابه بمقاومة عنيفة ، الا ان الوزير كان يبدو غير آبه بها مع علمه أنها قد تعصف به وتزيحه عن منصب الوزارة . وعمل بعض الوزراء على ايقاف محاولات الجيش المتكررة للتدخل في الأمور السياسية والادارية . وبلا ريب ، فان نجاح مثل هؤلاء الوزراء ، يمثل انتصارا للسلطة السياسية على محاولات التدخل العسكرى (٤٧) .

ونستطيع ان ندرك الأهمية السياسية والادارية لمؤسسة الوزارة ، من ان بعض الوزراء كانوا يدركون حرج الظروف الناجمة من حصول جفوة بين الخليفة وقائد الجيش . وكان الخلفاء يصغون بامعان لمساعى وزرائهم (٤٨) . وقام بعض الوزراء بدور المحافظة على نظام الحكم ودعمه وتثبيت أركانه ، عن طريق اختيار اداريين أكفاء يديرون الاقاليم المختلفة . وفي بعض الأحيان امتد سلطانهم الى اختيار القادة العسكريين من ذوي الكفاءة والمقدرة والاخلاص . وبذلك تسنى للوزير ادخال تغييرات مهمة في اطار الدولة (٤٩) . وكان الوزير يرسم لحكام الأقاليم سياسة واضحة وعادلة ، ويؤكد ان عليهم ضرورة السير بموجبها وعدم الحياد عنها . ويحذرهم من مغبة اساءة معاملة رعاياهم . ويأمر أولئك الحكام بضرورة انصاف الجمهور والنظر في شكواهم ضد جباة الضرائب . وكثيرا ما كان الوزير يعلن أمام الملأ انه لن يتغاضى عن أى تقصير قد يرتكبه موظفو الدولة ، وينذر باتخاذ اجراءات شديدة ورادعة ضد كل شخص عمل على تحقيق أطماعه الشخصية . وحرص بعض الوزراء على نشر العدل بين الناس حتى ان بعضهم كان يجلس بنفسه للنظر في المظالم (٥٠) . وكثيرا ما كانت جهود هؤلاء الوزراء تثمر ، فيعم العدل والاستقرار الادارى والسياسى وتزدهر اقتصاديات البلاد .

واهتم بعض الوزراء بالأمور الصحية للمواطنين . ففي عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، أنشأ الوزير علي بن عيسى مستشفى في بغداد ، وأنفق عليه من ماله الخاص . وأوعز هذا الوزير الى الطبيب سنان بن ثابت ان يخصص أياما معينة من الاسبوع لزيارة المسجونين ومعالجة المرضى منهم (٥١) ، وشملت اهتماماته الصحية سكان القرى والارياف ، حيث أمر بارسال الأطباء لزيارة القرى في السواد ، وزودهم بكميات كافية من الأدوية والعقاقير الطبية لهذا الغرض ، والزم الأطباء البقاء في تلك النواحى المدة التى يتطلبها عملهم (٥٢) . وفي عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، قام الوزير علي بن الفرات بتأسيس مستشفى ، وكان ينفق عليه من ماله الخاص مائتى دينار في الشهر (٥٣) .

وشكلت مدخولات الوزير نسبة عالية من الدخل العام . ومن أوائل الذين أثروا من الوزراء

البرامكة الذين أثروا ثراء فاحشا ، وكثرت ضياعهم حتى بلغت غلة يحي البرمكي وابنه جعفر عشرين مليون دينار سنويا ، وصار هؤلاء ينفقون المال بغير حساب ، حتى تجاوز حد المألوف ، وأضحى عطاؤهم مضرب الأمثال . ومن المؤكد ان وراء هذا السخاء المفرط دوافع سياسية وقومية ، ومصالح شخصية . الا اننا لو نظرنا اليه من زاوية مكانة الوزارة ، فهو بلا شك يعطى صورة واضحة عن أهمية هذا المنصب واتساع نفوذه . واقتفى الوزراء من آل سهل أثر البرامكة في مجال المنح والعطاء فوهبوا أموالا كثيرة [٥٤] . ولعل مطامعهم لم تكن أقل من مطامع وأطماع البرامكة ، ان لم تكن أبعد غورا ، وأشد خطرا على كيان الدولة . ووهب الوزراء من آل الفرات أصحابهم ومؤيديهم وذوي الفضل عليهم جرايات مستمرة ، فمدحهم الشعراء . وكان الوزير علي بن الفرات يطلق للشعراء عشرين الف درهم في السنة رسما لهم ، وأجرى الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والفقراء ، وخصص لطلاب الحديث من ماله الخاص عشرين الف درهم [٥٥] . وقد جرى ان يقطع الخليفة وزيره الجديد الضياع العباسية التى كانت ايراداتها خمسين الف دينار ، ويجرى له في كل شهر خمسة آلاف دينار ، ويخصص لكل من أولاده ما بين الف الى خمسمائة دينار [٥٦] . وعند أول مقابلة الخليفة لوزيره يمنحه مقدارا مجزيا من المال . الا ان بعض الوزراء عزفوا عن أخذ واردات ضياع الوزارة متوخين من عملهم هذا الاقتصاد في النفقات ، وضاربين أروع الأمثلة في نكران الذات ، مما دفع الخليفة الى ان يكبر فيهم هذا الروح ، ويوجه اليه كتاب شكر وتقدير ، اعترافا بخدماتهم ونزاهتهم وتفانيهم في عملهم [٥٧] .

تدهور مركز الوزارة :

على الرغم من تمتع الوزير بسلطات واسعة ، الا أن الخليفة كان يستطيع متى أراد دون تردد [٥٨] ، لا سيما عندما تبرز ظاهرة تنازع الصلاحيات وعدم وضوحها أحيانا ، فيحصل تصادم بين سلطة الخليفة وصلاحيات الوزير ، فيلجأ الخلفاء الأقوياء الى الحد من تجاوز الوزير ومحاولته التوسع في الصلاحيات . ذلك ان الخليفة القوى يريد ان يمسك زمام الأمور بيده ، ويحول دون خروج السلطة الى أيدى مساعديه الذين قد يؤدى اتساع نفوذهم الى تآمرهم وانحرافهم . وهذا يفسر مقتل أبي سلمة الخلال ، ونكبة البرامكة ، وآل سهل ، وآل الفرات ، كما يوضح لجوء الخلفاء الأقوياء الى تعيين وزراء تنفيذ أشبه بالكتاب المقيدين بصلاحيات محدودة ، مثل وزراء المنصور ، والمقتدر بالله وغيرهما ، كما ان بعض الخلفاء أنصتوا لتخرصات مناوئى الوزير ووشاياتهم ، وحينئذ أقدم الخليفة على عزل الوزير ونكبته .

وهنا يتضح ان الوزير أحيانا ، لم يستطع ان يحافظ على قوة مركزه الذى جعله الرجل الثاني بعد الخليفة ، اذ لم تكن لدى بعضهم الحنكة والمرونة السياسية التى يمكن ان تعطيه التحليل الواضح لسياق الحوادث التى يتحتم عليه ان يرسم فى ضوئها العلاقات المتكافئة بين السلطة المدنية وبين العناصر العسكرية الطموحة القادرة على التغيير ، وعندئذ يصبح في امكانه ان يعزز السلطة المدنية لتبقى محتفظة بصلاحياتها وميزاتها المعلومة . وحينئذ يصبح في حكم الواقع جلب القادة العسكريين الى محور الوزارة ، والسير في ركابها . وهكذا أصبح دور بعض الوزراء أقل شأنا ، ولم يعد في مقدورهم ان يلعبوا دورا أساسيا في تصريف الأمور وفق مقتضيات المصلحة العامة . ويبدو ان هناك عدة عوامل ، على الصعيدين الداخلي والخارجي ، تضافرت لتوصل الوزارة الى وضعها المتردى ، بعد ان عمل بعض الوزراء ، فيما مضى ، على وضعها في محلها الطبيعى لتتبوأ مكانها الرئيسى فى توجيه سياسة الدولة .

وبما ان الوزارة ترتبط عضويا بالخلافة ، والوزراء انما يستمدون سلطتهم من الخلفاء وبتفويض منهم ، فتدهور مركز الخلافة ،

وحصول التدخل يؤديان بالتأكيد الى فقدان الوزارة لأهميتها . ونستطيع ان نلمس ذلك بوضوح منذ بدء التدخل التركى الذى اشتد أواره في أعقاب قتل الخليفة المتوكل على الله .

وابان القرن الرابع الهجرى ، أضحت الوزارة تفقد بعض مراسيمها لأن القوة الضاربة بميدان السياسة ، هى قوة الجيش ، فبرزت ظاهرة قلق الوزارة ، وأصبح كرسيها ارجوحة بين المتنافسين ، حيث استوزر احد الخلفاء أربعة عشر وزيرا خلال مدة خلافته التى لم تبلغ ربع قرن ، الأمر الذى أدى الى عدم استقرار المؤسسات المرتبطة بمنصب الوزارة ، وأصبح الوزير يشعر منذ بداية تقلده منصبه ، انه عرضة للعزل والمصادرة والتنكيل . فهو والحالة هذه غير مطمئن على الاحتفاظ بهذا المنصب ، ولا متيقن من حسن العاقبة [٥٩] . وقد وصلت به الحال انه كان يذعن لتهديدات التجار الذين كان باستطاعتهم عزل الوزير إذا ما قدموا للخليفة مبلغا مغريا من المال [٦٠] ، فتحول الوزراء الى أشخاص ثانويين ، ولم يعد مصيرهم بيد الخليفة ، إنما بيد القادة العسكريين الأجانب الذين عملوا على الغاء بعض رسوم الوزارة[٦١] .

وهكذا ضعف مركز الوزارة ، بحيث صار الوزير يتودد الى رجال الحاشية ، ويتملق القادة العسكريين [٦٢] ، فحطمتهم قوة الجيش وعداؤه لهم ، وأصبح الوزير عرضة لوثوب العامة وتطاولهم عليه [٦٣] . وأبدى كثير من الوزراء صراحة عدم مقدرتهم على حل المشاكل التى تواجههم . وبلا شك فان ذلك يمثل مظهرا من مظاهر الضعف والانحلال في مؤسسة الوزارة بحيث أصبح الوزير لا يمكنه ممارسة واجباته كاملة دون مساعدة ومؤازرة قادة الجيش وبعض رجال دار الخلافة . وما من ريب ، في ان تحكم الجيش والحاشية بشخص الوزير يدل دلالة أكيدة على الاتجاه نحو الانتقاص من قيمة الوزير ، وأهمية الوزارة ، فباتت تقلد لاناس دون مراعاة للكفاءة والمقدرة والنزاهة والاخلاص ، وانساق الوزراء في قبول الرشوة والهدايا [٦٤] . وقد جلبت هذه الأمور انتباه الشعراء فسخروا من هذه المظاهر وانتقدوها [٦٥] .

وعلى الرغم من تدني مركز الوزارة ، الا ان أشخاصا تهافتوا على هذا المنصب ، وتآمروا للحصول على كرسي الوزارة المهزوزة [٦٦] . وتنافسوا فيما بينهم لتقديم المبالغ المغرية للخليفة والحاشية في سبيل الحصول على منصب الوزارة ، وأصبح الوزير الجديد ملزما بمكافأة هؤلاء الذين سعوا له في الوزارة . وهذه دلالة على تحول الوزارة من منصب ادارى وسياسى مرموق يتولاه شخص ذو مؤهلات خاصة ، ويتناول مخصصات ورواتب مجزية ، الى منصب يتضمنه الوزراء بدفع أموال لبيت المال ليسد العجز المستديم ، وأصبح من المعتاد ان يتهم كل وزير سلفه بسوء التصرف والظلم والتعسف ، لذلك يعمد الى مصادرته . وأصبحت هذه الوسيلة ، بمرور الزمن ، سنة قبيحة لجأ اليها الوزراء للتنكيل بأعدائهم ، وصار منصب الوزارة سبيلا يوصل الى السجن ، أو القتل . وباتت خاتمة الوزارة غير سعيدة في أغلب الأحيان [٦٧] . والأغرب من ذلك ان بعض الوزراء لم يترفع عن سلوك الشعوذة والدجل في سبيل الحصول على هذا المنصب [٦٨] . ويبدو ان عملية التنافس والمساومة والمزايدة اشتد أوارها خلال الربع الأول من القرن الرابع الهجري ، وقد عمل أولئك المتنافسون على تصديع كيان الدولة بدسائسهم ، وشلوا الجهاز الادارى بانقساماتهم وتخاصمهم . ومع ذلك فان هذه البادرة توضح لنا مظهرا من مظاهر انحطاط مؤسسة الوزارة ، حيث وصلت الى الدرك الاسفل لما أصابها من ضعف كبير ملحوظ ، فتلاشى تأثيرها في سياسة الدولة أوكاد .

وليس ثمة شك ، أن تضاؤل أهمية الوزارة أثر كثيرا في ضياع وحدة الدولة واقتطاع الاطراف . إذ عجزت السلطة عن مناهضة العناصر المعارضة والحركات الانفصالية ، مما أتاح الفرصة أمام هؤلاء لأن ينشطوا ويعملوا لتحقيق مآربهم [٦٩] .

فانحطاط هيبة الوزارة ، وتراخي قبضتها ، أشعر حكام الاقاليم بضعف السلطة المركزية ، وعدم تمكنها من الهيمنة عليهم ، فجنح البعض منهم الى العصيان ، وشق عصا الطاعة ، ومن ثم الانفصال والاستئثار بولاياتهم ، ممتنعين عن دفع ما بذمتهم من الأموال ومبالغ الضمان (٧٠) .

وخلال فترة التسلط البويهي (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) مرت مؤسسة الوزارة بمرحلة حاسمة ، ذلك ان السلطة الاجنبية المتغلبة آثرت ان يقوم كاتب الأمير البويهي مقام وزير الخليفة الذى اكتفى بكاتب يدير أموره (٧١) .

وانتعشت مؤسسة الوزارة ، ودب فيها النشاط نسبيا ، وزاولت أعمالها خلال فترة التغلب السلجوقي ، حيث تبوأ الوزير مكانة مرموقة في المجتمع ونال رضا الناس ، والزم أرباب الدولة بالسعي بين يديه رجّاله أثناء توجهه الى ديوان الوزارة (٧٢) . الا انه برزت ظاهرة جديدة حيث كان للخليفة وزير ، وللأمير السلجوقي وزير آخر . وكانت مهام وزير الأمير أكثر من مهام نظيره وزير الخليفة الذى لم يستطع ان يسترجع سلطاته كاملة ، الا بعد تحرر الخلافة من السيطرة السلجوقية ، لا سيما في عهد الخليفة الناصر لدين الله ، حيث أصبح في مقدور الوزير ان يعين له نائبا يعاونه في ادارة شؤون الدولة (٧٣) .

ويمكننا ان نميز ضربين من الوزارة ، من حيث السلطات التى تمتع بها الوزير . فاذا كانت سلطاته مقيدة سميت «وزاة التنفيذ» واقتصرت مسؤولياته في تنفيذ أوامر الخليفة ووضعها موضع التطبيق ، فهو معين في تنفيذ الأمور وليس بولي عليها ولا متقلد لها . فالرأى والاجتهاد يبقى للخليفة ، فتكون مهمة الوزير ، انه وسيط بين الخليفة والشعب . ولما كانت وزارة التنفيذ هكذا ، لم يشترط الفقهاء فيمن يتولاها ، العلم والتضلع بالأحكام الشرعية ، والقدرة على الاجتهاد . وكذلك لا تشترط بوزير التنفيذ الحرية ، لأنه ليس له ان ينفرد بتوليه وتقليد . وأجاز الماوردى ان يعين وزراء تنفيذ من أهل الذمة . ومع ذلك فيجب ان تتوفر في هذا الوزير الأمانة ، والصدق ، والتعفف ، وحضور الذاكرة ، والفطنة والذكاء ، والا يكون من أهل الأهواء (٧٤) .

أما اذا كان الوزير مفوضا من الخليفة في ممارسة سلطات واسعة ، فيشترط فيه الكفاءة . حيث يكون لهذا الوزير النظر في المظالم ، وفرض الضرائب أو اسقاطها ، وله حق التقليد والتولية والعزل ، ويجوز له ان يتولى الجهاد بنفسه ، وان يقلد من يتولاه ، وله الحق في اتخاذ القرارات المهمة دون الرجوع الى رأى الخليفة وسميت الوزارة من هذا النوع بـ « وزارة التفويض » .

ومع تمتع وزير التفويض بكل هذه الصلاحيات ، الا ان للخليفة حق الاطلاع على ما أمضاه الوزير من تدبيره ، وأنفذه من ولاية وتدبير ، ليقر منه ما وافق الصواب ، ويستدرك ما خالفه . ومادامت لوزارة التفويض كل هذه الأهمية ، فولايتها لا تصح الا بعقد يشتمل على عموم النظر والنيابة ، كأن يقول الخليفة لوزيره : « قد قلدتك ما اليّ ، والنيابة عني » أو « قد فوضنا اليك الوزارة » (٧٥) .

وقد أوضح جمهور الفقهاء (٧٦) أوجه الفروق بين وزارتى التفويض والتنفيذ في النقاط التالية :

١ ـ لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم ، وليس ذلك من حق وزير التنفيذ .

٢ ـ يجوز لوزير التفويض ان ينفرد بتقليد الولاه ولاياتهم ، وليس ذلك من حق وزير التنفيذ .

٣ ـ يحق لوزير التفويض ان ينفرد بتسيير الجيوش ووضع الخطط العسكرية اللازمة لها ، وليس ذلك من حق وزير التنفيذ .

٤ ـ يجوز لوزير التفويض ان يتصرف في أموال بيت المال العام ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

وفي الوقت الذى أجاز الفقهاء للخليفة ان يقلد وزيرى تنفيذ مجتمعين ، لم يتفقوا على ان يكون هناك أكثر من وزير تفويض واحد ، في حين يجوز للخليفة ان يقلد وزير تفويض ووزير تنفيذ في آن واحد .

الهــوامش

١ ـ سورة طه: آية ٢٩ وما بعدها.
٢ ـ الماوردى: أدب الوزير، ص ٩. والاحكام السلطانية، ص ٢٠
٣ ـ ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٦.
٤ ـ السامر و آخرون: تاريخ الحضارة، ص ٦٤.
٥ ـ الكبيسى: عصر الخليفة المقتدر بالله ص ١٥٠.
٦ ـ ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٧
٧ ـ ن. م. ص ٢٣٨.
٨ ـ الجهشيارى: الوزراء ص ٨٤، ابن الطقطقا: الفخرى فى الاداب السلطانية، ص ٥٥.
٩ ـ الجهشيارى: الوزراء، ص ٨٩.
١٠ ـ ابن الطقطقا: الفخرى، ص ١٥٦.
١١ ـ نفس المصدر، ص ١٧٤ المعاضيدى و آخرون: دراسات فى تاريخ الحضارة، ص ١١٥.
١٢ ـ ابن الطقطقا: الفخرى، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
١٣ ـ نفس المصدر، ص ١٧٨.
١٤ ـ التنبيه والاشراف، ص ٣٤٠.
١٥ ـ الاحكام السلطانية، ص ١٨.
١٦ ـ متز: الحضارة الاسلامية، ج ١، ص ١٧٢.
١٧ ـ الصابى: الوزراء، ص ٣٤٦.
١٨ ـ الكبيسى: عصر الخليفة المقتدر بالله، ص ١٥١.
١٩ ـ ابن الطقطقا: الفخرى، ص ١٨٢.
٢٠ ـ ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٨.
٢١ ـ المقريزى: شذور العقود، ص ١٨.
٢٢ ـ الكبيسى: اسواق بغداد، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
٢٣ ـ ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٨.
٢٤ ـ ابن الطقطقا: الفخرى، ص ٢٢١.
٢٥ ـ مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ٣.
٢٦ ـ الصابى: الوزراء ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩. مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ٢٧. الفخرى، ص ٢٦٧.
٢٧ ـ ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٨.
٢٨ ـ ابن الطقطقا: الفخرى، ص ٢٢١.
٢٩ ـ الهمدانى: تكملة، ج ١، ص ٦٤.
٣٠ ـ عريب: الصلة، ص ١٦٧، مسكوية: تجارب، ج ١، ص ٢٢٣. ابن الاثير الكامل، ج ٦، ص ٢١٩
٣١ ـ عريب، الصلة، ص ١٦٧.. الهمدانى: تكملة، ج ١، ص ٨٢.
٣٢ ـ عريب: الصلة، ص ٢٨. المسعودى: مروج، ج ٤، ص ٢٣٣، مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ٨.
٣٣ ـ مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ١٥١، ابن الجوزى: المنتظم، ج ٦، ص ٢٠٥.
٣٤ ـ متز: الحضارة الاسلامية، ج ١، ص ١٧١.
٣٥ ـ عريب: الصلة، ص ٦٢.
٣٦ ـ ابن الجوزى: المنتظم، ج ٦، ص ١٦٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٤٤.
٣٧ ـ الصابى: الوزراء، ص ٢٣٩.
٣٨ ـ الكبيسى: عصر الخليفة المقتدر بالله، ص ١٥٦.
٣٩ ـ الصابى: الوزراء، ص ٣٣. الهمدانى: تكملة، ج ١، ص ١٦، عريب: الصلة، ص ١١٦ ابن الاثير: الكامل، ج ٦، ص ١٧٦.
٤٠ ـ الصابى: الوزراء، ص ٢٣٩. ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٨.
٤١ ـ مسكوية: تجارب الأمم، ج ١، ص ١٣، الصابى: الوزراء، ص ١٣٥ و١٥٨.

٤٢ ـ مسكوية: تجارب الأمم، ج ١، ص ٤٢.
٤٣ ـ ابن الاثير: الكامل، ج ٦، ص ١٥٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٢٣.
٤٤ ـ مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ٢٢٣. الهمزاني: تكملة، ج ١، ص ٦٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٦٨.
٤٥ ـ الصابي: الوزراء، ص ٣٣. الهمزاني: تكملة، ج ١، ص ١٦.
٤٦ ـ مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ٢٩ و١٥٢. ابن الاثير: الكامل، ج ٦، ص ١٨٤.
٤٧ ـ الصابي: الوزراء، ص ٥٣ و٢٢٣ و٢٢٤. مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ١١٦ ـ ١١٧ الذهبي: دول الاسلام، ج ١، ص ١٣٨.
٤٨ ـ عريب: الصلة، ص ١٧٥.
٤٩ ـ مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ٢٣ و٢٨. عريب: الصلة، ص ٢٩.
٥٠ ـ عريب: الصلة: ص ٤٨ و١٣٠؛ مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ٢٨ و١٥٢.
٥١ ـ ابن ابى اصيبعة: طبقات الاطباء، ج ٢، ص ٢٠٢ و٢٢٥.
٥٢ ـ القفطي: اخبار الحكماء، ص ١٩٤.
٥٣ ـ ابن ابى اصيبعة: طبقات الاطباء، ج ٢، ص ٢٠٨.
٥٤ ـ الثعالبي: لطائف المعارف، ص ٢٢. وثمار القلوب، ص ١٥٤.
٥٥ ـ الصابي: الوزراء، ص ٨٧ و٢٠١ ـ ٢٠٢ و٢٢٣ و٢٣٧. مسكويه: تجارب الامم، ج ١، ص ١١٩. ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ٣، ص ٩٩
٥٦ ـ الصابي: الوزراء، ص ٢٩ و٢٦٢ و٢٨٤ و٢٨٥.
٥٧ ـ الكبيسي: عصر الخليفة المقتدر بالله، ص ٢٢٠.
٥٨ ـ الدوري: النظم الاسلامية، ص ٢٢١.
٥٩ ـ الهمداني: تكملة، ج ١، ص ٣٣
٦٠ ـ التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٣٢ ـ ٣٣.
٦١ ـ ابن الطفطقا: الفخرى، ص ٢٨٢.
٦٢ ـ الصابي: الوزراء، ص ٥٧، مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ١٢٢.
٦٣ ـ مسكويه: تجارب الامم، ج ١، ص ٢٢، عريب: الصلة، ص ١٥٦ ـ ١٥٧. ابن الجوزى: المنتظم، ج ٦، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.
٦٤ ـ الهمداني: تكملة، ج ١، ص ١٢.
٦٥ ـ عريب: الصلة، ص ٤١. ابن الطفطقا: الفخرى، ص ٢٦٧.
٦٦ ـ مسكويه: تجارب الامم، ج ١، ص ١٢٧. ابن الاثير: الكامل، ج ٦، ص ١٧٨ او ١٩٢.
٦٧ ـ عريب: الصلة، ص ٣٦ و٦٠ مسكويه: تجارب الامم، ج ١، ص ١٠٤. ابن الاثير: الكامل، ج ٦، ص ١٧٩.
٦٨ ـ عريب: الصلة، ص ١٦٤. مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ١٢٧.
٦٩ ـ مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.
٧٠ ـ عريب: الصلة، ص ٤٢، مسكوية: تجارب الامم، ج ١، ص ٤٥ ـ ٤٧.
٧١ ـ ابن الاثير: الكامل، ج ٦ ص ٣١٥.
٧٢ ـ ابن الطفطقا: الفخرى، ص ٣٠٤.
٧٣ ـ ابن الطفطقا: الفخرى، ص ٢٩٤ و٣٠٤. السامر وآخرون: تاريخ الحضارة، من ص ٦٦ ـ ٦٧.
٧٤ ـ الماوردى: الاحكام السلطانية، ص ٢٠.
٧٥ ـ نفس المصدر، ص ١٩.
٧٦ ـ نفس المصدر، ص ٢٠ ـ ٢١. ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٩.

خصائص المدينة الاسلامية
عند المؤلفين العرب
دراسة في التمدن العربي الاسلامي

د . عبدالجبار ناجي
كلية الآداب / جامعة البصرة

حظيت المدينة العربية الاسلامية على اهتمام متزايد من المتخصصين فى حقل التمدن من الأجانب منذ الحقبة الاولى من القرن العشرين. اذ ان هؤلاء، لا سيما المستشرقين الفرنسيين، ساهموا فى العديد من الدراسات الجيدة سواء كانت المتعلقة بواقع التمدن العربى الاسلامى ومقوماته وخصائص المدينة العربية وطوبوغرافياتها ام تلك التى تركزت على احدى المدن العربية ام التى تركزت على التركيب الاجتماعى والبنية الاجتماعية داخل المدينة العربية.

وتأكيدا لذلك فانه بالامكان القول بأن الدراسات والمساهمات الاجنبية بشأن المدينة العربية الاسلامية وبشأن التمدن العربى قد دارت حول عدة محاور متمشية مع تطور الدراسات الاستشراقية عن التاريخ العربى[1] وقد تميزت هذه المحاور باتجاهاتها واهدافها وتفسيراتها.

أولا: هناك مجموعة من الدراسات التى هدفت الى تجريد المدينة العربية الاسلامية من اصالتها ومن مفهومها التمدنى وذلك عن طريق ارجاعها الى اصل غربى او انها متأثرة بالمدينة الغربية، هيلينية او يونانية او رومانية. فالمستشرق الفرنسى سوفاجيه Sauvaget ابرز فى كتابه المعروف «حلب» وبحوثه الاخرى عن مدينة اللاذقية ودمشق بأن العرب المسلمين لم يضيفوا الى هذه المدن اى اضافات تمدنية جديدة انما حافظوا على ما كان متواجدا فيها من مكونات. وشدد قائلا على ان كل ما اضافة العرب من وحدات طوبوغرافية وخطط قد ادى بحقيقة الامر الى تشويه تركيب تلك المدن وتشويه بنيتها الداخلية القديمة والاضرار بوحدتها. والمدينة العربية، فى نظر سوفاجية، ماهى الا مدينة اوربية قديمة[2]. وظلت آراء سوفاجيه متداولة فى الغرب فقد كررها بحماس

اكسفير بلا نهول Xavier de Planhol فى كتابة «عالم الاسلام» The World of Islam ويعد بلا نهول من ابرز المناصرين لهذا الاتجاه، اذ يرى بأن الصفة الاساسية التى تتصف بها المدينة العربية هى الفوضى فى التخطيط وعدم وجود اسس تخطيطية ثابتة (٣) فيها ويرى ايضا بأنها كانت خالية تماما من اى وحدة تركيبية، وانها مضطربة وضعيفة التماسك على عكس المدينة الرومانية ومدن اوروبا فى العصور الوسطى. ويبرز فى كتابة ان العرب قد قلدوا ببساطة المدن القديمة الموجودة، فالسوق Bazaar ماهو فى حقيقته الا Colonnaded Avenue الرومانى والقيصرية فى المدينة العربية ماهى الا الباسليكا Basilica الرومانية والحمام فى المدينة العربية وريث للترما Therma اليونانى. وفى الوقت نفسه فان هنرى بيرنية Pirenne قد ذهب ابعد من ذلك إذ أرجع سبب انحطاط تجارة اوروبا الى الفتوحات العربية الاسلامية وبأن التقدم الاسلامى يعد السبب الاساسى فى تدمير التمدن الاوروبى ورخاء المدينة الاوروبية فى منطقة البحر المتوسط(٤).

ولقد أثرت آراء سوفاجية وبيرنية المعادية لاصالة المدينة العربية ووحدتها وفعاليتها على الكثير من الذين اهتموا بالمدينة العربية من الاجانب اذ ظهرت كتابات ودراسات عدة تركز ايضا على مبدأ افتقار المدينة العربية الاسلامية لبعض الخصائص التى ينبغى توفرها فى اى مكان يكون مدينة ومما له علاقة بذلك فان الاوروبيين فى تحديدهم للمدينة وضعوا، على وجه الخصوص ماكس ويبر واشلى. عددا من الخصائص التمدنية وجعلوها هى السمات الاساسية التى تحدد موقف هذا المركز او ذاك الموقع بأن يكون مدينة أو قرية ام غير ذلك. فاما الخصائص التى التزم بها ماكس ويبر فهى خمسة:

١ ـ الحصن او السور Fortifcation
٢ ـ السوق
٣ ـ المحكمة والقضاء على ان يتمتع بقانون مستقل
٤ ـ النقابة. Form of association.
٥ ـ الحكم الذاتى المركزى الذى يستند على انتخاب اعضاء المساكنة الادارية (٥).

فى الوقت الذى اكتفى به اشلى، الذى سبق ويبر فى عرضه للسمات والخصائص التمدنية، بثلاث خصائص وهى:

١ ـ المدينة حصن Befestigt ويعد اشلى هذه السمة من السمات الهامة لان كلمة برج BURG لم تستبدل فى اوروبا الوسطى الى STADT ـ مدينة ـ الا بعد حوالى سنة ١١٠٠م. وكان السور او البرج على شكل دائرى او على شكل خندق.
٢ ـ المدينة المكان الذى يسوده الأمن والاستقرار للنشاط التجارى.
٣ ـ المدينة مجتمع القانون الذى يهدف الى خدمة المصلحة العامة ويعتبر القانون والمحكمة السمتان الهامتان فى ان تكون المدينة مدينة فعلا(٦).

ثانيا: بينما اتجه، فى الجانب الاخر، عدد من المتخصصين الى محاولة التركيز على ان المدينة العربية الاسلامية تتسم باصالة تاريخية وبأن هناك عددا من المؤسسات فيها، كما اظهروا بأن هناك وحدة فى تركيب المدينة العربية الداخلى. وفوق ذلك كله فان ممثلى هذا الاتجاه شددوا على ان الاسلام والفتوحات الاسلامية لم تكن موجهة ضد التمدن ولم تكن كارثة احلت الدمار فى التمدن الاوروبى فالدين الاسلامى لم ينشأ الا فى اكناف مجتمع متمدن وانه دين مدنى فى اصوله. وقد دافع كل من ماسينيون ولويس واتيجر على وجود مؤسسة النقابة فى المدينة العربية معتمدين بذلك على عدد من الاشارات فى المصادر العربية (٧).

كما وجد الاخوان وليم مارسيه وجورج مارسيه الفرنسيان ان المدينة العربية الاسلامية تجمعها وزميلاتها المدن العربية الاخرى عدة عناصر طوبوغرافية متماثلة لا سيما فى تلك المدن التى اسسها العرب اثناء حركات التحرر العربى

ومن امثال هذه العناصر المسجد الجامع والسوق والتوزيع السكانى والبشرى [٨]. وفى هذا الصدد رد بوتى Pauty على تلك الآراء المعارضة لاصالة المدينة العربية فرأى بأن هناك عددا من المدن العربية قد تأسست دون تخطيط مسبق بل دون تقليد فهى لم ترث تصميما قديما ويقصد بهذا التحديد توضيح اصالة مثل تلك المدن العربية.

كذلك لابد لنا فى هذا الجانب من الدراسات ان نشير الى ما اورده لومبارد اذ قال بأن العالم الاسلامى صار منذ القرن الثامن الميلادى وحتى القرن الحادى عشر للميلاد مسرحا لتوسع تمدنى ضخم متمثل بظهور عدد من المدن التى صارت بمرور الزمن من امهات المدن العربية.. واضاف قائلا بأن التمدن الاسلامى هو اكثر بعدا وتأثيرا من التمدن الرومانى [٩]. واشار لابيدوس بأن الفتوحات الاسلامية لم تؤد بأية حال الى تخريب المدن القديمة على اعتبار ان هذه المدن قد تضاءلت اهميتها وفقدت خصائصها التمدنية قبل ان تبدأ الفتوحات العربية الاسلامية بفترة غير قصيرة[١٠].

ثالثا: وقد برز منذ فترة قصيرة اتجاه اخر فى الدراسات الاجنبية للمدينة العربية الاسلامية، وهو اتجاه ركز بشكل خاص على الجوانب الاجتماعية كالحركات الجماهيرية والتنظيمات الاجتماعية وذلك لان مثل هذه التطورات تعد احدى الخصائص التركيبية للمدينة ايضا. ومن الامثلة التى يجدر الاشارة اليها فى هذا الصدد كتابات كلود كاهين. اذ اورد فى مساهماته ان المدينة العربية الاسلامية قد اتسمت بوجود حركات شعبية مستقلة تشابه الحركات التى شهدتها المدينة الاوروبية الوسيطة. وقد خص فى دراساته حركات العيارين والفتوة والاحداث والشباب والشجعان والحرافيش [١١].

ايضا يستحسن الاشارة الى دراسة اشتر حول التنظيمات الاجتماعية وعلاقتها بالتمدن العربى فى المدن السورية[١٢].

رابعا: ولم يقتصر مجال الدراسات التمدنية فى اوروبا على المساهمات التى قام بها المؤرخون والمستشرقون اذ ظهر تحول هام فى هذه الدراسات فى الولايات المتحدة الامريكية بشكل خاص. فقد برز اهتمام متزايد من قبل علماء الاجتماع التمدنى بدراسة التمدن العربى على ضوء ما توصلوا اليه من نظريات اجتماعية، والواقع ان اهتمامات هؤلاء الباحثين الاجتماعيين لم تكن موجهة نحو دراسة تاريخ التمدن العربى القديم والوسيط، ونحو دراسة اصالة تاريخ المدينة العربية بقدر ماهى اهتمامات نابعة من معاصرة تخصصاتهم فى علم الاجتماع. ولذلك فانهم اولوا اهمية متزايدة الى التمدن فى الشرق الاوسط خلال الفترات التاريخية الحديثة والمعاصرة، ورجعوا الى تاريخ هذه المدينة او تلك بشكل تمهيدى من اجل تفسيرها، كنظرية المؤسسات او نظرية الظروف الاجتماعية او غيرهما[١٣].

وبالرغم من ان علماء الاجتماع التمدنى لم يقفوا كثيرا على الخلفية التاريخية لهذه المدينة العربية او تلك فانهم فى الوقت ذاته قد ادلوا بعدد من التفسيرات المهمة عن نشوء المدينة وتطورها واضمحلالها، وابدوا آراء حول مكانة التمدن العربى.

غير ان الملاحظة الهامة التى يجدر طرحها فى هذا المجال من الدراسات الاجتماعية، وبشكل خاص الدراسات الامريكية ان توجهها قد انطلق من واقع المدينة الاوروبية والامريكية فى الوقت الحاضر ومن المشاكل التى تواجهها وتعانى منها كالازدحام والبطالة وازمة السكن وتزايد الهجرة من الريف وميزانيتها الاقتصادية ومشاكل النقل والمواصلات ولقد اتجهت من هذه المنطلقات عند تناولها اى مدينة عربية سواء فى الفترات الاسلامية ام المعاصرة. فالباحثون الاجتماعيون هنا لم يهمهم كثيرا المواضيع التى سبق ان ركز عليها مؤرخو المدن وفيما اذا وجدت مؤسسات ـ كالنقابة ـ فى المدينة العربية الاسلامية ام لم توجد

بقدر ما يهمهم الامر فى ماهية الحلول التى توصل اليها العرب المسلمون لمواجهة المشاكل الانفة الذكر [١٤].

فالباحث الاجتماعى بينيت Benet مثلا ركز فى بحثه الموسوم «فكرة التمدن الاسلامى» على الاسس القبلية فى نشوء المدن التى اسسها العرب الفاتحون (اى الامصار) سواء كانت تلك الاسس فى تقسيماتها الطوبوغرافية ام فى تنظيماتها الاجتماعية.. واشار ايضا الى المحاولات الجادة التى قام بها واتخذها عدد من المسئولين الاداريين فى هذه المدن من اجل اجتثاث الاتجاهات القبلية. وهو يرى بأن الاسلام دين تمدنى اذ انه اول ما ظهر فى مدن تجارية [١٥] فحسب.

وفى الجانب الاخر فقد تناول الباحثان الاجتماعيان كومبير وورنر Cembaire, Werner فى كتابهما «كيف تنمو المدن» مسألة السكان فى المدينة العربية، واوضحا ان اهالى تلك المدن منقسمون على انفسهم دينيا واقليميا وعنصريا. وهم منقسمون الى جماعات وكتل لها قوانينها الخاصة ورؤسائها [١٦]. وفى نفس الوقت فقد ركز هاموند Hammond على هذه المسألة ايضا مؤكدا على التركيب الاجتماعى القبلى للمدينة العربية [١٧]. بينما تتبعت دراسة جانيت ابولغد Abu Lughud حول «نماذج من التجارب التمدنية» مشكلة الهجرة فى مدينة القاهرة خلال الفترة الاسلامية وفيما اذا كانت هذه الظاهرة قد شكلت مشكلة سكانية [١٨]. وتأتى دراسة روبرت ادامز Adams ضمن هذا المحور من المساهمات وهى الموسومة «ارض وراء بغداد/ تاريخ تمدنى فى وادى ديالى». اذ انه ركز ايضا على موضوع السكان وحجمه فيقول ان سعة التمدن الاسلامى فى العراق كانت تمثل/ باستثناء بغداد وسامراء، نسبة ٣٣٪ من نسبة مجموع المنطقة التمدنية المستقرة. وهى نسبة، كما يرى ادامز، تعادل اذا ما اضيف اليها كل من بغداد وسامراء، اربعة اضعاف نسبة التمدن فى الفترة الساسانية.. وقد توصل الى نتيجة مفادها ان نمو المدن العربية الاسلامية قد وصل خلال تلك الفترة من التاريخ العربى الى اعلى مرحلة من التطور التمدنى قبل الفترة الحاضرة [١٩]. وكرر لاسنر اراء ادامز فى هذا الصدد. واضاف لابيدوس Lapidus الى اهمية السعة السكانية للمدينة العربية قياسا بالمدن التى كان موجودة [٢٠] انذاك.

ومن الجانب الاخر توجهت دراسة سكانلون Scanlon الى موضوع الخدمات الصحية فى مدينة العصر الوسيط مشيرا الى ما كانت تتمتع به المدينة العربية الاسلامية من نظافة ومن اعتناء فى تزويد المياه ومن مراقبة للباعة، ومضيفا ايضا معلومات حول المساعى التى بذلت فى التغلب على مشكلة التزاحم [٢١]. وتأتى دراسة جرابر Graber ضمن هذا المحور اذ تناول فيها رفاه المدينة العربية واستشهد بوصف بيت من بيوت المدينة، كما اشار الى موضوع تزويد المياه [٢٢].

واقع المساهمات العربية فى حقل التمدن العربى

لم تبلغ الكتابات العربية الحديثة حول المدينة العربية الاسلامية كما ونوعا نفس الضخامة التى بلغتها فيها الدراسات الاجنبية. وربما يرجع ذلك الى جملة اسباب.

* عدم استقلالية حقل التمدن العربى الاسلامى او بالاحرى حقل التخصص فى المدن العربية الاسلامية فى النواحى التاريخية واعتبار الحديث عن تأسيس المدن ونشوئها وتطورها فقرة من فقرات الحضارة العربية الاسلامية عموما، فهناك عدد ممن كتب عن هذا الموضوع يجعل الحديث عن المدينة العربية ضمن التطرق الى المجتمع العربى الاسلامى فى العصر الوسيط [٢٣]، فى حين يجعل البعض الاخر هذا الباب ضمن الحديث عن النواحى الفنية فى الحضارة العربية كفن البناء وفن العمارة [٢٤]، ويفرد البعض الثالث بابا خاصا يحمل عنوان (احوال المدن) يأتى فى ترتيبه المنهجى تقريبا بعد التحدث عن الاحوال الاجتماعية للمجتمع العربى.

وقد ظل هذا الموضوع الهام ثانويا ولا يحتل الا جزءا يسيرا من اهتمام الباحثين العرب المحدثين واعتباره جزءا ثانويا ـ لموضوع الحضارة على الرغم من ان المدينة تمثل ارقى انجاز توصلت اليه الانسانية، فهى المكان الذى تظهر فيه جميع خبراتها الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والادارية، فالمدينة كما يرى شينجلر وبودلنك هى الحضارة [٢٥]. وحديثا فقط اولى المؤرخون العرب اهتماما مستقلا بهذا الميدان حينما اخذوا يتناولون فى دراساتهم الاكاديمية هذه المدينة او تلك ويجعلونها اساسا للتطورات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعمرانية والهندسية عبر مراحل تاريخية [٢٦] مختلفة وحينما توجهوا الى دراسات تحمل عناوين واضحة امثال «المدن العربية» و«تمدن شمال افريقيا» و«التمدن فى العراق».. الخ.

* كذلك يرجع السبب فى عدم استقلالية هذا الحقل الى تشابكه مع عدة حقول علمية اخرى. فالاثرى يجد فى المدينة الانموذج الواضح لدراسته فى تخطيط المدينة واثارها العمرانية والهندسية القديمة لا سيما اذا ابتعدت هذه المدينة او تلك كثيرا فى التاريخ ويرى الجغرافى فى المدينة حقلا خاصا فى جغرافية المدن لانها تعتبر الوحدة الجغرافية الواقعية المعاصرة التى من خلالها يلقى الضوء على الجوانب السكانية والاجتماعية والبيئية والتخطيطية وكذلك على الجوانب المتعلقة بالنقل والمواصلات وغير ذلك. وبالفعل فقد غلبت الدراسات الجغرافية المتمثلة بموضوع جغرافية المدن كثيرا على المساهمات العربية الحديثة. غير ان الجغرافيين ـ وهم يتناولون هذا الحقل ـ يجدون انفسهم مضطرين الى تعقب الخلفيات التاريخية للمجاميع من المدن التى يخصونها بالبحث والدراسة.

مفهوم العرب للمدينة

كيف نظر العرب، المؤرخون منهم والكتاب والجغرافيون، الى موضوع المدينة خلال العصر الوسيط ؟ وهل هناك تفهم عربى للتحدث وفقا لمنظوره وبعده الحضارى ؟ وهل حددوا خصائص متميزة فى المكان كى يتخذ دور المدينة أعنى هل ميزوا بين المدينة وغيرها تمييزا مستندا على الحجم أم السكان ام المساحة... الخ ؟ قبل الاجابة على هذه التساؤلات وغيرها لابد من الاشارة الى ان المتخصصين فى حقل التمدن من الاجانب قد اختلفوا فى نظرتهم الى المدينة من حيث تشخيص الاسس التى تعتمد فى التمييز بين المدينة City والبلدة Town والقرية .Village فمنهم من شدد على مفهوم عدد السكان وحجمه واعتبره الحد الفاصل بين المدينة والقرية او بين المدينة والبلدة اقترح بعض العلماء الالمان ان كثافة السكان هى الاساس الامثل لذلك فالمكان الذى يبلغ تعداد نفوسه اقل من ٥,٠٠٠ شخص يعتبر قرية زراعية، والذى يبلغ تعداد سكان ٢٠,٠٠٠ شخص فهو مدينة صغيرة، والذى تعداد ١٥٠,٠٠٠ شخص هو مدينة متوسطة، اما المكان الذى يبلغ تعداد سكانه ١,٥٠٠,٠٠٠ مليونا ونصف فهو مدينة كبيرة [٢٧].

وفى الجانب الأخر فان علماء اخرين شددوا على المساحة وحجم المكان كحد فاصل للتمييز بين تلك التعبيرات [٢٨].

وقد طبق ماكس ويبر[٢٩] Max Weber فكرة الخصائص فأن توفر وجودها فى مكان ما يعد مدينة والا فانه بلدة او قرية، والخصائص كما تقدم ذكرها هى السور، والسوق، والمحكمة، والنقابة، والحكم الذاتى ومن الجدير ذكره ان مبدأ الخصائص او العناصر التى ينبغى تواجدها فى اى مكان لكى يكون مدينة هو مبدأ قديم واقدم من فترة ويبر بكثير فقد اشار فون كرونيباوم Creunebaum الى ان احد اليونانيين (المتوفى سنة ١٧٦م) ذكر بأن المدينة هى المكان الذى يتوفر فيه السلطة، والجمنازيوم، والسوق والمسرح، وماء الشرب، والحدود الواضحة، وممثلون عن المدينة فى مجلس[٣٠] ادارى.

ويرجع اصل كلمة مدينة، في اللغة العربية، الى مدَنَ، في المكان اي أقام به، وان معنى مدّن المدائن اي [٣١] مصرها. وأورد كل من الفيروز ابادي وابن منظور معنى آخر للمدينة فالمدينة عندهما هى الحصن يبنى في اسطحه من الأرض، وان كل أرض يبنى فيها حصن في أصطحتها هي مدينة [٣٢]. ويشير الفيروز ابادي اشارة هامة الى جعل المدينة تعادل الأمة [٣٣]. علاوة على ذلك فان الجوهري والزبيدي قد أشارا الى ان أصل كلمة مدينة يرجع الى دين، ويقول الجوهري ان دين يقصد بها الملك[٣٤]. ويضيف الزبيدي قائلا ان كلمة ودنته تعني ملكته، فهو مدين [٣٥] مملوك، ثم يعقب على ذلك قائلا بان جماعة من الناس يرون ان مدينة ترجع في الأصل الى كلمة دين لكونها تملك [٣٦] والحقيقة ان لهذا التحديد اللغوي الأخير واعني به المدينة = دين = مُلك أهمية بالغة جدا وذلك لان عددا من المتخصصين الاجانب في حقل التمدن Urbanization قد ارجع اصل كلمة المدينة الى كلمة Din معتقدا بأن اصل هذه الكلمة ارامي أو عبري والمقصود بها في هذه اللغات العدالة [٣٧]، وأورد حجازي في (المدخل في علم اللغة) بان اصل كلمة المدينة يرجع الى كلمة دين وهي كلمة سامية، وانها (المدينة) تعرف عند الاكديين والاشوريين بالدين اي القانون. كما ان الديان يقصد به في اللغة الارامية والعبرية القاضي، وان بيت الدين هو مقر الحكم والمحكمة.. والمعروف ان الدائن والمدين في اللغة العبرية مصطلحان قانونيان. وبذلك ينتهى حجازي الى القول بأن مصدر كلمة المدينة ارامي مأخوذ من لفظة مدينتا وتعني مكان القضاء [٣٨].

ويتضح من جميع هذه الدلائل اللغوية بأن العرب عندما ارجعوا اصل الكلمة لغويا الى دين ويقصد به الملك والتملك انما يدل دلالة أكيدة على وضوح فهم العرب للعلاقة بين المدينة والقانون، وهو أمر سنقف على ذكره فيما بعد. واضافة الى ما تطرقنا اليه من منطلق لغوي فان هنالك عددا من الاحاديث النبوية الشريفة التى جاء فيها ذكر لاسم الفاعل للكلمة (اي الديان) ويقصد بها ايضا المالك والحاكم. فقد أورد كل من البخاري واحمد بن حنبل حديثا عن جابر بن عبدالله عن الرسول الكريم (ص) قال «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم يحشر العباد أو قال الناس حفاة عراة عزلا ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب انا الملك انا الديان لا ينبغي لاحد من أهل الجنة ان يدخل الجنة ولا احدا من أهل النار عليه مظلمة حتى قصة منه [٣٩]...».. وورد ايضا في حديث نبوي شريف آخر «يا مالك الناس وديان العرب [٤٠]». وفي حديث آخر عن ابن عمر قال «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول يأخذ الديان سماواته وأرضيه بيده وقبض يده وجعل يقبضها ويبسطها [٤١]». من هذا كله يمكننا القول بان أصل الكلمة، المدينة، عربي وليس كما ورد سابقا من انه ارامي أو عبري. كذلك فان مفهوم العرب للمدينة بانها تعادل وتقارب أو تقابل الأمة انما هو مفهوم حضاري متطور يرتبط كثيرا بما تقدم ذكره.

ولم يقتصر استخدام العرب لتعبير المدينة كدليل على المستقر أو المكان انما استخدموا تعبيرات أخرى مشابهة تشير الى نفس المفهوم التمدني من أمثال : مصرو حاضرة، وقدرة، ولو رجعنا الى تبيان الأصول اللغوية لهذه التعبيرات لتوصلنا الى اظهار عمق الفهم العربي الحضاري لمدلولاتها. فالمصر انما يعني الحد أو الحاجز بين شيئين. فيقال ان فلانا اشترى الدار بمصورها اي بمعنى الدار بحدودها [٤٢]، ويقال ايضا مُصّر المكان تمصيرا أي جعله مصرا. وورد ايضا ان المصر يعني كل كورة يقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء والصدقات [٤٣]، وتوسع الجغرافي المقدسي في فهمه للمصر بانه العاصمة [٤٤]، فالمعروف ان كلمة مصر ارتبطت على وجه العموم بالامصار السبعة، واقتصرت على وجه التخصيص بالامصار التي أسسها العرب اثناء الفتوحات الاسلامية، وتحدد اللفظ بشكل اضيق على المصرين البصرة والكوفة على اعتبار ان الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه). قد ذكر في رده

على فكرة القادة العرب المسئولين في هاتين الجبهتين في اتخاذهما معسكرين للجيوش العربية المقاتلة «لا تجعلوا البحر بيني وبينكم بل مصروها اي صيروها مصرا بين البحر وبيني اي حدا [٤٥]، أو كما ورد النص في رواية أخرى«لا تجعلوا بيني وبينكم بحرا بل مصروها [٤٦].

المهم من التحديد السابق لتعبير مصر بانه كان يعادل المدينة بما يقصد به المدن التي اتخذها العرب على أطراف البادية والتي تكون على صلة سهلة وميسورة بمركز الخلافة العربية، وبما يقصد به المكان الذي تقام فيه الحدود اي بمعنى القانون والقضاء [٤٧].

أما الحاضرة فقد تحدد أصلها اللغوي من الحضر والحضرة والحضارة، والحضارة هي الاقامة في الحضر، وذكر ان الحاضرة هي المدن والقرى والريف على خلاف البادية، وان الحاضر هو الشخص المقيم في المدن والقرى [٤٨]. ويشير الزمخشري الى أمر هام في هذه المسألة اذ يقول ان الحضرة انما يراد منها بناء دار وهي عدة البناء من الأجر والجص [٤٩] وغيرهما. فنخلص الى القول بان هذا الربط الجدلي بين الحضارة والحضر ـ والمدينة ـ ومواد البناء الصلدة كالأجر والجص والحصى وغيرها دليل واضح على المفهوم الحضاري العميق للمدينة عند العرب.

ويرجع أصل المدرة الى مَدَرْ ويعني الطين العلك، ومما يقال ان العرب كانت تسمى القرية مدرة، في حين يقال ان الذي قصده عامر بن الطفيل في خطابه مع النبي (ص) «لنا الوبر ولكم المدر». انما هو المدن والحضر لان بناء مبانيها بالمدر. وقيل ايضا مدرة الشخص = بلدته، وأشار الزبيدي ان المدينة الضخمة كان يقال لها المدرة [٥٠].

يبرز في الحديث السالف عن «المدينة» في المعاجم اللغوية العربية عدة نقاط أهمها :

١ ـ ان المدينة هي المكان الذي يقام به والذي له حدود ثابتة، وهو تعريف متطور للمدينة اذا ما أخذنا بعين الاعتبار التحديدات الثلاثة التى توصل اليها علماء الاجتماع الاجانب بخصوص المدينة والتحديدات هي :
- المكان الذي يجتمع فيه الناس في منطقة محددة من الأرض.
- المكان الذي يجتمع فيه الناس .
- أيّ مكان تنشط فيه أكثرية شاغليه في النشاطات غير الزراعية [٥١].

٢ ـ كما ان العرب قد توصلوا الى فهم متطور للمدينة حينما جعلوها تقابل الحضارة والأمة، وهو المفهوم الذي تميز به كل من شبنجلر وبودلنك.

٣ ـ وتشير تلك الدلائل الى انه كان واضحا عند العرب بان المدينة هي المكان الذي تقام به الحدود، وان أصلها اللغوي يرتبط بمسألة العدالة والقضاء، فبذلك يكونون قد ميزوا عددا من الخصائص التي عرضها ماكس ويبر.

****

يمدنا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بآيات قرآنية واحاديث متعددة تحمل أهمية كبيرة بالنسبة الى موضوع المدينة العربية. فلقد ورد ذكر المدينة في العديد من الآيات الكريمة، كما جاء ذكرها في الحديث النبوي وهما مصدران اساسيان في التاريخ الاسلامي. ومن بين الآيات الكريمة التى وردت فيها كلمة مدينة آية «قال فرعون ءامنتم به قبل ان آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون [٥٢]» اذ يظهر فيها مفهوم المدينة على انها المكان التى يستقر به. ووردت في موضع آخر في سورة التوبة اذ جاء «وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم [٥٣]». والمقصود بالمدينة هنا يثرب، كما وردت الكلمة في سورة الكهف اذ قال تعالى «وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها ازكى طعاما فليأتكم برزق منه

وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا (٥٤)». فالمدينة في هذه الآية تقابل مركزا اقتصاديا أو سوقا.

ومما يجدر ذكره ان الآيات القرآنية التى جاء فيها ذكر المدينة تعكس، في أغلبها، المراكز الحضارية الواقعة في منطقة البحر المتوسط من أمثال انطاكية والسوس ومصر، ولم يرد ذكر لاي المدن الواقعة في الجزيرة العربية كمكة، والطائف، ومأرب وصنعاء، عدا اشارة الى مدينة يثرب، وربما يقصد في تعبير المدينة في هذه الآيات القرآنية المدن الرئيسية الكبرى وذلك لورود آيات عديدة أخرى يرد فيها ذكر للقرية التى قد يكون المقصود بها المدينة الصغيرة، ومن بين هذه الآيات آية في سورة البقرة جاء فيها «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال اني يحيى هذه الله بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم (٥٥)» فالآية ربما تشير الى عاد أو ثمود أو غيرهما من دول المدن في الجزيرة العربية، وورد ايضا في سورة الانعام «وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون (٥٦)». والتعبير في هذه الآية الكريمة واضح هو القرية = المدينة. كما قال الله تعالى في سورة الاعراف «وما ارسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون (٥٧)». ويتجلى فيها مفهوم القرية = المدينة = المكان الآهل بالناس. وقوله تعالى في سورة الزخرف «وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها أنا وجدنا اباءنا على أمة وانا على اثارهم مقتدون»(٥٨)، وقوله عز وجل في سورة النمل «فما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون (٥٩)». وهي اشارات واضحة الى ان مفهوم القرية في هذه الآيات يقصد به المدينة فضلا عن ذلك فان هناك آيات اخرى تشير الى القرية بمفهوم المدينة الميناء كقوله تعالى في سورة الاعراف «واسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون (٦٠)» فالقرية وهي حاضرة البحر تشير بوضوح الى مرفأ السفن أو مدينة الميناء. كذلك قوله تعالى في سورة النحل «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (٦١)».

ومما يؤكد على هذا المفهوم التمدني الواضح لكلمة مدينة وقرية في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الكهف «فانطلقا حتى اتيا أهل قرية استطعما أهلها فابوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا (٦٢)». فالجدار الوارد ذكره أما ان يكون من مادة الطين أو الآجر وهما مادتان عمرانيتان استخدمتا في المدينة أكثر مما هو الحال في القرية. ايضا جاء في سورة القصص «وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين (٦٣)».

بالاضافة الى ذلك فان هناك آيات تشير الى مكة بتعبير القرية كقوله تعالى في سورة محمد «فأيّ من قرية هي اشد قوة من قريتك التي اخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم (٦٤)».. وقوله تعالى في سورة النساء «ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا»(٦٥).

لذلك يمكننا القول بان الاشارات السابقة انما يقصد منها المدينة الصغيرة في الجزيرة العربية، وقد ميزها القرآن الكريم عن تعبير المدينة الانف الذكر.

وفي الاحاديث النبوية الشريفة تصوير مماثل لما ورد ذكره في الآيات البينات، فالاحاديث التى تضمنت تعبير المدينة تشير بشكلها العام الى تلك المدن الكبيرة الواقعة خارج حدود الجزيرة العربية كدمشق مثلا كما جاء في حديث عن ابي

الدرداء ان رسـول الله (ص) قال «ان قسـطاط المسلمين يوم اللحمة بالغوطة الى جانب مدينة يقال لهـا دمشق من خير مـدائن الشام (٦٦)». وورد التعبير في حديث آخر أورده أحمد بن حنبـل ان المقصود بها القسطنطينية (٦٧) أو رومية. وكذلك الحال في حديث آخر عن ابن عمر قال «قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم يـوشك المسلمـون ان يحاصروا الى المدينة حتى يكون ابعد مسالحهم سلاح (٦٨)». كما ان هنالك حديثا وردت فيه كلمة المدينة والمقصود به مدينة رسول الله (ص) فقد ورد في حديث «اتيتك في المـدينة مـدينة رسـول الله (٦٩)». وجاء ايضا عن اسلم بن ابي عمران قال «غزونا في المدينة نريد القسطنـطينية وعـلى الجماعة عبدالرحمن بن خالد بن الوليـد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة فحمل رجل عـلى العـدو (٧٠)». فالتعبـير الأول يشير الى مـدينـة الرسول (ص) أما الثاني فانه على الاغلب يشير الى القسطنطينية وهناك حديث آخر عن ابي ايـوب الانصـاري وردت فيـه كلمـة الامصـار بمعنى البلدان والمدن اذ روى انه سمع رسول الله (ص) يقول «ستفتح عليكم الامصـار وستكون جنـود مجندة تقطع عليكم فيها بعوث (٧١)». ومـع ذلك فـان هناك بعض الاحـاديث الشـريفـة تضمنت تعبيرين: المدينة والحصن كما ورد عند احمد بن حنبل «انه انتهى الى حصن أو مـدينة»(٧٢). أو «فيخرجون من مدائنهم وحصونهم»(٧٣) «وينحاز المسلمـون عنهم الى مدائنهم وحصـونهم»(٧٤). فالتمييز الوارد في هذه الاحاديث يشير الى وضوح الرؤية في تعبير المدينة وتمييـزها عن الحصن أو القلعة التي ربما تكـون احدى وحـدات المدينـة الطوبوغرافية.

وهناك مسألة اخرى هامة طالما نحن بصـدد الاشارة الى اهمية هذين المصدرين، القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ألا وهي موقف الفقهاء وأئمـة المدارس الفقهيـة من موضـوع المـدينـة وتفسيرها والشروط التي ينبغي توفرها في مكان ما كي يكون مدينـة. والواقع ان هنـاك اتفاقـا بين الفقهاء فيما يتعلق بالشروط التي يجب توفرها في اقامة صـلاة الجمعة عـلى اعتبار انهـا الصلاة الجامعة التي تقام في المسجد الجامع، وعلى اعتبار ان المسجد الجامع له خصوصية تمدينيـة وفقا للمفهوم العربي الاسلامي. لذا يرى الفقهاء بأنه لا يجوز اقامة الصلاة الجامعة الا في الأمصـار، فقد جاء عن النبي الكريم (ص) قوله: «لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع» وفي حـديث آخر: «إلا في مصر جـامع أو مـدينة عظيمة»(٧٥). فتعبير الأمصار هنا بمفهوم المـدن التى أطلق عليها العرب تعبير أمصار. فما أورده الماوردي في الاحكام السلطانية انه لا يجوز اقامة الصلاة الجامعة الا في «وطن مجتمع المنازل (٧٦)» وهو تحديد واضح لمفهوم المدن : أى المكان الذي يستقر به كذلك فانه تحديد يوافق تماما ما سبق ذكره من أراء المعجميين العـرب في المدينـة. ولم يقتصر أمر ذلك على شرط اجتماع المنازل اذ ان هناك شروطا اخرى ينبغي توفرها منها :

١ ـ ضرورة ان يقطن هذا «الوطن» من تنعقد به صلاة الجمعة.

٢ ـ ضرورة ان لا يظعن منه هؤلاء لا شتاء ولا صيفا (٧٧)».

وهذان الشرطان ايضا يوافقان ما سبق ذكره في مسألة تحديد الحاضرة.

أما فيما يتعلق بالتحديدات التي أوردها الامام ابو حنيفة بالنسبة الى شروط اقامة هذه الفريضة الاسلامية فانه يعد تطورا فـريدا في فهم تعبـير المدينة على انها مكان العدالة والقضاء فيقول ان صـلاة الجمعة انمـا تختص بها الامصـار دون غيرها وانـه لايجوز اقـامتها في القـرى، واعتبر ابو حنيفة المصر هو ذلك المكان الذي يوجد فيه.

أ ـ سلطان يقيم الحدود

ب ـ قاضٍ ينفذ الاحكام(٧٨)

وممـا تجدر الاشـارة اليه ان الفقهـاء بينما اتفقوا على ان المصر هو «وطن مجتمع المنـازل» فـإنهم لم يحددوا عـددا معينا لهـذه المنازل أو الأفراد الذين يحلونها، أيضا فانهم اختلفـوا في عـدد المصلين الواجب حضـورهم في المسجـد

الجامع كي تنعقد صلاة الجمعة بوجودهم واجتماعهم. فقال الامام الشافعي ان هذه الصلاة لا تنعقد الا باجتماع اربعين رجلا من أهل الجمعة، في حين حددها الامام ابو حنيفة باربعة بدلا من اربعين وان يكون امام الجمعة احدهم، وقال الامام مالك بانه لا اهمية ولا اعتبار للعدد في انعقاد الجمعة وانما الاهمية في ان يكون عددا كافيا تبنى له الأوطان عاليا «وهو في هذه الاشارة قد يقصد المنازل والبيوت المبنية والدليل على هذا ما ورد بانه لا يجوز اقامة الجمعة في السفر ولا خارج المصر الا ان يتصل بناؤه [٧٩]».

دون شك ان الاشارة الى انه من الضرورى ان يتوفر اربعون شخصا في مكان ما كي يصبح هذا المكان مدينة وكي تقام صلاة الجمعة فيه هي اشارة تتضمن أهمية تمدنية واضحة . أو يبدو ان الرقم (٤٠) يحمل مضمون الكثرة العددية بصورة مطلقة فان هناك عددا من الروايات التاريخية يشير الى المساجد الجامعة التى اختطها العرب في بعض الامصار الاسلامية كالبصرة والكوفة قد كانت واسعة البناء لتسع اربعين الفا من المصلين .

وليس كما ورد اربعين مصليا فقط ـ وهناك في القرآن الكريم عدد من الايات الكريمة التى ورد فيها ذكر هذا الرقم (٤٠) اشارة الى الحد الأعلى أو الكثرة أو البلوغ كقوله تعالى « واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون[٨٠] » وقوله تعالى في سورة المائدة « قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين[٨١] » وقوله تعالى في سورة الاحقاف « ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب أوزعنى ان أشكر نعمتك التى أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه واصلح لي في ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين[٨٢] » . كما ان هناك عددا من الاحاديث التى يرد فيها رقم الاربعين كمؤشر على الكثرة أيضا كحديث « وما لبثه في الارض قال اربعون يوما[٨٣] » وحديث « فيقوم على جنازته اربعون رجلا[٨٤] » وحديث « بعث رسول الله لاربعين سنة[٨٥] » وحديث « كانت النفساء تجلس على عهد رسول الله اربعين يوما[٨٦] » .

لذلك يمكن القول بأن الاربعين شخصا الوارد ذكرها في هذا المجال انما هو توضيح بارز لفكرة الاجتماع العددى الكثير باعتباره سمة مميزة لمكان ما في أن يكون مدينة ، فضلا عن ذلك فان ما تقدم يشير الى ان الفقهاء المسلمين قد وضعوا نصب أعينهم عددا من الخصائص والشروط التى يمكن الركون اليها في تحديد ماهية المكان وفيما اذا كان مدينة أو غير ذلك وتلك هي :

أ ـ القدرة البشرية والكثافة العددية .

ب ـ وجود سلطة قضائية تقيم الحدود .

ج ـ تطور عمراني .

أما فيما يتعلق بالجغرافيين العرب فانهم أيضا قد أشاروا الى تحديدات معينة للمكان في أن يكون مدينة أو غير ذلك تشابه الى حد ما تلك التحديدات التى ركز عليها الجانب الفقهى . فالجغرافي المقدسى يعد من أكثر الجغرافيين العرب دقة ومباشرة في هذا المجال إذ يعرض ثلاثة تحديدات تمثل بدورها أربع وجهات نظر ، أولها الفهم الجغرافي اذ قال ما نصه « اعلم انا جعلنا الامصار كالملوك والقصبات كالحجاب والمدن كالجند والقرى كالرجالة[٨٧] » ويستمر المقدسى قائلا « وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الاعظم وجمعت اليه الدواوين وقلدت منه الاعمال وأضيف اليه مدن الاقليم[٨٨] أما وجهة النظر الثانية التى شدد عليها المقدسى فهي تلك التى تمثل مفهوم الفقهاء في المدينة وذلك أثناء اشارته الى ما يعنيه مفهوم المدينة فيذكر بأن الفقهاء قد اختلفت آراؤهم في تحديد معنى المصر وأنه حسب رأيهم « كل بلد جامع يقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقته وتجمع رستاقة [٨٩] » .. وتمثل وجهة النظر الثالثة أو مفهوم المقدسى الثالث للمدينة ذلك المفهوم المتعارف عليه عند أغلب

الناس اذ يقول : « والمصر عند العوام كل بلد جليل[٩٠] » . أما المفهوم الرابع والاخير فهو الذي يمثل وجهة نظر اللغويين إذ يقول ان المصر يعنى « كل ما حجز بين حدين[٩١] » .

ولم يغفل المقدسى خلال عرضه السابق ان يستشهد بعدد من الاستشهادات على كل تفسير أو مفهوم من المفاهيم السابقة فمن بين المراكز التى ينطبق عليه المفهوم الأول للمصر : دمشق ، والقيروان ، وشيراز ويضيف قائلا بأنه من المحتمل ان يكون للمصر او للقصبة ضمن هذا الحقل نواح لها مدن من أمثال طخارستان لبلخ ، والبطائح لواسط ، والزاب[٩٢] لافريقية . ومن بين النماذج التى ينطبق عليها التحديد الفقهى للمدينة ! نابلس ، وزوزن . أما نماذج المفهوم الثالث فهي : الري ، والموصل ، والرملة . ويمثل المفهوم اللغوى الرابع نماذج من أمثال : البصرة ، الرقة ، ارجان[٩٣] .

والواقع اننا اذا استبعدنا الشائع عند الناس وكذلك مفهوم أهل اللغة للمكان في ان يكون مصرا أم لا ! فانه بالامكان التوصل الى جملة من الخصائص المشتركة لدى الفقهاء والجغرافيين العرب ، أي ما يمكن قوله الجانب النظرى والجانب التطبيقى .

فالمكان الذي يتمتع بسمات :

أ ـ بلد جامع .
ب ـ تقام فيه الحدود .
ج ـ يحله أمير .
د ـ ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه .

هو الذي ينطبق عليه مفهوم المدينة او المصر . ان تعبير « البلد الجامع » يشابه الى قدر معين ما يعبر عنه أغلبية الناس في فهمهم للمدينة بأنها « البلد الجليل » أي التركيز في هذين التعبيرين على حجم المكان وحجم السكان . اما بالنسبة الى الخصيصة الثانية فان المقصود بها كما مر بنا سلفا العدالة والقضاء . وتشير الخصيصتان الثالثة والرابعة الى مسألة الحكم الذاتي والاستقلال الاقتصادى والمالى .. في نفس الوقت فان الخصائص التى ركز عليها الجغرافيون هي :

أ ـ ان يحل المكان السلطان الاعظم .
ب ـ ان تجمع اليه الدواوين .
ج ـ ان تقلد منه الاعمال .
د ـ ان تضاف اليه مدن الاقليم .

واذا أخضعنا أمثلة أو نماذج هذا المفهوم الى الدراسة والتحليل نجد بأن المقصود بالسلطان الأعظم الذي يحل في المصر هو ما يعادل ذكر الفقهاء لمنصب الأمير وذلك لان دمشق والقيروان كانتا فعلا من المدن أو الامصار التابعة لمركز الخلافة العربية الاسلامية ، اللهم الا في حالة واحدة هي ان هؤلاء الجغرافيين كانوا يقصدون بهما على انهما عواصم لامارات مستقلة عن جسم الخلافة العباسية في بغداد . أما بالنسبة الى الخصائص الاخرى التى اوردها الجغرافيون فتعد أيضا تعبيرا واضحا عن فكرة الحكم الذاتي للمدينة وعن بنيتها الاقتصادية .

هل حاول المقدسى ان يطبق هذه الرؤية النظرية لخصائص المدينة على ما أدلى به من معلومات جغرافية عن مدن العالم الاسلامي ؟ وهل تشدد في ذكرها وابراز مدلولاتها الحضارية المدينية ؟ الحقيقة أن هناك أمثلة عديدة في كتاب المقدسى « أحسن التقاسيم » تؤكد على ان مؤلفه كان يعى تلك الخصائص وأهميتها اذ انه ذكر في عدة مرات ان القصبة هي بمثابة المدينة الرئيسية أو العاصمة الى حد ما فالرملة قصبة فلسطين والفسطاط قصبة مقدونية وبلبيس قصبة الحوف والعباسية قصبة الريف بمصر[٩٤] . أيضا فانه طبق مبدأ « ان السلطان يقيم في المصر » ، فقد أشار عند ذكره مدينة حلب انها « بلد نفيس خفيف ... في وسط البلد قلعة حصينة واسعة وفيها ماء وخزائن السلطان والجامع .. والقصبة ليست بكبيرة الا ان بها مستقر السلطان[٩٥] » . كذلك فانه خلال اشارته الى مدينة الفسطاط قال ما نصه « هو ـ الفسطاط ـ مصر في كل قول لانه قد جمع الدواوين وحوى أمير المؤمنين وفصل بين المغرب وديار العرب واتسع بقعته وكثر ناسه[٩٦] » .

غير ان المقدسي قد وقع في بعض الحالات في تناقض خاصة حينما تطرق الى الاستشهادات المرتبطة بفكرة المدينة والمصر ، فهو بينما يقول : « ولا مدينة في قياس علمنا هـذا الا بمنبر(٩٧) » يشير في كتابه الى عدد من المدن العربية مؤكدا انها لا تحتوى على منبر . كذلك فانه بينما يذكر في كتابه ما نصه بأنه « ليس كل قصبة مصراً(٩٨) » وبين ما أورده من أمصار في قائمة النماذج والاستشهادات . فقد اشار الى ان سمرقند وايران شهر وشهرستان واردبيل وهمذان والاحواز وشيراز والمنصورة ومكة وبغداد والموصل ودمشق والفسطاط والقيروان وقرطبة هي المراكز التى تعتبر أمصارا قائلا أما ما تبقى من مراكز فهي قصبات وليست أمصاراً كما هو الحال في بلخ وبست وزرنج وتستر وصنعاء والبصرة والكوفة وواسط وحلوان وسامراء وتاهرت وفاس وسجلماسة(٩٩) . ويبرز التناقض أيضا في اشارته السابقة على ان بلخ هي مصر لها نواح . وكذلك في مجال اشارته الى المدن المركبة فيذكر ما نصه : « اما المدن المحيطة بقصباتها مثلا في البصرة الابلة ومكارا ومذار وعبادان(١٠٠) » حين انه جعل البصرة ، كما هو واضح قبل اسطر ، ضمن القائمة التى تتضمن القصبات . ولعل هذا التناقض يعود بشكل أساسي الى ان الجغرافيين العرب قد شددوا على جانب مهم في عملية التمييز بين الامكنة وفيما اذا كان هذا المكان مدينة كبيرة أو صغيرة أو غير ذلك ، وهذا الجانب هو مبدأ العاصمة والمدينة أو المدن التابعة لها . علاوة على ذلك فانه اعتمادا على قول ياقوت الحموى فقد يرجح هذا الى الاختلاف الموجود بين بعض التعبيرات التمدنية بين منطقة وأخرى من العالم الاسلامي ، اذ يشير الحموى فيما يتعلق باصطلاح الاقليم بأنه اصطلاح متعارف عليه عند العامة وجمهور الأمة فانهم يسمون كل ناحية مشتملة على مدن وقرى اقليما كما هو الحال في الصين وخراسان والعراق والشام وأفريقية ومصر في حين ان أهل الاندلس يطلقون على كل قرية كبيرة جامعة أقليما ، فان قال الاندلسي : « أنا من أقليم كذا يعنى أنه من بلدة كذا(١٠١) .. » ويشير المؤلف ذاته خلال حديثه عن (مرية) على انها كورة واسعة في الاندلس ولها من الاقاليم بنحو من الثلاثين كورة . ثم يعقب على هذا التحديد قائلا : بأن اهل المغرب يسمون الناحية اقليما(١٠٢) . ويتضح هذا الغموض في الرؤية الجغرافية بشأن التحديد الواضح والدقيق للقصبة وذلك حينما نرجع الى النص الذي أورده قدامة بن جعفر الذي يقول فيه : « لابد لسائر النواحى من قصبة يشار منها الى نواحيها فنقول قصبة مملكة الاسلام بلد العراق(١٠٣) » . فالقصبة عند قدامة أوسع بكثير من المدينة في الوقت الذي يجعل المقدسي القصبة أقل درجة من المصر كما ألمحنا الى ذلك . واذا ما عدنا الى تحديد ياقوت الحموى فانه يذكر بانه لابد للكورة من قرى عديدة وانه « لابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة(١٠٤) » اذ يفهم من هذا التعبير ان القصبة والمدينة هما تعبيران متعادلان من حيث الأهمية تقريبا .

ولذلك فانه يبدو من هذا العرض ان فهم المقدسي لتعبير السلطان الأعظم ، كما رأى ، هو تعبير يشابه ما اشار اليه الفقهاء بالامير ، عندئذ تكون خصائص المدينة التى شخصها المقدسي تشابه تقريبا الخصائص التى وضعها الفقهاء . وعلينا أيضا ان لا نغفل ما يتضمنه فهم المقدسي للمدينة المركبة التى يصطلح عليها بـ « المدن المحيطة بقصباتها » من أهمية تمدنية بالغة .

خصائص المدينة العربية الاسلامية :

اذن بامكاننا التوصل الى نتيجة مفادها ان العرب كانوا يفهمون تحديد المدينة فهما متطورا سواء كان ذلك في تحديدهم لمعنى المدينة أم في جعلهم المدينة تعادل الحضارة أم في اظهارهم الدور الذي لعبته المدينة في التاريخ وهي مفاهيم تحددت من قبل الاسهامات الاجنبية في هذا الحقل للعلماء الغربيين دون سواهم . وبقى موضوع آخر تميزت به الكتابات الاجنبية أيضا

ذلك المتعلق بخصائص المدن . فما هو يا ترى موقف الكتاب العرب والجغرافيين منهم بصورة خاصة تجاه مسألة الخصائص ؟ هل شددوا أيضا على مجموعة من الخصائص الضرورية في جعل هذا المكان يسمى مدينة وذاك يسمى قرية هل هناك قواسم مشتركة في الخصائص التى ذكروها بين قطاعات أو نماذج متنوعة للمدن العربية ، أم انها خصائص اعتباطية وردت هنا وهناك دونما رابطة مشتركة ؟

في بداية تحديدنا لمساهمة العرب في هذا الصدد نكرر رؤية الفقهاء في ابرازهم أهم الخصائص التى ينبغى توفرها في مكان ما كي يكون مدينة وهي : القضاء (القانون) والاستقلال الاقتصادى والمالى . وقد ذكرنا بأن هاتين السمتين هما من السمات البارزة في خصائص ماكس ويبر اللتين يعتمد عليهما كثيرا الباحثون الاجانب في دراساتهم للمدن العربية الاسلامية . زيادة على ذلك فان البحث فيما كتبه الجغرافيون العرب يكشف لنا عن هذه الحقيقة وهي ان هؤلاء قد شخصوا عددا من الخصائص المشتركة للتمييز بين المدينة وغيرها وسنرجع في ذلك الى مجموعة من المدن العربية وأقوال الجغرافيين فيها . ومن الجدير بالملاحظة ان الجغرافيين أوردوا عددا من التعبيرات التى يستشف منها أنها تشير بدرجة أو بأخرى الى تصنيفهم للمدن والتى تمت كثيرا الى النظريات التمدنية الحديثة ، فهناك تعبيرات تمدنية عامة من أمثال ولاية ، كورة ، ناحية التى يفهم من أوصاف الجغرافيين لها بأنها مناطق جغرافية واسعة أوسع من المدينة بكل تأكيد وتعد المدينة جزءا منها كما وردت تعبيرات أخرى أمثال ، مدينة ، مدينة كبيرة ، مدينة وسط ، مدينة صغيرة ، مدينة وكورة في آن واحد ، مدينة عظيمة وولاية في آن واحد . ويرد أيضا تعبير ثالث في الكتب الجغرافية أمثال قصبة أو مدينة عامرة وهي قصبة ، أو ناحية وهي قصبة أيضا اومدينة وقصبة ، أو قصبة وكورة ، أو بلد وقصبة في نفس الوقت ، والاهم من ذلك ورد تعبير قرية وهي قصبة أيضا .

كما يكرر الجغرافيون استخدام تعبير جغرافي رابع هو بلدة وبأشكال متعددة منها : بلدة ، وبليد ، أو بليدة ، أو بلدة كبيرة ، أو بلد ، أو بلدة وهي موضع أيضا ، أو بلدة ولها كورة وهو أمر غريب اذ اننا قد اعتبرنا الكورة منطقة واسعة . كذلك فان هناك تعبيرا مهما آخر وهو بليدة وهي قصبة ، أو بلدة عظيمة .

أو بليدة صغيرة . وفي مجال آخر ورد تعبير بلد وولاية .

أيضا فان هناك مجموعة من التعبيرات المتفرقة التى تشير الى مراكز تمدنية مثل : حصن ، أو حصن صغير ، أو موضع ، أو صقع ، أو فرضة ، أو قاعدة ، أو كرسي ، أو مرفأ أو منبر(١٠٥) .

ومن الجانب الاخر فان الجغرافيين لم يغفلوا او يقللوا من اهمية القرية فانهم يشيرون في عدة تعبيرات مهمة الى وضع هذه القرية او تلك ومن بين هذه التعبيرات : قرية ، قرية كبيرة ، قرية كبيرة كالمدينة ، قرية كبيرة شبيهة بالمدينة ، او قرية كالبلدة .

وعلى العموم فان مثل هذه التعبيرات انما تشير بكل وضوح الى رؤية الجغرافيين العرب الدقيقة والى مدى ادراكهم الجلي لمضامين هذه التعبيرات ومدلولاتها التمدنية . ويتوثق هذا الاستنتاج اكثر مما هو عليه الان من خلال قراءة دقيقة لعدد من الأوصاف الجغرافية التي انتقيناها دون تحديد من كتب الجغرافيين ، وهي تمثل نماذج لا غير .

بالامكان تقسيم اوصاف الجغرافيين للمدن العربية وفقا الى الوظائف والمهمات التي تميزت بها هذه المدينة العربية او تلك ، فهناك خصائص متميزة انفردت بها المدن التي اتخذت وظيفة القصبة ، فما اورده الاصطخري عن شيراز بانها «نحو من فرسخ في السعة ، وليس عليها سور وهي مشتبكة البناء ، كثيرة الاهل ، ودواوين فارس وعمالها وولاده الحرب فيها» (١٠٦) فالتركيز في

هذا الوصف القيم يتضمن ١ ـ مساحة المدينة . ٢ ـ ازدحام السكان . ٣ ـ والاهم اعتبار هذه المدينة مركزا للدواوين واقامة الولاة والعمال . ويحدثنا المقدسى عن الفسطاط قائلا انها «مصر في كل قول لأنه قد جمع الدواوين وحوى امير المؤمنين وفصل بين المغرب وديار العرب واتسع بقعته وكثر ناسه وتنضر اقليمه واشتهر اسمه . فهو خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم ، ليس في الامصار اهل منه كثير الأجله والمشايخ عجيب المتاجر والخصائص حسن الاسواق والمعايش الى حماماته المنتمى ولقياسيره لباقة وبها ، ليس في الاسلام اكبر مجالس منه جامعة ولا احسن تجملا من اهله ، ولا اكثر مراكب من ساحله » (١٠٧) . ويبرز هذا الوصف ايضا جملة من الخصائص التي وردت في المدينة القصبة السابقة وهي ١ ـ المساحة ، ٢ ـ زحمة السكان ، ٣ ـ مركز اداري . فضلا عن هذا فان خصائص اخرى شدد عليها المقدسى في الفسطاط وهي..

١ ـ رخاء المدينة الاقتصادي واهميتها التجارية
٢ ـ رخاء اسواقها
٣ ـ كثرة حماماتها
٤ ـ اهميتها العلمية

كذلك فقد ذكر ياقوت الحموى مدينة بالقرب من بلخ تدعى الانبار وقال عنها «مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان ، وبها كان مقام السلطان وهي اكبر من مرو الروذ» (١٠٨) فالقاسم المشترك للاوصاف السابقة لهذا النوع من المدن هو ١ ـ المساحة . ٢ ـ محل اقامة السلطان . ومن بين مدن هذا الصنف مدينة المنصورة بارض السند «وهي قصبتها مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ذات جامع كبير سواريه ساج ولهم خليج في نهر مهران ، وفي اهلها مروة وصلاح ودين وتجارات وشربهم من نهر يقال له مهران واسعارهم رخيصة» (١٠٩) فخصائص هذه المدينة القصبة تتركز على ١ ـ المساحة . ٢ ـ الجامع . ٣ ـ رخاء اقتصادي . ٤ ـ وفرة المياه . واتخذت مدينة صحار بعمان قصبة لتوفر عدد من الخصائص التي وجدت في المدينة السابقة ، المنصورة فهي «طيبة الهواء والخيرات والفواكه مبنية بالاجر والساج كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها» (١١٠) ويقول المقدسى مضيفا الى ذلك بان «صحار ليس على بحر الصين بلد اجل منه عامر حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه ، اجل من زبيد وصنعاء ، واسواق عجيبة وبلدة طريفة ممتدة على البحر ، ودورهم من آجر وساج شاهقة والجامع على الساحل .

ولهم ابار عذبة وقناة حلوة وهم في سعة من كل شيء» (١١١) ، ولهذا فان الخصائص التي توفرت في صحار و جعلت منها قصبة لعمان هي ١ ـ المساحة . ٢ ـ المناخ الملائم . ٣ ـ الموقع التجاري . ٤ ـ اسواق غنية . ٥ ـ الجامع . ٦ ـ الماء العذب . في الوقت الذي صارت فيه مدينة قوص قصبة لصعيد مصر لانها «مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، قصبة صعيد مصر ، واهلها ارباب ثروة واسعة ، وهي محط التجار القادمين من عدن واكثرهم من هذه المدينة» (١١٢) اي انها تمتعت بسمة ١ ـ المساحة . ٢ ـ والموقع التجاري . وصارت شهرستان «قصبة سابور» لانها «كانت عامرة ، آهلة ، كثيرة الخيرات ، ومعدن الخصائص والاضداد ويجتمع فيها الاترج والقصب والزيتون والعنب ، واسعارهم رخيصة وبها بساتين كثيرة وعيون غزيرة ومساجد محفوظة» (١١٣) . وهنا ، ايضا تبرز سمات : سعة المساحة ، والسكان ، والرفاه الاقتصادي ، والمياه والمساجد كخصائص متميزة في هذه المدينة ـ القصبة . ويذكر المقدسى ان زبيد في اليمن هي «قصبة تهامة وهو احد المصرين لانه مستقر ملوك اليمن ، بلد جليل ، حسن البنيان يسمونه بغداد اليمن .. وبه تجار ، وكبار وعلماء وادباء مفيد لمن دخله ومبارك على من سكنه ، آبارهم حلوة وحماماتهم نظيفة عليه حصن من الطين» (١١٤) ، فزبيد تتميز بانها مكان اقامة السلطان ، ثم المساحة ، والحمامات ، والمياه الحلوة .

اما سجلماسة في المغرب فهي «قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها .. وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الامارة شديدة الحر والبرد جميعا صحيحة الهواء كثيرة التمور والاعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات ، كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد . ومع ذلك ثغر فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة .. وهي في رمال ولهم مياه» (١١٥) فالسمات التي اتسمت بها سجلماسة تجتمع الى حد كبير بتلك الخصائص التي اوضحناها ضمن هذا الصنف من المدن ، اي المدينة القصبة .

وفي نفس الوقت فان هناك خصائص مشتركة الى درجة كبيرة في صنف اخر من المدن الا وهي المدينة التي لم تتخذ قصبة ، اعني المدينة بمفهومها المجرد . والواقع ان قارىء النصوص والاوصاف الجغرافية لهذا النوع قد يجد ايضا بان هناك قواسم مشتركة بين خصائص المدينة بصورة عامة وبين خصائص المدينة ـ القصبة ، فقد جاء في وصف مدينة قرطبة على انه «ليس بجميع المغرب لها شبيه ولا بالجزيرة والشام ومصر يدانيها في كثرة الأهل وسعة رقعة وفسحة اسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق وهي فخمة واسعة الحال بحسن الجدة وكثرة المال» (١١٦) . وبذلك يمكن القول بان الجغرافي ابن حوقل قد جعل قرطبة مدينة مهمة بالنظر لتوفر خصائص ١ ـ المساحة . ٢ ـ كثرة السكان . ٣ ـ رخاء الاسواق . ٤ ـ كثرة الحمامات والفنادق . اما حماه فهي «مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار واسعة الرقعة حفلة الاسواق يحيط بها سور محكم ، وبظاهر السور حاضر كبير جدا فيه اسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي عليه عدة نواعير تستقى الماء من العاصي» (١١٧) وهنا تبرز الخصائص السابقة تقريبا اي المساحة ، والسكان ، والاسواق فضلا عن خصائص اخرى هي ١ ـ السور . ٢ ـ والجامع . ٣ ـ وتوفر المياه . ومما قيل عن مدينة كثه او كشه انها «من اجل المدن التي تكون بكورة اصطخر .. وهي مدينة على طرف البرية ولها طيب هواء وتربة وصحة وخصب ولها رساتيق تشتمل على مدينة محصنة بحصن وللحصن بابان من حديد .. جامعها في الربض ومياههم من القنى ، الانهر لهم يخرج من ناحية القلعة وقربه قرية فيها معدن الانك وهي نزهة جدا ولها رساتيق خصبة كثيرة المياه والثمار تحمل منها الى اصفهان» (١١٨) فهذه المدينة هي من المدن المركبة اذ تحتوى على حصن محصن وتتسم بالاتي ١ ـ احوال مناخية جيدة . ٢ ـ الجامع . ٣ ـ وفرة المياه . ٤ ـ رخاء اقتصادي . اما مدينة نغزاوة فقد وصفها ياقوت الحموي بأنها «مدينة من اعمال افريقية لها سور صخر وطوب وفيها جامع وحمام واسواق حاملة وهي كثيرة النخل والثمار وحواليها عيون كثيرة» (١١٩) فالتركيز في هذه المدينة تناول ١ ـ السور . ٢ ـ والجامع . ٣ ـ والحمام . ٤ ـ والاسواق . ٥ ـ والمياه . ٦ ـ ووفرة الانتاج . كذلك وصفت مدينة سرت بانها «مدينة كبيرة على سيف البحر عليها سور من طوب وبها جامع وحمام واسواق» (١٢٠) فالتشديد في هذا الوصف كما هو الحال في المدينة السابقة تركز على ١ ـ السور . ٢ ـ والجامع . ٣ ـ والاسواق . ٤ ـ والحمام .

وتتضح مسألة التشديد على المساحة في اوصاف الجغرافيين للمدن في هذه النماذج ، فمما قيل عن هراة انها «اكبر من ابرقوه وهي في الابنية وسائر ما وصفنا مقاربة لا برقوه ، الا ان لها مياها وثمارا كثيرة تفضل عن اهلها فتحمل الى النواحي» (١٢١) ويبدو ان هذه المدينة التي ذكرها الاصطخري في القرن العاشر الميلادي بانها اكبر من ابرقوه التي سنذكرها لاحقا قد توسعت اكثر فاكثر زمن ياقوت الحموى اذ قال عنها انها «مدينة عظيمة مشهورة من امهات مدن خراسان لم أرَ بخراسان عند كوني بها سنة ٦٠٧ هـ مدينة اجل ولا اعظم ولا افخم ولا احسن ولا اكثر اهلا منها . فيها بساتين كبيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة

محشوة بالعلماء ومملوءة باهل الفضل والثراء» [١٢٢] ففي هذا الوصف المستفيض لمدينة هراة نجد ان عنصر المساحة يلعب دورا هاما في اهمية المدينة كما انها تميزت . ١ ـ بزحمة السكان . ٢ ـ ووفرة المياه . ٣ ـ ووفرة الخيرات . وفيما يتعلق الامر بحجم ابرقوه التي اتخذت كانموذج لمقاربة مساحة هراة ورد عنها بانها «مدينة محصنة كثيرة الزحمة نحو الثلث من الاصطخر مشتبكة العمارة .. وليس حواليها شجر وهي خصبة رخيصة الاسعار» [١٢٣] .

ووصفت أصفهان بانها «صحيحة التربة طيبة الهواء عذبة الماء .. وكانت مساحة اصبهان ثمانين فرسخا في ثمانين فرسخا» [١٢٤] .

ايضا يتوفر عدد من النصوص الجغرافية التي تشدد كثيرا على مسألة السوق والجامع كخصائص مدينية فقد ورد في وصف مدينة سيهن بانها «مدينة كبيرة فيها جامع وسوق» [١٢٥] . ووصفت المحلة في مصر بانها «مدينة على نهر الاسكندرية بها جامع لطيف وليس بها كثير اسواق غير انها عامرة نزيهة الشط» [١٢٦] . ووصفت مدينة سرت على انها «مدينة كبيرة على سيف البحر عليها سور وبها جامع وحمام واسواق» [١٢٧] .

والى جانب تلك النماذج من المدن فان هناك مجموعة من المدن التى تحمل خصائص مشتركة تتعلق بالتجارة او بكونها موانىء او مرافىء يمكننا تسميتها بالمدينة التجارية او بمدينة المرفأ . فمدينة صحار هى قصبة عمان « وهى على البحر ، وبها متاجر البحر وقصد المراكب وهى اعمر مدينة بعمان واكثرها مالا [١٢٨] » وجاء فيها ايضا « ليس على بحر الصين بلد اجل منه عامر حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه واسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر [١٢٩] .. » وبذلك فان التركيز فى مدينة صحار التجارية على ١ ـ موقعها ٢ ـ وكونها مقصد السفن والمراكب ٣ ـ وفيها متاجر واسواق وتجار . ايضا فان مدينة العريش فى مصر قد وصفت بانها « مدينة جليلة وهى كانت مرسى مصر ايام فرعون .. وفيها جامعان ومنبران وهواؤها صحيح طيب ، وماؤها حلو عذب ، وبها سوق جامع كبير وفنادق جامعة كبيرة وكلأ التجار ونخل كثير وفيها صنوف من التمور ورمان يحمل [١٣٠] الى كل بلد فالعريش علاوة على الخصائص التجارية التى تمثلت فى المدينة التجارية السابقة اتسمت بـ ١ ـ مناخها الملائم ٢ ـ المياه ٣ ـ والفنادق وهو تعبير عن كثرة ما كان يرتادها من تجار ٤ ـ الانتاج الذاتى وتصديره . ويتمثل اوضح وصف جغرافى عن هذا الصنف من المدن التى تتركز وظيفتها على التجارة فى مدينة عدن اذ جاء فى وصفها انها « مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن رديئة لا ماء بها ولا مرعى وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو اليوم وهو مع ذلك ردىء الا ان هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون اليه لأجل ذلك فانها بلدة تجارة [١٣١] » ، وقيل فيها فى وصف آخر « انما شهرتها لانها فرضة على البحر ينزلها السائرون فى البحر وبها معادن اللؤلؤ » [١٣٢] . فالمدينة فى واقعها لا تتوفر فيها مميزات المدينة بشكلها العام كالماء والمناخ والجامع والمنبر وغير ذلك لكنها اشتهرت بموقعها ، وبما يردها من السفن والمراكب والتجار . ووصفت الجار بانها مدينة مرفأ ايضا اذ انها « على ساحل بحر القلزم .. وهى فرضة ترفأ اليها السفن من ارض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند ، ولها منبر ، وهى آهلة وشرب اهلها من البحيرة [١٣٣] » . فخصائصها المشتركة مع غيرها من هذا الصنف من المدن هى : الموقع ، والتجار والسفن . فضلا عن تمتعها بسمات ١ ـ كونها مأهولة ٢ ـ وبها منبر ٣ ـ والماء من بحيرة . اما قلهات فانها « مدينة بعمان على ساحل البحر لها ترفأ اكثر سفن الهند وهى الآن ـ اى خلال فترة ياقوت الحموى ـ فرضة تلك البلاد وامثل اعمال عمان عامرة آهلة [١٣٤] .. » ايضا كان التشديد فيها على ١ ـ الموقع ٢ ـ السفن الواردة اليها ٣ ـ وزحمة الاهالى . ووصف الجغرافيون مدينة جدة

على انها « فرضة اهل مكة على ساحل البحر ، وهى عامرة كثيرة التجارات والاموال ، ليس بالحجاز بعد مكة اكثر مالا وتجارة منها[١٣٥] .. » ومع ذلك فان المرء قد يتساءل بان هذه الخصائص المشتركة لمدينة المرفأ تشدد على الموقع بالدرجة الاولى ، اى كون هذه المدن واقعة على ساحل البحر او النهر وان هناك تسهيلات معينة للوافدين اليها من التجار وفيما اذا كانت تستفيد من هذا الموقع فى تصدير ما تنتجه . غير ان هنالك مستلزمات اخرى ينبغى توفرها ايضا لتسهيل مهمة سير السفن كالفنارات او المنارات والاسواق . وقد تنبه الجغرافيون العرب الى هذه المستلزمات فذكروا مثلا مسألة « الخشبات » التى تقع بين البصرة والخليج العربى ووصفوا هذا البرج او الخشبات على انها « اربع خشبات منصوبة قد بنى عليها مرقب يسكنه ناطور يوقد بالليل ليهتدى به ويعلم به المدخل الى الدجلة[١٣٦] .. » كذلك يبرز هذا الوصف فى ذكر مدينة سفاقس اذ قيل عنها انها « مدينة من نواحى افريقيا جل غلاتها الزيتون وهى على ضفة الساحل وهى على البحر ذات سور وبها اسواق كثيرة ومساجد وجامع وسورها صخر وآجر وفيها حمامات وفنادق وقرايا كثيرة وقصور جمة ورباطات على البحر ومنائر يرقى اليها فى مائة وستين درجة فى محرس يقال له بطرية وهى وسط غابة الزيتون .. يقصدها التجار من الآفاق بالاموال لابتياع الزيت[١٣٧] » فهى مدينة مرفأ وتجارة فى آن واحد تتوفر فيها خصائص ١ ـ الموقع ٢ ـ ما يردها من تجار ٣ ـ وانها منتجة ومصدرة للزيتون ٤ ـ وهى ايضا تحتوى على الفنارات والمنائر التى تسهل عملية سير السفن التجارية . وفوق ذلك فانها تتميز بكثرة ١ ـ الفنادق ٢ ـ الجوامع ٣ ـ السور ٤ ـ والحمامات . ووصفت مدينة صعدة بانها « مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد ، بها مدابغ الادم وجلود البقر .. وهى خصبة كثيرة الخير[١٣٨] » . ووصفت مدينة طبرقة بانها « مدينة بالمغرب من ناحية البحر البربرى على شاطىء البحر .. وهى عامرة لورود التجار اليها ، وفيها نهر كبير تدخله السفن الكبار وتخرج فى بحر طبرقة[١٣٩] ..»

كما ان هناك جملة من الخصائص المشتركة لصنف رابع من المدن التى بالامكان تسميتها بمدينة الحصن فمما ورد فى وصف مدينة توزر فى اقصى افريقيا أنها مدينة « عليها سور مبنى بالحجر والطوب ولها جامع محكم البناء واسواق كثيرة وحولها ارباض واسعة وهى مدينة حصينة لها اربعة ابواب كثيرة النخل والبساتين .. وهى اكثر بلاد افريقية تمرا وشربها من ثلاثة انهار[١٤٠] » فالتركيز فى هذه المدينة تمثل بفكرة حصانتها ومتانة سورها بالاضافة الى الخصائص المدينية الاخرى كالجامع والسوق ووفرة الانتاج ووفرة المياه . اما مدينة قفصة فهى « مدينة حصينة لها سور من لبن عال جدا طول اللبنة عشرة أشبار وبها نهر طيب[١٤١] » ، ايضا التشديد على مسألة السور ومتانة بنائه ، وجاء فى وصف تنس التى تبعد عن وهران بثمان مراحل فانها « مدينة مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى ينفرد بسكناها لحصانتها وبها مسجد جامع واسواق كثيرة وهى على نهر يأتيها من جبال على مسيرة يوم من جهة القبلة[١٤٢]) » وهنا ايضا فان السور وحصانته والقلعة تعد من اهم خصائص المدينة فضلا عن توفر ١ ـ المسجد الجامع ٢ ـ الاسواق ٣ ـ المياه . وجاء فى وصف العشيرة بانها « حصن صغير بين ينبع والمروة تفضّل تمورها على سائر تمور[١٤٣] الحجاز »

ومما يثير الدهشة والاعجاب هو ان الجغرافيين المسلمين قد ميزوا بين المدن نفسها اعتمادا على الخصائص والعناصر المدينية السابقة فجعلوا مدنا تتصف بالكبر واخرى بانها وسط وثالثة بانها مدن صغيرة وهو امر هام يعكس مدى تفهمهم لنظرية الحجم والمساحة فمما قيل عن مدينة هيت بانها « مدينة وسط على غربى الفرات وعليها حصن وهى عامرة آهلة[١٤٤] .. » ان اطلاق تعبير

مدينة وسط بالرغم مما كانت تتمتع به من ١ ـ وجود حصن ٢ ـ وبانها آهلة ٣ ـ وانها ذات رخاء ، يشير الى انها حسبما ادركه الجغرافيون اقل اهمية او اقل حجما او كليهما عن المدينة الكبيرة .. ووصفت مدينة برقة بانها « مدينة وسطة ليست بكبيرة وحواليها كورة عامرة كبيرة(١٤٥) » ومن الناحية الثانية فان الجغرافيين يشيرون الى مدينة النهروان على انها « صغيرة عامرة كثيرة الغلات والخيرات والنخيل والكروم والسمسم خاصة ، ونهرها يفضى الى سواد بغداد(١٤٦) » ان هذه المدينة صغيرة من ناحية الحجم غير ان لها اهمية اقتصادية متمثلة بانتاجها . كذلك فان مدينة الاسوس فى مصر هى « مدينة صغيرة آهلة خصبة ذات نخيل وزروع(١٤٧) » . وان مدينة خوراذان مدينة « صغيرة الا انها عامرة رفقة والعيش بها هنىء .. بها سوق حاد والجامع عامر وخيرات واشجار تخترقها(١٤٨) » وان مدينة ده اشتران فى بلاد فارس هى « صغيرة وقربها قرية ولها جامع به منارة طويلة فى سوق صغير والنهر تحت البلد وحولها بساتين حسنة(١٤٩) » . اما مدينة ميله فهى « مدينة صغيرة في أقصى افريقيا ليس لها غير المزروع وهى قليلة الماء(١٥٠) » . من ذلك يمكننا الوصول الى نتيجة هى ان المدن الصغيرة المذكورة انفا هى مدن صغيرة فى حجمها وانما تشتهر بمحاصيلها الزراعية من فواكه وزروع علما بانها ايضا لا تخلو من خصائص ١ ـ وجود جامع ٢ ـ وسوق ٣ ـ وتوفر المياه .

وهناك ملاحظة عامة على هذا النوع من المدن المتوسطة والصغيرة هى ان الجغرافيين لم يشددوا فى اوصافهم على الخصائص الاخرى التى سبق ان اشاروا اليها فى المدن الكبيرة ككثرة الاسواق ووجود السور والسعة والمساحة والرخاء ووفرة المياه والحمامات والمنبر والتجارات .. الخ وقد صنفوها من بين المدن ، لا القرى مثلا ، وذلك بسبب اهميتها فى بعض المجالات الاقتصادية وعلى وجه الخصوص الزراعية

ويبدو ان تعبيرات بلدة كبيرة او بلد او بلدة او بليد او بليدة او بليدة صغيرة التى يتكرر ذكرها عند الجغرافيين المسلمين تقابل من الناحية الجغرافية الوصفية تعبيرات مدينة او مدينة وسط او مدينة صغيرة تلك المتميزة بخصائص انتاجية اقتصادية لا سيما فى مجال الزراعة .. وللتدليل على هذا الاستنتاج نستشهد بما ذكره ياقوت الحموى عن بلدة جبّل اذ قال انها « بليدة بين النعمانية وواسط من الجانب الشرقى كانت مدينة واما الآن فانى رأيتها مرارا وهى قرية كبيرة(١٥١) » فان تعبير البليدة يشابه الى حد كبير مدينة او مدينة متوسطة . كما جاء فى وصف المحول بانها « بليدة حسنة طيبة نزهة كثيرة البساتين والفواكه والمياه(١٥٢) » وهذه البليدة ايضا تعبير عن المدينة الوسط او الصغيرة حيث تتصف بملاءمة احوالها المناخية وتوفر المياه والانتاجية الزراعية وورد عن نهر الدير وهو عبارة عن نهر يقع بين مطارا والبصرة لكن هناك ايضا « بليد حسن وبه يعمل الغضار(١٥٣) » . ووصفت نجيرم بانها « بليدة مشهورة دون سيراف(١٥٤) » ويعقب الحموى قائلا « رأيتها مرارا ليست بالكبيرة ولا بها اثار تدل على انها كانت كبيرة(١٥٥) » فى هذه الحالة لا شك انها مدينة وسط او مدينة صغيرة . ووصفت برقعيد بانها « بلدة كبيرة من اعمال الموصل(١٥٦) » وفى هذا يشير الى السرخسي كمصدر غير ان ياقوت يعقب على هذا الوصف قائلا بانها « بليدة فى طرف بقعاء الموصل(١٥٧) » فهو يؤكد على انها خلال فترته كانت بليدة بينما كانت فى وصف السرخسي بلدة كبيرة فالبليدة حسب تصوير الجغرافيين المسلمين اقل مرتبة من بلدة كبيرة . والمهم ان ياقوت لم يكتف بذلك بل انه يشير الى مشاهدته هو عن هذه البلدة اذ اورد ما نصه « قلت انا ـ وهو فى هذه الحالة يعقب على ما اورده السرخسي ـ كانت هذه صفتها ـ اى بلدة كبيرة ـ فى قرابة سنة ثلثمائة هجرية اما الآن فهى خراب صغيرة حقيرة(١٥٨) » ووصفت سعيد اباذ بأنها « بليدة فى جبال طبرستان تلى كلار ، وكان بها منبر(١٥٩) » .

وقد تتحول ظروف البليدة التى تقابل كما المحنا المدينة المتوسطة او الصغيرة الى ان تتخذ قصبة هو الحال فى النعمانية فهى « بليدة بين واسط وبغداد اذ صارت قصبة اعمال الزاب وكان فيها سوق(١٦٠) . كذلك وصفت بون بانها . « بليدة بين هراة وبغشور وهى قصبة ناحية باذغيس(١٦١) » .

اما تعبير البلد والبلدة فانهما يشيران الى مدينة واسط اذ يصف ياقوت مدينة واسط قائلا « رأيت انا واسط مرارا فوجدتها بلدة عظيمة ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين ونخيل يفوق الحصر ، وكان الرخص موجودا فيها من جميع الاشياء ما لا يوصف(١٦٢) » وان كفر لاثا « بلدة ذات جامع ومنبر فى سفح جبل عاملة من نواحى حلب وهى ذات بساتين ومياه جارية نزهة طيبة(١٦٣) » . ووصفت جويث بانها « بلدة فى شرقى دجلة البصرة العظمى مقابل الابلة ، رأيتها غير مرة ، وبها اسواق وحشد كثير(١٦٤) » . ومن الاوصاف الطريفة التى تتعلق بهذا الموضوع ما قيل بشأن بروجرد فانها « بلدة بين همذان وبين الكرج وكانت تعد من القرى الى ان اتخذ حمولة وزير آل ابى دُلف بها منبرا اتخذها منزلا لما عظم امره وأستبد بالجبال . وهى مدينة خصبة كثيرة الخيرات(١٦٥) » فان هذه القرية قد تبدلت احوالها فصارت بلدة او مدينة . واما خيف سلام فانها « بلدة بقرب عسفان على طريق المدينة فيها منبر وناس كثير من خزاعة ومياهها قنى وباديته قليلة من جشم وخزاعة(١٦٦) » وان هذا المكان اتخذ مركز البلد نظرا لتوفر ١ ـ الموقع ٢ ـ والمنبر ٣ ـ وزحمة الأهالي ٤ ـ والمياه . ايضا فقد وصفت اسفيجاب على انها «بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر، ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة(١٦٧) ووصفت بسطام بأنها «بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق الى نيسابور(١٦٨)» ويبدو ان موقعها على هذا الطريق قد اضفى عليها صفة البلدة الكبيرة اذ يعقب ياقوت على هذه الحالة بقوله ان بسطام كانت كما وصفها مسعر بن هلال «قرية كبيرة شبيهة بالمدينة الصغيرة» غير انه يقول «وقد رأيت بسطام هذه وهى مدينة كبيرة ذات اسواق الا ان ابنيتها مقتصدة ليست فى ابنية الاغنياء(١٦٩)» فالبلدة الكبيرة حسب وصفة مدينة كبيرة تحتوى على اسواق، فالاسواق اذن اعتبرت السمة المميزة للمدينة. ووصفت سرقسطة على انها «بلدة مشهورة بالاندلس تتصل أعمالها بأعمال تطيله ذات فواكه عذبة لها فضل على سائر فواكه الاندلس، مبنية على نهر كبير(١٧٠)..». ووصفت دنيسر على انها «بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة.. رأيتها وانا صبى وقد صارت قرية ثم رأيتها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة وقد صارت مصراً لا نظير لها كبرا وكثرة اهل وعظم اسواق وليس بها نهر جارٍ انما شربهم من آبار عذبة طيبة مرية وارضها حرّة وهواؤها(١٧١) صحيح» فهى بلدة عظيمة وهى مصر ثم هى مدينة وقد امتازت بخصائص:

١ ـ سعة حجمها
٢ ـ زحمة السكان
٣ ـ الاسواق
٤ ـ أحوالها المناخية الملائمة
٥ ـ مياهها العذبة
٦ ـ تربتها الخصبة.

وهنا ايضا وردت عدة نصوص توضح بأن البلد او البلدة قد اصبحت فى بعض الحالات قصبة كما هو الحال فى خلاط فانها «البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة وهى قصبة ارمينية(١٧٢) الوسطى» وان كارزين على الرغم من كونها مدينة صغيرة تبلغ مساحتها او حجمها حوالى الثلث من حجم مدينة اصطخر كما انها «ليست من الكبر وقوة الاسباب بحيث يجب ذكرها» لكن ياقوت قد ذكرها «لانها قصبة كورة قباذ خرة(١٧٣) كذلك فقد وصفت دورق بأنها «بلد بخوزستان وهى قصبة وهى مدينة وكورة واسعة»(١٧٤).

ان الامثلة الوصفية الجغرافية السابقة تؤكد

على وضوح رؤية الجغرافيين المسلمين فيما يتعلق بالخصائص التى تتميز بها المدن والتى ينبغى توفرها تبعا للوظيفة او الوظائف التى كانت هذه المدينة او تلك تقوم بها. وقد تلمسنا من خلال تلك الاستشهادات ثلاثة خطوط فى تبويب وتصنيف خصائص المدن العربية الاسلامية هى:

١ ـ هناك خط يتوضح فيه تركيز الجغرافيين على الخصائص المطلوبة فى المدن الساحلية او مدن الاسواق او المدن التجارية كالموانىء والمرافىء والفرضة.. وتتمثل هذه الخصائص بالعامل التجارى ومقدار التسهيلات الملاحية التى تقدمها هذه المدن سواء كان ذلك فى كثرة الاسواق أو كثرة الفنادق أو كثرة الخيرات او بالاحرى الانتاجات الذاتية التى تدخل كعامل فى التصدير أو الفنارات التى تساعد على ارشاد السفن التجارية. وعلاوة على هذه السمات البارزة فإنها مدن يتوفر فيها المسجد الجامع والمياه الصالحة للشرب.

٢ ـ وهناك خط شدد فيه الجغرافيون على خصائص تصلح للمدينة بوجه عام يمكن تشخيصها بوجود المسجد الجامع، وزحمة السكان، وملاءمة الاحوال المناخية، ووجود السوق او الاسواق والحمامات، ووفرة الانتاج بنوعيه المعادن والزراعة ووفرة المياه العذبة سواء كانت من الانهار ام الابار.

٣ ـ اما الخط الثالث فهو المتمثل بالخصائص التى تميزت بها مدن الحصون او الحصون عامة وهى خصائص تركزت على وجود السور ومتانة بنائه واحكامه والمواد البنائية التى دخلت فى بنائه.. وفى بعض الحالات توجهت الاهتمامات نحو قلعة هذه المدينة او تلك ومدى حصانتها، فضلا عن ذلك فان خصائص هذا الصنف لا يعنى انعدام مقومات مدينية اخرى كوجود المسجد الجامع والسوق او الاسواق ووفرة الانتاج لا سيما المعادن ووفرة المياه.

هناك موضوع آخر لا مندوحة من الاشارة اليه قبل الانتقال الى مسألة جديدة فى البحث الا وهو ان سعة المساحة التى تحتلها المدينة او البلدة الكبيرة قد أدى فى بعض الاحوال ان تصبح تلك المدينة او البلدة كورة او ناحية او ولاية فى نفس الوقت الذى تكون فيه مدينة او بلدة ففرغانة على سبيل المثال مدينة كبيرة وكورة واسعة ومدينة خلخال فى اذربيجان مدينة وكورة فى آن[١٧٥] واحد ورويان مدينة كبيرة فى طبرستان وهى ايضا كورة[١٧٦] واسعة، وغزنة مدينة عظيمة وهى فى نفس الوقت ولاية[١٧٧] واسعة والحالة ذاتها يمكن ان نجد لها تطبيقا فى بعض المراكز التى اخذت تعبير البلدة والبليدة. اذ ان باميان بلدة وكورة فى منطقة[١٧٨] الجبال والمهجم بلد وولاية من اعمال زبيد فى[١٧٩] اليمن، وان خيل كورة وبليدة تقع بين الرى وقزوين[١٨٠].

ومن الطريف ذكره ان الجغرافيين المسلمين كانوا على تقدير فى تمييزهم بين تعبيرات المدينة والبلدة من جهة وبين تعبير القرية من جهة اخرى وذلك من حيث الخصائص الاساسية التى اتسمت بها القرى ومن حيث تصنيفهم مراتب القرى وفقا لأحجامها. اذ قد وردت لديهم تعبيرات متعددة بشأن القرية فهناك قرية كبيرة او قرية جامعة او قرية كبيرة جامعة او قرية شبيهة بالمدينة او قرية كالمدينة او قرية كبيرة كالبلدة او قرية غناء او قرية من اعيان القرى او قرية عامرة. ان هذه التعبيرات لم تذكر بصورة اعتباطية وغير دقيقة انما بنيت على عدة اسس لمدينة متميزة تمثلت فى هذه المجاميع المختلفة من القرى. ولهذا فانه من المفيد جدا التعرف على اوصاف الجغرافيين لهذه الاصناف فى القرى وذلك بغية ادراك مدة تفهم هؤلاء الجغرافيين لهذه المسألة الهامة. فما ورد بشأن تُبَّل أنها «من قرى حلب بها سوق ومنبر[١٨١]»، ووصفت خديمكتن انها «من قرى كرمينية من نواحي سمرقند بها جامع[١٨٢] ومنبر» ووصفت قطية بأنها «قرية فى طريق مصر فى وسط الرمل قرب الفرما بيوتهم صرائف من جريد النخل وشريبهم من ركية عندهم جائفة ملحة ولهم سويق فيه خبز اذا اكل وجد الرمل فى مضغة فلا يكاد يبالغ فى مضغه وعندهم سمك كثير لقربهم من

البحر[١٨٣]»، اما قرية فاطماباذ فهى من قرى همذان «قيل ان مسجد جامع همذان كان بفاطماباذ وانه كان بجنب المسجد الجامع اليوم كروم وزروع[١٨٤]». ووصفت قرية ضرعاء بأنها تقع «فى اسفل رقيم قرب ذرة فيها قصور ومنبر وحصون يشترك الحرث فيها هذيل وعامر بن صعصعة»[١٨٥]. اذن فالخصائص المتميزة المشتركة للقرية عند الجغرافيين يمكن تحديدها بالاتى: ١ ـ وجود جامع ٢ ـ ومنبر ٣ ـ والسوق ٤ ـ والانتاج الزراعى. وفى الوقت نفسه فاننا نلاحظ بأن هناك سماحة فى التشدد على وفرة المياه والعمارة.

وكذلك فانه من الملاحظ بأن الخصائص التى اتسمت بها القرية الكبيرة لا تختلف اختلافا نسبيا عن تلك التى ذكرت بشأن القرية بصورة عامة. فالفراذية هى قرية من قرى بلاد الشام «كبيرة بها منبر وبها ماء غزير ومواضع نزيهة[١٨٦]». والفرع «قرية من نواحى المدينة على يسار السقيا على طريق مكة بها منبر ونخل ومياه كثيرة وهى قرية غناء كبيرة وهى لقريش ومزينة. وهى كالكورة وفيها عدة قرى ومنابر ومساجد لرسول الله[١٨٧] (ص)».

اما جنوجرد «من قرى مرو على خمسة فراسخ منها، فيها تنزل القوافل فى المرحلة الاولى من مرو. وعهدى بها كبيرة ذات سوق واسع وعمارات حسنة وجامع فسيح وكروم وبساتين[١٨٨]» فاننا نلاحظ من هذه الاوصاف بروز تشديد واضح على مسألة الماء والعمران فضلا عن الخصائص الاخرى السابقة وهى الجامع والمنبر والسوق.

ولعله من الصحيح القول بأن تعبير «القرية الكبيرة الجامعة» مشابه فى خصائصه للقرية الكبيرة، فقد وصفت قرية تل صباح بأنها «قرية كبيرة جامعة فيها سوق وجامع كبير من قرى نهر الملك بينها وبين بغداد عشرة أميال[١٨٩]» ان اطلاق صفة الكبر على الجامع قد يكون دليلا على كثرة الاهالى، ومن المحتمل ان وصفها بالقرية الكبيرة الجامعة تعبير عن قربها من العاصمة بغداد، ايضا فقد وصفت قرية عسفان بانها «قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ست وثلاثين ميلا من مكة»[١٩٠]. اما قرية قرنوط الواقعة بين القاهرة والاسكندرية فانها «قرية كبيرة جامعة على النيل فيها اسواق ومسجد جامع وكنيسة خراب كبيرة[١٩١]». فالجديد فى هذه القرية انها تحتوى على اسواق وليس سوقا واحدا وعلى مسجد جامع لا جامع فقط.

علاوة على ذلك فقد ورد تعبير قرية عامرة، اذ وصفت وبالة بأنها «قرية عامرة بها اسواق بين واقصة والثعلبية.. فيها حصن وجامع[١٩٢]»

اما تعبير «القرية الغناء» فهو تعبير يشير الى اهمية القرية من الناحية الزراعية فضلا عن جمالها فقد وصفت قرية مهريجرد بأنها «قرية غناء من كورة تمد وهى من أحلى قراها واعمرها واكثرها سوادا ومياها وانهارا[١٩٣] ».

واطلق تعبير «من اعيان القرى» على قرية طنان وهى «من اعيان قرى مصر قريبة من الفسطاط ذات بساتين ميرتها عشرة الاف دينار فى كل عام[١٩٤]» فالتعبير اشارة جليّة الى ارتفاع انتاجها واهميتها وقربها من الفسطاط.

ومع ذلك فان الاوصاف التى ذكرها الجغرافيون بشأن القرى التى ارتقت الى مصاف المدن فى الحجم والاهمية تتضمن خصائص جديدة قد تخلو منها القرية الكبيرة والقرى الجامعة. فقد وصفت قرية شيرز بأنها «من قرى سرخس شبيهة بالمدينة بها سوق عامر وخلق كثير وجامع كبير الا ان شربهم من ماء آبار عذبة[١٩٥]». وقرية الفضلية هى «قرية كبيرة كالمدينة من نواحى شرقى الموصل. بها نهر جار وكروم وبساتين وبها سوق وقيسارية وبازار تشبه باعشيقا[١٩٦]». اما شنشت فهى «من قرى الرى المشهورة كبيرة كالمدينة[١٩٧]» وقرية ردزاه «قرية من مشاهير قرى الرى كالمدينة كبرا[١٩٨]» ووصفت بعقوبا بانها «قرية كبيرة كالمدينة وهى كثيرة الانهار والبساتين واسعة الفواكه متكاثفة النخل وبها رطب وليمون[١٩٩]». اما فنين فيقول

ياقوت عنها بأنها «قرية عهدى بها عامرة احسن من مدينة [٢٠٠]». ووصفت طرق بأنها «قرية كبيرة من اعمال اصبهان كبيرة شبه[٢٠١] بلدة». فالتشديد البارز فى هذه المجموعة من القرى كان على الحجم بالدرجة الاولى اضافة الى ١ ـ كثرة الاهالى ٢ ـ توفر المياه ٣ ـ وانتاجيتها.

ومن الجدير ذكره فى هذا الباب ان هناك عددا من القرى قد اتخذت صفة او وظيفة القصبة، فان قرية جازر هى «قرية من نواحى النهروان من اعمال بغداد قرب المدائن وهى قصبة طسوج الجاذر[٢٠٢]».

خلاصة القول ان تصنيف الجغرافيين لتلك القرى يعد تصنيفا دقيقا اعتمادا على معايير خاصة تجعل القرية الكبيرة والعامرة والغناء تختلف نوعا ما عن القرية بصفتها المجردة، وان هذه جميعا تختلف عن القرية الشبيهة بالمدينة. ويبدو ان معيار الجامع والمنبر لا يمكن اعتباره المعيار الوحيد والكافى للمقارنة والتمييز بين هذه المراكز فى نظر الجغرافيين القدامى ولذلك يمكن القول بأن هذه الرؤية تعد ردا صريحا على من تشدد من الكتاب الذى كتبوا عن المدينة العربية حول هذه المسألة. ولعل حجم القرية وكثافة سكانها وتطور مواردها الذاتية الاقتصادية هى من بين العوامل البارزة فى هذا التحديد لا الجامع والمنبر فقط.

ان الاشارة الى المنبر فى الفقرة السابقة لها من الاهمية فى حقل التمدن العربى الاسلامى الامر الذى حدا ببعض الباحثين عن المدينة العربية الاسلامية سواء كانوا عربا أم أجانب، الى القول بأنه، اى المنبر، هو العلاقة الفارقة الرئيسية التى تتميز بها المدينة عن القرية او عن اى مركز تمدنى اخر. فالمكان الذى يحتوى على منبر هو المدينة فعلا وما عداه فهو قرية او ما يشبه ذلك. وقد جعل هؤلاء مسألة المنبر معادلة لمسألة الجامع، فالمنبر فى رأيهم هو الجامع وبالفعل فان بعض الجغرافيين قد شدد على هذه المسألة كثيرا فمما اورده المقدسى عن بلاد ما وراء النهر بأن فى هذه البلاد قرى كبارا كالمدن لا ينقصها شىء من ان تكون بهذه المرتبة الا[٢٠٣] الجامع. من هذا المنطلق وجدنا من المناسب جدا الوقوف على هذا الموضوع وقفة مسهبة.

بادىء ذى بدء فان تعبير المنبر لم يأت فى جميع الاحوال والاوصاف الجغرافية على انه مرادف للجامع فقد ورد فى بعض الاحوال على انه يمثل بحد ذاته وحدة ادارية. فالجامعين فى العراق «منبر صغير حواليها رستاق عامر خصب [٢٠٤] جدا» فهل هناك اى رائحة تشير الى أن :

هذا الموضع ، الجامعين الذي صار بعدئذ مدينة الحلة فى العراق ، كان مدينة لوجود المنبر كعلامة بارزة لذلك ؟ أو أن هذا التعبير يعادل الجامع ؟ كذلك ورد خلال التعريف بصغد على انها كورة عجيبة وكانت سمرقند قصبتها فيذكر ياقوت الحموى بان الجيهانى قال ان سمرقند هي «منبرها الاجل» بمعنى منبر كورة صغد ، فى حين يذكر غير ياقوت أن قصبة الصغد اشتيخن وفضلها على سمرقند[٢٠٥] . هنا يبرز على ان المنبر = القصبة .

علاوة على ذلك فان تعبير المنبر لم يكن متحددا ، كما يرى بعض الباحثين ، فى المدن . اذ انهم رأوا بان المكان الذي ليس فيه منبر لا يعد مدينة ، وذلك لان هناك عددا من الاستشهادات عن مراكز عديدة تتراوح مرتبة ودرجة تمدنها من حصن الى قرية صغيرة الى قرية كبيرة الى قرية جامعة الى بلدة الى بليدة الى مدينة صغيرة الى مدينة يتوفر بها المنبر .

فقرية منع «قرية كبيرة بها منبر من نواحي عزاز فى حلب[٢٠٦]» . وأن الجحفة «كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة[٢٠٧]» . وان ثروق «قرية عظيمة لسدوس بن عدنان فيها منبر[٢٠٨]» . وان عسفان «قرية جامعة بها منبر ونخيل على ست وثلاثين ميلا من مكة[٢٠٩]» . وان سعيد أباذ «بليدة فى جبال طبرستان ، وكان بها منبر[٢١٠]» . وان الفهرج «بلدة بين فارس ،

واصبهان بها منبر[٢١١]» . وان خيف سلام «بلد تقرب عسفان على طريق المدينة فيه منبر وناس كثير[٢١٢]» . ووصفت خيل بانها كورة وبليدة بين الري وقزوين لها عدة قرى ومنبر[٢١٣] .

وان حصن منصور فى بلاد الشام هو حصن صغير فيه منبر [٢١٤] . وان الكنيسة وهى حصن وثغر في آن واحد فيه منبر[٢١٥] . وان الجارفرضة تقع على ساحل بحر القلزم بها منبر[٢١٦] .

وعند قراءة قائمة الاصطخري حول نواحى كورة سابور ونواحى كورة دارا بجرد ونواحى كورة اردشير ونواحى كورة اصطخر يبرز لنا عنصر آخر عن معنى المنبر وموقعه فى تلك الاصناف من المراكز السابقة ونكتفي بقراءة قائمة واحدة للتدليل على ذلك . فجاء فى نواحي كورة أرجان عند الاصطخرى مثلا «أرجان ومدينتها أرجان وبارزنخ ليس بها منبر ، وبلاد سابور بها منبر ، وريشهر بها منبر ، وبنيان ليس بها منبر ، ودير أيوب ليس بها منبر ، والملجان ليس بها منبر ، والسلجان ليس بها منبر ، ودير القمر ليس بها منبر ، وفرزك بها منبر ، ومهرويان بها منبر ، وجناية بها منبر ، وشينيز بها منبر ، وصوان ليس بها منبر[٢١٧]» . ما هو المعيار الذي جعل الاصطخرى يشير الى قرى ومدن نواحى أرجان بانها خالية من منبر أو عكس ذلك ، فالتعبير اذن لا يقتصر على المدن وليس تعبيراً مرادفا للجامع أيضا .

ويبدو من قراءة نصوص جغرافية اخرى بان القصبات هى الاخرى من المراكز التى تحتوي على منابر ، وربما يمكن القول بان المنبر قد يعنى أيضا القصبة . اذ يذكر الاصطخرى ان فى سيراف ثلاثة منابر وهى : القصبة ونجيرم[٢١٨] وجمّ . ووصفت بيشك على انها قصبة كورة رُخ من نواحي نيسابور فيها أسواق «الا انه ليس بها منبر[٢١٩]» . وان ناحية يزد فى بلاد فارس أكبر ناحية فيها أربع مدن كثه وهى القصبة والفهرج يقول الاصطخري : «وليس في النواحي ناحية بها أربع منابر غير هذه الناحية[٢٢٠]» . أى أربع مدن من ضمنها القصبة «كثه» . وان روزراود اسم لرستاق «والمنبر منها في الكرج وهى مدينة صغيرة بناؤها من الطين[٢٢١]» . فالقصبة هنا هي المنبر .

أما المسألة الاخرى التى يؤكد عليها عدد من الباحثين فى حقل التمدن العربي الاسلامي فهى اعتبارهم المنبر كأنه مرادف للجامع . وهذه المسألة هى أيضا بحاجة الى مناقشة . صحيح ان التفسير اللغوي للمنبر هو مرقاة الخاطب وقد سمي كذلك لارتفاعه وعلوه . والمنتبر هو كل مرتفع من شيء . وورد أيضا اللفظ في انتبر الامير أى ارتفع فوق المنبر[٢٢٢] . فهو اذن المكان الذي تقرأ منه خطبة الجمعة فى المسجد الجامع وانه على هذا الاعتبار يكون مرادفا للجامع .

غير ان هناك عددا من الاستشهادات التى أوردها الجغرافيون لا تؤكد ذلك فقد ورد ذكر «الجامع والمنبر» أو «مسجد جامع ومنبر» بصورة منفصلة ولا توحي بارتباط الواحد بالآخر أو اندماجهما فقرية بوهرز هى «قرية كبيرة قرب يعقوبا بها جامع ومنبر[٢٢٣]» وقرية بهاران «من قرى اصبهان ذات جامع ومنبر كبير[٢٢٤]» . فما الذي توحي به هنا صفة الكبر بالنسبة الى المنبر ؟ كذلك فان سوارقية هى «قرية غناء كبيرة كثيرة الاهل فيها منبر ومسجد جامع[٢٢٥]» . وجلماثرد هى «قرية كبيرة من قرى اصبهان فيها منبر وجامع كبير[٢٢٦]» . ولم يقتصر الامر فى هذا الموضوع على القرية انما اتصفت به البلدة والمدينة ، فان كفرلاثا هي «بلدة ذات جامع ومنبر[٢٢٧]» .

وان ممطير «مدينة بطبرستان بها مسجد ومنبر[٢٢٨]» . وزيادة على ذلك فان مدينة العريش فى مصر فيها جامعان ومنبران [٢٢٩] .. وان الفرع هى قرية من نواحي المدينة وهى كالكورة فيها منابر ومساجد لرسول الله (ص)[٢٣٠] . ومن النصوص الطريفة في هذا المجال ما ذكره الاصطخري بشأن حصن المنقب فانه حصن فيه «منبر ومصحف له[٢٣١]» . أى ان المصحف الكريم للمنبر .

ومن الجانب الآخر فانه بالامكان القول بانه ليس هناك تشدد أو تحديد على ان المركز التمدني ، سواء كان مدينة أو قرية كبيرة ، يوجد فيه منبر واحد فقط لان هناك عدة استشهادات تشير الى احتمال وجود أكثر من منبر في الموضوع . فقد جاء بشأن نفوسه انها جبال في المغرب فيها «منبران في مدينتين احداهما سروس .... والاخرى يقال لها جادو[٢٣٢]» .

وان ناحية يزد في كورة اصطخر فيها أربعة منابر الامر الذي دفع بالاصطخري الى ان يندهش قائلا : «وليس في النواحي ناحية بها أربع منابر غير هذه الناحية[٢٣٣]» . في حين ان المقدسي وياقوت الحموي يشيران الى ان ناحية غرشستان هي ناحية واسعة بها عشرة منابر أجلها بيشير[٢٣٤] . كذلك فان يبرين وهي صقع من أصقاع البحرين فيها[٢٣٥] منبران . وان الفرع كما ذكرنا آنفا فيها منابر . ووصفت كرمان ان بها «خمسة وأربعون منبرا صغارا وكبارا[٢٣٦]» .

نخلص الى القول بان المنبر أساسا لم يتحدد بالمدينة بل شمل القرية الصغيرة والكبيرة والحصن والبلدة والمدينة . والاهم من ذلك ان تكرار ذكره والتشدد في ذكره لم يكن في المدينة بل الاحرى بالقرية والقرية الكبيرة كما يتضح من الاستشهادات العديدة السابقة . غير انه من المفيد قوله بان المنبر قد عُدَّ من بين الخصائص التي يمكن اضافتها الى الخصائص الاخرى للقرية أو البلدة والقصبة بالدرجة الاولى ولم يتشدد بوجوده في المدن . وفي بعض الحالات جعل المنبر كسمة هامة في الموضوع الى جانب السوق فمما ورد بشأن يما بَرْت أنها قرية من قرى أصبهان الكبيرة وبها «سوق ومنبر[٢٣٧]» ، وان خيل هي بليدة تقع بين الري وقزوين بها عدة قرى ومنبر[٢٣٨] وأسواق . وان تبل قرية من قرى حلب بها «سوق ومنبر[٢٣٩]» .

وفي رواية لياقوت الحموي تتعلق بقصبة بيشك يقول فيها بان بيشك قصبة كورة سرخ من نواحي نيسابور وبها «سوق الا انه ليس بها منبر[٢٤٠]» .

هل يقصد به الدلالة على وجود الامير أو الوالي الذي يتخذ القصبة أو عاصمة الناحية مقرا له أو مركزا لامارته ؟ وهل يقصد به من الجهة الثانية الدلالة على الشيخ أو الرئيس أو الوجيه الذي يتخذ من القرى مقرا له ؟ وهل يقصد به الدلالة على خطبة الجمعة أو المكان الذي يصح فيه اقامة صلاة الجمعة وخطبة الجمعة ؟ وهل يقصد به الدلالة على عاصمة الناحية أو مركزها الرئيسي ؟ الجواب على ذلك بالايجاب نظرا لتوفر عدد من الاستشهادات الواضحة نسبيا بشأن هذا الموضوع وهذه التساؤلات .

فان كرم من نواحي كورة دارا بجرد بها منبران احدهما اباذه والاخر كردبجرد[٢٤١] ، أي انها تحتوي على مركزين . وان سيراف تحتوي على ثلاثة منابر سيراف وهي القصبة ونجيرم وجم[٢٤٢] . ومما ورد بشأن مدينة بروجرد وهي البلدة الواقعة بين همذان والكرج بانها كانت تعد من القرى «الى ان اتخذ حمولة وزير آل ابي دلف بها منبرا اتخذها منزلا لما عظم أمره واستبد بالجبال[٢٤٣]» . كذلك لابد من العودة الى وصف المقدسي وياقوت الحموي لغرشستان بانها ناحية واسعة بها عشرة منابر اجلها بيشير لان فيها مستقر الشار ، والشار هو الملك[٢٤٤] . كذلك فقد وصفت قرية مهايع بانها قرية كبيرة بشهامة تتصف بوجود «ناس كثير ومنبر بقرب سايه وواليها من قبل أمير المدينة[٢٤٥]» . ووصفت خزبات «بانها خزبة معدن وهي لقبيلة بني عبادة «بها أمير ومنبر[٢٤٦]» .

وجاء في ذكر حصن تيرفت بين جبل نفوسه والقيروان في المغرب وهو لقبيلة بني زمور بان فيه نحو ثلثمائة قرية وعدة مدن «ليس فيها منبر لانهم لم يتفقوا على رجل يأتمون به[٢٤٧]» . اما بخصوص الوشم ذلك الموضع الواقع باليمامة فان ياقوت يشير الى انه «يشتمل على أربع قرى ومنبرها الفقي[٢٤٨]» . والفقي هو وادي لبني العنبر من قبيلة عمرو بن تميم . ومن المحتمل جدا ان هذه التسمية نسبة الى شيخ أو أمير هذه القبيلة . فالنصوص السابقة تشير الى ان المنبر هو

مركز المنطقة أو على وجه التحديد مقر الامير أو الوالي أو الشخص المتنفذ .

غير ان هذا الاستنتاج لم يكن عاما أو صحيحا بصورة عامة وذلك لوجود عدد من الاوصاف الغامضة الاخرى عن المنبر ربما تكون مادة لمحاولة الوصول الى استنتاج اخر مخالف . فما ورد بشأن طبرستان قولا للاصطخري جاء فيه «اما جبال وزرنخ وقادن فلست اعرف بها منبرا غير سمنان في جبال قادن[٢٤٩] ...» . كذلك يذكر ياقوت الحموي خلال حديثه عن الوشم قائلا ان منبرها من «أكبر منابر اليمامة[٢٥٠]» ، وورد بشأن خيف ذي القبر الواقع أسفل خيف سلام في أرض الحجاز بأن خيف ذي القبر» ليس به منبر وان كان آهلا وبه نخيل[٢٥١]» . ووصف منبر بهاران في اصبهان بانه «منبر كبير[٢٥٢]» .

ومن المحتمل القول بان هذه الاختلافات حول ابراز اهمية المنبر وعلاقته بالمدينة أو القرية أو البلدة ترجع الى ان تلك الاستشهادات انما تمثل فترات تاريخية مختلفة . فقد كان التشديد على المنبر كثيرا فى الفترة الاسلامية المبكرة حتى انه عد من بين الاسس أو العناصر الاولى لاعتبار أى مركز مدينة كتعبير عن كونها وحدة ادارية وكبيرة . بينما ضعف هذا الاعتبار فى الفترات المتأخرة عندما تعددت المدن وظهرت وحدات تمدنية اخرى كالبلدة والقرية الكبيرة والقرية الجامعة وغير ذلك وحينما ضعف أو قل التشدد في هذا المعيار كأساس وحيد ومهم في تركيب المدينة وخصائصها بينما توجه الاهتمام والتشدد في عناصر اخرى وخصائص جديدة كالنواحي الاقتصادية وتوفر المياه والانتاج الذاتي وما يتميز به هذا المكان أو ذاك من حصانة وأمور دفاعية اخرى .

★☆★☆★☆★☆★

الهــوامش

(١) انظر د. عبد الجبار ناجي : تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي (سلسلة الموسوعة الصغيرة/ بغداد/ عدد ٨٥ . لنفس المؤلف « المدينة العربية الاسلامية في الدراسات الاجنبية » مجلة المورد/ بغداد عدد ٤ مجلد ٩/ ١٩٨١ .

2) Sauvaget J.: Alep (Paris 1941) pp. 78-9, 104-105: idem "La Plan de Laodicee in Bulletin d'Etudes Orientales (1934) pp99-102, idem (Halab) in E.I.(2), idem Antoiche, essai de geographic urbane" in BEO (iv/1934)PP27/79), IDEM "Esquisse d'une histoire de la ville de Damas" in R de Etudes Islamique (VIII/1934) pp421-80.
3) Xavier de Planhol. The World of Islam (New York 1950) p. 7622.
4) Pirenne, H: Medieval Cities (Princeton 1925) p. 24; idem "Les Villes sont L'ouvre des Merchands" in R. Historique (LVII) p.76-102
5) Max Webber: The City. Translated and Edited by Don Martindale and Gertrud, Neuwirth (New York 1968) p. 81
6) Ashley: "The beginnings of towns life in the Middle Ages" in QJE (1896) p.374.
7) L. Massignon: "Les corps de metiers et la cite Islamique" in R. International de Sociologre (28/1920) pp. 473-90; idem (Sinif) in E.I. (i) B. Lewis, "The Islamic Guilds" in the Economic Hist. Rev. (VIII/ 1931) p20, Ateger. Les Corporations tunistennes. (Paris 1909) CITED BY Lewis p 21.
8) W. Marcajs: "L'islamisme et la vie Urbaine" in comptes vendus des scances Academie des inscription et belles lettres. (1928) pp. 86-100), I. Marcais. "La conception des villes dans L'Islam" in R. d'Alger (1945) pp. 517-33; idem "L'urbunism Musulman" in Melanges d'Hist. (1/1957) pp. 219-231.
9) Lombard. The Golden Age of Islam. Translated by Joan Spencer (Netherlands 1975) p118, 119, 135.
10) Lapidus, I. M. "Middle Eastern Cities" The Editor p. 22.
11) Cahen, C. "Ya-t-il des Corporations Proftessionnelles dans le monde musalman classique" in The Islamic City (Oxford 1970) p. 51-63, idem "Movements populaire, et autonomisme urbaine dans L'Asle Musalman du moyen aye" in Arabic (V/1958) pp 225-50, (VI/1) pp 25-56, 223-65.
12) Ashtor, E. "L'administration Urbaine en Syrie Medievale" in Rivista deyu Studi Orientali (1956) pp 73-128.
13) See Gideon Sjoberg. "The Rise and Fall of cities" IN International J. of Comparatire Sociology (IV/ 96) pp pp 101-20; Benet, F. "The ideology of Islamic Urbanization" in Inter J. of Comp Sociology (IV/ 1963) pp 211-226.
14) See. Janet Abu Lughud: The Legitmacy of Comparisons In Comparative urban Studie," Univ of California (1974); idem Varieties of Urban experience. Contrast, Co-existence and coalscence in Cairo" in Middle Eastern Cities, ed. by Lapidus 1969). Lapidus "Muslim Cities and Islamic Society" in Middle Eastern Cities; Giraber, Oleg; "Cities and Citizens" in Islam and Arab World.
15) Benet, F. "The Ideology of Islam Urbanization" p. 211-226.
16) Jean Combaire and Werner, J. Cahnman. How Cities grew: The Historical Sociology of Cities (New Jersey 1965) (3rd ed.) pp 6-7.
17) MASON Hammond. The City in the Ancient World (Harvard 1972). p. 341, 342, 345, 358.
18) Janet Abu Lughud, op. cit. (Varieties) in Middle Eastern Cities, p. 183.
19(Robert Adams: Land Behind Baghdad: A History of Settlement on the Diyalu Plains (Chicago 1965) pp 62, 75.
20) Lassner, J. "The Topography Of Baghdad in the early Middle Ages." (Detroit 1970) p. 160; Lapidus. Muslim Cities and Islamic Society -. 196, 199, 200.
21) George T. Scanlon: "History and Sanitation. Some Aspects of Medieval Islamic Public Service" in Islamic City (Oxford 1970) pp. 179-94, especially p. 181; 183, 184.
22) Graber, Oleg: "Cities and Citizens" in Islam and Arab World (ed. by B. Lewis) 1976, PP 89-116.

(٢٣) انظر على سبيل المثال د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (فصل المجتمع)

(٢٤) على سبيل المثال د. ناجي معروف : المدخل في تاريخ الحضارة العربية (الباب الثامن) .

(٢٥) اسرالد اشبنجلر : تدهور الحضارة الغربية (بيروت ١٩٦٤) ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٢٦) تعتبر دراسة الدكتور صالح أحمد العلي عن البصرة ، وبحوثه عن خططها من الدراسات الرائدة في مجال دراسة التمدن العربي الاسلامي .

27) See Lopez: "The Cross Roads within the Wall" in Historian and the City, p. 30.
28) Hammond, op. cit, p. 6-7; Philip Hauser: "Urbanization. An overview"in the Study of Urbanization ed. by Hauser (USA 1966) p. 1-2.-
29) Weber: The City, p. 81.

30(Cited by Von Grunbaum: "The Muslim town and the Hellenistic town" in Scientia (1955) p. 36)

(٣١) انظر الفيروز ابادي : القاموس المحيط (مدن)، ابن منظور : لسان العرب (مدن) الزبيدي : تاج العروس (مدن).

(٣٢) ابن منظور : لسان العرب (مادة مدن)، الزبيدي : تاج العروس (مدن).

(٣٣) الفيروز : ابادي : القاموس (مدن) ص ـ ٢٧

(٣٤) الجوهرى : الصحاح مجلد ٦ (ص ـ ٢٢) (مادة مدن).

(٣٥) الزبيدي (مادة دين)

(٣٦)ن.م

37) Goitein: "Cairo: An Islamic City in the light of the Geniza Documents" in Middle Eastern Cities, p. 83

(٣٨) حجازى : المدخل في علم اللغة ص ١٢٦

(٣٩) الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين (مصورة على المطبعة الهندية/بيروت) ج ٤/ص ٥٧٥.

(٤٠) مسند الامام أحمد بن حنبل ج ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢.

(٤١) الطبراني : المعجم الكبير (د. حمدي عبدالحميد السلفي/بغداد ١٩٨٠) جزء ١٢ ص ٣٨٩.

(٤٢) الزمخشري : أساس البلاغة (مادة مصر) ص ٥٩٩، الفيروز ابادي (مادة مصر) ابن منظور (مصر)، الزبيدي : تاج (مادة مصر).

(٤٣) عن الليث في لسان العرب لابن منظور (مادة مصر).

(٤٤) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص٧، ١٩٧.

(٤٥) عن ابن الاعرابي في تاج العروس للزبيدي (مادة مصر).

(٤٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٣٦، ٣٤٥، الطبري : تاريخ الرسل والملوك م ٢٤٨٨/١.

(٤٧) انظر الجوهري : والصحاح (مدن)، الزبيدي : تاج العروس (دين)

(٤٨) الجوهري : الصحاح (مادة حضر)، الفيروز ابادي : القاموس المحيط (مادة حضر)، ابن منظور : لسان العرب (مادة حضر)، الزبيدي : تاج (مادة حضر).

(٤٩) الزمخشري : أساس البلاغة (بيروت ١٩٦٥) ص ١٣٠

(٥٠) انظر ابن دريد : جمهرة اللغة (ط ١٣٤٥/١) ج٢، ص ٢٥٦، الزمخشري : اساس البلاغة (بيروت ١٩٦٥) ص ٥٨٦، الجوهري : الصحاح (تحقيق أحمد عبدالغفور/مصر) ج/٢ ص ٨١٢، الفيروز ابادي : القاموس (مادة مدر)، ابن منظور : لسان (مدر).

51) Egen Ernest Hergel = Urban Sociology (New York 1955), P-8; Max Weber, op. cit. P. 26

(٥٢) سورة الاعراف ، آية ١٢٣.

(٥٣) سورة التوبة ، آية ١٠١

(٥٤) سورة الكهف ، آية ١٩ انظر كذلك سورة يوسف آية ٣٠، سورة الكهف آية ٨٢، سورة النمل آية ٤٨، سورة القصص آية ١٥، ١٨، ٢٠، سورة الاحزاب آية ٦٠.

(٥٥) سورة البقرة آية ٢٥٩.

(٥٦) سورة الانعام آية ١٢٣.

(٥٧) سورة الاعراف آية ٩٤. كذلك انظر الآيات الكريمة في سورة الكهف آية ٧٧، سورة الانبياء آية ٦، ١١، ٧٤، ٩٥، سورة الحج،٤٥،٤٨، سورة الفرقان آية ٤٠،٥١، سورة الشعراء آية ٢١٠، سورة القصص آيـة ٥٨، سورة العنكوبت آية ٣١، ٣٤،

(٥٨) سورة الزخرف آية ٢٣

(٥٩) سورة النمل آية ٥٦.

(٦٠) سورة الاعراف آية ١٦٣.

(٦١) سورة النحل آية ١١٢. كذلك انظر الآيات الكريمة سورة الاعراف آية ٢٠، سورة النساء آية ٧٥؛ سورة الانعام آية ١٢٣، سورة الاعراف اية ١٦١، سورة يونس آية ٩٨، سورة يوسف آية ٨٢، سورة الحجر آية ٤، سورة الاسراء آية ١٦.

(٦٢) سورة الكهف آية ٧٧.

(٦٣) سورة القصص آية ٥٨.

(٦٤) سورة محمد آية ١٣ ايضا انظر الآيات الكريمة في سورة سبأ آية ٣٤، سورة يس آية ١٣، سورة الاعراف آية ٨٢.

(٦٥) سورة النساء آية ٧٥.
(٦٦) ابو داود السجستاني (المتوفى ٢٧٥ هجرية)، سنن (تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد) لبنان ج ٤ ص ١١١.
(٦٧) مسند الامام أحمد بن حنبل (تحقيق أحمد محمد شاكر) ج ٢ ص ١٧٤.
(٦٨) سنن ابي داود (تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد) ج ٤ ص ١١١.
(٦٩) سنن ابن ماجه محمد بن يزيد بن ماجه (نشر محمد فؤاد عبدالباقي) المقدمة ص ١٧.
(٧٠) سنن ابي داود ج ٣ ص ١٢ ـ ١٣.
(٧١) ن.م. ص ١٦
٧٢) مسند احمد بن حنبل ج ٥ ص ٤٤٠
٧٣) ن.م
٧٤) ن.م
٧٥) جمال الدين عبدالله بن يوسف الحنفي الزيلعي: نصب الراية لاحاديث الهداية [ط ١٩٣٨/١] ـ ج ٢ ص ١٩٥
(٧٦) الماوردي الشافعي (توفي ٤٥٠ هجرية) الاحكام السلطانية ص ١٠٣
(٧٧) ن.م. والرواية كما وردت ان الاهالي «لا يظعنون عنه شتاء ولا صيفا الا عن حاجة سواء كان مصراً أو قرية». واختلف الفقهاء ايضا فيما اذا كان الامام من بين الاربعين شخصا أم لا.
(٧٨) الماوردي: الاحكام ص ١٠٣، انظر ايضا الحديث الذي سبق ذكره في ان صلاة الجمعة لا تقام الا في مصر جامع وقيل في حديث آخر في مصر جامع أو مدينة عظيمة.
(٧٩) الماوردي ص ١٠٣ وورد ايضا بانه اذا كان المصر جامعا لعدد من القرى قد اتصل بناؤها حتى اتسع بكثرة أهله كبغداد فانه في هذه الحالة اجيز اقامة الجمعة في مواضعه القديمة ولا يمنع اتصال البنيان في اقامتها في مواضعها.
(٨٠) سورة البقرة آية ٥١
(٨١) سورة المائدة آية ٢٦
(٨٢) سورة الاحقاف آية ١٥ . كذلك انظر الاية في سورة الاعراف « فتم ميقات ربه أربعين ليلة » آية ٧ .
(٨٣) أنظر سنن ابي داود (فصل الملاحم) ، كذلك سنن ابن ماجه (فصل الفتى) .
(٨٤) سنن ابي داود (فصل منائر) .
(٨٥) صحيح مسلم بن الحجاج العشير (باب فضائل) .
(٨٦) سنن الترمذي محمد بن عيسى باب طهارة .
(٨٧) المقدسي البشاري : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (نشر دي غويه ، ليدن) ص ٤٧ .
(٨٨) ن. م.
(٨٩) ن. م. ص ٤٧
(٩٠) ن. م.
(٩١) ن. م.
(٩٢) ن. م.
(٩٣) ن. م.
(٩٤) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٩٥) ن. م ص ١٥٥ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان (بيروت) ج ٢ ص ٢٨٢ .
(٩٦) ن. م ص ١٩٧ .
(٩٧) ن. م. ص ١٩٣ .
(٩٨) ن. م ص ٤٧ ـ ٤٨ .
(٩٩) ن. م ص ٤٧ ـ ٤٨
(١٠٠) ن. م ص ٥٣
(١٠١) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٢٦ ، ج ٣ ص ١١٦ . أنظر أيضا تعريفه للكورة ج ١ ص ٣٩ .
(١٠٢) يا قوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ١١٦ .
(١٠٣) قدامة بن جعفر : نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة باعتناء دى غويه ص ٢٣٤ .
(١٠٤) ياقوت الحموي : معجم ج ١ ص ٣٩ .
(١٠٥) انظر الاصطخرى : الاقاليم ص ٣٤ ، ٣٩ ، ٢٠ ، ١٤ ، ٢٩ .

ابن حوقل : صـورة الارض ص ٢١٨ ، ٢١٩ ٠ ٢٢٧ . المقدسى : احسن التقـاسيم ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ . وهناك استشهادات كثيرة في معجم البلدان لياقوت الحموى . انظر على سبيل المثال ج ١ ص ٢٨٨ ، ٣٣٠ ، ٣٨٧ ، ٤٠٤ ، ٥١٢ ، جزء ٢ ٩٢ ، ١٩١ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٤١٣ ، ٤٧٨ ، جزء ٣ ص ١٢٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، جزء ٤ ص ٢٨١ ، ٤٢٨ ، جزء ٥ ص ٧ ، ٦٦ ص ٢٣٣ ، ٢٩٤ ، ٣٢٠ ، ٣٥٠ .

(١٠٦) الاصطخري : المسالك والممالك (نشر دي غويه) ص ٧٦ ـ ٧٧
(١٠٧) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٩٧
(١٠٨) نفس المصدر.
(١٠٩) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٢٥٧
(١١٠) ل . ٢ ج ٣ ص ٣٩٣ـ ٣٩٤
(١١١) المقدسى : احسن التقاسيم ص ٩٢ ـ ٩٣
(١١٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٤ ص ٤١٣
(١١٣) ل . م . ج ٣ ص ٣٧٦
(١١٤) المقدسى : احسن التقاسيم ص ٧١ ، ٨٠
(١١٥) المقدسى : احسن التقاسيم ص ٢٣١
(١١٦) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٠٧ ـ ١٠٨
(١١٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٠
(١١٨) الاصطخري : الاقاليم ص ٦٣ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ج . ٤ ص ٤٣٨
(١١٩) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٩٦
(١٢٠) ن . م ج ٣ ص ٢٠٦ ، ابو الفداء . تقويم البلدان ص ١٤٨
(١٢١) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٧
(١٢٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٩٦
(١٢٣) الاصطخرى : الاقاليم ص ٦٣ ، ياقوت الحموى نقلا عن الاصطخري معجم البلدان ج ١ ص ٧٠
(١٢٤) ابن الفقيه الهمذاني : البلدان (نشر دي غويه) ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣
(١٢٥) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٠٢
(١٢٦) المقدسى : احسن التقاسيم ص ٢٠٠
(١٢٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠٦
(١٢٨) ياقوت الحموى معجم البلدان ج ٣ ص ٣٩٤
(١٢٩) المقدسى : احسن التقاسيم ص ٩٢ ـ ٩٣
(١٣٠) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٤ ص ١١٤
(١٣١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٤ ص ٨٩
(١٣٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٢٦ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ٨٥
(١٣٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص ٩٢ ـ ٩٣
(١٣٤) ن . م . ج ٤ ص ٣٩٣
(١٣٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٢٣ ، الاقاليم ص ١٠ ووصفها ياقوت الحموى بانها بلد على ساحل بحر اليمن وتعد فريضة مكة ج ٢ص ١١٤
(١٣٦) ابن حوقل : مسالك الممالك (نشر دى غوية) ص ٣٨
، انظر كذلك المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر (باريس) ج ١ ص ٢٣٥ ، ناصرى خسرو : سفر نامة (تحقيق الخشاب) ص ١٥١
(١٣٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ٢٢٢
(١٣٨) ن . م . ج ٣ ص ٤٠٦
(١٣٩) ن . م . ج ٤ ص ١٦
(١٤٠) ن . م . ج ٢ ص ٥٨
(١٤١) ن . م . ج ٤ ص ٣٨٣
(١٤٢) ن . م . ج ٢ ص ٤٨ انظر عن تنس الاصطخرى : مسالك ص ٣٤

(١٤٣) الاصطخرى : المسالك ص ٢٥
(١٤٤) الاصطخرى : الاقاليم ص ٣٩
(١٤٥) ن . م ص ٢٠ ، مسالك ص ٣٣
(١٤٦) ابن حوقل : صورة الارض ق . ص ٢١٨
(١٤٧) الاصطخرى : الاقاليم ص ٢٩
(١٤٨) المقدسى : احسن التقاسيم ص ٤٣٥
(١٤٩) ن . م . ص ٤٣٧
(١٥٠) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٤٤
(١٥١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٣
(١٥٢) ن . م . ج ٥ ص ٦٦
(١٥٣) ن . م . ج٥ ص ٣٢٠
(١٥٤) ن . م . ج ٥ ص ٢٧٤
(١٥٥) ن . م
(١٥٦) ن . م. ج ١ ٣٨٧
(١٥٧) ن . م .
(١٥٨) ن . م .
(١٥٩) ن . م ج ٣ ص ٢٢٢
(١٦٠) ن . م . ج ٥ ص ٢٩٤
(١٦١) ن . م . ج ١ ص ٥١٢
(١٦٢) ن . م . ج ٥ ص ٣٥٠
(١٦٣) ن . م . ج ٤ ص ٤٧٠
(١٦٤) ن . م. ج ٢ ص ١٩١
(١٦٥) ن .م . ج ١ ص ٤٠٤
(١٦٦) ن . م . ج ٢ ص ٤١٢

(١٦٧) ن.م.ج ١ص ١٧٩
(١٦٨) ن.م.ج ١ص ٤٢١
(١٦٩) ن.م
(١٧٠) ن.م.ج ح ٣ ص ٢١٢
(١٧١) ن.م.ج ٢ ص ٤٧٨
(١٧٢) ن. م. ج ٢ ص ٣٨١
(١٧٣) الاصطخرى: المسالك ص ٢٦، ياقوت الحموى ج ٤ ص ٤١٨ ـ ٤٢٩
(١٧٤) ياقوت ج ٢ص ٤٨٣
(١٧٥) انظر عن فرغانة ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٣ وعن خلخال ياقوت ج ٢ص ٣٨١
(١٧٦) ن. م. ج٣ ص١٠٤
(١٧٧) ن. م. ج ٤ ص ٢٠١
(١٧٨) ن. م. ج ١ص ٣٣٠
(١٧٩) ن. م. ج ٥ص ٢٢٩
(١٨٠) ن. م ج ٢ص ٤١٣
(١٨١) ن. م ج ٢ص ١٤
(١٨٢) ن. م. ج ٢ص ٣٤٩
(١٨٣) ن. م. ج ٤ص ٣٧٨
(١٨٤) ن. م. ج ٤ص ٢٣٢
(١٨٥) ١٨٩) ن.م. ج ٣ ص ٤٥٥
(١٨٦) المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٦٢
(١٨٧) ياقوت الحموي ج ٤ ص ٢٥٢

(١٨٨) ن.م. ج ٢ ص ١٧٢
(١٨٩) ن.م. ج ٢ ص ٤٠
(١٩٠) ن. م ج ٤ ص ١٢٢
(١٩١) ن. م ج ٢ ص ٢٧
(١٩٢) ن. م ج ٣ ص ١٢٩
(١٩٣) ن. م ج ٥ ص ٢٣٤
(١٩٤) ن. م ج ٢ ص ٤٢
(١٩٥) ن. م ج ٣ ص ٣٨٢
(١٩٦) ن. م ج ٤ ص ٢٦٧
(١٩٧) ن. م. ج ٣ ص ٣٦٨
(١٩٨) ن. م. ج ٢ ص ٤٥٤
(١٩٩) ن. م ج ١ص ٤٥٣
(٢٠٠) ن. م ج ٤ ص ٢٧٨
(٢٠١) ن. م. ج ٤ ص ٣١
(٢٠٢) ن. م ج ٢ص ٩٤
(٢٠٣) المقدسي: احسن التقاسيم ص ٩٧
(٢٠٤) انظر الاصطخري: الاقاليم ص ٤٩، مسالك الممالك ص ٨٧، ابن حوقل، صورة ق ١ ص ٢٤٥
(٢٠٥) ياقوت الحموي : ج ٣ ص ٤٠٩
(٢٠٦) ن. م ج ٥ ص ٢١٣
(٢٠٧) ن. م ج ٢ ص ١١١
(٢٠٨) ن. م ج. ٢ ص ٧٧
(٢٠٩) ن. م. ج. ٤ ص ١٢٢
(٢١٠) ن. م ج ٣ ص ٢٢٢ انظر أيضا ابن الفقيه الهمذاني : البلدان ص ٣٠٣ .
(٢١١) الاصطخري : المسالك ص ٦٨ ، ياقوت الحموي نقلا عن الاصطخري ج ٤ ص ٢٨١ .
(٢١٢) ياقوت الحموي ج. ٢ ص ٤١٢ .
(٢١٣) ن. م ج ٢ ص ٤١٣

(٢١٤) الاصطخري : الاقاليم ص ٣٤
(٢١٥) ن. م .
(٢١٦) ياقوت الحموي ج. ٢ ص ٩٢ ـ ٩٣ .
(٢١٧) الاصطخري : المسالك ص ٧١ انظر أيضا القوائم على صفحة ٦٩ ـ ٧٠ و ٧٠ ـ ٧١
(٢١٨) الاصطخري : المسالك ص ٦٩ ـ ٧٠ .
(٢١٩) ياقوت الحموي : ج. ١ ص ٥٢٨
(٢٢٠) الاصطخري : الاقاليم ص ٦٣ .
(٢٢١) ن. م ص ٨٦
(٢٢٢) انظر ابن منظور : لسان العرب (مادة نبر) ، الزبيدى : تاج نبر .
(٢٢٣) ياقوت الحموي ج. ١ ص ٥١٢ .
(٢٢٤) ن. م ج ١ ص ٥١٤
(٢٢٥) ن. م ج ٣ ص ٢٧٦
(٢٢٦) ن. م ج ٢ ص ١٥٦
(٢٢٧) ن. م. ج ٤ ص ٤٧٠
(٢٢٨) ن. م. ج ٥ ص ١٩٨
(٢٢٩) ن. م ج ٤ ص ١١٤
(٢٣٠) ن. م ج ٤ ص ٢٥٢
(٢٣١) الاصطخري : الاقاليم ص ٣٤
(٢٣٢) ياقوت : ج ٥ ص ٢٩٧ .

(٢٣٣) الاصخطري : الاقاليم ص ٥٨ .
(٢٣٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ٤٢٢ ، ياقوت ج ٤ ص ١٩٣ .
(٢٣٥) ياقوت ج ٥ ص ٤٢٧
(٢٣٦) ابن الفقيه الهمذاني : البلدان ص ٢٠٦ .
(٢٣٧) ياقوت الحموي : ج ٥ ص ٤٤١
(٢٣٨) ن . م ج ٢ ص ٤١٣
(٢٣٩) ن. م ج ٢ ص ١٤ .
(٢٤٠) ن. م ج ١ ص ٥٢٨
(٢٤١) الاصطخري : مسالك ص ٧٠
(٢٤٢) ن. م ص ٦٩ ـ ٧٠
(٢٤٣) ياقوت الحموي ج ١ ص ٤٠٤ .
(٢٤٤) ن. م ج ٤ ص ١٩٣ .
(٢٤٥) ن. م ج ٥ ص ٢٢٩
(٢٤٦) ن. م ج ٢ ص ٣٦٧
(٢٤٧) ن. م ج ٥ ص ٢٩٧
(٢٤٨) ن. م ج ٤ ص ٢٦٩
(٢٤٩) الاصطخري : الاقاليم ص ٩٠
(٢٥٠) ياقوت الحموي : ج ٤ ص ٢٦٩
(٢٥١) ن. م ج ٢ ص ٤١٣
(٢٥٢) ن. م ج ١ ص ٥١٤ .

البرغواطيون في المغرب العربي
١٢٥ ـ ٥٤٢ هـ

د . إبراهيم خلف العبيدي
كلية الآداب / جامعة بغداد

ظهر البرغواطيون على المسرح السياسى فى أوائل القرن الثانى الهجرى واستمروا حتى منتصف القرن السادس الهجرى . ولعبوا دورا فعالا فى الحياة السياسية المغربية . فلم يتمكن الادارسة ولا الدول الأخرى التى ظهرت فى المغرب القضاء عليهم حتى ظهر المرابطون . فمن هم ؟ وما هي عقيدتهم ؟ وكيف صمدوا بوجه اعدائهم ؟ ما هي علاقاتهم بالدول الأخرى ؟ انها أمور يكتنفها الغموض والتناقض .

ان هذا الغموض والتجاهل من قبل المؤرخين القدامى يفرض واجبا على المؤرخين المغاربة بشكل خاص والمؤرخين العرب بشكل عام البحث بشكل علمي وموضوعي للكشف عن الحقيقة وازالة الغموض . غير أن الذى يتصدى لهذا الموضوع فى الوقت الحاضر يلاقي عدة صعوبات منها عدم وجود كتابات تاريخية تعبر عن وجهة نظر البرغواطيين ، فهى فى طي الكتمان . والمصادر القديمة تعبر عن وجهة نظر معادية الى جانب الاضطراب . أما الكتابات الحديثة فقد زادت المشكلة تعقيدا لكثرة التفسيرات التى لا تستند فى كثير من الأحيان الى أسس صحيحة .

ان المصدرين الاساسيين عن البرغواطيين واللذين نقل عنهما القدامى والمحدثون هما ابن حوقل والبكرى . فالأول شاهد عيان زار المنطقة فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وسجل أخبار عقيدتهم ووصف طباعهم وصفا أفاد فى تصحيح بعض المعلومات . إلا أنه دون معلوماته على عجل وبعضها سمعه من آخرين لذلك جاءت معلوماته خاصة فيما يتعلق بالعقيدة مضطربة .

أما البكري الذى عاصر الدولة فى سنيها الأخيرة فقد استمد معلوماته من سفير البرغواطيين الى الحكم المستنصر سنة ٣٥٢ هـ ويدعى أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن واردیزن . ولم يلتق البكري به بل سمع عن شخص آخر كان مترجما للسفير وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاطي من أهل شلة . وهو مسلم من بيت خيرون بن خير(١) . واستند البكرى الى شخص آخر هو فضل بن مفضل بن عمرو المذحجي ، ولم يحدد لنا هويته . وهناك تضارب بين الروايتين لم يحاول البكرى تحقيقهما أو تفضيل احداهما على الأخرى .

وأخذ عن البكرى المؤرخون اللاحقون(٢) دون اضافات بل حاول بعضهم التوفيق بين روايتى

زمور والمذحجى . ولم يدل المؤرخون المشارقة بدلوهم فى هذه المسألة بل احجموا عن الكتابة عنها .

وقد حاول بعض المؤرخين المحدثين[٣] الخوض في غمار هذا الموضوع لمعرفة أصول العقيدة البرغواطية ودورهم السياسى ومن أبرزهم الدكتور محمود. اسماعيل . الذى كتب دراسة جيدة عن المسألة البرغواطية نشرها فى كتابه (مغربيات . دراسات جديدة) . وقد جمع نصوصا كثيرة عن هذه المسألة ، وناقش الذين حاولوا جعل الديانة البرغواطية نتاجا لعقائد هيللينية أو يهودية أو مسيحية وفند هذه الآراء بروح علمية . وأكد أن دراسات المحدثين ألقت مزيدا من الغموض حول المسألة البرغواطية . غير أنه وقع فى نفس الخطأ وأضاف غموضا جديدا ، ومصدر هذا الغموض والاضطراب في دراسته انه تبنى فكرة (صفرية العقيدة البرغواطية) من الأساس وأراد الوصول الى هذه الفرضية والتى يعتبرها حقيقة بأية وسيلة فجمع النصوص التى تخدم هدفه وحمل النصوص الأخرى أكثر مما تحتمل ودون الأخرى ناقصة اذا لم تسعفه . ومن المعروف فى الدراسات التاريخية أن الخطأ فى البداية يقود الى الخطأ فى النهاية . وسأحاول ايضاح هذا الاضطراب خلال البحث . ولكن هذا لا يعنى التقليل من أهمية الدراسة . فهى أول دراسة جامعة متكاملة عن الموضوع .

وسأحاول فى هذه الصفحات استقراء تاريخ البرغواطيين محاولا التعرف على عقيدتهم ، وسني حكم امرائهم ، ونشاطهم مما يتوفر من مصادر ومراجع .

التسمية :

اختلف المؤرخون حول اسم برغواطة . هل هم من زناته ؟ أم خليط من العناصر . أم تسمية لا تمثل قبيلة بعينها .

فيرى البكرى أن أقليم تامسنا كان مرتعا لقبائل زناتة وزواغة[٤] . ونجم عن هذا التصور خلاف المؤرخين اللاحقين حول أصل البرغواطيين . فصاحب كتاب الاستبصار يقول انهم كانوا قوما جهالا من زناته «[٥] . ولم ينسبها ابن عذارى لزناته وأكد أن برغواطة من قبائل البربر[٦] . كذلك ابن حوقل فانه قال قبيلة برغواطة من قبائل البربر على البحر المحيط[٧] .

ويرى البعض الآخر ، بأنه لم يكن اسما لقبيلة معينة يجمعها أصل واحد أو أب واحد بل كان اسما لأخلاط من البربر اجتمعوا على شخص يهودى الاصل ادعى النبوة وهو صالح بن طريف بن شمعون البرباطي نسبة الى الموطن الذى نشأ فيه وهو برباط بالقرب من شريش جنوب الاندلس . وسمي من اتبع هذا الدين بربطي نسبة الى بَرْبط فعربت العرب هذا الاسم وقالوا برغواط وبرغواطي واضافوا اليها هاء الجمع فصارت برغواطة[٨] . ويضيف ابن دحية أن الاسم الحقيقى بلغواطه ، وأن مفردة باللام بدل الراء ، وان العامة يخطئّون فيها فيقولون برغواطة[٩] . ويبدو أن هذا المبرر للتسمية جاء من حيث الصورة اللفظية .

ويخالف ابن خلدون هذا الرأى الذى أورده عن صاحب كتاب نظم الجوهر . مؤكدا بأن برغواطة قبيلة من المصامدة ، وهم الجيل الأول منها . وكانوا المتقدمين منهم قبيل الاسلام ، وكان لهم فى صدر الاسلام التقدم والكثرة وكانوا شعوبا كثيرة متفرقين وكانت مواطنهم في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنفى وأسفى . وكان كبيرهم لاول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صالح .. ويضيف : أو يغلط بعض الناس فى نسب برغواطة هؤلاء فيعدهم من قبائل زناته وأخرون يقولون فى صالح أنه يهودي وهو من الاغاليط البينة وليس القوم من زناتة ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لاخوانهم المصامدة . أما صالح بن طريف فمعروف فيهم وليس من غيرهم ولا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل المنقطع جرمه دخيل في نسبه[١٠] .

ويحسم هذا النص الخلاف حول أصلهم . غير أن قول ابن خلدون أنهم شعوب كثيرة متفرقة

واشارة المؤرخين الاخرين الى أن برغواطة ليست اسما لقبيلة معينة دفع البعض أمثال عبد الوهاب بن منصور الى التأكيد بأن الكلمة ليست لها دلالة سلالية وانما تدل على نحلة دينية أطلقت على القبائل التى اتبعتها فقيل لها برغواطة كما يقال للشيعة والخوارج والمعتزلة[١١] . وهو رأى جدير بالملاحظة .

غير أن نص ابن خلدون الصريح واعتماده من قبل عدد من المؤرخين[١٢] يجعلنا نميل اليه لأنه أقرب الى المنطق اذ لا يمكن لهذه القبائل الخضوع لسلطة صالح ، كما أن المؤثرات البرغواطية ظلت واضحة فى مناطق المصامدة . ويؤكد ذلك الدكتور ابراهيم حركات بقوله أنى ارجح تأكيد ابن خلدون لأن بعض المؤثرات البرغواطية ظلت حتى يومنا هذا فى بعض مناطق المصامدة الجنوبية مثل كراهية أكل البيض ووجود عدد كبير من المتضلعين فى العرافة والسحر ، والاعتماد على التمائم والرقى فى العلاج وطرد الشر[١٣] . ويقسم جورج كولان المصامدة الى ثلاث مجموعات الاولى في الشمال من البحر المتوسط الى سبو وورجة وتسكن فيه غمارة ، والثانية فى الوسط من سبو الى أم الربيع وتسكن برغواطة والثالثة فى الجنوب من أم الربيع الى الاطلس تسكن مصمودة بالمعنى المحدد . ومما يلفت النظر ان كل بطن من هذه البطون ولد حركة دينية وسياسية ، فمصامدة الشمال ظهرت فيهم ديانة غمارة ومصامدة الوسط ظهرت فيهم ديانة برغواطة ومصامدة الجنوب ظهرت فيهم حركة الموحدين[١٤] .

الموطن :

نشأت هذه الامارة فى اقليم تامسنا[١٥] ، وتسمى الآن الشاوية[١٦] . وهي الأرض التى تبدأ من موضع مدينة الرباط الحالية وتمتد الى ثغر فضاله (المحمدية الحالية) الذي كان قاعدة لاسطولها وتنتهي عند أزمور على مصب وادي أم الربيع[١٧] . ويضع ابن خلدون لها حدودا أوسع بقوله (تنزل جشم بتامسنا الافيح ما بين سلا ومراكش أوسط بلاد المغرب الأوسط وأبعدها عن الثنايا المفضية الى القفار لاحاطة جبل درن بها)[١٨] . وقد اتخذ البرغواطيون من مدينة شالة عاصمة لهم في بعض الاوقات[١٩] . واتسعت هذه الامارة على حساب المسلمين المجاورين لها ، فهناك اشارات بأن البرغواطيين فى أوائل القرن الخامس الهجرى كانوا يعيثون فسادا فى بلاد سلجماسة وأن الملثمين اللمتونيين خاضوا معهم فى تلك الاماكن معركة فاصلة سموا على أثرها بالمرابطين[٢٠] .

ومن خلال هذه النصوص يمكن القول أن الحدود الجنوبية للبرغواطيين امتدت جنوب الشاوية على طول ساحل المحيط الاطلسى حتى شملت أقاليم دكالة وعبده وغيرها من الاراضى الحوزية جنوب أسفى ونواحي مراكش ، وانهم أرغموا سكان تلك البلاد من المسلمين على التدين بديانتهم[٢١] . ويؤيد ذلك ما رواه ابن الزيات عن رباط شاكر القائم بالقرب من مدينة مراكش فى طريق الشماعية الى شيشاوه من أن هذا الرباط بناه يعلي بن مصلين الرجراجي ليقاتل كفار برغواطه وقد غزاهم عدة مرات[٢٢] . وما يقال عن رباط شاكر يقال عن رباطات ماسة وفوز ونفيس التى انتشرت على السواحل في المنطقة الجنوبية .. ويصور لنا العروي الحدود الجنوبية بأنها تبدأ من أغمات بمحاذاة تاتسيفت وتصل الى الرباط من كوزة .

أما سلطتها شمالا فكانت تصل الى موضع مدينة الرباط الحالية ويظهر من اسم هذه المدينة وتاريخها انها كانت في الاصل رباطا لجهاد برغواطه ويشير الى ذلك ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى الذى يجعل مدينة الرباط حدا فاصلا تنتهى عنده عمارة الاسلام ، ويؤكد ذلك ابن الخطيب بقوله ان البرغواطيين اتخذوا من شالة عاصمة لهم في بعض الاوقات . وهناك اشارات الى أن أمراء برغواطة امتد نفوذهم الى شمال الرباط وانهم استولوا على مدينة المعمورة (المهدية الحالية) من أيدى بني يفرن الزناتيين حكام سلا وانهم خربوها فيما خربوا من المدن . وبصورة عامة كانت الاراضى التابعة للبرغواطيين تتسع

وتتقلص حسب الظروف السياسية .

ويظهر لنا أن أقليم تامسنا متنوع التضاريس ، يجمع بين الجبال الكافلة للحماية والسهول الممهدة للزراعة ، مما مكن البرغواطيين من الاعتماد على قدراتهم الاقتصادية ومنحهم الصمود أمام أعدائهم . وتجري في الاقليم انهار عديدة ذكر البكري (انها أكثر من مائة نهر أعظمها نهر ماسنات وهو يجرى من القبلة الى الجوف وبين عنصره وموقعه في البحر مسيرة ستة أيام ونهر وانسيفن يقع في نهر سلا تحت الرباط في البحر المحيط . هذا الى جانب نهر أم الربيع يضاف الى ذلك امتداد السواحل مما أعطى الاقليم مقدرة اقتصادية ووجه السكان الى النشاط البحري . وكان هذا الاقليم منفتحا على التجارة الخارجية لا سيما مع اسبانيا ما دام ميناء فضاله (المحمدية) يصدر حاصلاتهم من الزراعة وتربية الماشية .

وساعدت السهول الفسيحة في الاقليم ووديانه العديدة على جعله اقليما زراعيا . فابن حوقل الذي لا يصف لنا سهول الاطلسي لأنها كانت بلاد ملاحدة يؤكد بأنها تنتج القمح لأن البرغواطيين يؤمون سلا وسلجماسة ليبيعوا المنتجات الزراعية والماشية . ولذلك قال جوليان بأن بلاد تامسنا كانت بلادا زراعية مزدهرة . وهذا الرخاء الاقتصادى جعل بلدهم مستقلا بنفسه عن الحاجة كما يرى ابن حوقل.

ومن خلال هذه النصوص يمكن الاستنتاج بأن الظروف الجغرافية المتمثلة في سلسلة الجبال المحيطة بالاقليم من جهة والمحيط الاطلسي من جهة أخرى جعلت المنطقة في مأمن من الاخطار الخارجية واعطتها المنعة والاعتصام . وأن الظروف الاقتصادية منحتهم الاكتفاء الذاتي والاعتماد على النفس مما مكنهم من الصمود لاكثر من أربعة قرون رغم القوى المعادية المحيطة بهم .

الديانة البرغواطية :

قبل الحديث عن أمراء برغواطة ونشاطهم السياسى وصراعهم مع اعدائهم يجب التعرف على الديانة التي دانوا بها وقاتلوا من أجلها . ومن أجلها كذلك اعتبروا كفارا وملحدين وزنادقة .

ليست لدينا معلومات كثيرة عن الجانب العقائدى والشعائرى لهذه الديانة . وما نتوفر عليه مستمد من البكري بالدرجة الأولى وابن حوقل في الدرجة الثانية .

وتكاد المصادر تجمع على أن صالح بن طريف ادعى النبوة ، وادعى لذلك بأنه تلقى من الله قرآنا باللغة البربرية كما ادعى أنه يوحى اليه في كل خطبه وأقواله ومن شك في ذلك فهو كافر . ويقول البكرى أن البرغواطيين (يقدمون مع الاقرار بالنبيين الاقرار بنبوة صالح بن طريف وبنيه ومن تولى الأمر بعده من ولده ، وان الكلام الذى ألف لهم وحى من الله تعالى لا يشكون فيه . تعالى الله عن ذلك) .

وقد وضع صالح قرآنا باللغة البربرية يقرأونه في صلواتهم ويتلونه في مساجدهم ويتألف قرآنه من ثمانين سورة أكثرها منسوبة الى اسماء الانبياء من لدن آدم . وأولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس ، وفيها سور فرعون ، قارون ، هامان ، يأجوج ومأجوج ، الدجال ، العجل ، هاروت ، ماروت ، طالوت ، نمرود ، الديك ، الحجل ، الجراد ، الجمل ، الحنش ، غرائب الدنيا وهناك العلم العظيم ، وأضاف ابن خلدون اسماء أخرى مثل نوح وابليس ، ويقول عن سورة غرائب الدنيا انه حرم فيها وحلل وشرع وقص وكانوا يقرأونه في صلواتهم .

وذكر البكري مقتطفات من سورة أيوب وهي استفتاح كتابهم .

« بسم الله الذى أرسل به الله كتابه الى الناس ، هو الذي بين لهم به أخباره قالوا علم ابليس القضية ، ابى الله ليس يطيق ابليس كما يعلم الله ، سل أى شيء يغلب الالسن في الاقولة ، ليس يغلب الالسن في الاقولة الا الله ، لقضائه باللسان الذى أرسل الله

بالحق الى الناس ، استقام الحق ،
انظر محمدا كان حين عاش استقام
الناس كلهم ، الذين صحبوه ، حتى
مات ، ففسد الناس ، كذب من يقول
أن الحق يستقيم وليس ثم رسول
الله .

ووضع صالح الى جانب القرآن مجموعة من التعاليم منها عشر صلوات ، خمسا في النهار وخمسا في الليل ، وبعض صلاتهم ايماء لا سجود فيها لكنهم يسجدون في آخر ركعة ثلاث سجدات متصلة وبعضها على كيفية صلاة المسلمين . وعند ابتداء الصلاة يضع الفرد احدى يديه على الأخرى ويقول بالبربرية (أبتستمن ياكش) وتفسيرة باسم الله . واثناء سجودهم يرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر ويقولون (مقر ياكش) وتفسيره الكبير الله ويضعون أيديهم مبسوطة في الأرض طوال ما يستشهدون . ويقرأون نصف قرآنهم في وقوفهم ونصفه في ركوعهم ، ويقولون في تسليمهم بالبربرية الله فوقنا لم يغب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويقولون مقر ياكش خمسة وعشرين مرة ، وايحن ياكش مثل ذلك ومعناه الواحد الله وردام ياكش مثل ذلك ومعناه لا أحد مثل الله . ويصلون صلاة الجمعة يوم الخميس وقت الضحى .

وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين والرجلين من الركبتين ومسح القفا وأن لا يغتسلوا من جنابة الا من حرام ، كما نصت تعاليمه على صوم رجب والافطار في رمضان .

أما فيما يتعلق بالتعاليم الأخرى ، فقد أباح لهم الزواج بالنساء دون تحديد العدد ، وأباح لهم الطلاق والعودة الى المطلقة متى شاء ، وحرم عليهم زواج بنت العم الا ثلاثة جدود ولا يتسرون ولا ينكحن المسلمين ولا ينكحون فيهم . كذلك شرع قتل السارق بالاقرار والبينة ورجم الزاني ونفي الكاذب ويسمونه (المغير) كما حرم رأس كل حيوان وحرم ذبح الديك لأنهم يعتمدون عليه في معرفة أوقات الصلاة ، والسمك لا يؤكل الا بعد الذبح ، والبيض عندهم حرام والدجاج مكروه الا أن يضطر اليهما . والقاتل تؤخذ منه دية مائة من البقر ، ويأخذون العشر في الزكاة من جميع الحبوب ولا يأخذون شيئا من المسلمين ويعتقدون أن ريق نبيهم يشفي من المرض .

وعن البكري نقل ابن عذارى وابن الخطيب وابن ابى زرع وابن خلدون نقل عنه بشيء من التمحيص .

أما رواية ابن حوقل فانها أقل من رواية البكري وفيها شيء من الاضطراب والاخطاء في أسماء الامراء وسني حكمهم فيقول :

« ان رجلا يعرف بصالح بن عبدالله دخل العراق ودرس شيئا من النجوم وصلت منزلته في علمها الى أن قوم الكواكب وعمل التقاويم والمواليد وأصاب في أكثر أحكامه ، ثم عاد الى قومه فدعاهم الى الايمان به ، وذكر انه نبي ورسول مبعوث اليهم بلغتهم ، واحتج بقول الله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ، وان محمدا صلى الله عليه وسلم نبي حق عربي اللسان مبعوث الى قومه والى العرب خاصة ، وانه صادق فيما أتى به من القرآن ، وأياه أراد الله عز وجل بقوله (... وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)، وعدهم غير كسوف فوجدوه وانذرهم غير شيء فادركوه وأصابوه على حكايته ، فافسد عقولهم وبدل معارفهم ، وافترض عليهم طاعة في سنة ابتدعها واحوال فرضها واخترعها ، وأوجب عليهم صوم شعبان وافطار شهر رمضان ، وعين لهم كلاما رتله بلغتهم وشرع فيه محابة على نحلتهم ، فهم يتدارسونه ويعظمونه ، ويصلون به .

وهلك فخلفه وصي كان له اقامه يكنى أبا العفير ، فزاد فيما رسمه أشياء ذكر أن له فيها الزيادة والنقصان والحل والعقد فيما قدمه صالح لهم من الأحوال ، فدعاهم الى النسك وترك الدنيا والاقبال على التقلل والزهد ، وتناهى هو وخاصته في ذلك الى أن حفظ عليه صبره عن الغداء وخمسا من الدهر وسبعا وتسعين وهو في جميع ذلك يذكر انه يوحى اليه وان الملائكة تأتيه بما يأمرهم به

وينهاهم عنه ، وكان صالح يحل لهم الطيبات ويبيعهم اللذات ويسوسهم في المحظورات ، وفيهم الان من يقرأ القرآن بغاية الاحترام ، ويحفظ منه السور ويتأول آياته على موافقته لكتابهم وقرآنهم »[٢٣] .

وكما نقل الاقدمون من البكرى وابن حوقل ، نقل المحدثون واتفقوا على ادعاء صالح النبوة ودعوته لديانة جديدة عدا د. محمود اسماعيل . لكنهم اختلفوا في أصول هذه الديانة هل هى هيللينية أو يهودية أو مسيحية أو اسلامية .

فالمؤرخ دي سلان كان أول من آثار المسألة فذهب الى أن اله البربر المدعو ياكش هو Bacchus إله اليونان لأن النطق العربى لباخوس هو Yacchus ياكش ، وذلك على رأيه بأن طقوس عبادة إله الخمر والمجون عند اليونان - باخوس - كانت منتشرة في وسط المغرب[٢٤] . وانساق المستشرق الهولندى دوزي (Dozy) وراء هذا الرأى وأضاف ان اله اليونان Bacchus هو نفس إله البربر حتى من حيث النطق اللغوي اذ ينطق بالباء (باكوش) مستندا على ابن عذارى الذي كتبه بالباء وليس الياء[٢٥] ، متناسيا التصحيف في الكثير من الاسماء والاخطاء المطبعية . واعتمد أصحاب هذا الرأى على الابحاث التى تشير الى اعتناق الكثير من البربر القدامى عقيدة باخوس اليونانية . وقد خطأ كاتب مادة برغواطة في دائرة المعارف الاسلامية هذا الرأى قائلا .. وقد خطأ بعض العلماء في ظنهم أن كلمة ياكش هي باخوس Bacchus أو بككس Bacasالواردة في الكتابات النوميدية وضللهم في هذا اعتمادهم على صيغة من الصيغ لهذه الكلمة وهى ياكش ومعناها الله وهى ترجمة للكلمة العربية (وهاب) وهى صفة من صفات الله ، ويذكرنا وجود هذه الكلمة عند الاباضية ايضا بما كان لصالح من صلة بمذهب الخوارج »[٢٦] .

وينفى مارسي Marcy المزاعم السابقة ولم يعترف بوجود أصول اسلامية للعقيدة البرغواطية ويرى في ياكش - إله برغواطة - هو إله المواطنين الرومان والمسيحيين ، وانه المسيح عيسى (يسوع) الذى كان لديانته شيء من النفوذ أبان ظهور الديانة البرغواطية ، واستشهد بذلك على اكتشاف وثيقتين بمدينة وليلى سنتى ٥٩٩ و٦٠٥ تشيران الى وجود مواطنين رومان بالمغرب الاقصى كانوا على المسيحية أبان الفتح الاسلامى كما أشار الى تغلغل هذه التأثيرات الرومانية المسيحية في بلاد تامسنا بالذات مؤكدا اختلاط عقائد المسيحية والاسلام حتى بعد الفتح لأن بربر تلك النواحى اعوزتهم القدرة على التفريق بين الشريعتين[٢٧] .

ويذهب ناحوم سلوش SLouch في مقالة عن امبراطورية برغواطة[٢٨] ودفردان Deverdun في كتابه عن مراكش[٢٩] . الى أن دولة برغواطة كانت يهودية ، ويستندان الى بعض المؤثرات اليهودية الموجودة في هذه الديانة مثل استعمال ياكش التى يرجعانها الى يوشع النبي اليهودى ، ومثل استعمال الشعر على شكل ضفائر باعتبارها عادة متبعة عند يهود بولندا واليمن ، ومثل تحريم البيض والاعتقاد في تأثير اللعاب وهى عادة عند يهود طنجة . يضاف الى ذلك اهتمام البرغواطيين بموسى وتقديمه على عيسى هذا الى جانب الرأى القائل بأن مؤسس الديانة أصله يهودى[٣٠] .

ويشير الدكتور ابراهيم حركات الى الاثار اليهودية في هذه الديانة موضحا أن اسماء السور التى تضمنها قرآن صالح فيها الكثير من أسماء اليهود أى ما يرتبط بذكريات التاريخ العبرانى ، وحتى اسماء ملوك برغواطه بينها الكثير من أسماء أنبياء بنى اسرائيل كاليسع وألياس وان كانت هذه الاسماء توجد في امارات مغربية خارجية ، ويضيف الى ذلك الانطلاق من التنجيم والكهانة مما اشتهر به العبرانيون في القديم ، وأصبحت له مكانة بارزة لدى البرغواطيين كما نصت تعاليم التوراة على قتل السارق وتبنى البرغواطيون هذا الحكم ، ورجم الزانى رغم انه اسلامى فانه يتفق مع الشريعة الموسوية[٣١] . غير أن حركات لا يعتبر هذه الديانة يهودية بل تأثرت باليهودية .

يتضح لنا مما سبق أن هذه الاراء لم تستند

على أسس علمية يقينية . فالذين ذهبوا الى أن ديانة برغواطة هي احياء لعبادة باخوس - اعتمادا على دراسات في فقه اللغة - دحض زعمهم على يد مارسي المتمرس في فقه اللغة المقارن والعليم باللهجات البربرية فضلا عن اجادته اليونانية واللاتينية[٣٢] .

أما حجج مارسي على الاصل المسيحي للديانة البرغواطية فلا أساس لها من الصحة . فقد تعثر حينما تناول موضوعا على هذه الدرجة من الخطورة من خلال فقه اللغة فدخل في متاهات جدل عقيم لاثبات أن ياكش هو المسيح ، وهو أمر نفاه عليه بعض الدارسين[٣٣] . اذ رتب نتائج خطيرة على أساس غير مقنع ، ولو سلمنا جدلا بأن إله برغواطة هو يسوع فأين الأب وروح القدس لتتكامل الاقانيم الثلاثة في العقيدة البرغواطية . يضاف الى ذلك أن الديانة المسيحية لم تنتشر في أواسط المغرب بل بقيت في المدن الساحلية . وبالذات سواحل البحر المتوسط[٣٤] .

أما حجج سلوش - المتعصب ليهوديته - فانه أقامها على أسس خاطئة . فقد سبق أن فند الرأي القائل بيهودية صالح وطريف ، والقول بأن صالح هو (وربيا) في التوراة لا يعني أكثر من ترجمة للاسم اذ أورد البكري كذلك ترجمته في اللغات الأخرى كالعربية والفارسية والبربرية . وريق الانبياء مقدس عند يهود طنجة فهو مقدس لدى الكثير من غير اليهود .

والى جانب هذه الاراء هناك عدد من الدارسين[٣٥] أشاروا الى الأصول الاسلامية لهذه الديانة ، ولكنه اسلام مشوه طبع بطابع محلي بربري . وهذا الرأي يعتمد على كثير من الأسس الصحيحة يمكن استخلاصها مما أورده البكري . كالصلاة والوضوء والصوم وغيرها من الشعائر الاسلامية ولو أنها اختلفت عن الاسلام في الكيفية التي تؤدى بها ، أما ابن حوقل فيروي « من البرغواطيين في عصره من يقرأ القرآن بغاية الاحترام ويحفظ منه السور ويتأول آياته على موافقته لكتابهم وقرآنهم »[٣٦] . وأشاد بهم « ففيهم أمانة وبذل للطعام ، وتجنب الكبائر من الحرام والمحظورات من الاثام »[٣٧] . ويؤكد ذلك ابن عذاري بقوله « كان من بين البرغواطيين من فقهوا في الدين وعاصروا الادارسة وتلقوا دراستهم بالشرق ومنهم يونس الشذوني الاندلسي الاصل الذي رحل مع يزيد بن سنان الزناتي الواصلي وبرغوت بن سعيد الصفري ، ومن المفارقات اجتماع أصحاب هذه المذاهب في رحلة للدراسة معا ثم يرجعون الى المغرب وقد تفرقت بهم المذاهب »[٣٨] .

ومن هذا المنطلق أكد موتايلنسكي ان ياكوش ليس إله برغواطه فحسب ، بل إله البربر الخوارج ، والكلمة تعني (الله) عند المسلمين عموما ، وأضاف أن البربر درجوا على استخدام كلمة أخرى مرادفة لياكوش هي (يوش) وتعني واهب المطر[٣٩] . أما كاتب مادة برغواطة في دائرة المعارف الاسلامية فألمح الى صلة صالح بالمذهب الخارجي حيث أن لفظة ياكوش في رأيه تعني الوهاب وهي صفة من صفات الله عند الخوارج[٤٠] .

وشكك الدكتور سعد زغلول في ادعاء صالح النبوة ، وأشار الى أن اتهامه وقومه بالانحراف مبالغة من الكتاب الذين يخدمون اغراضا مذهبية وسياسية . وأكد على بصمات الطابع البربري عليها ، وانطوائها على أفكار شيعية كفكرة (المهدي المنتظر)[٤١] . ويذهب الى نفس الرأي الدكتور العروي بقوله « لقد نسب ما يتعلق بنبوءة صالح الى أثر بقايا مسيحية سابقة لكنه يعزى على الأرجح بكل بساطة الى الايديولوجية الشيعية اذ ما من شيء يقيم الدليل على أن مذهب الخوارج هو وحدة في ذلك العصر الذي كان يعمل بالمغرب . وان الرغبة في استيعاب البربرية للاسلام هي ظاهرة وهي أمر مسلم به طالما يكون متماشيا مع الماضي ، لكن حادث التعديل نفسه لا النبذ كلية هو اعتراف بقيمة الاسلام التحضيرية »[٤٢] .

أما الدكتور حركات فيشير بأن مبادىء الدين الصحيحة لم تتمكن من نفوس البربر ، لذلك أنشأ البرغواطيون مذهبا خاصا بهم ، بعض أصوله اسلامية وأكثرها مما تأثروا فيه بمؤثرات وثنية

عريقة الى جانب ما استقوه من أصول عبرانية ، وفي جميع الأحوال كانوا يؤمنون بوحدانية الله واعترفوا بنبوة محمد (ص) ومن سبقه من الانبياء ، وشرعوا الصلاة والوضوء والزكاة ولكنهم اضافوا أشياء غريبة عن الاسلام أو تتعارض معه وذلك كرد فعل لسياسة الامويين ، ويضيف بأن بعض تشريعاتهم لا تتفق مع جميع الديانات كتعدد الزوجات بلا حد والطلاق والمراجعة بلا حد وحسب شهوة الرجل وتحديد الدية بعدد من البقر وتحريم رأس كل حيوان والبيض(٤٣) .

ويوضح لنا التأثيرات الاسلامية وتشويهها من قبل البرغواطيين الفردبيل بشكل مفصل فيقول (ان ديانة صالح هذه تبدو لنا تقليدا لشريعة الاسلام قام به بربري ومن أجل البربر ، واضافات هنا وحذف هناك كانت كافية لتشويه الفروض الاسلامية مع تركها تشف من ورائها بوضوح)(٤٤) . فالنظافة تتم كما في الاسلام بالوضوء خصوصا قبل الصلاة ، فاضاف اعضاء معفاة من الوضوء العادي ، واعفى من الوضوء والغسل في بعض الاحوال التي يوجب فيها الشرع الاسلامي (الجنابة) والغى الاذان والاقامة وضاعف عدد الصلاة وعدل في كيفيتها وخاصة فيما يتعلق بالسجود ، كما وضع تعديلات مهمة بأوقات اداء بعض الشعائر الاسلامية كصلاة الجمعة يوم الخميس وصيام رمضان أصبح في شهر رجب ، وعيد الاضحى اصبح في الحادي عشر من محرم ، أي في اليوم الثاني لعاشوراء عند المسلمين ، وأراد بذلك التقرب من البربر ، لأن المغرب احتفظ بعادات سحرية دينية قديمة تدور حول عاشوراء وتعطيه معنى عيد تطهير الجماعة وأموالها ، وهو المعنى الذي ينبغي أن يعطى لعيد الاضحى عند المسلمين وأسماء السور التي وردت في قرآن صالح هي اسماء انبياء وأشخاص شبه اسطوريين وكثير منهم ذكروا في القرآن والعهد القديم(٤٥) .

ويشير بيل الى الاثار الشيعية والخارجية والبربرية في هذه الديانة بقوله ، ان تأكيد صالح في قرآنه أن الحق لا يستقيم بدون رسول يذكرنا بعقيدة الشيعة في الامام وقولهم أنه لا بد من وجود أمام في كل وقت ظاهرا كان أو مستورا . والطهارة الاخلاقية مأخوذة من الخوارج فالكذب يعد كبيرة لذلك يكفر صاحبه وينفى عن الجماعة . أما مسألة تحريم البيض والديك والدجاج وذبح السمك فهي عادات بربرية . أما القانون المدني الشخصي والاجتماعي فانه يختلف عما يناظره في الشريعة الاسلامية كالزواج والطلاق والسرقة(٤٦) .

ويضيف أن مسألة البصاق هي وسيلة لنقل بركة الاولياء وقد يكون اعتقادا قديما كان في الانسانية البدائية اعتقادا بالقيمة السحرية لبعض الناس المباركين ، وهذا الاعتقاد الشخصي لا علاقة له بديانة صالح وانما تدل على مدى توفير أنصاره له . وهي عادة منتشرة في كثير من بقاع العالم ويضرب أمثلة على ذلك بأن اولاد حمادي بمراكش يعالجون بعض الأمراض بأن يبصقوا على الجزء المريض والعيساوة يعلاجون التهاب الحنجرة بالبصاق(٤٧) . ويصل بيل في النهاية الى القول (ان عقيدة الله وجوهر الشعائر الاسلامية كانت معروفة للبربر بحيث لم ينجح صالح الا في تشويهها لتتفق مع اذواق بني قومه واستبدال اللغة العربية باللغة البربرية في ديانته الجديدة لقبولها)(٤٨) .

وقبل أن نحدد وجهة نظرنا من الديانة البرغواطية ، أرى من الضروري مناقشة الرأي الجديد الذي جاء به الدكتور محمود اسماعيل في دراسته القيمة المعنونة « المسألة البرغواطية » وسأركز على بعض الجوانب المهمة فقط تاركا التفاصيل لمجال آخر .

بادىء ذي بدء تعتبر الدراسة من أحسن الدراسات في هذا المجال ، وذكرت ذلك في المقدمة ، الا ان لي وجهة نظر مخالفة في بعض القضايا علما بأني استفدت بشكل كبير من هذه الدراسة .

يقول محمود اسماعيل « ونزعم انه بفضل هذا المنهج أمكن صياغة تاريخ برغواطة - لأول مرة - صياغة جديدة محققة وحسم قضية الخلاف حول

أصول عقيدتهم حسماً جازماً في لغة منطقية عقلانية هي لغة الافكار الواضحة المتمايزة » .. ويضيف ونحن نجزم بالأصل الاسلامي لعقيدة برغواطة ، وانها صورة متطورة متطرفة من صور المذهب الخارجي الاسلامي ، ويبدو التأثير الجغرافي واضحا في عقيدة برغواطة فظلت محافظة على المذهب الصفري بعد زواله من كافة بلاد المغرب عقب ظهور الفاطميين ، ولكن بسبب العزلة ايضا اتخذ طابعا مسرفا من التطرف .

فبرغواطة لم تتقاعس عن الاقبال على هذا المذهب ، فنعلم أن زعيمها طريفا (وهو طريف بن ملوك ويكني بأبى صالح) لقى عكرمه داعية الصفرية في القيروان وأخذ عنه مذهبه ثم عاد لنشره بين قومه ، ومعلوم أن طريفا كان ذا شهرة طيبة بين بربر المغرب الاقصى لبلائه في افتتاح الاندلس ، وقد أدرك صالح بن طريف أن برغواطة في حاجة الى التبصير بأصول المذهب وأحكامه فكرس السنوات الست التى قضاها في الحكم من أجل تلك المهمة . وعلى ذلك فلا مندوحة عن رفض الروايات الاسطورية التى تزعم أن صالحا ادعى النبوة ، وشرع شريعة جديدة أوصى ابنه الياس أن يدعو لها من بعده ، وكذلك الرواية القائلة بأنه رحل الى الشرق ليعود في دولة السابع من ملوكهم ، وزعم انه المهدى الاكبر الذى يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال » . ويستخلص من هذه الأقوال قوله والخلاصة ان تاريخ برغواطة امكن صياغته في اطار تاريخ المغرب الاسلامي وان عقيدتها في المذهب الخارجي الصفرى ، وان هذا المذهب كان ايديولوجية هذه الدولة منذ قيامها(٤٩) .

ويسوق عدداً من الادلة التى تؤكد صفرية العقيدة البرغواطية منها الرواية القائلة بأن صالح غاب ليرجع في عهد الامام السابع ، ذات دلالة على خارجية العقيدة ، اذ تتسق مع الفكر الاجتماعى عند الخوارج . وكذلك وصية صالح لولده الياس بعدم البوح بالدعوة ، يتسق مع فكرة (التقية) في المذهب الخارجي الصفري الذى (يجوز التقية في القول دون العمل) . ويضيف ان زعم البكرى انهم يقيمون خمس صلوات في اليوم ، وخمس صلوات في الليلة ، له دلالة على اسراف الصفرية في العبادات حتى لقد قيل بأنهم سموا صفرية لاصفرار وجوههم من كثرة العبادة ، ونفس التفسير ينسحب على القول بأن صيام يوم من كل جمعة فرض من فروضهم . وكذلك القول بأنهم لا يتسرون تأكيد لالتزامهم بمبدأ صفري أصيل مؤداه الانصراف عن الدنيا . والقول بأنهم لا يأخذون من المسلمين العشر كزكاة وعدم الزواج منهم . قاعدة فقهية مميزة لفكر الخوارج الصفرية لانهم اعتبروا أنفسهم مسلمين وما عداهم كفرة . ويضيف أن ما حكي عن تطرفهم في العقوبات الجنائية كقتل السارق ورجم الزانى ونفى الكاذب ، يتسق مع تطرف الصفرية ، ومن سمات هذا التطرف الاستعراض وأخذ المخالفين بالسيف وفي ذلك تفسير لقول ابن خلدون عن حرق المدن واستسلام أهلها بالسيف . ويضيف الى هذه الادلة قول البكرى ان برغواطة اعلم الناس بالنجوم ، وهذا يدل على اعتناقهم المذهب الخارجي لأن علم الفلك من أهم العلوم عند الخوارج . واشتهار البرغواطيين بشدة البأس والمراس ويستوى في ذلك الرجال والنساء فكانت الجارية البكر منهن تثب ثلاثة حمر مصطفة ، وكذلك اتشاح البرغواطيين بالسراويل تدل على صفريتهم منذ أيام ميسرة والمقصود بها التخفف من الثياب اثناء المعارك ، والدليل الاخير الذى يعتمد عليه ارسال البعوث الى الشرق للتعمق في دراسة أصول المذهب والحرص على عقد وشائج ودية مع أموي الاندلس وهى سياسة أخذت بها كافة الدول الخارجية(٥٠) .

هذه هي الادلة التى ساقها ليؤكد على صفرية الديانة البرغواطية وبعض هذه الادلة منطقى والبعض الاخر جانبه التوفيق . وقبل مناقشة هذه الادلة ، سأذكر بعض النصوص التى ذكرها في كتابه (الخوارج في المغرب الاسلامى) وهو أطروحة الدكتوراه للمؤلف ، وهى دراسة علمية موثقة . يقول (ان بربر برغواطة اعتنقوا هذا

المذهب فى وقت مبكر على يد طريف بن شمعون الذى لقى عكرمة بالقيروان .. واذا كانوا قد تخلوا عنه بعد ذلك واتبعوا تعاليم صالح بن طريف ، فالراجح أن ميسرة كان على صلة وطيدة بطريف بن شمعون القائم بدعوة الصفرية فى برغواطة قبل تقلده زعامة الحركة . فلما قام بثورته أزروه ووقفوا الى جانبه ولكنهم ما لبثوا أن ارتدوا عن الصفرية حين نحى ميسرة عن زعامتها فانحازوا الى دعوة صالح بن طريف(٥١) . ويقول فى مكان آخر فى نفس الكتاب « **من المؤكد أن برغواطة اعتزلت النشاط الصفرى وارتدت عن المذهب وعن الاسلام** أيضا من جراء ما حل بحليفها ميسرة من اهمال ونكران »(٥٢) . وحينما ذكر برغواطة فى كتابه وضع لها هامشا ذكر فيه محل سكناها .. واضاف وكان زعيمها طريف بن شمعون من قواد ميسرة وقد اختلف فى نسبه فيما اذا كان مصموديا أو يهوديا أو يمنيا ، وعلى كل حال فقد خلفه بعد موته ابنه صالح الذى **تزندق وشرع ديانة جديدة وأظهر قرآنا جديدا وادعى انه المهدى المنتظر** »(٥٣) .

ونحن لا ندرى أيهما أصح هل ما ذكره فى اطروحته للدكتوراه أم دراسته عن برغواطة . ويبدو أنه وقع فى خطأ منذ البداية بالتأكيد والجزم ، وهى مسائل مرفوضة فى الدراسات التاريخية ، فكيف يجزم فى قضية لا نملك جميع مصادرها . وما هو موقفنا اذا ظهرت نصوص برغواطية جديدة ، وكان الاجدر به وهو باحث علمي مرموق الابتعاد عن الجزم والتأكيد الذى أوقعه بهذا الاضطراب .

واذا أردنا مناقشة الرأى الجديد للدكتور محمود اسماعيل فلنبدأ بصالح بن طريف ، فهو يرفض ادعاءه النبوة على الرغم من اجماع المؤرخين القدامى الذين نقل عنهم وكذلك المحدثين ، فاما أن يرفض كل الروايات واما أن يأخذ بالروايات التى اجمعوا عليها ، كما اننا بحاجة لمعرفة هل هو صالح بن طريف بن شمعون أم طريف بن ملوك ، أما الدليل الاول الذى اعتمده وهوعودة صالح فى حكم السابع منهم فقد سبق له أن رفضه باعتباره أسطورة فكيف يستدل بالاسطورة ومن ناحية أخرى فان عودة المهدى ليست عقيدة خارجية بل شيعية وهى معروفة . أما دليل التقية على أساس اجازتها فى القول دون العمل . فقد طبق الياس هذا المبدأ عمليا وليس قولا فقط ثم أن مبدأ التقية مبدأ شيعى كذلك . والدليل الاخر بأنهم يصلون فى اليوم عشر صلوات . فقد ذكر فى نفس الدراسة (لو صح ذلك لما اتسع الليل والنهار لاداء فريضة الصلاة وحدها اذا أخذنا بالاعتبار أنهم يقرأون نصف قرآنهم فى وقوفهم ونصفه في ركوعهم(٥٤) . لكنهم يعتمدون على أساس اسراف الصفرية فى العبادة وسموا صفرية لاصفرار وجوههم من كثرة العبادة وحتى هذا الرأى سبق له أن فنده فى كتابه الخوارج بقوله (ولا محل لتصديق روايات أخرى ترجع تسميتهم لصفرة وجوههم من كثرة العبادة)(٥٥) . والدليل الاخر بأنهم لا يتسرون تأكيدا لانصرافهم عن الدنيا . فان معظم المصادر تؤكد انهم كانوا يتزوجون ويطلقون بلا حدود فهم ليسوا بحاجة الى التسري وليس السبب هو الزهد . أما العقوبات الجنائية ضد السارق والكاذب والزانى ففيها آثار اسلامية وخارجية وعبرانية ويشير الى قضية (الاستعراض) لتبرير قتلهم لاعدائهم بقسوة والسؤال هو هل يؤمنون بالاستعراض أم بالتقية . ومسألة الاستعراض تنسحب على شجاعتهم فهل كانوا شجعانا لانهم خوارج أم أن البربر عرفوا بشدة البأس والمراس ، ولاثبات شجاعتهم يأتى بدليل سبق وان رفضه لأنه اسطورة وهو (أن الجارية البكر تثب ثلاثة حمر مصطفة) . ولا أريد أن أطيل مناقشة الادلة الخمسة عشر التى اثبتها فكما قلت لها مجال آخر ، ولكنى أقول كان الاجدر به أن يشير الى أن التأثيرات الخارجية فى هذه الديانة كثيرة وهو أمر مقبول . أما أن يجزم بأنها صفرية متطورة فهو أمر مرفوض لأن الادلة لا تسعفه .

والقضية الثانية فى هذه الدراسة حول (قرآن) برغواطة . فيقول « فلا أساس لها من الصحة ، والأمر لم يعد ـ فى تقديرى ـ أكثر من

ترجمة القرآن الى لغة البربر ، وكان ذلك أمرا ضروريا لأن بربر تامسنا لم يتم تعريبهم نهائيا الا فى عصر الموحدين »[٥٦] . وللرد على ذلك . فان المؤرخين القدامى والمحدثين أكدوا هذه الناحية وبضمنهم هو . ثم أن السور التى أوردها المؤرخون فى قرآن صالح لا وجود لها فى القرآن الكريم فضلا عن ذلك فقد أورد فى دراسته بعض الايات التى ذكرها البكرى فالى أية سورة من سور القرآن يمكن أن يرجعها ليعتبر قرآن صالح مترجما الى البربرية أما مسألة التعريب فهى بحاجة الى دراسة ولكنه من المؤكد كان هناك من يعرف العربية وهو أكد هذه القضية فى كتابه الخوارج وفى دراسته حيث أشار الى أنهم كانوا يقرأون القرآن الكريم .

والقضية الثالثة قوله (وانتهى البحث الى الكشف عن تاريخ هذه الدولة من حيث قيامها وعرض سياستها الداخلية بتقديم سجل كرونولوجى دقيق لأول مرة عن حكم امرائها مضبوطا بالتواريخ المحققة)[٥٧] . ان هذا السجل الكرونولوجى الدقيق أوقعه فى اضطراب كبير . فقد حدد سني حكم امراء برغواطة مخالفا به معظم المصادر ، ومرجع الخطأ يعود الى اعتبار حكم صالح ست سنوات فقط على الرغم من اجماع المؤرخين انه حكم سبعا واربعين عاما . ويبدو أن طريف مات عام ١٢٢ على أساس تقلد صالح الحكم فى نفس العام وحتى عام ١٢٨ أخذا برواية ابن الخطيب التى تقدر حكم صالح بست سنوات وليس كما ذهب ابن خلدون وغيره[٥٨] . وقد قال فى نفس الدراسة (أما ابن الخطيب فقد قدم تاريخا مختلا مضطربا ينم على عدم المامه حتى بالاسماء الصحيحة لامراء برغواطة وتوقيت تقلدهم الامارة أو تنحيهم عنها ، هذا فضلا عن تحامله الشديد وتعصبه الاعمى)[٥٩] . بينما اثنى كثيرا على ابن خلدون . اضافة الى ذلك فانه يقول (توجه طريف الى تامسنا وبقى قائما بأمر برغواطة حتى سنة ١٢٢ وهو نفس العام الذى توجه فيه ابنه صالح الى الشرق فى رحلة لطلب العلم بعد أن اشترك فى حركة ميسرة) وفى الصفحة الثانية يقول (ثم عاد صالح الى تامسنا ليتقلد الحكم بعد والده الذى يمتد به العمر طويلا . توفى سنة ١٢٢)[٦٠] فكيف ذهب صالح الى الشرق ودرس الفقه والفلك وبرز على أقرانه وعاد ليتسلم الحكم فى نفس العام . ان هذا التصور خلق فترة شغور فى الحكم امتدت من سنة ٢٢٠ حتى سنة ٢٧٠ عللها بخضوع البرغواطيين لحكم الادارسة . غير أن معظم المؤرخين ومن بينهم هو أكدوا عدم تمكن الادارسة من فرض سيطرتهم على البرغواطيين .

وأخيرا فهناك عدة نصوص رفضها لانها تعارض فكرة صفرية البرغواطيين ، واعتمد على نصوص أكد فى بداية الدراسة على ضعفها لأنها عبرت عن صفرية البرغواطيين بشكل أو بآخر . كما أنه نقل نصوصا مبتورة لتخدم هدف البحث ، وسأكتفى بمثالين عن ابن خلدون الاول ذكره فى صفحة ٤٧ (يقال انه تنبأ وشرع) معتمدا على كلمة يقال ليشكك بادعاء صالح النبوة بينما كان ابن خلدون يقصد طريف والنص واضح لمن يراجعه . والثانى ان ابن خلدون قال عن صالح (انه من أهل العلم والخير) ولم يكمل النص (ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة) .

وختاما يمكن القول أن الديانة البرغواطية لا يمكن البت بأصولها بشكل حاسم ما دمنا لا نتوفر على مصادر تعبر عن وجهة نظرهم ، وأن المصادر القديمة فيها شيء من التحامل عليها لاعتبار البرغواطيين كفارا وزنادقة ومجوسا ، اضافة الى المبالغة والتزييف فى بعض الشعائر ومن أبسط الامثلة على ذلك مسألة الصلاة فكيف يتمكن الشخص أن يصلى خمسا فى اليوم ومثلها فى الليل مع قراءة نصف القرآن فى الوقوف ونصفه في الركوع . فهذا يعنى أن الانسان لا يعمل شيئا سوى الصلاة .

ويبدو أن الاثار الاسلامية أكثر وضوحا فى هذه الديانة من غيرها . وقد ذكرت هذه التأثيرات فى الصفحات السابقة ولا مبرر لتكرارها ، كما أنهم تأثروا بالفكر الشيعى وخاصة فى مسألة ضرورة

وجود الامام وعودته والتقية . وكذلك أخذوا الكثير من فكر الخوارج لا سيما اذا علمنا أن مؤسس هذه الديانة كان خارجيا فى يوم من الايام فبقيت افكاره ملازمة له وليس من السهولة التخلص منها . هذا الى جانب بعض التأثيرات اليهودية .

وتبقى العادات والتقاليد البربرية ذات أثر بارز فى هذه الديانة . فابن حوقل يقول عن صالح (انه بربرى الاصل ، مغربى المولد ، ضليع بلغة البربر ، يفهم غير لسان من السنتهم ، فدعاهم الى الايمان به ، وذكر انه نبي ورسول مبعوث اليهم بلغة البربر واحتج بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول الابلسان قومه) . وبذلك فان النزعات الاستقلالية التى انتشرت بانتشار الخوارج جعلت بعض المتطرفين يتجهون هذا الاتجاه الديني المستقل عن الاسلام . وقد تمكن صالح بن طريف من الاستفادة بمعلوماته الدينية والدنيوية فأخذ من العقائد المنتشرة أنذاك ومن العادات والتقاليد الموجودة فى المنطقة وطبعها بطابع بربرى محلي مستفيدا من معطيات البيئة ومن جهل البرغواطيين بالاسلام الصحيح فوضع هذه الديانة المعروفة بطقوسها الخاصة وبقرآنها المكتوب بالبربرية وتقبلها البرغواطيون كحقيقة مسلم بها .

السياسة الداخلية والخارجية ..

كما اختلف المؤرخون حول أصول العقيدة البرغواطية ، اختلفوا حول السنة التى أسس فيها البرغواطيون امارتهم ، والمؤسس الحقيقى لها ، والحكام الذين تداولوا الحكم وسنى حكمهم .

يرى عدد من الذين كتبوا عن برغواطة أن طريف ابن صالح هو الذى أسس الدولة ، وطريف هذا اختلف فى اسم أبيه وديانته ، فالبكري يقول أنه من ولد شمعون بن يعقوب ابن اسحق وانه من أصحاب ميسرة المطغرى واليه نسبت جزيرة طريف(٦١) . فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه احتل طريف بلدة تامسنا وكان اذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة فقدمه البربر على أنفسهم وكان على ديانة الاسلام(٦٢) . وتأثر بعض المؤرخين بالنسب الذى ذكره البكرى ، وقالوا بأنه يهودى الاصل ويكنى بأبي صبيح وبعد فشل ثورة ميسرة بقى قائما بأمر برغواطة بتامسنا ويقال انه تنبأ أيضا وشرع لهم الشرائع(٦٣) . أما ابن عذارى فقال بالاصل الاندلسى دون أن يرده الى اليهود(٦٤) . ويرفض ابن خلدون الاصل اليهودى ويقول كان كبيرهم فى المائة الثانية من الهجرة ويقال أنه تنبأ وشرع لهم الشرائع(٦٥) . وسار على خطاه بيل الذى يقول « كان كبيرهم اثناء ثورة ميسرة هو أبو صالح طريف ، عاد الى تامسنا هو ورجاله بعد حملة الخارجية صوب الشرق وبقى قائما بأمرهم على مذهب الصفرية ، ويؤيده كاتب مادة برغواطة فى دائرة المعارف الاسلامية(٦٦) .

وهكذا يمكن القول أن طريفا بربرى من برغواطة وليس يهوديا وانه انسحب من ثورة ميسرة بعد عزله وعاد الى تامسنا ليتزعم البرغواطيين ، وانه بقي على دين الاسلام وعلى المذهب الخارجى بالذات .

وتجمع المصادر على أنه بعد وفاة طريف تولى مكانه ابنه صالح الذى كان على مذهب الخوارج وانه حارب مع أبيه الى جانب ميسرة وهو صغير . وهناك رواية لابن الخطيب أن ميسرة اتخذ من صالح ناصحا ومشيرا(٦٧)) . وتؤكد المصادر أن صالحا كان من أهل العلم والخير ثم انسلخ عن آيات الله وانتحل دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التى كانوا عليها من بعده(٦٨) . واختلف فى تاريخ ظهوره ووفاته فبعضهم يرى أنه ظهر فى الاول من الهجرة وانه انما انتحل ذلك عنادا أو محاكاة لما بلغه شأن النبى (ص) . وهى رواية ضعيفة فندها ابن خلدون وغيره . وأكد أن ظهوره كان فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٠٦ وهى السنة التى توفى فيها أبوه(٦٩) . أما بالنسبة لوفاته فالبكرى يذكر أنه توفي بعد وفاة الرسول بمائة عام أى سنة ١١١ هـ(٧٠) . وهى رواية مشكوك فيها ولا تتفق مع فترة ظهوره لأن فكر الخوارج لم يتبلور بعد فى المغرب ولم يعلن ميسرة عن ثورته التى ظهر صالح بعدها . ويحدد ابن خلدون وفاته

سنة ١٧٤ بعد أن حكم سبعا واربعين عاما وهى أقرب الى الصواب[٧١] .

واشتهر صالح بالنبوغ والذكاء وبعد النظر وقدرة التأثير على الغير ، وله علم بالسحر وجمع منه فنونا ، وحينما ذاع فضله وعلمه بين البربر فكر فى ايجاد دين جديد فزعم أنه صالح المؤمنين[٧٢] المذكور فى القرآن الكريم (.... وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)[٧٣] . وزعم كذلك أنه المهدى الاكبر الذى يخرج فى آخر الزمان لقتال الدجال ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلى خلفه ، وتكلم كلاما كثيرا نسبه الى النبى موسى والى سطيح الكاهن والى ابن عباس ، وذكر أن اسمه فى اللسان العربى صالح وفى السريانى مالك وفى الفارسي عالم وفي العبري وربيا وفى البربرى ورباورى ومعناها الذى ليس بعده نبى[٧٤] .

وتشير الاساطير أن صالحا رحل الى الشرق بعد أن حكم سبعا وأربعين عاما ، ووعد أصحابه بأنه سيرجع فى حكم خليفته السابع[٧٥] . وتثير هذه الرواية عدة تساؤلات . فمتى رحل الى الشرق ؟ هل بعد أن حكم سبعا واربعين عاما . أم قبل تسلمه السلطة كما يفهم من رواية ابن حوقل . وتبدو رواية الاخير أقرب الى الصحة . فاذا أخذنا برواية البكرى فأين تعلم السحر وجمع منه فنونا ودرس علم الفلك وذاع علمه بين البربر . واذا تعلم هذه الفنون فقد تعلمها بعد أن انهى حكمه فكيف نشرها بين قومه . لذلك يبدو أن صالح رحل قبل تسلمه السلطة ، ودرس شيئا عن النجوم وعمل التقاويم والمواليد وأصاب فى أكثر أحكامه كما يذكر ابن حوقل[٧٦] ، وانه وحد شمل البرغواطيين بعلمه وسياسته لا (بسحره ولسانه وتمويهاته) كما يذكر ابن الخطيب[٧٧] . ويؤكد الناصري ان صالح رحل الى الشرق وقرأ على عبيدالله المعتزلى واشتغل بالسحر وجمع منه فنونا ، وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا فوجد فيها قبائل جهالا من البربر فأظهر لهم الصلاح والزهد وموه عليهم وخلبهم بلسانه وسحرهم ، فصدقوه واتبعوه وادعى النبوة وشرع لهم الشرائع)[٧٨] .

ويظهر من هذه النصوص أن صالحا رحل الى الشرق قبل تسلم السلطة غير أن الخلاف هو حول سنة سفره فاذا أخذنا برواية محمود اسماعيل فانه سافر سنة ١٢٢ دون الاعتماد على سنة تسلمه السلطة كما يذكرها لامكن حل الاشكال . فهو سافر فى حياة ابيه وبقى خمس سنوات ثم عاد سنة ١٢٧ وتسلم السلطة .

وتشير الروايات أن صالحا أوصى بشريعته الى ابنه الياس وفقهه فى دينه وأوصاه بأن لا يظهر ذلك الا اذا قوى أمره حينئذ يقتل من خالفه كذلك أمره بموالاة أمير الاندلس[٧٩] . وبقي الياس مظهرا للاسلام مسرا ما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم وكان طاهرا عفيفا لم يلتبس بشىء من الدنيا ، وفى بعض الروايات متظاهرا بالعفاف والزهد الى أن توفى سنة اربع وعشرين ومائتين بعد أن حكم خمسين عاما[٨٠] . ويبدو أنه أخذ بمبدأ التقية تأثرا بالشيعة ، فيذكر البكرى أن الياس أظهر الاسلام وأسر الذى عهد اليه به أبوه خوفا وتقية[٨١] .

وتولى من بعده ابنه يونس الذى كثرت حوله الاساطير ، فقيل أنه رحل الى الشرق ، وحج ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده[٨٢] . والسؤال المطروح هل ذهب فعلا للحج أم أنه ذهب لدراسة العلوم فى الشرق . فاذا ذهب الى الحج فهو مسلم وبالتالى ترفض الروايات القائلة بأنه دعا الى ديانة ابيه . ولكن يبدو أنه ذهب لدراسة العلوم لأن معظم المصادر تشير الى أنه تعلم علم النجوم والكهانة والجان ونظر فى الكلام والجدال وانه شرب دواء للحفظ فحفظ كل ما سمعه ، وأخذ عن غيلان الدمشقي[٨٣] ، ثم انصرف يريد الاندلس فنزل بين هؤلاء القوم من زناته فلما رأى جهلهم استوطن وكان يخبرهم باشياء قبل حدوثها فكان كما قال أو قريبا منه . مما يدل على علمه بالتنجيم والكهانة فعظم أثره عندهم فاظهر ديانته الجديدة التى تقبلوها[٨٤] .

ويظهر من هذا النص الاضطراب والخلط بين شخصيتي صالح ويونس ، والبكرى يذكرها برواية المذجحى وليس زمور . لذا من الصعب أن نأخذها كقضية مسلم بها ، فاما أن يكون يونس قد بعث تعاليم صالح بعد أن أهملت واما أن يكون هو صاحب هذه التعاليم بالفعل وأنه نسبها الى جده .

واتخذ يونس من مدينة شالة قاعدة للحكم[٨٥] ، وفرض دينه بالقوة فيقول ابن خلدون (فاظهر دينهم ودعا الى كفرهم وقتل من لم يدخل فى أمره حتى احرق مدائن تامسنا وما والاها)[٨٦] . وتشير الروايات الى أنه أحرق ثلاثمائة وثمانين مدينة وقتل سبعة الاف وسبعمائة وسبعين شخصا فى موضع يقال له تاملوكاف (وهو حجر ثابت عال في وسط السوق) وقتل من صنهاجة فى موقعة واحدة ألف وغد[٨٧] . ويبدو طابع المبالغة واضحا ولكنه يشير الى كثرة الذين قتلهم والقرى التى أحرقها . وتوفى يونس سنة ٢٦٨ بعد أن حكم أربعة وأربعين عاما[٨٨] . وانتقل الامر عن بنيه الى غيرهم من قرابته . ولم تحدد المصادر سبب انتقال الامر هل لعدم وجود خليفة له أم نتيجة لصراع حدث بين قبيلة برغواطة ، أم خضوع برغواطة لحكم الادارسة كما يشير محمود اسماعيل . ويبدو أن الأمر الثانى أقرب الى الصحة اذا علمنا أن الذى تولى السلطة أبو غفير الذى تشير المصادر الى أنه كان لديه أربعة واربعون ولدا[٨٩] ، وحتى إن شككنا فى صحة الرواية فانها تدل على أن لديه عصبية قوية تقف الى جانبه وتمكنه من السلطة . أما خضوعهم للادارسة فسنناقشه حين الحديث عن علاقتهم مع الادارسة .

ومهما يكن من أمر فقد تزعم أبو غفير برغواطة[٩٠] ، ودان بديانة آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره وكانت له مع البربر وقائع مشهورة منها وقعة تيمغسن وكانت مدينة عظيمة أقام القتل فى أهلها ثمانية أيام[٩١] . ومنها وقعة بموضع يقال له بهت عجز الاحصاء عن عد من قتل فيها . خلدها سعيد بن هشام المصمودي بقصيدة توضح القسوة التى مارسها البرغواطيون ضد البربر[٩٢] .

وتوفى أبو غفير بعد أن حكم تسعا وعشرين سنة[٩٣] . وتولى الحكم ابنه ابو الانصار عبدالله . وقد وصفته المصادر بأنه كان سخيا ظريفا يفي بالعهد ويحفظ الجار ، وانه كان كبير الدعوة مهابا عند ملوك عصره يهادنونه ويدافعونه بالمواصلة ، وكان يلبس الملحفة والسراويل ولا يلبس القميص المخيط من الثياب ولا يعتم الا فى الحرب ولا يعتم فى بلده أحد الا الغرباء[٩٤] . ولم يخض حربا مع جيرانه ، ويذكر البكري انه كان يجمع جنده فى كل عام ويظهر انه يغزو من حوله فتهاديه القبائل وتستألفه فاذا استوعب هداياها فرق أصحابه وسكنت حركته ، وتوفى سنة احدى واربعين وثلاثمائة ودفن بامسلاخت[٩٥] . وتولى الحكم من بعده ابنه ابو منصور عيسى وكان أبوه قد أوصاه قبل موته بموالاة صاحب الاندلس وكذلك يوصي جميعهم المرشح للملك[٩٦] .

وتشير المصادر الى أنه دان بديانة آبائه من النبوة والكهانة واشتد أمره ودانت له قبائل المغرب ، فكان جيشه يناهز ثلاثة الاف من برغواطة وعشرة الاف ممن سواهم ممن هم على ملتهم ، واثنى عشر ألفا من المسلمين[٩٧] . وقد قتل أبو منصور سنة ٣٦٩ على يد بلكين بن زيرى .

ولا تمدنا المراجع بمعلومات تفيد فى تتبع أمراء الاسرة الحاكمة وسياستهم الداخلية بعد عام ٣٦٩ فقد أكد كاتب مادة برغواطة باستحالة تتبع السياق العام للاحداث بعد حكم ابى منصور ، وهو قول سبق وان ردده ابن خلدون (لم اقف على ملك أمرهم بعد أبى منصور عيسى)[٩٨] . وقد دفع هذا ابن عذارى الى اعتبار هذه السنة نهاية الدولة البرغواطية[٩٩] . واعتقد البكرى بأن نهايتهم كانت سنة ٤٢٠[١٠٠] أما ابن الخطيب فيطيل حكمهم حتى سنة ٤٥٢[١٠١] . الا أنه من الملاحظ أن البرغواطيين استمروا فترة أطول حيث بقوا حتى عهد الموحدين .

يعتبر عهد أبى منصور نهاية لعصر القوة والازدهار للبرغواطيين فقد بدأوا يضعفون نتيجة لتعرضهم لضغط المجاورين باعتبارهم منحرفين ومارقين عن الدين . فقاتلهم الادارسة والفاطميون والزيريون والزناتيون والمرابطون والموحدون ، وانزلوا بهم هزائم منكرة وخسائر فادحة حتى ليخيل للقارىء أنه قضى عليهم تماما .

فقد حاول ادريس الاول القضاء عليهم حينما زحف الى تامسنا لمحاربتهم . ويختلف المؤرخون فى أسباب غزوهم ، فالبعض يرى أنه حاربهم لكونهم مجوسا وذلك لنشر الاسلام بين القبائل البربرية التى ما زالت تدين بالنصرانية واليهودية ، ففتح معاقلها واسلم جميع أهلها على يديه(١٠٢) . ويرى محمود اسماعيل أن الدافع الاقتصادى كان وراء هذه الحملة ، اذ أن الادارسة لم يكن بوسعهم التوسع شرقا حتى لا يصطدموا بالاغالبة الاقوياء ، فاتجهوا نحو اقليم تامسنا الغنى بعد أن عجزت موارد الدولة عن مواجهة حاجة القبائل الكثيرة التى بايعت ادريسا(١٠٣) . ومهما كان الدافع فان ادريس الاول فشل فى تحقيق هدفه فبقيت تامسنا خارجة عن نفوذ الادارسة . يتحكم فيها البرغواطيون غير أن الادارسة طوقوهم حينما احتلوا تلمسان وشله والسوس ونفيس وهذه المدن تسيطر على الطرق التجارية المتجهة من الصحراء الى الشمال والى الشرق(١٠٤) .

وعاود الادارسة قتال البرغواطيين فى عهد ادريس الثانى وقيل ان العاهل البرغواطى قاتل الادارسة وكانت بينه وبين ادريس الثانى حروب عظيمة لم تحسم لصالح الادارسة كذلك(١٠٥) . ويرى الدكتور محمود اسماعيل أن ادريسا قتل يونس ثم يعود مرة أخرى فيقول وقدر لمحمد بن ادريس أن يقهر برغواطة ويقتل أميرها بدليل حدوث فترة شغور فى العرش البرغواطى معتمدا على رواية ابن الخطيب بأن محمد بن ادريس قسم دولة الادارسة الى اعمال بين اخوته فأسند عدة أقاليم من بينها تامسنا الى أخيه عيسى ثم اعطيت الى اخيه عمر بعد أن تمرد الاول عليه(١٠٦) . ان فترة الشغور التى يشير اليها لا يؤكدها مصدر تاريخى كتب عن هذه الفترة ، ولو أن هذه المصادر تشير الى تقسيم محمد لدولته على اخوته ، لذلك من المحتمل أن الادارسة لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على كل أملاك البرغواطيين لاننا لا نملك نصا يؤكد سقوط البرغواطيين أو خضوعهم للادارسة .

وحينما ظهر الفاطميون على المسرح السياسى ، اندلع الصراع بينهم وبين أمويى الاندلس على المغرب الاقصى ، فتعرض البرغواطيون لاخطار الجيوش المتحاربة ، حيث كان أهل البصرة وفاس يغزونهم فى بعض الاحيان ، كما أن محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله أمير سجلماسة دعا قومه الى جهاد برغواطة فى منتصف القرن الرابع الهجرى الا أنه لم يصل الى هدفه لأن الفاطميين أسروه وقتلوه(١٠٧) .

وتوجه عامل المنصور بن أبى عامر على البصرة وهو جعفر بن على سنة ٣٦٦ الى جهاد برغواطة ، وزحف اليهم بأهل المغرب وكافة الجند الاندلسيين . الا أن الحملة لم تحقق أهدافها فقد انهزم أمام البرغواطيين ونجا بنفسه وقليل من جنده(١٠٨) . ثم حاربتهم صنهاجة حينما غزا بلكين بن زيرى قائد افريقية من قبل الفاطميين سنة ٣٦٩ المغرب ، وزحف اليهم بقواته فلقيه أبو منصور عيسى بن أبى الانصار .. وانهزم البرغواطيون وقتل أميرهم وأثخن فيهم بلكين وبعث بسبيهم الى القيروان ، وأقام بالمغرب يردد الغزو فيهم الى سنة ٣٧٢ ويقول ابن خلدون ولم أفق على من ملك أمرهم بعد أبى منصور(١٠٩) .

وحاربهم المنصور بن أبى عامر ، لما عقد ابنه عبد الملك المظفر لمولاه واضح على جهاد برغواطه فعظم أثره فيهم بالقتل والسبي وحاربهم أيضا بنو يفرن لما استقل بنو يعلي بن محمد بن صالح بناحية سلا(١١٠) . لكن برغواطة بقيت صامدة فى بلادها معلنة ديانتها فقاتلهم ابو كمال تميم اليفرنى سنة ٤٢٠ فغلبهم على بلادهم وولى عليها من قبله بعد أن أثخن فيهم قتلا وسبيا وجلا من بقى منهم فاستوطن ديارهم وانقطع أثرهم ولم يبق

لضلالتهم باقية ولا من أواصر كفرهم آصرة وجميع بلاد برغواطة اليوم على ملة الاسلام[١١١] . ويبدو طابع المبالغة فى هذا النص اذ أن البرغواطيين بقوا يمارسون نشاطهم لفترة زمنية أطول .

وشاركت قبائل هسكوره فى حرب برغواطه بناء على فتوى أبو محمد بن عبدالله بن تيسبيت . ويمكن أن تربط مشاركة هسكورة بحربهم الى زحف هذه القبائل وصنهاجة المجاورين لهم نحو السهل الذى تحتله برغواطة ، ولا شك أن هذه التوسعات للجبليين هى التى أثخنت فى برغواطة قبل استكمال غزوهم من المرابطين فعندما ظهر هؤلاء وجدوا قبائل هسكوره وربما بعض قبائل الاطلسى الغربى تحاول التوسع فى السهول على حساب برغواطة[١١٢] .

وهكذا بدأ الضعف يدب فى صفوف البرغواطيين نتيجة للضربات التى تلقوها من مجاوريهم . فحينما ظهر المرابطون رأى عبدالله بن ياسين[١١٣] . أن جهادهم أهم من جهاد غيرهم فسار اليهم بجيوشه وكان زعيم برغواطة آنذاك أبو حفص عبدالله ، ودارت بين الفريقين معارك عنيفة قاوم فيها البرغواطيون مقاومة شديدة وتمكنوا من قتل عبدالله بن ياسين . فتولى أبو بكر عمر قيادة المرابطين وتمكن من الانتصار عليهم[١١٤] . وتشير المصادر الى أن برغواطة تركت بلادها ومن بقى منهم اسلم اسلاما جديدا[١١٥] ، ولم يبق لديانتهم الخسيسة أثر[١١٦] ، وكان انقراض أمرهم وقطع دابرهم على يد هؤلاء المرابطين والحمد لله رب العالمين[١١٧] .

ويشير الدكتور حركات الى أن المرابطين عملوا على تصفية الوجود البرغواطى الذى ظل فى اوجه بكل من دكالة وضواحي الرباط وسبته ، وفعلا عمدوا الى ارغام البرغواطيين على تصحيح اسلامهم ، ولكى يقطعوا أملهم فى الحفاظ على كيانهم المستقل خارج الوحدة الاسلامية خربوا ما لا يقل عن اربعين مدينة أو مركزا عمرانيا واكثرها فى منطقة دكالة التى انتقلت اليها عاصمتهم على أثر تخريب شالة فى العهد الزناتي بل ان العاصمة أزمور كانت فى العهد المذكور مركزا موازيا لشالة[١١٨] . ويضيف : أن منطقة تامسنا على العموم أصبحت قفراء بعد تهديم المدن البرغواطية وهجرة سكانها فتحولت الى مراتع للحيوانات والنباتات البرية حسب تأكيد الحسن الوزان . وبذلك اندثر التراث البرغواطي المكتوب والجامد بصفة شاملة الا بعض ما لا يسمن ولا يغنى من جوع . وعمل المرابطون على استقدام بعض المجموعات الصنهاجية لتعمير المنطقة[١١٩] .

وحقيقة الأمر ان المرابطين لم ينجحوا فى استئصال البرغواطيين ولم يقضوا عليهم نهائيا . اذ أنهم قاوموا الموحدين مما يؤكد استمرارهم طوال حكم المرابطين . ولكن السؤال المطروح هل بقيت برغواطة كقبيلة تدين بالاسلام وترفض الخضوع للنفوذ الاجنبى . أم أنهم بقوا متمسكين بعقيدتهم أثناء مقاومة الموحدين . فالنصوص التى تتحدث عن مقاومتهم للموحدين لا تشير الى مسألة العقيدة البرغواطية ولا الى كفرهم كما كانت تتحدث فى مقاومتهم للمرابطين وغيرهم .

وتشير الروايات الى أن عبد المؤمن بعد أن فتح سلا واتجه نحو مراكش سرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة فأثخن فيهم ورجع[١٢٠] . ويعتقد الدكتور محمود اسماعيل ان الدافع لهذا الغزو كان اقتصاديا معتمدا على رواية ابن عذارى (فغزاهم ثم غلبهم وعاد الى عبد المؤمن فتلاقيا على الخيل فقسم الغنائم على الموحدين)[١٢١] . وخرج أبو حفص ثانية بعد أن انتصر على هسكورة وسجلماسة الى برغواطة فحاربوه مدة ثم هزموه[١٢٢] . ولما علم عبد المؤمن بهزيمة الشيخ ابى حفص خرج قاصدا بلاد برغواطة فلما تسامعت بخروجه كتبوا الى يحيى بن ابى بكر الصحراوي[١٢٣] بسبتة يستنصرونه ، ولما حضر بايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المؤمن فهزموه ، ثم كانت له كرة عليهم فهزمهم وحكم السيف فيهم واستأصل شافتهم حتى انقادوا للطاعة ، وتبرأوا من يحيى الصحراوى ومن لمتونه

فى سنة ٥٤٢ھ[١٢٤] . ويظهر لنا هذا النص أن البرغواطيين تعاونوا مع الصحراوى الذى كان متمسكا بدعوة المرابطين مما قد يشير الى تخليهم عن ديانتهم .

وبعد هذه المعركة جلب الموحدون عددا من القبائل العربية اقامت فى ديار برغواطة ، وكانت هذه الضربة نهاية لدور برغواطة فى تاريخ المغرب الاقصى . ولو أن هناك اشارة الى وجودهم الى العهد المرينى حيث يقول ابن الخطيب « وقبيلهم اليوم ضعيف ، لعب فيهم سيف الملتمين ثم سيف الموحدين بعده[١٢٥] .

وأخيرا يمكن القول أن امارة برغواطة احدى الامارات المستقلة فى تاريخ المغرب تبنت ديانة جديدة ولعبت دورا كبيرا على المسرح السياسى لفترة تزيد عن أربعة قرون . الا أن هذا الدور لم يتضح بشكل جلي ومتكامل اضافة الى التزييف والتحريف . فما نملكه يعبر عن وجهة نظر آحادية تمكنا من استقراء بعض نصوصها . لذلك نبقى بحاجة ماسة لمعرفة وجهة نظر البرغواطيين التى هى فى طي الكتمان ، عسى أن يفصح لنا الزمن عن هذا الكتمان لنضع تاريخ هذه الامارة فى مكانها الصحيح بالنسبة لتاريخ المغرب والتاريخ العربى الاسلامى .

★☆★☆★☆★☆★

هوامش البحث

(١) البكرى ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٣٤ .
(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، بيروت ، ابن أبى زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، ١٩٧٣ ، ابن الخطيب ، تاريخ المغرب العربى في العصر الوسيط وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .
(٣) مارسي Marcy ، باسي Basset، سلوش Slouch ، موتايلنسكي Motylinski ، دوزي Dozy ، جوليان Jolien ، د. سعد زغلول ، د. أحمد مختاري العبادي .
(٤) البكرى ، المصدر السابق ، ١٣٤ .
(٥) مجهول ، الاستبصار في عجائب الامصار ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ ، ص ١٩٧ .
(٦) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ٧/ ٢٢٤ .
(٧) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ٣٢ .
(٨) البكرى ، ١٣٨ ، ابن ابى زرع ، ١٣٠ ، ابن الخطيب ، ٣/ ١٨٠ ، الناصرى ، الاستقصا في تاريخ المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، ٢/ ١٥ ، عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، الرباط ١٩٦٨ ، ج ١/ ٣٢٣ .
(٩) ابن دحية الكلبى ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، القاهرة ١٩٥٤ ، ٨٨ ـ ٢٨٩ .
(١٠) ابن خلدون ، العبر ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٨ ، ٦/ ٤٢٨ ، ٤٣٧ .
(١١) عبد الوهاب بن منصور ، ١/ ٣٢٢ .
(١٢) الناصرى ، ١/ ٦٥ ، ١/ ١١٤ ، د. ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، الدار البيضاء ١٩٦٥ ، ٣٤ ، ١٠٣ ، عبدالله علام ، الدعوة الموحدية بالمغرب ، القاهرة ١٩٦٤ ، ١٣ ، ٤٢ .
(١٣) د. ابراهيم حركات ، « المجتمع الدكالي والفكر الدينى » ، مجلة دعوة الحق ، ٢٢٤ غشت ١٩٨٢ ، ص ٧٢ .
(١٤) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة مصمودة .
(١٥) تامسنا ـ كلمة بربرية بلهجة زناتة ومعناها البسيط الخالى ، وقد أطلقت على المنطقة الممتدة من الرباط الى الدار البيضاء ، وفي اغلب الروايات من سلا الى أم الربيع ، وكانت في الاصل موطنا لزناتة وزواغة حتى نزل فيها طريف . وكانت أرضا من سدرة وعليق ترعى فيها الاغنام وقد سمى أحد أبواب مدينة الرباط بهذا الاسم وما يزال لفظ تامسنا يطلق في صحراء غدامس بمعنى الأرض القفر والبسيط الخالى . (د. أحمد مختار العبادى ، في تاريخ المغرب والاندلس ، بيروت ١٩٦٨ ، ٢٧٨ ، عبد الوهاب بن منصور ، المصدر السابق ، ١/ ٣٢٣ .
(١٦) بعد أن تلاشت برغواطة حل محلها العرب ولا سيما عرب سويد بن رياح الهلاليين وذلك أيام الدولة المرينية وسموا عرب الشاوية نسبة الى الشاة لأنهم كانوا يقومون برعي أغنام وماشية الدولة المرينية (أحمد مختار العبدى ، المصدر السابق) ٣٥ ، دائرة المعارف الاسلامية (برغواطة) .
(١٧) البكرى ، ٨٧ ، عبد الوهاب بن منصور ، ١/ ٣٢٣ .
(١٨) ابن خلدون ، ٦/ ٥٨ .
(١٩) وهى مدينة قديمة مندثرة ما زالت اطلالها باقية خارج أسوار مدينة الرباط مقابل مدينة سلا التى لا يفصلها عنها سوى وادى أبو الرقراق ولذا عرفت بشالة سلا .
(٢٠) مجلة البحث العلمي ، العدد الثالث ، سبتمبر ـ ديسمبر ١٩٦٤ ، ص ٣٤ .
(٢١) محمد بن على الدكالي السلاوى ، الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبدالعزيز ، مخطوط بخزانة الرباط رقم D./٣٢٠ نقلا عن أحمد مختار العبادى ، ص ٢٨٣ ، محمد أحمد العبدى ، أسفي وما اليه ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
(٢٢) ابن الزيات ، التشوف الى رجال التصوف ، الرباط ١٩٥٩ ، ص ٢٦ ، عبد الحى الكتانى ، « اشرف بقعة واقدس ـ بناحية مراكش » .
(٢٣) ابن حوقل ، ٨٢ ـ ٨٩ .
(٢٤) لمزيد من التفصيلات انظر

Marcy, L Dieu des Abadites et des Bargwata, Hesperis, Tom XXII, Facs 1, p.43

نقلا عن محمود اسماعيل ، مغربيات ، دراسات جديدة ، المحمدية ، ١٩٧٧ ـ ٤١ .

(٢٥) Dozy, Essai surl' histoire de l Islamisme, P. 43 / 45
نقلا عن محمود اسماعيل ، ٤١ .
(٢٦) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة برغواطة .
(٢٧) محمود اسماعيل ، ٤٢ .
(٢٨) Nahoum Slouch, Lempire des Berghouata et les origines des Blad-es Siba.
(٢٩) Gaston Deverdun, Marrakech desorigines, Rabat, 1959
(٣٠) أحمد مختار العبادى ، ٢٨١ ، محمود اسماعيل ، مغربيات ، ٤١ .
(٣١) د. ابراهيم حركات ، مجلة دعوة الحق ، ٢٢٤ .
(٣٢) محمود اسماعيل ، مغربيات ، ٤٧ .
(٣٣) د. سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، القاهرة ١٩٦٩ ، ٤١٩ .
(٣٤) محمود اسماعيل ، مغربيات ، ٤٨ .
(٣٥) Motylinski, Le Nom Berbere, de Dieu chez Les Abadites. Alger, 1905.
د. سعد زغلول عبد الحميد ، د. عبدالله العروى ، د. ابراهيم حركات ، دائرة المعارف الاسلامية ، الفردبيل ، الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى من الفتح العربى حتى اليوم ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، دار الغرب الاسلامى ١٩٨١ .
(٣٦) ابن حوقل ، ٨٢ .
(٣٧) ن.م ، ٨٣ .
(٣٨) البكرى ، ١٣٨ ، ابن عذارى ٣٢١ .
(٣٩) محمود اسماعيل ، مغربيات ، ٤٣ .
(٤٠) ن. م.
(٤١) د. سعد زغلول ، ٤١٨ ـ ٤١٩ .
(٤٢) د. عبدالله العروى ، ١٠٨ .
(٤٣) د. ابراهيم حركات ، ٧٢ .
(٤٤) الفردبيل ، المصدر السابق ١٧٥ .
(٤٥) المصدر نفسه ، ١٧٦ .
(٤٦) المصدر نفسه ، ١٧٧ .
(٤٧) المصدر نفسه .
(٤٨) المصدر نفسه .
(٤٩) محمود اسماعيل ، مغربيات ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٣ .
(٥٠) المصدر نفسه ، ٤٩ ، ٥٣ .
(٥١) د. محمود اسماعيل ، الخوارج ، ٤٠ .
(٥٢) المصدر نفسه ٧٦ .
(٥٣) المصدر نفسه ، ٢٣٦ .
(٥٤) المؤلف ، مغربيات ، ٤٦ .
(٥٥) المؤلف ، الخوارج ٣٧ .
(٦٦) المؤلف ، مغربيات ٥٣ .
(٥٧) المصدر نفسه ، ١١ .
(٥٨) المصدر نفسه ، ٢٦ هامش ٦٦ .
(٥٩) المصدر نفسه ، ١٧ .
(٦٠) محمود اسماعيل ، مغربيات ، ٢٥ ـ ٢٦ .
(٦١) لعله يقصد طريف بن مالك الذى مهد لطارق بن زياد فتح الاندلس بغارته الاستطلاعية على جنوب الاندلس .
(٦٢) البكرى ، ١٣٥ .
(٦٣) ابن ابى زرع ، ١٣٠ ، مجهول ، الاستبصار ، ١٩٧ ، الناصرى ، ج ١ / ١١٤ .
(٦٤) ابن عذارى ، ١/ ٢٢٣ .
(٦٥) ابن خلدون ، ٦/ ٤٢٨ .
(٦٦) الفردبيل ، ١٧٣ ، دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة برغواطة .

(٦٧) ابن الخطيب ، ٣/ ١٨١ .
(٦٨) ابن خلدون ، ٦/ ٤٢٨ .
(٦٩) ابن خلدون ، ٦/ ٤٢٩ ، الناصرى ، ١/ ١١٥ - ٢/ ١٦ ، دائرة المعارف الاسلامية ، أحمد توفيق ، المجتمع المغربى فى القرن التاسع عشر (اينولتان ١٨٥٠ - ١٩١٢) ج ١/ ٧٦ - ٧٧ . نقلا عن صاحب كتاب القبلة وهو الشيخ ابى على صالح بن الشيخ صالح ، مخطوط. خ.ع. رقم ق ٩٨٣ . الذى يحدد سنة ١٢٥ وهو أقرب الى الصواب لأن هشام بن عبد الملك توفى فى هذا العام ، وقد اخطأ الدكتور محمود اسماعيل باعتبار هذا العام هو توليه السلطة فوقع فى خطأ سني حكم امراء برغواطة .
(٧٠) البكرى ، ١٣٥ .
(٧١) ابن خلدون ، ٦/ ٤٢٩ ، الناصرى ، ٢/ ١٦ . ويحدد الدكتور محمود اسماعيل سنة ١٢٨ وهي رواية غير موثقة .
(٧٢) البكرى ، ١٣٥ ، ابن خلدون ، ٦/ ٤٢٩ ، دائرة المعارف الاسلامية .
(٧٣) سورة التحريم ، آية ٤ .
(٧٤) البكرى ، ١٣٥ - ١٣٦ ، ابن خلدون ، ٦/٤٢٩ وذكر بدل وربيا (روبيا) وبدل ورباورى (وربا) ، الناصرى ، ١/١١٥ - ١١١ فى العبرى روبيل وفى البربرى وارباب دائرة المعارف الاسلامية .
(٧٥) البكرى ، ١٣٩ ، ابن خلدون ، ٦/ ٤٣٠ ، الناصرى ، ١/١١٦ - ٢/ ١٦ بيل ، ١٣٤ ، دائرة المعارف الاسلامية .
(٧٦) ابن حوقل ، ٨١ .
(٧٧) ابن الخطيب ، ٣/١٣٠ .
(٧٨) الناصرى ، ٢/١٥ .
(٧٩) البكرى ، ١٣٥ ، ابن خلدون ، ٦/ ٤٣٠ ، دائرة المعارف الاسلامية .
(٨٠) البكرى ، ١٣٦ ، ابن خلدون ، ٦/ ٤٣٠ ، الناصرى ، ٢/ ١٦ .
(٨١) البكرى ، ١٣٦ .
(٨٢) رحل مع عباس بن ناصح وزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية وبرغوث بن سعيد الترارى وجند بن عبد الرزاق ويعرفون ببنى وكيل الصفرية ومناد صاحب المنادية المنسوب اليه القلعة المعروفة بالمنادية قرب سجلماسة (البكرى ، ١٣٧) .
(٨٣) الصحيح أن صالح هو الذى أخذ عن غيلان الدمشقى الذى لم يكن على قيد الحياة أبان وجود يونس - محمود اسماعيل ، ٢٥ .
(٨٤) البكرى ، ١٣٧ - ١٣٨ .
(٨٥) ابن الخطيب ، ٣/١٨٤ .
(٨٦) ابن خلدون ، ٦/٤٣١ .
(٨٧) البكرى ، ١٣٦ ، ابن خلدون ، ٦/ ٤٣٠ ، الناصرى ، ٢/ ١٦ (الوغد هو المنفرد الوحيد الذى لا أخ له ولا ابن عم) .
(٨٨) البكرى ، ١٣٦ ، ابن خلدون ، ٦/ ٤٣٠ ، الناصرى ، ٢/ ١٧ .
(٨٩) البكرى ، ١٣٦ .
(٩٠) وهو محمد (يحمد) بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف .
(٩١) البكرى ، ١٣٦ .
(٩٢) وادي بهت بنى عليه سد القنصره بناحية سيدي قاسم وسيدى سليمان (عبد الوهاب بن منصور ، ١/ ٧٠) . والابيات التى ذكرها البكرى نذكر منها .

قفي قبل التفرق فأخبرينا — وقولي واخبرى خبرا مبينا
هموم برابر خسروا وظلوا — وخابوا ولاسقوا ماء معينا
يقولون النبي أبو غفير — فأخزى الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر يوم بهت — على آثار خيلهم رنينا
رنين الباكيات فبين ثكلى — وعاوية ومسقطة جنينا
هنالك يونس وبنو بنيه — يقودون البرابر مهطعينا
فليس اليوم ردتكم ولكن — ليالي كنتم متميسرينا

(٩٣) يحدد البكرى وفاته سنة ٣٠٠ هـ ويبدو أن ابن خلدون أدق اذ أنه يحدد وفاته آخريات المائة الثالثة ، ويحدد

حكم خليفته بأربعة واربعين عاما وليس اثنين واربعين كما ذكر البكرى وبذلك يستقيم الحكم ولا تظهر ثغرة في السنين ، اذ أنه حسب رواية البكرى ستظهر ثلاث سنوات من الشغور .

(٩٤) البكرى ، ١٣٦ ـ ١٣٧ ، ابن خلدون ، ٦/٤٣١ ـ ٤٣٢ ، الناصرى ، ٢/١٦ .

(٩٥) البكرى ، ١٣٧ ، ابن خلدون ، ٦/٤٣٢ ، الناصرى ، ٢/١٧ .

(٩٦) البكرى ، ١٣٧ .

(٩٧) البكرى ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ابن خلدون ، ٦/٤٣٢ ، دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة برغواطة ـ .. القبائل التى كانت على ملتهم : جراوة ، زواغة ، البرانس، مطغرة ، بنو دمر ، بنو أبى ناصر ، مجصة ، بنو ابى نوح ، مطماطة ، بنو داغر ، بنو بورغ ، بنو وزكسينت (وارزكيت) .
أما القبائل المسلمة : آزمور ، بنو يفرن ، بنو أفلوسة ، زناتة الجبل ، بنو يليت ، ممالتة ، بنو واو سينت ، بنو ناغيت ، بنو النعمان ، بنو كونه ، بنو يسكر ، أصاده ، ركانة ، وازمين (وايزن) منادة ، ماسينة ، رصانه ، ترارته ، وتمغراوة .

(٩٨) ابن خلدون ، ٦/ ٤٣٣ .

(٩٩) ابن عذارى ، ١/٢٢٧ .

(١٠٠) البكرى ، ١٤١ .

(١٠١) ابن الخطيب ، ٣/١٨٦ ـ ١٨٧ .

(١٠٢) ابن أبى زرع ، ٢٠ ، د. ابراهيم حركات ، المغرب ، ١١٣ .

(١٠٣) د. محمود اسماعيل ، مغربيات ، ٣١ .

(١٠٤) د. ابراهيم حركات ، ١١٩ ، د. عبدالله العروى ، ١١١ .

(١٠٥) ابن الخطيب ، ٣٦/ ١٨٦ .

(١٠٦) ن. م ، ٢٠٥ ، د. محمود اسماعيل ، ٢٨ ، ٣٢ .

(١٠٧) ابن حوقل ، ٨٣ .

(١٠٨) ابن خلدون ، ٦/ ٣٢ ـ ٤٣٣ .

(١٠٩) ن. م ، الناصرى ، ٢/ ١٨ ويرى أن أبا منصور قتل على يد جعفر بن على (١/ ٢٠٧) د. ابراهيم حركات ، المغرب ، ١٥١ .

(١١٠) ابن خلدون ، ٦/ ٤٣٣ ، الناصرى ، ٢/ ١٨ .

(١١١) البكرى ، ١٤١ ، الناصرى ، ٢/ ١٨ .

(١١٢) أحمد توفيق ، انيولتان ، ١/ ٧٦ ـ ٧٧ .

(١١٣) مؤسس دولة المرابطين ، لا يعرف تاريخ ولادته ، في شبابه ذهب الى الاندلس لطلب العلم ، وعاد ودرس على وجاج بن زلو . ينتمى الى قبيلة جزولة . خرج الى بلاد كدالة لتعليم صنهاجة الدين الاسلامى . هناك نشر تعاليمه وأقام رباطا خاصا به اقام فيه واصحابه ، وبعد أن خضعت لطاعته صنهاجة تمكن من محاربة اعدائهم وأسس دولة المرابطين .

(١١٤) الناصرى ، ٢/٢١٨ ، عبدالله كنون ، عبدالله بن ياسين ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٧١ ، ٢٦ ، د. ابراهيم حركات ، المغرب ، ١٧١ ـ ١٨٤ .

(١١٥) ابن الخطيب ، ٣/١٨٧ ، ٢٣١ .

(١١٦) ابن ابى زرع ، ١٣٣ .

(١١٧) ابن خلدون ، ٦/ ٣٧٦ ، ٦/ ٤٣٤ ، حركات ، المغرب ، ١٧١ ـ ١٨٤ .

(١١٨) د. ابراهيم حركات ، مجلة دعوة الحق ، ع ٢٢٤ .

(١١٩) ن. م.

(١٢٠) ابن خلدون ، ٦/٤٧٩ ، ٤٨٤ ، الناصرى ، ٢/١٠٨ .

(١٢١) ابن عذارى ، ٣/ ٢١ .

(١٢٢) ابن خلدون ، ٦/ ٤٨٤ ، الناصرى ، ٢/١١٣ .

(١٢٣) يحيى بن ابى بكر الصحراوى كان معتصما بفاس أيام حصار عبد المؤمن لها ، ثم فر ولحق بابن غانية الذى كان معتصما بقرطبة متمسكا بدعوة المرابطين ، وارسل ابن غانية الصحراوى واليا على سبتة بناء على طلب القاضى عياض حينما ثارت سبتة على الموحدين ! .

(١٢٤) ابن خلدون ، ٦/٤٨٤ ، الناصرى ، ٢/١٤ .

(١٢٥) د. ابراهيم حركات ، دعوة الحق ، ٨/ ٢٢٤ ، ص ٧٣ .

المـــراجع

أ ـ المصادر العربية :

١ ـ ابن ابى زرع ، على بن أبى زرع الفاسي (ت ٧٢٠) ..
الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ١٩٧٣ .
٢ ـ ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل (ت النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٨ .
٣ ـ ابن الخطيب : لسان الدين محمد ت ٨٤٠ .
تاريخ المغرب العربى في العصر الوسيط ، وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام ، الدار البيضاء ١٩٦٤ .
٤ ـ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٦ ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٨ .
٥ ـ ابن الزيات : أبو يعقوب يوسف التادلى .
التشوف الى رجال التصوف ، الرباط ١٩٥٨ .
٦ ـ ابن عذارى : محمد بن عذارى المراكشى (ت نهاية القرن السابع الهجرى)
البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، بيروت .
٧ ـ اسماعيل ، دكتور محمود :
الخوارج في المغرب الاسلامى ، بيروت ، ١٩٧٦ .
٨ ـ ....
مغربيات ، دراسات جديدة ، المحمدية ، ١٩٧٧ .
٩ ـ البكرى : أبو عبيدة عبدالله بن عبد العزيز (ت ١٤٦٠) .
المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، بدون تاريخ .
١٠ ـ بيل ، الفرد .
الفرق الاسلامية في الشمال الافريقى من الفتح العربى حتى اليوم ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، دار المغرب الاسلامى ، ١٩٨١ .
١١ ـ توفيق ، أحمد
المجتمع المغربى في القرن التاسع عشر (اينولتان ١٨٥٠ ـ ١٩١٢) .
١٢ ـ حركات : د. ابراهيم .
المغرب عبر التاريخ ، الدار البيضاء ، ١٩٦٥ .
١٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية .
١٤ ـ زيدان : عبد الرحمن .
اتحاف اعلام الناس ، الرباط ١٩٣٠ ، ج ٢
١٥ ـ العبادي : الدكتور أحمد مختار
في تاريخ المغرب والاندلس . بيروت ، ١٩٧٨ .
١٦ ـ العبدى : محمد بن أحمد .
أسفى وما اليه
١٧ ـ عبدالحميد ، د. سعد زغلول .
تاريخ المغرب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
١٨ ـ العروي : د. عبدالله
تاريخ المغرب محاولة في التركيب ، ترجمة الدكتور ذوقان قرقوط ، بيروت ، ١٩٧٧ .
١٩ ـ علام : عبدالله
الدعوة الموحدية بالمغرب ، القاهرة ١٩٦٤ .
٢٠ ـ السلاوي : محمد بن علي الدكالي ت ١٩٤٥ .
الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز ، مخطوط بخزانة الرباط رقم D.١٣٢٠ .

٢١ـ الكلبي : ابن دحية
المطرب في أشعار أهل المغرب ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
٢٢ ـ كنون : عبدالله
عبدالله بن ياسين ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧١ .
٢٣ـ منصور : عبد الوهاب
قبائل المغرب ، الرباط ، ١٩٨٨ .
٢٤ـ مجهول : (ت القرن السادس الهجرى) .
الاستبصار في عجائب الامصار ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .
٢٥ـ الناصرى : أحمد بن خالد (ت ١٣١٩ هـ) .
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٩ .

ب ـ المصادر الأجنبية :

1 - Basset, R:
Lenom Berbers de Dieu chez Les Abadiyrd. Bulletin de la Societe SArcheologiique de sousse,zeme Semestre, 1905
2 - Dozy, E:
Essai sur l histoire de L' Islamism
3 - Julien, A:
Histoire de L' Afrique du nord paris, 1961
4 - Marcy, G:
Les Dieux des Aba'dites et des Barqu'ata, Hesperis, Tom XXII Fasel, Paris, 1936.
5 - Motylinski
Lenom Berbere de dieu chez les Abadites. Alger, 1905
6 - Slouch, N: L' Empire des Berghoutar et Lesorigines des Blades-Siba, Revue due Monde Musulmane, Tom X NO. 3, 1910.

ج ـ المقالات :

١ ـ مجلة البحث العلمي ، العدد الثالث ، سبتمبر ـ ديسمبر ١٩٦٤ .
٢ ـ د. ابراهيم حركات ، « المجتمع الدكالي والفكر الديني » ، مجلة دعوة الحق ، ٢٢٤ ، غشت ١٩٨٢ .
٣ ـ عبدالحي الكتاني ، « اشرف بقعة وأقدس ـ بناحية مراكش » ، مجلة المغرب ، السنة الخامسة ، يونيو ـ يوليو ١٩٣٦ .

دور صقلية في نقل التراث الطبي العربي إلى أوربا

الدكتور تقي الدين عارف الدوري
كلية التربية / جامعة بغداد
قسم التاريخ

يبدو ان الممارسات الطبية في أوربا كانت على مستوى مبتدىء جدا قبل ظهور التأثيرات العربية . وهناك وصف مشهور جدا للمعالجات الطبية الاوروبية البدائية أورده كاتب عربى هو اسامة بن منقذ . تلك المعالجات الفجة التى قام بها طبيب افرنجى أدت الى وفاة شخصين هما فارس وامرأة[1] . هكذا كان الطب الاوروبى ضعيفا .

ولم تعرف أوروبا المستشفيات . وان ما ذكر لمستشفى الرهبان فى القرن السابع لم يكن سوى مأوى لتجهيز مستلزمات المبيت والمنام ، اكثر من كونه مؤسسة تتعهد باعطاء العلاج . وان أول تأسيس للمستشفيات عند الاوروبيين كان عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م وهى دون المستشفيات العربية في أمور كثيرة منها فقدانها لردهات متخصصة للأمراض ولزيارات الأطباء للمرضى فى المستشفيات . وان اول ذكر لمستشفى بطبيب مقيم كان عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م فى ستراسبورغ . وهناك ممارسة عربية اخرى فى الطب لم تمارس فى اوربا قبل عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م ، تلك هى التدريس السريرى للطلبة فى المستشفيات[2] .

حفلت صقلية بكثير من الاطباء العرب فى العهد العربى والنورماندى - والهوهنشتافنى والانجوى ، فمن الذين برزوا فى العهد العربى ابو عبدالله الصقلى الذى ساهم فى ترجمة كتاب الحشائش المصور لديوسقوريدس[3] من اليونانية الى العربية فى قرطبة سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م ايام الخليفة عبدالرحمن الناصر ، وكان ابو عبدالله الصقلى هذا يقرأ ويتكلم اللغة اليونانية وعارفا باسماء الادوية[4] . ومن هؤلاء الاطباء الصقليين ابو عبدالله محمد بن الحسن بن الطوبى (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) . الذى ذكره الاصفهانى نقلا عن ابن القطاع الصقلى[5] ، وممن قرأ الطب في

صقلية علي بن ابراهيم بن الحسن بن علي المعروف بابن المعلم (ت ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م)[٦] ، ومن الاطباء الصقليين ابو الحسن على بن حسين بن ابى الدار الصقلى ابن عمة وزوج اخت الصقلى اشهر شعراء صقلية فى العهد العربى . وقد وصفه ابن حمديس ، بان « بقراط دونه معرفة طبية وفكرة حسبية »[٧] . والامام الفقيه المالكى المازرى ـ نسبة الى مدينة مازر بصقلية ـ كان ايضا قد درس الطب وله كتاب فيه . وكذلك كان يتعرض لقضايا طبية فى كتابه « المعلم بفوائد مسلم[٨] .

ويقول ابن مكى الصقلى (ت ٥٠١ هـ/١١٠٧ م) فى كتابه « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » انه اراد من تأليفه هذا الكتاب ان يصحح الاخطاء اللغوية التى شاعت بين العامة والخاصة فى بلده صقلية وسمعها من أفواههم فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ، فافرد بابا فى غلط اهل الطب فى صقلية ضم طائفة من المصطلحات واسماء العقاقير والادوية المفردة والمركبة واسماء الامراض واسماء بعض الاطباء .. الخ[٩] .

ونبغ اطباء عرب صقليون فى العصر النورماندى منهم الجغرافى المشهور الشريف الادريسى الصقلى (٤٩٣هـ/١١٠٠م) صاحب « نزهة المشتاق فى اختراق الافاق » « الذى اهداه للملك روجار الثانى (٥٠٦ ـ ٥٤٩هـ/ ـ ١١١٢ ـ ١١٥٤م) وله فى ذلك مصنفات فى النبات والاعشاب منها » جامع الصفات لاشتات النبات » درس فيه كثيرا من النباتات وخاصياتها العلاجية وكتاب « الادوية المفردة » .

وهنالك قائمة بأسماء اطباء صقليين عاشوا بعد الادريسى وبعضهم من اقاربه ولكن لا نعلم هل جميعهم عاشوا فى صقلية او عاشوا يوما ما فى صقلية ، ام انهم كانوا يحملون لقب الصقلى فقط وعاشوا خارج صقلية وبالاخص فى تونس . نذكر من هؤلاء الطبيب الحاج عبدالسلام بن ابراهيم الشريف الصقلى المتوفى بتونس (٧٢٢هـ/١٣٢٢م) وظهر طبيب صقلى آخر هو احمد بن عبدالسلام الشريف الصقلى (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م) . وله كتاب مخطوط فى مكتبة ليدن بعنوان « كتاب الاطباء فى الامراض من الفرق الى القدم[١٠] .

ونبغ طبيب من الأدارسة الصقليين ايضا فى تونس اسمه محمد الشريف الصقلى الذى الف كتابين الاول فى الطب سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م والثانى فى الصيدلة ذكر به الخصائص الضرورية لكل من يريد تعاطى مهنة الطب فقال « يجب ان يكون ذا ثقة وشديد الحذر يخاف الله وعباده » .

وهنا ينبغى ان اورد من توصياته القيمة فى الطب لابنائه وتلاميذه « اعلم يابنى ان من يتعاطى الصناعة عليه ان يتعلق بمبدأ راسخ ثابت لن يفارق ذهنه وهو ان يريد لغيره ما يريد لنفسه وقال : « فلا تحقرن ادنى الاخطاء فالامطار الهاطلة تبدأ قطرة قطرة وكذلك فاعلم يا بنى انه ليس هناك جريمة اشنع من غش الناس واستغلال ثرواتهم واموالهم وخاصة البائسين الذين يتألمون والذين يعوزهم العقل والقوة فالبائس المسكين يحتمى بعلمك لتزيل عنه آلامه وتخط له وصفة الدواء فيضع كل اماله فى تلك الورقة معتقدا ان ما تحتوى عليه سيشفيه بعون الله فالصيدلى يفوض امره لك وله ويسلم الادوية . ولكن كم يكون تصرفك خاطئا ان تصرفت بدون دراية وكم تكون مسئوليتك عظيمة ، فلو كنت مكان المريض اكنت تحب ان تعامل هذه المعاملة فيلعب بصحتك وتختلس اموالك » صدقنى يا بنى وكن فطنا وحذار لان غلطاتك تصبح من اخطر الاخطاء امام الله » « وان هذه الكلمات كافية لكل رجل فلا اضيف عليها شيئا فلتكن نصب عينيك كل يوم من الصباح الى المساء فلا تنساها ابدا[١١] » .

وفى اواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادى برز طبيب صقلى آخر هو ابوسعيد بن ابراهيم الصقلى الذى ترك لنا كتابا فى الطب عنوانه « كتاب المنجح فى التداوى من صنوف الامراض والشكاوى » ، توجد منه نسختان احداهما فى المكتبة الوطنية فى باريس

والاخرى فى مكتبة بودليانا[١٢] .

وقد ساهم اطباء بلرم[١٣] فى نمو مدرسة الطب فى سالرنو[١٤] ، وهي مدرسة يكتنف الغموض تاريخ تأسيسها[١٥] وقد بدأت ترجمة المؤلفات الطبية من العربية في ايطاليا الى اللاتينية منذ القرن الخامس عشر الهجرى / الحادى عشر الميلادى لفائدة مدرسة الطب في سالرنو أو لغرض آخر . وكان من أوائل المترجمين قسطنطين الافريقى[١٦] وهو من اصل عربى ولد فى مدينة قرطاجة بتونس عام ٤١١هـ/ ١٠٢٠م[١٧] . ودرس الطب والفلسفة واغرم بالحكماء والفلاسفة المسلمين الذين ذاع صيتهم فى بلاد الاندلس وقام برحلات الى الشرق من اجل الدراسة فاتقن اللغة العربية . وظل فى بغداد مدة طويلة ثم شد الرحال الى الهند والحبشة ورحل الى خراسان والشام ومصر ، وعاد من رحلته الى بلاده عن طريق مصر . وقد تعرف خلال هذه الرحلات الطويلة على الشرق كأى عالم شرقي . والامر الذى ينبغى الالتفات اليه انه كان معاصرا لابن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) والبيرونى (ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) وابن بطلان (ت ٤٤٤هـ/١٠٥٢م) ولم يذكر قسطنطين الافريقى فى مؤلفاته هؤلاء الاعلام لذا لا نعلم هل اتصل بهم وافاد منهم مباشرة أولا[١٨] . لقد مر هذا العربى التونسى المتنصر بمدينة سالرنو قبل ان يترهب فى الدير الشهير المسمى بدير (مونت كاسينو) فى (كامباينا) . وفيها شرع بالترجمة حوالى العام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م الى ان وافاه الاجل سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م[١٩] .

ففى مونت كاسينو القريبة من سالرنو ترجم الى اللاتينية عددا كبيرا من الكتب الطبية العربية وكذلك اليونانية الى اللاتينية وينسب له اربعون اثرا[٢٠] .

وضمن مجموعة المؤلفات التى نقلها قسطنطين الافريقى الى اللاتينية للمدرسة الطبية فى سالرنو كتاب « كامل الصناعة الطبية » او الكتاب الملكى لمؤلفه على بن عباس وعرف عنوان الكتاب باللاتينية بـ (Liber rogius)ومؤلفه بـ Haly filius Abbas[٢١] وظهرت بعنوان كتاب الكليات (Liber pantegni) ومعها كتب لابن الجزار (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) واسحق بن عمران واسحق بن سليمان وثلاثتهم من اطباء تونس موطن قسطنطين الاصلى . وكان فى سالرنو تلميذ له من اصل عربى يدعى يونس الفلكى (Joanes Aflacius)ساعده فى ترجمة الكتاب الملكى . وان لاغفال قسطنطين ذكر اسماء المؤلفين الاصليين لبعض الكتب العربية تعليلات مختلفة ، ولكن ذلك لا يقلل من أهميته باعتباره اول مترجم ادخل العلم العربى الى اوربا ، وسبب انتعاش مدرسة سالرنو .

وألفت كتب طبية فى سالرنو اظهرت ان أطباءها لم يمتصوا المعلومات الحديثة العربية فقط بل تمكنوا من توسيعها . واهم مؤلفات مدرسة سالرنو هو الموجز السالرنى والنظام الصحى السالرنى الذى يبدو انه الف سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م ، وهو مقيد فى ٣٥٢ بيتا فى الاصل .

واشهر شرح لها هو شرح ارنولد فيلانوفا (٦٣٣ ـ ٧١٢هـ/ ١٢٣٥ ـ ١٣١٢م) وهو طبيب وأديب من كتالونيا اتقن اللغة العربية وترجم والف باللاتينية . واشتهر من بين طلاب سالرنو ميخائيل سكوت (٥٧١ ـ ٦٣٤هـ/ ١١٧٥ ـ ١٢٣٦م) الذى تضمنت احدى وصفاته التخدير بالاستنشاق .

وكانت اللغة العربية من بين لغات التدريس فى سالرنو . وقد عاصرت هذه المدرسة كبار الاطباء والمؤلفين العرب فعاصرت الرازى (ت ٣١١هـ/٩٢٣م) وابن الجزار (حوالى ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) وعلى بن العباس (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) وابن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) وابن رشد (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)[٢٢] .

وكانت اللغة العربية لغة العلم فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى ، وترجمات المؤلفات اليونانية من العربية الى اللاتينية سبقت ترجمتها من اليونانية مباشرة . وترجمت كتب علمية كثيرة من تواليف العرب والمسلمين وخصوصا فى ميدان الطب . وفى ايطاليا

اتصف علماء اللاتينية بروح التفانى فى دراسة العلوم والانكباب عليها وهو الروح الذى تميز به العلماء العرب ، ونهلوا من معينها . ومع ان جيرارد الكريموني (Gerardof Cremona) (٥٠٨ ـ ٥٨٣ هـ / ١١١٤ـ١١٨٧م) ينتمي الى « مدرسة طليطلة » الا انه ينبغى أن لا يعزب عن البال انه كان ايطاليا وان اهتمامه بالطب اليونانى ـ العربى بدأ فى ايطاليا وأدى الى دراساته فى الاندلس والى ترجمته لعدد وافر من الكتب من اللغة العربية[٢٣] بلغت ٧١ عنوانا « بينها ٢١ كتابا طبيا منها المنصورى للرازى والقانون لابن سينا . ويبدو ان بعضها كان من انتاج تلاميذه باشرافه ، وبعضها بالاشتراك مع غيره وخاصة مع شخص اسمه غالب وهو مستعرب[٢٤] ويذكر اسطفان (البيزى) الانطاكى :

« ان علماء الطب كانوا يوجدون فى الدرجة الاولى فى صقلية وسالرنو ، وكانوا اما من اليونان واما اشخاصا ملمين باللغة العربية وكان اطباء سالرنو ، كالاطباء العرب يجتنبون تشريح الجسم البشرى ويشرحون الحيوانات بدلا منه[٢٥] » . ومن الجدير بالذكر ان اسطفان المذكور قد درس فى سالرنو وبعد اقامة قصيرة فى صقلية ذهب الى انطاكية فى بلاد الشام عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م حيث قام بترجمة جديدة لـ « الكتاب الملكى » لعلى بن عباس . وقد حظيت هذه الترجمة بشهرة اكبر من ترجمة قسطنطين الافريقى وتحمل عنوان « الكتاب الملكى » Liber regius[٢٦] . وكانت صقلية موطنا للترجمة حيث كان فيها اضافة الى اسطفان ادلرد من باث الانجليزى (٥١٠ ـ ٥٣٧هـ/ سنة ١١١٦ ـ ١١٤٢م). وميخائيل سكوت (٦٣٤ه/١٢٣٦م) السابق ذكره والذى ترجم بعض الكتب للملك فردريك الثانى من بينها كتب ابن رشد . غيرهم من المترجمين[٢٧] .

والمعروف ان من كبار المؤلفين فى الطب ابن رشد (المعروف لدى الغرب باسم (افيرونس) والذى ترجم كتابه المشهور فى الطب (الكليات) الى اللاتينية باسم Colliget على يد رجل لم يعرف الا بهذه الترجمة يدعى بوناكوزا (bona Cosa) وذلك فى مدينة بادوا بايطاليا عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م[٢٨] ووصل الى صقلية فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى طبيب مسلم اسمه تقى الدين[٢٩] . وكان الامبراطور فردريك الثانى مهتما بالطب وعلم الحيوان وترجم له ميخائيل سكوت ، وثيودور الانطاكى كتبا فى علم الحيوان[٣٠] ، وانشأ فى مدرسة الطب بسالرنو أول قسم للتشريح فى اوربا[٣١] . وفى سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م ترجم بارافيكيوس فى مدينة البندقية كتاب التيسير لأبن زهر الاندلسى[٣٢] . لا بل ان شارل انجو ملك نابولى بايطاليا (٦٢٣ ـ ٦٨٤هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٢٨٥م) الذى انهى ، مع ابنه حكم اسرة هوهنشتافن فى صقلية والمستوطنة العربية الاسلامية فى لوشيرة بايطالية ، ينسب اليه مع ذلك رعاية الترجمة التى اعدها لكتاب الرازى الطبى الموسوعى وهو كتاب الحاوى المسمى باللاتينية (Continens) فرج بن سالم الجرجنتى من مدينة جرجنت بصقلية سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، واضاف شرحا للجزء التاسع من الكتاب فرارى داكرادو الاستاذ فى مدينة بافيا ، وكان متبصرا فى العلوم الطبية العربية ويقال انه اول كتاب طبى موسوعى يتم طبعه[٣٣] .

ومن الكتب الطبية العربية التى ترجمت الى اللغة اللاتينية بواسطة المؤسسة التى اسسها شارل انجو المذكور والتى تضم المترجمين والمصلحين ـ كتاب « تقويم الابدان[٣٤] لابن جزلة[٣٥] .

ويذكر احد الاخصائيين ان عدد المراجع فى المؤلفات الاوروبية الاولى يوضح توضيحا حاسما بأن تأثير العرب كان أكبر بكثير من الاغريق . ففى كتاب فيرارى داكرادو المذكور مثلا أشار لابن سينا اكثر من ثلاثة الاف مرة وللرازى وجالينوس الف مرة لكل منهما وأشار الى ابوقراط مائة مرة فقط . وباختصار لم يكن الطب الاوربى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الا امتدادا للطب العربى او اكثر من ذلك بقليل[٣٦] .

المصـــادر

○ ابن ابى اصيبعة (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) ابو العباس احمد بن القاسم بن خليفة السعدى الخزرجي .
١ - « عيون الانباء فى طبقات الاطباء» المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٣٠٠هـ احمد ، عزيز .
٢ - « تاريخ صقلية الاسلامية » نقله الى العربية الدكتور امين توفيق الطيبى ، نشر الدار العربية للكتاب ، تونس - ليبيا ١٩٨٠
○ ارنولد توماس (باشرافه)
٣ - « تراث الاسلام » عربه جرجيس فتح الله ، الطبعة الثانية ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٢ .
○ الاصفهانى (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) ابو عبدالله محمد بن محمد بن حامد المعروف بالعماد الكاتب .
٤ - « خريدة القصر وجريدة العصر » قسم شعراء المغرب
تحقيق محمد المرزوقى ومحمد العروسى المطوى والجيلانى بن الحاج يحيى ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٦
○ أمارى ، ميخائيل (جمع وتحقيق)
٥ - « المكتبة العربية الصقلية » نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع » ليبسك ، ١٨٥٧م اعادت طبعة بالاوفسيت . مكتبة المثنى ببغداد
○ اولكن ، حلمى ضياء .
٦ - « نقلة التراث الاسلامى او المترجمون من العربية الى اللاتينية » ترجمه د . حسين على الداقوقى (مخطوط تحت الطبع)
○ اولمان ، مانفريد .
٧ - « الطب الاسلامى » ترجمة الدكتور يوسف الكيلانى ، مطابع الهدف ، الكويت ، ١٩٨١ جلال مظهر
٨ - « الحضارة الاسلامية اساس التقدم العلمى الحديث » (نشر مركز كتب الشرق الاوسط) مطبعة مخيمر ، القاهرة ، ١٩٦٩
○ حاجى خليفة (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجى خليفة وبكاتب جلبى
٩ - « كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون » تصحيح وتعليق محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكة الكليسى ، طبع وكالة المعارف ، استانبول / ١٣٦٠ - ١٣٦٢هـ/ ١٩٤١ - ١٩٤٣م ، مجلدان .
○ حامد زيان غانم .
١٠ - « تاريخ الحضارة الاسلامية فى صقلية وأثرها على اوربا » دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٧
○ حسن حسين عبدالوهاب
١١ - « الامام المازرى » دار الكتب الشرقية تونس ، ١٩٥٥م .
○ ابن حمديس (ت ٥٢٧هـ/١١٣٢م) عبدالجبار بن محمد بن بكر بن حمديس الصقلى .
١٢ - « ديوان ابن حمديس » تحقيق الدكتور احسان عباس دار صادر - دار بيروت ، بيروت ١٣٧٩ه - ١٩٦٠م .
○ سليم عمار
١٣ - « عائلة الاطباء الصقليين » مجلة الحياة الثقافية ، تونس العدد ١٦ - ١٧
○ شاخت وبوزورث
١٤ - « تراث الاسلام » ترجمة د . حسين مؤنس واحسان صدقى العمد ، القسم الثالث (سلسلة عالم المعرفة - ١٢ -) الكويت ، ١٩٧٨
○ عمر رضا كحالة
١٥ - « معجم المؤلفين » نشر مكتبة المثنى ودار احياء التراث العربى ، بيروت عياض (ت ٥٤٤ه/ ١١٤٩م) عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى
١٦ - « الغنية فهرست شيوخ القاضى عياض » تحقيق محمد بن عبدالكريم ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، ١٩٧٩ .
○ ابن فرحون (ت ٧٩٩ه/١٣٩٦م) برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد اليعمرى المدنى .
١٧ - « الديباج المذهب فى معرفة اعيان علماء المذهب » تحقيق الدكتور محمد الاحمدى ابو النور (نشر دار التراث) مطبعة دار النصر للطباعة ، القاهرة ، ٩٧٢ ، الجزء الاول .

○ فيصل دبدوب
١٨ ـ « مدرسة سالرنو الطبية » (مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق) مطبعة الترقى ١٩٦٦
○ القفطى (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م » على بن يوسف
١٩ ـ « انباه الرواة على انباه النحاة » تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ ـ ١٩٧٣
○ محمود الجليلى
٢٠ ـ « تأثير الطب العربى فى الطب فى القرون الوسطى والنهضة الاوروبية » مجلة المجمع العلمى العراقى م ٣٢ ج ٣ ص ٤ ص ١٨٦ ـ ٢١٠
○ ابن مكى (ت٥٠١هـ/١١٠٨م) عمر بن خلف الصقلى
٢١ ـ « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » تحقيق الدكتور عبدالعزيز مطر مطابع شركة الاعلانات الشرقية القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .
○ ابن منقد (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) اسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى
٢٢ ـ « الاعتبار » حرره فيليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون الولايات المتحدة ١٩٣٠ واط ، و . مونتكمرى
٢٣ ـ « تأثير الاسلام على اوربا فى العصور الوسطى » ترجمة الدكتور عادل نجم عبو ، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر بجامعة الموصل ، الموصل ، ١٩٨٢م
24 — Encyclopaedia Britanica, vol. 6, (Canstantine The African).

الهــوامش

(١) اسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٣١ ـ ٣٣ مونتكمرى واط، تأثير الاسلام على اوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة د. عادل نجم عبو ، ص ١٠٥ ، حامد زيان غانم ، تاريخ الحضارة الاسلامية فى صقلية وأثرها على أوربا ، ١٣١

(٢) مونتكمرى واط، تأثير الاسلام على اوروبا فى العصور الوسطى ص ١٠٦، ١٠٧

(٣) ديو سقوريدس: طبيب وعالم طبيعي وعشاب يوناني عاش فى القرن الاول الميلادى، وقد ولد فى بلدة عين زربة قرب طرسوس جنوب اسيا الصغرى ويعرف ايضا كتابة المذكور اعلاه بكتاب (الادوية المفردة). راجع شاخت وبوزورث، تراث الاسلام، ج ٣ ص ١١٩.

(٤) ابن ابى اصيبعة، عيون الانباء فى طبقات الاطباء، ج ٣ ص ٧٥ ـ ٧٧

(٥) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب، تونس ج ١ ص ٥٥

(٦) القفطى، أنباه الرواة على أنباه النحاة، ج٢، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١

(٧) ابن حمد يس، ديوانه، ص ٣، ص ٣٤، ص ١٢٣

(٨) عياض، الفقيه، ص ١٣٣، ابن فرحون، الديباج المذهب، ج ١ ص ٢٥١، حسن حسنى عبدالوهاب: المازرى، ص ٦٨ ـ ٦٩

(٩) ابن مكى، تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، ص ٢٧١ـ ٢٧٣

(١٠) امارى، المكتبة العربية الصقلية، ص ٦٩٧، عمر رضا كحالة معجم المؤلفين، ج١ ص ٢٧٣

(١١) سليم عمار، عائلة الاطباء الصقليين بتونس، مجلة الحياة الثقافية، تونس، العدد ١٦ـ ١٧ ص ٢٥ نقلا عن المخطوط المذكور اعلاه

(١٢) امارى، المكتبة العربية الصقلية، ص ٦٩٤

(١٣) تقع مدينة سالرنو الايطالية فى رأس خليج سالرنو فى البحر المتوسط على بعد ٣٠ ميلا من مدينة نابولى من جنوب شرقيها، وتقع على الخليج نفسه مدينة امالفى. انظر فيصل دبدوب، مدرسة سالرنو الطبية، ص ٤

(١٤) عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية، ص 102 — 301 Encyclopaedia Britanica Vol. 6

(١٥) مونتكمرى واط، تأثير الاسلام على اوروبا فى العصور الوسطى، ص ١٠٥، عزيز احمد، المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(١٦) عزيز احمد، تاريخ صقلية الاسلامية، ص ١٠٢

(١٧) وقيل انه نشأ وترعرع فى صقلية بدليل اتقانه اللغة العربية التى كانت سائدة فى صقلية ولمعرفته معرفة حسنة لليونانية واللاتينية اللتين كانتا بجانب اللغة العربية هناك. انظر الصفحة نفسها من دائرة المعارف البريطانية.

(١٨) حلمى ضياء أولكن، نقلة التراث الاسلامى او المترجمون من العربية الى اللاتينية ترجمة د. حسين علي الداقوقي «مخطوط تحت الطبع، ص ١

(١٩) تراث الاسلام، بأشراف ارنولد، ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

(٢٠) محمود الجليلى، تأثير الطب العربى فى الطب الاوروبى، مجلة المجمع العلمى العراقى، (م ٢ ـ ٣، ج ٣ ـ ٤ ، ص ١٩٤

(٢١) تراث الاسلام (الجديد) الترجمة العربية، ج ٣، ص ١٢٣

(٢٢) محمود الجليلى، تأثير الطب العربى فى الطب الاوروبى، ص ١٩٤ ـ ١٩٥

(٢٣) عزيز احمد، تاريخ صقلية الاسلامية، ص ١٠١

(٢٤) محمود الجليلى، تأثير الطب العربى فى الطب الاوروبى، ص ١٩٧

(٢٥) عزيز احمد، تاريخ صقلية الاسلامية، ص ١١٢

(٢٦) اولمان، الطب الاسلامى، ص ١٠٥

(٢٧) محمود الجليلى، تأثير الطب العربى فى الطب الاوروبى، ص ١٩٧

(٢٨) تراث الاسلام (الجديد) ج ٣، ص ١٢٥، عزيز احمد، تاريخ صقلية، الاسلامية، ص ١٠٢.

(٢٩) عزيز احمد، تاريخ صقلية الاسلامية، ص ١٠٢

(٣٠) تراث الاسلام الجديد عزيز احمد، تاريخ الصقلية الاسلامية ص ١٠٣

(٣١) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٠٥، جلال، مظهر، الحضارة الاسلامية اساس التقدم العلمى الحديث ص ٧٨

(٣٤) محمود الجليلى ، تأثير الطب العربى فى الطب الاوروبى، ص ١٩٧

(٣٥) هو علي بن عيسى بن جزلة البغدادى كان نصرانيا فاسلم توفى سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م له كتابان احدهما المذكور اعلاه واسمه بالكامل «تقويم الابدان فى تدبير الانسان والثانى هو «منهاج البيان فيما يستعمله الانسان من الادوية المفردة والمركبة» انظر حاجى خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٤٦٧، ج ٢، ص ٨٧٠

(٣٦) مونتكمرى واط، تأثير الاسلام على اوروبا فى العصور الوسطى، ص ١٠٨، جلال مظهر الحضارة الاسلامية، اساس التقدم العلمى الحديث، ص ٧٩

الشرطة في العراق خلال العصر العباسي الأول

د . دريد عبدالقادر نوري
كلية الآداب / جامعة الموصل

الشرطة قسم من اقسام الجيش، تنحصر واجباتها فى العمل داخل الدولة ولها تأثير واضح فى سير الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كما سنوضح ذلك تباعا، ودراسة تاريخ الشرطة وتقصى الحقائق المتعلقة بها هو جزء من الاهتمام بالتراث الحضارى للامة العربية الاسلامية وخاصة ما يتعلق بالجوانب العسكرية منها.

ولو استقرأنا ما كتب عن الجيش العربي الاسلامي، فى عصوره المختلفة حتى سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ، لوجدنا الكثير، سواء ما جاء بشكل مباشر، او ما كتب هنا وهناك بين ثنايا السطور عند الحديث عن الجوانب السياسية والعسكرية لمختلف العصور والتى شغلت حيزا كبيرا فى كل مصادر التاريخ العربى الاسلامى.

اما ما كتب عن الشرطة بالرغم من اهمية هذا الجهاز - فقد كان قليلا جدا وبشكل مقتضب للغاية اذا ما قورن بالمواد التاريخية الاخرى وبخاصة مواد النظم حتى لا نكاد نرى عن هذا الموضوع سوى كلمات فقط وربما يكتفى المؤرخ بالاشارة الى أن صاحب الشرطة فلان من الخلفاء الأمويين أو العباسيين كان فلانا بن فلان أو يكتفي بالقول أن الخليفة العباسى المنصور عزل صاحب شرطته وعين بدلا منه شخصا آخر ثم يسميه.

وعليه فمادة الشرطة جاءت مختصرة واشير اليها احيانا دونما تعمد فلم يفرد لها احد من مؤرخينا القدامى فصلا مستقلا سوى ابن خلدون فى مقدمته وكانت مادته، وبشكل غير متوقع، مختصرة للغاية لا تغنى الباحث المعاصر شيئا.

فلم يتحدث ابن خلدون ولا غيره من المؤرخين عن نظام الشرطة ولا عن طبقاتهم وصفاتهم ولا عن علاقة صاحب الشرطة بالخليفة او الوزراء ولا عن رواتب الشرطة، وكانت معظم اشاراتهم موزعة بين ثنايا السطور او عند الحديث عن مقدرة بعض الخلفاء او عن سيطرتهم على شؤون الدولة وتمكنهم من القضاء على المتمردين او اللصوص داخل البلد وفى كثير من الاحيان يتطلب الأمر من الباحث ان يعمد الى الاجتهاد والتحليل الداخلى والخارجى للرواية والقصص الادبية

التى كانت سائدة انذاك من اجل الوصول الى بعض الحقائق المطلوبة عن صاحب الشرطة.

ومن خلال تتبعى للمصادر القديمة لم اجد، بعد ابن خلدون، من تحدث عن الشرطة بشكل مباشر سوى ابو الحسين اسحاق بن ابراهيم الكاتب فى كتابه (البرهان فى وجوه البيان) وما ذكره احمد بن ابى الربيع فى كتابه (سلوك الملوك فى تدبير الممالك). وكانت مادة هذين الكتابين تنحصر فى الحديث عن صاحب الشرطة والميزات الواجب توفرها فيه.

اما ما جاء فى المراجع الحديثة عن الشرطة فيكاد ينحصر بشكل عام فى كتب النظم وكانت المادة فيها لا تتجاوز بضع الصفحات وهى بشكل عام متشابه لا جديد فيها تتحدث عن معنى الشرطة وتطورها عبر العصور الاسلامية بشكل سريع [١] من غير الالتفات الى نظام الشرطة واهميته وعلاقة مسؤول الشرطة بالسلطة المركزية كما لم تتحدث عن دور الشرطة فى تتبع المجرمين، اضافة الى عدم تحدثها عن صفات صاحب الشرطة بشكل مفصل ولا عن علاقته بعامة الناس ولا عن دوره فى تتبع الخارجين على الدولة كما لم تتحدث ايضا عن وسائل الردع وكيفية عقوبة الجناة والبغاة على اختلاف اصنافهم داخل المجتمع مما سيجده القارىء فى بحثنا هذا وبشكل مرتب ومفصل.

كذلك ورد فى بعض المجلات العربية العديد من البحوث والمقالات عن الشرطة العربية. وعلى الرغم من اهمية تلك البحوث وجرأة اصحابها فى اقتحام هذا الموضوع الا ان بعضا منها تحدث عن الشرطة منذ ابتدائها وحتى انتهائها بما لا يتجاوز الخمس الصفحات مما يدل ان استقراءهم الموضوع كان ناقصا[٢] واحيانا تطرقت بعض البحوث الى دراسة احد رجالات اصحاب الشرط ممن كان له اثر واضح فى مجال الادب العربى وبالخصوص الشعر، وعليه فان اهتمام صاحب المقال انصب فى الحديث عن ادب صاحب الشرطة وليس عن الشرطة، كما اهتمت بعض تلك البحوث بدراسة طبقات اصحاب الشرط فانكب مؤلفوها على ذكر اسماء اصحاب الشرطة الذين تولوا منصب الشرطة خلال الدولة العربية الاسلامية منذ بدايتها وحتى سقوط بغداد مؤكدين على تسجيل ولاية كل مدير للشرطة. وكان خير من كتب فى هذا المضمار هو الدكتور كامل مصطفى الشيبى[٣] الذى جاء بحثه مزودا بالعديد من المصادر المهمة التى اعتمدها الباحث والتى افادتنى من غير شك فى تتبع العديد من الروايات والوقوف على حقيقتها. كما ان معرفة صاحب شرطة كل خليفة والمصادر التى تشير اليه له اهميته ودلالاته الواضحة فى الوصول الى الكثير من الحقائق المتعلقة بالشرطة عن طريق تتبع حياة صاحب الشرطة فى المصادر التاريخية وكتب الطبقات.

اما خير من كتب عن تاريخ الشرطة خلال العصر العباسى فهو الاستاذ قحطان عبد الستار الحديثى والذى تطرق فى بحثه الى الحديث عن (تنظيمات الشرطة)[٤] وكانت مادته التاريخية جيدة وتميز بحثه بالروية والدقة فالباحث كما يبدو قد اجتهد كثيرا فى تحليل النصوص التاريخية وتوصل منها الى العديد من الاراء فيما يخص تنظيمات الشرطة، غير ان بحثه هذا لم يوف بالغرض المطلوب وما قدمه عن صاحب الشرطة وصفاته وعلاقته بالخليفة والوزير وكيفية معاقبته للجناة يكاد يكون مقتضبا للغاية، كما لم يقدم لنا شيئا عن قوانين الشرطة وانظمتها ووسائل الردع لديها. علما بأن معظم نصوص البحث ومادته تتفق والعصر العباسى الثانى.

وعليه فان مادة بحثى هذا جاءت وبشكل واضح أشمل للموضوع من جوانبه العديدة قياسا بما سبقه من البحوث، وابتداء من معنى الكلمة وانتهاء بوسائل الردع التى يستخدمها صاحب الشرطة، علما بأن البحث تطرق الى ذكر العديد من المسائل الفقهية والقانونية المتعلقة بنظام الشرطة بالاضافة الى الجوانب التاريخية

والعملية. ومما يجدر ذكره هنا ان الباحث لا يدعى كمال بحثه ويرجو ان يكون موفيا بالغرض المطلوب مما هو شأن الباحثين يكمل بعضهم بعضا من اجل اكمال بناء تاريخ هذه الامة بشكل يتناسب والواقع. فاللبنة الجديدة فى البنيان الجديد هى من غير شك لا تعمل على هدم اللبنات القديمة انما تكملها من اجل سد الثغرات الموجودة دفعا لعملية اكمال البناء لا هدما له لانه لولا اللبنات القديمة لوقع البناء ولتطلب من البناء (وهو المؤرخ) ان يبدأ من نقطة الصفر، وعندها لا يكون تاريخا وانما ادبا.

وعليه فان بحثى هذا، وبعد استقراء العديد من المصادر القديمة ذات العلاقة، قد خلص بموضوعات عديدة متعلقة بموضوع الشرطة فى العراق فى العصر العباسى الاول وهذه الموضوعات هى: مفهوم كلمة الشرطة ودلالات الكلمة تاريخيا وقد تبين ايضا ان كلمة الشرطة اسم لمكان واسم لقبيلة، وصفة لفصائل الامن الذين يحملون اشارات معينة[٥] كذلك تطرق البحث الى نشأة الشرطة واهمية هذه الفصائل فى حفظ أمن الدولة بالاضافة الى الحديث عن صاحب الشرطة (وهو مدير الشرطة) واهميته وصفاته وكبر منصبه وموكبه وكاتبه وعمله الادارى فى قراءة تقارير الشرطة يوميا، بالاضافة الى عمله العملى فى تتبع المجرمين واللصوص والخارجين على الدولة ومحاولة القاء القبض عليهم من اجل استتباب الامن والنظام داخل الدولة بالاضافة الى اقامة الحدود الشرعية.

كذلك قدم البحث مادة جيدة عن علاقة صاحب الشرطة بالخليفة والوزير وعلاقته بالشعب وبالقضاء. كما اوضح البحث تفصيلات جيدة عن اقسام الشرطة التى تبدأ بأصحاب الشرطة وتنتهى بالافراد وبينهما الحرس الليلى (الطواف) والمخبرون والكتاب والحرس الخاص للخلفاء والامراء والوزراء وحرس السجون، بالاضافة الى شرطة الامن والمراقبة الذين يراقبون احوال المدينة وابوابها وخاناتها والمناطق المهمة فى المدينة من اجل الوقوف على حقيقة الخارجين والغرباء وما يتعلق بأمن الدولة.

واخيرا قدم البحث مادة وافية عن الشروط الشرعية والفقهية الواجب توفرها فى صاحب الشرطة. بالاضافة الى ماهية وسائل الردع التى كان يستخدمها الشرطة فى معاقبة البغاة والخارجين على الدولة كما قدم البحث عرضا للوسائل الشرعية التى يستخدمها صاحب الشرطة فى كشفه للجريمة او لاستبراء المتهم.

مفهوم كلمة الشرطة:

تعنى الشرطة فى مفهومها الشامل من الوجهة النظرية «النزاهة» لان المتولين لها يجب ان يكونوا بمقام معين من الاخلاق بحيث تمكنهم من تتبع المخالفين والمنحرفين، ولا يكون هذا الا للمستقيمين، لانه لا يجوز للمنحرف ان يراقب استقامة المستقيم، والعكس صحيح.

وقد عرفت كلمة (الشرطة) بمعنى اوائل الشىء ومنه اشرط اليه رسولا، اذا قدمه واعجله، ويقال: افرطه واشرطه، ثم اطلقت الكلمة على شرطة الحرب الذين هم اول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت، فهم رأس الجيش ومقدمته[٦] فهم فى الاصل:[٧] الرجال المختارون الذين يبدأون القتال او الحرس الخصوصيون ثم استخدم اللفظ بمعنى رجل الامن الموكل اليه حفظ الامن والمحافظة على النظام[٨].

وقد وردت الكلمة (بفتح الراء) بمعنى العلامة. والشرط رذال المال والاشراط الأرذال، ويقال الغنم أشراط المال واشرط من ابلة: اذا اعد منها شيئا للبيع. واشرط فلان نفسه لامر كذا، اى اعلمها له واعدها، ومنه سمى الواحد شرطة وشرطى[٩] لانهم كانت لهم علامات اعلموا بها انفسهم ليعرفوا بها.[١٠] وقيل انما اشتق اسم الشرطة من زيه «لان من زى اصحاب الشرط نصب الاعلام على مجالس الشرطة، والأشراط هى الاعلام. ومنه قيل: اشراط الساعة اى اعلامها ودلائلها. فلما دل صاحب الشرطة على

نفسه بالاعلام التى نصبها على موضع قعوده سمى بذلك»[١١].

وقيل انما سميت هذه الفصيلة من الجيش بالشرطة لتميز ملابسها بعلامات خاصة، لا بسبب الاعلام على مكان جلوس صاحب الشرطة وقد ورد عن الجاحظ قوله: ان «لكل قوم زى.. وللشرط زى».[١٢]

إذن للشرطة زيّ خاص واعلام خاصة تنصب على موضع جلوس صاحب الشرطة ومنه جاءت الكلمة. وقد قيل ان شرطة الخميس، هم الذين كانوا مع الخليفة الرابع علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) والذين انفصلوا عن الجيش وشهروا انفسهم من بين سائر الجيش بالتبعية له والقتال معه فصاروا اعلاما في ذلك وسمّو بشرطة الخميس[١٣].

مما سبق يبدو ان هذه الفصيلة من الجيش، المكلفة بالواجبات الداخلية داخل الدولة، سميت بالشرطة اما لكونها الفصيلة المختارة التى تكون فى مقدمة الجيش وتتهيأ للموت قبل غيرها لنبلها وصدقها واخلاصها، او لانها كانت تتميز عن بقية القوم بملابس خاصة ووجود علامات فارقة عليها وربما لكون مسؤولها وهو (صاحب الشرطة) كان ينصب له اعلاما مميزة فى موضع جلوسه.

ومما يجدر ذكره فى هذا الخصوص ان كلمة الشرطة وردت فى بعض مصادرنا التاريخية ودلت على اسم لمكان او اسم لفصيلة من فصائل البربر فى شمال افريقيا. فقد ذكر ابن خلدون قوله: «واما بطون صنهاجة فكثيرة فمنهم بلكانة وانجفة وشرطة ولمتونة.. وهم اهل مدر ومواطنهم الصحراء».[١٤] اى ان الشرطة هم فصيلة من فصائل صنهاجة البربرية التى كانت تسكن الصحراء.

كذلك ذكر الطبرى ان الشرطة اسم لمكان قرب نهر معقل وبثق شيرين فى جنوب العراق كان يستخدمه الزنج فى هجماتهم ضد العباسيين ليخرجوا من وراء العسكر فيكبوا على طرفيه.[١٥]

الاسباب الموجبة لظهور الشرطة:

اولا: حراسة كبار رجال الدولة والحفاظ على حياتهم وأمنهم. وقد حدث مثل هذا الامر منذ حياة الرسول محمد (ص) الذى كان يختار احد صحابته لحراسته من مكايد اليهود والمشركين[١٦]. وقد تطور هذا الامر فيما بعد واصبح خلفاؤه من بعده ممن اتخذ الملك العضوض ـ يبالغون فى الاكثار من الحرس الشخصى الذى اصبحت مهمته ليس حماية الحاكم ـ رئيس الدولة فحسب، وانما حماية كل اقربائه ومقربيه، وذلك لما استجد فى الدولة من عصبيات وافكار دفعت مؤيديها الى التكتل من أجل الوصول الى السلطة والقضاء على الخصوم مما دفع بالولاة للمبالغة فى الحماية الذاتية من اجل دفع المخاطر المحتملة[١٧].

ثانيا: حراسة وحماية مؤسسات الدولة ومنظماتها الادارية من يد العابثين واللصوص وما اليهم من المنحرفين والخارجين على النظام والقانون اذ لابد لدواوين الدولة من الحراسة، كما لابد لخزينة بيت المال والسلاح من رجال يقومون بحراستها[١٨].

ثالثا: حماية السكان من يد العابثين ليلا ونهارا، اذ لابد ان يتفرغ قسم من السكان لحماية الاكثرية التى تجنح الى مكان الاستقرار وتطلب الامن فى دورها ومدنها ودولها. وهؤلاء القلة المختارة للحماية هم الشرطة الذين يختارون من قبل الدولة ويعتمدون فى عيشهم عليها. من اجل القبض على الجناة والمفسدين وما الى ذلك من الاعمال التى تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم[١٩]. ولذلك اعتبرهم دوزى «ترتيب للامن وراحة للاهالى»[٢٠]. لان معظم واجبات الشرطة مخصصة لخدمة الاهالى وسلامة حياتهم وعرضهم ومالهم.

رابعا: معونة الحكام واصحاب المظالم والدواوين ـ كما يقول اسحاق بن ابراهيم الكاتب ـ فى حبس من امروه بحبسه، واطلاق من رأوا

اطلاقه واشخاص من كاتبوه بأشخاصه واخراج الايدى او اقرارها والشد عليها»[٢١] ولهذا سمى صاحب الشرطة باسم صاحب المعونة كما سنذكر تباعا.

خامسا : «النظر فى امور الجنايات، واقامة الحدود والعقوبات والتفحص عن اهل الريب والعناد والعبث والفساد وقمعهم»[٢٢] وقد وضح هذا الامر جليا فى العصر العباسى حيث انيط بالشرطة تشخيص حالات الجرائم ثم تقرير العقوبة عليها، بعد ان تعدت صلاحيات صاحب الشرطة القاضي والمحتسب[٢٣] كما سنذكره تباعا عند الحديث عن نظام الشرطة وعلاقات صاحب الشرطة بكبار مسئولى الدولة.

سادسا : العمل على تثبيت السلطة الحاكمة وتتبع الخارجين على النظام[٢٤] مما جعل الشرطة فى بعض فترات تاريخها تعتبر (اليد الحركية للسلطة) كما هى بالنسبة للقضاء (اليد التنفيذية). وهذا هو السر الذى جعل الاهالى يكرهون الشرطة فى بعض فترات الحكم الاموى والعباسى لان الشرطة كانت تستخدم القوة والبطش ضد الخارجين على الحكام ونظامهم ولذلك وصف الاهالى الشرطة بصفات ذميمة، كما سنذكر ذلك فى علاقة صاحب الشرطة بالشعب تباعا.

وهكذا اصبحت الشرطة تعنى الافراد الذين تعتمد عليهم الدولة فى استتباب الامن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما الى ذلك من الاعمال الادارية التى تكفل سلامة الشعب وحريته. اى اصبح الشرطة هم (الحفظة والمنعة). فهم حفظة الامن والنظام ومنعة البغى والعدوان. وهم اليدالتنفيذية للسلطة وللقضاء يقتصون من الظلمة على المستوى الشرعى والسياسى والاجتماعى.

فعلى المستوى الشرعى يتتبعون الخارجين على الدين وينزلون بحقهم حكم الشرع. وعلى المستوى السياسى فالشرطة تتبع الخارجين على الامام (الحاكم) العادل، والخارجين على انظمة الدولة الشرعية. اما على المستوى الاجتماعى فالشرطة يتتبعون الجناة والمجرمين الذين يظلمون الناس ويسعون فى الارض فساداً.

نشأة الشرطة وطبقات اصحاب الشرط حتى نهاية العصر العباسى الاول:

لقد كانت البدايات الاولى لظهور منصب الشرطة منذ عهد الرسول (ص) ولكن ليس بلفظ الشرطة ومعناها المارذكره، وانما ببعض اعمال ذلك المنصب كالحراسة الليلية وحفظ الامن وقد اطلق عليهم اسم «العسس»[٢٥] وهم الرجال الذين كانوا يعسّون بالمدينة ويحرسون الناس ويتبعون اهل الريب والفساق وكل من يريد افساد المدينة. وكان بعض كبار الصحابة يحرسون الرسول (ص) من الاعداء والمنافقين[٢٦].

وهناك ادلة تاريخية تثبت قيام هذه الوظيفة منذ هذه الفترة المبكرة فى تاريخ الاسلام فقد كان (ص) قبل ان يعرف بعصمته من الناس وهو قوله تعالى «والله يعصمك من الناس» يقول اذا نزل منزلا من يحرسنا الليلة. وقدروى الترمذى عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سمر رسول الله (ص) ليلة عند قدومه المدينة فقال: ليت رجلا يحرسنا الليلة، ثم كان ان قام سعد بن ابى وقاص بحراسة الرسول (ص). كذلك وقد اتخذ الرسول (ص) بديل بن ورقاء حارسا للمدينة وصاحب عسس لها وجعل معه فى ذلك اوس بن ثابت ورافع بن خديج وغيرهما. كذلك كان (ص) يقوم بنفسه بمراقبة بعض السلبيات وينهى عن الغش وكل ما يضر بمصالح المسلمين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية[٢٧].

وفى عهد ابى بكر الصديق تولى العسس عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وعبدالله بن مسعود. وفى عهد عمر كان الخليفة عمر اول خليفة يعس بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد احوالهم.

وقد روى عنه مثلا : انه جاء الى عبد الرحمن بن عوف ليلا وهو يصلى فى بيته. فقال له عبد الرحمن:

ما جاء بك يا امير المؤمنين فى هذه الساعة ؟ فقال: ان رفقة «اى جماعة» من المسلمين نزلوا ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة فانطلق نعسهم. فأتيا السوق وقعدا على نشز من الارض (مكان مرتفع) يتحدثان ويحرسانهم[٢٨].

وفى عهد عثمان بن عفان (رض) وبحدود سنة ٢٥هـ/ ٦٤٦م تولى هذا المنصب (العسس) عبدالله بن منقذ التيمى.[٢٩] وهو من قبيلة الصحابى المشهور طلحة بن عبيدالله. ويذكر انه لم تنشأ قوة للشرطة منظمة الا فى عهد الخليفة الرابع علي بن ابى طالب (رضى الله عنه) فهو الذى اوجد هيئة حراسة للمدينة سميت بالشرطة* ولقب صاحبها ب(صاحب الشرطة)[٣٠] وقد تولى هذا المنصب لديه معقل بن قيس الرباحى وكان ذلك بحدود سنة ٣٥هـ/٦٥٦م.[٣١] وفى حدود سنة ٣٨ هـ عين صاحبا للشرطة قيس بن سعد بن عبادة الانصارى، وكانت الشرطة تدعى فى عهد علي (رضى الله عنه) بشرطة الخميس[٣٢] وكانوا قسما من الجيش انشقوا منه وتبعوه وقاتلوا معه فصاروا بذلك اعلاما فقيل فى حقهم شرطة الخميس[٣٣].

وفي الفترة الاموية (من سنة ٤٠ ـ ١٣٢ هـ) وحيث توسع الجهاز الاداري في الدولة وكثرت الخلافات ، وقيام بعض الحركات الخارجية ازدادت الحاجة الى الشرطة والاهتمام بها وتولية الاكفاء والاشداء عليها من أجل ضبط الامن والنظام والعمل على استقرار الحكم الاموى الذي لاقى معارضة شديدة من جماعات مختلفة . ويذكر ان زياد بن ابيه نظم الشرطة وجعل في مدينة البصرة وحدها اربعة آلاف شخص وولى عليهم عبدالله بن حصن وشيبان بن عبدالله وكلفهم بمطاردة اللصوص والمتمردين والوقوف بحزم ضد هجمات الخوارج على البصرة[٣٤] ثم عزل اخيرا زياد بن شيبان وابقى ابن حصن على شرطة البصرة وعين على شرطة الكوفة شداد بن الهيثم الهلالي[٣٥] . ويذكر ان زياد بن ابيه كان يأمر اصحاب الشرطة ليس في تتبع المجرمين والخارجين على النظام فحسب ، وانما ايضا بفرض عقوبات زاجرة على بعض الاشخاص المشتبه بهم قبل حدوث الجرائم دفعا لوقوعها[٣٦] .

ولو تتبعنا التسلسل الزمني لخلفاء بني امية لوجدنا عشرات الاشخاص الذين تولوا منصب صاحب الشرطة . وكان بعضهم يتولى هذا المنصب مرتين أو أكثر وكان بعضهم يعزل عن منصبه ، في حين تولى هذا المنصب اشخاص حتى الوفاة وذلك لعدلهم وشدة بطشهم وقهرهم للخارجين على الولاة (كميمون مولى حوشب بن يزيد) المار ذكره من قبل[٣٧] .

ويذكر انه كان من خيرة اصحاب الشرطة لدى الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق (عبدالرحمن بن عبيد التميمي) الذي كان من الرجال الاكفاء ، ويذكر ان الحجاج عندما اراد ان يعين صاحب الشرطة لديه قال : دلوني على رجل للشرطة فقيل اي الرجال تريد ؟ فقال اريده دائم العبوس طويل الجلوس أعجف الخيالة لا يحنق فى الحق على حرة يهون عليه سؤال الاشراف فى الشفاعة . فقيل له عليك بعبدالرحمن التميمي فارسل اليه يستعمله فقال : لست أقبلها حتى تكفيني عيالك وولدك وحاشيتك : قال : يا غلام ناد في الناس من طلب اليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه . وقد ذكر الشعبي عنه فقال : والله ما رأيت قط صاحب شرطة مثلة لا يحبس الا في دين وكان اذا اتى برجل نباش حفر له قبرا ودفنه فيه حيا واذا اتى برجل قاتل بحديدة او اشهر سلاحا قطع يده وربما اقام اربعين يوما لا يؤتى اليه احد [٣٨] .

اما خلال الدولة العباسية فقد وضحت مهام متولى رئاسة الشرطة واصبح الرجل من علية القوم الذين يشار اليهم ، وكان له الدور الواضح في الحفاظ على أمن البلد والسهر على مصالح الاهالى وتزويد الخلافة باخبار البلد والولاة ولذلك اختير لهذا المنصب الرجال الاكفاء والامناء ومن مراجعة طبقات اصحاب الشرطة في العصر العباسي الاول يمكن ان نرى ان اول مدير للشرطة في العراق كان (عبدالجبار بن عبدالرحمن

الازدي) الذي تولى الشرطة في عهد ابى العباس السفاح سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م . وقد ظل متوليا لشرطة العراق حتى وفاة السفاح ثم اقره خليفته المنصور سنة ١٣٦هـ على الشرطة ايضا . ثم اعقب عبدالجبار هذا عثمان بن نهيك وابو العباس الطوسي وفي عهد المهدي سنة ١٥٨/ ٧٧٥م استعمل على رئاسة الشرطة نصر بن مالك الخزاعي حتى توفى ثم جعل من بعده اخاه عبدالله بن مالك الذي مارس هذا المنصب في عهد الخليفة الهادي ايضا . وفي ايام الرشيد سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م تولى منصب رئاسة الشرطة القاسم بن نصر بن مالك ثم من بعده خزيمة بن خازم ثم المسيب بن زهير الضبي ثم توالى على رئاسة هذا المنصب عدة رجال كان اخرهم وهب بن ابراهيم الذي سماه الرشيد (عثمان بن عفان) .

وفي عهد الامين سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م تولى هذا المنصب محمد بن المسيب بن زهير الذي نال بعد توليه الشرطة ونجاحه فيها منصب ولاية ارمينية بعد ان صير مكانه على الشرطة محمد بن حمزة بن مالك ثم جاء من بعده عبدالله بن خازم . اما في عهد المأمون سنة ١٩٨/ ٨١٣م فقد تولى الشرطة العباس بن المسيب بن زهير حتى توفى فخلفه ابو خالد البازيار ثم طاهر بن الحسين بن مصعب الذي نال ولاية خراسان بعد ادارة الشرطة وجاء من بعده اسحق بن ابراهيم بن مصعب(٣٩) .

هؤلاء هم رؤساء الشرطة ومتولوها حتى نهاية العصر العباسي الاول . ومن الجدير بالذكر ان الخليفة في العصر العباسي كان هو الذي يعين صاحب الشرطة في ولايته نظرا لاهمية المنصب وخطورته اما في الاقاليم الاخرى فكان كل وال هو الذي يعين صاحب شرطته وكثيرا ما كان الوالي هو صاحب الشرطة وكان يختار بعد نجاحه بالعديد من التجارب التي تثبت مقدرته .

اهمية منصب صاحب الشرطة :

مما سبق يبدو ان جهاز الشرطة لا يستغنى عنه في اية دولة ، كما ان مسؤول هذا المنصب وهو (صاحب الشرطة) من بين المناصب المهمة التي لا يقوم الملك الا بها . فصاحب الشرطة للخليفة او للسلطان كالسلاح له . او كالسلاح من المقاتل ، واذا فقد الحاكم صاحب الشرطة الجيد كان له كفقد المقاتل لسلاحه يوم الحرب . وكما هو واضح فلابد للملك من رجال يعتمد عليهم ، ومنهم صاحبُ الشرطة «وهم بالنسبة للملك كالاداة للصانع لا يسد بعضها مسد بعض كذلك طبقات الرجال للملك منهم للرأي والمشورة ومنهم لادارة الحرب ومنهم لجمع الاموال ومنهم لحفظها والحماية (وهم الشرطة واصحابها) ومنهم للكتابة ولا يكمل للملك ملك ما لم يجمع هذه الطبقات»(٤٠) . وقد اثر عن ابي جعفر المنصور الخليفة العباسي قوله : انه ما كان احوجه ان يكون على بابه الا اربعة نفر ، وهم اركان الملك ، قاض يحكم بالعدل ، وصاحب شرطة ينصف الضعيف ، وصاحب خراج يتقصى ولا يظلم الرعية ، وصاحب بريد يكتب بخبر السابقين(٤١) .

ووظيفة صاحب الشرطة ، كما يقول المؤرخ ابن خلدون : «وظيفة مرؤوسة لصاحب السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الاحيان وكان اصل وضعها .. لمن يقيم احكام الجرائم في حال استبدادها اولا ثم الحدود بعد استيفائها»(٤٢) ونظرا لاهمية هذا المنصب وتعدد مهامه فقد اطلق عليه احيانا الحاكم او الوالي(٤٣) او صاحب المعونة (٤٤) .

وفي العصر العباسي ، وبعد وضوح تعدد مهام متولي رئاسة الشرطة اضفى عليه اسم جديد وهو «صاحب الزنادقة»(٤٥) لانه كان من بين اكبر المهام في ذلك العصر مطاردة الزنادقة الذين كثر ظهورهم في تلك الفترة وكان منهم الخارجون على الدولة ، وكذلك الفساق والفجار واصحاب الفحش في القول وبعض الادباء الذين تطاولوا في ادبياتهم على الدين او على الاعراف . كذلك وصف اصحاب الشرطة في العصر العباسي (بالخازن) منهم يونس الخازن وهو صاحب شرطة المعتضد والمكتفي بالله وقد ذكره التنوخي في الباب الخامس عند حديثه عمن خرج من الحبس واطلق سراحه وصلح حاله(٤٦) . هذا وقد وصف ايضا بعض

اصحاب الشرطة (بالفحل) وهذه الصفة اطلقها ابن النديم على صاحب شرطة المعتضد بالله مؤنس الخادم(٤٧) . كذلك وقد سمى في بعض الفترات بالجلواز أو «بالعذاب» لشدة تنكيله بالخصوم(٤٨) .

وهكذا اذن فمنصب صاحب الشرطة من المناصب المهمة في الدولة ممن كان يقع على عاتقهم حفظ الامن والنظام ونظرا لذكائهم وشجاعتهم وسياساتهم الرشيدة وصفوا بتلك الصفات الحميدة . وكانت السلطة المركزية تعتمد عليهم اعتمادا كبيرا ولذلك فقد كان يتولى هذا المنصب بشكل عام ، الرجال العظماء والمراد ابرازهم في مستقبل الايام واعدادهم لنيل مناصب عليا في الدولة ممن وصفهم ابن خلدون من «كبار القواد وعظماء الخاصة»(٤٩) .

وقد كان من جملة من تولى هذا المنصب ممن اصبح له دور واضح في تاريخ هذه الامة ونال بعد منصب رئاسة الشرطة الولاية على البلدان . الحجاج بن يوسف الثقفي الذي تولى شرطة عبدالملك بن مروان ثم بعد نجاحه في ادارة شؤون الشرطة تولى رئاسة ولاية العراق(٥٠) . وكذلك محمد بن المسيب بن زهير الذي تولى شرطة الامين سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م في بغداد ، وبعد نجاحه في منصب الشرطة ولاه الامين منصب ولاية ارمينية ـ وقد ورد ذكره من قبل(٥١) ـ هذا ومما يجدر ذكره في هذا الخصوص ان صلاح الدين الايوبي المعروف كان متوليا لشرطة دمشق سنة ٦٠١هـ/ ١١٦٥م وبعد نجاحه في منصبه وتمكنه من القضاء على اللصوص واستتباب الامن هناك عينه السلطان نور الدين محمود زنكى «سلطان الجزيرة وحلب» قيادة الجيوش(٥٢) .

صفات الشرطة :

مما سبق يتبين ان منصب صاحب الشرطة «مدير الشرطة» من المناصب الكبيرة في الدولة . وكان العديد من الامراء والسلاطين يشتغلون بهذا المنصب عدة سنوات ثم يتقلدون بعده مناصب اكبر ، فالشجاع والذكي يكون مسؤولا للشرطة ثم بعدها يكون اميرا وسلطانا واذا كان من العائلة الحاكمة فانه يحتل منصب الخلافة . فمسؤولية الشرطة كانت تعطى الانسان القوة والذكاء والسياسة والتجربة على امر الحكم فالذي ينجح في ادارة الشرطة ينجح ومن غير شك في ادارة الدولة وبالعكس .

ولما كان منصب صاحب الشرطة من المناصب الكبيرة في الدولة لذلك كان لابد ان تتوفر فيه صفات معينة ، كما يجب ان تتوفر في افراد الشرطة ايضا صفات جيدة لانهم حفظة الامن ومنعة الظلم . ولا يجب ان تتوفر فيهم من النواقص ما ان تكون بابا يدخل منه المشاغبون والمدلسون الذين يتذرعون بالمعاصى . ومن استقراء العديد من كتب السياسة والفقه في العصر العباسي يمكن ان نوجه العديد من الصفات التي يمكن ان تتوفر فى الشرطة ورئيسها منها انهم يجب ان يكونوا من المتعلمين الذين عندهم تجربة ، ولديهم عناية مع سيطرة على شهواتهم اذ ان الشهوة اذا تغلبت على صاحب الشرطة خاصة والشرطة عامة أدت الى قتل عشرات من الناس الابرياء او تشريدهم . لان من تستولى عليه الشهوات يكون الغالب عليه اخلاق البهائم . فالغضب يستفزه دائما والحرص والاحقاد يكون ديدنه والشر لا يفارقه(٥٣) . ولذلك يجب ان يكون صاحب الشرطة مميزا كي يتمكن بعدالته من ضبط حالات الاجرام .

وهذه العدالة لا تكون الا بخضوع النفس الغضبية والشهوانية لسيطرة العقل فلا يفعلون شيئا الا بأمره(٥٤) . فالنفس اذا استعانت بالعقل وادبت القوة الغضبية لدى صاحب الشرطة وسلطتها على الشهوة واستعانت باحداهما على الاخرى عن طريق التقليل من غلواء الغضب والشهوة اعتدلت اخلاق ذلك الانسان وباعتدالها تستقيم الامور في ذلك البلد(٥٥) . لان صاحب الشرطة مسؤول عن حفظ الامن والنظام واعتدال مسيرة الحياة ، والا يكون العكس فيضل صاحب الشرطة الطريق وتضل من بعده الرعية وربما حكم صاحب الشرطة بهواه فيكون حكمه كالذي

جاء خبره في القرآن الكريم : «أفرأيت من اتخذ الهـه هواه وأضله الله عـلى علم» وقال تعـالى : «واتبع هواه فمثله كمثـل الكلب ان تحمل عليـه يلهث او تتركه يلهث»(٥٦) .

فـالجريمـة اذن تحصـل من سيطرة القـوة الغضبية والشهوانية على الانسان . فاذا انقـاد الانسان لشهوته تصبح همته منقادة الى الشهوات واللذات فيقل بذلك حياء الانسان ويكثـر خرفـه ويحب الفـواحش ويتعـرض بـذلك للمحـظورات وربما دعته لذته الى اكتساب الامـوال من أقبح وجوهها وهكذا تحدث الجرائم(٥٧) .

امـا اذا انقاد صـاحب الشـرطة الى قـوتـه الغضبيـة فيكثر عنـد ذلك غضبه ويشتـد حقده ويعدم حلمه فيسـرع عند الغضب الى الانتقـام بغضبه فيسرف في العقوبة والتشفي وربما يحمل قوما من اتباعه على حمل السلاح وربما اقدموا على القتل والجـراح وحمل السـلاح على الاهـل والاخـوان . ومن صفات من تغلب عليـه القـوة الغضبية ايضا ان يكون محبا للغلبة طالبا للترأس من غير وجهه فاذا لم يتمكن منه بالعدل توصل اليه بالحيل والشر(٥٨) .

وهكذا يكون صاحب الشرطة سببـا في وقوع الجرائم اذا لم يتمكن من السيطرة على اهوائـه وعنـد ذلك تنتفي الغايـة التي من أجلها اختـير لمنصبه .

وكـذلك ينبغي لممارس الشـرطة وقادتهـا ان يكونوا احرارا جيدي الفهم صحيحي الرأي عند المشورة ، غير محبين للاموال مالكين لانفسهم عند الغضب ، وأن يكونوا مشفقين على الناس حافظين لاسرارهم(٥٩) .

فمسؤول الشرطة عادة ما يطلع على العديد من الحالات الاجتماعية وقد يضبط بعض الحوادث ذات العـلاقـة بـافـراد مهمـين في المجتمـع او مشهورين بخلقيتهم . غير انه لسوء حظ احدهم قام باعمال غير حميـدة وقادتـه تلك الاعمال الى صاحب الشرطة والمفروض بصاحب الشرطة هنا الحفـاظ على اسـرار اولئك النـاس وعدم كشف معايبهم لان في كشفها اشـاعة للمنكـرات وهذا العمل منهي عنه شرعا . كذلك وان كشف معايب اولئـك الناس يلحق ضـررا ليس عـلى الجـاني فحسب ، وانمـا على افـراد عائلتـه كلها وربمـا عشيرته وهذا العمل يلحق ضررا بالمجتمع .

وهناك صفات اخرى لصاحب الشرطة يمكن ملاحظتها في كتاب «سلوك الملوك في تدبير الممالك» الذي الفه ابن الربيع للخليفـة العباسي المعتصم بالله سنة ٢١٧ هـ اذكر منها ما يلي :

«ينبغي ان يكون صاحب الشرطة حليما مهيبا دائم الصمت طويل الفكر بعيد الغور ، وان يكون غليظا على اهل الريب في تصاريف الحيل شديـد الفطنة وان يكون طاهر النزاهة غـير عجول وان يكون نظره شـزرا قليل التبسم غـير ملتفت الى الشفاعات وان يأمر اصحابه بملازمة المحابيس وتفتيش الاطعمة وما يدخل الى السجون ... واذا خـرج احد من السجن ثم عـاد بجرم فليجعـل الحبس قبره وينبغي «لصاحب الشرطة» اقامـة الحدود كما وردت في الكتاب العزيز والعمل بها ، وكذلك ليمنع المظلوم من الانتصار لنفسه بيده بل ينهي حاله ليقابل بما يستحق وينبغي ان تكـون عقـوبـة الخـاص والعـام واحـدة كمـا امـرت الشريعة(٦٠) .

كذلك من الصفات الاخرى التي تنطبق عـلى صاحب الشرطة والحرس والتي اوردها الجاحظ وجلعها من تمام آلته : «ان يكون زميتا قطوبا ، ابـيض اللحيـة اقـنـى أجـنـى(٦١) ويـتـكـلم بالفارسية»(٦٢) . وهذه الصفات توجب ان يكون صـاحب الشرطة رجلا قويا كبير السن ذا لحيـة بيضاء كي يكون مهاب الجانب وقورا ، بالاضافة الى تعلمه للغة اجنبية حية ذات صلة بواقع العراق وقد كانت اللغة الفارسية آنذاك من اهم اللغات التي يجب ان يتقنها صاحب الشرطة ، لان بغداد قريبة من بلاد فارس ، او لكثرة الجناة والمفسدين من الفرس الذين كانـوا يعيشون في العـراق في العصر العباسي (زمن الفساق والزنادقة) مما دفع بالجاحـظ لان يؤكـد على ضـرورة معرفـة اللغة

الفارسية كي يتمكن صاحب الشرطة من كشف الجريمة .

ومما هو واضح فان صاحب الشرطة يسمى «بصاحب الزنادقة» كما مر ذكره من قبل ـ وذلك لكثرة البغاة والزنادقة من الفرس الذين كانت تتبعهم الشرطة ، وهذا ما يعلل ايضا السبب الداعي لمعرفة صاحب الشرطة اللغة الفارسية .

ومن الجدير بالذكر ان قدامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣٢٨هـ) اورد عشرين خله ينبغي ان تكون مع خدام الملك والقريبين منه ومنهم صاحب الشرطة وهذه الخلال نوجزها بما يلي :

اولها العقل فانه رأس الفضائل وعنصر المحامد، والثانية العلم فانه من ثمار العقل والثالثة الود للناس فانه خلق من اخلاق النفس يولده العدل فى الانسان لذوي جنسه . والرابعة النصيحة وهي الخالصة من افراط الود والخامسة كتمان السر وهو الحاصل من صدق الوفاء . والسادسة العفة عن الشهوات والاموال والسابعة مجانبة الحسد والثامنة الصرامة وهي شدة القلب والتاسعة الصدق والعاشرة التغافل والصفح عن أكثر ما يوجب الغضب من افعال . والحادية عشرة حسن الزي والهيئة والثانية عشرة البشر والاجمال في الملاقاة والثالثة عشرة: ان يكون لصاحب الشرطة رأفة لا تصده عن امتثال من الخليفة او الملك في جميع ما يأمر به والرابعة عشرة التأنق مع اصحاب الملك ورجالات الدولة الكبار والخامسة عشرة الأمانة فيما يستحفظ ورعاية الحق فيما يستودع والسادسة عشرة ان يكون من اهل الايثار فى المعاملة والعدل فى المعاطاة والمؤاخذة والسابعة عشرة الابتعاد عن اللجاج والمحك لان ذلك يضر بالافعال. والثامنة عشرة الا يكون بذاخا ولا متكبرا فان البذخ من دلائل سقوط النفس والكبر من دواعي عمى القلب والتاسعة عشرة الا يكون شديد الافراط في الحرص لانه من امارات ضيق النفس وشدة الطيش والبعد عن الصبر واخيرا العشرون : الا يكون وخما ولا ثقيل الروح ، فربما يكون ذلك سببا للمقت عليه من غير جرم من قبل مسئوليه(٦٣) .

ونظرا للصفات الحميدة «العلمية والادبية والعقلية الواجب توفرها في صاحب الشرطة لذلك ظهر فى تاريخ العراق العديد من اصحاب الشرطة من عطر التاريخ ذكرهم وعطروه بالادب والبيان ، لان صاحب الشرطة محتاج ـ كما مر ـ الى البيان في القلم واللسان والى مطالعة الكتب الادبية لما فيها من تنوير الجنان وتبصير النفس بعجائب الحدثان في سالف الازمان ، مما يزيد علمه من الاتعاظ والقياس والاختيار(٦٤) .

وكان من اولئك الشرط الادباء مدير شرطة بغداد ايام المأمون وهو عبدالله بن عبدالله بن طاهر الخزاعي الذي كان شاعرا واديبا وله شعر كثير وطويل في مناسبات عدة اذكر منها ما يلي :

اذا ما اصابت ذا حياة مصيبة
فقابلها منه التجمل والصبر
فما بعدت من ان تحوّل نعمة
يحق عليها الحمد لله والشكر(٦٥)

وهناك شروط اخرى اوردها اهل النظر والفقهاء يمكن ان تكون الصفات الاولى التي يمكن ملاحظاتها عند اختيار مدير الشرطة يمكن تلخيصها بما يلي :

اولا : الاسلام : فلا يجوز ان يتولى هذا المنصب او احد فروعه كافر أو فاسق أو جاحد بحقوق الاسلام والمؤمنين لان هذا المنصب ولاية والقرآن الكريم يقول : ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا»(٦٦) .

ثانيا : الذكورة : اذ لا يجوز ان تتولى المرأة ولاية الامة ومحاكمة الرجال وتتبع اللصوص والمجرمين ليلا ونهارا مما لا يتفق وخصائص الانوثة .

ثالثا : التكليف والبلوغ : اذ ان غير المكلف لا يتوجب عليه امر ولا نهي ولا يحسن تصريف نفسه فكيف يتولى تصريف امور المسلمين .

رابعا: النزاهة والشجاعة والعدل والتورع من قبول الهدايا.

خامسا : العلم باحكام الشرع وقوانين الامة كي يعرف الحدود ويعرف متجاوزيها.

سادسا: ان يكون عالما بالمنكرات الظاهرة ذا معرفة بأساليب الفسقة وبحيل الغشاشين والمدلسين(٦٧).

تنظيمات الشرطة :

تبين من قبل ان اعلى درجة في سلك الشرطة كانت في العصر العباسي هي درجة (منصب) صاحب الشرطة والذي يمثل في ايامنا هذه درجة (مدير الشرطة العام) وهذا المنصب من المناصب العالية في الدولة العباسية وكان اختياره عادة يكون من قبل الخليفة . ولذلك فمحاسبته ومراقبته كانت تتم من قبل الخليفة وحده والذى كان يصدر منشورا خاصا بتوليته يحدّد له فيه معظم مهامه .(٦٨)

ولذلك كان صاحب الشرطة لا يلتفت الى احد من كبار مسئولى الدولة العباسية سوى الخليفة الذي كانت اوامره مطاعة . وقد ذكر ابن الاثير في كتابه التاريخ قصة مفادها ان صاحب الشرطة المهدى (عبدالله بن مالك) كان يرفض كل الشفاعات التى تصل اليه حتى من ولي العهد وهو (الهادى) ولا يلتفت إلاالى اوامر الخليفة وحده .(٦٩)

وفي بعض فترات العصر العباسي كان الخليفة يمنح بعض وزرائه صلاحيات خاصة بمحاسبة صاحب الشرطة او بتكليفه ببعض المهام(٧٠) وقد يكون ذلك لكثرة اعمال الخليفة ومهامه فيعمد الى تفويض بعضها الى الوزراء . وقد يكون ذلك بسبب ضعف الخليفة نفسه وقوة وزيره . وقد ذكر ابو الحسن اسحاق الكاتب عند صفته للوزير الناجح كلاما مفاده ان للوزير الحق بمحاسبة بعض كبار الموظفين في الدولة العباسية ومنهم صاحب الشرطة وانه اذا قصر أحدهم وجب على الوزير نكبته فقال : «ثم ينبغى ان يعلم الحكام منه (اى من الوزير) شدة في ذات الله ـ عز وجل ـ وحرصا على اقامة الحق وانصاف المظلوم ... ثم ان ظهر ان احدا من حكامه على طبقاتهم من القضاة واصحاب المظالم .. واصحاب الشرطة جار في حكم نكل به وجعله ادبا لغيره وعظة لمن بعده».(٧١)

وهكذا اذن فالوزير له الحق بعد الخليفة في محاسبة صاحب الشرطة والنظر في اعماله . وهما وحدهما يختاران صاحب الشرطة في العاصمة والمدن المجاورة لها . اما سائر الولايات الاخرى والمدن البعيدة فكان كل وال هو الذى يختار صاحب شرطته بنفسه واحيانا كان صاحب الشرطة في الولايات البعيدة هو الذي يسهم في نقل معلومات خاصة عن ولايته للخليفة نفسه متخطيا بذلك سلطة الوالي . وفي بعض الاحيان كان صاحب الشرطة يشغل مؤقتا منصب الوالي عند وفاته المفاجئة .(٧٢) وقد يشغل ايضا بالاضافة الى منصب رئاسة الشرطة مسئولية المحتسب .(٧٣) بعكس الاحوال العامة حيث يكون رجال الشرطة من اعوان المحتسب .(٧٤)

ومما يجدر ذكره انه في بعض الفترات القلقة من تاريخ بغداد كان الخليفة يعمد الى تولية رئيسين للشرطة احدهما على الجانب الشرقي والاخر على الجانب الغربي ليتمكنا من ضبط النظام وكثيرا ما كان يحدث مثل ذلك في العصر العباسي المتأخر ففي سنة ٢٧٧ هـ ولى ابو العباس بن الخليفة الموفق غلامه بدرا «الشرطة على الجانب الشرقي ! وعيسى النوشدى على الجانب الغربي».(٧٥)

وفي الحالات العامة كان لصاحب الشرطة في بغداد مساعدان يعمل كل واحد منهما في قسم من اقسام بغداد .(٧٦) وربما كانوا اربعة لكل منهم عمله الخاص بمراقبة النظام وتتبع المخالفين وايصال كل المعلومات بعد تدوينها الى صاحب الشرطة(٧٧) . وقد ذكر ابو اسحاق الكاتب قوله : «وينبغي لصاحب الشرطة ان يرسم بكل ربع من ارباع عمله صاحبا له عفيف الطعمة عارفا باحكام

الشرطة ويقرن به عارضا يكتب قصص المرفوعين اليه ، وفي اى شىء رفعوا ويعمل ما يجتمع من هذه القصص التي يرفعها عرائض الارباع اليه في كل يوم جامعا يعرضه على من فوقه من امير وامام ، فيوقع تحت ذكر كل رجل فيما يـراه في امره من تأديب أو حبس او اطلاق او اقامة حد ، ان كان الموقع اماما . وان ينسخ هذه الجوامع والقصص والتوقيعات ، وما يخرج بها من الامام من اقامة حد او ايقاع قصاص في ديوان الشرطة ، وكذلك مـا يخرج من صلح بـين المترافعـين ومماراة من مـطالبـة ، فـان الذى يثبت من ذلك في مجلس الشـرطة نـظير مـا يثبت من المحـاضر ونسـخ السجلات في ديوان الحكم .[٧٨]

والنص الســابق يدل عـلى وجود المسـاعدين الاربعة لصاحب الشرطة ، بالاضافة الى انه كان لكل مساعد عمله الخاص بتدوين كل قصة وواقعة يـطلع عليها في منـطقته وارســالها الى صـاحب الشرطة الذي كان عليه ان يوحـد تلك الوقائـع والقصص في سجل خاص ثم يقـوم برفعهـا الى الخليفة أو والى المدينة . وكان الخليفة (او الوالي) ينظر اليها ثم يـوقع تحتهـا ويؤكـدها بـالجواب المناسب من عقوبة او ما شابه ذلك ثم ان الخليفة يعيد ذلك السجل الى صاحب الشرطة وكان على الاخير تنفيذ مؤشرات الخليفة وتوقيعاته بعد ان يسجلها في ديوان الشرطة ، وتلك السجلات كانت مهمة كأهمية سجلات ديوان الحكم .

فصـاحب الشرطة كمـا بدا له عـلاقة قـوية بالخليفة والوزير ، فاضافة الى ما ذكرناه من ان الخليفـة والوزير يتـدخلان في تعيـين وانتخـاب صاحب الشرطة فان صاحب الشرطة ايضا كان له دوره المهم في التدخل في تعيين ولي العهد وفي توثيق بيعته .[٧٩] ونظرا لعلاقته الوثيقة بالسلطة العليا فقد كان مستهدفا من قبل الثوار والخارجين على النظام حتى ان العبـاسيين بعـد استلامهم للسلطة قبضوا على بعض اصحاب الشرطة وكانوا ممن اعدموا .[٨٠] وذلك لان صاحب الشرطة من مقـربي الخليفة وخـواصـه ، وكثيـرا مـا كـان يستـدعى الخليفة العبـاسي صاحب شـرطته في منتصف الليل ليكلفه ببعض المهام ، أو يستدعيه ليقرأ له بعض الكتب الرسمية .[٨١]

ومن الواضح فان لصـاحب الشرطة ديـوان خاص به كان يسمى بديوان الشرطة يستنسخ فيه كل ما يتعلق بالشرطة .[٨٢] بالاضافة الى مجلس خاص كان يجلس به خارج ديوانه* . وكان ذلك المجلس له خاصيته وكان من جملة خصوصيتـه نصب الاعلام فيه . ومن ذلك كما قيل اشتق اسم الشرطة ، لان الاشراط هي الاعلام وكان صاحب الشرطة ينصب الاعلام على موضع قعوده[٨٣] كما فسر ذلك في موضع مفهوم كلمة الشرطة .

ولم يكتف صـاحب الشرطة بنصب الاعـلام التي تدل عليه ، وانما كان له ولاتباعه من الشرطة زيهم الخاص بهم ،[٨٤] كما كان له موكبه المعروف والمميز من قبل عامة الناس وخاصتهم .[٨٥]

وبعد رتبة نواب صاحب الشرطة تأتي رتبـة (النقيب) وتعني هذه الكلمة في اللغة العربية شاهد القوم وضمينهم وجمعه نقباء ،[٨٦] وسمي بذلك لانه ينقب عن الامور ويفتش من اجل الوصول الى حقيقـة الجنـاة . وكـان هـذا النقيب في العصر العباسي الاول مسئولا عن مائة رجل[٨٧] وقد اورد ذكره التنوخي ووصفه بان له زيه الخاص به وكان يعرف من زيه ، وكان يقوم بمهمة السفير الخاص لصاحب الشرطة في قضاء الامور المهمة .[٨٨]

ثم يلي النقيب في الاهمية ـ في الترتيب الادارى لهذه المؤسسة (العريف)[٨٩] وهـو دون الرئيس والجمع عرفاء[٩٠] واخيرا يأتى (الافراد) الذين يتكون منهم معظم افراد الشرطة وعليهم يقـوم واجب العمل والتنفيذ . ومن الواضح فان من تلك المراتب كانت تتكـون فصـائـل الحرس الخـاص وحرس المدينـة الليلي والمخبـرون والمعونـة ممن ستشير اليهم تباعا .

ومن أهم فصائل الشرطة المعروفة في العصر العباسي (فصيلة المخبرين) الذين كان يقع عليهم مسئولية معـرفة مـا يدور في البلد من اشـاعات

ومعرفة خفايا المخالفين للنظام او الذين لديهم حيل اقتصادية او سياسية مضـرة بمصلحة البلد او الخليفة . واحيانـا كانـوا يكلفون بـالقبض على الجناة الهاربين من وجه العـدالة ممن لا تتمكن الشرطة بظاهرها من القبض عليهم . فهم بمثابة شرطة الامن او بعض فصائل المخابرات . وكان بعضهم تابعا للخليفة بشكل مباشر في حين تبـع آخرون لسلطة الوزير ، وهم بشكل عام لهم مدير معروف بشدته وتقواه يسمى (صاحب الخبر) وقد اورد ذكره ابو إسحق الكاتب واكد عليه باعتباره من اصح العمال ديانة «واكملهم امانة واظهرهم صيانة ، لانه مأمون على الدماء والاموال (وهـو العـين التى تنظر بهـا القيادة الى الرعيـة ولذلك فليس ينبغي ان يتقدمه احد في الصدق والثقـة والامانة غير القضاة ومن جرى مجراهم»[٩١].

وصاحب الخبر هذا كان ينتخب من قبل الوزير ولذلك يؤكد اسحق الكاتب على الوزيـر بضرورة اختيار صاحب خبـر ممن تتوفـر فيه الصفـات الجيدة السابقة والا فان الوزير سوف يغش نفسه والدولة ويخـون الامانـة في رعيتـه . وينصحـه بتوسيع الرزق على صاحب الخبر ليشترى بذلك دينه وامانته ، كي لا يستخدم صلاحياته في ابتزاز اموال الرعية بالباطل .[٩٢]

ومن الواضـح فان صـاحب الخبر (او مـدير الامن العام ، في ايامنـا هذه) الذى تغـدق عليه الدولة امـوالا طائلة وتختـاره من عليـة القـوم المعروفين بالتقوى والصلاح ينبغي عليه ان يتقصى الحقائق والاخبار بـالصدق والبيـان ويبتعد عن الانحـراف في جمـع الاخبـار ، ذلك الانحـراف الحاصل من تغلب الهوى عليه ـ مما ذكرنـاه في موضوع صفات صاحب الشرطة ـ او من مصلحة راجعة اليه او من انحرافه عن انسان ما . واذا تبين ان صاحب الخبر لعبت به الاهواء وكذب في خبره فالواجب ان ينـاله من الخليفة أو الوزيـر مكروه شديد ليكون عبرة لغيره من المخبرين .[٩٣]

وكثيرا ما كان يستخدم الخليفة بعض افراد المخبـرين للتجسس عـلى كبـار رجـالات الدولة العباسية . وكان اولئك المخبرون يتخفون واحيانا يتـزيون بـازياء الفقـراء والمتسولين . وقـد ذكر التنوخى قصة مفادها ان احد المخبرين كان اذا خرج من عند الخليفة بمأمورية لا ينتصب عـلى رجليه، وانما يزحف على رجليه ويديه ويلبس ثياب المكدين ومعه مخلاة ، وربما يكون مع المكدين فلما يصل الى احد ابواب الوزراء ـ المطلوب مراقبتهم ـ يمكث بجـواره متخفيا يمـازح حـرس الوزيـر ويطايبهم ويسمح لهم بشتمه والاستخفاف به ومن خلال هذه المدخلات مع الحرس والخـدم يتمكن المخبر من ان يصل الى معرفة بعض الاخبار عن الوزير كساعـة خروجـه للعمل الرسمي وسـاعة عودته ، وهل لديه مجالس داخل داره بغـير علم الخليفة ام لا ؟ كذلك كان للوزير بعض المخبرين يستخدمهم فى توطيد مركزه او في اكتشاف بعض الجرائم والتعرف على بعض الاخبار .[٩٤]. كما كان ايضا لصاحب الشرطة مخبـرون ويبدو أن مسئول مخبرى الشرطة كان من المقربين لصاحب الشـرطة وكان يجلس معـه فى مجلسه ويشـرب معه[٩٥] .

كذلك استخدم بعض المخبرين كادوات عميلة كانت تعمل بانتظام في بعض دوائـر الدولة ومن خـلال عملهـا اليـومى كـانت تتقصى الحقـائق والاخبار. وقد ورد ذكر بعض المخبرين ممن كان يعمل فى السجون وكان يسمى (المخبر عـلى خبر المحبوسين) وكان هذا المخبر يدخـل الى السجن العـام داخل مـدينة بغـداد ومن خلال عـلاقته بالمسجونين يطلع على احوالهم هل هم ظالمون او مظلومون[٩٦].

اما شرطة الحرس ، فقد كانوا على انواع منهم الحرس الشخصي للخليفة واقربائه ومنهم حرس جسور المدينة ودوائر الدولة الرسمية ومنهم حرس الابواب الرئيسية للبلد واسواره ، بالاضافة ألى الحرس الليلي لبغـداد ومدن العـراق الاخرى . وكان هذا الحـرس الليلي منتشـرا في كل مكـان وخاصة في اسواق المدينة ومحلاتها المهمة . وكان هـذا الحـرس الليـلي يسمى في العصر العبـاسي

بالعسس وبالطواف او بالطائف وكان هذا الطائف له اعوان يسيرون ليلا جماعة او على انفراد ، وكانت لديهم الاشارات الخاصة بينهم التى بواسطتها يتجمعون عند حدوث الطوارىء . وبشكل عام كان هذا الطائف الذي يطوف بالليل يحمل معه بالاضافة الى المقرعة .[٩٧] المشاعل التى تضىء له الطريق بالليل والتي من خلالها يكتشف الجرائم ويتعرف على السرقات[٩٨] . ومن الواضح أنه كان للعسس (الطواف) الحق في ايقاف المشتبه بهم والاستفسار عن احوالهم وحتى ضربهم ان كان ظاهرهم يدعو للشك والريبة[٩٩] .

ويستنتج من بعض الروايات ان الحرس الليلي كان يبدأ دوامه منذ غروب الشمس وحتى آذان الفجر الذى تبدأ معه الحركة في المدينة ، لان معظم السكان من الرجال يخرجون من بيوتهم الى المساجد لاداء فريضة صلاة الفجر جماعة وبذلك تبدأ الحركة ويعم الامن في المدينة باعلان الاذان وعندها ينسحب الحرس الليلى من مراكز حراستهم ليعودوا الى ديوان الشرطة اعلانا بانتهاء دوامهم ثم يتفرقون بعدها الى دورهم او الى اعمالهم الخاصة . وقد ذكر التنوخي قصة مفادها ان احد مؤذني جوامع بغداد قدم للمحاكمة بسبب تعجيله لاذان الفجر مما دفع بالعسس الى قطع اعمالهم في وقت مبكر[١٠٠] .

اما شرطة المعونة فهي على ما يبدو تقابل شرطة النجدة في ايامنا هذه والمعونة صفة لمن يقدم منفعة وعطية وقد اخذت من كلمة الماعون[١٠١] وقد وصف الله تعالى المنافقين في بعض صفاتهم بأنهم يمنعون الماعون .[١٠٢] اى يمتنعون من تقديم العطاء والمنافع لغيرهم من المسلمين ، وبذلك تكون المعونة هي صفة للشرطة المؤمنة التى كان من اخص واجباتها تقديم المعونة للشعب .

وكان للمعونة مدير ينتخب من بين الشرطة ممن عرف بسلامة مذهبه وصلاح عمله ومن عرف عنه الضبط والكفاية، والزجر والسياسة ما يرأب به اهل العبث والفساد وتصلح معه الرعية والبلاد ... (وممن) يتجنب مساخط الله تعالى ومحارمه ، ويتعدى مناهيه ومآثمه ، وكف من معه عن التخطي الى ظلم احد من الرعية ومساواتهم بأذية ويحضهم على لزوم الاستقامة ... ومقارعة اعداء الله في البلاد ، والتصدى لهم بافضل العدة والعتاد .[١٠٣]

وكان مدير المعونة هذا يسمى احيانا بـ (عامل المعونة) او (صاحب المعونة) وكانت واجباته بالاضافة الى تقديم المساعدة والعون للسكان ، تنفيذ الاوامر الصادرة اليه من قبل صاحب الشرطة او الوالي . وكثيرا ما كانت تتدخل المعونة في قمع الاضطرابات وتتصدى للخارجين على النظام او الذين يظهرون فسوقهم ممن يخالف شريعة الاسلام بالاضافة الى الاهتمام باعداد العدة والسلاح من اجل الاعداد لمقاومة اولئك الجناة .[١٠٤]

هذا وقد كان لصاحب الشرطة وديوان الشرطة كاتب يسمى بكاتب الشرطة او كاتب المعونة احيانا . وكانت له صفات معينة خاصة به لانه يمثل بشكل عام العقل المفكر للشرطة ، وكان يحتاج لان يكون كاتبا في الشرطة ان يكون عالما بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات»[١٠٥] والديات[١٠٦] وان يكون عنده رقة على المستورين وحرص على اقالة ذوى المروءات عثراتهم[١٠٧] لان المفروض بالشرطة ان لاتعمل بهواها ، فالجريمة محدودة في العصر العباسي والعقوبة عليها ايضا محدودة وهي تستند الى الشريعة الاسلامية التى كان العباسيون يحكمون بها ،[١٠٨] ولذلك كان لصاحب الشرطة كاتب عليم بالحدود والجراحات والقصاص ليساعد صاحب الشرطة على اصدار الاحكام التي تتفق والشريعة الاسلامية لان من يتجاوز في العقوبة ـ بنظر الاسلام ـ فوق ماحد الله تعالى فيها يشارك المجرم في الذنب وعند ذلك يستوجب للمجرم من العقوبة ، لانه انما عاقب بهواه او للتشفي وهذا مما يغضب الله تعالى .

وقد فصل في هذه المسألة الجوهرية الخاصة

(بعدم الزيادة في العقوبة من قبل الشرطة فوق ما حد الله تعالى) ابو اسحق الكاتب الذى اكد على ضرورة ان يكون صاحب الشرطة وكاتبه صارما شديدا في الحق حريصا على اقامة الحد وان لا تأخذه رأفة بصاحبه (ولا تعطله رقة على مرتكبه. فانه ليس بـارحم من الله تعالى بعبـاده ولا اولى بالتفضل عليهم . ولو علم الله تعالى ان الصلاح في تعطيل الحدود لما امرنا باقامتهـا ولا قال) : ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله...).(١٠٩) ولا قال : (ولكم في القصاص حياة يا اولى الالباب).(١١٠) ولا تحمله القسوة على اصحاب الحدود او غيرهم من المفسدين على ان يزيد في حدودهم ، او يتعدى بهم امر الله تعالى فان الله سبحانه وتعالى يقول (ومن يتعـد حدود الله فقـد ظلم نفسه).(١١١) وحسب الانسان ان يقف حيث وقف به حكم الله ، فلو علم الله تعالى ان الزيادة في العقوبة على ماحد هو ارد ع لاهـل المعاصي لزاد فيهـا).(١١٢) وهكـذا ينبغي لصاحب الشرطة وكاتبه ان يتعامل مع الجناة بغير زيادة ولا نقصان(١١٣) وان يكون الحكم شرع الله تعالى لانه هـو ادرى بخلقه منهم وبمصلحتهم . ولذلك وجب على صاحب الشرطة وكاتبه ان يكون له قبل كل شيء معرفة بـاحكام الله عـز وجل في الحدود والجنايات .(١١٤)

كـذلك وصف قدامـة بن جعفر صفـة كتابـة الشرطة ، واكد على الصفات السابقة لان اكثـر عمل الشرطة مجازاة الجناة على جنايـاتهم وهو القصاص والحدود في القتل او المطالبة بالدية ان لم يقع العفو من المجنى عليه واوليائه وان لم يقع الصلح وقد حدد قدامة وابو اسحق وغيرهما تلك الجنايات وفصلاها وبينا اغلظها وهو القتل العمد او شبيه العمد او القتل بالخطأ ، كما تبينا انواع القصاص والديات والعقوبات بانواعها مما لسنا بحاجة الى ذكره هنا .(١١٥)

علاقة الشرطة بالشعب ودورها في القضاء على الجريمة :

مما هو واضح فان للشرطة دورها الهام في تتبع الجناة والقضاء على الجرائم والعمل على استتباب الامن والنـظام في البلد . ومن ملاحـظة تـاريـخ الشـرطة العراقيـة خلال العصر العبـاسي الاول نجدها قد اثبتت جدارة واضحـة في حفظ الامن والنظام وتتبع المجرمين والقضـاء عليهم .(١١٦) وكل اعمالهم هذه تتطلب منهم استخـدام بعض اسـاليب البـطش والحبس وربـمـا القتـل او التعذيب .

فصاحب شرطة كـان مثلا يجلد بـالسياط في مجلسـه الجنـاة والبغـاة من متجـاوزي حـدود الشريعة الاسلامية من اجـل اصلاحهم .(١١٧) وفي بعض الاحيان كان الولاة انفسهم يضربون الشرطة ان هم قصروا في طلب البغاة . فقد ذكر التنـوخي ان جعفر بن سليمـان الهاشمي امـير البصرة لما طال عليه امر اكتشاف بعض اللصوص «جاء بالشرطة وضربهم فجدوا في الطلب».(١١٨)

ولو أستقرأنا كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي وكتاب الاذكياء لابن الجوزى لوجدنا العديد من القصص والحكايات التى تدل على ان الشـرطة لعبت دورا في حل المنازعـات الداخلية ومـراقبة الخانات وتتبـع المشتبه بهم والتحقيق معهم وفي الاشـراف على السجـون بـل وحتى الاشتـراك بفصائل منظمة في قتـال الخارجـين على النـظام والقبض عليهم .(١١٩) ففي سنة ١٥٨ هـ اشترك الشـرطة في البصرة في قتـال الخوارج وقـدموا ضحايا فـادحة .(١٢٠) كـذلك وقد القى شـرطة المأمون القبض على (ابراهيم بن المهدى) وهو احد الخـارجين عـلى الخليفة . ومن الطريف ان ابن المهدى كان هاربا من وجه العدالة وكان مستترا بزى امرأة ، وخرج مرة وهـو متعطر فشم احـد الشـرطة رائحة الطيب منـه فارتـاب لان المـرأة المحجبة في الاسلام لا تتطيب خارج بيتها ، ولذلك اوقفه وكلمه فعلم انه رجل ، وهكذا ضبط وارسل الى صاحب الشرطة وحمل الى المأمون (١٢١).

غـير ان الشـرطة في بعض الاحيـان كـانت تستخدم بعض أساليب البطش من اجل استمرار تأييد الشعب للسلطة الحاكمة وليس ادل على ذلك

مما كان يفعله الحجاج بن يوسف الثقفي من اجل تثبيت حكم الامويين على العراق[١٢٢] او في ضرب وتعذيب بعض المخالفين فكريا للنظام رغم سلامة افكارهم ، واقتناعهم بوجهة نظرهم التي لا تضر بالدولة كما فعل بالامام احمد بن حنبل عندما جلد وقيد بالحديد في ايام الخليفة المأمون من اجل تمسكه بفكره الديني .[١٢٣] وضرب مثل اولئك الرجال والمفكرين او قادة الخارجين على النظام ممن كان لهم الكثير من الاتباع والمؤيدين لاشك يثير نقمات شديدة ليس على النظام فحسب وانما على الشرطة واصحابها الذين كانوا هم اليد التنفيذية في العقوبة ولذلك وجدنا من قبل كيف بدأ العباسيون بعد نجاح ثورتهم بقتل اصحاب الشرطة .

وهذا الاسلوب الشديد الذي يستخدمه الشرطة في تتبع الجناة ان استمر في تنفيذه طويلا ، وبأسلوب غير انسانى لابد أن يؤثر على نفسية الشعب بشكل عام فتصبح الشرطة في نظر المجموع ـ وخاصة ممن لا وعي لهم ـ بأنهم الظلمة والقساة او الجلاوزة . علما بأن استخدام القسوة ضد المجرمين امر لابد منه اذا افترضنا ان المجرمين هم اهل الظلم والعدوان ، وانه اذا ما اريد القضاء عليهم كان لابد من استخدام اساليبهم وحيلهم واستخدام القسوة ضدهم من اجل ضبطهم .

وقد عبر عن تلك المفاهيم السابقة في العلاقة بين صاحب الشرطة والشعب الشاعر اشجع بن عمرو السلمي عندما وصف صاحب شرطة الرشيد (ابراهيم بن عثمان بن نهيك) والذي كان جبارا عنيدا بقصيدته الطويلة التى اخترنا منها هذه الابيات :

في سيف ابراهيم خوف واقع
بدوى النفاق وفيه امن المسلم
ويبيت يكلأ والعيون هواجع
مال المضيع ومهجة المستسلم
شد الخطام بأنف كل مخالف
حتى استقام له الذى لم يخطم
لا يصلح السلطان إلا شدة
تغشى البرىء بفضل ذنب المجرم
ومن الولاة مفخم لا يتقي
والسيف تقطر شفرتاه من الدم
منعت مهابتك النفوس حديثها
بالامر تكرهه وان لم تعلم[١٢٤]

وهكذا نعتت الشرطة في العصر العباسي ـ بسبب الاعمال السابقة وبقلة الوعى لدى عامة الناس ـ بانهم الظلمة ، والقتلة والجلاوزة الذين يكون مصيرهم الى النار يوم القيامة ووضعت في حقهم احاديث نبوية باطلة نسبت ظلما الى الله تعالى ورسوله ولابد في هذا المجال من ذكر بعضها لا للتأكيد عليها وانما لمعرفة موقف الشعب من الشرطة لأن تلك الاحاديث الباطلة عبرت عن روح العصر ومشاعر السكان ومن هذه الاحاديث اذكر ما يلي :

في الحديث القدسي الذي ذكره العاملي ان الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) قال ياعلي «ان الله تعالى خلق الجنة .. ثم قال لها تكلمى ، فقالت لا اله إلا الله الحى القيوم قد سعد من يدخلني . فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمر ... ولا شرطي ولا عشار».[١٢٥] كذلك وفي تذكرة الموضوعات ورد ذكر الحديث التالي : «يقال للشرط ـ يوم القيامة ـ دع شرطك وادخل النار».[١٢٦]

وهناك حديث آخر نسب سنده الى ابى هريرة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله : «ان طال بك مدة اوشك ان ترى قوما يغدون من سخط الله تعالى ويروحون في لعنته في ايديهم مثل اذناب البقر»[١٢٧] وهم الشرطة الذين كانوا يحملون بأيديهم السياط . ومن الاباطيل الاخرى ما ذكر ايضا كذبا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله : «دخلت الجنة فرأيت فيها ذئبا . فقلت اذئب في الجنة . فقال : اني اكلت ابن شرطي»[١٢٨] فهذا اكل ابن شرطي فكيف لو اكل الشرطي نفسه لكان على حد تعبير الرواية الباطلة ـ وصل الى عليين .

ان الاحاديث السابقة باطلة بلا شك . وبطلانها يبدو من ظاهرها ولفظها لان لفظ الشرطة لم يستخدم في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجاء ذكرها في فترة متأخرة وكانت الكلمة الوحيدة التى استخدمت في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) هي (العسس) و(من يعسنا الليلة) وقد ورد ذكر ذلك من قبل . علما بأن العديد من رجالات الشرطة كانوا ممن عرف بالتقوى والصلاح وكان الذى ينتخب ليكون صاحبا للشرطة يجب ان يتوفر فيه سلامة المعتقد وحسن الاستقامة والدين ـ كما مر ـ فكيف بمن اختير لسلامته واستقامته وعمل جادا في سبيل العدل والنظام يبشر من قبل الرسول (ص) ـ حاشاه ـ بالنار وبالعذاب الاليم .

ومن دراسة احوال الشرطة العباسية وكيفية ضبطها للامن ومعاقبتها للجناة يبدو انهم كانوا يوبخون ويضربون ويسجنون . والسؤال الذى يمكن ان يطرح ما هي وسائل الردع لدى الشرطة العباسية ؟ وقبل الاجابة على هذا السؤال يجب القول انه من المهام الجليلة على الدول المنظمة ان توضح لشرطتها وسائل الردع لديهم كي يعرف للشرطة واجباتهم فلا يتجاوزونها ، ويعرف الناس حدودهم فلا يتعدونها لانهم سيعلمون ان تجاوز الحد سوف يقابل بالردع وقد اوضحت الشريعة الاسلامية الحدود للناس وبينت المتجاوزين وعقوباتهم اما فيما يخص رجال الشرطة فان عليهم ان يعرفوا تلك الحدود وعقوبة تجاوزها كي لا يتعدوا اهم الحدود في العقوبة ، وعند ذلك يصبحون هم والجناة سواء بسواء . لان من يتجاوز الحد في العقوبة يشارك المجرم في الذنب ويستوجب العقوبة عند ذلك في مخالفته للشرع . وهناك العديد من وسائل الردع التى كان يستخدمها الشرطة في العصر العباسي اذكرها على الترتيب بما يجب ان تستخدم وهي :

أولا : التعريف : وهو توضيح الامور المهمة لدى الناس وافهامهم لاصول الجنايات والمخالفات والامور غير المباحة . (كجانب نظرى) فالمخالف الذى يقع فى الخطأ يعرف بأخطائه لاول مرة فقط واذا تكرر البغى منه يستوجب العقوبات التى تليها .

ثانيا : الوعظ والتخويف والتهديد واذا تطلب الامر التعنيف والزجر كأن يقول له اذا فعلت ذلك مرة اخرى سأسجنك او سأضربك .

ثالثا : التقييد باليد اذا مانع المنكر ودافع عن منكراته .

رابعا : اذا اصر الباغى على العدوان ولم يبال بالتهديد والتخويف فان للشرطة الحق بضربة وحبسه مع الاستعانة عليه بالاعوان والسلاح . وقد اكد ابو حامد الغزالى(١٢٩) على الناحية الخلقية فى العقاب وذكر بانه لا يجوز للمحتسب ولصاحب الشرطة ان يعاقب بالامور المحرمة ولا يجوز له ان يهدد بها كأن يقول للجانى اذا فعلت المنكر مرة اخرى حلقت لحيتك او هتكت سترك او اظهرت نساءك مفضوحات .

اذن بهذه الدرجات من العقوبة وبهذه الاخلاق يحس المجرمون وغيرهم بروح المواطنة الصالحة ويرون فى الشرطة اخوانا لهم يؤيدون على اداء واجباتهم التى هى لصالح الجميع .

خامسا : واذا لم ينفع الضرب والحبس فهناك وسيلة (النفى) التى استخدمها الخليفة عمر بن الخطاب (رض الله عنه) ضد العديد من المخنثين والمجرمين .

سادسا : وهناك وسائل اخرى للعقوبة وهى الهجر والتشهير والتوبيخ والغرامات المالية وهذه تكون فى المرتبة السادسة من العقوبة . لان اخذ الاموال من الناس لمجرد العقوبة يراه فقهاء المسلمين ابتزازا لاموال المسلمين بالباطل لان الاموال هى ليست ملك للمخالف انما هى لاهله ولعياله فعلام تعاقب عائلة المذنب جميعا فى حين انه هو الذى اقترف الاجرام .

سابعا : واخيرا تأتى عقوبة الصلب والقتل لقوله تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف .. » اذن القتل هو عقوبة الاصرار على المعصية

والسعى فى الارض من اجل الفساد(١٣٠) .

وهكذا ترى فى العقوبات الشرعية الصرامة من ناحية والرحمة والشفقة والعطف على الجانى من ناحية اخرى . فالذى يتكرر منه الاجرام ويصر على المعصية ويبدل دينه فليس له الا التشهير به وتكون عقوبته القتل(١٣١) ويجب على صاحب الشرطة ان ينفذ حكم الله تعالى فيه بما يتفق والجرم .

والذى يجنى بالاضطرار وبغير العمد تخفف عنه العقوبة ، بينما اوضح الشرع ان العقوبة يوقف تنفيذها فى حالة التوبة والاصلاح وما شاكل ذلك مما لا يضر بالشريعة الاسلامية وبمصالح المسلمين(١٣٢) .

وقد فصل الفقهاء فى احكام الجرائم وبينوا السبل الشرعية التى يسلكها صاحب الشرطة فى ضبط الجريمة كى لا يقع فى المحارم ومنهم الماوردى الذى اعتبر ان الجرائم محظورات بالشرع وان على الوالى وصاحب الشرطة عدة وسائل شرعية لكشف الجريمة او لاستبراء المتهم وهى ليست للقضاة .

اى ان الوسائل التالية هى الحد الذى يميز الشرطة عن القضاء فى الاسلام مما هو مطبق فى العصر العباسى ، اضافة الى ما ذكرناه عن الشرطة التى كانت اليد التنفيذية للقضاء ووسائل ضبط الجريمة فى العصر العباسى لدى الشرطة هى :

اولا : يجوز للامير او لصاحب الشرطة ان يسمع رد المتهم من اعوان الشرطة من غير تحقيق للدعوى المفسرة ويرجع الى قولهم فى الاخبار عن حال المتهم فان كان خيرا خفف التهمة وعجل اطلاقه ولم يغلظ عليه والعكس بالعكس .

ثانيا : ان لصاحب الشرطة ان يراعى شواهد الحال وصفات المتهوم . فان كانت التهمة بزنا وكان المتهم متصنعا للنساء ذا خلاعة وخداعة قويت التهمة وان كان بضده ضعفت .

ثالثا : يحق لصاحب الشرطة ان يحبس المتهم عند عزمه للكشف عن الجريمة او الاستبراء . وقد اثر عن الرسول (ص) انه حبس فى تهمة .

رابعا : يجوز لصاحب الشرطة مع قوة التهمة ان يضرب المتهم ضرب تعزير لا ضرب حد ليأخذه بالصدق ويجعله يعترف . فان اعترف قطع ضربه واستعيد اقراره .

خامسا : يجوز لصاحب الشرطة ان يستخدم فى حبس المجرم حتى الموت اذا تكررت منه الجرائم وكان به ضرر على المسلمين . بشرط أن يقوم بيت المال بالانفاق عليه وعلى كسوته وعلى اهله(١٣٣) .

سادسا : يجوز لصاحب الشرطة الاحلاف للمتهوم استبراء لحاله او تغليظا عليه فى الكشف عن الجريمة .

سابعا : ان لصاحب الشرطة الحق فى اخذ اهل الجرائم بالتوبة اجبارا ويظهر عليهم من الوعيد ما يقودهم الى التوبة طوعا .

ثامنا : يجوز لصاحب الشرطة ان يسمع شهادات من لا يقبل القضاه سماع شهاداتهم اذا كثر عددهم فى سبيل الوصول الى كشف الحقيقة .

تاسعا : لصاحب الشرطة الحق فى ان يسمع كلام من يسبق فى الدعوى الا اذا كان باحدها اثر .

عاشرا : يحق لصاحب الشرطة ان يشهر بالمجرمين اذا رأى فى ذلك الصلاح فى ردعهم حيث يشهرهم وينادى عليهم بجرائمهم(١٣٤) . ليكونوا عبرة لغيرهم فالعقوبات موانع قبل الفعل وزواجر بعده . والعلم بشرعيتها يمنع الاقدام على الفعل وايقاعها بعده يمنع من العودة اليها ..

هكذا اذن كانت الشرطة من المؤسسات الادارية الهامة فى الدولة العباسية وكان مديرها من الرجال المهمين المشار اليهم بالبنان ، وكان الشرطى من الرجال المعتمد عليهم فى حفظ الامن والنظام وتتبع المجرمين . وكان لهم فى العصر العباسى الاول دور مهم فى القضاء على البغى والعدوان فلولاهم لما استقام ملك فهم بمثابة الاسوار للمدينة والسلاح من العساكر . والعين من الخليفة التى من خلالها ينظر لشعبه . واليد التى من خلالها يضرب بالخارجين عليه . السلطة التنفيذية بالنسبة للقضاء .

مصـادر البحث ومراجعـه

أولا : المصادر القديمة

١ ـ اقرأ القرآن الكريم
٢ ـ الاصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموى، الاغانى (القاهرة د/ت).
٣ ـ ابن ابى الربيع، شهاب الدين احمد، سلوك الملوك في تدبير الممالك، تحقيق ناجى التكريتى (بيروت: ١٩٧٨).
٤ ـ ابن الاثير، عزالدين علي بن محمد، الكامل في التاريخ (القاهرة: ١٩٥٧).
٥ ـ ابن جعفر، قدامة، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسن الزبيدى (بغداد: ١٩٨١).
٦ ـ ابن الجوزى، علي بن عبدالرحمن، كتاب الاذكياء (بيروت: ١٩٨٠).
٧ ـ ابن الجوزى، علي بن عبدالرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر اباد: ١٣٥٧هـ).
٨ ـ ابن حجر، شهاب الدين العسقلاني، الاصابة في معرفة الصحابة (القاهرة: ١٩٣٩).
٩ ـ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، المقدمة، مطبعة الكشاف (د/ت).
١٠ ـ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، كتاب التاريخ (بيروت: ١٩٥٨).
١١ ـ ابن خياط، خليفة، كتاب التاريخ (بغداد: ١٩٦٧).
١٢ ـ ابن عربى، الشيخ الاكبر محى الدين، محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار (المطبعة العثمانية: ١٣١٥هـ).
١٣ ـ ابن عربى، نفسه، الفتوحات المكية (القاهرة: ١٢٧٠هـ).
١٤ ـ ابن عربى، نفسه، تهذيب الاخلاق (القاهرة: ١٣٣٢هـ).
١٥ ـ ابن عبد ربه، ابى عمر الاندلسى، العقد الفريد (بيروت: ١٩٦٣).
١٦ ـ ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب (القاهرة: ١٣٠٠هـ).
١٧ ـ ابن النديم، محمد بن اسحق، الفهرست (القاهرة: ١٣٤٨هـ).
١٨ ـ ابن وهب الكاتب، ابوالحسين اسحق بن ابراهيم، البرهان في وجوه البيان، تحقيق احمد مطلوب وزميلته (بغداد: ١٩٧٠).
١٩ ـ ابو الفدا، اسماعيل بن علي بن محمود، المختصر في اخبار البشر (القاهرة: ١٣٢٥هـ).
٢٠ ـ التنوخى، ابوعلي المحسن بن محمد، الفرج بعد الشدة (جزءان) (القاهرة: ١٩٥٥).
٢١ ـ التنوخى، نفسه، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة المسمى بجامع التواريخ، ج ٨، (دمشق: ١٩٣٠).
٢٢ ـ الجاحظ، ابوعثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة د/ت).
٢٣ ـ الرازى، محمد بن ابى بكر بن عبدالقادر (ت ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح (بيروت: ١٩٦٧).
٢٤ ـ الزمخشرى، جار الله ابوالقاسم، اساس البلاغة (القاهرة: ١٩٢٤).
٢٥ ـ الشيزرى، عبدالرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق الباز العرينى (بيروت: ١٩٦٧)
٢٦ ـ الطبرى، ابوجعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل ،والملوك (ليدن: ١٨٧٩م).
٢٧ ـ الطرطوشى، ابوبكر محمد بن محمد الفهرى، سراج الملوك (القاهرة: د/ت).
٢٨ ـ وابن خلدون ـ عبدالرحمن بن محمد .
٢٩ ـ العاملى، محمد بن الحسن الحر، الجواهر السنية في الاحاديث القدسية (النجف: ١٩٦٤).
٣٠ ـ الغزالى، ابوحامد، كيمياء السعادة (القاهرة: ١٣٣٢هـ).
٣١ ـ الغزالى، ابوحامد، معارج القدس في مدارج معرفة النفس (بيروت: ١٩٧٨).
٣٢ ـ الغزالى، نفسه، احياء علوم الدين (القاهرة: د/ت).
٣٣ ـ الفتنى، محمد بن طاهر، تذكرة الموضوعات (بيروت:: د/ت).
٣٤ ـ الفيروز آبادى، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط (القاهرة: ١٩٣٥).
٣٥ ـ القرشى، احمد، معالم القربة في احكام الحسبة (ليبزج: ١٩٣٧).
٣٦ ـ القلقشندى، ابوالعباس احمد بن عبدالله، صبح الاعشى في كتابة الانشا (القاهرة: ١٩١٦).
٣٧ ـ القيروانى، ابواسحق ابراهيم، زهر الاداب وثمر الالباب (بيروت: ١٩٧٢).
٣٨ ـ الماوردى، علي بن محمد، الاحكام السلطانية (مطبعة الحلبى: ١٣٥٧هـ).
٣٩ ـ المسعودى، ابوالحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محى الدين (القاهرة: ١٩٥٨).

٤٠ - مجهول المؤلف، العيون والحدائق في اخبار الحقائق تحقيق نبيلة عبدالمنعم (النجف: ١٩٧٢).
٤١ - مجهول المؤلف، لمؤلف من القرن الثالث الهجرى، اخبار الدولة العباسية، تحقيق عبدالعزيز الدورى وزميلته (بيروت: ١٩٧١).
٤٢ - الهمداني، محمد بن عبدالملك، تكملة تاريخ الطبرى (بيروت: ١٩٦١).
٤٣ - اليعقوبى، احمد بن ابى يعقوب، التاريخ (ليدن: ١٨٨٣هـ).

ثانيا : المراجع الحديثة*

* المراجع الحديثة مرتبة حسب الاسم الثلاثي الصريح إلا إذا كان للمؤلف شهرة.

٤٤ - احمد امين، ظهر الاسلام (القاهرة: ١٩٦٢).
٤٥ - احمد فتحى بهنسى، السياسة الجنائية في الشريعة الاسلامية (بيروت: ١٩٨٣).
٤٦ - احمد شلبى، التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية (القاهرة: ١٩٦٠).
٤٧ - الجندي عبدالحليم، احمد بن حنبل (القاهرة: ١٩٧٠).
٤٨ - حسن ابراهيم حسن، النظم الاسلامية (القاهرة: ١٩٧٠).
٤٩ - الخيرو، رمزية، ادارة العراق (بغداد: ١٩٧٨).
٥٠ - دريد عبدالقادر نورى، سياسة صلاح الدين الايوبى في بلاد مصر والشام والجزيرة (بغداد: ١٩٧٦).
٥١ - دوزى، رينهارت، تكملة المعاجم العربية (بغداد: ١٩٨١).
٥٢ - دائرة المعارف الاسلامية، مادة شرطة (الطبعة العربية).
٥٣ - الرفاعي، انور، النظم الاسلامية (بيروت: ١٩٧٣).
٥٤ - الصالح صبحى، النظم الاسلامية (بيروت: ١٩٦٨).
٥٥ - عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام (بيروت: د/ت).
٥٦ - عبدالعزيز بن محمد، نظام الحسبة في الاسلام (الرياض: ١٣٩٣هـ).
٥٧ - العلى، صالح احمد، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (بيروت: ١٩٦٩).
٥٨ - المعاضيدى، عبدالقادر، واسط في العهد الاموى (بغداد: ١٩٧٦).
٥٩ - محمد اسعد طلس، تاريخ الامة العربية، عصر الانطلاق (بيروت: ١٩٥٧).
٦٠ - المعجم الوسيط، يصدره مجمع اللغة العربية (طهران: د/ت).
٦١ - اليوزبكى، توفيق سلطان، دراسات في النظم العربية الاسلامية (بيروت: ١٩٦٨).

ثالثا : البحوث العلمية والمقالات :

٦٢ - الحديثى، قحطان عبدالستار، تنظيمات الشرطة في العصر العباسى الاول، بحث منشور في مجلة المربد، العدد الاول السنة الاولى، (البصرة: ١٩٦٨). (مع ملاحظة ان معظم نصوص البحث ومادته تتفق والعصر العباسى الثانى).
٦٣ - الشيبى، كامل، طبقات اصحاب الشرط (بحث) منشور في مجلة افاق عربية، العدد ٤ (بغداد: ١٩٨١).
٦٤ - فؤاد محمد طه، هارون الرشيد وجهاز الشرطة (مقال) منشور في مجلة الساهرون العدد ٢٩ (بغداد: ١٩٨١).
٦٥ - مصطفى، جواد، من اصحاب الشرط الادباء (بحث) منشور في مجلة كلية الشرطة العدد الاول (بغداد: ١٩٦٧).
٦٦ - عبدالجبار ناجى، صلاحيات صاحب الشرطة والقاضى (مقال) منشور في مجلة الشرطة، العدد ٢٨ (بغداد: ١٩٧٤).

الهــوامش

(١) من جملة تلك المراجع التى كتبت عن الشرطة بشكل عام انظر مايلي: حسن ابراهيم النظم الاسلامية (القاهرة: ١٩٧٠)، ص٢٣٣ ـ ٢٣٥، صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص٣٣٣، اليوزبكي، دراسات فى النظم العربية الاسلامية، ص ١٤٧.

(٢) من جملة تلك المقالات والبحوث التى كتبت عن الشرطة ونشرت فى بعض المجلات العربية انظر: د. عبدالجبار ناجي، صلاحيات صاحب الشرطة والقاضي فى العصر الاسلامي (مجلة الشرطة) العدد ٢٨ لسنة ١٩٧٤، ص ٣٤ ـ ٣٧، فؤاد محمد طه، هارون الرشيد وجهاز الشرطة (مجلة الساهرون) العدد ٢٩ لسنة ١٩٨١، ص ٣٧ ـ ٣٨، مصطفى جواد، من اصحاب الشرطة الادباء (مجلة كلية الشرطة) العدد الأول لسنة ١٩٦٧، ص ٢١ ـ ٢٩ وهذا البحث لا يتحدث عن الشرطة وانما عن ادب وعن شعر عبدالله بن عبدالله الخزاعي الذى كان صاحب شرطة بغداد فى القرن الثالث الهجري.

(٣) انظر بحث الدكتور الشيبي فى مجلة افاق عربية، العدد الرابع، كانون الاول سنة ١٩٨٢، ص ١١٥ ـ ١٢٤.

(٤) راجع بحث الحديثي فى مجلة المربد، جامعة البصرة، العدد الاول لسنة ١٩٦٨ ص١٧١ ـ ١٨٩.

(٥) مما يجدر ذكره ان الباحث هنا استقرأ العديد من المصادر والمراجع الحديثة الخاصة بالازياء والملابس فى العصر العباسي من اجل ان يقف على حقيقة ازياء الشرطة فلم يتوصل الى تفصيلات محددة.

(٦) انظر: الفيروزابادى، القاموس المحيط (القاهرة: ١٩٣٥): ٢/٣٨١.

(٧) راجع دائرة المعارف الاسلامية، مادة (شرطة) المطبعة العربية: ١٣/١٩٢ ـ ١٩٣.

(٨) الزمخشرى، اساس البلاغة (القاهرة: ١٩٢٤)، ص ٣٢٦، المعجم الوسيط يصدره مجمع اللغة العربية (طهران: د/ت) ص ٤٨١.

(٩) انظر: الصحاح فى اللغة والعلوم، اعداد وتصنيف نديم مرعشلي (بيروت: ٧٤) ١/٦٥٧.

(١٠) الزمخشرى، المرجع السابق، ص ٣٢٦، وانظر: ابن منظور، لسان العرب (القاهرة: ١٣٠٠ هـ) ٩/ ٢٠٤، وانظر: انور الرفاعي، النظم الاسلامية (بيروت: ١٩٧٣) ص ٩٨.

(١١) اسحاق بن ابراهيم الكاتب، البرهان فى وجوه البيان، تحقيق د. احمد مطلوب وزميلته (بغداد: ١٩٦٧) ص ٣٩٣.

(١٢) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: د/ ت) ط ٣ ٣/ ١١٤.

(١٣) الكاتب، السابق، ص ٣٩٤.

(١٤) ابن خلدون، التاريخ (بيروت: ١٩٥٨) : ٦/ ٣١٠ ـ ٣١١.

(١٥) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك (القاهرة: ١٩٦٨): ٩/ ٥٧٩ ومما يجدر ذكره ان الطبرى اورد فى حوادث سنة ٢٦٥ عند حديثه عن الوقعة بين احمد بن ليثوية وسليمان قائد الزنج ان سليمان هذا كان يقيم فى منطقة (الشريطية) الطبرى السابق: ٩/ ٥٤٢ وقد كتبها ابن الاثير فى تاريخه باسم «الشريطة» انظر الكامل فى التاريخ (بيروت: ١٩٦٥): ٧/ ٣٢٢.

(١٦) انظر: ابن عربي، الفتوحات المكية (القاهرة: ١٢٧٠هـ): ٢/ ٤٣٣، عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام (بيروت: د/ت)، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(١٧) الطبرى، التاريخ (ليدن: ١٨٧٩م) : ٣/ ١٨٢، شلبي، التاريخ الاسلامي (القاهرة: ١٩٦٠): ٢/ ٣٥. قحطان الحديثي، تنظيمات الشرطة (بحث منشور فى مجلة المربد) العدد الاول لسنة ١٩٦٨، ص١٧٢، فؤاد طه محمد، هارون الرشيد وجهاز الشرطة (مقال منشور فى مجلة الساهرون) العدد ٢٩ لسنة ٨١، ص ٣٧.

(١٨) رمزية الخيرو، ادارة العراق فى صدر الاسلام (بغداد: ١٩٧٨)، ص ١٣٨، عبدالجبار ناجي، صلاحيات صاحب الشرطة والقاضي (مقال منشور فى مجلة الشرطة، العدد ٢٨ لسنة ١٩٧٤، ص ٣٥.

(١٩) ابن خلدون: المقدمة، مطبعة الكشاف (بيروت: د/ت)، ص٢٥١، البلاذرى، انساب الاشراف: ٤/ ٢١٦، حسن النظم الاسلامية (القاهرة: ١٩٧٠)، ص ٢٣٣.

(٢٠) رينهارت دوزى، تكملة المعاجم العربية (بغداد: ١٩٨١): ٤/ ٣٣٨.

(٢١) البرهان فى وجوه البيان، تحقيق احمد مطلوب وزميلته (بغداد: ١٩٦٧)، ص٣٩٣.

(٢٢) نفسه.

(٢٣) انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥١، ابن ابى الربيع، سلوك الملوك فى تدبير الممالك، تحقيق ناجى التكريتى (بيروت: ١٩٧٨)، ص ١٦١.

(٢٤) اليوزبكي، دراسات في النظم العربية الاسلامية (الموصل: ١٩٧٨)، ص ١٤٧، حسن النظم، ص ٢٣٣، ناجي، صلاحيات صاحب الشرطة، السابق، ص ٣٧.

(٢٥) العسس: كلمة عربية تصف من طاف بالليل و(عسسا) تعني نفض الليل عن اهل الريبة. وقوم عسس خادم، وانظر الرازي، مختار الصحاح (بيروت: ١٩٦٧) ص ٤٣٢.

(٢٦) انظر: عبدالعزيز بن محمد، نظام الحسبة في الاسلام (الرياض: ١٣٠٣هـ) ص ٦١ ـ ٦٣، عبدالسلام هارون تهذيب سيرة ابن هشام، ص ٢١١ ـ ٢٦٦.

(٢٧) ابن عربي، الفتوحات المكية: ٢/٤٣٣، ابن حجر، الاصابة في معرفة الصحابة (القاهرة: ١٩٣٩): ١/٨٢، محمد سعد طلس، تاريخ الامة العربية، عصر الانطلاق (بيروت: ١٩٥٧): ٢/١٢٨.

(٢٨) ابو الفدا، المختصر في اخبار البشر (القاهرة: ١٣٢٥هـ): ١/١٦٥، ناجي صلاحيات صاحب الشرطة، السابق، ص ٣٥، الشيبي، طبقات اصحاب الشرط، السابق، ص ١١٦، الخيرو، ادارة العراق ص ١٣٨.

* من الجدير بالذكر ان بعض المصادر القديمة اشارت الى انه كان في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) شرطة ايضا وبالاسم الصريح. وقد ذكر المؤلف المجهول انه عند وفاة العباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) سنة ٣٢ هـ ازدحم الناس بشكل غير متوقع للمشاركة في مراسيم دفنه فارسل عثمان الشرط لدفع الناس عن مكان اللحد حتى يخلص بنو هاشم للفراغ من مراسيم الدفن. راجع اخبار الدولة العباسية تحقيق عبدالعزيز الدوري (بيروت: ١٩٧١) ص ٢٢.

(٢٩) ابن عربي، كتاب محاضرة الابرار ومسامرة الاخبار (الطبعة العثمانية: ١٣٠٥هـ): ٥/٢٥.

(٣٠) انظر: صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ٣٣٣. حسن النظم الاسلامية، ص ١٨٩ الخيرو، ادارة العراق، ص ١٣٨.

(٣١) الشيبي، السابق، ص ١١٨.

(٣٢) ناجي، صلاحيات، السابق، ص ٣٥.

(٣٣) الكاتب ، البرهان ، ص ٣٩٤ .

(٣٤) انظر : البلاذري ، انساب الاشراف (القدس : ١٩٣٦) ب/٢٢١ ، صالح العلي التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (بيروت : ١٩٦١) ، الخيرو، ادارة العراق ، ص ٢٣٩ .

(٣٥) الطبري ـ التاريخ ٢/٧٧ وص ١١٧ .

(٣٦) عبدالقادر المعاضيدي ، واسط في العصر الاموي (بغداد: ١٩٧٦)، ص ٢٧٢ .

(٣٧) انظر قائمة طبقات اصحاب الشرط في العهد الاموي الشيبي ، السابق ، ص ١١٨ .

(٣٨) ابن عبدربه ، العقد الفريد (القاهرة: ١٩٦٥) : ٥/١٩ .

(٣٩) انظر : ابن عربي محاضرة الابرار ، السابق : ١/ ٩٢ ، تاريخ خليفة بن خياط تحقيق اكرم ضياء العمري (بغداد: ١٩٦٧) ٢/ ٣٨٩، ٤٢٣، ٤٣٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧٤ ، ٤٨٠، ٥٠١ ، الشيبي ، السابق ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٤٠) الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩

(٤١) عبدالجبار ناجي ، صلاحيات صاحب الشرطة ، السابق ، ص ٣٤ ، احمد امين ، ظهر الاسلام (القاهرة: ١٩٦٢) ٢/٢٥٥ .

(٤٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٥١ .

(٤٣) انظر : القلقشندي ، صبح الاعشى في كتابة الانشا (القاهرة : ١٩١٦) : ٥/٤٥٠

(٤٤) الكاتب ، البرهان في وجوه البيان ، ص ٣٩٣ .

(٤٥) انظر : الاصفهاني ، الاغاني (القاهرة : د/ت) : ٣/٢٥٠ .

(٤٦) انظر : الفرج بعد الشدة (القاهرة : ١٩٥٥) : ١/٩٣ وانظر، الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري (بيروت : ١٩٦١) ، ص ١١ .

(٤٧) راجع الفهرست (القاهرة : ١٣٤٨هـ) ،ص ٣٦٦ .

(٤٨) من جملة من سمي من اصحاب الشرط باسم الجلواز والعذاب مدير شرطة الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق وهو (ميمون مولى حوشب بن يزيد) والذي كان شديد التنكيل بخصوم الامويين وقد قتله الخوارج غرقا في نهر دجلة سنة ٧٨ هـ /٦٩٧م . انظر : كامل الشيبي طبقات اصحاب الشرطة (بحث منشور في مجلة آفاق عربية) العدد الرابع لسنة ١٩٨٢ ص ١١٨ .

(٤٩) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٥١ ، وانظر اليعقوبي ، التاريخ (ليدن : ١٩٨٣) : ٢/٤٩٧ .

(٥٠) ابن عبد ربه ، العقد الفريد (القاهرة : ١٩٦٥) :١٥/ ١٤ .
(٥١) انظر : مادة طبقات اصحاب الشرطة في العصر العباسي .
(٥٢) انظر : دريد عبدالقادر سياسة صلاح الدين الايوبي (بغداد : ١٩٧٦) ، ص ٧٠ ـ ٧١ .
(٥٣) انظر : ابن عربي ، تهذيب الاخلاق (القاهرة : ١٣٣٢هـ) ص٧ ـ ٨ .
(٥٤) الغزالي : كيمياء السعادة (القاهرة : ١/١٣٢هـ) ، ص ٥١٢ ، ابن سينا ، علم الاخلاق (القاهرة : ١٣٢٨هـ) ص ١٩٢ .
(٥٥) الغزالي ، معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ص ٩٨ .
(٥٦) الجاثية : ٢٢ ، الاعراف : ١٧٦ .
(٥٧) ابن عربي ، السابق ، ص ١٠ .
(٥٨) السابق ، ص ١٢ ـ ١٣ .
(٥٩) انظر : قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة (بغداد : ١٩٨١) ، ص ٤٧ ، الكاتب ، البرهان في وجوه البيان (بغداد : ١٩٦٧) ، ص ٣٩٤ .
(٦٠) انظر : احمد بن ابي الربيع : سلوك الملوك في تدبير الممالك ، تحقيق ناجي التكريتي (بيروت : ١٩٧٨) ، ص ١٦٢ .
(٦١) الاقنى وهو المرتفع اعلى الانف المحدودب وسطه ، والاجنى وهو الاحدب الظهر .
(٦٢) البيان والتبيين : ١/٩٥ .
(٦٣) راجع الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٧ .

(٦٤) مصطفى جواد : من أصحاب الشرطة الادباء (بحث منشور في مجلة كلية الشرطة) العدد الاول بغداد: ١٩٦٧، ص ٢٢
(٦٥) جواد ، السابق، ص ٣٢.
(٦٦) أحمد القريشي ، معالم القربة ، ص ٧ الغزالي احياء علوم الدين : ٢/١٢٨ .
(٦٧) ان شروط صاحب الشرطة تنطبق وشروط متولي الحسبة . ويمكن الاطلاع على مجمل تلك الشروط في المصادر التالية : الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ٢٤ ، الغزالي احياء علوم الدين : ٢/٣٠٩، القرشي، معالم القربة، ص ٨ ـ ١٠
(٦٨) اورد قدامة بن جعفر نسخة عهد طويلة خاصة بولاية صاحب الشرطة (او المعونة) يتبين فيها ان الخليفة كان يحدد المسار الذي يجب ان يسير عليه صاحب الشرطة . انظر: كتاب الخراج وصناعة الكتابة ص ٤٤ ـ ٤٧ .
(٦٩) راجع الكامل في التاريخ : ٦/٣٤ ـ ٣٥ .
(٧٠) انظر : التنوخي ، الفرج بعد الشدة : ١/٩٣ .
(٧١) البرهان في وجوه البيان ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .
(٧٢) انظر : الطبري ، التاريخ: ٣/١٢٩، ٣٧٨، الحديثي ، تنظيمات الشرطة بحث السابق ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(٧٣) مجهول المؤلف ، العيون والحقائق في اخبار الحدائق (النجف : ١٩٧٢) : ٤/٣٥١ .
(٧٤) الشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة (بيروت : ١٩٦٩)، ص ٨ .
(٧٥) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ص ١٢٤ .
(٧٦) انظر : الحديثي ، تنظيمات الشرطة بحث السابق ، ص ١٧٥ .
(٧٧) انظر : المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة: ١٩٥٨): ٤/٩٥ ، التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ص ٢٧٣ .
(٧٨) البرهان في وجوه البيان ، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ . وانظر فيما يخص اطلاع صاحب الشرطة على تفاصيل ما يحدث في المدينة : التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص ١٧٣ .
(٧٩) ابن الاثير : الكامل (القاهرة : ١٣٥٧ هـ) : ٤/١٥٢ ، ابن خلدون التاريخ : ٣/٥٠٨ .
(٨٠) خليفة بن خياط ، التاريخ (بغداد : ١٩٦٧)، ص ٤٢٣ .
(٨١) انظر : التنوخي ، الفرج بعد الشدة : ١/٤١ ، ١٦٥ .
(٨٢) السابق ، ص ٤٠٠ .
(٨٣) انظر : الكاتب ، السابق ، ص ٣٩٣ .
* هناك ذكر لوصف مجلس صاحب الشرطة ومكانه في بغداد في العصر العباسي المتأخر يمكن ملاحظته في بحث :

الحديثي ، تنظيمات الشرطة (السابق) ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .
(٨٤)انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين : ١١٤/٣ مع ملاحظة ان الباحث استقرأ العديد من المصادر والمراجع ولم يصل الى تفصيل زى الشرط .
(٨٥) السابق ، ص ١٤٦ .
(٨٦) الرازى ، مختار الصحاح (بيروت : ١٩٦٧) ص ٦٧٤ .
(٨٧) اليوزبكي ، دراسات في النظم العربية الاسلامية ، ص ١٤٩ . وقد ورد ذكر العرفاء في الكامل لابن الاثير (مطبعة القاهرة ١٣٥٧ هـ) ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٨٨) التنوخي ، الفرج بعد الشدة : ٢٣٢/١ .
(٨٩) اليوزبكي ، السابق ، ص ١٤٩ .
(٩٠) الرازى ، السابق ، ص ٤٢٧ .
(٩١) البرهان في وجوه البيان ، ص ٤١٧ .
(٩٢) نفسه
(٩٣) الكاتب ، السابق ، ص ٤١٧ .
(٩٤) التنوخي ، الفرج بعد الشدة : ١٠٨/١
(٩٥) التنوخي ، السابق ، ص ١٨٦ .
(٩٦) السابق ، ص ١٣٠ .
(٩٧) المقرعة : بالكسر وهي السوط وهو ما تقرع به الدابة ، انظر : الرازى ، مختار الصحاح ، ص ٥٣١ .
(٩٨) في كتاب التنوخي (الفرج بعد الشدة) هناك العديد من الروايات التى يستدل منها على اعمال الحرس الخاص والليلي وصفاته من ذلك ماورد في ص ١٣٠ /، ١٣٨، ١٧٥ .
(٩٩) التنوخي ، الفرج بعد الشدة : ١٧٥/١ .
(١٠٠) السابق ، ص ٢٢٠ .
(١٠١) الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٦٢٨ .
(١٠٢) انظر : القرآن ، سورة الماعون : ٧ .
(١٠٣) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٤٤ .
(١٠٤) السابق ، ص ٤٤ ـ ٤٥ ، الحديثي ، تنظيمات الشرطة (بحث سابق) ، ص ١٨٨ .
(١٠٥) التنوخي ، الفرج : ٢٤١/١ ـ ٢٤٢ ، نشوار المحاضرة : ٢٤١/٨ ـ ٢٤٢ .
(١٠٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد (بيروت : ١٩٦٢) : ١٧٧/٤ .
(١٠٧) الكاتب ، البرهان ، ص ٣٩٤ .
(١٠٨) عن شرعية العقوبة في الاسلام وحدودها انظر : احمد بهنسي ، السياسة الجنائية في الشريعة الاسلامية (بيروت : ١٩٨٣) ، ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .
(١٠٩) سورة النور : ٢ .
(١١٠) البقرة : ١٧ .
(١١١) الطلاق : ١ .
(١١٢) ابو اسحاق الكاتب ، البرهان في وجوه البيان ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .
(١١٣) انظر : الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ٨٢ .
(١١٤) الكاتب ، البرهان ، ص ٣٩٤ .
(١١٥) انظر : قدامة الكتابة وصناعة الخراج ـ ص ٦٥ ـ ٧٦ ، الكاتب ، البرهان ، السابق ص ٣٩٥ ـ ٣٩٩ ، احمد فتحي بهنسي السياسة الجنائية في الشريعة الاسلامية ص ٢٧٠ ـ ٨٢٥ .
(١١٦) انظر : ابن الجوزى ، المنتظم (حيدر اباد الدكن : ١٣٥٧ هـ)، التنوخي ، الفرج بعد الشدة ٢٥٢/١ .
(١١٧) التنوخي ، الفرج : ١٨٦/١ ـ ١٨٧ .
(١١٨) السابق ، ٢٢٨/١
(١١٩) انظر مثلا : التنوخي ، الفرج ٤٩/١ ، ٩٧ ، ٢٢٧ ، ٢٩٥ ، ابن الجوزي ، كتاب الاذكياء (بيروت : ١٩٨٠) ، ص ٤٤ ، ٥٢ .
(١٢٠) ابن خلدون ، التاريخ : ٣٠٨/٣ .
(١٢١) التنوخي ، الفرج : ٢٥٢/١ .

(١٢٢) انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد : ٢/١٧٤ ـ ١٧٦ وجـ ٤/٤٤ ، ١١٥ ـ ١٢٤ .

(١٢٣) راجع بخصوص الامام احمد بن حنبل وجلده : عبدالحليم الجندي ، احمد بن حنبل (القاهرة: ١٩٧٠) ص ٤٤٣ ـ ٤٤٩ .

(١٢٤) ابو اسحاق ابراهيم على القيرواني ، زهر الاداب وثمر الالباب (بيروت : ١٩٧٢) ٤/١٠٧٨ .

(١٢٥) محمد بن الحسن الحر العاملي ، الجواهر السنية في الاحاديث القدسية (النجف : ١٩٦٤)، ص ١٤٥ .

(١٢٦) محمد بن طاهر الفتنى ، تذكرة الموضوعات (بيروت د/ت) ، ص ١٨٤ .

(١٢٧) السابق

(١٢٨) السابق ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(١٢٩) راجع احياء علوم الدين : ٢/٣٢٧

(١٣٠) انظر بخصوص وسائل الردع التى كان يستخدمها صاحب الشرطة والمحتسب : عبدالعزيز بن محمد ، نظام الحسبة فى الاسلام ص ١٠٨ ـ ١١٣ وص١٥٤ ـ ١٦٠ .

(١٣١) ذكر عن الرسول (ص) قوله فى تشديد عقوبة القتل على من كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفسا بغير نفس انظر : بهنسى ، السياسة ، ص ٣٢٢ .

(١٣٢) انظر : بهنسى السياسة ، ص ٣٢٠ ـ ٣٢٩ .

(١٣٣) عن تكفل الدولة العباسية بالانفاق على المجرم واهله او المتهم المسجون ورد الكثير من النصوص الشرعية والتاريخية ، لان الاسلام يعتبر العقوبة خاصة بالجانى ولا علاقة لاهله ولاقربائه بما يقترف من ذنب (فلكل امرىء ما اكتسب من الاثم) وقد ورد عن الفقيه ابو يوسف للرشيد قوله انه « لم تزل الخلفاء تجرى على اهل السجون ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم فى الشتاء والصيف انظر : بهنسى ، السياسة ، ص ٢٣٥ .

(١٣٤) انظر : الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤ .

بحوث التاريخ القديم والآثار

آنية الشرب الفخارية المكتشفة في حفريات البتراء لعام ١٩٨١

بقلم : د . نبيل إبراهيم الخيري
قسم الآثار
الجامعة الأردنية ـ عمان

تتناول هذه الدراسة بعض آنية الشرب الفخارية التى تم العثور عليها ضمن مجموعات فخارية غير ملونة في حفريات البتراء لعام ١٩٨١ (الأشكال ١ ـ ٤) . إن كثرة القطع المكتشفة دليل واضح على انها كانت تمثل نسبة عالية في الممتلكات الفخارية التى كان يستعملها سكان مدينة البتراء . ويمكن تصنيف هذه القطع في ثلاثة أنواع رئيسية هي :

١ ـ كؤوس فخارية نصف كروية (الشكلان ١ ـ ٢) .

٢ ـ كؤوس ذات حافة أفقية مبسطة (الشكل ٣) .

٣ ـ كؤوس كروية محاطة بأضلاع بارزة (الشكل ٤) .

المميزات العامة للأنواع الثلاثة :

أولا ـ الكؤوس الفخارية نصف الكروية (الشكلان ١ ـ ٢) :

في وسعنا بيان السمات المميزة لقطع هذا النوع من خلال الأوصاف التالية :

أ ـ الشكل : تمتاز القطع الخاصة بهذا النوع بأنها حادة أو مستديرة ، وقد ذهب جيمس كلسو وديمترى برامكي (J. Kelso and D. Baramki) الى أن آنية الشرب ذات الحافة المتجهة قليلا الى الداخل هي أكثر الاطباق الفخارية غير المصقولة انتشارا خلال العصرين الهللنستى والروماني في فلسطين[١] . كما قالت كاثلين كنيون (K. Kenyon) ان الاطباق ذوات الحافة المتجهة قليلا الى الداخل هي الأقدم والأكثر انتشارا في حفريات سبسطية[٢] ، وقد صنفت هذه الاطباق في فئة رومانى ١ ـ Roman I ، وأعادتها الى الفترة المتدة ما بين ٣٠ ـ ٢٠ ق.م. وأشارت في معرض حديثها الى أن الاطباق الفخارية الصغيرة ، والتى يقل قطرها عن ٢١ سم قطع نادرة الوجود في حفريات سبسطية[٣] .

ان قطر الكؤوس الخاصة بالنوع الأول ، موضوع الحديث ، لا يزيد في أية حالة عن ٨ سم . كما ان جوانب غالبية القطع مستديرة ، مع كونها في حالات قليلة قائمة أو مائلة قليلا الى الداخل .

أما الجوانب المضلعة (sharply carinated) فنادرة (الشكل ٢ : ١٩) .

أما قواعد الكؤوس فعلى نوعين : حلقي (ring base) وقرصي (disc base) . والأول هو الشائع ، أما الثاني فيظهر على واجهته السفلى آثار فصل الكأس عن العجينة التى صنع منها أثناء وجوده على عجلة دولاب الخزاف . اننا نتوقع ان تكون الأداة المستخدمة في هذا الصدد سكينا حادة أو لعلها نوع من الخيوط . واذا كانت الكؤوس ذوات القواعد المبسطة أو القرصية في قمران ـ ترجع الى « الفترة الثانية » فان الكؤوس ذوات القواعد الحلقية أكثر قدما منها [٤].

ب ـ المادة الفخارية : تمتاز العجينة الفخارية التى صنعت منها كؤوس النوع الأول بشيوع اللون الارجواني [٥] ، أو الأحمر الفاتح مع كونها بنية أحيانا . ان الآنية المصنوعة من هذه العجينة جيدة الحرق مع ظهور بعض البقع الخضراء أو البنية أحيانا كنتيجة للحرق غير الصحيح . يضاف الى هذا ان ملمس الكؤوس ذوات القواعد الحلقية ناعم لندرة الحصى الجيرى في العجينة أو لكون هذه الحصيات ـ ان وجدت ـ قليلة وصغيرة للغاية . أما عجينة الكؤوس ذوات القواعد القرصية المنخفضة فأكثر خشونة لوجود عدد أكبر من الحصى الجيرى فيها .

تتراوح سماكة العجينة التى صنعت منها الكؤوس ذوات القواعد الحلقية بين ١ ملم في الأجزاء العليا من الكأس و٤ ملم في الأجزاء القريبة من القاعدة . أما الكؤوس ذوات القواعد القرصية المنخفضة فتتراوح سماكة عجينتها بين ٢ ـ ٥ ملم .

جـ ـ معالجة السطح : يتبين من دراسة سطح الآنية ان معظمها مغطى بطبقة أو بطانة أفرزتها العجينة التى صنع منها الكأس خلال عملية الحرق (engobe)[٦] . ولهذه الطبقة لون أحمر أرجواني . ويظهر في بعض الحالات شريط أبيض ضارب الى الصفرة يلتف حول حافة الكأس من الخارج . وقد ذكر موريه والليس (M. Murray and J. Ellis) ان وجود هذا الشريط أمر شائع[٧] . غير اننا نلاحظ ان بعض النماذج تحمل شريطا أو أكثر من الزخارف قد صنعت أثناء دوران القطعة على قرص الخزاف . يضاف الى هذا خلو السطح الخارجي في الغالب من أية انبعاجات أو نتوءات . ان الشريط الزخرفي المصنوع بعجلة الروليت يظهر أحيانا على السطح السفلي للقاعدة الحلقية أو حول هذه القاعدة من الخارج . ولعل أفضل النماذج المشابهة لهذا تلك الكؤوس التى عثر عليها في سبسطية وهي أحد المواقع النبطية في النقب[٨] ، وكذلك في البتراء[٩] .

يشير فحص بعض القواعد الحلقية الى ان الخزاف قد استخدم أظافره في تحزيز عجينة القاعدة قبل جفافها ، ومن هنا تظهر على القاعدة أشكال هلالية متراصة ومحززة تؤلف دائرة (الشكل ١ : ٩) . ان علينا أن نقول ان استعمال عجلة الروليت في زخرفة القواعد الحلقية أكثر شيوعا من استعمال الأظافر لنفس الغاية .

أما فيما يتصل بالقواعد القرصية فلم يعثر بعد على أية قطع مزخرفة باحدى الطريقتين المذكورتين أعلاه . وقد ذكر نلسون جلوك (N. Glueck) ان الفخار النبطي الرقيق الملون والفخار النبطى المزخرف بعجلة الروليت مصنوعان من ذات العجينة الفخارية ، ويرجعان الى نفس الفترة الزمنية ، وانتهى الى القول « بأن جذور الفخار النبطى المزخرف بعجلة الروليت ترجع الى ذلك النوع من الفخار المستورد والمعروف باسم « تراسجللاتا » (Terra Sigillata)[١٠] .

ثانيا ـ الكؤوس ذوات الحافة الأفقية المبسطة (الشكل ٣) :

أ ـ الشكل : تتميز هذه الكؤوس بحافة أفقة عريضة ، الأمر الذي يجعلها كؤوسا غير عملية أو مريحة في الاستعمال ، وذلك لصعوبة الشرب منها بدون اراقة لمحتويات الكأس . (انظر استعمال القطع لاحقا) . تمتاز جوانب هذه الكؤوس

بـاستقامتهـا مع انفـراجها قليـلا عند التقـائها بالحافة العليا ، وليس لهذا النوع من الكؤوس أية مقابض أو قواعد قرصية كانت أو مستديرة ، وهو ما يميزها عن النماذج المشابهة التى عثـر عليها خارج المواقـع النبطيـة ـ مثل خـربة قمـران ـ والمتميزة بقواعدها القرصية[١١] . وقد ذكر بول لاب (P. Lapp) ان كـؤوس قمـران الشبيهـة بنماذج النوع الثـاني هي من الأنواع الفـريدة سواء في قمران أو خارجها[١٢] . ويعنى هذا من وجهة نظرنا ان النماذج المشابهة خارج المواقـع النبطية نادرة الى أبعد الحدود .

يمكن تصنيف كؤوس النوع الثاني الى فئتين:
(١) تضم الفئـة الأولى تلك الكؤوس التي يـزيد طولها قليلا عن القطر الخارجي للفوهة (الشكل ٣ : ٢١ ـ ٢٥).

(٢) وتضم الفئة الثانية الكؤوس الأقل طولا والأكثـر سماكـة وذوات حواف تتجـه قليلا الى الخارج (الشكل ٣ : ٢٦).

وتتميـز قطع الفئـة الأولى بصناعتهـا المتقنة وشكلها الرشيق، وهي الأكثر شيوعا. ويندر وجود الالتواءات أو الانبعاجات فيها. أما كؤوس الفئة الثانية فغير متقنة الصنع نسبيا، كما تزيد سماكة البدن فيها مع وجود انبعاجات هنا وهناك. ان قطع هذه الفئة متأخرة نسبيـا عن قطع الفئـة الأولى (انظر تأريخ قطع المجموعات الثلاث لاحقا).

ب ـ المادة الفخارية : تتميز المادة الفخاريـة لكؤوس النوع الثاني بغلبة مجموعة لونية معينة عليهـا كـاللون الارجـواني ، أو البـرتقـالي ، أو البرتقالي المـائل الى الحمـرة ، أو اللون الرمادي الداكن . ويـلاحظ عنـد كسر بعض القـطع ذات اللون الأحمر الفاتح وجود طبقـة رماديـة (grey core) تدل على أن حرق القطع لم يكن جيدا، كما توجد على السطح الخـارجي لبعض القطع بقـع رمادية ناتجة عن عدم حرق كـل أجزاء الكـأس بشكل مماثل .

وعلى كل حال فان عجينة معظم كـؤوس هذه المجموعة تكاد تخلو من الحصيات والشوائب مع كونها جيدة الحرق ، هذا في الوقت الذي تتسم فيه قـطع النماذج المشـابهـة والتى عثـر عليهـا في قمـران[١٣] ، ورامـات راحيـل[١٤] ببـدن أكثـر سماكة ، وصناعة أقل جودة ، مع ظهور آثار عجلة الخزاف على السطح الداخلي لهذه الكؤوس .

جـ ـ معـالجة السـطح : يتضح من دراسـة سطح كؤوس النوع الثاني ان غـالبيتها مغـطى ببطانة رقيقة حمراء أو ارجوانية ، كما توجد هذه البطانة على الجزء الداخـلي لبعض نماذج هـذه الكؤوس ، ولكن بشكل مشرشر وغير منتظم . كما عثر على نماذج محدودة العدد وقد غطيت ببطانة بنية فاتحة اللون مع وجود بعض بقع هذه البطانة على سطحها الداخلي . وتحمل بعض نماذج هذا النوع شريطا أو أكثر من الزخـارف المصنوعـة بواسطة عجلة الروليت ، وقد ضغطت على السطح الخارجي قبل الحرق .

ثالثا ـ الكـؤوس الكروية المحاطة بـأضلاع بارزة (الشكل ٤) :

يمكن وصف السمات المميزة لقطع هذا النوع من خلال الأوصاف التالية :

أ ـ الشكل : تتميز كؤوس هذه المجموعة بحافة متجهة الى الخارج وذات مقطع سميك نسبيا في بعض الحـالات . كما ان عنق الكـأس قصـير ، وأكتافها مستديرة ، وتحمل قاعدتها القرصية آثار فصل القطعة عن العجينة الأم بآلة حادة . ومع ان لبعض القطع قاعدة مستديرة الا اننا لم نعثر على قطع ذات قواعد حلقية .

ب ـ المادة الفخارية : تتميز المادة الفخاريـة لهـذه الكؤوس بلون أحمـر ارجـواني ، وملمس خشن نسبيـا ، مع وجـود بعض الخدوش عـلى السطح الخارجي وظهور آثار الآلة المستخدمة في صناعة القطعة . ويلاحظ وجود بعض الشقوق في بدن بعض القطع كنتيجـة طبيعية لوجـود حصى جيرى أبيض اللون ذى حجم كبير نسبيا ، الأمر الذي يؤثر على معدل تمدد العجينة خلال حرقها ، ويؤدى في النهاية الى ظهور الشقوق سالفة الذكر .

جـ ـ معالجة السطح : لقد غطى السطح الخارجي للكؤوس والاطراف العليا الداخلية ببطانة بيضاء ضاربة الى اللون الأصفر ، وهي في حالة هشة حتى انه لم يبق منها في معظم الاحيان الا أجزاء محدودة للغاية . ويميل لون هذه البطانة ، في حالات قليلة ، الى اللون الأحمر الارجواني . ولعل الاضلاع (ribbing) الافقية البارزة هي من أهم خصائص هذه المجموعة . وتتميز هذه الاضلاع بكونها عريضة عند الكتف ثم تقل سماكتها تدريجيا كلما اتجهنا نحو أسفل الكأس حتى تتلاشى عند القاعدة .

تاريخ قطع الأنواع الثلاثة

لقد ذكرنا أن النوع الأول من الكؤوس يضم قطعا ذوات قواعد حلقية ، وجوانب مستديرة اضافة الى القطع ذوات الجوانب العمودية ، ومع اننا قد عثرنا ، في بعض الحالات ، على هذين النوعين من القطع في ذات الطبقة الا اننا نستطيع أن نقول ان القطع المستديرة الجوانب والحلقية القاعدة (الشكل ١: ١ ـ ١٠) أقدم من القطع العمودية الجوانب (الشكل ٢: ١١ ـ ١٦) ، ذلك اننا قد عثرنا على القطع المستديرة الجوانب في طبقات يتراوح تاريخها بين الربع الأخير من القرن الأول ق.م. ونهاية الربع الثالث من القرن الأول الميلادي . بينما عثرنا على القطع ذوات الجوانب العمودية في طبقات يتراوح تاريخها بين نهاية العقد الرابع من القرن الأول الميلادي وحوالي عام ١٠٦ للميلاد (أي نهاية حكم رابيل الثاني) . ان في وسعنا تأريخ الكأس المضلعة (carinated cup) (الشكل ٢: ١٩) بفترة حكم مالك الثاني ٤٠ ـ ٧٠ ميلادية .

يضاف الى ما سبق ان كؤوس النوع الأول تصير أصغر حجما وأكثر سماكة وخشونة (الشكل ٢: ١٧ ـ ١٨ ، ٢٠) في الفترة الواقعة ما بين عام ١٠٦ ميلادية ونهاية القرن الثالث الميلادي .

أما السمات التطورية لقطع النوع الثاني ذوات الحافة الأفقية المبسطة (الشكل ٣: ٢١ ـ ٢٦) فليس من السهل تحديدها بدقة . الا انه في وسعنا أن نقول بصورة عامة ان القطع الأكثر قدما ـ والتى ترجع الى العقود الأربعة الأولى من القرن الأول الميلادى ـ ذوات حواف أفقية مبسطة أقل اتساعا من تلك التي ترجع الى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي . ونلاحظ كلما اتجهنا نحو القرنين الثاني والثالث الميلاديين أن الكؤوس تصبح أقل طولا وأكثر سماكة وذوات حواف تتجه قليلا الى الخارج (الشكل ٣: ٢٦) .

أما الكؤوس الكروية المحاطة بأضلاع بارزة (الشكل ٤: ٢٧ على سبيل المثال) فقد تمَّ تأريخها بمساعدة قطعة نقدية ترجع الى عهد الحارث الرابع (٩ ق.م. ـ ٤٠م) . ويلاحظ ان قطع هذا النوع تصبح في عهد رابيل الثاني (٧٠ ـ ١٠٦م) ذوات أكتاف منبعجة قليلا وأكبر حجما .

استعمال القطع :

ان حجم كؤوس النوع الأول صغير الى الحد الذي ينفي امكانية ان تكون هذه الكؤوس مستعملة لغايات الشرب . وبخلاف ذلك فان على الفرد ان يملأ الكأس مرات ليروى ظمأه ، وهو ما يتعارض ومواصفات الكؤوس المصممة لشرب الماء . يضاف الى هذا ان حافة بعض كؤوس النوع الأول تميل قليلا الى الداخل على نحو لا يمكِّن الشارب المفترض من التحكم في عملية الشرب ، حيث سينسكب قدر من الشراب خارج الفم ، وان الطريقة الوحيدة التى يمكن بها استعمال هذه الكؤوس هي تناول رشفات صغيرة متقطعة على نحو ما يستعمل الناس اليوم فناجين القهوة .

لقد ذكر ديودورس ان الأنباط في القرن الرابع قبل الميلاد جماعة على جانب كبير من البداوة ، وانهم كانوا يحرمون شرب الخمر[١٥] . الا ان سترابو ذكر في فترة لاحقة ان انباط القرن الأول الميلادي « شعب يشرب الخمر ويعيش في بيوت مبنية من الحجر ، في مدن على قدر كبير من

الثراء ، وقال ان النبطي لا يشرب أكثر من احد عشر كأسا دهاقا مترعة ، ويشرب في كل مرة من كأس غير التي شرب بها في المرة السابقة »[١٦] .

أما كؤوس المجموعة الثانية فان حافتها الأفقية المبسطة تجعل من استعمالها في تناول الماء أو أي شراب آخر أمرا شاقا وعسيرا ، اذ يتعرض السائل الذي بداخلها للانسياب من حول فم الشارب . ان تناول الرشفات هي الطريقة الوحيدة المكنة لاستعمال هذه الكأس ذات الحافة « المجنحة » . ومن هنا فاننا نفترض ان لهذه الكؤوس قيمة جمالية في الدرجة الأولى ، وانها أقرب ما تكون الى التحف الفنية ، وان استعمال هذه الكؤوس اقتصر على تناول أصناف معينة من الأشربة كعصير الفواكه والنبيذ ، وفي مناسبات محدودة كالمناسبات الدينية والاجتماعية .

يسمح حجم وشكل كؤوس النوع الثالث باستعمالها في شرب الماء بطريقة طبيعية ومريحة . ومع انه ليس لهذه الكؤوس أية مقابض فان حجمها يمكّن المرء من احاطتها بقبضته .

وصف قطع النوع الاول :

يتألف النوع الأول من عدد من الكؤوس الفخارية نصف الكروية ، وفي وسعنا وصف قطع هذا النوع على النحو التالي :

١ ـ كأس غير مكتملة (الشكل ١:١) : يبلغ قطر هذه الكأس ٧,٣ سم ، وارتفاعها ٣,٨ سم . وقد عثر عليها مكسورة وتمَّ ترميمها مع بقاء بعض أجزائها مفقودة . وتميل جوانب هذه الكأس قليلا الى الداخل في الجزء العلوي . أما قاعدتها فحلقية . وقد صنعت من عجينة أرجوانية تتخللها طبقة رمادية . ويزين الفوهة من الخارج شريط من دهان أبيض اللون ، غير ان معظم هذا الشريط قد تقشر .

٢ ـ كسرة من فوهة كأس بالاضافة الى جزء من جسم الكأس (الشكل ٢:١) : يبلغ قطر الفوهة ٧,٩ سم ، وحافتها حادة وتتجه قليلا الى الداخل . وقد صنعت الكسرة من عجينة حمراء ـ برتقالية ، وخالية من الشوائب ، ومحروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة أرجوانية .

٣ ـ كأس غير مكتملة وذات جوانب مستديرة (الشكل ٣:١) : تنقص حافة هذه الكأس بمقدار الثلث . ويبلغ قطرها ٦,٦ سم ، وارتفاعها ٣,٩ سم ، وتميل حافتها الى الداخل قليلا . أما قاعدتها فحلقية . ان سطح العجينة يميل الى اللون الأحمر بينما طبقتها الداخلية تميل الى اللون الرمادي الغامق .

٤ ـ كأس مستديرة الجوانب (الشكل ٤:١) : لقد عثر عليها مكسورة وتم ترميمها ، ويبلغ قطرها ٧,٨ سم ، وارتفاعها ٣,٥ سم ، وحافتها العليا مستديرة ، وقاعدتها حلقية . وقد صنعت من عجينة ارجوانية مكسوة من الخارج ببطانة رقيقة ذات لون أبيض ضارب للصفرة .

٥ ـ كأس كاملة مستديرة الجوانب (الشكل ٥:١) : قطر هذه الكأس ٧ سم ، وارتفاعها ٣,٩ سم . حافتها العليا مستديرة ، وقاعدتها حلقية . وقد صنعت من عجينة ارجوانية اللون ، خشنة نسبيا ، وتحتوى على بعض الحصيات ، كما تظهر على البدن الخارجي بعض الترسبات الكلسية .

٦ ـ كأس كاملة فيما عدا وجود ثقب في القاعدة (الشكل ٦:١) : قطر هذه الكأس ٦,٩ سم ، وارتفاعها ٤,٣ سم ، ولها حواف تتجه قليلا الى الداخل ، وقاعدتها حلقية وقد صنعت من عجينة حمراء ـ ارجوانية جيدة الحرق .

٧ ـ كأس ناقصة عثر عليها مكسورة وتمَّ ترميمها (الشكل ٧:١) : قطر هذه الكأس ٧,٥ سم ، وارتفاعها ٤,١ سم ، ولها جوانب تميل قليلا الى الداخل في الجزء العلوي ، وقاعدتها حلقية . وقد صنعت من عجينة ارجوانية

تحتوى على بعض الحصيات الجيرية . وملمس البدن خشن نسبيا ، مع كسوته بشريط يلتف حول حافة الاناء من الخارج ، وذى لون أبيض ضارب للصفرة .

٨ ـ كأس مستديرة الجوانب (الشكل ١:٨) : قطر هذه الكأس ٧,٨ سم ، وارتفاعها ٤,٤ مدببة الحافة وقاعدتها حلقية . وقد صنعت من عجينة حمراء ـ عاجية . وتظهر على السطح الخارجي للكأس آثار بطانة بيضاء ضاربة للصفرة كانت تغطى بالأصل السطح بكامله .

٩ ـ كأس كاملة (الشكل ١:٩) : قطر هذه الكأس ٧ سم ، وارتفاعها ٤ سم ، وتتجه جوانبها قليلا الى الداخل في أعلاها ، أما حافتها فحادة . وقد زخرفت حافة القاعدة الحلقية من الداخل بأشكال هلالية صغيرة ناتجة عن ضغط الظفر في العجينة قبل جفافها وحرقها . أما عجينة الكأس فحمراء ـ ارجوانية وجيدة الحرق .

١٠ ـ كسرة كبيرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من بدن الكأس وقاعدتها (الشكل ١:١٠) : قطر هذه الكأس ٦,٤ سم ، وارتفاعها ٣,٨ سم ، وذات حافة حادة ، وتتجه جوانب الكأس قليلا الى الداخل ، والقاعدة حلقية . لقد صنعت هذه الكسرة من عجينة حمراء ، فاتحة اللون وجيدة الحرق . والسطح الخارجي مكسو ببطانة ارجوانية مصنوعة من نفس المادة التى صنعت منها الكأس ، ويلاحظ وجود بعض الترسبات الكلسية على اجزاء من السطح الخارجي للكسرة .

١١ ـ كأس كاملة عمودية الجوانب (الشكل ٢:١١) : قطر هذه الكأس ٧,٢ سم وارتفاعها ٣,٤ سم . حافتها حادة ، وقاعدتها حلقية . ويلاحظ على السطح الخارجي آثار عجلة الخزاف . أما عجينة الكأس فحمراء ومكسوة من الخارج ببطانة ارجوانية هي جزء من عجينة الكأس وقد برزت على السطح أثناء حرق القطعة .

١٢ ـ كسرة كبيرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الطبق وقاعدته الحلقية (الشكل ١:١٢) : قطر هذه الكأس ٧,٥ سم ، وارتفاعها ٣,٩ سم ، جوانب الكأس عمودية ، وتنتهى في اعلاها بحافة مستديرة . أما عجينتها فرمادية فاتحة اللون ، ويلاحظ وجود بقايا من شريط أبيض اللون كان يلتف حول الحافة الخارجية للكأس . كما يلاحظ وجود بعض الترسبات الكلسية على السطح الخارجي للكسرة .

١٣ ـ كسرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس (الشكل ٢:١٣) : قطر هذه الكسرة ٧,١ سم ، وجوانبها عمودية تنتهى بحافة مستديرة . وقد صنعت الكسرة من عجينة رمادية اللون ، جيدة الحرق ، ويحيط بالحافة الخارجية للكسرة شريط عاجي اللون ، كما تظهر بعض الترسبات الكلسية على سطحها .

١٤ ـ كأس ناقصة مكسرة ومرممة (الشكل ٢:١٤) : قطر هذه الكأس ٧,٢ سم ، وارتفاعها ٤ سم . حافة هذه الكأس حادة ، وجوانبها عمودية يظهر فيها بعض الالتواء ، والقاعدة حلقية . لقد صنعت هذه الكأس من عجينة ارجوانية ، جيدة الحرق . وتظهر على السطح الخارجي بقايا بطانة بيضاء ضاربة الى الصفرة كانت تغطى السطح بكامله .

١٥ ـ كسرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس (الشكل ٢:١٥) : قطر هذه الكأس ٧,٨ سم ، وجوانبها عمودية تنتهى بحافة مستديرة . لقد صنعت الكأس من عجينة رمادية ، جيدة الحرق ، ويظهر على سطحها بعض الترسبات الكلسية .

١٦ـ كأس سليمة (الشكل ٢:١٦) : قطر هذه الكأس ٦,١ سم ، وارتفاعها ٤ سم ، وجوانبها عمودية تنتهي بحافة حادة ، وقاعدته حلقية ، لقد صنعت هذه الكأس من عجينة ارجوانية تحتوي على بعض الحصيات الجيرية اكسبت الكأس ملمسا خشنا نسبيا .

١٧ـ كأس سليمة (الشكل ٢:١٧) : قطر هذه الكأس ٦,٨ سم ، وارتفاعها ٢,٨ سم ، وجوانبها عمودية ، وفيها بعض الالتواء ، والقاعدة حلقية . لقد صنعت هذه الكأس من عجينة ارجوانية خشنة الملمس نسبيا . وتغطى السطح الخارجي للكأس بطانة ارجوانية من نفس عجينة الكأس وقد برزت الى السطح خلال عملية الحرق .

١٨ـ كسرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس (الشكل ٢:١٨) : قطر هذه الكأس ٦,٩ سم ، وحافتها حادة ، ويلاحظ ان سماكة الكسرة أكبر من المألوف ، وقد صنعت من عجينة رمادية فاتحة اللون . ويحيط بالحافة الخارجية للكسرة شريط عاجي اللون .

١٩ـ كسرة كبيرة من فوهة كأس بالاضافة الى جزء من جسم الكأس وقاعدتها (الشكل ٢:١٩): قطر هذه الكأس ٧,٥ سم ، وارتفاعها ٤,٤سم. قاعدة هذه الكأس حلقية ، وجسمها مضلع (carinated) ، ويظهر على السطح العلوي لحافة الكأس اخدود غائر الى حد ما . لقد صنعت هذه الكأس من عجينة ارجوانية خالية من الشوائب ، تتخللها طبقة رمادية مع كونها مكسوة من الجهتين ببطانة ارجوانية اكسبت الجسم ملمسا ناعما .

٢٠ـ كأس سليمة (الشكل ٢:٢٠) : قطر هذه الكأس ٤,٦ سم ، وارتفاعها ٢,٨سم. تميل جوانب هذه الكأس الى الداخل في الجزء العلوى . أما القاعدة فحلقية ، وقد صنعت من عجينة حمراء ـ ارجوانية ، خشنة الملمس نسبيا . كما يلاحظ أن سماكة جسم الكأس أكبر قليلا من المألوف .

النماذج المشابهة للنوع الأول :

لقد زودتنا المواقع النبطية بنماذج مطابقة لكؤوس النوع الأول ، وقد تم العثور على هذه النماذج ودراستها من قبل كروفوت (G. M. Crowfoot)[١٧] ، وموريه والليس (M. A. Murray and J. C. Ellis)[١٨] ، وهور سفيلد وكونوى (G. Horsfield and A. Conway)[١٩] ، وفيليب هاموند (P. C. Hammond)[٢٠] ، ومانفرد فايبرت (M. Weippert)[٢١] ، ورينيه سيفان (R. Sivan)[٢٢] ، والذي يبعث على الاسف ان هؤلاء الباحثين لم يقدموا لنا تاريخا دقيقا للقطع التى اكتشفوها . ان مانفرد فايبرت قد صنَّف القطع التى درسها باعتبارها « نبطية ـ رومانية »[٢٣] ، الأمر الذي يظهر عجزه عن تحديد الهوية الدقيقة لها .

لقد عثر أيضا على مجموعة من النماذج المشابهة خارج المواقع النبطية ، وبالرغم من وجود شبه كبير بين هذه النماذج وكؤوس النوع الأول في الشكل الا انها تختلف في صفات المادة المصنوعة منها . ان النماذج المشابهة أكثر خشونة لوجود بعض الشوائب والحصيات الجيرية في عجينتها ، كما ان سماكة اجسامها أكبر من سماكة قطع النوع الأول . لعل القطع التى عثر عليها في « إهناسيا » في مصر[٢٤] ، والقدس[٢٥] ، وجبل نبو[٢٦] هي اشهر النماذج المشابهة لقطع النوع الأول . كما عثر على نموذج مشابه آخر في قبر روماني ـ بيزنطى في شمال فلسطين ، وقد درس هذا النموذج كل من سيليرز وبرامكي[٢٧] ، يضاف الى هذا النموذج الذي عثر عليه في خربة قمران[٢٨] ، وما عثرت عليه الجمعية السويدية القبرصية في جزيرة قبرص[٢٩] ، وما عثر عليه في سبسطية[٣٠] ، وتوكرا في ليبيا[٣١] ،

ورامات راحيل[٣٢] ، وأسدود[٣٣] في فلسطين .

وصف قطع النوع الثاني :

في وسعنا ان نقدم الوصف التالي لقطع هذا النوع على النحو التالي :

٢١ـ كسرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس (الشكل ٣:٢١) : قطر هذه الكأس ٨,٩ سم ، وتتجه حافتها الى الخارج . جسم الكأس اسطواني ، مصنوع من عجينة حمراء ـ ارجوانية ، تتخللها طبقة رمادية ، وتغطى السطحين الداخلي والخارجي بطانة من نفس العجينة ، وقد برزت الى السطح أثناء عملية الحرق .

٢٢ـ كسرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس (الشكل ٣:٢٢) : قطر هذه الكأس ٨,٩ سم ، وحافتها شبيهة بحافة القطعة السابقة . ان قطر جسم الكأس عند القاعدة أقل منه في الجزء العلوي. وقد زخرفت بأشرطة أفقية مكونة من خطوط محززة متراصة نتجت عن تمرير عجلة الروليت على السطح الخارجي للكأس قبل الحرق . وقد صنعت هذه الكسرة من عجينة ارجوانية ـ حمراء ، محروقة جيدا .

٢٣ـ كسرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس (الشكل ٣:٢٣) : قطر هذه الكأس ٩ سم ، وشكل الكسرة قريب من شكل الكسرة سابقا (رقم ٢٢) . وقد صنعت من عجينة حمراء ـ ارجوانية ، محروقة جيدا ومكسوة ببعض الترسبات الكلسية التى تظهر على اجزاء من السطح الخارجي .

٢٤ـ كسرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس (الشكل ٣:٢٣) : قطر هذه الكأس ٨,٩ سم ، وحافتها متجهة الى الخارج . وقد صنعت من عجينة حمراء فاتحة اللون ، محروقة جيدا وناعمة الملمس .

٢٥ـ كسرة كبيرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس وقاعدتها (الشكل ٣:٢٥) : قطر هذه الكأس ٧,٦ سم، وارتفاعها ٦,٢ سم . وقد صنعت الكسرة من عجينة حمراء ـ ارجوانية ، خالية من الشوائب ، ومكسوة ببطانة ارجوانية داكنة نتجت من نفس عجينة القطعة خلال عملية الحرق .

٢٦ـ كسرة كبيرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس وقاعدتها (الشكل ٣:٢٦) : قطر هذه الكأس ٥,٩ سم ، وارتفاعها ٣,٢ سم . وتتجه حافتها قليلا الى الخارج ، بينما تميل الجوانب الى الداخل قليلا عند القاعدة الحلقية . لقد صنعت الكسرة من عجينة حمراء ، تتخللها بعض الحصيات الجيرية . وتظهر على اجزاء من السطح الخارجي ترسبات كلسية .

النماذج المشابهة للنوع الثاني :

مايزال وجود نماذج النوع الثاني من الكؤوس مقصورا على المواقع النبطية كالبتراء[٣٤] ، ومدينة عبدة في صحراء النقب . وقد أرجع ابراهام نقب النموذج الذي درسه الى « النصف الاول من القرن الأول الميلادي »[٣٥] .

وقد اكتشف في عمان نموذج مشابه لقطع النوع الثاني ، وقد ارجع هذا النموذج الى « أواخر القرن الثاني الميلادي »[٣٦] . أما النموذجان اللذان عثر عليهما في خربة قمران فقد أرجعا الى « ٥٠ ـ ٣١ ق.م. » . ويتميز هذان النموذجان بأنهما أكثر سماكة وأقل عمقا من نماذج النوع الثاني[٣٧] .

وصف قطع النوع الثالث :

في وسعنا ان نصف النماذج الخاصة بهذا النوع على النحو التالي :

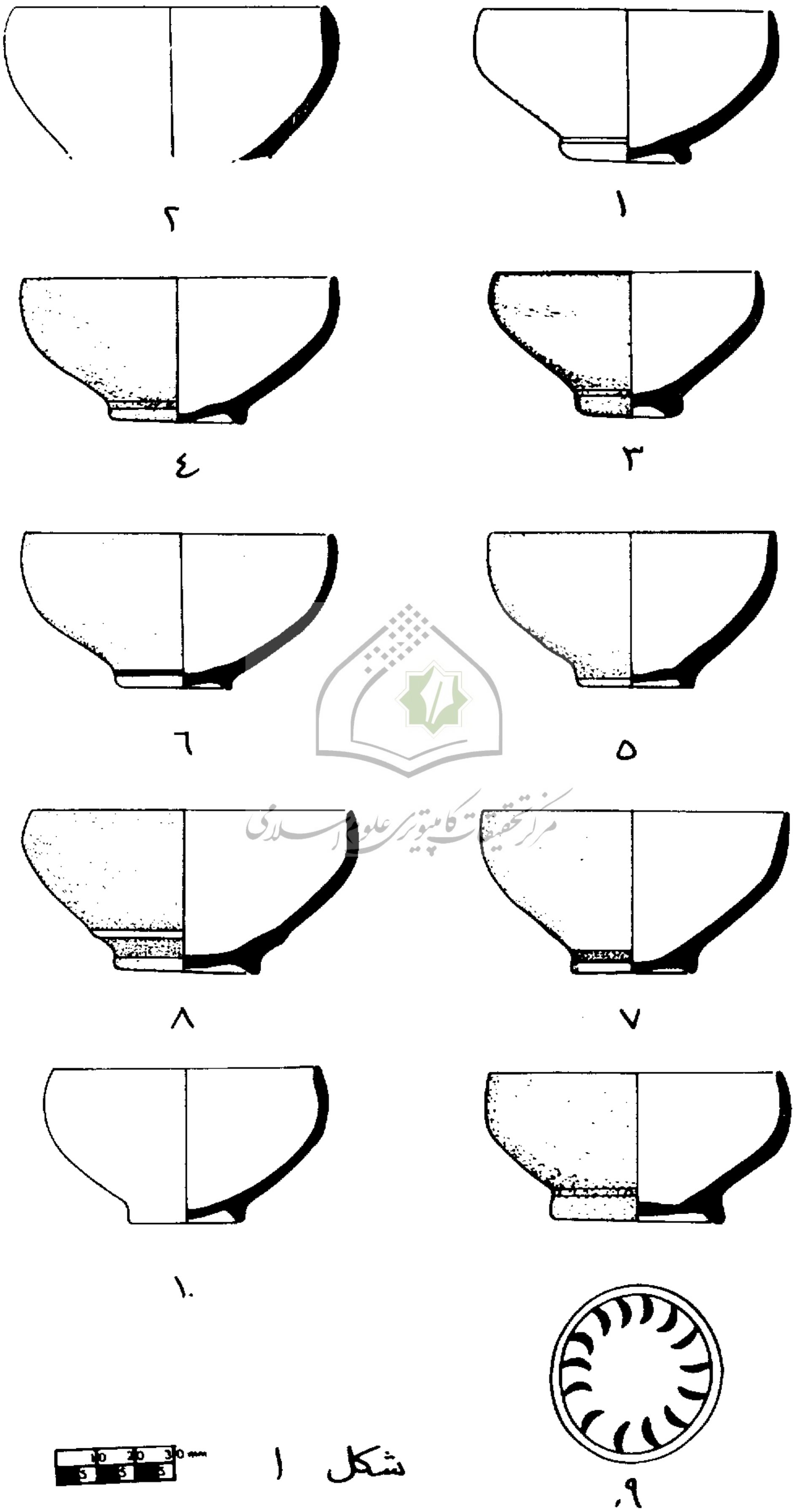
٢٧ـ كسرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس (الشكل ٤:٢٧) : قطر هذه الكأس ٩,٢ سم ، وحافتها مستديرة وتتجه قليلا الى الخارج ، وتحيط بجسم الكأس أضلاع أفقية عريضة وبارزة . وقد صنعت الكسرة من عجينة حمراء ـ ارجوانية ، خشنة الملمس ، ومحروقة جيدا .

٢٨ـ كسرة كبيرة من فوهة كأس فخارية بالاضافة الى جزء من جسم الكأس وقاعدتها (الشكل ٤:٢٨) : قطر هذه الكأس ٨,٩ سم ، وحافتها عمودية تقريبا ومستديرة من الجهة العليا ، والقاعدة قرصية . وتحيط بجسم الكأس أضلاع أفقية ، عريضة وبارزة ، وقد صنعت الكسرة من عجينة حمراء ، تحتوى على بعض الحصيات الجيرية ، مما اكسبها ملمسا خشنا ، والكسرة محروقة جيدا .

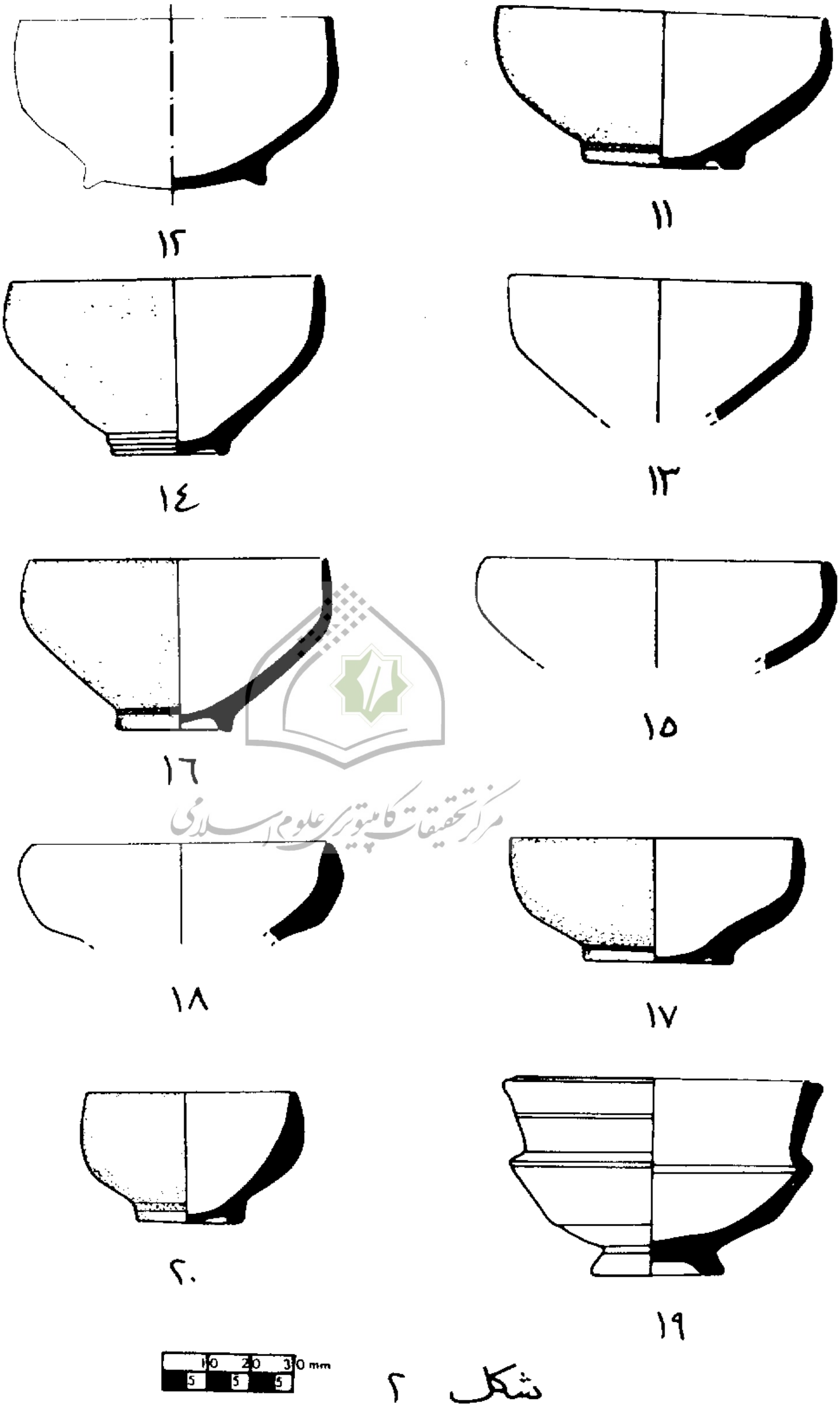
النماذج المشابهة للنوع الثالث :

لقد عثر في عدد من المواقع النبطية على بعض النماذج المشابهة للنوع الثالث من الكؤوس والمكتشفة في حفريات البتراء لعام ١٩٨١ ، ومن بين هذه النماذج ما غثر عليه موريه والليس في البتراء دون ان يقترحا تاريخا له[٣٨] ، والنموذج الذي عثر عليه جورج هورسفيلد وزوجته أجنس في البتراء وأرجعاه الى « القرن الأول الميلادي »[٣٩] دون مزيد من التحديد . يضاف الى هذا النموذج الذي عثر عليه ابراهام نقب في مدينة عبده ، وأرجعه الى « النصف الأول من القرن الأول الميلادي »[٤٠] ، والنموذجان اللذان درسهما كل من ابراهام نقب ورينيه سيفان . وقد رد هذان الباحثان تاريخ النموذجين الى فترة تتراوح بين « الربع الأخير من القرن الأول ق.م. وعام ١٥٠/ ٢٠٠ ميلادي »[٤١] . هذا وقد عثر في مدينة جرش الاردنية على أمثلة مشابهة تمَّ ارجاعها الى « أواخر العصر الهللنستي »[٤٢] .

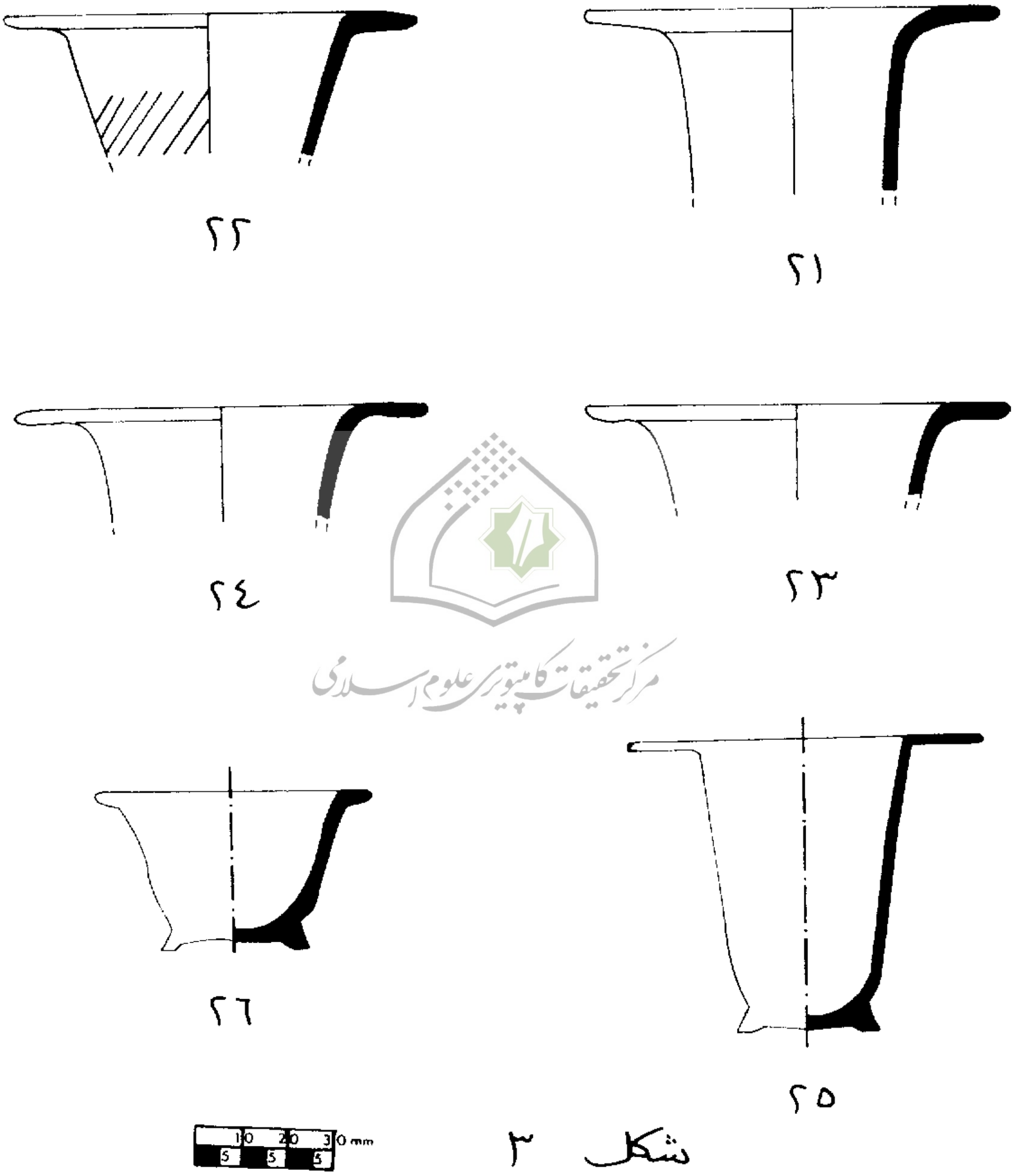
★☆★☆★☆★☆★



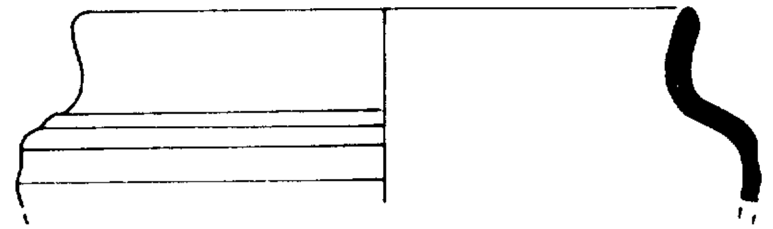
شکل ۱



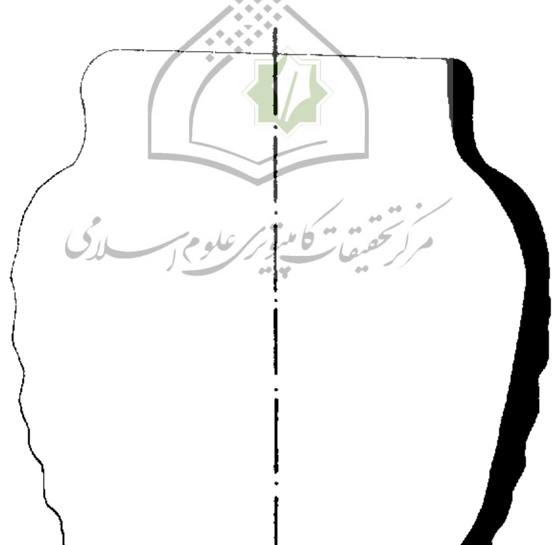
شکل ۲



شکل ۳



٢٧



٢٨

شكل ٤

الهوامش

١ ـ Kelso and Baramki 1955: 25; Saller 1957: 270.

٢ ـ Kenyon 1957: 315.

٣ ـ نفس المصدر السابق والصفحة السابقة .

٤ ـ Lapp 1961: 51.

٥ ـ Khairy 1980a: 85 - 92; 1980B: 270-272. —

٦ ـ Khairy 1982.

٧ ـ Murray and Ellis 1940: 22.

٨ ـ Crowfoot 1936: 21, Pl. III. 2 - 3.

٩ ـ Murray and Ellis 1940: 13, 22, Pl. XXV. 8.

١٠ ـ Glueck 1951: 75.

١١ ـ De Vaux 1954: 218-219, Fig. 2. 18-19.

١٢ ـ Lapp 1961: 18, Corpus 52.2A.

١٣ ـ De Vaux 1954: 218-219, Fig. 2. 18-19.

١٤ ـ haroni et.al 1962: Figs. 3.1 and 17.8.

١٥ ـ Diodorus, Bibliotheca Historica, XIX: 94 / 97.

١٦ ـ Strabo XVI, 4.26.

١٧ ـ Crowfoot 1936: 23 - 27, Pl. IV.5

١٨ ـ Murray and Ellis 1940: 13-18, Pls VIII.4, 55-57, 60, XXV.6, XXVI.119 — 121.

١٩ ـ Horsfield and Conway 1942: 144. Pl. XXI. 158.

٢٠ ـ Hammond 1962: 175 — 178, Class 112 (b) and (c): 4.

٢١ ـ Weippert 1979; 96, Fig. 4,12.

٢٢ ـ — Sivan 1977: 138 — 144, Fig. 1: 1 - 2.

٢٣ ـ Weippert 1979: 96.

٢٤ ـ Petrie 1905: Pl. XXX. 9.

٢٥ ـ Hamilton 1932: 109 — 110, No. 12.

٢٦ ـ Schneider 1950: 118, Fig. 13.13, 15.

٢٧ ـ Sellers and Baramki 1953: 28, Fig 30.2.

٢٨ ـ De Vaux 1954: 218-219, Fig. 2. 6 — 7.

٢٩ ـ Vesberg and Westholm 1956: 81, Fig. 32.2

٣٠ ـ Kenyer in Crowfoot et. al 1957: 309, Form 2.b, Fig. 73.15, 17.

٣١ ـ Wright 1963: 22, Fig. 3.

٣٢ ـ Aharoni 1964, Fig. 34.1.

٣٣ ـ Dothan 1971: 56, Fig. 16.17.

٣٤ ـ Bennett 1962: 233-242; Hammond 1973: 33, Nos. 88-89 91,

٣٥ ـ Negev 1970: 48-51, Pl. 32.7.

٣٦ ـ Harding 1951: 30-33, Fig. 1.59.

٣٧ ـ De Vaux 1954: 218-219, Fig. 2. 18-19.

٣٨ ـ Murray and Ellis 1940: 22, Pl XXVII. 50

٣٩ ـ Horsfield and Conway 1942: 118, Pl. 24.

٤٠ ـ Negev 1970: 48-51, Pl. 33.7.

٤١ ـ Negev and Sivan 1977: 117, Fig 10.69-70.

٤٢ ـ Fisher and McCown 1931: 44-46, Pl. 12. X 35; Kraeling 1938: 552-553. Fig. 32. X 10.

قائمـة المصـادر

Aharoni, Y. et. al., 1962 — Excavation at Ramat Rahel, Seasons 1959 and 1960. Roma: Centro di Studi Semitici.

1964 — Excavations at Ramat Rahel, Seasons 1961 and 1962. Roma: Centro di Studi Semitici.

Bennett, C.M., 1962 — The Nabataeans in Petra. Archaeology. 15: 233-242.

Crowfoot, G.M., 1936 — The Nabataean Ware of Sbaita. Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement. 4: 14-27.

Debevoise, N., 1934 — Parthian Pottery from Seleucia on the Tigris 32. Ann Arbor: University of Michigan Press.

De Vaux, R., 1954 — Fouille au Khirbet Qumran: Rapport préliminaire sur la deuxieme campagne. Revue Biblique 61: 206-236.

Dothan, M., 1971 — Ashdod 1963, 1965: The Second and the Third Seasons. 'Atiqot 9-10.

Fisher, C.S., and McCown, C.C., 1931 — Jerash-Gerasa 1930. Annual of the American Schools of Oriental Research 11:1-62.

Glueck, N., 1951 — Explorations in Eastern Palestine 4. The Annual of the American Schools of Oriental Research. 25-28.

Kenyon, K. in Crowfoot, J., et al. 1957 — The Objects from Samaria: Samaria-Sebaste. 3. London: Palestine Exploration Fund.

Khairy, N., 1980a — Nabataean Piriform Unguentaria. Bulletin of the American Schools of Oriental Research. 240: 85-92.

Khairy, N., 1980b — Die Unbemalte Nabataische Gebrauchskeramik. Bonner Jahrbucher. 180: 270-272.

1982 — Technical Aspects of Fine Nabataean Pottery Production. Bulletin of the American Schools of Oriental Research. 250: Forthcoming Issue.

Kraeling, C.H. (ed.) 1938 — Gerasa, City of the Decapolis. New Haven: American Schools of Oriental Research.

Hamilton, R.W., 1932 — Street in the Tyropoeon Valley. The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine. 1: 105-110.

Hammond, P.C., 1962 — A Classification of Nabataean Fine Ware. American Journal of Archaeology. 66: 169-179.

1973 — Pottery from Petra. Palestine Exploration Quarterly. January — June 27-49.

Harding G., 1951 — A Roman Tomb in Amman. Annual of the Department of Antiquities of Jordan. 1: 30-33.

Hayes, J.W., 1972 — Late Roman Pottery. London: The British School at Rome.

Horsfield, G. and Conway A., 1942 — Sela-Petra, The Rock of Edom and Nabatene. The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine. 9: 105-218.

Lapp, P.W., 1961 — Palestinian Ceramic Chronology: 200 B.C. — A.D. 70. New Haven: American Schools of Oriental Research.

Murray, M.A. and Ellis, J.C., 1940 — A Street in Petra. London: British School of Archaeology in Egypt.

Negev, A., 1970 — Die Topferwerkstatt in Oboda (Avdat). Die Nabataer Ein Vergessenes Volk am Totem Meer 312v. — 106n. Chr. Munchen: Prahistorische Staatssammlung Munchen. 48-51.

Negev, A., and Sivan R., 1977 — The Pottery of the Nabataen Necropolis at Mampsis. Rei Cretariae Romanae Fautorum. 17/18: 109-131.

Petrie, W.F., 1905 — Ehnasya. London: The Egypt Exploration Fund.

Reisner, G.A., et. al., 1924 — Harvard Excavations at Samaria, 1908-10. 1: Text, II: Plans and Plates. Cambridge: Harvard University Press.

Saller, S.J., 1957 — Excavations at Bethany. Studium Biblicum Franciscanum. 12. Jerusalem: Franciscan Printing Press.

Schneider H., 1950 — The Memorial of Moses on Mount Nebo. Studium Biblicum Franciscanum. 3. Jerusalem Franciscan Printing Press.

Sellers, O.R., and Baramki, D.C., 1953 — A Roman-Byzantine Burial Cave in Northern Palestine. Bulletin of the American Schools of Oriental Research, Supplement Studies. 15-16: 1-55.

Sivan, R., 1977 — Notes on Some Nabataen Pottery Vessels. Israel Exploration Journal. 27: 138-144.

Toll, N.P., 1940 — The Excavations at Dura Europos, Ninth Seasons 2: The Necropolis. New Haven: Yale University Press.

Vessberg, O., and Westholm, A., 1956 — The Sewdish Cyprus Expedition 4:3: The Hellenistic and Roman Periods in Cyprus. Stockholm: The Swedish Cyprus Expedition.

الدولة الكلدانية زمن نابوبلاصر ونبوخذنصر

الدكتور سامي سعيد الأحمد
قسم التاريخ ـ كلية الآداب / جامعة بغداد

لقد سميت فترة السلالة الكلدانية أيضا بالعصر البابلي الجديد ودام حكمها من ٦٢٦ ـ ٥٣٩ ق.م. وكانت آخر عهود الاستقلال السياسى والحكم الوطنى للعراق وظلت البلاد تنتقل بعدهم من احتلال لاحتلال حتى التحرير العربى .

ولا يزال أصل الكلدانيين موضع جدل بين الباحثين وذلك للصعوبات التي تكتنف أصولهم وقلة بل ندرة المصادر حول ذلك . ولا نعرف بالضبط الوقت الذى دخلوا فيه العراق ولم نسمع عنهم الا في وقت أصبحوا فيه قوة سياسية سواء في جنوب العراق أو الأطراف الشمالية من منطقة القطر البحرى (أرض البحر) . فمتى جاءوا ؟ وكيف كانت بداياتهم الأولى ؟ وما هى التطورات السياسية التى اكتنفت تاريخهم الأول فى البلاد ؟ كل هذه ما تزال أسئلة يصعب الاجابة عنها فى الوقت الحاضر .

فنعرف مثلا بأنهم قد طغوا على منطقة الخليج العربى الى الحد الذى عرف الخليج باسم الخليج الكلدانى (تامتيم كالدي) والذى ظل معروفا الى عصور لاحقة باسم (ساينوس كالديكوم) . ففى الوقت الذى أخذت أخبارهم تردنا لأول مرة نجدهم على معرفة تامة باللغة الأكدية . وجعلت المصادر البابلية ـ الاشورية الاراميين والكلدانيين والبابليين جماعات متميزة ، ولو أن الثلاثة قد عرفت وتكلمت اللغة الأكدية ولكن كل منها كانت تشعر بالسمات الخاصة المميزة لها . فالكلدانيون ليسوا من الاراميين ولا يمكن اعتبارهم كذلك كما يعتمد البعض ربما على أساس تعلمهم اللاحق اللغة الارامية[١] . فمن الضرورى التأكيد (استنادا الى النصوص المتوفرة) على تمييزهم عن الاراميين والبابليين[٢] .

هناك عبارة فى سفر أيوب من العهد القديم تنص (وكان ذات يوم أيوب وأبناؤه وبناته يأكلون ويشربون خمرا فى بيت أخيهم الأكبر ، ان رسولا جاء الى أيوب وقال البقر كانت تحرث والاتن بجانبها فهجم عليهم السبئيون وأخذوها .. وبينما هو يتكلم اذ جاء آخر وقال : الكلدانيون عينوا ثلاث فرق فهجموا على الجمال وأخذوها ...)[٣] . فالعبارة صريحة بأن مرابع الكلدانيين كانت على مقربة من تلك التى

للسبئيين . ولكن ما معنى العبارة ؟ المعروف أن السبئيين هم من سكان اليمن ، فهل الكلدانيون كانوا يقطنون جنبا الى جنب مع السبئيين فى بلاد العرب الجنوبية ؟ أم أن السبئيين كانوا يسكنون الى جانب الكلدانيين فى التخوم الشمالية لجزيرة العرب فى تقدم لهم الى هنساك ؟ وهنساك من لا يتحمس لأى من النظريتين . وتبدو الأولى أكثر معقولية . فمن جنوب جزيرة العرب الغربى خرجت على الأغلب الموجة الكلدانية في وقت يصعب تقريره متبعة طريق البحر العربى ثم الخليج العربى الذى طغوا عليه حتى سمى كما ذكرنا باسمهم . ثم دخلوا العراق وفى وقت قد يكون بداية الألف الأول ق.م. وقد وجدت بعض الكتابات باللغة العربية الجنوبية الأولى فى مواقع من جنوب العراق ومثل أور وأوروك ونفر منها تلك التى عثر عليها ليونارد وولى تحت تبليط من عهد الملك نبوخذ نصر الثانى فى مزار الاي ـ نون ـ ماخ بأور والختم الاسطوانى السابق لتلك الفترة الذى عثر عليه حوالى قصبة عانة وأخرى وجدت مؤخرا فى أوروك الخ(٤) . ولا يستبعد أنهم قد استوطنوا فى منطقة عمان بالجنوب الشرقى من جزيرة العرب لمدة من الزمن قبل اندفاعهم صوب المناطق الأخرى من الخليج العربى والعراق(٥) . وقد يجد المتحمسون لهذا الرأى سندا فى الكتابات التى وجدها ألبرايت فى ظفار من منطقة عمان . ويظهر ان اتصالاتهم مع المناطق التى نعتقد أنهم هاجروا منها بالأصل فى بلاد العرب الجنوبية قد استمرت حيث عثر على الكثير من الآثار والكتابات سواء فى العراق أو الخليج العربى التى تدل على ذلك والتى لا بد وأن كانت ذات طبيعة تجارية(٦) .

لقد وردتنا الأخبار لأول مرة حسب معلوماتنا الحالية عن الكلدانيين فى نصوص الملك الاشورى شلمانصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م.) الذى أخبرنا عن تسلمه جزية شيوخ القبائل الكلدانية الذين أطلق عليهم الاصطلاح ملوك (شارراني) وسيطر على مدن الكلدانيين وحصل على الجزية منهم وأعطانا أسماء مشيخاتهم ورؤساءها أمثال عديني رأس قبيلة الداككورى ، ومدن كباقانو واينزود والتى نعتها بعاصمة الأخير الملكية (آل شارريتيشو) . كما ذكر تسلمه الجزية من يقين الذى يطلق عليه ملك القطر البحرى والذى لا بد وأن كانت مشيخته كبيرة وربما تشكل غالبية ما يعرف بالكويت الحالية .

فتنظيم الكلدانيين القبلي واضح الآن من كتابات شلمانصر الثالث الذى يطلق على كل عشيرة اللفظ بيت الى جانب استقرار الكثير منهم فى مدن .

وربما يكون مردوخ أبلا أوصور (حتى سنة ٧٧٠ ق.م.) آخر حكام ما يعرف بالسلالة الثالثة كلدانيا ولكن الكلدانيين قد نجحوا بعد سنتين لم يحكم البلاد خلالهما أي ملك من أخذ السلطة فى البلاد . فتمكنوا حوالى سنة ٧٦٩ ق.م. من تأسيس سلالة أطلق عليها الباحثون المحدثون سلالة هـ E أسسها أريبا مردوخ ابن مردوخ شاكين شومي من قبيلة يقين . وقد نظر اليه الزعماء الكلدانيون من بعده نظرة احترام فهذا مردوخ ـ أبال ـ أنيد دينا ينسب اليه نفسه بكل فخر .

ويذكر أسرحدون كونه قد وسع مزار عشتار فى الوركاء (الاى خليانا) ويقول عنه نبونيد أنه وضع تمثالا لعشتار غير لائق بها وأخرج تمثالها القديم الممتاز . وقد سيطر على بابا وبورسيبا ونعرف أنه صد القبائل الارامية فى الغرب عند هجومها على حقول أهل بابل وبورسيبا ودحرهم وأرجع الأراضى الى أصحابها البابليين الشرعيين . وجاء بعده نابو ـ شوما ـ شاكين (٧٦٠ ـ ٧٤٨ ق.م.) وهو كلدانى أيضا من قبيلة دككورى . وقد لقب نفسه بالملك ونعرف من حجر حدود عن اصلاحه فى معبد أزيدا ببورسيبا(٧) . ويجعله اولستد أبا لمردوخ بلادان الثانى وهذا أمر يصعب اعتماده لأن الأخير كلداني من بيت يقين فى وقت كان به نابو ـ شوما ـ شاكين كلدانيا من بيت دككورى(٨) . وكان المتنفذ فى جنوب العراق لدى تقدم الملك الاشورى تجلات

بـلاصر الثـالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م.) الزعيم الكلدانى نابو ـ موكين ـ زيـرى الذى أطلق على نفسه اسم من سلالة شـابى ، وهو كلدانى من قبيلة عمموكانى وكان آخر ملك لسلالة هـ E حكم ما يزيد على سنتـين (٧٣١ ـ ٧٢٩ ق.م.)[٩] . وتظهر فى نصوص تجلات بـلاصر الثالث زعـامة مـردوخ بـلادان الثـانى (مـردوخ ـ أبـال ـ ايد دينا) الذى يطلق عليه سليل يقين وملك أرض البحر . وان ثراء منطقة مردوخ بلادان واضح فى نصوص تجلات بلاصر الثالث الذى يذكر كـون الذهب تراب بلاده (خوراصا ايبـر ماتيشـو) وكيف أنه قدم للعاهل الأشورى أوعية من الذهب وقلائد من الذهب وأحجارا كريمة ونباتات نادرة وثيابا ملونة وأبقارا وماشية وعاجا وجلود فيلة . كـل هذه تـدل على ثـراء الكلدانيين واهتمـامهم بالتجارة لأن العاج وجلود الفيلة لا بد وأن كانت مستـوردة من منطقـة وادى السند التى كـانوا يرتبطون بها بحرا الى جانب الأحجار الكريمة . وأن العبارة (أشيب كيشاد مارراتى) أى الذى يسكن على شاطىء النهـر المر فى حـوليات الملك سرجون الثانى الاشورى (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م.) تدل على أن المنطقة التى تجاور الخليج العـربى كـانت جـزءا من دولة مـردوخ بـلادان الثـانى الكلدانية . ويقدم نص آخر معلومات اضافية عن منـطقة مـردوخ بلادان حيث نقـرأ (الذى تقع مـواطنه فى المنـطقة المغمـورة من بحـر شـروق الشمس (الخليج العربى) وقـد وضع ثقتـه فى المجرى المر (المالح) وكتل (الغمر) .

فكتل الغمر أو الطوفان (كوبوش ايدي) فى النص يقصد بها المـد والجزر . وأن الحـوليات الاشورية صريحة بأنه تمكن أن يحكم بلاد بابل أيضـا لمدة اثنتى عشـرة سنة . وقـد عثر عـلى أسطوانة مدونة لمردوخ بلادان فى نمرود (كالح العاصمة الاشورية) نقرأ فيها اعادة بنائه معبد عشتار فى الوركاء ونقـرأ عن انتصار حققـه على الاشوريين[١٠] . كما أن هناك حجر حدود لمردوخ بلادان هذا[١١] . وفى سنة ٧٠٩ ق.م. تقدم الملك سرجون ثانية صوب الجنوب وأخبرنا بأنه سيطر بسهـولة على بيت يقـين . وأخبرنـا بـارحـوشـا (المؤرخ اليونانى الذى هاجر من بيثينا بـاسيا الصغرى الى بابل ربما زمن الاسكندر الكبير وألف كتابا أسماه البابليات قدمه الى الملك انطيوخوس الأول السلوقى) بأن أخا لسنحاريب (ابن الملك سرجون) قد تربع على عرش بلاد بابل وأتى بعده شخص اسمه أكسيسيس بقي ثلاثين يومـا على العرش اغتاله فى النهاية مردوخ بلادان الذى ظل عـلى العرش ستـة أشهر . وهنـاك من يتفق مع بارحوشا (اسمه اليونانى بيروسوس وربما اتخذ الاسم البابلى بيل ـ ريش ـ ايشو) فيما ذهب اليه والذى هو المصدر الوحيد لهـذا الأمر[١٢] . واثبات الملوك البابلى يذكر بأن مردوخ بلادان أتى بعد مردوخ ـ زاكير ـ شومى الذى حكم شهـرا واحدا وظل مردوخ بالحكم كما يذكر ستة أشهر . وان المركز الدولى الذى حصل عليه مردوخ بلادان واضح من علاقاته مع العيلاميين والعرب وسفارته الى حزقيا . وجمع مردوخ بلادان الثانى قواه عند دور أثارا سنة ٧١٠ ق.م. ثم فى مدينة دور يقين القـريبيتـين من نـهـر الفـرات واللتـين سلط الاشوريون عليهما نهر الفرات . وتذكر نصوص سرجون الثانى وقوع منطقة بيت يقين على ساحل الخليج العربى ، منطقة دلمون (جزر البحرين) .

ان أول عمل قام به سنحاريب خليفة سرجون كان مهاجمـة مردوخ بـلادان الثانى الذى رغم الاندحار الذى منى به من قبل سرجون لا يزال يحكم منطقة واسعة مع بابل عاصمة لها . وخلافا لما أخبرنا به سرجون فان مردوخ بلادان ظل يحكم منطقة واسعة كانت ضمنها بلاد بابل . ونقرأ فى حـوليات سنحـاريب عن ذهابـه فى أول سنة من حكمـه على رأس جيـوشه للقضـاء على مـردوخ بلادان بابل الذى دحر قواته فى كيش وكوثا[١٣] . كمـا ذكـر أراضى بيت يقـين وبيت عممـوكـاني ودككـوري وشعـالي التى تشكـل مشـيخـات الكلدانيين الرئيسية . وأمدتنا نصوص سنحاريب ببعض المعلومات الهامة عن بلاد الكلدانيين خلال هذه الفترة . ثم يأخذ سنحاريب بالتفصيل فى هذه الأرقام وذلك (٣٣ مدينة منها و٢٥٠ قرية تعود

لمنطقة بيت دككورى و٨ مدن و١٢٠ قرية لمنطقة بيت شعالى و٣٩ مدينة و٣٥٠ لمنطقة عمموكاني و٨ مدن و١٠٠ قرية لبيت يقين)(١٤) . وهذا الاحصاء مهم للغاية حيث يوضح الاستقرار الحضرى للكلدانيين وكون العمموكاني كانت القبيلة الأكثر عددا فى وقت كان به بيت يقين الأقل عددا والأكثر حولا وقوة . ولكن ما أن ترك سنحاريب العراق حتى ظهر زعيم كلداني آخر شهر السلاح ضد الاشوريين هو موشيزيب مردوخ (شوزوب) الذى اتخذ من الأهوار مركزا لحركاته العسكرية ، فى وقت ظل به مردوخ بلادان الثاني يعمل على اثارة حركة أخرى ضد الاشوريين فى منطقة بيت يقين . ولكن شوزوب سرعان ما هرب وسار سنحاريب نحو منطقة يقين فانسحب مردوخ بلادان الى جزيرة ناجيتو أمام الساحل الشرقى للخليج العربى . ويظهر أن الأخير كان على قوة عسكرية كبيرة بحيث أن سنحاريب استخدم أعدادا غفيرة من الجنود فى هجومه على الساحل الشرقى للخليج العربى للقضاء على مردوخ بلادان وأعوانه وفعلا تم للملك الاشورى النصر . وانتهز شوزوب فرصة تحرك سنحاريب فاعلن نفسه ملكا على بابل وذبح مؤيدوه أشور - نادين - شوم ابن سنحاريب وحاكم بابل . وأخيرا تحقق النصر لسنحاريب وقبض على شوزوب مع نابو - شوم - ايشكون أخ مردوخ بلادان وهدم بابل .

عندما صعد الملك اسرحدون على العرش الاشورى (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م.) بعد والده سنحاريب هاجم ابن آخر لمردوخ ، بلادان واسمه نابو - زير - كيتتي - ليشير جنوب بلاد الرافدين وحاصر أور . وربما عين سنحاريب نابو - زير - كيتتي - ليشير حاكما لبلاد أرض البحر بعد أن قمع حركة والده . وعين أسرحدون سنة ٦٨٠ ق.م. نائيد مردوخ وهو ابن آخر لمردوخ بلادان حاكما على أرض البحر والذى ظل فى منصبه حتى سنة ٦٥١ ق.م. وربما انتهز نابو - زير - كيتتي - ليشير فرصة موت سنحاريب فثار على السلطة الاشورية وسار أسرحدون لحربه واستبدل به حاكما آخر(١٥) . وعين أشوربانيبال خليفة أسرحدون بدله نابو - بيل - شوماته حفيد مردوخ بلادان وابن نائيد مردوخ . ونعرف بأن قبيلة بيت دككورى غزت حقول بابل وبورسيبا مما جعل أسرحدون يهاجم مرابع الدككوريين التى قال عنها انها فى وسط بلاد الكلدانيين وقبض على شيخهم شماش ابني وأرجع الأراضى التى أخذوها من البابليين وأعادها اليهم وحمل شماش ابنى الى اشور حيث تم قتله وعين الملك الاشورى بدله نابواء وشالليم ابن بالاسو(١٦) .

أخبرنا اشوربانيبال (٦٦٩ - ٦٣٠ ق.م.) بأن الكلدانين قد اشتركوا مع الاراميين وشعوب أكد فى ثورة أخيه شماش - شموكين ملك بابل ضده . ونعرف بأن اشوربانيبال قد عين نابو بيل شوماته بعد وفاة والده نائيد مردوخ كحاكم على أرض البحر. وسرعان ما انقلب الأخير على سيده الملك الاشورى حيث قابل شماش شموكين خلال ثورته ضد اشوربانيبال ثم هربه . وعين اشوربانيبال بدله سنة ٦٥٠ ق.م. بيل ابني وهو كلداني آخر وابن نبوخذ نصر الذى سبق ووعده اشوربانيبال بحاكميه أرض البحر والذى أرسل رسالة الى الملك الاشورى حول شؤون معبد بورسيبا التى كانت آنذاك مدينته(١٧) .

ولكن نبوخذنصر هذا مات خلال فترة حكم نائيد مردوخ . ورغم كون بيل ابني كلداني ولكن لا نعرف صلته بعائلة مردوخ بلادان رغم أنه يقول عن نفسه تواضعا انه ابن لا أحد . وقد وصلتنا الكثير من رسائل بيل ابني الى الملك اشوربانيبال وواحدة منه الى الملك اشور - أطيل - ايلانى خليفة وابن اشوربانيبال . وتصوره لغة رسائله كرجل عسكرى عملي له ثقة عظمى بنفسه وقدرة على الاضطلاع بمهمة الحكم . ويظهر أن بيل ابني قد سكن فى جزيرة ناجيتو ويظهر ان ولدا له باسم شماش ايدينا نقرأ اسمه شاهدا فى وثيقة كتبت بناجيتو سنة ٦٥٣ ق.م. خاصة بنابو - بيل - شوماته .

وقد تدل هذه الوثيقة على حسن العلاقة بين نابو - بيل - شوماته وبيل ابني وبان الاثنين من

نفس المدينة الى جانب كشفها لنا عن كون بيل ابني كان كبير السن عند تسلمه منصب حاكمية أرض البحر بحيث كان له سنة ٦٥٢ ق.م. ابن ف سن تمكنه من التوقيع كشاهد بوثيقة على الأقل . وربما بدأت العلاقة السيئة بين نابو - بيل - شوماته وبيل ابني عندما حمل الأول معه عند هربه الى عيلام بلشونو أخ بيل ابني . وبقي بلشونو سجينا ف عيلام لمدة من الزمن . ونقرأ ف رسالة من بيل ابني الى الملك اشوربانيبال يشكر فيها سيده على الفضائل التى أغدقها عليه ويقول فيها بأن هذا الاحسان هو أكثر بكثير مما أغدقه عليه مردوخ بلادان . وهذه تدل على حسن العلاقة بين مردوخ بلادان وبيل ابني ..... السابق وحرص الأول على خطب ود الثانى وترضيته وتلقى ضوءا على مركز وقوة بيل ابنى وربما حتى على قوة عائلته وعلى مكانتها بحيث حرص مردوخ بلادان على ارضائه وكسبه الى جانبه بكل صورة[١٨] . وفى رسالة اشوربانيبال الى سكان أرض البحر عندما أرسل لهم بيل ابنى كحاكم جديد عليهم نعرف أن الاخير كان من الموظفين الكبار عنده وذوى الحظوة (مانزاز بانى)[١٩] . ووصل بيل ابني الى حد من القوة وتعاظم النفوذ بحيث أخذ يشن هو الهجمات على عيلام . ففي خريف سنة ٦٤٩ ق.م. نراه فى اقليم دير (قرب بدرة) يتقدم ببطء باتجاه عيلام . ونعرف عن عبوره الخليج العربى ومعه أربعمائة من رماة القوس مهاجما بعض القبائل الثائرة مستوليا على الكثير من الغنائم[٢٠] . كما أرسل قوة بعد أخرى ضد عيلام ومن حالفهم من القبائل الى حد وصل مرة الى زابد انو قرب شوشة منذرا ملك عيلام بوجوب تسليم نابو - بيل - شوماته مع الرسل الذين بعثهم شماش شموكين اليه . وعندما خضعت عيلام الى انذار بيل ابني وأشعر ملكها قائد جيوشه خوبان شيبار بالاتصال بالملك الاشورى أعلمه الأخير بأن يتفاوض مباشرة مع بيل ابني . وهذا أمر يدل على مدى الصلاحيات الواسعة التى كانت لدى بيل ابني وثقة الملك الاشورى البالغة به . ويشهد على تلك الثقة الحاق اشور - بانيبال قواته الاضافية فى بلاد بابل بعد اخماده ثورة شماش شموكين بقوات بيل ابني . كما التحقت به لنفس الغرض القوة التى كانت مرابطة فى مدينة كيسيك بقيادة نابو اوشابشي[٢١] . وربما يكون الأخير عما لبيل ابنى حيث نقرأ فى رسالة بعث بها الى اشوربانيبال عن اعطائه ولاية أرض البحر الى نبوخذ نصر الذى يقول أنه أبوه وكون بيل ابني وريثا لنبوخذنصر[٢٢] .

ومن رسالة لبيل ابني الى أشور - أطيل - ايلانى نعرف منها أن بيل ابني صار هدفا لاتهامات عند الملك[٢٣] . ويخبرنا فى الرسالة أنه خائف من رؤية الملك دون شك خشية العقوبة مما يدل على عظم الاتهام . ولكن الملك حسب ما يظهر قد أهمل تلك الاتهامات والوشايات ضد من وقف الى جانبه أوقات الخطر واستمر بيل ابني فى منصبه . ويظهر أن بيل ابني قد توفي زمن الملك اشور - أطيل - ايلانى وحل محله فى حكم بلاد أرض البحر نابوبلاصر (معنى اسمه نابو يحمي الابن البكر) الذى أسس السلالة الكلدانية .

فى الغالب أن نابوبلاصر هو ابن بيل ابني حيث نعرف من نص بان بيل ابني كان له أولاد حيث جاء (أنا وأخوانى وأولادى وأصدقائى سوف نأتى ونقبل قدمى سيدنا الملك)[٢٤] . ويستعمل بيل ابني العبارة ابن لا أحد فى رسائله دليلا على تواضعه والتى نعرف عن استعمال نابوبلاصر لها أيضا . فنابوبلاصر يقول (فى طفولتى كنت ابن لا أحد - اينا ميصخيروتيا أبال لا مئاممانيم)[٢٥] . وليس من المعقول أن لا يعين الملك الاشورى ابنا لبيل ابنى بعد وفاة الأخير يخلفه فى وظيفته لما رأى من اخلاصه وتفانيه للتاج الاشورى فى الايام العصيبة . اضافة بأننا لا نسمع عن أى أمر غير اعتيادى فى خلافة بيل ابني مما قد يدل على سير الأمور بعد وفاته بصورة طبيعية بتعيين الملك الاشورى لولده مكانه . ومن الصعب أن نعرف كم كان عدد أولاد بيل ابني فاذا صح افتراضنا يكون نابوبلاصر ابنا لبيل ابني فربما يكون بذلك

أخا لشماش ـ ايدينا الشاهد فى الوثيقة الموقعة سنة ٦٥٣ ق.م. ولا نعرف تسلسل نابوبلاصر بين اخوته وربما يكون شماش ايدينا هو الثانى . واذا صحت فرضياتنا وكان شماش ايدينا حيا وقت وفاة والده فان نابوبلاصر يكون بذلك هو الابن البكر وربما ولد فى أواخر حكم أسرحدون .

وربما بدأ نابوبلاصر حكمه فى أرض البحر سنة ٦٢٨ ق.م. وهناك نص من فترة الاحتلال السلوقى للعراق يذكر أن نابوبلاصر اطلق على نفسه لقب ملك أرض البحر (شار مات تام تيم) . وان اطلاق نابوبلاصر على نفسه هذا اللقب يدل على اعلانه استقلاله فى أرض البحر . ومن المعقول الافتراض أن نابوبلاصر قد انتهز فرصة ضعف الدولة الاشورية زمن الملك اشور أطيل ايلانى فأعلن استقلاله بمقاطعته بعد أن لمس ما عليه من القوة والتأييد الكافى له وربطه نفسه بحركة التحرر البابلية . ويذكر نص نهب نابوبلاصر لأوروك والتى كانت تحت الحكم الاشورى آنذاك . وهذا قد يدل على أن نابوبلاصر أخذ بعد اتخاذه لقب ملك فى مهاجمة مناطق تحت سيطرة الملك الاشورى . وربما قد سجلت مثل هذه الفعاليات مع بعض الارتباك من قبل أبيدينوس الذى تضمنه يوزيبيوس (عندما سمع ساروكوس سن شارايشكون) بأن أعدادا غفيرة من البرابرة قد أتت من البحر أرسل بوسالوسسوروس نابوبلاصر) ضدهم[٢٦] . وربما كان هذه أول فعالية حربية لنابوبلاصر نفسه .

ويظهر بأن سن شارايشكون قد أرسل نابوبلاصر لايقافها قبل أن يعرف بالواقع أنها موجهة من قبل نابوبلاصر نفسه .

ويظهر من تعرضنا لشخص بيل ابني الذى قد تدل المؤشرات على أنه والد نابوبلاصر بأنه لا بد وأن حرص (وهو الادارى الحازم والعسكرى القدير) على تنشئة نابوبلاصر بالطريقة التى أهلته لأن يكون مؤسسا لدولة عظيمة . والغريب أن نابوبلاصر وخلفاءه لم يتخذوا بعد تأسيسهم للسلالة الكلدانية لقب ملك أرض البحر رغم قوة صلاتهم بها وارتباطهم معها . فهل يكون السبب شعورهم بأن منطقة أرض البحر ما هي الا جزء من العراق ، ويجد هذا الافتراض سندا فى قوة العلاقات بين بلاد بابل وأرض البحر زمن ملوك هذه السلالة . ونعرف أن نابوبلاصر قد ارجع الى عيلام ألواح الطقوس التى حملها اشوربانيبال فى حملته الأخيرة على شوشه واحتفظ بها فى الوركاء ، وهو عمل أراد نابوبلاصر من ورائه دون شك الحصول على تأييد العيلاميين[٢٧] . ويظهر ان أول عمل عسكرى قام به نابوبلاصر بعد اعلانه استقلاله فى الجنوب هو سيطرته على مدينة الوركاء . وربما كانت جماعاته المؤيدة فى هذه المدينة كثيرة بحيث انضمت اليه بسهولة وكان أول تحرك له تصلنا أخباره .

ولا نسمع عن حركات عسكرية أو معارك خلال أخذه لها سنة ٦٢٧ ق.م. ولم يمض وقت طويل الا وشعر نابوبلاصر بأنه بلغ من القوة ما يمكنه من مهاجمة نفر ، القلعة الاشورية الحصينة فى الجنوب وفرض الحصار عليها . ولو أن هوية القوة التي حاصرت نفر غير معروفة ولكن ليس هناك سوى نابوبلاصر الذى يمكن أن تتجه اليه الأنظار . وكان حصار نفر شديدا ذاق منه السكان الأمرين ودام حوالى خمسة أشهر (حزيران حتى نهاية تشرين الأول) وارتفعت خلاله الاسعار ارتفاعا خياليا بحيث بيعت القا الواحدة من الشعير بشقل واحد . وباع الكثير من الفقراء أطفالهم حتى يضمنوا لهم الطعام[٢٨] . ولم يرفع المحاصرون حصارهم الا عند ورود الأخبار بوصول تعزيزات اشورية صوب نفر .

وصلتنا وثيقة من سبار مؤرخة فى ٢٢ ايلول سنة ٦٢٦ ق.م. (سنة صعود نابوبلاصر) تشير بأن المدينة قد تحالفت مع نابوبلاصر انذاك . وقد أغضب تأييد سبار لنابوبلاصر الاشوريين فتقدموا نحو بابل ربما لاسترجاع المدينة التى كانت دون حاكم لما يقارب السنة بعد وفاة كاندلانو (فى الغالب أخ اشوربانيبال الأصغر) ولو أن الوثائق البابلية ظلت تؤرخ باسم كاندلانو ، ثم

التحرك شمالا صوب سبار . وكان تقدم الاشوريين فى ١٢ تشرين الاول سنة ٦٢٦ ق.م. ولكن البابليين قاوموا التقدم الاشورى بعنف وأوقعوا به الخسائر وحصلوا على الكثير من الغنائم . وقد مهد هذا الانتصار السبيل لصعود نابوبلاصر عرش بابل فى تشرين الثانى من نفس السنة . وربما كان نابوبلاصر قد أرسل جيشا لمساعدة بابل على صد الزحف الاشورى .

وكان الجيش الاشورى قد دخل وهو فى طريقه الى بابل مدينة شازناكو الواقعة على الحدود الفاصلة بين أشور وبلاد بابل وأحرقوا معابدها . وهذا أمر نسمع به لأول مرة حيث لم يعمد الاشوريون الى حرق المعابد البابلية لأنهم يقدسون نفس الارباب . وقد يكون الحرق قد سرى الى المعابد من بنايات أخرى تم احراقها والا فيصعب علينا (ان كانت أخبار هذا الحرق صحيحة) تفسيره ومعرفة دوافعه ان لم يكن قد أقدم على اشعال النار فى المعابد بابلي غايته اثارة النقمة الاجماعية على الاشوريين وهذا يصعب قبوله . وبعد ثلاثة أسابيع جلب أهالى مدينة كيش تماثيل الهتهم وحفظوها فى بابل طلبا للأمان مما يدل على تخوفهم من هجوم أشورى عليهم . وفى عيد رأس السنة (نيسان سنة ٦٢٥ ق.م.) أمسك نابوبلاصر بأيدى الرب مردوخ بادئا بذلك أولى سنوات حكمه . ويختلف الباحثون بالواقع حول تاريخ صعود نابوبلاصر وحتى مكانه . فاولستد ووايزمان يجعلون ٢٣ تشرين الثانى ٦٢٦ ق.م. هى سنة صعود نابوبلاصر فى بابل . ومن الجدير بالذكر أن أول رقيم عن حكم نابوبلاصر من مدينة بابل مؤرخ فى ٢٥ مايس سنة ٦٢٤ ق.م.[٢٩] ويعتقد وايزمان اعتمادا على النص المرقم ٢٩٦٥٦ المتحف البريطانى) بأن سبار قد اعترفت بنابوبلاصر ملكا بشهرين قبل بابل فى وقت يذهب به ريتشارد باركر ودبليو دوبريشتاين استنادا على وثيقة بأن بداية حكم نابوبلاصر كانت فى الوركاء فى ١٥ مايس سنة ٦٢٥ ق.م. حيث اعترف به سكان هذه المدينة كملك عليهم .

ان السنوات الثلاث الأولى من حكم نابوبلاصر فى بابل لا بد وأن كانت حرجة للغاية . فالاشوريون لا يزالون يرابطون فى الجنوب ويسيطرون على مدينة نفر ذات التحصينات القوية والموقع الاستراتيجى الهام ولا يزال الناس يخافون انتقاما اشوريا الى جانب عدم استتباب الوضع الداخلى تماما لنابوبلاصر . فبعد أيام قلائل من انتهاء احتفالات عيد الأكيتو (١٧ نيسان) فى بابل سنة ٦٢٥ ق.م. والذى تسلم به نابوبلاصر السلطة رسميا من الاله مردوخ كان هناك فزع فى بابل جلبت على أثرها تماثيل الرب شماش والهة مدينة شابازو (لا بد وانها تقع شمال مدينة سبار) الى بابل لحفظها . وفى اليوم التالى دخل الاشوريون المتقدمون من الشمال مدينة شاللات (على الفرات شمال سبار) ونهبوها . ولم يتقدم الاشوريون أبعد من شاللات التى بقوا فيها مدة من الزمن ربما بانتظار تعزيزات أكثر بعد سماعهم بأخبار استعدادات نابوبلاصر لصد هجومهم . وجلب أهل سبار تماثيل الهتهم الى بابل لحفظها خوف دخول الاشوريين مدينتهم . وفعلا شجع هذا التباطؤ الاشورى (الذى استمر شهرين ونصف) نابوبلاصر على قيادة جيوشه والهجوم على المدينة ولكنه لم يفلح . ولكن الملك البابلى سرعان ما انسحب لدى سماعه بأن تعزيزات اشورية قادمة . وفى اوائل ايلول سنة ٦٢٤ ق.م. تقدم الاشوريون صوب بابل وعسكروا عند قناة بانيتو (التى تأخذ الماء من نهر الأراختو وهو فرع الفرات التى تقع عليه بابل وتمر بكيش ثم تسير باتجاه شرقى نحو دجلة ويصل فرع منها الى نفر) وربما كانت الغاية التحرش بنابوبلاصر ليس الا واحراج مركزه فى بابل ولكن الملك البابلى اصطدم بالاشوريين وأجبرهم على التراجع .

لقد تمكن نابوبلاصر سنة ٦٢٣ ق.م. من دخول نفر والتى كانت آخر معقل للاشوريين فى الجنوب وبسقوطها انتهى الحكم الاشورى فى بلاد بابل الى الأبد . ومن ثم تحرك نابوبلاصر لاسترجاع الوركاء التى تمكن الاشوريون من أخذها فى وقت

يصعب تقديره بالضبط . ويظهر أن محاولة فى سنه نابوبلاصر الثالثة لأخذ السلطة منه قد فشلت بعد ان حكم المغتصب مائة يوم في بابل ونفر ، ولا نعرف أى شيء عن طبيعة هذه الحركة وهوية الثوار والاسباب التى مكنتهم من النجاح الوقتى كيف تم ازاحتهم . وربما كان للاشوريين ضلع فى هذه الثورة حيث صعب عليهم أن يستسلموا ويخرجوا من الجنوب بسهولة . وفى سنة نابوبلاصر الثالثة خسرت أشور مدينة دير الهامة التى تتحكم فى طريق عيلام نتيجة ثورة قامت فيها .

بعد سيطرة نابوبلاصر على نفر وجه الملك البابلى همه الى مهاجمة اشور بالذات وبذلك تحولت سياسته من دفاعية صرفة تستند على تخليص الجنوب من التبعية الاشورية الى القضاء على الدولة الاشورية ككل . ولكن لم يفكر نابوبلاصر فى امكانية التعايش مع الاشوريين ؟ فاذا كان افتراضنا باحتمال وجود أصبع للاشوريين فى الحركة التى قامت ضد نابوبلاصر بسنته الثالثة والتى كانت على وشك انتزاع السلطة منه الى الأبد صحيحا ، فربما اقنعت نابوبلاصر بأنه لا يمكن له أن يؤسس كيانا ثابت الاساس راسخ البناء دون القضاء الكلى على الدولة الاشورية . ففى ربيع سنة ٦١٦ ق.م. سار نابوبلاصر على طول نهر الفرات مخترقا أراضى سوخو ثم خنادنو (الجابرية على الفرات) القريبة من هيت حتى مصب الخابور فى الفرات . ولم يعترض تقدم الملك البابلى أى من السكان المحليين وقدموا له الهدايا . وربما كانت غاية نابوبلاصر من هذه الجولة جمع ما يتمكن من جمعه من الأموال واظهار القوة البابلية للسكان في هذه المناطق اضافة الى سيطرته على الطريق العام الذى يربط العراق بسوريا والبحر المتوسط واسيا الصغرى . ولا نسمع عن أى اصطدامات مع الاشوريين فى هذه الربوع مما يدل على خلوها منهم . وفى صيف نفس السنة وصلت الجيوش الاشورية مدينة قابلينو على الفرات والقريبة من دير الزور الحالية فسار نابوبلاصر واصطدم بهم ودحرهم داخلا قابلينو فى الوقت الذى انسحب فيه الاشوريون شمالا نحو حران . وتبعهم الملك البابلى ناهبا فى طريقه ثلاث مدن فى منطقة الباليخ . وكانت محاولات الاشوريين فى اللحاق بنابوبلاصر غير ناجحة ولو انهم وصلوا قابلينو دون أخذها . ويظهر أن الاشوريين قد شعروا بالخطر البابلى المحدق فتعاونوا مع قوى خارجية حيث نقرأ عن وجود مانيين فى صفوف مقاتليهم وتقدم المصريين لمساعدتهم . والمانيين من الشعوب الايرانية التى كانت تقطن القسم الشمالى الغربى من ايران (حوالى بحيرة رضائية) . وكان التقدم الاشورى الذى لم يكتب له النجاح صوب قابلينو فى تشرين الأول من السنة بمعاونة جيش مصرى .

نقرأ فى وثيقة الأخبار البابلية عن اصطدام بين البابليين والاشوريين فى منطقة شرق دجلة . وأكدت الوثيقة بأن الملك البابلى لم يشترك فى هذا الاصطدام الذى لا بد وان كان هجوما بابليا على مدينة بادانو في منطقة ارابخه (كرخا بيث سلوخ من فترة الاحتلال الفرثية وهى كركوك الحالية) كتب للقوة البابلية فيه النجاح . وفى سنة ٦١٥ ق.م. هوجمت مدينة اشور من قبل نابوبلاصر الذى لا بد وان اتبع الطريق الاعتيادى الذى يربط الشمال بالجنوب . ولكن أخبار التعبئة الاشورية أفزعت القيادة البابلية فقررت الانسحاب على طول نهر دجلة الى مدينة تكريت على دجلة والتى يصعب معرفة حجمها انذاك . وان القوة البابلية لا بد وأن تحصنت فى قلعة تكريت المنيعة التى نعرف عن بقائها حتى عصور متأخرة حيث أن وثيقة الأخبار البابلية تذكر بأن القوات الاشورية القادمة قد حاصرتها دون أن تذكر أى تلاحم داخل أو على أطراف المدينة . وظل الحصار مضروبا لمدة عشرة أيام انسحبت بعده القوة الاشورية والذى يعتبر نصرا للبابليين . ولم نسمع عن اشتراك الميديين فى القتال ضد الاشوريين الا فى صيف سنة ٦١٤ ق.م. حيث تحركوا على طول طريق ارابخة الى نينوى وكالح (نمرود) . ويظهر أن المعلومات التى جمعها الميديون عن تحصينات هاتين المدينتين جعلتهم ينتقلون الى تاربيصو

(شريف خان الحالية) ثم تحولوا باتجاه الجنوب متبعين نهر دجلة وحاصروا مدينة أشور . ويظهر ان خطة الميديين كانت فى تحويل جهود الاشوريين الدفاعية صوب نينوى وكالح أولا كى يتم لهم الاستحواذ على أشور بسهولة . وفعلا تم لهم ما أرادوا فقد تمكنوا من اختراق أسوار اشور ودخول المدينة ونهبها وقتل الكثير من سكانها . وهنا ظهر نابوبلاصر الذى لا بد وان اتبع نفس الطريق الذى سار به من قبل والمحاذى لنهر دجلة ، فوجد مدينة اشور ساقطة فى ايدى الميديين . وعند اطلال أشور التقى العاهلان البابلي والميدى كى أخسار لأول مرة وعقدا كما تنص وثيقة الاخبار اتفاق سلام وصداقة (توبتو شولوممو ايتتى أخاميش ايشكونو) . وقد ذكر لنا هيرود وتس بأن الملك الميدى السابق (فرواتيس) سبق أن قام بحصار نينوى ولكنه لم يفلح . ولو أن وثيقة الاخبار البابلية لم تتعرض لمثل هذا الخبر ولكن ان كان صحيحا فربما يفسر سر تقدم الميديين صوب نينوى وكالح ثم توجههم نحو ناربيصو فاشور . وقد يكون هجوم فرواتيس هذا حوالى سنة ٦٢٧ ق.م. ولكن ديودوروس الصقلى يدخل فى خضم الأحداث السكيثين والباكتريين حيث يذكر ما معناه بأن هؤلاء هم الذين دافعوا عن نينوى فى تلك السنة وأجبروا الميديين انذاك على الانسحاب . وربما وجد الميديون ان من الاحسن ولضمان النصر على الاشوريين واحتلال نينوى بالاتفاق مع البابليين . كما نقرأ فى وثيقة الأخبار البابلية عن ثورة منطقة سوخو فى اواسط الفرات الى الجنوب من عانة وكيف أن نابولاصر قد سار بجيوشه لاخماد الحركة وسيطر على راخيلو (جزيرة فى وسط نهر الفرات جنوب عانة الحالية بقليل) ثم حاصر عانات (عانة الحالية) . ولم يتمكن نابوبلاصر من اخماد الحركة وقد يعود سبب ذلك الى عدم تضييقه الخناق على الثوار الأمر الذى سيؤدى الى اضعافه ويعرقل هدفه الاهم وهو وضع نهاية للأشوريين . وربما تكون منحوتة شماش أو صور من ماري وسوخى التى تعود الى حوالى سنة ٩٠٠ ق.م. من حجر الكلس الابيض وتمثال بوزور عشتار الناقص من مارس والتى عثر عليها فى الجزء الأوسط من قصر نبوخذنصر الثانى فى بابل (القلعة الرئيسية) من الغنائم التى جلبها معه نابوبلاصر فى هذه الغزوة واحتفظ بها فى القصر . ونقرأ فى منشور الملك نبونيد[٣٠] بأن الملك الميدى لدى احتلاله اشور هدم معابد الأرباب وما فيها بكل قسوة ولم يبق أى شىء فيها كما خرب المدن ودمرها مثل العاصفة الهوجاء[٣٠] .

التقى نابوبلاصر سنة ٦١٢ ق.م ثانية مع نظيره الملك الميدي (وتسميه وثيقة الأخبار الآن بملك الاوممان ماندا) وتمكنا من عبور نهر دجلة الى ضفته اليسرى وهو أمر ليس باليسير ويصور مدى الضعف الذى وصل اليه الاشوريون لأنهم كان بامكانهم عرقلة هذا العبور وانزال الخسائر بالقوات المهاجمة . وتذكر وثيقة الاخبار البابلية مرابطة الجيش أمام نينوى لمدة تقرب من شهرين (حزيران - آب) ولم تتمكن القوات المهاجمة من دخول المدينة في الهجمات الثلاث التى شنتها عليها ولكنهم تمكنوا في الهجوم الرابع من اختراق تحصينات المدينة ودخولها ونهبها وتخريبها . وهرب الملك الاشورى أشوراوبالليط الثاني الذى لا نعرف متى وبأى ظروف صعد الى العرش الاشورى وماذا كان مصير الملك سن شارايشكون ؟ ولحق البابليون بالملك المنهزم حتى نصيبين حيث تمكن من الوصول سالما الى حران مركز قائد القوات المسلحة الاشورية (التورتان) واتخذها مقرا لاقامته وحركاته المقبلة . ووثيقة الأخبار البابلية والتى هي من كتابة ناسخ بابلي فمن الطبيعي ان تجسم الدور الذى لعبته القوات البابلية في سقوط نينوى . وتذكر الوثيقة اشتراك الميديين والاوممان ماندا (ربما السكيثيين) في الهجوم الأخير على نينوى . والاوممان ماندا (والتى معناها بالاكدية الجموع الغفيرة) قد يكونون من السكيثيين حيث نقرأ في ديودوروس الصقلي عن اشتراكهم في ذلك الهجوم مع البكتريين الذين اعلنوا عصيانهم على الملك الاشورى[٣١] . علما بأن لفظة الاوممان ماندا قد

بـرزت لأول مرة حسب معلومـاتنـا الحـاليـة في نصوص الملك عموصادوقا من سلالة بابل الأولى الذي حاربهم .

ويصعب في الواقع التوصل الى جواب قـاطع بخصوص هوية الاوممان ماندا فهل هم الميديون أو السكيثيون في وثيقة الاخبار . يخبرنا بارجوشا بأن (نابوبلا سساروس (نابوبلاصر) والد نبوخذ والذي يسميه اسكندر بوليهستور ساردانا بولوس قد بعث الى استياغيس مرزبان ميديا وأخذ ابنته أميتان (أريتان) كزوجة لولده نبوخذ نصر .. من قبل ساراكوس ملك الكلدانيين كقائد ولكن وجـه جيوشه ضـد الملك الذي في نينوي . وقـد خاف ساراكوس من هجوم نابوبلا سساروس فأحـرق نفسه في القصر وبذلك صارت قيادة الكلدانيين في بلاد بابل الى نابوبلاصر) [٣٢] . ورغم الارتباك الذي يتضمنه النص أمثال أقران نابوبلاصر مع الشخصية الاسطوريـة ساردانـا بولوس والذي طابقـه بعض الباحثـين خطأ مـع اشوربـانيبال والذي هــو في الواقــع شخصيـة مـركبـة من شخصيات اشور أطيل ايلاني وشماش شموكين والصقت باشوربانيبال [٣٣] . وكذلك تسمية ملك الاشوريين بملك الكلدانيـين فان النص يتضمن مصاهرة نابوبلاصر للملك الميدي بتـزويج ابنـه نبوخذنصر من حفيدته ويجعل اسقاط نينوى من عمل نابوبلاصر دون غيـره . ولا نريـد مناقشـة مضمـون هذا النص لأنـه يصعب قبـول بعض الأمـور فيه التي لا تـدعمها الوثـائق البـابليـة المعاصرة . فالأخيرة لا تذكر زواج نبوخذ نصر من أميـرة ميديـة ولا ارسـال الملك الاشـوري الى نابوبلاصر لمقابلة مـرزبان ميديا . وربمـا يلقى النص الضوء على مصير سن شارايشكون (الذي تسميـه ساراكـوس) الذي يجعله كمصير عمـه شماش شموكين الذي أحرق نفسـه في القصر . ولا يتعرض النص الى اشوراباللبط الثـاني آخر ملوك اشور . ومن الجـديـر بالذكـر ان هناك من يؤكد كون الاوممان ماندا هم السكيثيون الذين اشتركوا مع الكلدانيين والميدين في اسقاط نينوى ومن انهم قد اتحدوا بعـد ذلك مع نـابوبـلاصر وسـاروا نحـو حـران وأخـذوهـا ومن ان ملك السكيثيين آنذاك هو مأديس ابن بوتوشيس .[٣٤] ولكن الظاهر ان الذين عاونوا البابليـين في أخذ حران هم الميديون . وفي رسالة بعث بها نبوخـذ نصر لما كان وليا للعهد الى نينورتا شارا اوصصور ونابو نادين شارري ومردوخ اتتي ايدي ينوه عن حملة والده ضد حران حيث نقرأ (هل مـردوخ ونابو يمنحوك السعادة لقد ذهب الملك الى أرض حـران . لقـد خـرجـت قـوة عـظيمـة مـن الميديين) [٣٥] .

ان نصوص وثائق الأخبار البابلية لا تتحدث عن حرق مدينة نينوى ولكننا نعرف من الكتابات الكـلاسيكية ابتـداء من ابيدينـوس ومن أطلال المدينة التى تحـوى آثار حـرق بأن المـدينة قـد أحـرقت من قبل المهـاجمـين . وان منحـوتـات سنحاريب المشهورة في المتحف البـريطاني التى كانت في قصره بنينوى لاتزال تحوى آثار الحرق الذى خرب المدينة . ويظهر ان المهاجمين قد دخلوا المدينة من تصدع في السور الشمالي للمدينة . وفي تقسيم الممتلكات الاشوريـة حصل كي اخسـار القسم الشمالي الغربي من بلاد الرافدين بينمـا أخذ نابوبلاصر الأقسام الجنوبية والغربية .

كان لاجراء نـابوبـلاصر بارسـال جيوش الى شمال غرب نينوى ونصيبين نتائجه في خضـوع سكان روصافو في منطقة سنجاراليـه . ثم تقدم الملك البابلي بنفسه سنة ٦١١ ق.م . عـلى رأس جيش ضد روكوليتي في شمال سورية واحتلها قبل حـران . ولكن الملك الاشورى بـالاشـتراك مـع حلفائه المصريين الذين أسرعوا لنجدته عبر نهر الفرات وسار الى حران وتمكن من استرجاعها بعد ان ذبح جنود الملك البابلي [٣٦] . ولو ان نصا آخر يذكر حصار اشوراوباللبط والمصريين لحران مدة شهرين دون جدوى ومجيىء نابوبـلاصر بجيش لنجدتها . وكان أخذ نـابوبـلاصر لحران نهـاية للاشوريين كقوة سياسيـة . وفي سنة ٦٠٩ ق.م تحرك نابوبلاصر الى جنـوب حدود أرارات عنـد منـابـع نهـر دجلة عن طريق ايـزاللا وأكمـل نـابوبـلاصر في السنة التـالية حـركاتـه في هذه

المنطقة . وفي سنة ٦٠٧ ق.م قام نابوبلاصر بحملة في نفس المناطق الجبلية في الغالب لتعقب فلول الاشوريين الذين لا بد أنه انسحب قسم منهم الى تلك الربوع .

وتذكر وثيقة الأخبار البابلية بأن جيشا كان آنذاك بقيادة ولي العهد نبوخذ نصر يعمل بصورة مستقلة في تلك المناطق . ثم احتل نابوبلاصر كوموخو (سيمساط الحالية على الضفة الغربية لنهر الفرات) الهامة استراتيجيا . وقد باءت محاولة المصريين لاسترجاع المدينة بالفشل رغم فداحة الخسارة التى حلت بالحامية البابلية هناك . وتحول نابوبلاصر وسيطر على مدن قوراماتي (على مقربة من مدينة الرقة الحالية بسورية) وشونادیری وايلاممو وداخاممو التى لا بد وان كانت في منطقة سوخي من سورية الحالية على طول نهر الفرات . وهنا رجع نابوبلاصر الى بابل الأمر الذى استغله المصريون الذين عبروا نهر الفرات عند كركعيش (جرابلس الحالية) واحتلوا قوراماتي . وحل نبوخذ نصر الآن محل والده في القيادة التى أظهر بها براعة منقطعة النظير . ويظهر ان المصريين لم يبقوا طويلا في كوموخو وقوروماتي حيث يدل مجرى الأحداث على انسحابهم منها فعبر البابليون ضفة الفرات الغربية قرب كركعيش نفسها حسب ما يظهر واصطدموا مع المصريين في معركة ضارية داخل مدينة كركعيش في البداية ثم في المناطق المكشوفة المحيطة بها بعد انسحابهم وقد أظهرت الحفريات التى قام بها ليونارد وولي في كركعيش حصانة الاستحكامات الدفاعية فيها وبقايا الحرق الذى تعرضت له من جراء هذا الهجوم . ففي دار في كركعيش عثر على هيكل رجل ربما يكون مسؤول المدينة الكبير آنذاك . والى جانبه خاتمه الذى حوى خاتم الملك المصرى ساماتيكوس والذي ربما كان هدية من الملك المصرى الى صديقه عاهل كركعيش . كما عثر على طبعات أختام على الطين وتماثيل للأرباب المصرية الرئيسية وأمثلة أخرى من الفن المصرى . وكذلك على بقايا من درع بطرازيوني في الغالب يعود لمرتزق يوناني في جيش نيخو الذين اشتركوا في تلك المعركة . اضافة الى الأخشاب المتفحمة والطابوق المحروق والمئات من رؤوس السهام الحديدة والبرونزية غالبا ما كانت نهاياتها مكسورة أو معوجة نتيجة اصطدامها بأسوار المدينة . كلها تشير الى عظم المعركة التى ظهرت بها عبقرية نبوخذ نصر الثانى الشاب الحربية (٣٧) . وكان اندحار المصريين حاسما حيث أبيدت غالبية جنودهم . وقد تعقبت الجيوش البابلية فلول جنود المصريين ومن معهم من نوبيين ومرتزقة يونانيين المندحرة الى حماث (حما) حيث أوقعت بهم هزيمة نكراء أخرى (٣٨) . ثم سار على طول الساحل السورى . وقد عثر في مدينة بابل على نصب في الغالب جزء من الغنائم التى جلبها نبوخذ نصر من شمال سورية أثناء حركته هذه فيها . وتصور رجلا بلحية في وضع جانبي بلحية ملتفة وعين واسعة وفي يده اليسرى ما قد يكون سلاحا وفي اليمنى شعلة وهو لابس مئزرا يصل الى ما فوق ركبتيه مع خنجر طويل وحزام (٣٩) .

لقد تقدم نبوخذ نصر بعد ذلك مغطيا كل سورية (أرض حاتتي) واستسلم ياهوياكيم حاكم يهوذا في فلسطين والذى ربط نفسه مع المصريين أولا ثم مع الكلدانيين وقدم رهائن الى الملك البابلي ضمانا لحسن تصرفه وطاعته كان منهم حسب ما يذكر العهد القديم دانيال الذى لا يزال الباحثون يشكون في أخباره . وهناك الكثيرون الذين يشكون في غزوة نبوخذ نصر لمنطقة يهوذا في فلسطين في هذا الوقت . وفي حركاته اللاحقة في سورية اتخذ نبوخذ نصر مدينة ربلا على نهر العاصي مركزا له واستسلمت صور وصيدا والساحل الفلسطيني .

وبعد سنة من معركة كركعيش كان نبوخذ نصر في سورية مرة ثانية يجمع الجزية من دمشق وصور وصيدا والقدس مدمرا عسقلان حيث ثار عليه حاكمها دون شك بتحريض من مصر . فقد عثر في سقارة بمصر على رسالة وجهها حاكم من فلسطين الى الفرعون المصرى يطلب منه المساعدة

ضد ملك بابل . ونقرأ في الرسالة (أكتب الآن الى سيدي لأخبره بأن جنود ملك بابل قد تقدمت حتى أفك (رأس العين شمال يافا) . ان الفرعون يعرف ان خادمك لا يمكن ان يقاوم ضد ملك بابل لمدة يوم واحد ، هلا يسره ان يرسل لي قوة لانقاذي لأن خادمك مخلص لسيده وخادمك يتذكر احسانك وهذه المنطقة هي من أملاك سيدي) الخ .

ولو ان اسم المدينة غير موجود في الرسالة ولكن مرسلها ادون لا بد وان تكون مدينته الى الجنوب من هناك وأحدى المدن الفلسطينية الخمس المهمة وفي الغالب عسقلان (الواقعة على بعد ١٢ ميلا شمال غزة) . ويؤكد سفراورميا أخذ نبوخذ نصر لعسقلان [٤٠] . والوثيقة البابلية التى تذكر اثنين من أبناء ملك عسقلان أكا Aga والملك نفسه في النص . ونقرأ في نص اسم خالابيزو بالعلاقة مع عسقلان والذى ربما يكون الحاكم الذى عينه نبوخذ نصر على عسقلان [٤١] . ولكن المساعدة لم تصل في وقتها [٤٢] . ومن الجدير بالذكر ان صحة الرسالة لا تزال موضع شك [٤٣] . ومهما يكن فقد سير نبوخذ نصر رجالات عسقلان المهمة من صناع وملاحين ورجال حرف نقرأ عنهم في قائمة وردتنا بعشر سنوات بعد الحدث .

لم تثن المعارك نابوبلاصر عن اهتمامه بالجبهة الداخلية حيث نقرأ في نصوصه عن تعميره معبد مردوخ في بابل (الايزاكيلا) ومعبد أروتا في بابل وتنظيم العبادة في معبد شماس بسبار وتعميره المعبد . ويظهر ان أقدم عهود معبد الربة عشتار الأكدية في بابل يعود الى زمن نابوبلاصر الذى شيده على أبنية سكنية من عصر أقدم . كما شيد قصرا فيما يعرف بالقصر الجنوبي (الذى يحده شارع الموكب من الشرق ومصطبة عالية ومجرى قديم للفرات من الغرب وسور بابل الداخلي من الشمال والمدينة من الجنوب) . وبنى نابوبلاصر قصره هذا من اللبن على أسس من الأجر محاط بجدار مغلق يعود له المدخل ذو السقف المقبب . والمعتقد ان نابوبلاصر قد شيد في بابل سورها الداخلي (الامكور أنليل) والخارجى نيميتي أنليل (عرش أنليل) كما أحاط سور المدينة بخندق ثم شيد زقورة مردوخ ومعبدا للرب نينورتا وجمل المدينة .

ونستشف من كتابة لنبوخذ نصر بأن والده قام ببناء صغير في بابل مع مسناه لنهر الاراختو تمتد من بوابة عشتار حتى بوابة أوراش اضافة الى شارع الموكب . وعثر في بابل على اسطوانتين فخاريتين تعودان الى فترة حكم نابوبلاصر . الأولى في الساحة الشرقية للقصر الجنوبي داخل البوابة الداخلية تشير الى تجديده السور الداخلي من ضفة نهر الاراختو من أعلى الجانب الطولي لبوابة عشتار حتى أسفل الجانب الطولي لبوابة أوراش . وعثر على الاسطوانة الثانية على بعد ٣,٥ مترا من الزاوية الشرقية لسور القصر الجنوبي وبها يذكر كيف انه ثبت أسس سور الايمكور أنليل (أنليل قد أحب) الكبير الذى كان متداعيا ومائلا قبل عهده عن أسسه القديمة . كما ذكر احاطته بابل بسور يتجه نحو الجهات الأربع . ويختتم النصين بقوله (أيها السور حدث مردوخ جيدا عن أعمالي) . ويظهر ان نابوبلاصر لم يكمل البناء بل أتمه ولده نبوخذ نصر [٤٤] . ويخبرنا نابوبلاصر في كتاباته على الدوام بأنه أتى لينفذ رغبة الأرباب مردوخ ونابو في تجديد المعابد .

ذكر لنا نابوبلاصر تراجع نهر الفرات عن مدينة سبار بحيث سارت المياه بعيدة عنها (مي أي اي ريئوقو) فشق قناة من الفرات اليها (نارو بوراتو لوئوشا أخرأمما) . وأخبرنا بأنه قوى ضفة تلك القناة بالقار والطابوق (كير ناري شوئاتي ايناكوبرى أروأ جوررى لوئو شائر شيئيدما) كما شيد سورا لمعبد شماس في مدينة سبار .

لقد أطلق الناسخ البابلى على نابوبلاصر في نصوصه الألفاظ الحليم (أشرى) والمتواضع (شاختوم) . ويقول عنه نص آخر (الذى يقف بحضرته العظماء شا اينا موخخى ايززازو رابووتي) . ونقرأ في النص نفسه عن اطلاقه كلمة المعظمة على زوجة نابوبلاصر التى في الغالب هي الالهة نين ماخ لأن الناسخ يضع كلمة الربة الى جنب اسمها (ايلتي شا اينا الي بيلتي خيريتي

شا نابوأبال أوصور شاقوتي) [٤٥] .

بينما كان نبوخذ نصر على رأس الجيوش البابلية في طريقه الى مصر عند نهر العريش (وادى نهر مصر الجاف بالنص) وصلته الأخبار بوفاة والده ربما في بداية شهر آب سنة ٦٠٥ ق.ن.م فقفل راجعا الى بلده وعهد بقيادة جيشه الى من يثق بهم من القادة . ولا نعرف الطريق الذى سلكه الى بابل ولكننا نقول ان المدة التى استغرقها بعودته (اذا أخذنا وثيقة الأخبار البابلية مأخذ صدق) وهي ثلاثة وعشرون يوما تبدو قليلة مما يدل على سرعة سيره وسلوكه الطريق الأكثر قصرا والذى قد يكون عن طريق تيماء أو تدمر خشية ان يصعد على العرش الشخص الذى يفضله الكهنة (اذا صدقنا بجوزيفوس) [٤٦] . ولكن الشعبية التى كانت لنبوخذ نصر بين جيشه لا تسمح لأى شخص عداه ان يخاطر في ترشيح نفسه مكانه . وكان أول عمل على نبوخذ نصر القيام به هو دفن والده الذى لا بد وان تتم في حفل مهيب وضع خلاله وهو في أحسن حلله المزينة بالخرز الذهبية والكثير من قطع الذهب المزينة في تابوت فخارى ضخم دفنه في مكان أغلق الممر اليه بجزء من سور المدينة الخارجي والذى صار فيما بعد خاصا بالحريم حتى يكون في حرز حريز من نبش الأعادى . وان آخر لوح مؤرخ باسم نابوبلاصر من الوركاء كان في ١٢ مارس سنة ٦٠٥ ق.م . ومن بابل في ٨ آب سنة ٦٠٥ ق.م. وأول نص وصلنا من بداية سنة صعود خليفته نبوخذ نصر (معنى اسمه نابو ـ كودور ـ أوصصو الاله نابو يحمي الحدود أو الاله نابو يحمي الابن البكر) الذى قد يكون هو نفسه لابينيتوس عند هيردوتس هو الابن البكر الى والده الذى سبقه في الملك نابوبلاصر والذى لا بد وان سماه باسم جده تيمنا . وقال نبوخذ نصر في نصوصه انه ابن نابوبلاصر المتقدم المقام (أيلوأ شاريدر شا نابو أبال أوصصو) طبعا بالنسبة لأخيه نابو شوم ليشير الأصغر سنا منه والذى يطلق عليه في نص (الأخ المساوى له أخو تاليمو) . ويظهر نابو شوم ليشير الى جنب اسم نبوخذ نصر في كتابة تكريس لمعبد الرب مردوخ [٤٧] .

اعتقد البعض ان نبوخذ نصر قد تزوج سنة ٦٠٤ ق.م. من أميرة مصرية اسمها نيتوكريس هي ابنة الفرعون نيخو . وليس لدينا عن هذا الزواج أى دليل من المصادر البابلية[٤٨] . وذكرت بعض المصادر الكلاسيكية أيضا ان نبوخذ نصر قد تزوج من كوهين حفيدة كي أخسار الميدي التى يسميها بارحوشا ميتان ويسميها آخرون أريتان Araiten [٤٩] . وذلك عند الاتفاق بين جدها الملك الميدى ونابوبلاصر . ولكن ليس في النصوص البابلية المتوفرة لدينا حتى ما ينوه الى مثل هذا الزواج ويذهب بعض الكتاب الكلاسيكيين الى القول بأن نبوخذ نصر قد شيد لهذه الأميرة الميدية الحدائق المعلقة في بابل كيما تذكرها ببيئة بلدها الجبلية وهو ما رددته المصادر والمدونات القديمة والحديثة حتى قرنت بابل بها . وظن المنقبون الألمان الذين نقبوا موقع بابل في بداية القرن الحالي انهم ربما اكتشفوا تلك الجنائن بعثورهم على بئر عميقة في منطقة من القصر الجنوبي ببابل غطيت بغرفة ثلاثية ظنوا انها ربما حوت جهازا يسحب الماء الى البساتين في الأعلى [٥٠] . وهذه المنطقة بالواقع عبارة عن غرف خزن تحت الأرض ذات عقادات قوية تقع في الزاوية الشمالية من القصر الجنوبي وتطل من الجهة الشرقية على بوابة عشتار وشارع الموكب وتنتهى من الشمال بسور المدينة الداخلي ومحاطة من الجنوب والغرب بجدار معزول محاط بممرين طويلين يعزلانها عن مرافق القصر وترتبط البناية بالقصر بواسطة ثلاثة مداخل . وبذلك فان الجنائن المعلقة لم يعثر عليها المنقبون في مدينة نبوخذ نصر . ويظهر من المصادر الكلاسيكية بأنه قد زود قصره بالكونات (باليونانيه كريماستوس وباللاتينية بينيسيليس) زرع فيها (دون شك في أصص كبيرة) شتى الاشجار التى جلبها من أقطار مختلفة عدة وربما تكون هذه البالكونات هي نفسها ما عرفت بعد ذلك بالجنائن المعلقة . وتعرضنا أعلاه الى اعتقاد البعض بأن نبوخذ نصر كانت له زوجة مصرية

أسموها نيتوكريس ابنة الفرعون نيخو وأخت نيتوكريس الكبرى التى كانت كاهنة للرب آمون رع في طيبة بمصر وحتى ذهب هيرودوتس الى أن نبونيذ آخر ملوك السلالة الكلدانية كان ثمرة هذا الزواج مما يدل على خلط هيرودوتس بين نبوخذنصر ونبونيذ الذى تجعله المصادر الكلاسيكية زوجا الى نيتوكريس المصرية . ويجعل هيرودوتس أخرى زوجة الى لابينيتوس الأصغر (نبونيذ) وبذلك فان احتمال زواج نبونيذ من ابنة نبوخذ نصر يجد صدى مشوشا في كتابات هيرودوتس (٥١) . ونعرف بأنه كانت هناك بنت أخرى الى نبوخذ نصر اسمها كاشا تزوجت من كال شارا أوصصور (٥٢) .

لقد ترك لنا كتاب دانيال من العهد القديم صورة عن بلاط نبوخذ نصر لا يمكن أخذها كحقيقة تاريخية خاصة وان الكتاب لا بد وانه دون حوالي القرن الثالث ق.م. لابرازه التأثير الهلنستي . وربما كان الملك البابلي الذى صوره هو نبونيذ لأن بابل قد احتلها كورش زمانة . وأطلق الناسخون على نبوخذ نصر في كتاباته حبيب مردوخ (ميجير مردوخ) ، الأمير المعظم (روبائا نائادام) والحاكم القوى)اشثائكو صيثيرى) وحبيب نابو (نارائام نابيئوم) والحاكم الذى لا يتعب (شائككناكو لا أنيخا) . وتذكر ان الرب مردوخ قد خلقه لحكم البلاد (ماتا شوتيشوررو) وليرعى الناس (نيشيم ريئيئام) ويعتنى بالمدن (زانائان ماخازي) ويجدد المزارات بضخامة (اودد وشوأ يشريئيتيم رابيئيش) .

وقسم البعض كتابات نبوخذ نصر المتوفرة لديه آنذاك الى:

١ ـ ٦٠٤ ق.م. ـ ٥٩٧ ق.م. منها أدعية حوت تنويهات الى اصطدامات سابقة منها ثلاث اسطوانات في المتحف البريطاني وغيره مع واحدة في متحف المتروبوليتان في نيويورك .

٢ ـ الفترة بين ٥٥٩٧ ـ ٥٩٣ ق.م. وهي فترة سلام وهدوء وفعاليات بنائية كثيرة لبناء المعابد في بابل والمراكز الهامة في المملكة . ومن هذه الكتابات تعمير معبد الاي باررا في لارسه والزقورة في بابل والقصر القديم ومعبد نين ماخ ومعبد السيدة العظمى في سبار وتحويل مجرى نهر الفرات الى سبار الخ .

٣ ـ الفترة من ٥٩٣ ـ ٥٨٠ ق.م. وهو عصر حروب وحملات وكذلك فتح قنوات وعمت خلالها عبادة الرب انو وتبلورت الكتابات التاريخية . ومن كتابات الفترة تلك من وادى بريسا التى أمر نبوخذ نصر نساخه بكتابتها أثناء حصاره القدس .

٤ ـ الفترة من ٥٨٠ ـ ٥٦٢ ق.م. وهي فترة فعاليات سياسية ونشاط وبناء قصور وتعاظمت فيها قوة الرب مردوخ ووصلت الكتابات التارخية خلالها الى كامل نضجها . ومن تلك الكتابات الخاصة بتعمير زقورة معبد الأزيدا (البيت المكين) في بورسيا (برس نمرود قرب الحلة) وبعض الاسطوانات الحجرية التى وجدت في الزقورة ثم تعمير القصر الى الشمال من السور الشرقي . وتعتبر الاسطوانة الحجرية الموجودة في المتحف البريطانى من هذه الفترة أول كتابة تخرج تماما عن تقاليد الكتابة القديمة وتحاول اعطاء تفاصيل لأحداث أخرى . ولهذه الفترة ترجع الكتابة ذات الـ ٦٢١ سطرا التى تصف تعمير القصر القديم وبناء قصر جديد .

ظل نبوخذ نصر يتردد في سنواته الأولى على سورية بقواته لاظهار القوة وتحصيل الجزية وهو عمل يذكرنا باجراءات بعض الملوك الاشوريين من الفترة التى سبقت العصر السرجوني . ولكن هذه الاجراءات الاحترازية التحذيرية لم تمنع ياهوياكيم (٦٠٨ ـ ٥٩٧ ق. م .) حاكم يهوذا في فلسطين من اعلان ثورته على سيده الملك البابلي بتحريض من الملك المصري الذي عاد الى سياسته التقليدية القديمة في إثارة الاضطرابات بجنوب فلسطين لشغل البابليين وإبعاد خطرهم عن حدوده أن أمكن عن طريق استقلال هذه المنطقة كيما تشكل دولة حاجزة بينهما . ومن قبل هذه الثورة اخبرتنا وثيقة الأخبار البابلية عن معركة سنة ٦٠١ ق . م. بين ملك بابل وعاهل مصر كانت

خسائر الاثنين فيها كبيرة .(٥٣) وفي سنة ٥٩٩ ق.م. أرسل نبوخذ نصر جيوشه الى الصحراء ضد القدس في ١٠ مارس سنة ٥٩٧ .ق . م. حيث وضع على الحكم هناك ماتنيا الذي اتخذ الاسم صدقيا وحمل معه الى العراق ما يقارب الثلاثة الآلاف من علية القوم كان منهم ياهوياكين نفسه مع عائلته وحزقيال النبي المعروف الذي يبدأ به أول دور من أدوار التصوف اليهودي (دور المركبة الهاماركابا). ومع الاسف هناك ثلمة في سلسلة وثيقة الاخبار البابلية حرمتنا من معرفة أحداث السنوات التالية. وقدم الايدوميون المساعدة الى نبوخذ نصر ضد يهوذا كما يظهر من رسالة ارسلها حاكم القدس الى قائد قلعة أراد في فلسطين يطلب منه فيها ارسال جنود لتعزيز حامية راموث ضد تقدم الايدوميين عليها(٥٤) في وقت لم يستجب فيه الموابيون والعمونيون لنداء نبوخذ نصر لمساعدته ضد يهوذا بل انضموا الى الأخير .

نقرأ في وثيقة الاخبار البابلية عن تحرك عيلامي ضد بلاد بابل لا نعرف الغاية منه جعل نبوخذ نصر يخرج على رأس جيش ويصبح على مسافة مسيرة يوم واحد من تركز تجمع العيلاميين الأمر الذي أثار مخاوفهم فانسحبوا .(٥٥) ونقرأ في نفس المصدر عن تمرد عسكري موجه ضد نبوخذنصر حدث في السنة العاشرة من حكمه قبض أخيرا على مدبره . ولا بد وان يكون هذا المتمرد هو نفسه بابا أخي بولليط الذي اتهم بالخيانة العظمى ضد سيده الملك البابلي في السنة الحادية عشرة من حكم نبوخذنصر وحكمت محكمة عليه بالاعدام(٥٦) ويظهر من وثيقة محاكمة المتهم هذا بأنه قد ورث من والده أراضي حصلها من نابوبلاصر وربما كان يطمح بالاستحواذ على السلطة مستغلا غياب الملك المستمر في حملاته وجولاته .(٥٧) .

بعد بضع سنوات وبتحريض من مصر والجماعات المناوئة للبابليين في مقاطعة يهوذا بفلسطين ثار صدقيا سنة ٥٨٩ ق .م ضد نبوخذ نصر . وتقدم الفرعون المصري افريس (هوفرع) (٥٨٨ ـ ٥٦٨ ق. م .) واحتل غزة وهاجم صور وصيدا في مطلع حكمه . وربما كان تقدم الجيش المصري قد شجع صدقيا على الاستمرار في المقاومة حيث نعرف ان القوات البابلية قد تراجعت مؤقتا ولكنها عادت لضرب المدينة حالما انسحب عنها المصريون . وعسكر الملك البابلي عند ربلا قرب حمص الحالية بسورية وضرب على المدينة حصارا يذكر العهد القديم وجوزيفوس استمراره سنة ونصف سنة ذاق منه السكان الأمرين وأخيرا هرب صدقيا فألقت القوات البابلية القبض عليه في أريحة وسملت عينيه بعد ان قتل ابناؤه امامه وهدم المعبد وخربت أسوار المدينة(٥٨). وقد أظهرت الحفريات في بعض المواقع الفلسطينية بان تخريبات جيش نبوخذ نصر في هذه الحملة كانت شاملة . ففي دبيو خربت المدينة تماما وهدمت بناياتها وتحصيناتها واحرقت . وأظهرت حفريات البرايت في موقع بيت مرسيم (دبير القديمة) حرق المدينة في هذا الوقت(٥٩) وحلت تخريبات مماثلة في مدينة لاخيش (موقع تل الضوير) أظهرته الحفريات أيضا .

علما بأن نبوخذنصر لم يذكر بأي من نصوصه المتوفرة حاليا ايا من هذه التخريبات التى أوضحتها الحفريات بهذه المواقع . وقدر عدد الذين حملهم نبوخذ نصر الى بابل بعد اخماد هذه الثورة بأكثر من ٥٠ الفا في وقت ذهب به قسم منهم الى مصر واليمن ومن الصعب جدا معرفة العدد الكامل وحتى التقريبي للذين أسرهم نبوخذنصر الآن . فسفر الملوك الثاني يذكر كونهم ٨ ـ ١٠ آلاف بينما يجعلهم سفر اورميا ٣٠٢٣ ثم ارسلت دفعة أخرى سنة ٥٨٢ ق . م . وقد ساعد الايدوميون نبوخذ نصر أثناء حصاره للقدس وسكنوا بعدها في فلسطين جاعلين من مدينة حبرون (الخليل) عاصمة لهم . وهنا أحيا نبوخذ نصر العادة الاشورية في نقل السكان بعد اي تمرد عسكري من منطقة لاخرى والتى نعرف عن ممارسة اشورناصربال وتجلات بلاصر الثالث وسرجون الثاني لها. ويقدم سفر أورميا(٤٠) وسفر الملوك الثاني(٢٥) عن كون قائد نبوخذ نصر في حصار القدس هو نابوزا رادان (نابوزيو

ايددينا) وعن تعيين الملك البابلي لجدليا حاكما يهوديا على المدينة في صيف سنة ٥٨٦ ق. م. والذي قتل بعد ذلك . وفي الوقت الذي يوجد هناك به موظف باسم نابوزير ايددينا من زمن نبوخذ نصر ولكن ليس كضابط في الجيش لا تذكر الوثائق البابلية شيئا عن جدليا . وجدليا هو ابن موظف كبير في مقاطعة يهوذا وان تعيينه يوضح اتجاه نبوخذنصر ورغبته بالقضاء على سلالة الملك داوود كعائلة حاكمة . وربما يفسر هذا سر الحركة المناهضة لهذا الحاكم الجديد والتى أودت بحياته بعد مدة من تعيينه .

يخبرنا نبوخذ نصر في كتابته عند وادى بريسا عن حركاته في لبنان (يسميها جبال الارز غابة مردوخ الترفة) والتى لا نعرف زمنها بالضبط وكيف ان شخصا ينعته بالعدو الأجنبي كان يحكم البلاد وسرق ثرواتها وفرق سكانها وقد هرب الان (من أمام وجه نبوخذ نصر). ولا نعرف من يكون هذا الأجنبي وقد يكون الملك المصري أفريس . ثم يتعرض الى ارجاعه السكان المشردين وعودة الحياة الى مجاريها بدخوله للبلاد . وأخبرنا نبوخذ نصر في هذه الكتابة عن شقه ممرات وطرقا في الجبال الوعرة ، وهذه لابد وان لاقى بها مشقات كبرى عملها دون شك لتسهيل تحركات جيوشه في البلاد . وتعرض الى فتحه طريقا مستقيما لنقل أخشاب الارز التى قطعها جنوده من جبال لبنان . وان الطريق الجديد هذا لابد وان كان يوصل الى الخط الرئيسى الذي يربط نهر الفرات حيث تم وضع الخشب الذي وصل أخيرا الى نهر الاراختو فرع الفرات الذى تقع عليه بابل . وقد أطنب في وصف جودة هذا الخشب (ارز ضخم عالي وقوي من جمال نادر ونوعية داكنة جيدة ، منتوج لبنان الغزير)[٦٠] ويذكرنا العهد القديم بأن نبوخذنصر أرسل قائده نابوزاردان لضرب العمونيين والموآبيين ومعاقبة قتلة حاكمة جدليا .[٦١] والمعروف ان نبوخذنصر قد سار لضرب صور التى حاصرها لمدة يذكر العهد القديم أنها ثلاث عشرة سنة[٦٢] وهو رقم يصعب قبوله . وقد استسلمت المدينة لنبوخذنصر نفسه سنة ٥٧٢ ق .م . الذي وافق على صعود ملك جديد على عرشها هو بعل الثالث الذي لابد وان كان من مؤيديه . وأعتقد البعض بأن هدف نبوخذنصر كان تحطيم صور لتحويل التجارة الهندية الى الخليج العربي وبابل ومنها الى سورية . ويذكرون لذلك عن بناء نبوخذ نصر لميناء تريدون على نهر دجلة العوراء (ياسي تايكريس) ولكن تجار صور عملوا على اضمحلال تجارة الخليج العربى عندما حولوا اهتمامهم الى البحر الأحمر .[٦٣]

نقرأ في وثيقة بابلية مهشمة انه في السنة السابعة والثلاثين من حكم نبوخذ نصر تقدم الأخير ضد مصر . وربما يكون الملك المصري هو أماسيس حيث ان المقطع سيس موجود في النص مع اسم لم يبق منه سوى المقطع كو[٦٤] (في الغالب بيتاكو) الذي قرنه اولستيد مع بيتاكوس من ليسبوس[٦٥] ثم الاسم بوتو أيامان الذي أرجح كونها تشير الى احدى المستوطنات اليونانية التي كان المصريون يستحصلون منها على مرتزقة ولو ان هناك من اعتقد كونها قورنية في ليبيا . ومن الجدير بالذكر ان اسماء يونانية قد ذكرت في النص الذي نشره وايدنر السالف الذكر مثل كونزومبا ولابونو وباتام الخ . والذين لابد وان كانوا من اسرى استحصلهم نبوخذ نصر ربما من صدام قد يكون فعلا مع ملك مصر اضافة الى احتواء قائمة الاسرى ذاتها على مصريين منها أسماء اربعة مصرية صرفة . أمثال خارماصو ونيكو وأوخياراسا ويوساميسكى وقاخسا أمونو الذين لابد وان أسرهم في معركة له مع مصر . أما مناط قخومي (كليكيا أو خوه اووه)[٦٦] وبيرينثوس (بيريندو وهي منطقة بيسيديا جنوب آسيا الصغرى الغربي) لابد وان دفعت الجزية الى نبوخذ نصر . اما الاسرى من خومي وبريندو فهم يعودون الى فترة (بنونيذ)[٦٧] وليس الى عصر نبوخذ نصر وفي الغالب ان المنطقة غزاها نركال شار اوصصور الذي افتخر بتوسيعه رقعة الدولة يستدل من العهد القديم ان السلطات البابلية قد عاملت يهود السبي خير معاملة فأقطعوهم الاراضي الزراعية وسمحوا لهم ان

يعيشوا مستقلين يديرون امورهم . ويذكر سفر حزقيال بأن الكثير من يهود السبي قد سكنوا على ضفتي نهر خيار (قناة خيبارو بين بابل ونفر) في مستوطنات خاصة بهم منها مستوطنة أبيب .[٦٨] كما سكنوا في مستوطنات جنوب بابل مثل تل الملح وتل حرشا .

في الوقت الذي لا توجد به اية اشارة في المصادر البابلية الى زواج نبوخذ نصر من ميدية أو مصرية يذهب على الأقل باحث الى تأييد زواجه من الاولى ولكنه يقول ان الملك البابلي قد طلقها سنة ٦١٤ ق .م . أي قبل صعوده على العرش بحوالي التسع سنوات[٦٩] وهذا أمر يصعب تصوره لأنه في هذا الوقت بالذات تم اللقاء بين نابوبلاصر وكي أخسار فمتى تم الزواج ومتى صار الطلاق ؟ ومن أن نبوخذنصر قد تزوج بعد ذلك من مصرية هي ابنة الفرعون نيخووكون أولاد نبوخذ نصر كانوا من الزوجة الثانية أو من جواريه .[٧٠] ونعرف بان نبوخذ نصر قد رزق باربعة أولاد كان أكبرهم أميل مردوخ وهم مردوخ شوم أوصصور وموشيزيب مردوخ ومردوخ نادين أخي . ويظهر ان نبوخذ نصر قد خرج عن تقاليد اسرته في تسمية الاولاد والذين يلحقونها بأسم الرب نابو وتدل دون شك على تعلق نبوخذ نصر بألاله مردوخ اله بابل . ومن الاناث هناك البنت كاشا التى تزوجها تركال شار اوصصور قائده الذي حاز رضاه وربما كان نبونيد هو الاخر متزوجا من ابنة اخرى لنبوخذ نصر رزق منها بولي عهده بيلشازار (بيل شار اوصصور). وكان لنبوخذ نصر أحفاد منهم لباشي مردوخ الذي خلف أباه نركال شار اوصصور وبنت اخرى اسمها كيكيتوم تزوجت ربما في نهاية حكم نبوخذ نصر من نابوشوم اوكين مسئول معبد الاشوريين من العصر السرجوني . فالمعروف ان نبوخذ نصر قد اهتم كثيرا بقصره الجنوبي الذي صار مركز حكومته الرسمي ومراجعات المواطنين . وصلتنا من زمن نبوخذ نصر وثيقة تبين لنا رجالات حكومته المهمين فقط من الطبقة التى أطلق عليها الاسم موظفي الماشينا . ويقف على رأسهم رئيس الطباخين والذي لابد وان كان ذا مركز سام حيث يشرف على الطبخ بكافة أصنافه وهو مركز لا يعين له الا من يثق بهم الملك ويأمن منهم . والاسم الذي نقرأه في الوثيقة وقت تدوينها نابوزير ابني . ويأتي بالمرتبة الثالثة حسب ما يظهر مسئول موظفي القصر والذي لم يبق من اسمه في الوثيقة سوى قسم من المقطع الأول أريبا . ويعقبه الحاجب وربما كان يشغله سن شار ايلاني . ومع الاسف هناك ثلمة في النص حوت اسم إنكال أنامار ايزاكيلا الذي لا نعرف طبيعة عمله واسماء اخرى مع وظائفهم مع اسماء لم نتعرف على نوعية وظائفهم . ثم تذكر الوثيقة مسئول نساء القصر اسمه أردياد يعاونه آخر بأسم مردوخ او بالليط الذي كان حسب ما يظهر ناسخا يضبط له السجلات الخاصة بالعمل .

ثم مسئول الأمن ومخبر الملك ثم رئيس مهندسي القصر وكان اسمه نابوأخ اوصور . ويأتي بعد هؤلاء أسماء أربعة هم مسئولون. عن جواري القصر ثم ساقي الملك ورئيس المغنين وسكرتير ولي العهد ومسئولين اثنين عن القطعان السلطانية ورئيس الملاحين ومسئول التجار الذي يحمل اسما فينيقيا (كنعانيا) هو حنون (معناه نعمة).[٧١]

لقد اعتبر نبوخذ نصر حسب ما يظهر أرض البحر جزءا لا يتجزء من بلاد بابل وأولاها أهمية خاصة وجعلها على رأس القائمة التى وصلتنا باسماء مقاطعات الدولة . وتأتى بعدها توبلياش (منطقة أشنونه) وسن ماكير (شمال بابل) والبوقود والدككورى ودير والعمموكاني وزامي (جنوب بابل) واياتبيرو (ثم منطقتين مع الاسف تالفتي الاسم) ثم بيت يقين ، ليميتوم ، ماتكاللو ، نيميد لاغودار (أقصى جنوب العراق)، كوللاب (أوروك)، دانئوم ، لارسة ، كيسيك (أقصى جنوب العراق) ، باكوشو (قرب الوركاء). ثم تقدم الوثيقة اسماء موظفي القيبو أمثال شالامبيلي ، زابينا ، أداد أخي ايدينام وبيلشو ميشكون الخ . على مناطق ومدن وصلت جميعها تقريبا مع الأسف تالفة فيما عدا مدينة ايبا . وتختتم الوثيقة بتثبيت مناصب ملوك صور وغزة وصيدا وأرفاد

وأشدود .[٧٢]

هناك رسالة من نبوخذ نصر الى طاب شارنابو المسئول عن حراسة القصر الملكي في بابل وبنفس الوقت مسئول الاملاك السلطانية خارج العاصمة يخبر الملك فيها عن الاهمال الذي يبديه حرس القصر في واجبهم . ولا نعرف الظرف الذي أدى بالملك الى اصدار مثل هذه الرسالة ولم يعاقبهم هو نفسه أو حتى ليعاقب رئيس الحرس المسئول المباشر عن اهمال هؤلاء. ومهما يكن فالمسألة لابد وان كانت غير مهمة جدا وتدلنا على حرص نبوخذ نصر على اتباع الاصول المتعارف عليها في مثل هذه الحالات .[٧٣] ولما كان سن شار ايلاني يشغل نفس المنصب في الوثيقة التى ذكرناها في أعلاه فربما يكون طاب شار نابو جديدا على المنصب الهام هذا وهذا قد يفسر اجتهاد نبوخذ نصر على اعلامه باهمال الحراس المسئول هو عنهم. ولا نعرف السر الذي ادى الى تغيير سن شار ايلاني واحلال طاب شار نابو محله .

في الوقت الذي يأتي به اسم مقاطعة أرض البحر كما رأينا اعلاه على رأس أسماء مقاطعات البلد لم يتعرض ملوك السلالة الكلدانية الى أرض البحر كثيرا في كتاباتهم رغم ان النصوص التي تذكر بلاد أرض البحر في هذه الفترة تقترح التقارب السياسى بين بلاد بابل وبينها وقوة العلاقات . فهناك وثيقة موقعة في بابل سنة ٥٨٧ ق.م. تتضمن اجراء قانونيا حسم في القضاء حول ملكية دار بين المدعين شابيك زيرى ابن زيريتو وبين بلاطو ابن الأمة ناسيكاتوم التى كانت ملكا لمندوب بلاد أرض البحر (شابيرتام تيم). والغريب ان اثنين من أهل أرض البحر كانو من بين القضاة هم نابوا يطير ناشاتي حاكم أرض البحر (قيبو شامات تيم) والثاني نابوشو ازريزأنني معاون حاكم أرض البحر (أميلو شاني شامات تام تيم).[٧٤] ولا نعرف ان كان هذين المسئولين المهمين لأرض البحر في بابل لقضية هامة أو انهما قد أتيا من بلاد أرض البحر من أجل الأمة التي تعود الى مندوب بلاد أرض البحر . وهناك لوح من زمن نبوخذ نصر مؤرخ في سنة ٥٨٣ ق . م . يلقي الضوء على العلاقة خلال هذا العصر بين بلاد بابل ومنطقة أرض البحر ونصه (ان بيل أخي ايكيشا ابن موشيزيب مردوخ ونابو ايريبا ابن نانئا الذين يحملون عطايا (ريخاتي) مرسلة الى حاكم أرض البحر قد أخذوا ستة شقلات فضة لارزاقهم). فالنص يذكر ارسال شخصين الى ارض البحر ومعهم أموال الى موظف كبير . أما الحاكم الذي أشارت له الرسالة (شاكين) لا بد وان كان ممثل مصالح البلاط البابلي في بلاد أرض البحر. ويدل النص بان أرض البحر زمن نبوخذ نصر الثاني كانت مرتبطة مع بلاد بابل وفي وثيقة اخرى من سنة ٦٠٠ ق . م. نجد أشارة الى بلاتصو من أهالي أرض البحر وتشير بأنه قد اشترك في معاملة اعتيادية (تبادل ذهب بفضة) ربما في الوركاء .[٧٥] ويدل اللوح ان بلاد بابل كانت تقدم التسهيلات (دون شك بتشجيع الحكام) التجارية الى أهالي ارض البحر .

على الرغم من الحروب الكثيرة التى خاضها نبوخذ نصر والتى تطلبت أموالا طائلة فقد أولى الملك البابلى عناية قصوى بتعمير مدينة بابل بالدرجة الأولى والمدن الأخرى أمثال بورسيا ولارسة والوركا وسيار وأورودلبات . فقد اطلق على عاصمته بابل التسمية مدينة (مردوخ) العظيمة (ماخازاشوصيئيرى) والمدينة التى شرفها (مردوخ) (ألي تاناداناتوشو) ونستدل على حركاته العمرانية الى جانب كتاباته من أجره الخاص المختوم بختمة الملكى والذي وجد بكل مكان في جنوب العراق والتى تظهر تجديدة المعابد والقصور في المدن ذات الأهمية الى جانب توسيعه وتجميله بابل . ومن الابنية الهامة التى عمر بها نبوخذ نصر ما يعرف بالقصر الجنوبي أو قلعة نبوخذ نصر والذي أظهرت الاسس كونه يعود لعصر الملك سرجون الثاني الآشورى وشيد نابوبلاصر في موقعه قصرا أصلحه الان نبوخذنصر بأن بدل ابنية اللبن بالطابوق . وعمل على بناء الجزء الشرقي منه بعد أن أزال جدران القصر الذي شيده والده ووسع القصر غربا ثم على أسس القصر وهذه مرتبطة مع تعميراته القريبة كبناء

القصر الرئيسي وتعلية « شارع الموكب والجدران الجانبية لهذا الشارع[٧٦] . وذكر نبوخذ نصر ان هـذا القصر (لم يكن قصـرى في بـابـل لتحفى الملكية . ولأن قلبي مفعم بالاجلال والرهبة لربي مردوخ . لذا فانني لم أغير شارع مدينتي المأمونة التي أحبها بسبب توسيع مقرى الملكي ولم أهدم معبدها المقدس ولم أردم قناتها وقد أخذت بنظر الاعتبار الطول والعرض عند تشييد مقر اقامتي الجديد لحماية سور بابل على مسافة ٤٩٠ ذراعا بجانب نيميتتي أنليل وقمت بتشييد سدين كبيرين من سدود الشواطىء من الاسفلت والاجر المفخور بارتفاع شاهق)[٧٧] . وافتخر نبـوخذ بسـرعة انجازه لهذا القصر بمدة خمسة عشر يوما والتي لابد وان قصد بها هيكل البناء فقط وليس تزيين جدرانه . والقصر واسع حيث تبلغ مساحته ٥١ ألف متر مربـع ويمكن اعتباره نمـوذجا لعمـارة القصر في العصر البابلي المتأخر . وحـوى القصر خمس ساحات (شـرقية ، وسـطى ، رئيسية ، غـربية وأخـرى أضافيـة) تقع كلهـا الى جانب بعضها البعض عدا السـاحة الشـرقية . وعلى الجانب الجنوبي من كل ساحة هناك غرفة عريضة كبيرة فيما عـدا الشرقيـة . وفي خلوه السـاحـة الرئيسـية هناك خلوة مـزينة بـالطابوق المـزجج بـالألوان الازرق والأحمـر والأبيض والاصفـر بزخرف لابد وان له معنى رمزيا مرتبطا دون شك مع مفهوم السلطة أيام تلك السلالة . فنرى صفا من الاشجار ذات الرؤوس الحلزونية يسند افريزا من نخيلات وضع فوق افريز آخر مكون من أسود تسير ببطء على طول شريط مزين بأزهاره فالشجرة والنخيلة هما رمز الحياة في العراق القديم والأسد رمز أيسو (ماء الأعماق) الذي تتفجر منه الحياة وفي وسط كل هـذه يجلس الملك متربعـا بصفته حامي الحياة[٧٨] . ويحوى بقية القصر عددا من البيوت الصغيرة والكبيرة ذات السـاحـات تكون بها غرفة الاستقبال من النوع العريض المفتوحة غالبا الى جهة الشمال . ونـواة القصر السـاحـة الرئيسية وغرفة العرش[٧٩] . وأعـطيت الأخيرة مثل جميع غرف الاستقبال المهمة انفتاحـا نحو الشمال من أجل البرودة صيفا . وهي عبارة عن غرفة مستطيلة (٥٢ × ١٧ مترا) صممت لكي تكون بشكل متناظر مع المحور وبثلاثة مداخل من الساحة وخلوة مركزية متراجعة قليلا وسط جدار المؤخرة حيث مكان عرش الملك . ومن شكل غرفة العـرش التى تختلف عن نمط غـرفة العـرش في القصور الآشورية يمكننا الاستدلال بأن مراسيم الملك الدينية بهذا الخصوص ربما كانت تختلف عنها في آشور . فأي شخص يقف في ساحة القصر الرئيسية وينظر الى الواجهة (كما ظهرت حين أعاد كولد فاي تركيبها) يستطيع ان يتطلع عبر الباب الاوسـط المـركـزي الى الملك الذي يجلس عـلى العرش في خلوة . ولما كـانت هذه الغـرفة هي في وسط مخطط القصر لأهميتها فبدون شـك كانت مكسوة بزخرفة من المينا تغطى سـطح الواجهة كله[٨٠] . وربمـا كـانت احـدى غـرف الزاويـة الجنوبية الغـربية مصنعـا لعمل الفخـار الملكي الخاص باستعمالات القصر وذلك بدليل اكتشاف جرار أنيقة مع آلات لصناعتها هناك . وفي الزاوية الشمـالية الشرقية من القصر والتي هي اكثـر انخفاضا من مستوى الأرض الخارجية مطلة على بوابة عشتار من الشرق وشارع الموكب منتهية من الشمال بسور المدينة الداخلي عثر عـلى ما أطلق عليه الآثاريون الأبنية ذات الأقبية والتى أحيطت من الغرب والجنوب بجـدار معزول عن مـرافق القصر بـواسطة ممـرين طويلين وترى البنـايـة بالقصر من ثلاثة مداخل من جهة الجنوب . وهي عبارة عن غرف خزن تحت الارض ذات عقادات قوية ظن المنقبون الأوائل كما رأينا كونها الجنائن المعلقة خاصة بعد ان اكتشفوا فيها بئرا عميقة غطيت بغرفة ثلاثية ربما حوت جهازا لسحب الماء الى البساتين في الأعلى ولكن الباحثين لم يعودوا يعتمـدون هـذا التفسـير[٨١] . ويقـع القصر في الشمال خارج نطاق مركز المدينة وكان المدخل اليه من جهة الشرق آتيا من الساحة الكبيرة المكشوفة وهي تقع بين القصر وشارع الموكب . وتقع البوابة الرئيسية التى عرضها ٤,١٥ مترا في وسط الجبهة مـع غرف عـلى الجانبـين . وملاط الكلس الذي استعمل في البناء نقي جدا وأبيض اللون وصلب خـاصة في الأقسـام الوسطى والعلويـة آمـا في

الأجزاء السفلى فلونه رمادي نوعا مـا . ويقتصر وجود الاسفلت في الشقوق عند واجهات أسـوار الحـافات في الشمـال . وقد استعيض عن هـذا الاسفلت بالطين بعرض ١٠ سم تحت سطح شرفة الأسس عند الحافات ويقوم هذا الطين مقام ملاط الحافة الأحمـر ويمنع تسـرب الرطوبة . وكـان لأحجار الطابوق المستعمل بصورة عـامة أبعـاد منتظمة ٣٣ × ٣٣ × ٨ سم٣ وفي الاقسام السفلى غالبا حوالي ٣٤ × ٣٤ × ٨ سم٣ . ومن المعروف ان شارعا مبلطا عرضه عشـرة أمتار (شـارع الموكب) على مسافة تبعـد ١٢ مترا تقـريبا من السور الشرقي للقصر . وكان هذا الشارع حتى عصر نبوخذ نصر في مستوى ١,٩٠ مترا تقريبا . وعندما جرت تعلية القصر جرت معها تعلية هذا الشـارع أيضـا حتى مسـتـوى ٩,٥٠ متـرا تقريبا[٨٢] .

لقد عثر على بعض الآثار الهامة في هذا القصر والتى جمعها نبوخذ نصر وخلفاؤه ويصعب معرفة مـا جمعه نبـوخذ نصر منهـا . ومن هذه الاثـر المعروف بأسد بابل المنحوت من البازلت يقف فوق رجل مطروح . ويعـود هذا الاثـر في الغالب الى الفترة الحيثية القصيـرة الأمد . فـربما صنعـه الحيثيون الذين دحروا بابل في نهاية سلالة بابل الأولى ورمزوا به لانتصارهم على بابل التى مثلوها بالرجل المطروح تحت الأسد . ومما يقوى هـذا الاستنتـاج مشابهـة الأثر لتمـاثيل الحيـوانات الحيثية ولو ان كولد فاي يرجعه الى عصر نبوخذ نصر . والمرجح ان نبوخذ نصر كان مولعا بالآثار التى ترجع الى عصور سحيقة في القدم مما دفعه الى الاحتفاظ بهذا الأثر في داره مع آثار أخرى . ومن القطع الأثرية الاخرى رأس أسد من البازلت وتمثال بزور عشتار الناقص ومنحـوتة شعـاش ريش أو صصور .. الخ[٨٣] .

والقصر الثاني الذي شيده نبوخذ نصر هو ما يعرف بالقصر الصيفي الذي أسماه (قصر حياة نبوخذ نصر) المربع الشكل (طول كل ضلع ٢٥٠ مترا) والذي شيده على مصطبة مرتفعة هي التي أطلق عليها التسمية الابادانا (ومعناها الجبهـة (الأنف) القوية بالاكدية من ابيودانـو) ويعرف الان بجبل بابل وهو يشـابه في تخـطيطه القصر الجنـوبي حيث نرى فيـه القـاعتـين الشـرقيـة والغربية وقاعات وغرفا اخرى ملحقة . وربما كان هناك جناح خاص بالخـدمات ملحق بـه بدليـل اختلاف مستوى التباليط في القصر . وقـد بنيت الجدران من الطابوق والجص والارضيات بصبة من النورة والرمل والجص اضيفت اليهـا بعض الالوان والتي تدل على تقدم فن البناء دون شك . وربما كان مدخله من الغرب او الشرق ولو لم يعثر له على أي مدخل بعد وفي الغالب كان يحاذي نهر الاراختو من جهة الغرب .[٨٤] وقال عنه نبوخذ نصر (وبنيت ابادانا بالاسفلت والطابوق في داخله طولها ٦٠ ذراعا باتجاه سبـار وهيأت له ارضـا عالية اساسها عند صدر العالم السفلي بمواجهة الماء وجعلتها متينة ورفعت قمتها وربطتها بالقصر ورفعت قمته كالجبال الشامخـة . وجعلت سقفه من جذوع الأرز الضخمة وأبوابه من خشب الأرز المكسو بالنحاس وعتباتها ومحاورها من البرونز وسميت ذلك البيت (عاش نبوخذ نصر عاش حامي ايزاكيلا) و(البيت اعجوبه البشر) و(مركز البلاد والمقر المشرق لسكنى الملكي) .[٨٥]

ان الاثر الاخر الذي عمر به نبوخذ نصر كثيرا هو ما يعرف ببوابـة عشتار المكرسة الى الربـة عشتار يحرسهـا من الخارج زوج من الابـراج البارزة . وحوت جـدرانها المشيـدة من الطابوق افاريز عليها حيوانات تسير وصفوف من الثيران تتناوب مع صفـوف من الاتنة المـركبة . ويمكن تمييز ثلاث مراحل هامة في عمارة باب عشتار كلها انجزت زمن نبوخذ نصر . فالحيوانات الاولى غير مزينة منحوتة في الطابوق ثم رفع مستوى الشارع ببضعـة أمتـار الامـر الذي أدى الى اختفـاء المنحوتات تحت المرتفع . وبدأت المرحلة الثـانية بالترجيج وهي صف من الثيران وعلى قمة هـذه اعطيت البوابة مظهرها الاخير بالطابوق المنحوت المزجج .[٨٦] ونرى على جدران هذه البوابة رمزين لا نجـدهما في محـلات اخرى من الأبنيـة وهما العجل والحيوان الخرافي الموشخوشو . والعجل

رمز الحياة والخصب منذ العصور الاولى في بلاد الرافدين في وقت يرمز به تنين الموشخوشو برأس الافعى الى ارباب العالم السفلى وهم (نينازو ، ننكيش زيدا ، مردوخ ونابو) .[٨٧]

يظهر ان نبوخذ نصر قد أكمل بناء سوري مدينة بابل الداخلي والخارجي واللذين بدأ العمل بهما والده . ومحيط السور الخارجي ١٨ ـ ٢٠ كم ويتألف من ثلاثة اجزاء وسمكه ٧ ـ ٧,٨ مترا للجزئين الاولين و٣,٣٠ للجزء الثالث . والسور الداخلي أصغر من الخارجي حيث يبلغ طوله ٨ كم ويتألف من جزئين سمك الجزء الاول حوالي ٦,٥ مترا والثاني ٣,٧٢ مترا . ولاسوار بابل ثمانية ابواب احدها باب عشتار وبوابات سن ، مردوخ ، زبابا ، اوراش ، شماش ، وأداد . وسميت كل واحدة باسم اله . وقويت البوابات بالابراج وصينت بالخنادق . وعرض سقف السور الخارجي ٣٦ قدما ويمكن ان تسير به عربتان واربعة خيول بسرعة من اول المدينة الى اخرها وهذا يجعلها دون شك وسيلة دفاعية مكينة .[٨٨] وأخبرنا نبوخذ نصر كيف انه عند وضع عتبات بوابات اسوار المدينة (صيئي اوب ليبشو) دون شك عند اكتمال بنائها ثيرانا ضخمة من النحاس (ريمان ايري ايئيكرئرتيم) وثعابين كبيره (صيرروشي) وكل هذه كانت لطرد الشرور وحماية المدينة . ونقرأ في نصوص نبوخذ نصر (ومن أجل تقوية دفاع بابل . اربعمائة ذراع من الارض على جانب المدينة ، بعيدة لا يمكن اختراقها لاحاطتها بسور قوي نحو شرق بابل . حفرت خندقا ووصلت مستوى المياه الجوفية . لقد شيدت سور خندقها بالقار والطابوق وربطته جيدا مع سور والدي وشيدت على حافته سورا ضخما من القار والطابوق كعلو الجبل . ولاجل دفاعيات ايزاكيلا وبابل لمنع تراكم غرين الضفاف الجافة في مجرى نهر الفرات شيدت سدا كبيرا من القار والطابوق في النهر ووضعت الاساس في اعماق النهر ورفعت بناءه عاليا كالجبل) .[٨٩]

ان الشارع المقدس المعروف بالاسم السومري (الاي بور شابو (الذي لا يعبره العدو) يصل بابل ببيت الاكيتو عبر نهر الفرات ويستمر لباب عشتار ثم يصبح اكثر ضيقا داخل المدينة ويمر من امام قصر الملك الجنوبي ويعبر قناة ليبيل خيكالي (جالبة الخير) التي تمر في منطقة الزقورة وتتحول غربا وتصل نهر الفرات حيث يكون الجسر . ويقسم الشارع البلدة الى قسمين هما الشرقي الذي يسميه الاثاريون تل المركز الذي يحوى بيوتا سكنية ثم الغربي والجنوبي حيث القصور والمعابد .[٩٠] وطول شارع الموكب ابتداء من باب عشتار حتى باب سور الزقورة حوالي ٧١٠ أمتار ويتراوح اتساعه بين ١٠ ـ ٢٠ مترا ثم يضيق الى ما بين ٦ ـ ٧ أمتار . وقد تم رصفه كما تذكر النصوص البابلية بنوعين من الحجارة هما البركانية المائلة الى الحمرة (ابنو ـ دور ـ مينا ـ باندأ) والكلسية (الابنوسيتو) والتي عثر عليهما فعلا خلال الحفريات . وعثرت المؤسسة العامة للآثار والتراث العراقية فيها على ثلاثة اسافين متماثلة المضمون للملك نبوخذ نصر تذكر تعليته شارع الموكب .[٩١]

أخبرنا نبوخذ نصر بانه عمر معبد الايزاكيلا وزقورته المعروفة باسم الايتمينانكي (المعبد الذي هو اساس السماوات والارض) . ولم يكتشف المعبد بعد حتى يمكن التعرف على ما عمره به نبوخذ نصر ووالده من قبله . فأخبرنا نبوخذ نصر بأنه قد جعل واجهات المقدس فيه (الايكوو) تضيء كالشمس وغلف جدرانها والسقف بالذهب . وذكر تعميره الايزاكيلا بما نصه (فضة ، ذهب ، احجار كريمة ، وبرونز وخشب من مجان وكل شيء غالي وبكثره ، منتجات الجبال ، كنوز البحار ، كميات ضخمة من البضائع ، هدايا ثمينة جلبت الى بابل و(وضعت) امام مردوخ في ايزاكيلا قصر الوهيته . اصلحت المقدس مصلى مردوخ ، انليل الارباب جعلته مشرق مثل الشمس بذهب لامع مثل الجبس . بلا زورد ومرمر غلفت داخل المعبد .. دو ـ ازاك محل تقرير المصير ، مزار الملكية ، مزار رب الالوهية ، الحكيم بين الارباب الذي زينه ملك

من قبلي بالفضة قد غلفت انا بالذهب اللماع، زينة عظيمة .. حفزني قلبي ان اعمر الايزاكيلا .. فجلبت أحسن اخشاب الارز من لبنان ، الغابة النبيلة لتسقيف المقدس .. وغلفت اخشاب السفلى بالفضة والاحجار الكريمة .(٩٢)

كما نقرأ (عمر الايتيمينينكي زقورة مردوخ بابل .. غلفت اخشاب الارز العالية بالبرونز وجعلتها سقوفا . خشب مجان ، خشب سيدارو ، خشب الارز القوى المغطى بالبرونز المشرق سقفت به ايضا . وفي داخل اساسها من اجل تأطيرها ، وضعت اشجار الارز وقويت مرابطها بالبرونز المشرق . غلفت اشجار الارز الضخمة بالذهب اللماع وزينت بالاحجار الكريمة ووضعتها عبر مجموعات ثلاثية كسقف فوق الايماختيلا مزارنابو .. لقد زينت قارب اويدورا الذي يركب به الاله مردوخ ، امامه ووراءه ، بناءه العلوي . غطيت كابين قارب قناة كانول يقارب نابو وجبهته بثلاثة عشر طالين ثلاثين منها من الذهب اللماع والأحجار الكريمة .. لقد اصلحت معبد الاي ماخ الخاص بالربة نينماخ في بابل ..) .(٩٣)

لقد استخلصت حجارة سور الزقورة المربع الذي يزيد عن ٥٠٠ متر مربع من قبل سارقي الحجر لذا فان ما يمكن معرفته من الناحية الاثارية عنه الان يستشف من الانطباع السلبي المتروك في الموقع نفسه والتي هي حفرة مستنقع عميقة . وقد اقترحت تراكيب مختلفة الاكثر اقناعا منها تلك التي تماثل كثيرا زقورة سلالة اور الثالثة في اور . (٩٤) ويستدل من كتابة لنبوخذ نصر بأن والده قد أنجز ما يقارب سدس العمل (خمسة عشر مترا من أصل ما يقارب ٩١ مترا) . كما اخبرنا عن كونه قد ساهم في بناء الزقورة بنفسه حيث حمل سلة الطابوق على رأسه واشرك شعوب المناطق والتي دانت له (دون شك اسرى هذه المناطق وفنيين جلبهم خصيصا للعمل) . ومن الجدير بالذكر ان خرائب الايزاكيلا مدفونة الآن تحت عمق حوالي ٢١ مترا من الركم المتأخرة التي يعلوها المزار المعروف بعمران بن علي ويتطلب اكتشافه ازاحة ما يقارب ٣٠ الف متر مكعب من التراب .

عمر نبوخذ نصر ايضا معبد الخوارزاك كلا مما (انغره في كيش) حيث عثر تحت ارضية المقدس في المعبد الرئيسي على صندوق أساس من الطابوق يحوي ختم نبوخذ نصر الثاني . وفي المحور بين المحراب والباب هناك تمثال من الطين لرب مع عصا ذهبية طويلة في يده اليمنى . كما عثر على صناديق اسس تحت المداخل على الجانب الجنوبي الغربي للساحة التي تؤدي الى القسم المركزي للمعبد ، كما عمر هو زقورة معبد ازيدا الخاص بنابو في بورسبا .(٩٥) فنقرأ في نصوصه (... ازيدا .. غطيت بالذهب المشرق) . كما اصلح سور بورسيبا (لقد اصلحت تابيسوبورشوسو بورسيبا . شيدت خندق سورة بالقار والطابوق حول المدينة للحماية) . ونعرف عن تعميره معبد الاميسلام الخاص بنركال في كوثا كما قوى سور مدينة كوثا وبناه بالطابوق والقار . الى جانب تعميره معابد اوراش في دلبات وشارماراددا في ماراد وعشتار في اوروك وشعاش في لارسة .(٩٦) .

وربما كانت تعميراته في مدينة اور خلال السنوات الاخيرة من حياته . فقد اخبرنا بانه بنى الاي كيش شيركال في معبد الاله سن في اور حيث اعاد بناء الساحة الكبرى وربما شيد مزارين يشغلان الزوايا بين السلالم الثلاثة الكبرى التي تؤدي الى قمة الزقورة . وان عمل نبوخذ نصر الرئيسي في اور هو اعادة بناء جدار المعبد الخارجي . ويظهر ان نبوخذ نصر قد وجد منطقة مقدسة في معبد اور مكرسة الى الرب القمر تتألف من بنايات دينية من كل الانواع فأحاطها بسور من اللبن . (مساحتها ٤٠٠ × ٢٠٠ ياردة) . وكان سورا مزدوجا يحتوي على غرف وسطه وسقوف مستوية يمكن السير عليها والحراسة . وعرض هذا السور ٣٣ قدما وربما ارتفاعه ٣٠ قدما وواجهته مزينة بأخاديد عمودية مزدوجة وهي تقليدية في اسوار معابد العراق القديم ثم برجا عاليا وضع في فجوه عميقة تؤدي الى مدخل

الساحة الكبرى امام الزقورة . وباكتمال الجدار الخارجي هذا صار للمنطقة المقدسة نظير جديد . وشيد نبوخذ نصر ايضا ساحة معبد الرب القمر الكبرى متبعا بذلك التخطيطات القديمة لها فيما عدا انه جعلها اكثر ارتفاعا بحيث صارت موازية للمصطبة وصارت البناية كلها عبارة عن امتداد الى المصطبة الاي تيمين ني كور . وجلب نبوخذ نصر لهذا الردم كما اظهرت الحفريات تربة جديدة . وان وجود كسرات فخارية تعود لعصر العبيد في هذا الردم يدل على انه قد حفر الى مسافة بعيدة لاخذ التراب القديم الذي يليق بمقام سن . وفي معبد الاي نون ماخ باور نرى ان نبوخذ نصر قد غير الكثير . فقد ابقى المصلى والجزء الفاصل مع غرفه الخمس ولكن ازيلت كل المخازن امامه وشيدت اجنحة جديدة على جانبي المصلى وصارت واجهة المزار الاصلي مكشوفة . وشيد على ارضية رفعت في الممر مع قاعدة تمثال في غرفة المابين بالمصلى المواجه للباب حيث كان عدد من الغرف . ففي الخطة القديمة كان كل شيء سريا وان هذا التغيير لابد وان رافقه تغير في الطقوس الدينية لا نعرف عنه الان اي شيء وربما وضع نبوخذ نصر تمثاله على هذه القاعدة . (٩٧)

لقد اوضح نبوخذ نصر في عمارته ببابل العلاقة بين العمارة البابلية الحديثة والعمارة السومرية القديمة في الوركاء واحيانا بعض معالم البناء الاشورية . فالخلوة العريضة التي تعود الى العصر الاشوري الوسيط نراها الان في معبد ننماخ ببابل الى جانب التشابه الواضح بين مخطط معابد ننماخ وياتوتيلا من العصر السومري الجديد . وان مقدس وزقورة معبد الايزاكيلا ببابل مستخلصة من المعابد السومرية الكبرى والاكدية الاولى التي عثر عليها في مدينة اوروك . وان اروع مظهر لمعبد مردوخ الذي شيده نبوخذ نصر هو تقسيمة الى ثلاثة معابد وهي المعبد القائم على الارض والزقورة ثم معبد بيت الاكيتو خارج المدينة والذي يمكن التنقيب عنه عند الضفة الاخرى لنهر الفرات . فعمارة نبوخذ نصر هي بالواقع استمرار للتقاليد السومرية . البابلية في البناء .(٩٨)

وتوفي نبوخذنصر سنة ٥٦٢ ق . م واخر لوح مؤرخ باسمه جاء من اوروك يحمل التاريخ ٢٥ ايلول سنة ٥٦٢ ق . م ولما كان اول لوح وصلنا مؤرخ باسم خليفته اميل مردوخ كان في ٧ تشرين الاول ٥٦٢ ق.ن. فان نبوخذ نصر لابد وان توفي في وقت بين ٢٦ ايلول و٦ تشرين الاول من تلك السنة .

★☆★☆★☆★☆★

الهــوامش

١ ـ طه باقر ، مقدمه في تاريخ الحضارات القديمة ، (بغداد ، ١٩٧٣) ص ٤٩٢ .

٢ ـ L. Delaporte, Mesopotamia, (London, 1925). p. 56.

٣ ـ سفر أيوب (١٤ ـ ١٧) .

٤ ـ E. Burrows, JRAS, (1927), pp. 795-780.

٥ ـ حياة ابراهيم محمد، نبوخذنصر الثاني (بغداد، ١٩٨٣) ص٣٤.

٦ ـ Robert D. Biggs, A Chaldaean Inscription from Nippur, Basor (Bullettin of the American School of Oriental Research), No. 179, (1965), pp. 36-38; Douglas Carruthers, The Trip pf Captain Shakespeare, Geographical Journal, (GJ), 59, (1922), pp. 320-323.

٧ ـ J.A. Brinkman, A Political History of Post-Kassite Babylonia, Analecta Orientalia, (Rome, 1968), pp. 221-225.

٨ ـ A.T. Olmstead, The Chaldean Dynasty, Hebrew Union College Annual, (HUCA) Vol. 1, (1925), p. 29.

٩ ـ Brinkman, op. cit. p. 235.

١٠ ـ C.J. Gadd, Inscribed Barrel Cylinder of Marduk-apla-iddina, Iraq, XV, (1953), p.1. IX-X, pp. 133-134; H. Lenzen, The Ningishzida Temple built by Marduk-apla,iddina 11 at Uruk-Warka, Iraq, XIX, (1957), part 2, pp. 146 ff.

11. F. Delitzsch, Der Berliner Merodachbaladan Stein, Beitrage Zur Assyriologie, Vol. II, pp. 258-73.

12. C.P. Tiele, Babylonische — Assyrische Geschichte, Gotha, 1886, pp. 285-312; Edward Meyers, Geschichte des Altertums, Vol. 2, (Berlin, 1912), p. 404.

13. D.D. Luckenbill, The Annals of Sennacherib, (AS), (Chicago, 1924), pp. 137-138, ls. 40-43.

14. Ibid, pp. 52, 53.

15. George G. Cameron, History of Early Iran, (Chicago, 1936), pp. 167.

16. Sami Said Ahmed, Southern Mesopotamia in the time of Ashurbanipal, (The Hague, 1968), pp. 59-60.

17. R.F. Harper, Assyrian and Babylonian Letters belonging to the Kouyunjik Collection of the British Museum, Part I, XIV, (Chicago, 1892-1914), No. 858.

18. Sami Said Ahmed, op. cit., pp. 112-113.

19. Leroy Waterman, Royal Correspondence of the Assyrian Empire, Vols. I-IV. (Ann Arbor, 1930-1936), No. 289.

20. Ibid, No. 520.

21. Sami Said Ahmed, op. cit., pp. 116.

22. Waterman, op. cit., No. 1106.

23. Ibid, No. 283.

24. Ibid, No. 793.

25. A.T. Olmstead, History of Assyria, (Chicago, 1923), pp. 633.

26. I.P. Cory, Ancient Fragments, (London, 1832), pp. 64.

27. Raymond Phillip Dougherty, The Sealand of Ancient Arabia, (New Haven, 1932, p. 111.

28. A. Leo Oppenheim, Siege Documents from Nippur, Iraq, Vol. 12 (1955), pp. 71 ff.

29. Vorderasiatische Schriftdenkmaler, (VAS), VI. 3.

30. Col. 11, 1-2, 41.

31. Diodorus Siculus, Translated by G.H. Oldfather, (London, 1933-1935), 11:26.

32. C. Mueller, Fragmenta Historikorum Graecorum (Leipzig, 1870); Scriptorm Graecorum Bibliothica, pp. 210.

٣٣ . الدكتور سامي سعيد الأحمد، ساردانابولوس بين الحقيقة والخيال، الأديب، مجلد ٢٥، (١٩٦٦) ص ٢٠ ـ ٢٢.

34. C.J. Gadd , The Fall of Nineveh, (London, 1923).

35. F. Thureau Dangin, Revue de Assyriologie, (RA), Vol. 22 (1925), pp. 27.

36. Gadd, op. cit. Chronicle, lines 66-69.

37. Leonard Wolley, Carchemish 1, 11.

38. D.J. Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings, 626-556 B.C., (London, 1956), pp. 6-69.

39. Maurice Viera, Hittite Art, 2300-750 B.C., (London), p. 81, fig. 85.

40. Jermiah, 47:5 and 7.

41. E.F. Weidner, Jojachin, Koenig von Jude in Babylonischen Keilschrifttexten, Melanges Syriens Offerts a Mousieurs Rene Dussaud, II, (Paris, 1939), pp. 923-935.

42. John Bright, Biblical Archaeologist, Vol. 12, No. 2, (1949), pp. 46-52; H.L. Ginsberg, Basor, III, (1048), pp. 24-27.

43. E. Vogt, Vetus Testamentum Supp. iv (1956), pp. 86-89.

٤٤ . بهيجة خليل اسماعيل، الأعمال العمرانية التي قام بها الملك البابلي نابوبلاصر، سومر، مجلد ٢٥ (١٩٧٩) ص ١٦٤ ـ ١٦٦.

45. Henry Friedrich Lutz, New Babylonian Administrative Documents from Erech, University of California, Public in Semitic Philology, Vol. 9, No. 1, 2.

46. Josephus, Against Apian, 1, 19.

47. Cylinder of Nabobelasser, Col. III, II, 6-25.

48. Raymond Phillip Dougherty, Nabonidus and Belshazzar, (New Haven, 1929), pp. 42-63.

49. Mueller, op. cit. p. 210.

٥٠ . سيتون لويد، ترجمة د. سامي الأحمد، آثار بلاد الرافدين، (بغداد، ١٩٨٠) ص ٢٦٩.

51. Doughertw, Nabonidus, op. cit, pp. 33 ff.

52. D. Weisberg, Royal Women of the New Babylonian Period, Academie des Inscriptiones et Belles Lettres Comptes Rendus, 15, 1974, pp. 450-52.

53. Wiseman, op. cit, pp. 68-69.

54. T. Aharoni, Three Hebru Ostraca from Arad, Basor, 197, (1970), pp. 12.

55. Wiseman, op. cit. p. 53.

56. 56. E. Weidner, Hochverrat Gegen Nabuchadnezzar, Archiv fuer Orientforschung, (AFO), 17, (1954/56, pp. 1-9.

٥٧ . حياة ابراهيم محمد، المذكور أعلاه ، ص ٧٠.

58. Wiseman, op. cit, pp. 68-73.

59. W.F. Albright, Excavations at Tell Beit Mersim, Annual of American School of Oriental Research, Vol. 21-22.

60. James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, (Princeton, 1957), (ANET), pp. 307.

61. Jermiah, 40:14; 41:10-15.

62. Eziekiel, 29:8.

63. Sir Arnold Wilson, The Persian Gulf, (London, 1951), pp. 35.

64. ANET, pp. 308.

65. Olmstead, The Chaldaean, op. cit. pp. 41-42.

66. W.F. Albright, Cilicia under the Chaldean Kings, Basor, No. 120 (1950), pp. 22-26.

67. Ibid.

68. Eziekiel, 1:1-3; 3:15-41.

69. Vitali A. Beljawski, Der Politische Kampf in Babylon in den Jahren 562-556 V.Ch., Festschrift E. Unger, Beitrange Zur Geschichte Kultur und Religion des Alten Orients, Edit. by Manfred Laurker, (Baden, 1971), pp. 199.

70. Ibid, pp. 199.

71. ANET, pp. 307-308.
72. ANET, pp. 307-308.

73. Antoine Cavigneaux, Texts Scolaires du Temple de Nabisha Hare, Vol. 1, (Baghdad, 1981), pp. 139.

74. J.N. Strassmaier, Inschriften von Nabuchadnezzar, (Leipzig, 1889).

75. R.P. Dougherty, Archives from Erech, Time of Nabuchadnezzar and Nabonidus, (New Haven, 1923), 39.

٧٦ . شاه محمد علي الصيواني، القصر الجنوبي، قلعة نبوخذنصر، سومر، مجلد ٢٥ (١٩٧٩) ص ٨٢.

٧٧ . روبرت كولدفاي وفريد ريش فيتسل، ترجمة د. علي يحي منصور، القلاع الملكية في بابل (بغداد، ١٩٨١) ص ١٥.

٧٨ . أنطون مورتكات ، ترجمة د. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، الفن في العراق القديم، (بغداد، ١٩٧٥) ص ٤٤٢.

79. Eva Strommenger, The Art of Mesopotamia, (London, 1962), pp. 459-461.

٨٠ . مورتكات، السالف الذكر ص ٤٣٨ وما بعدها.
٨١ . لويد، السالف الذكر، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.
٨٢ . كولدفاي، السالف الذكر، ص ١٧ ـ ١٨ ، ٦٣.
٨٣ . نفسه ص ٣٩ وما بعدها.
٨٤ . محمد نصير، ما يسمى بالقصر الصيفي (قصر حياة نبوخذنصر)، سومر، مجلد ٣٥ (١٩٧٩) ص ١٥٠.
٨٥ . كولدفاي، السالف الذكر، ص ٩٠.

86. Strommenger, op. cit., pp. 461 ff.

٨٧ . مورتكات، السالف الذكر ، ٤٤٢.

88. Georges Roux, Ancient Iraq, (Cleaveland, 1965), pp. 327.

89. Leon Legrain, Royal Inscriptions and Fragments from Nippur and Babylon (Philadelphia, 1926), The Museum of the University of Pennsylvania, Publica., The Babylonian Section, Vol. 15, pp. 42 ff.

90. Roux, op. cit., pp. 328.

٩١ . حياة ابراهيم محمد ، السالف الذكر، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

92. S. Langden, Die Neubabylonschen Koeniginschriften, (Leipzig, 1912), pp. 125-7.

93. Legrain, op. cit., pp. 38 ff.

٩٤ . سيتون لويد، آثار ... السالف الذكر ، ص ٢٦٩.

95. Strommenger, op. cit., pp. 463.

96. Legrain, op. cit., pp. 42 ff.

97. Sir Leonard Woolley, Excavations at Ur, (New York, 1965), pp. 217-228.

٩٨ . مورتكات ، السالف الذكر ، ص ٤٣٦

has no honour." And although examinations of both these statements and its author determines that they are lacking in truth and aptitude respectively, a year or so later, finds the same statements transformed by a Ronald Cohen (in his book, **Dominance and Defiance, a study of Marital instability in an Islamic African Society,** Washington, DC, 1971, p. 93): "Islamic thought conceives of women as being driven by inordinate sexuality. They are animalistic in their behaviour. They manifest inordinate aggressiveness. They are informed by evil forces. They bring discord to the body social. For all these reasons women constitute a threat to the group and its honour!"

Need I go into a detailed analysis of an examination of Cohen's statement about Muslim women? Or should I tell you, on my own authority, that Mr. Cohen's statement belongs to the category of RUBBISH.

To conclude, and before I explain how "rubbish" have to be used as a description of racist scholarship dealing with the so-called 'Orient', I would like to say that the time has come for and that all works dealing with the Orient, be they by native scholars trained at home or in the West, or by Western practitioners of Orientalism ought to begin being **measured by objective** measuring-rods.

Now, about 'rubbish': It was in the Fall of 1982 that a young faculty member from Cornell University, was invited to speak about the Qur'an at our University. His talk was philological. After the talk, he requested me to recommend for publication of an article about his 'grammatical analysis of few Qur'anic ideas'. I agreed to look into the matter. The man sent me his article and I read it: his thesis purports to show that the Qur'anic text is mis-vowelled and ought to be corrected; using a brand of philological 'logic' he 'discovered', he proposes an alternative vowelling that changes the meaning of the Moslim scripture radically. By examination, the article was sophomoric, the kind a zealot preacher would say about the scripture of a rival faith. I called the man to inquire if he had shown his article to other scholars. He replied that he had submitted it to a British journal but was rejected. I asked about the editor's comment on the paper. The young professor replied saying that it was an impolite and inconsiderate comment, 'just one word, "rubbish"'.

As you already know, I owe the use of the word 'rubbish' to an unnamed British editor.

★☆★☆★☆★☆★

derived from Madinat al-Nabi (the town of the Prophet) is rejected by most Western scholars."

Having determined Mr. Stillman's education, ideological commitment, and the motivation of his study, Orientometrics looks at the above-mentioned sample of his research: e.g., on the basis of questions such as, "If the teachers of Muhammad were Jews, how did he arrive at the conclusion that Jesus is a major Prophet, who was born in the spirit of God, and of a Virgin? Who was Abraham Geiger and what was his educational and religious ideology? Was he the first to argue in favour of Jewish teachers of Muhammad? If so, were his arguments cogent? Is it true to state that sources about Muhammad's education are exclusively Muslim? If so, why, especially in view of the fact that there were Arab Jews and Christians who were literate: "Why did they not record their history-making deeds vis-a-vis the Prophet of Islam?"

And concerning the name of the Hijazi holy city, al-Madina, did it have a name prior to being the MADINA, City of the Prophet? If so, what was that name? Is the word MADINA Hebrew? If so, what is the Arabic word for an urban place? More importantly, did the Jews of Arabia speak Hebrew or write it? If so, what are the sources of our knowledge about spoken/written Hebrew in Arabia? Finally, what Western scholars reject the name al-Madina? They must have names and must have expressed the scholarly, if scholarly it is, reasons for rejecting what they reject. The answers to the few questions so far raised by Orientometrics are not flattering to Mr. Stillman's scholarship and thus, Orientometrics determines that the statements under study are .... RUBBISH (I will conclude this presentation by telling you the story of how the noun RUBBISH came to be used as an expression of low regard for writings about a particular subject; please bear with me!).

I have presented two illustrative examples of the benefits of Orientometrics; both examples came out of un-scholarly, fanatico-racist attitudes towards Islam. In the next few minutes, I will present two illustrative examples from societal studies dealing with the Muslim Arabs. The first example is a subtle dehumanization of the Egyptians before Sadat's historic attempt at reconciliation with the Zionist State; it is a statement in a book aimed at American middle school children entitled **The Middle East: Selected Readings,** Boston (Houghton Mifflin Co.) 1968, pp. 111-114. In this book by Don Peretz American children learn that Egyptians in the service of the armed forces of their country were raised as slaves and lack even the courage of a worm — to quote: "(Egyptian citizens are so badly treated by their master that) no wonder, that such people, so treated when in civilian life that every spark of manhood is crushed out of them, and so abused as soldiers that they have not even the courage of a crushed worm, which strives to sting the heel of its destroyers — no wonder such people will not fight."

Looking at this statement, Orientometrics determines that it comes from a publication entitled **The Nation,** New York, NY (Evening Post Publishing Co.), September 28, 1982. Although it comes from an outdated publication, it is referenced in a footnote in small print that only a very alert child could think of referring thereto. As for the book's author, determines that of all Middle Eastern languages, Peretz reads only Hebrew. Aware of the statements by former American Foreign Minister, Mr. Henry Kissinger, reported in **Time** for 11 March, 1982, reflecting on the Egyptian army, and reading, "Tuesday, October 9, Dinitz (Israel's Ambassador) ... met at 8.20a.m., in the White House. Dinitz has brought along his armed forces attache, General Mordechai Gur. Grimly, they explained that Israel's losses (in the Sinai war) had been staggering — Dinitz implored me to keep the numbers secret from everyone except the President (Nixon) ... if they were known the Arab countries — might join for the knockout blow (p. 34) — Our (American) airlift of about 50 tons of equipment each hour over a distance of 6,000 miles — had in one day more than matched what the Soviet Union had put into Egypt, Syria and Iraq combined in all of the four previous days (p. 36)." On the basis of this and other facts related to the Egyptian armed forces, judges the scholarship and the editing of the book under scrutiny to be RUBBISH, more important than that, due to the ages of the readers at whom the book is aimed, determines that the above-mentioned work represents outright deception.

The fourth and final illustrative example deals with a paper published in **American Anthropologist,** vol. 70, pp. 671-697), in which its author asserts that Arab Muslim "women's prospensity for sexual license is attributed to the animalistic impulses that move them. They seek out men 'like locusts after corn'." (Fuller 1961:47) (a reference to (Ann Fuller) Burij **Portrait of a Lebanese Village,** Cambridge Mass. 1961). One man in Kufr al-Ma reported that he had seen two girls in the field simulating the sexual act. "What can you expect," another man interjected. "A woman is like a plough-animal; she

HOW DOES ORIENTOMETRICS WORK?

Orientometrics establishes guide-posts by which researchers may be guided and measuring-rods by which the end-products of research may be measured. The guide posts are those essential features of the researched society, its physical and non-physical structures, and the main features thereof. Inevitably, these features are painted in the native linguistic and cultural colours which fact makes it imperative for the researcher to be conversant in both. To determine that, Orientometrics looks at the educational background of the researcher, his or her ideological commitments, and national imperatives vis-a-vis the society being studied. These qualities are of utmost importance in determining the degree of objectivity of the work a researcher dealing with the 'Orient' is capable of producing. Let me specify by giving a few examples from a number of works that deal with or reflect upon one Oriental society, that which is the subject of my own specialization, the Islamic Society of the Arabic speaking lands. I begin with a work that appeared in a cheap edition accessible to a large number of readers in the English speaking world, a small book entitled **The Great Jewish Books and Their Influence on History,** edited by Samuel Caplan and Harold U. Ribalow, introduced by Ludwig Lewisohn, published by Washington Square Press, Inc. of New York, NY, in May of 1963. This book consists of essays and selections from the Old Testament which is called therein THE HEBREW BIBLE, the TALMUD (only non-controversial and non-racist selections thereof — See Israel Shahak: "The Jewish Religion and its Attitude to non-Jews" in **KHAMSIN,** London, Vol. 8, 1981, Parts I & II, pp. 27-61; Part III, Vol. 9, 1981, pp. 3-50) and the commentaries of thinkers like Rashi, Yehuda Halevi and Maimonides, as well as selections from **THE ZOHAR,** and **SHULCHAN ARUCH** and from Zionist works. The book opens with a reference to Muhammad and his work, stating that, "It was probably Muhammad who in his **confused diatribes** (Sura III) first addressed Jews as the 'People of the Book'."

Orientometrics looks at the author of this statement, Ludwig Lewisohn, determines his qualifications, ideological commitments, and motivations in making his opening statement. Next, Orientometrics looks at the statement itselfpnd determines its viability and truthfulness in the light of what objecti learning has already uncovered about Muhammad, the Prophet of Islam.

Without going much into detail, let me say that it is quite easy to see that the author of the statement knows next to nothing about Qur'anic scholarship and the life and work of Muhammad. Nor does he know much about the rules of logic; let me illustrate very briefly.

FIRSTLY, 'PEOPLE OF THE BOOK' as used in Islamic religion and politics refers to human groupings not all of whom are Jewish; **SECONDLY,** the term refers to scriptural acquisitions; **THIRDLY,** logic dictates that 'confused diatribes' nullify not only scholarly viability but also simple common sense: if the expression "The Jews are the people of the book' is the product of confused diatribes then the expression is false, unless one believes that wisdom is in the mouths of 'confused' people.

Having judged the author of the statement, Ludwig Lewisohn, to be unqualified to deal with Islam and its Prophet in an objective scholarly manner, Orientometris now judges his writings on Islam as **RUBBISH.** Now, as you know, Orientometrics does not speak, only those who practise it do. In this inaugural talk on Orientometrics, I am speaking, deliberately using the colourful noun, 'rubbish', to describe a work which is not viable and, therefore, unscholarly — explanation follows.

THE second work I would like to use as illustrative is a book entitled **The Jews of Arab Lands, A History and Source Book** by Norman A. Stillman, New York, NY (The Jewish Publication Society of America) 1979. For your information, Orientometrics determines that Mr. Stillman is a student of the Israeli-American Professor S. D. Goitein, and a frequent contributor to Zionist activity in the United States. He holds a degree in Near Eastern Studies and works as an Associate Professor of History and Arabic at SUNNY-Binghamton. Stillman lived in Israel and visited Egypt, Jordan and Morocco.

Orientometrics looks at the ideas Mr. Stillman exhibits in his book, such as his statement, "It has long been debated whether Muhammad's principal monotheist informants were Jews or Christians. Abraham Geiger — was the first to argue cogently for Jewish teachers — More recently, S.D. Goitein has advanced very convincing arguments in favour of sectarian Jewish influences. Unfortunately, our sources which are exclusively Muslim — are silent on this point (p. 8)." And on page 9 of his book, Mr. Stillman, turned geographer-linguist, says that "(the name al-Madina (the district) probably was given to (the city)) by the Jews themselves — The traditional explanation that the name al-Madina is

Orientometrics

By: KHALIL I. SEMAN
SUNNY — Binghamton, N.Y.

Two academically related events started me thinking about Orientometrics: The first happened late in the 60s, when the director of the SWANA programme at SUNNY-B invited the Zionist Menchem Melson, Professor of Arabic at Hebrew University in occupied Palestine, to "lecture" (i.e. earn dollars) on "The Egyptian Arabic Novel" at our University. Mr. Melson's lecture took a whole hour to "show" that the Egyptian novel, in his judgement, is "mediocre and insignificant". This writer, being the titular professor of Arabic, was asked to comment. "This lecture precludes comments" he replied "but begs the question: How does it feel to know that the subject of one's lifetime work is mediocre and insignificant?".

The second event is of recent writings and involves the same Mr. Melson, who, having impressed his Zionist masters with a plan he copied from Nazi Germany to subdue further the remnants of the Palestinian community, steal their lands and force them to become refugees; his plan was called "Village Councils", and to implement it, he got himself appointed by the terrorist Begin as "Administrator of the Occupied Territories". Keeping his job as Professor of Arabic at Hebrew University, Mr. Melson began a most inhuman work of arresting Palestinians, closing Arabic universities, and dynamiting homes, an orgy of racist terror, the like of which only the Jews and Christian victims of Nazism had experienced in recent times.

These two related events inspired the idea of establishing a mechanism by which scholarship would be denied to brutes and granted only to those who serve knowledge, wisdom and humane endeavours. Such a mechanism would be called Orientometrics, and would insure that scholars dealing with non-European and non-North American cultures have the ethical and intellectual duty to seek to understand — not to destroy — the African, Asian or Latin American culture subject of their study, teaching and research. Understanding regimes a harmonious way that results neither in denigrating nor in subjugating the humanity or the geography of their subject either directly through military aggression or indirectly through providing the weapons of destruction and the means of their delivery, or through kangaroo-type legislation through lies and deceptions, etc.

One more remark: This paper is preliminary: it is the first attempt at presenting ideas related to scholarly writings to a group of scholars for their critical evaluation, suggestions, improvement, and hopefully future implementation.

ORIENTOMETRICS is an objective scholarly method aimed at evaluating writings about the lands Euro-Americans call the 'Orient'. This new method, let it be said from the beginning, is inspired by the work of Derek de Solla Price, Avolan professor of the History of Science at Yale University in the United States who founded 'Scientometrics' "to look at the literature of the history of science, identify the main areas and researchers and work on with them; (find a) universal way of discovering what and who is important in a particular discipline, (and) furnish basic, objective data about the fundamental structure and function of particular disciplines which cannot be ignored." (**THE MUSLIM WORLD BOOK REVIEW**, vol. 4, No. 2, Winter 1984, p. 4).

In evaluating scholarly works about the Orient, Orientometrics looks at the literature, identifies it and its authors, and furnishes objective data about the fundamental structure of the anthropoligical, artistic, economic, educational, literary, religious, sociopolitical and technological environment of the 'Oriental' society or societies being studied. Orientometrics aims at knowing researchers and their qualifications to conduct research on 'Oriental' societies and, indeed, passing scholarly judgement not only on their intellectual end-products but also on their very motivations in undertaking such research.

سـيرة مـؤرخ

بمناسبة قرار الجمعية العامة لاتحاد المؤرخـين العرب القاضي بمنح المؤرخين المبـدعين وسـام المؤرخ العـربي، ونظراً لتكريم الدفعة الأولى من المؤرخين الذين أسهموا في إغناء التاريخ العربي، نبادر إلى نشر السيرة العلميـة لهم تباعاً إبتداء من هذا العدد.

الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي

- ولد فى الموصل سنة ١٩١٨
- انهى الدراسة الابتدائية والمتوسطة فى الموصل
- درس فى دار المعلمين الابتدائية سنتين وتخرج منها سنة ١٩٣٧
- مارس التعليم الابتدائى سنتين ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩
- التحق بدار المعلمين العالية ببغداد ودرس فيها اربع سنوات حصل فى نهايتها على شهادة الليسانس في العلوم الاجتماعية بمرتبة الشرف ١٩٣٩ ـ ١٩٤٣.
- مارس التعليم فى المدارس الثانوية بالبصرة وبغداد سنتين ١٩٤١ ـ ١٩٤٣
- التحق بكلية الآداب بجامعة القاهرة ودرس فيها سنتين حصل في نهايتهما على شهادة الليسانس فى التاريخ بمرتبة الشرف ، ومنح جائزة جلال صادق التي تمنح للمتخرج الاول ١٩٤٣ ـ ١٩٤٥
- التحق بجامعة اكسفورد ودرس فيها اربع سنوات نال فى نهايتها شهادة الدكتوراه فى الفلسفة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٩ .
- عين مدرسا فى كلية الاداب والعلوم فى بغداد سنة ١٩٤٩
- رقى الى مرتبة استاذ مساعد فى سنة ١٩٥١
- رقى الى مرتبة استاذ فى سنة ١٩٥٥
- حصل على زمالة للبحث لمدة سنة فى جامعة هارفرد ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧
- شغل خلال عمله التدريسي فى كلية الاداب بجامعة بغداد رئاسة قسم التاريخ وكالة واصالة فى كلية الاداب عدة سنوات
- عميد معهد الدراسات الاسلامية العليا بجامعة بغداد ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨
- رئيس مركز احياء التراث العلمي العربى وكالة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢
- رئيس المجمع العلمي العراقي ١٩٧٨

مساهمات علمية

- عضو منتخب فى مجلس جامعة بغداد ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ / ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥
- عضو المجمع العلمي العراقي ١٩٦٣
- عضو شرف مجمع اللغة العربية فى الاردن
- عضو مجمع اللغة العربية فى دمشق
- عضو الجمعية الاركيولوجية فى الهند
- عضو المعهد الاسباني العربى فى مدريد
- عضو هيئة اعادة كتابة تاريخ العالم الذى تعده اليونسكو
- شارك فى عدد كبير من اللجان المشكلة فى العراق لبحث شئون تدريس التاريخ ، وكتابته وما يتصل بالتاريخ والثقافة والشئون الجامعية خاصة
- شارك فى عدد كبير من الندوات والمؤتمرات العلمية عن التاريخ وما يتصل به ، وخاصة التاريخ العربى والثقافة العربية فى داخل القطر العراقي وفى عدد من الاقطار العربية والاوروبية والهند .

نـــدوة العـــدد

من بين نشاطات اتحاد المؤرخين العرب، المتميزة، عقد الندوات والمؤتمرات العلمية التي تعـالج مشاكـل وهموم الأمة وتطلعاتها، وقد عقد الاتحاد العديد من هذه الندوات التي حضـرها لفيف من أسـاتـذة الجـامعـات والمعنيـين والمهتمين بالتراث والتاريخ.

لذا وجدنا من المناسب أن ننشر خلاصة هذه الندوات في أعداد مجلتنا تحت عنوان: «ندوة الاتحاد»، ليتعرف المؤرخ العربي على أبعادها.

ندوة الجذور التاريخية للاستعمار في الوطن العربي

افتتح اتحاد المؤرخين موسمه الثقافي بعقد ندوة (الجذور التاريخية للاستعمار فى الوطن العربى) مساء يوم الخميس الموافق ١٧/١٠/١٩٨٥ في قاعة ساطع الحصرى في المؤسسة العامة للاثار والتراث .

ادار الندوة الدكتور عبدالله سلوم السامرائى وأشترك فيها الدكتور محمود على الداود والدكتور وميض جمال عمر نظمي والدكتور نورى السامرائى والدكتور صالح العابد والدكتور صادق الحلو .

بين مدير الندوة فى بدايتها بأنها ستتوزع على محاور اساسية منها : الجذور التاريخية للاستعمار الانجليزى والفرنسى والبرتغالي والامريكى وعلاقة الاستعمار عامة بالاستعمار الاستيطاني الصهيونى ، والاستعمار الحديث والمعاصر ، والتعرف على رد الفعل العربى على اشكال الاستعمار .

وقد بين الدكتور محمود الداود ان الاستعمار الانجليزى (البريطاني) نما فى المنطقة العربية مدة قرنين من الزمان وترك اثاره فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية فى المشرق العربى وفى الخليج العربى وفى الاقطار العربية فى شمال افريقيا عبر مصر والبحر الاحمر .

وتعاون الانجليز مع المماليك فى العراق واحتكروا المواصلات عن طريق الخليج العربى وكانت بريطانيا تعتبر السيطرة على الخليج العربى هي التي تضمن طريق المواصلات الى الهند ونفوذها فيها . وكان ذلك قبل اكتشاف النفط بعشرات السنين . وبذلت بريطانيا جهودا للسيطرة على هذا الطريق المهم فى التجارة الدولية وخاصة الاقسام الجنوبية من ايران فأصبحت ايران ضمن منطقة الامتيازات البريطانية واشار الى منافسة الفرنسيين للانجليز فى ايجاد مواضع لاقدامهم فى الوطن العربى بشتى الاساليب قبل عقد الاتفاقيات مع القبائل، ونشاط الدوائر الاثارية والاستشراقية فى هذه المنطقة واعداد دراسات عن مستقبل الامة العربية .

وتناول الدكتور صالح العابد فى حديثه الاستعمار البرتغالي فى الجناح الغربى من الوطن العربى مشيرا الى الاستكشافات الجغرافية ومنها رحلة فاسكودى جاما والوقوف بوجه التجارة الغربية وبين ان دوافع الاستعمار البرتغالى كانت سياسية ودينية وعسكرية . فبذلت جهودا كبيرة للاستحواذ على المضايق المهمة وتعاونت مع اسماعيل الصفوى وعقدت معه اتفاقيات لهذا الغرض وجرت محاولة للسيطرة على البحرين والقطيف من خلال تلك الاتفاقيات كما بين موقف الدولة العثمانية واشار الى ان الاستعمار البرتغالى اقدم من الاستعمار الانجليزى .

وتحدث الدكتور صادق الحلو عن بدايات الاستعمار الفرنسي ونشاطه فى المشرق العربى وفي المغرب العربى ايضا وأشار الى المنافسة بين الاستعمار الانجليزى والهولندى والفرنسى وأنشاء شركة الهند التجارية ، ومحاولاتهم السيطرة على مسقط ودخول بعض اجزاء المشرق العربى ضمن مخطط نابليون ثم تكلم عن النفوذ الفرنسي فى المغرب العربى وخاصة فى الجزائر وأستيلائها عليها ، وبين موقف الشعب الجزائرى وقيام الفرنسيين بغزو تونس والمغرب وفتح المدارس الفرنسية لنشر الثقافة الفرنسية . وقيامها بتعميق الطائفية فى لبنان وادخال اجزاء من سوريا ولبنان ضمن مناطق نفوذها واوضح سياسة فرنسا الاستعمارية فى المناطق التي احتلها .

اما الدكتور نورى السامرائى فكان حديثه مركزا على الاستعمار الامريكى وتأخر وصوله الى البلاد العربية الى ما بعد ١٧٧٦ م لاسباب اوضحها ، وكيف انهم استعملوا القوة ضد حكام طرابلس والجزائر وتكوينهم قوة بحرية فى البحر المتوسط ودخول سفنهم الى البحر الاحمر والبحر العربى . واقامة علاقات مع حاكم مسقط وحاكم عدن ، وتغلغلهم الفعلى سنة ١٨٢٤ بأساليب دبلوماسية عن طريق فتح القنصليات فى بعض المناطق العربية ، ثم بدأت عمليات التبشير الامريكى فى المنطقة وفتحت المدارس والمستشفيات والمعاهد . وحصولهم على الامتيازات وتوسع نشاطهم بأقامة الوكالات والشركات الاقتصادية والحصول على امتيازات للتفتيش عن المعادن الثمينة فى العراق بعد الاتفاق مع العثمانيين ومعارضة ألمانيا لهذا الموضوع. ثم استعرض توسع التجارة الأمريكية في المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى وحصولهم على امتيازات نفطية في العراق والجزيرة العربية والخليج العربي.

وبين الدكتور عبدالله سلوم السامرائي دور بعض الدول الاستعمارية مثل هولنده وايطالية وأشار الى الاتفاق بين العثمانيين والامريكان ، وبين العثمانيين والالمان للبحث عن النفط على بعد ٢٠ كم على جانبى سكة حديد بغداد ـ برلين وقيام البعثات الالمانية والفرنسية بالاستحواذ على اثار الوطن العربى ثم اشار الى ان الاستعمار مر بثلاث مراحل فكان تجاريا ثم تحول صناعيا «قائما» على الاستيراد والتصدير . ثم فى المرحلة الثالثة صار مركبا «اقتصاديا» استيطانيا .

وبين الاساتذة فى المحور الاخر وهو علاقة الاستعمار عامة والاستعمار الانجليزي خاصة بالصهيونية ودور الاستعمار فى دعم الصهيونية ودامت الندوة اكثر من ساعتين وستنشر تفاصيلها فى وقت لاحق .

★☆★☆★☆★☆★

عــرض الكتــب ونقــدها

الانحياز : علاقات أمريكا السرية باسرائيل

ستيفن غرين

بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٨٥

نقد

د . حسن البزاز

كلية القانون والسياسة / جامعة بغداد

من الكتب الحديثة ونشر لأول مرة باللغة الانكليزية في الولايات المتحدة في عام ١٩٨٤ . وأهم ما يميز هذا الجهد عن غيره في هذا المجال هو الاعتماد الكبير على وثائق لم يسبق لأحد ان اطلع عليها بهذا الشكل والحجم . ومن بين هذه المصادر الرئيسية مثلا : ملف القدس القنصلي لسنة ١٩٤٨ . الذي يشتمل على الوثائق والمراسلات التى تمت بين القنصلية الأمريكية في فلسطين المحتلة ووزارة خارجيتها ، والملفات السرية للمخابرات الامريكية بشقها المدني والعسكري ، ووثائق مركز المحفوظات القومية في واشنطن ، ومعلومات خاصة من مكتبي الرئيس الأمريكى ايزنهاور والرئيس جونسون . كما أن هذه الوثائق تضمنت الفترة الممتدة ما بين تأسيس الكيان الصهيوني على أرض فلسطين حتى عام ١٩٦٧ .

لقد حفظ هذا الكتاب بين طياته المعلومات المهمة الوافرة ، وهي في الواقع مثيرة جدا من حيث دقتها وأهميتها وفائدتها لرسم التصور الصحيح لواقع العلاقات القائمة بين الكيان الصهيونى والولايات المتحدة . وقد كشفت هذه الدراسة عن مدى الدعم والعون الذي قدمته الأخيرة للكيان الصهيونى منذ مرحلة التأسيس وأثناء حروبها العدوانية لما توفر لديه من معلومات ووثائق تثبت ذلك .

ومن خلال الفصول العشرة التى احتواها هذا الكتاب ، نجد ان فصله الأول قد وضح لنا :

١ ـ كيفية الحصول على تلك الوثائق التى ارسلت من القنصلية الامريكية في القدس ، وحفظت في مركز الوثائق القومي في سويتلاند بولاية ماريلاند والتى لم يطلع عليها أحد رغم أهميتها العالية .. كما يقول صاحب الكتاب .

٢ ـ بين الاعتراف الفوري للرئيس ترومان « باسرائيل » حال قيامها .

٣ ـ عملية سرقة رادار متطور من قبل العصابات الصهيونية وتسليمه الى التشيكيين ، وبالنتيجة الى السوفيت ، في تلك السنة ، مقابل استمرار تدفق الاسلحة والجنود المدربين في تشيكوسلوفاكيا الى الكيان الصهيوني والقتال مع المنظمات الصهيونية السرية هناك .

ومن الأمور الخفية المتعلقة بالمساعدات التي قدمها سلاح الطيران الأمريكى الى الكيان الصهيوني في حرب ١٩٦٧ (ليبرتى) يؤكد الكاتب بأن العلاقات بين الطرفين كانت على هيئة حلف غير رسمي بين البلدين منذ بداية وجودها حتى الآن .

أما الفصل الثاني فقد شرح العلاقات المضطربة بين الطرفين وجاء فيه انه :

١ـ من خلال الوثائق يثبت ان الاسرائيليين ومنذ اليوم الأول في تعاملهم مع الأمريكيين كانوا يتشوقون الى الحصول على قدر كبير من التدريب الأمريكى والمعدات الأمريكية لكنهم لا يرغبون في اعطاء أي شيء في المقابل خصوصا فيما يتعلق بالمعلومات .

٢ ـ حتى الاتصالات بين العسكريين الأمريكيين والاسرائيليين كانت لا تتم الا من خلال « مكتب اتصال » يديره ضباط مدنيون .

٣ ـ يبقى الكيان الصهيونى الحصان الذي يراهن عليه الامريكان في المنطقة .

٤ ـ المراقبة الامريكية المستمرة لاسباب ودوافع الاعتراف السوفيتى بالكيان الصهيونى وكذلك بولندا وتشيكوسلوفاكيا ودول الكتلة الشرقية الأخرى ، والهجرة العالية من أوربا الشرقية خلال عام ١٩٤٨ .

أما الفصل الثالث الذي تعامل مع الاستخبارات الأمريكية والحركة الصهيونية السرية ، فيؤكد على أن نصر الكيان الصهيوني على العرب لم يكن كما وصفته كل المصادر المكتوبة والمسموعة والمرئية بأنها اقتصرت على الرغم من الترجيحات المضادة كافة ـ في العدد والعدة ـ بل على العكس من ذلك من خلال التقديرات

المتخصصة عن حجم القوى الحقيقي لدى كل من الأطراف ـ أي ان الكيان الصهيوني ـ من حيث الواقع استعمل عددا وعدة أكثر بكثير من العرب .

أما الفصل الخامس فقد خصص مسألة فشل امريكا في استغلال عام ١٩٥٤ لخلق السلام ، حيث وصفها الكاتب بأنها مؤامرة ضد السلام . ويقول بأن مصر في تلك الفترة لم تكن تريد الحرب كخيار أول في قائمة الأولويات ، وان حاجة مصر الملحة هي الاقتصاد والتسلح والعلاقات مع العالم الخارجي . خصوصا فيما يتعلق بالتعامل مع كل من بريطانيا وأمريكا .

ويقول غرين أيضا بأن الكيان الصهيوني حاول دفع الرئيس عبد الناصر لشن هجمات على القوات الصهيونية ، والذي دفع به ذلك الى الحاجة للسلاح ثم البحث عنه ، وهذا ما حدث فعلا وساعد على تفويت الفرص للسلام من قبل الكيان الصهيوني .

والفصل السادس أوضح هو الآخر أسباب الاطراف المعتدية على مصر في حرب السويس ، حيث قال بأن موقف بريطانيا تمثل بكره رئيس وزرائها أنتوني ايدن للرئيس عبد الناصر ، خصوصا بعد نجاح المصريين في ادارة قناة السويس بشكل أفضل بعد تأميمها . أما فرنسا ، فقد توضح موقفها من خلال خوف رئيس وزرائها غي موليه ، لدور عبد الناصر العربي والدعم العالي للثورة الجزائرية . والكيان الصهيوني يأتي موقفه من يأسه من منع عبد الناصر من السماح لاسرائيل باستعمال مضيق تيران الحيوي . وكذا الحال بالنسبة للتسلح الحادث . ويأتي موقف الولايات المتحدة من خلال وزير خارجيتها فوستر دالس ، ومحاولته للضغط ضد مصر ولايقاف العامل السوفيتي عن طريق وقف مساعدات مشروع السد العالي وحصر أسواق القطن والتلاعب بأسعارها وتحطيم السوق المصرية بشكل عام .

أما الفصل السابع ، فيتعلق بصنع القنبلة النووية وذلك عن طريق :

١ ـ ارساء الحجر الاساسي في أول برنامج نووي في العام الأول من قيام الكيان الصهيوني .

٢ ـ اشتركت أمريكا مباشرة في البحث النووي في معهد وايزمان في الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠م .

٣ ـ وفي كانون الأول عام ١٩٥٣ تحدث الرئيس أيزنهاور في « الندوة من أجل السلام » في خطاب أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة طالب فيه بقيام مخزون اليورانيوم وتشرف عليه هيئة دولية جديدة للطاقة الذرية وتتصرف بما فيه . ولكن بموجب ذلك البرنامج (الذرة من أجل السلام) تم بناء ٢٦ مفاعلا أمريكيا للبحوث في دول أخرى . وبين عامي ١٩٥٤ ـ ١٩٧٩ ، تلقى ١٣,٥٤٦ باحثا أجنبيا تدريبا في الولايات المتحدة وبين هؤلاء كان هناك ٣٥٣٢ باحثا تقريبا ينتمون الى دول لم توقع معاهدة الحد من الانتشار النووي لسنة ١٩٦٨ .

ان عمل شركة المواد والمعدات النووية الاسرائيلية ، كان معظمه يتعلق بعقود مع الحكومة الأمريكية وخصوصا اعادة معالجة المواد النووية للجنة الطاقة الذرية نفسها .

وفي الفصل الثامن يبدأ الكاتب في وضع النقاط على الحروف ، حيث يوضح مدى الانحياز الامريكي للكيان الصهيوني ففي ظل ادارة الرئيس جونسون بين عامي ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧ وجد الكيان الصهيوني ان حدود الدعم الأمريكي المعلن لأمن اسرائيل ووحدة أراضيها ضيق فعمد الى ايجاد علاقة عسكرية أمنية سرية جديدة لا مثيل لها . وكانت المساعدة الممنوحة لبرنامج الاسلحة النووية الاسرائيلي مجرد مظهر واحد من مظاهر هذه العلاقة .

وفي سنوات ٤٨ ـ ١٩٦٣ ، ضمن الرؤساء الامريكان ترومان وايزنهاور وكيندي أمن الكيان الصهيوني

القومي ووحدة أراضيها وبشكل حازم ، لكنهم ـ كما يقول الباحث ـ ضمنوا أيضا بالقدر نفسه من الحزم أراضي الاردن ولبنان والدول الأخرى في المنطقة وهذا هو جوهر البيان الثلاثي لسنة ١٩٥٠ .

ولم يفت الكاتب ان يذكر دور المساعدات المالية للكيان الصهيونى الذي خصص له فصلا كاملا (الفصل الرابع والعاشر) حيث تجاوزت هذه المساعدات أي مساعدة أخرى لدول أخرى في العالم ، وذلك استنادا الى نسبة التوزيع على كل فرد . وهذا أيضا ينطبق على المساندة الدبلوماسية في الأمم المتحدة .

لذلك يمكننا القول بأن هذا الكتاب مقسم الى جانبين من حيث اعتماد الوثائق وتواريخ الأحداث ، ففصوله الأولى استندت في وثائقها على وثائق موجودة في الأقسام العامة والعسكرية والدبلوماسية في مركز المحفوظات القومية بواشنطن . أما الجزء الآخر المكون للفصول الوسطى والأخيرة فهي في الغالب مستندة على معلومات متوفرة في عدد من المكتبات الرئاسية كمكتبة الرئيس دوايت د. أيزنهاور في ابيلين بولاية كنساس ومكتبة الرئيس ليندون بي جونسون في هوستون بولاية تكساس .

التحذير المشروع الذي قدمه الكاتب فيما يتعلق ببعض الوثائق التى يصعب مراجعتها الان يعود الى القرار الرئيسى المرقم ١٢٣٥٦ الصادر من قبل الرئيس الحالي رونالد ريجان في ١٩٨٢ ، الذي يسمح باعادة اضفاء صفة السرية التي نزعت عنها من قبل .

وقد اغتنمت وزارة العدل الأمريكية تلك الفرصة لكي تشجع اطرافا كثيرة في الدولة لكي تنتحى نفس المنحى .

ويقول غرين بان الباعث الرئيسي على وضع هذا الكتاب هو انه « تملكنى » في السنوات الاخيرة ، شعور مزعج ومغيظ بان العديد من تصريحات السياسيين العلنية ـ ان لم نقل أكثرها (وخصوصا لاعضاء الكونجرس) ـ كان يعكس جهلا مروعا بتاريخ العلاقات الحقيقى بين اسرائيل والولايات المتحدة طوال ستة وثلاثين عاما . واذا أراد الفرد الامريكى ان يقتبس هذا الجهل فما عليه الا ان يتقدم الى السناتور الذي يمثل ولايته (هذا السناتور الذي كان بلا ريب قد أدخل في السنة المنصرمة في « سجل الكونجرس » ما بين ٢٠ و١٠٠ خطاب وتصريح ورسالة ومقالة عن اسرائيل . ويطلب منه ان يشرح له قضية لافون ، وهي حادثة كان لها في تاريخ الكيان الصهيونى السياسي وقع أعظم مما كان لفضيحة ووترغيت في الولايات المتحدة ، وعندئذ يرى ذاك السناتور وقد قطب حاجبيه وزم شفتيه ولم يأت بجواب متحذلق ، وهذا ما لا يحدث للسيناتور الا في القليل النادر .

ومن بين بضع مئات من الوثائق والنصوص المهمة التى دونها الكاتب يحاول ان يقول للقارىء والمتتبع بأنه من سخرية الاقدار أن أمن الكيان الصهيوني بالنسبة الى جيرانها العرب ، قد تدهور بمقدار ما ازدادت قوتها العسكرية وازدادت الروح العدوانية والمناسبات التى استخدمت فيها هذه القوة . فنمط العلاقة الوطيدة التى امتدت بين عامي ٦٤ ـ ١٩٦٧ ، قد استمرت بلا تغيير تقريبا حتى يومنا هذا .

★☆★☆★☆★☆★

« آل المهلب بن ابي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجرى »

تأليف : الدكتور نافع توفيق العبود/ الاستاذ المساعد/ قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة بغداد

الطبعة الاولى/ مطبعة الجامعة/ بغداد/ ١٩٧٩م/ ٣٢٠ صفحة من القطع المتوسط

عرض وتقديم الدكتور عبدالامير دكسن
كلية التربية/ جامعة بغداد

الكتاب في الاصل رسالة جامعية نال بها مؤلفها شهادة الدكتوراه من جامعة بغداد وباشراف الاستاذ الدكتور المرحوم فيصل السامر .

تتناول هذه الدراسة احدى الاسر العربية العريقة ، أسرة المهالبة ، التى كان من رجالها قادة عسكريون وولاة ورؤساء وأدباء في العصرين الأموى والعباسي ، ومن هنا فهي دراسة شاملة تناولت الجوانب العسكرية والسياسية والادارية والثقافية عبر فترة زمنية واسعة تجاوزت الثلاثة القـرون ، وشملت رقعة جغـرافية واسعة كذلك .

ولعل اهم ما يميز هذه الدراسة انها خرجت عن الاطار التقليدي في دراسة سير الأفراد والأسر ذات الشأن في تاريخنا العربي الاسلامي ، الذي قد يوقع الباحث الذي تستهويه مآثر هذه الاسرة أو تلك فيجعل من نفسه مدافعا عنها ، محاولا التغاضى عن كل ما ينقص منها ، أو حتى بتبرير أخطاء ارتكبها بعض افرادها . لقد حاول المؤلف ان يكون منصفا لآل المهلب فتطرق الى ما لهم وما عليهم بتجرد واضعا اياهم حيث كانوا في مسيرة التاريخ الحافلة بالاحداث والتطورات مبتعدا عن العاطفة التى قد تسوق الباحث احيانا بعيدا عن الموضوعية .

لقد قسم الباحث دراسته هذه الى مقدمة تناولت تحديدا لنطاقها واستعراضا للمصادر المستعملة فيها ، وستة فصول ، تطرق في الفصل الأول منها الى نسب رأس أسرة المهالبة ـ المهلب بن ابي صفرة ـ متناولا شخصيته ومساهمته في حروب التحرير العربية ، وابراز دوره المهم في حرب الازارقة من الخوارج الذين كانوا يهددون مدينة البصرة على وجه الخصوص وتمكنه من القضاء عليهم ، اضافة الى ولايته خراسان مدة ثلاث سنوات انتهت بوفاته لما امتاز به من قابليات عسكرية وادارية كان ذلك الاقليم بحاجة اليها في تلك الفترة .

أما الفصل الثاني فقد كرس ليزيد بن المهلب الذي آلت اليه رئاسة أسرة المهالبة بعد وفاة والده ، وتولى خراسان مرتين : الأولى بعد وفاة والده في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان والثانية في عهد الخليفة سليمان بن عبدالملك الذي كانت تربطه واياه علاقة حسنة . وفي هذه الفترة تمكن يزيد من فتح جرجان وطبرستان . كما تناول هذا الفصل كذلك عزل يزيد عن ولاية خراسان وايداعه السجن في خلافة عمر بن عبدالعزيز وفراره من السجن وتمرده على الأمويين في العراق في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك واخفاق هذا التمرد وما حل بأسرته بعد ذلك .

وفي الفصل الثالث تناول الباحث الدور الذي لعبه آل المهلب في معاداة الأمويين بالانضمام الى مناوئيهم أمثال عبدالله بن معاوية ، وعبدالله بن عمر بن عبدالعزيز ، وأخيرا الى الدعوة العباسية . كما تتبع في هذا الفصل علاقة آل المهلب بالخلفاء العباسيين ابتداء من عهد ابوالعباس السفاح وانتهاء بعهد المأمون .

لقد خصص الباحث الفصل الرابع من هذه الدراسة للحديث عن المهالبة الذين تولوا لمدة ثلاث وعشرين سنة ولاية شمال أفريقيا مؤكدا على دورهم الفعال في القضاء على حركات الخوارج الأباضية هناك .

لقد كان الدور الذي لعبه المهالبة في العصر العباسى الثاني من حيث اهتمام الكثير منهم بالنواحي الادبية والثقافية ، وانضمام البعض منهم الى حركة الزنج وكيف اثر اخفاق تلك الحركة على هذه الاسرة التى فقدت ابرز ابنائها من الذين انضووا تحت لوائها ، هو محور الفصل الخامس من هذه الدراسة .

أما الفصل السادس والأخير فقد خصص لدراسة الوزير ابي محمد الحسن بن محمد المهلبي الذي تقلد الوزارة لمعز الدولة البويهي مدة ثلاث عشرة سنة متناولا نشأته ، واتصاله بمعز الدولة واستيزاره ، ثم وضعه في الوزارة حتى وفاته سنة ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م .

وبعد ، فان دراسة كهذه تتطلب جمع شتات المعلومات من المصادر المختلفة وتتميز بالموضوعية وبانتهاجها اسلوب البحث العلمي الرصين لاشك انها تحتل مكانا في المكتبة العربية المعاصرة .

مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]

لعروة بن الزبير

(٢٣ ـ ٩٤ هـ)

جمع وتحقيق : الدكتور محمد مصطفى الاعظمى

عرض السيد مهدى حسوني

مدرس / تربية الكرخ / بغداد

يشتمل الكتاب على اجزاء من أقدم ما كتب في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ويتضمن الكتاب مقدمة عن نشأة الكتابة في السيرة النبوية ، ومن ثم كتاب المغازى لعروة بن الزبير ، برواية ابي الاسود وقد استخرجه من بطون الاسفار ، وهو من المصادر القديمة في السيرة النبوية ، واشتمل الكتاب على ثلاثة ملاحق تناولت كتابات عروة بن الزبير الى عبدالملك والوليد وغيرهما والمتعلقة بالمغازى ، وأسماء البدريين الذين لم يذكرهم عروة في مغازيه أو بالاحرى لم يذكرهم الهيثمى عنه في مجمع الزوائد ، مع صفحة مصورة من كتاب سير اعلام النبلاء ، وفيها ترجمة لأبي الاسود يتيم عروة ، وذلك لأهميتها البالغة حسب اعتقاده .

ان من الفوائد الكبرى التي حققها نشر هذا الكتاب بتصحيح الاخطاء التاريخية لدى الباحثين عن حركة التأليف عند المسلمين وخاصة فيما يتعلق بالسيرة النبوية فالى ما قبل مدة وجيزة لم تكن في الايدى الا عدة احاديث منتخبة من مغازى موسى بن عقبة (ت/٢١٨ هـ) وسيرة ابن اسحاق (ت/١٥١) بتصويب ابن هشام (ت/٢١٨ هـ) وجزء من المغازى للواقدى (ت/٢٠٧) .

ولذلك فان كتاب المغازى « لعروة بن الزبير » يزيدنا في علمنا عن المؤلفات القديمة في السيرة النبوية ، ويكشف النقاب عن صلة مغازي موسى بن عقبة بهذا الكتاب ، وكأنه نسخة من هذا الكتاب أو رواية أخرى عنه ، وبذلك يعتبر ادعاء وضع مواد مغازى موسى بن عقبة في العصر العباسي لانه ربما الف هذا الكتاب قبل مجيء العباسيين بنصف قرن .

وبذلك يضيف مغازى عروة بن الزبير ، مصدرا مهما الى مصادر دراسة التاريخ العربي الاسلامي .

★☆★☆★☆★☆★

(١) من منشورات مكتب التربية العربية لدول الخليج العربي. الرياض ١٤٠١ هـ ونشر هذا الكتاب احتفاء بمطلع القرن الخامس عشر الهجري.

الوطن العربي والغزو الصليبي

د. خاشع المعاضيدى

د. سوادي عبد محمد

د. دريد عبدالقادر نوري

(عرض : عبدالمطلب شمران المسعودي/ باحث تاريخي/ بغداد)

تناول الكتاب الوطن العربي والغزو الصليبى من جوانب أساسية ، ومنها العوامل التى ساعدت الانسان العربي على فهمه لمستقبله وخاصة من نتيجة دراسة ماضيه . لان التاريخ هو ذاكرة الأمة . وطمس هذه الذاكرة يعنى فقدانها لحيويتها وأصالتها .

لذلك أصبح من الضرورى عرض هذا الكتاب من الناحية التاريخية والسياسية للوطن العربي وخاصة في فترة أواخر القرن الخامس الهجرى .

الكتاب تناول الغزو الصليبى وآثاره بشكل عام على الامة الاسلامية وتاريخها .

يعتبر عصر الحروب الصليبية من أهم العصور التاريخية بالنسبة للشرق والغرب على السواء . نظرا لأن هذه الحروب مرت بفترة مليئة بالحوادث والعظات . وأن الوطن العربي لايزال الى اليوم يعاني من الهجمات الاستعمارية والصهيونية والفارسية التى تلت مكانة الصليبيين في أضعاف العرب والسعي للاستمرار في احتلال أجزاء عربية .

ولذلك فان هذا الكتاب في متناول الدراسة التحليلية لنتائج الحروب الصليبية أمر مفيد ومهم لابناء أمتنا ومستقبلها . خاصة وان العديد من حوادث الحروب الصليبية وظروفها يشابه وضعنا الراهن في نواح عديدة .

اعتمد الكتاب على نتائج الغزو الصليبى لبلاد الشام . فقد ظهر من ذلك حكام مسلمون تمكنوا ان يحتلوا مركز القيادة لمنطقة الشام أو لبعض مدنه وان يتزعموا البلاد لتوحيدها . نظرا لضعف السلطة المركزية في بغداد من ناحية ، وامكانية أولئك الزعماء من اكتشاف السر في امنية المجتمع للوحدة والتحرير من ناحية ثانية لذلك تمكنوا من الوصول الى القيادة بشكل سهل نظرا لاكتشافهم لاهداف شعبهم واجهاد انفسهم في العمل على تحقيقها .

كذلك شمل الكتاب فقرتين أساسيتين أولاهما في ماهية السياسة التى اتبعها أولئك القادة في سبيل بناء الجبهة الداخلية والاعداد للحرب . أما الفقرة الثانية فكانت موقف القادة من الصليبيين والخطوات السليمة التى اتبعوها في صد الغزو الصليبى الذي استهدف الارض وكرامة الانسان العربي والمعتقد المتمثل في الوجود الاسلامي في المنطقة .

الكتاب شمل ثلاثة أبواب في ثمانية فصول . حيث تحدث الباب الاول عن الحملات الصليبية الاولى على بلاد الشام وعن دوافع الاوربيين في تلك الغزوات حيث تناول هذا الباب سكنة بلاد الشام من قبل الميلاد بعدة قرون وذلك بوصف الوطن الاصلى لسكان هذه المنطقة . وكذلك اطرافها خلال العصور التاريخية المتعاقبة من ناحية اصالة المنطقة وأهميتها والاحداث السياسية التى حدثت فيها نتيجة الضعف وعن الاسباب التى مكنتهم من تأسيس ممالكهم ومقوماتهم . أما الباب الثاني فقد شمل رد الفعل الاسلامي وتكوين الجبهة الاسلامية المتحدة التى وقفت متماسكة بفخر ومتصدية لكل أنواع العدوان الخارجي . وينقسم هذا الباب الى فصلين أولهما المحاولات الاسلامية الاولى للتصدى للصليبيين متمثلة في شخصية عماد الدين زنكى الذي كون النواة الاولى للجبهة الاسلامية في التصدى للغزو الخارجي والقضاء على محاولات الاستنزاف العدوانية .

وثانيهما : تكوين الجبهة الاسلامية بدءا بدخول دمشق تحت حكم نور الدين وبدايات التوحيد السياسي في ايقاظ الفكر الاسلامى لماهية العدوان الخارجي في دعوة الامراء المسلمين الى التوحيد والقتال ضد الصليبيين .

أما الباب الثالث فقد شمل شرحا وافيا لحروب التحرير التى ابتدأت منذ عهد صلاح الدين الايوبي بتحريره القدس وانتهاء بأخر سلاطين المماليك (السلطان خليل) الذي تمكن بدوره من تحرير عكا ، وكذلك الحملات الصليبية الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة .

دراسة لمصادر عربية عن تاريخ مصر العثمانية

تأليف : عمر عبدالعزيز عمر

بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٧ ، ٦٣ ص

عرض فؤاد قزانجي

جريدة بغداد ابزورفر

دراسة قصيرة عن كثير من المصادر والمراجع باللغة العربية عن الفترة العثمانية من تاريخ مصر وهي الفترة الممتدة منذ السنة التى فتح بها السلطان سليم مصر عام ١٥١٧ وحتى مجيء الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨ ، وهي فترة لها تأثيرها الكبير على مجمل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مصر ، فبعد ان كانت مصر مركزا لدولة كبيرة تتخذ من العربية لغة لحكومتها وثقافتها ، صارت ولاية خارجية من الولايات الامبراطورية العثمانية ففرضت اللغة التركية سيطرتها في الميادين الادارية المختلفة كما فرضت انظمة عسكرية وادارية عثمانية على البلاد .

وجدير بالذكر ان اكتفاء المؤلف بالمراجع والمصادر العربية عن تلك الفترة العثمانية لا يمثل في الواقع الا جانبا واحدا من البحث العلمي بتاريخ مصر في القرون الثلاثة التى شملتها الدراسة ، فالمصادر العثمانية والوثائق والأوراق والسالنامات والفرمانات باللغة التركية تشكل جانبا مهما في دراستنا لتاريخ مصر والبلاد العربية ابان السيطرة العثمانية التى امتازت عموما بالجمود والتخلف .

ان كثيرا من المؤلفين الأفاضل لايزالون يخلطون بين المصادر والمراجع . فالمصادر هي المراجع الأولية التى تمثل الكتابات التى الفت أو سجلت ابان الفترة المبحوث عنها أو بعدها بقليل بالاضافة الى الوثائق والأوراق الرسمية والخاصة المختلفة التى صدرت في تلك الفترة . أما المراجع بصورة عامة فهي الدراسات التى قامت على تلك المصادر الأولية واعتمدت عليها ، واذا أردنا ان نحدد بشيء من التخصص التوثيقى فهي ما يرجع اليه من معلومات سريعة مختلفة متخصصة أو عامة كالموسوعات والأدلة ومعاجم السيرة وما شاكل ذلك . فالمؤلف الفاضل يضع رسالة ماجستير كتبت عام ١٩٥٠ الى جانب المصادر التى يوردها ، بينما أضحت رسائل الماجستير في المراجع التى قلما يستشهد بها في البحوث بالأقطار المتقدمة . بل يشترط بعض الاساتذة المشرفين على اطروحات الدكتوراه في الجامعات الاوربية ذات السمعة العلمية ، العودة الى المنابع الاصلية للبحث والى المصادر الاولية وخاصة الوثائق والمحفوظات المختلفة ، اما الدراسات التى سبقت طالب الدكتوراه فيمكن اجمالها في فصل صغير يجرى فيه استعراض لتلك التى خرجت بنتائج جديدة عن سابقاتها ، كما يمكن الاستفادة منها في الفصول التعريفية للاطروحة او البحث . والمؤلف يعى أهمية المصادر الأولية فيقول : « ان اغلب المصادر التاريخية المصرية المعاصرة لهذا العصر مازال مخطوطا بسبب اهمال المؤرخين لتلك الفترة التاريخية . فلم تعتمد على هذه المصادر الخطية الا أبحاث قليلة جدا » .

وقد قسمت الدراسة الى جزئين ، الأول بعنوان (الدراسات المنشورة عن مصر العثمانية) والثاني (عرض وتحليل لبعض المصادر العربية) وفيه تناول المؤلف بعض المصادر العربية الأولية بشيء من الأهمية والدقة منها تاريخ غزوة السلطان سليم خان ، تأليف أحمد بن زنبل المحلى ، والروضة الزهية في ولاة مصر ، والقاهرة المعزية ، تأليف محمد بن محمد بن ابي السرور البكري وهو مخطوط وموجود في مكتبة بودليان . وكذلك مؤلفات عبدالرحمن الجبرتى عن مصر والذي امتاز بالدقة في استقصاء حوادثها .

ولابد لنا أن نذكر أخيرا ان هناك عددا من المؤلفات المتعلقة بتاريخ الدولة العثمانية قد ترجم الى العربية لم يشر اليه المؤلف الفاضل .

★☆★☆★☆★☆★

بيــان العــدد

بيان هام صادر عن اتحاد المؤرخين العرب لفضح أساليب الكيان الصهيوني في تشويه تاريخ الأمة العربية

أيها المؤرخون العرب في كل مكان ، في الوطن العربي وخارجه

يا من حملتم أمانة التاريخ ، وتراث الأمة في أعناقكم ، ونذرتم أنفسكم للدفاع عن شرف الأمة ومجدها ، وفعلها الحضاري للانسانية .

يا من تعبرون بصدق عن صوت تاريخكم القومي ، وقد جعلتم من أقلامكم حرابا لكل من حاول أو يحاول تشويه التاريخ القومي العربي ، ويقلب صورته ، ويشكك في منطلقاته ، ويخرق وحدته الفكرية .

ان اتحاد المؤرخين العرب الذي ينضوى تحت لوائه مؤرخو الأمة العربية كافة يتوجه بهذا النداء باسمكم جميعا الى المثقفين العرب في كل مكان للوقوف بوجه الموجة الوحشية الصهيونية الحاقدة على الامة العربية وتاريخها وتراثها التى تخطط باستمرار لهدم الوجود العربي ، والذات العربية لتجعل من الانسان العربي متشككا في أمجاد أمته ، وحضارتها الانسانية التليدة .

أيها المؤرخون أيها المثقفون الأماجد :

لم تعد مواجهة الكيان الصهيونى للامة العربية مقصورة على التحدى العسكرى وحده ، وانما اتجه هذا العدو الى استغلال الفكر العربي ، والنيل منه ، ومحاولة تسخير ما يصدر في هذا الكيان من مؤلفات باللغة العربية ، وخاصة في الموضوعات التاريخية لخدمة أهدافه ، هذه الاهداف التى تصب في مجرى معروف هو الحقد على العرب . وعلى تاريخهم ، وقيمهم من أجل طمس ما قدمته الحضارة العربية لحركة الانسان على الارض من معطيات في الماضي وتعطيل كل دور حضاري يمكن أن يقوم به العرب في الوقت الحاضر .

ومن هنا تقع على عاتق المؤرخين العرب مسئولية الانتباه لما يصدر عن الكيان الصهيونى في فلسطين من منشورات ومطبوعات تخص القضية العربية عموما ، والتاريخ خصوصا ، وذلك بدراسته دراسة واعية عميقة ، واكتشاف ما فيه من سموم حاقدة ، وأفكار مريضة تبثها دور النشر الصهيونية لضرب الفكر العربي في الصميم .

ان الكيان الصهيوني يعنى عناية كبيرة بالدراسات المتعلقة بالوطن العربي والعالم الاسلامي ، وقد أخذت الجامعات الصهيونية على عاتقها توجيه البحوث والدراسات نحو قضايا تباشر التاريخ العربي والاسلامي في كثير من أبوابه ومنافذه ، وهي في سبيل تحقيق هذه الغاية راحت تتابع بشكل دقيق كل ما يصدر عن الوطن العربي من مؤلفات وبحوث ودراسات وتجميعها وتحليلها ، لتعطيل كل ما فيها من معطيات تخدم الحقيقة التى يعززها التاريخ ، وتسندها الحقائق وذلك بطرح آراء ودواعى باطلة من لدن الكتاب والباحثين والمؤرخين اليهود ، تفسد الأوجه المشرقة في التفكير العربي قديما وحديثا .

ان الاعمال اليهودية التى تنشر في الوطن الفلسطينى المحتل تحتاج من المؤرخين العرب وقفة جدية لتجميعها ودراستها وتحليلها خدمة لمرحلة الحسم القادمة مثلما يفعل الكيان الصهيوني نفسه .

ومن أجل ذلك ترى الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ان الضرورة القومية والحضارية للأمة العربية تقتضى ضرورة العناية القصوى من لدن أقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي وكل المثقفين العرب . بالنتاج الفكري وخاصة التاريخى اليهودى المنشور في الارض المحتلة ، أو عن مؤرخين يهود مكتسبين جنسيتها ، وينشرون اعمالهم في دول غربية . فتسعى بكل حرص الى الوصول الى كل ما يصدر منه ، ومن ثم احالته الى اتحاد المؤرخين لدراسته من قبل متخصصين بالدراسات الاسرائيلية للوقوف على ما فيه من أفكار تزيف الحقائق ، وتشوه الوقائع وما هذا العمل الا تأكيد للاهتمام بالقضية المصيرية للأمة العربية التى نرى ان من مصلحتها فهم العقلية الصهيونية وسبلها في معالجة القضايا والأحداث التى مرت وتمر بها المنطقة العربية اليوم .

ولتقديم نماذج من الاهتمام الحاصل داخل الارض المحتلة بالدراسات العربية قديمها وحديثها ، تلفت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب انظار السادة المؤرخين لما صدر عن الجامعة العبرية في القدس في بداية عام (١٩٨٦) من قوائم تناولت تحقيق كتب تراثية ومؤلفات عن قضايا تاريخية وأدبية واجتماعية عن الوطن

العربي والعالم الاسلامي ، ودراسات مختصرة تعنى بالمشاكل المعاصرة التى تعالج القضية الفلسطينية .
ففي مجال تحقيق التراث نشرت الجامعة العبرية مجموعة من الكتب منها :

- انساب الاشراف للبلاذرى وقد نشر النص بالعربية والهوامش بالانجليزية وما تم نشره يمثل الجزء الرابع من الكتاب وقد حققه (ماكس شوسلنجر) وهناك مجلدات أخرى نشرت سابقا بواسطة الجامعة نفسها من قبل ، الكتاب يعتبر من الأعمال الأساسية في التاريخ العربي المكتوب في اطار الانساب .

- كتاب ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ، وقد حققه (المجور) ونشر النص بالعربية .

- الاحاديث الحسان في فضل الطيلسان لجلال الدين السيوطى وحققه (أرازى) .

- فضائل البيت المقدس لابي بكر بن احمد الواسطى .

- جوامع آداب الصوفية للسلمي .

- كتاب آداب المريدين للسهروردى .

والملاحظ على هذه الكتب المحققة بواسطة اليهود انها من الاعمال الصوفية أو من تلك التى تعتمد على بحث الفضائل ، وهي ليست من القضايا الاساسية في الثقافة والفكر الاسلامي ، ولكنها في الوقت ذاته من الاعمال التى تستهوى المناهضين للاسلام للبحث في ثناياها عن أمور لا تتفق وروح الاسلام ، يمكنهم من خلالها استخلاص نقاط ضعف توجه ضد العقيدة الاسلامية ، وليس اليهود بدعا في هذا المجال ، اذ طالما اهتم المستشرقون المعادون للاسلام بمثل هذه الاعمال تحقيقا ودراسة .

وتوجد نوعية اخرى من الاعمال التى حظيت باهتمام الكتاب اليهود في الارض المحتلة تتمثل في الدراسات التى تقوم حول الادب والتاريخ العربي والاسلامي ، فكان مما نشرته الجامعة العبرية مختارات من الادب العربي اليهودى ، ودراسة أخرى بعنوان (قواعد اليهودية العربية في العصور الوسطى) وهذا الكتاب يعنى بالظاهرة اللغوية اليهودية في البلاد العربية خلال العصور الوسطى .

ويدرس كاتب اخر العلاقات بين عرب سوريا وشمال الجزيرة وشمال سيناء من جهة وسكان فلسطين وما حولها في الفترة من القرن التاسع الى الخامس قبل الميلاد وعنوان الكتاب (العرب القدماء) وهو يركز على علاقات العرب الرحل بالامبراطوريات القديمة في الشرق الادنى ودورهم السياسي في تلك المرحلة .

أما جانب العناية بالاسلام والعالم الاسلامي فنجده في مجموعة اعمال بينها كتيب بعنوان (نهضة الاسلام في تركيا الحديثة) وهو يبحث في العلاقة بين الدين والقومية في تركيا ، وكتاب اخر بعنوان (الاسلام في اسيا) صدر في مجلدين الاول حول جنوب شرق آسيا حرره (فردمان) والثاني حول جنوب غرب آسيا وهو يتضمن مجموعة المحاضرات التى قدمت في المؤتمر العالمي عن الاسلام في اسيا الذي عقد في معهد هاري ترومان في الجامعة العبرية عام ١٩٧٧م ، والذي القي فيه الضوء على اوضاع المسلمين في آسيا ، وهو دون شك يبرز الاهتمام الكبير للكيان الصهيوني بالعالم الاسلامي الذي ترى فيه امتدادا لما يجب أن تعنى به حتى تكون فكرة شاملة عن العلاقات بين هؤلاء المسلمين والوطن العربي .

كما ان من الاعمال الهامة التى نشرتها الجامعة العبرية سلسلة بعنوان (دراسات القدس عن العربية والاسلام) وهي سلسلة سنوية صدر منها حتى الآن خمسة مجلدات تشمل اعمالا قدمت الى معهد الدراسات الآسيوية والافريقية في الجامعة العبرية ، تغطى موضوعات عديدة منها التاريخ الاسلامي والحضارة والفكر في العصور الوسطى وكذلك اللغة والآداب العربية .

وتناول (لزريوس يافح) الغزالي في دراسة مطولة جاءت في ٥٨٤ صفحة استغرق وضعها خمسة عشر عاما عرض فيها لجميع كتابات الغزالي المعروفة ، كما نشرت الجامعة كتابا بعنوان (دراسات حول اليهودية والاسلام) ضم مجموعة من البحوث التى اشرف على تحريرها (ابن أمي) وجاءت في مجلدين شملت بحوثا حول آداب وتقاليد المجتمع اليمنى والمجتمع اليهودي في المغرب والتاريخ الاسلامي ووثائق الجنيزا .

وعرض (سترن) للاسماعيلية في كتاب عنوانه (دراسات حول بدايات الاسماعيلية) اعتمد فيه على مصادر اسماعيلية . ووصل اهتمام الدارسين اليهود بقضايا الاسلام الى ماليزيا فوضع احد الباحثين كتابا بعنوان (الاسلام والمؤسسات الاسلامية في الملايو البريطانية « ١٨٧٥ ـ ١٩٤١م ») .

وقد تدخل الاعمال التى اشير اليها سابقا في اطار الاهتمامات العامة للباحثين اليهود في الارض المحتلة ، ولكننا نجد تركيزا كبيرا على اعمال تتعلق بالقضايا المعاصرة والعلاقات العربية اليهودية من ابرزها دراسة (لبن دور) تقع في ٢٩٨ صفحة تحدث فيها عن الدروز في فلسطين من زاوية سياسية حيث عالج وضع الدروز في فلسطين البالغ عددهم ٣٤ الف نسمة وتناول دورهم في المجتمع الصهيونى بما في ذلك تأثيراتهم السياسية ، ووضع (ابن روفائيل) كتابا عن حرب الفدائيين والحرب المضادة لهم .

ولليهود اهتمام بتاريخ فلسطين يعمدون فيه عادة الى ابرازه في صورة سيئة تعبيرا عن الوضع المتردى للمنطقة قبل حلولهم فيها ، ومن هنا فقد نشرت الجامعة مجموعة دراسات بعنوان (دراسات حول فلسطين خلال العصر العثماني) اشرف على تحريرها (ماعوز) وجاءت في ٦٤٠ صفحة تضمنت اربعين دراسة عن قضايا عديدة تتعلق بالتاريخ والجغرافيا والسياسة وعلم الاجتماع والعلاقات الدولية في تلك الفترة .

وتهتم سلسلة اوراق القدس حول مشكلات السلام بنشر كتيبات متخصصة اغلبها يتعلق بالقضية العربية الصهيونية وهي سلسلة يظهر من عناوين اصداراتها توجه نحو ترسيخ فكرة الحق اليهودى في فلسطين ، والتظاهر الصهيوني بالبحث عن السلام ولعل ما يؤكد انها سلسلة موجهة ان اللغة التى تكتب بها هي الانجليزية دليلا على الرغبة في اعطاء القارىء الغربي معلومات من وجهة نظر منحازة .

ومن بين العناوين التى نشرتها السلسلة كتيبات منها : « الحق اليهودي في القدس » ليهودا بلوم ، وقد عرض فيه الكاتب لحق الكيان الصهيوني في القدس الشرقية اعتمادا على القانون الدولي وكونها ظلت مدينة موحدة طوال فترة الانتداب البريطاني اضافة الى ان هذا الحق ينبع من موقف الكيان الصهيوني في الدفاع عن نفسه .

و (والكيان الصهيوني في الشرق الاوسط مدخل) تحدث فيه مؤلفه ياكوف هرزوج عن تاريخ الدولة الصهيونية وعلاقاتها المتوترة بالعالم العربي وكتاب « المفهوم الاسرائيلى للحدود الآمنة » ويعرض ستيفن روسن في مؤلف آخر للجغرافيا العسكرية والتوازن العسكري في المشكلة العربية الصهيونية .

وتضم السلسلة ايضا دراسات أخرى عن الوضع الاقتصادي في المنطقة وعلاقات الكيان الصهيوني بدول العالم المختلفة ، وتحليلات للحروب الصهيونية العربية .

ولعل المرء يشعر بكثافة ما ينشر عن الوطن العربي والعالم الاسلامي والعلاقات بين الدولة الصهيونية والعالم داخل الكيان الصهيوني ، مما سبق فاذا كانت جهة واحدة فقط قد اصدرت كل هذه الاعمال فان هذا هو الدليل على العناية بالمعلومات سلاحا في المواجهة يستخدم بطريقتين : بث الدعاية وتشويه الحقائق ، ومحاولات التعرف على أوضاع الطرف الاخر تاريخيا واجتماعيا واقتصاديا .

ان اتحاد المؤرخين العرب اذ يسلط الاضواء على هذه النماذج يؤكد ان عظم المسئولية الملقاة على عاتق المؤرخ العربي أضحت جسيمة ، وتتحدد هذه المسئولية فيما تتحدد بالكشف عما يخطط لوأد ثقافته العربية ، وتاريخه المجيد وتعطيل فعله الانساني والحضاري .

واننا اذ نوجه الدعوة للمؤرخين العرب كافة فانما ندعوهم الى ان يكونوا يدا واحدة وفكرا واحدا من أجل الوقوف أمام الزحف الاستعماري الثقافي الخطير .

وما النصر الا من عند الله ، « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

الاستاذ الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

صدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب في غرة جمادى الآخر من عام ١٤٠٦ هـ ، الموافق لليوم الرابع عشر من شهر شباط من عام ١٩٨٦ العراق .

من نشاطات الاتحاد العلمية

أ ـ تشكيلات الاتحاد في مجال النشر

أولا : الهيئة العربية العليا لكتابة تاريخ الأمة العربية :

١ ـ الدكتور محمد عدنان البخيت	ممثل	مشروع كتابة تاريخ بلاد الشام/ المملكة الاردنية الهاشمية
٢ ـ الدكتور عبدالجليل التميمي	ممثل	مشروع كتابة التاريخ العثماني/ الجمهورية التونسية .
٣ ـ الدكتور عبدالرحمن الانصاري	ممثل	كتابة تاريخ الجزيرة العربية/ المملكة العربية السعودية
٤ ـ الدكتور نبيه عاقل	ممثل	لجنة كتابة تاريخ العرب/ الجمهورية العربية السورية
٥ ـ الدكتور سلمان سعدون البدر	ممثل	هيئة كتابة تاريخ الأمة/ دولة الكويت .
٦ ـ الدكتور صالح احمد العلي	ممثل	هيئة كتابة تاريخ الامة العربية/ الجمهورية العراقية
٧ ـ الدكتور محي الطاهر الجراري	ممثل	مؤتمر تاريخ الأمة العربية/ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ثانيا : لجنة تعضيد المنشورات التاريخية :

١ ـ الدكتور فاضل عبدالواحد (رئيسا)
٢ ـ الدكتور حسن فاضل زعين
٣ ـ الدكتورة رجاء حسني الخطاب
٤ ـ الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
٥ ـ الدكتور عبدالامير عبد دكسن
٦ ـ الدكتور فاروق عمر فوزى
٧ ـ الدكتور هاشم صالح التكريتي
٨ ـ الدكتور يحيى الشاهرلى
٩ ـ الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني (مقررا)

ثالثا : اللجنة الاستشارية للمنشورات التاريخية

١ ـ الدكتور صالح الحمارنة	المملكة الاردنية الهاشمية
٢ ـ الدكتور سلطان القاسمي	دولة الامارات العربية المتحدة
٣ ـ الدكتور سعيد خليل هاشم	دولة البحرين
٤ ـ الدكتور محمد الهادي الشريف	الجمهورية التونسية
٥ ـ الدكتور محمد البشير شنيتي	الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
٦ ـ الاستاذ سعيد احمد درسمة	جمهورية جيبوتي
٧ ـ الدكتور يوسف الثقفي	المملكة العربية السعودية
٨ ـ الدكتور تاج السر احمد حران	جمهورية السودان الديمقراطية
٩ ـ الدكتور عادل زيتون	الجمهورية العربية السورية
١٠ـ الاستاذ محمد علي كريم	جمهورية الصومال
١١ـ الدكتور ابراهيم خليل احمد	الجمهورية العراقية
١٢ـ الاستاذ علي احمد الشنفرى	سلطنة عمان
١٣ـ السيد احمد العناني	فلسطين
١٤ـ الدكتور حسن محمد صالح	دولة قطر
١٥ـ الدكتور عبدالمالك التميمى	دولة الكويت
١٦ـ الدكتور عمر عبدالسلام تدمرى	الجمهورية اللبنانية
١٧ـ الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن	جمهورية مصر العربية
١٨ـ الدكتور محمد المختار بن ريان	جمهورية موريتانيا الاسلامية

١٩ـ الدكتور عبدالهادي التازى — المملكة المغربية
٢٠ـ الدكتور احمد العامري — الجمهورية العربية اليمنية
٢١ـ الدكتور محمد عكاشه — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

ب ـ نشاطات الاتحاد في مجال النشر

اولا : الكتب المنشورة

قام الاتحاد بنشر الكتب التالية :

١ ـ كتاب يوميات البصرة بجزئين تأليف الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار والدكتور الامير محمد امين (بيروت ١٩٨٠) باللغة الانكليزية .
٢ ـ بحوث مهرجان المؤرخ توينبى (بغداد ١٩٧٩) باللغة الانكليزية والعربية واشرف على اعدادها الدكتور هاشم التكريتي والدكتورة عالية سوسة .
٣ ـ الحركة الصهيونية في تونس من الفترة ما بين (١٩١١ ـ ١٩٢٧) تأليف الاستاذ التيمومي (بيروت ١٩٧٩) .
٤ ـ نشأة الحركة الأباضية الدكتور عوض خليفات (عمان ١٩٧٨) .
٥ ـ ملامح النهضة العلمية في العراق من القرنين الرابع والخامس الهجريين (٣٣٤ هـ ـ ٤٤٧ هـ) (١٤٥م ـ ١٠٥٨م) للدكتور محمد حسين الزبيدى (بيروت ١٩٨٠) .
٦ ـ ديوان جواهر الملوك في مدايح الملوك ، للشاعر هلال بن سعيد بن عرابة العماني تحقيق الدكتور داود سلوم (بيروت ١٩٧٩) .
٧ ـ القبائل العربية في المشرق خلال العهد الأموى (٤٠ ـ ١٣٢ هـ / ٦٠٠ ـ ٧٤٩م) للدكتور ناجي حسن (بيروت ١٩٨٠) .
٨ ـ حضارات الوطن العربي كخليفة للمدينة اليونانية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بيروت ١٩٨٠) .
٩ ـ الامير مسلمة بن عبدالملك بن مروان ، للدكتور عواد مجيد الاعظمي (بيروت ١٩٨٠) .
١٠ـ مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني للدكتور فاروق عمر فوزي (بغداد ١٩٧٩) .
١١ـ المدخل الى تاريخ اللغات الجزرية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بغداد ١٩٨١) .
١٢ـ دراسات تاريخية لمعاهدات الحدود الشرقية للوطن العربي للدكتور مصطفى عبدالقادر النجار (بيروت ١٩٨١) .
١٣ـ فلسطين تاريخها وحضارتها للدكتور عز الدين غربية (بيروت ١٩٨١) .
١٤ـ كتاب المسعودي مؤرخا للاستاذ عبدالرحمن العزاوى (بغداد ١٩٨٣) .
١٥ـ مقدمة في التصوف وحقيقته للامام ابي عبدالرحمن السلمي البغدادي تحقيق الاستاذ الدكتور حسين أمين (بغداد ١٩٨٤) .
١٦ـ فهارس مجلة المؤرخ العربي للدكتور محمد جاسم حمادى المشهداني (بغداد ١٩٨٤) .

ثانيا : الكتب التى تحت الطبع

١ ـ كتاب مخطوطة المفاخر في اخبار العرب الاواخر ، تحقيق الدكتورة رمزية الاطرقجي .
٢ ـ كتاب المستنصرية في التأريخ ، لنخبة من المؤرخين والباحثين .
٣ ـ كتاب ملجأ الاضطراب ، لابن الهائم ، تحقيق السيدة نجلاء قاسم عباس وأخرون .
٤ ـ كتاب تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني ، للدكتور خالد جاسم الجنابي .
٥ ـ كتاب النظام الاساسي المعدل لاتحاد المؤرخين العرب .
٦ ـ كتاب دليل المؤرخين العرب .
٧ ـ كتاب دليل رسائل الماجستير والدكتوراه في التأريخ .
٨ ـ كتاب دليل المراكز التاريخية الدولية (باللغة الانكليزية) .
٩ ـ كتاب دليل اتحاد المؤرخين العرب في الصحافة العراقية والعربية والعالمية .

ثالثا : المجلـــــة

قام الاتحاد باصدار مجلة تاريخية علمية وهي (مجلة المؤرخ العربي) تحتوى على النتاجات العلمية الجيدة للمؤرخين والباحثين العرب .

ان الاتحاد يعتزم تطوير مجلة المؤرخ العربي وجعلها أكثر ملاءمة مع تطور الدراسات والمفاهيم العلمية ، وهي تصدر بانتظام اعتبارا من سنة ١٩٧٥ تاريخ صدور العدد الأول وحتى الآن .

ج ـ نشاطات الاتحاد في مجال الندوات والمؤتمرات

أولا : المؤتمرات والندوات التي نظمها الاتحاد

أ ـ المؤتمرات التي تم عقدها خلال العام الدراسي الحالي :

١ـ ندوة تأصيل المقام العراقي تاريخيا ـ بغداد	١ ـ ٩/١٠/١٩٨٤
٢ ـ الشهيد في التاريخ العربي الاسلامي ـ بغداد	١/١٢/١٩٨٤
٣ ـ المخطوطات والتراث	٢٢/١٢/١٩٨٤
٤ ـ مكانة الاسير في التاريخ العربي الاسلامي	٨/١/١٩٨٥
٥ ـ الدول الكبرى والقضية الفلسطينية	١٨/٢/١٩٨٥
٦ ـ المستنصرية مدرسة وجامعة (بالاشتراك مع الجامعة المستنصرية)	٤/٥/١٩٨٥
٧ ـ حركة مايس ١٩٤١	٢/٥/١٩٨٥
٨ ـ تطور الفكر العربي القومي (اتحاد المؤرخين العرب ، بالاشتراك مع مركز دراسات الوحدة العربية، والمجمع العلمي العراقي، ومركز البحوث والدراسات العربية)	٨ ـ ١٠/٥/١٩٨٥
٩ ـ الندوة العلمية الاولى لمدراء تحرير المجلات الانسانية	٢٧/٦/١٩٨٥

ب ـ المؤتمرات والندوات التي عقدها الاتحاد حتى نهاية عام ١٩٨٥

١ ـ البطل في التاريخ بالاشتراك مع وزارة الثقافة والاعلام	١٠ (أو) ١١/١٩٨٥
٢ ـ الاسطورة بين الواقع والخيال في حضارة العراق القديم	شهر تشرين / ١٩٨٥
٣ ـ الحضارة العربية الاسلامية	١٩٨٥
٤ ـ الاسلام والقومية	١٩٨٥
٥ ـ المستشرقون والتاريخ العربي	١٩٨٥
٦ ـ التحدي الشعوبي للأمة العربية (بالاشتراك مع نقابة المعلمين)	١٩٨٥
٧ ـ جوانب من تأريخ ايران الحديث والمعاصر	١٩٨٥
٨ ـ الشواهد التاريخية في احاديث . السيد الرئيس القائد صدام حسين حفظه الله	١٩٨٥

ثانيا : المؤتمرات العربية والعالمية التي شارك بها الاتحاد

اسم المؤتمر او الندوة	مكان الانعقاد	الجهة المنظمة	التاريخ
١ . مؤتمر الثروة النفطية واثرها على السياسة العربية المعاصرة	ولاية نيوجيرسي الامريكية	جامعة روجـر	آب/ ١٩٨٤
٢ . ندوة الحوار العربي الاوربي	ميلانو، كادينانبا ايطاليا	المعهد الدولي العالمي التابع لمؤسسة كونراداديناور	٢٥/١١ـ١/١٢/١٩٨٤
٣ . الاجتماع الثالث للتنسيق بين الأمانة العامة/الجامعة العربية/الادارة العامة لشئون الاعلام والمنظمات والاتحادات العربية	تونس مقر جامعة الدول العربية	جامعة الدول العربية الادارة العامة لشئون الاعلام	٩ـ١٠/٢/١٩٨٥
٤ . المؤتمر الثالث للعلاقات العربية التركية	جامعة اليرموك	جامعة الاردن/جامعة اليرموك/جامعة مؤته	٢٠ـ٢٥/٤/١٩٨٥
٥ . ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي	سلطنة عمان	مكتب التربية لدول الخليج العربي	١٥/١٧ شعبان ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م
٦ . اجتماعات الدورة (٤٢) للجنة الدائمة للاعلام العربي	تونس/مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الادارة العامة لشئون الاعلام	٢٩ـ٣٠/٦/١٩٨٥

٧ . الدورة العادية (٢١) لمجلس وزراء الاعلام العربي	تونس/مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الامانة العامة لشئون الاعلام	٢ـ٣/٧/١٩٨٥
٨ . اجتماع الامانة العامة للخليج العربي والجزيرة	جامعة صنعاء	مركز البحوث اليمني	٥/٧/١٩٨٥
٩ . اجتماعات الدورة (٣٧) للمجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم	تونس/مقر الجامعة العربية	المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والامانة العامة للمجلس التنفيذي والمؤتمر العام	١ـ٩/٧/١٩٨٥
١٠. الدورة التدريبية العربية في طرق التدريس واستخدام التقنيات التربوية	قابس/تونس	الاتحاد العربي التقني بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم العالي والبحث العلمي التونسية	٢٨/٦ـ١٢/٧/١٩٨٥
١١. ندوة حول ثورة أكتوبر والعالم	شتوتجارت/المانيا الاتحادية	معهد البحث العلمي السوفيتي	أب/١٩٨٥
١٢. الاجتماع السادس عشر لمؤتمر العلوم التاريخية الدولي	شتوتجارت/المانيا الاتحادية	المنظمة العالمية للعلوم التاريخية	٢٥/٨ـ١/٩/١٩٨٥
١٣. الحلقة الدراسية في ادارة وتطوير معاهد التعليم التقني العربية/بغداد	بغداد	الاتحاد العربي للتعليم التقني/ الامانة العامة	٢٥/٢٩/١٠/١٩٨٥
١٤. افريقيا المحررة (بمناسبة مرور مائة عام على مؤتمر برلين حول تقسيم أفريقيا (١٨٨٤)	جمهورية اثيوبيا	وزارات الاعلام الافريقية	٧/١١/١٩٨٥
١٥. ندوة العراق في الثورة (المنظور التاريخي)	جامعة الموصل ـ كلية الاداب		١٤ـ١٦/١١/١٩٨٥
١٦. ندوة الموانىء في الخليج العربي	بغداد	مركز علوم البحار الخليج العربي/جامعة البصرة	١٤ـ١٦/كانون ١٩٨٥
١٧. ندوة الوحدة العربية تجاربها وتوقعاتها	جامعة صنعاء	مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع جامعة صنعاء	١٢ـ١٧/٢/١٩٨٦
١٨. المؤتمر السنوي لجمعية دراسات الشرق الاوسط	مدينة أورليانز/ الولايات المتحدة الامريكية		١٩٨٦
١٩. المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز آل سعود	الرياض/جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية		١٩٨٦
٢٠. الندوة العلمية الاولى لدراسة مصادر تاريخ البصرة			١٩٨٦
٢١ . ندوة اليمن عبر التاريخ	جامعة عدن عـدن		١٩٨٦
٢٢ . ندوة افاق واستراتيجية السياسة العربية	بغداد	الجمعية العربية للعلوم السياسة في بغداد	١٩٨٦
٢٣ . اجتماع الدورة التاسعة للامانة العامة لمراكز الخليج والجزيرة العربية	بغداد		١٩٨٦
			١٩٨٦

The Arab Historians
Contents of Volume — 29

Modern and Contemporary History

Arab and Islamic History

Ancient History and Archaeology

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS

Office of the General Secretary
Iraq - Baghdad - P.O. Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS



Office of the General Secretary
Iraq - Baghdad - P.O. Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad